شؤون فلسطينية

١٦

كانون الاول (ديسمبر) ٢

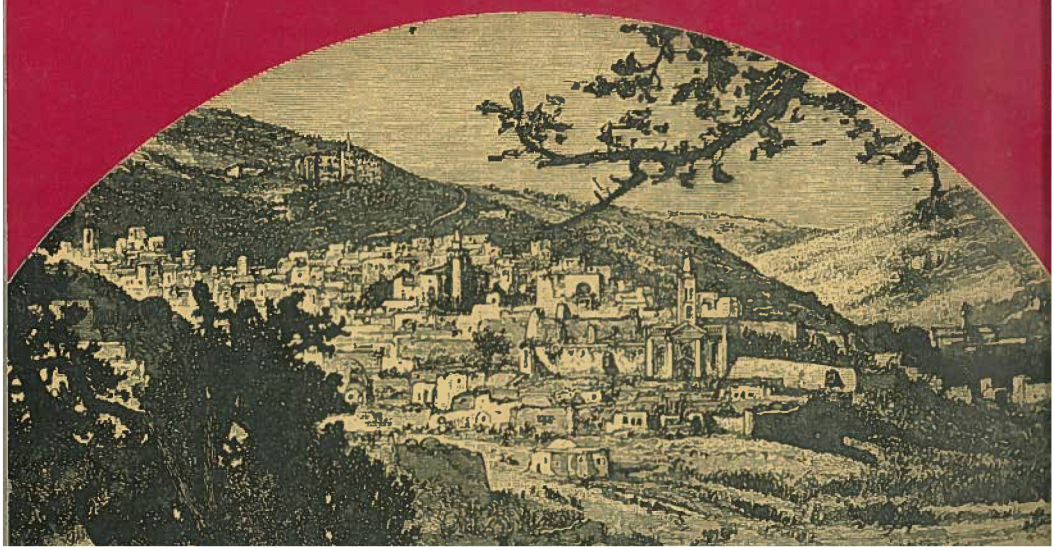

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٦ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

هيئة التحرير : المقدم الهيثم الايوبي ، بلال الحسن ، د. سعيد حمود ، احمد خليفة ، الحكم دروزة ، محمود درويش ، د. يوسف شبل ، د. نبيل شعث ، منير شفيق ، د. صادق العظم ، ناجي علوش ، حبيب قهوجي ، د. محمد المجذوب ، عبد الحفيظ محارب ، د. حنا ميخائيل ، هاني الهندي .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوسترالية. (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صورتا الغلاف : بيت لحم والناصرة ، في القرن التاسع عشر

المحتويـــات

صفحة ٥ **جان جونيه : أحاديث عن الثورة الفلسطينية .**

٢٨ **الخروج من ساحل المتوسط** ، محمود درويش .

٣٤ **النفط العربي في استراتيجية المجابهة العربية الاسرائيلية** ، الدكتور يوسف عبدالله صايغ .

٧٤ **القوى السياسية الفرنسية والمسالة الفلسطينية** ، داود تلحمي .

٨٨ مـــن الآثار غير المنشـــورة للشهيد غسان كنفاني : قصتان (١) **الاعمى والاطرش** (٢) **العاشق** .

١٢٨ **دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني** ، نمر سرحان .

١٣٧ **المتمردون على الخدمة العسكرية في اسرائيل** ، عبد الحفيظ محارب .

١٥٠ **ملاحظات حول تجربة الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين**، شحادة موسى.

١٦٣ **مستقبل الثورة الفلسطينية ودور الشباب العربي فيها .**

١٧٠ **لقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى** ، اعداد بلال الحسن .

١٨٩ **مراجعات** : ماركس والمسالة اليهودية ، ماجد نعمه . لا سلام حول اسرائيل ، الدكتور عدنان العمد . تربية ساطع الحصري القومية ، ف. المنصور . البيت الابيض والصهيونية واسرائيل ، مصطفى كركوتي . تهليلة الموت والشهادة ، الياس خوري .

٢٠٥ **رسائل اعلامية** : الصحف الغربية واحداث ايلول ، م. ش. المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين ، سفيان الرمحي . النشاط الصهيوني في اليابان ، مراسلنا في طوكيو . أصداء ميونيخ في الساحة الفلسطينية في كندا ، مراسلنا في كندا .

٢٢٣ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، ب.ح. (٢) القضية الفلسطينية عربيا ، ناجي علوش . (٣) القضية الفلسطينية دوليا ، د.ت. (٤) المناطق المحتلة ، ع.م. جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٣/١٠ — ١٢/١١/ ١٩٧٢ ، غازي خورشيد .

٢٤٢ **اسرائيليات** : م. د.

٢٤٨ **تقرير خاص حول مؤتمر القنمية الاردني** ، ا. م.

شؤون فلســـطينية

ابراهيم العابد

رغم الاصابات الجسيمة التي سببها الانفجار الغادر ، ظلت كلمات رئيس التحرير ، المدير العام لمركز الابحاث الفلسطينية ، تتصدر شؤون فلسطينية ، وواصل الدكتور صايغ اشرافه الكامل ، حتى في اثناء وجوده في المستشفى ، على مواد الاعداد السابقة (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥) حتى هذا العـــدد الحالي . لكن اضطراره الـــى السفر الى الخارج لمواصلة العلاج منعه ، ولهذا العدد فقط ، من كتابة الافتتاحية .

يتضمن هذا العدد حديثا مطولا مع المفكر الفرنسي التقدمي البارز جان جونيه الذي حضر الى لبنان خصيصا لهذا الغرض . ورغم انه امضى في لبنان ما يقارب الشهر ، الا انه رفض اجراء اي حديث مع اية صحيفة قبل أن ينشر حديثـــه في شؤون فلسطينية . في العدد أيضا دراسة اقتصادية ـــ سياسية معمقة عن النفط العربي ودوره في المجابهة العربية ـــ الاسرائيلية طلب منا تقديمها الى اجتماع وزراء الخارجية والدفاع العرب الذي عقد في الكويت يوم ١٥ تشرين الثاني الماضي بالنظر الى اهميتها وعلاقتها المباشرة بأعمال الاجتماع . مقال آخر في هذا العدد يعالج ظاهرة جديدة مهمة بدأت تبرز ، لكن ببطء ، في اسرائيل تتمثل في رفض بعض الشباب اليهود الانخراط في الجيش الاسرائيلي. أما ندوة العدد فقد خصصناها لاستعراض جوانب غير معروفة مـــن تاريخ الحركة النقابية الفلسطينية قبل ١٩٤٨ واشترك فيها خمسة من قادة هذه الحركة يتحدثون لاول مرة في ندوة واحدة .

ويتضمن العدد جزءا أدبيا رئيسيا ففيه قصيدة جديدة أخرى لزميلنـــا الشاعر محمود درويش مستوحاة من الرسالة التي كتبتها ايريـــن بيسون في العدد الماضي عن قبور الشهداء في غزة ، وفيه قصتان غير مكتملتين لشهيدنا غسان كنفاني كان قد بدأ بكتابتهما لشؤون فلسطينية . وكان غسان قد بدأ بكتابة « الاعمى والاطرش » حين سجن ويوم خرج من السجن تمنينا له أن يسجن مرة أخرى حتى ينهيها ، ويا ليته !

الى جانب هذه المقالات هناك دراسة عن القوى السياسية الفرنسية وموقف كل منها من القضية الفلسطينية ننشرها في الوقت الذي يزداد فيه دور فرنسا خاصة وأوروبا بشكل عام اهمية في الصراع العربي ـــ الاسرائيلي ، ودراسة عن توفيق كنعان الطبيب الفلسطيني الذي كان له وحده الفضل الاول في تسجيل جوانب مهمة ومفيدة جدا من التراث الشعبي الفلسطيني .

لا بد لنا أخيرا من كلمة عن رواج شؤون فلسطينية . حين صدر العدد الثالث طبع منه نسخ زادت بنسبة الثلثين عن العدد الاول ، وحين صدر العدد السابع تضاعف عدد النسخ مرتين ونصف المرة عن العدد الاول . وبصدور هذا العدد ، تضاعف عدد النسخ ثلاث مرات . بالاضافة الى ذلك ، فقد أعدنا طباعة الاعداد الستة الاولى بسبب الطلبات المتزايدة لاقتناء مجموعات كاملة .

جان جونيه : احاديث عن الثورة الفلسطينية

هذا المقال كتبه جان جونيه لشؤون فلسطينية . وهو تسجيل لما رآه وما استنتجه بعد اقامة دامت عدة أشهر بين الفدائيين والشعب في الاردن مباشرة بعد معارك ايلول ١٩٧٠ . وهو رد على أسئلة طرحناها عليه وناقشها مع شبان فلسطينيين في باريس والشرق . أجاب جونيه بصراحته المعهودة في كتاباته الادبية . اجاب ببساطة وعمق معا . بعض ملاحظاته قد يثير الدهشة ، والبعض منها قابل للنقاش . الا أن المقال من أوله الى آخره مطبوع باخلاص عميق وحب شديد للثورة والشعب . جونيه تكلم عن تأثير أجواء الثورة الفلسطينية على رجالها ونسائها وعليه هو أيضا ، وعن حاجات الشعب الفلسطيني ومطامحه وعن العقبات التي واجهها، عن المشكلة اليهودية وعن الفن والادب في الثورة . كل ذلك بلغة فرنسية جميلة يصعب ان تنقل الترجمة العربية كل مزاياها .

مرة أخرى نطرح أمام القارىء نظرة صديق من الخارج الى واقع عاشه ويعيشه شعبنا كل يوم ، حتى اصبحت بعض جوانبه جزءا من الطبيعة لا تلفت الانتباه . وهنا تكمن نقطة ضعف وقوة نظرة كهذه : ففي الوقت الذي لا يتمكن فيه الصديق مهما طالت اقامته وازداد تعلقه من استيعاب معطيات الوضع بشكل كامل ، الا انه احيانا اقدر من بعض المقيمين على لمس بعض القضايا التي عودتنا السنوات على اغفالها (واشير بصورة خاصة هنا الى ملاحظاته حول حياة المخيمات) . جونيه نظر بعينين مجردتين الا من الصداقة والصدق الى واقع يومي لشعبنا ومناضلينا : وبين الرؤى المتعالية السردية من جهة و« المفاهيمية » المجردة من جهة اخرى ، تاتي هذه الرؤيا بنفس جديد .

يتعرض المقال لاكثر من هذا ، ويطرق أكثر من موضوع وتتشابك المواضيع بدون تسلسل ، على نمط بعض اللوحات الحديثة . قد يجد القارىء في ذلك اضعافا للسرد ، الا ان المؤلف يرى غير ذلك ، وحافظنا بالتالي على النفس الذي وضعه ، ولم نقطعه الا بعناوين جزئية هي بالطبع ليست الا مؤشرات تسهل القراءة ولا تشكل تبويبا متناسقا .

بعض القضايا التي يطرحها الكاتب تحتاج الى توضيح ونقاش . اخص منها بالذكر : قضية العروبة والعمليات الخارجية ومشاكل الفن والادب في الثورة . بالنسبة للقضية الاولى نود ان نترك لجونيه مسؤولية ما كتبه وبالشكل الذي كتبه ، الا انه يهمنا ان نؤكد للقارىء وجهة نظرنا : نحن اعداء الفكر الشوفيني والتعلق باحلام ماضية تبرر عجزنا وتقاعسنا اليوم بحجة ما قمنا به في الامس الغابر من اسهام في « الحضارة الانسانية » ، الا اننا نعتز بماضينا ونعتبر ان فيه الكثير من الدروس التي تفيدنا في مسيرتنا الثورية وفي تعزيزها . ونحن ضد الفكر القومي الطوباوي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار خاصية كل قطر وبالتالي كل نضال قطري في معركة التحرير الكبرى . الا اننا كذلك ضد الفكر الاقليمي الذي ينظر الى تحرير فلسطين بمعزل عن الثورة العربية ضد الامبريالية التي لا تشكل اسرائيل الا اقوى حلقاتها في المنطقة . نحن ضد « وحدة

ادوات القمع » ومع « وحدة الثورات الشعبية » . والوحدة الاخيرة ليست فقط مطلبا جماهيريا وانما هي حاجة تاريخية لمواجهة التحدي الامبريالي سياسيا واقتصاديا وعسكريا . ونحن اخيرا ، نمضي من واقعنا المتميز ماضيا وحاضرا لبناء مستقبل على ارض وفي فضاء القرن العشرين . فالتعريب ثوري اذا عنى شمول التحدي القطري والتقاءه ، وهو رجعي اذا قصد به تغطية الهروب امام المسؤوليات التاريخية . وباختصار فالمعنيان في قاموسين طبقيين مختلفين . اما موضوعا العمليات الخارجية والفن والادب في الثورة فسيكون لنا رجوع آخر لهما .

بقي ان نعرف بكلمات قليلة كاتب المقال . جان جونيه من مواليد ١٩١٠ . كتب اول مؤلفاته القصصية والمسرحية والشعرية في السجن في مطلع الاربعينات ، فانهارت على حد تعبيره جدرانه الاربعة وامتد افقه ليشمل العالم كله : لان كتاباته ترجمت الى اكثر من عشرين لغة . وكتب سارتر فيه كتابا بعنوان « القديس جونيه » ساعد على ادخاله بشكل مفاجىء الى جو الادب العالمي .

وحينما طلبت من جونيه عنوانا لمقاله اقترح « شخص يكتب عن الثورة الفلسطينية » مضافا اليه ان « آراء الكاتب قد تكون صحيحة ام لا ، وهي قابلة للنقاش ، وعلى القارىء ان يقرر ان كانت تستحقه والا فعليه ان يهملها » . فجونيه عرّف هنا نفسه .

داود تلحمي

الحديث التالي جرى في باريس ليلة ٢٧ أيلول ١٩٧٢ ، في حي شعبي . في الغرفة سبعة شبان فلسطينيين (بين ٢٠ و٣٠ عاما) ، فتاة فرنسية وانا . وكان وائل يدير الحوار ويقوم أحيانا بالترجمة .

والمواضيع الرئيسية التي تطرقنا لها ، أحيانا في شيء من التعب والفوضى ، كانت تقريبا التالية : ميونيخ ، أيلول الاسود ، الاسلام ، الصهيونية واليهود في فرنسا ، فشل المقاومة الفلسطينية في الاردن ، صعوبات الزواج الرسمي، واقع الانفصام بين مجتمعين (الفلسطيني والاردني) ، الحرص على وجود علاقات انسانية في عالم يتجه بسرعة نحو فردية مطلقة ، المقارنة بين الثورة الفلسطينية وثورات أخرى في العالم ، ذات ميزات وفي مراحل مختلفة ...

ولا بد من الاشارة فورا الى انني وجدت في هذه الغرفة الباريسية ، حرية التعبير نفسها التي وجدتها في الاردن ، في قواعد فتح . والتحفظات القليلة التي لمستها — والتي لم تكن موجودة في القواعد — تتعلق بموضوع الدين وثم غياب العلاقات الزوجية ، الذي يعتبر تقريبا كارثة من قبل بعض الرجال هنا (« الزواج وحياة الزوجين في مجتمعنا ، يسمحان بالتخلص من الوحدة ») . ولمحت البلبلة التي يعيشها هؤلاء الشبان — الذين ما زالوا في غالبيتهم يتكلمون الفرنسية بصعوبة — في نوع من المنفى ، ازدادت مرارتهم فيه بعد خسارة قواعد الفدائيين والميليشيا في الاردن. ولكنني كنت المح من خلال هذه المعارضة، مصدر بلبلة آخر : تخوف الذكر من فقدان امتيازاته . وباختصار ، اذا تحررت النساء ، فسيخسر الرجال احدى المظاهر الاولية للسلطة . وقد وجدت عند عصام (احد الذين يجيدون الفرنسية اجادة اكثر) اختيارا للمفردات الصعبة، التي تبدو له طبيعية ، ولكنها قد تكون كذلك تعبيرا عن حب السيطرة : تعابيره الحذقة قاسية أحيانا ، وقد ترهب بعض الفدائيين المبهورين بعلم بهذه السعة . مبهورين اذا راضخين .

وحينما بدأت بالتكلم عن : الثورة ، المقاومة الفلسطينية ، أدركت ان هذه التعابير لا تعني شيئا بالنسبة لي : بعد عدة أشهر امضيتها في قواعد الاردن ، ما اذكره هو مجموعة وجوه . كلها تحمل أسماء ، حتى لو كانت وهمية . كل رجل او امرأة كان يتفاعل بشكل

مختلف عن الآخر . لا بد أن أضع جانبا أو أنسى كل هذه الوجوه ، حتى ألمس ما هو مشترك بينها ، وما يحركها . ولن أنجح دائما .

وما يجب الا نغفله هو أنه حينما كانت الثورة الفلسطينية ، في الخارج ، تلمع بوهج عظيم ، في هذا الوقت نفسه كان السلاح ينتزع من أيدي الفدائيين وكانت قواعدهم تتقلص أكثر وأكثر . ما زلت أذكر ليلة قضيتها في مغارة قرب نهر الاردن ، حينما كان احد المسؤولين يحاول اقناع عشرين فدائيا او اكثر بالقاء السلاح — وكانت حجته بأن الجيش الاردني من طرفه سيحد من هجومه . وكان الفدائيون ناقمين ، وغير مقتنعين بالاسلوب . وفي النهاية ، اقلعوا عن المعارضة ! وكانت هذه بداية انهيار الثورة في الاردن ، في الوقت الذي كانت فيه الشبيبة في العالم اجمع ، تمجد المقاومة .

جذور الشخصية الفلسطينية

خصوصية الثورة الفلسطينية تعود الى جذورها . كانت فلسطين مقاطعة عثمانية ذات طابع فلاحي أساسا ، تعيش في شيء من الحرية . وكان الموظفون الاتراك يأتون بين حين وآخر لجني نوع من الضرائب . واليهود فيها ، كما في سائر العالم العربي ، كانوا قلائل . وحينما قررت الصهيونية ، في اول تعبيراتها ، احتلال البلد ، لم ير السكان في البدء حرجا . كانوا يعلمون ان العديد من اليهود هربوا من المذابح الروسية والبولونية . ولهذا لم يسيئوا معاملتهم . لكن الاحتلال اليهودي استمر وتصاعد حتى أصبح جارفا . وبدأ الفلسطينيون بالتململ . ومع انهم كانوا جزءا من كل متجانس يحمل اسم « الامة العربية » الا ان العرب انفسهم بدأوا بالتكلم عن **الفلسطينيين** وعن **فلسطين** وعما يحدث فيها . وفي مواجهتهم لليهود ورواد الاحتلال — الذين بدوا فقراء الا أن اموال الصندوق القومي كانت وراءهم — بدأ الفلسطينيون بالشعور بخصوصيتهم : بدأوا يشعرون بخصوصية لغتهم ، دينهم ، عاداتهم وأسمائهم . كان هذا بدء وعي جماعي ، ولكنه لم يكن بعدا قوميا(١) . وبعملية شراء خبيثة للاراضي ، ومنع بيعها فيما بعد لغير اليهود ، أصبح اليهود ملاكا لمساحات واسعة . وتطور الوعي الفلسطيني ، ومـا زال يتطور الآن ، نحو وعي قومي أكثر وأكثر نضوجا ، في وجه عملية مقابلة عند اليهود . وفي الوقت الذي كان عدد اليهود يتزايد وأملاكهم تتسع ، لم يبلغ الفلسطينيون درجة الوعي بشخصية قومية — مستقلة في اطار العالم العربي — الا حينما افتقد هـذا الشعب أرضه . وكان اليهود قد اشتـروا الارض أو طردوا السكان باستعمـال الاساليب الارهابية . ويمكننا القول اذا ، ان الوعي القومي الفلسطيني نضج في الوقت الذي انتزعت فيه الارض كالبساط من تحت اقدامهم . والهزات الثلاث الاعنف لانتزاع البساط كانت في ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ و١٩٦٧ . والشعب الفلسطيني أصبح في النهايـة حقيقة . أصبح كيانا ولكن بدون أرض .

ما سأطلق عليه فيما يلي اسم « الاخلاق اليهودية — المسيحية » ، وهي مفهوم لا يعبر عنه لفظ « الاخلاق البورجوازية » ، ولكن ربما ناسبه لفظ « النزعة الانسانية المسيحية» humanisme chrétien ، يمتد الآن ليشمل العالم أجمع . ولا أستثني الصين بعد دخولها الامم المتحدة واليونسكو ومؤسسات أخرى أوجدت في ظل هذه النزعة . وحتى نواجه هذه النزعة ، التي تشمل تقريبا احترام العائلة والملكية والشوفينية والنظام والقانون (بشرطته وعدليته) والجيش والمرتبية hiérarchie ، والفن الاكاديمي وقواعد اللغة الخ ، نحتاج لاحد أولئك المخربين الكبار ، الذين كان نيتشه أحد اسلافهم . هذه النزعة تعتمد ، فيما تعتمد عليه ، على الملكية العقارية . نعلم جيدا ان التداول (البنوك ،

---

(١) هذه الكلمة هي ترجمة national ولكن الترجمة الدقيقة تشير الى الانتماء الى وحدة — شعب — ذي صفات مميزة .

القروض الخ) أصبحت ادوات سلطة اقوى من الاكتناز ، ولكن القيم العقارية ما زالت مهمة . وهذا الارتباط بالارض، ينعكس في الامم المتحدة ، حيث تعتبر الامة امة — حسب تعريف ستالين — اذا شكلت وحدة اقليمية . التمسك بالارض ليس جديدا . ولكن شعوبا بلا أرض جابت التاريخ : المغول ، الهان ، الفاندال ، الفرنك ، والغجر وعدة قبائل افريقية وعربية . ويسميها التاريخ احيانا شعوبا . ومن غير المنطقي ان تعترف الامم المتحدة ، وهي تجمع لشعوب ساكنة ، بشعب بلا أرض ، كما ان رجلا بلا دار يعتبر متسكعا ويتعرض للسجن . والفلسطينيون مهما فعلوا معرضون لشتائم الآخرين وحتى لاحتقارهم . كل جهد سيبذل ، بلا شك ، لدعم اسرائيل في رفضها بأن تتحول فلسطين الى أرض . واسرائيل ذات خبرة ، فلها ماض من ألفي سنة من التشرد .

وهناك حاجة لدراسة للموضوع — وربما كان قد قام بهما فوستيل دو كولانج Fustel de Coulange في كتابه « المدينة القديمة » حول العلاقات بين امتلاك الارض والحصول على الاعتراف « بمحترمية » Réspectabilité اجتماعية .

واذا كان ما أقوله صحيحا ، فان اسرائيل التي كانت سبب تشردكم في انحاء العالم العربي ستعمل كل ما في وسعها كي لا تحصلوا على قطعة ارض — والا استمالتم امامكم لمواجهة الوضع التالي هو العمل ، بالعنف أو بدونه ، على الاراضي التي تمرون عليها . حتى الكنيسة الكاثوليكية، وهي « سلطة روحية » أراديت لها أرضا : الفاتيكان.

ربما كان من غير المستحيل ان نرى ، في تعلق البعض بالشخصية الفلسطينية ، التأثير الذي تتركه احيانا حركات التمرد الكبيرة . وفي هذه الحال ، لن يأتي التضامن مع هذه الشخصية الا من العناصر الهامشية : الطلاب ، النساء ، اليسار المتطرف ، الفنانين ، والصين نفسها في معزل (حتى الامس) . وتأييد الاتحاد السوفياتي ذو طابع آخر . لا بد من قراءة واستعادة كتاب فوستيل دو كولانج .

مهربان : الخيالي والعروبة

اين كان اذا هذا الشعب ؟ الارض التي تنساب تحت اقدامه ، مثل البساط ، لم تمنع هذا الشعب من تملك الوعي القومي والمحافظة عليه ، ولكن اين ؟ ليس الا على ارضيتين كلاهما غير مناسب : الخيالي والعروبة .

لا بد من رؤية طريقة تشكل هذا الكوكب الجديد : على أرض غير واضحة الحدود ، رمل متناثر من العائلات الملتصقة بالارض لانها تعيش عليها ، ولكنها حرة في تنقلها سواء وحدها أم في تواغل ، تجوب هكذا العالم الذي ينطق بالعربية من اقصاه الى ادناه — وحتى ابعد ، في العالم الذي يتلو القرآن . هذه العائلات ، أو الافراد ، تعود دائما الى منزلها في الخليل ، في حيفا أو القدس . ارضها هناك ، راسخة وغنية . ولكن شيئا فشيئا ، تذوب الارض ، تذوب حتى تختفي تحت أقدامها ، ولكن الشخصية الفلسطينية اتخذت وزنا اكبر فأكبر ، واذا اردنا ثقلا حقيقيا . ولكن ، في هذه الحقبة بالذات ، بعد سلبها من أرضها ، القت بثقلها المتزايد في اتجاه الخيالي والعروبة .

الخيالي ، بالنسبة لفلسطين ، ذو أثر حسن الى حد ما . اضطر الشعب الفلسطيني في افتقاده للارض الذي ربما أضعف شعوره القومي ، أن يكتشف في الخيالي قواعد يحافظ عليها بحرص حتى لا يتبخر في الحلم او في المثاليات . وفي الوقت نفسه ، وبعد المجازر الاردنية ، والتهديدات العلنية الاسرائيلية ، والتهديدات المبطنة الاخرى — التي لا بد من الاشارة اليها — من الدول العربية الاخرى ، استمرت فلسطين المحرومة من الارض في التكون كشعب مستقل .

في حديثي عن مخيمات اللاجئين ، يصعب عليّ ان اتخلص من فكرة تراودني : في عصر

أصبح بالامكان فيه الحصول على مواد رخيصة ورائعة للعين ، ويستطيع فيه المهندسون الشبان الحاذقون ان يبنوا بسرعة ممرات معبدة وقنوات من البلاستيك، كان من السهل ان يعيش اللاجئون الفلسطينيون في لبنان والاردن في نوع من القرى اللطيفة — التي يعيش فيها الانسان بسرور . لكن الحكومات العربية الغنية والاونروا أسكنت اللاجئين في مآوٍ معدنية ، من الحديد أو الالمنيوم ، حيث البرد صقيعي في الشتاء والحر خانق في الصيف . كل شيء جرى وكأن الهدف منه تحقير الفلسطينيين ، واشعارهم أكثر بواقعهم كلاجئين . اذا كان بين المسؤولين السياسيين عن المخيمات من يعتقد أن ذلك يساعد على ابقاء الفلسطينيين في حالة ترقب بانتظار عودة سريعة لفلسطين ، فهذا الحساب خاطىء . واذا أرادوا أن يجعلوا منهم ثوريين بشكل أسرع ، فهذا الحساب خاطىء ايضا . لان العيش في المنفى وحده كان يكفي لان يجعل الفلسطيني ثوريا . والتعليم ، بجميع أشكاله ، يصبح أسهل وأسهل كذلك اكتشاف طرق الانعتاق . بوعي أو بدون وعي ، عملت البورجوازيات المختلفة على مضاعفة هذا البؤس ، الذي يتجاوز حدود الاختلاف الطبقي .

وهزيل للاجئين . اكرر ما قلته من أن مواد البناء هي اليوم أسهل ثمنا من أي شيء أكثر من ملجأ مؤقت ولماذا علب التنك ؟ وعين الماء كل ٢٠٠ او ٣٠٠ متر ؟ ولا صيدلية وطبيب واحد للمخيم ؟ يعيش المسؤولون اليوم في مسكن معقول ، فلم لا يعيش اللاجئون كذلك ؟

ان استقلالية الشعب الفلسطيني ومحافظته على شخصيته المميزة يعودان أساسا الى روحه الثورية . لان ما حدث شيء آخر : كلما سحبت الارض من تحت قدميه ، وكلما التجأ الشعب الفلسطيني الى الخيالي ، اكتشف حتى يستمر في البقاء وحتى يواصل مسيرته ، الضرورة الثورية . وهذا يحدث أكثر فأكثر . والعملية الكاملة لم تتم بعد ، ولكن الشعب الفلسطيني تبناها . واذا حافظ على يقظة متقدة ، فسيعمق وعيه القومي ، وهذا الوعي سيحمي الوعي الثوري ، كطريق وحيد نحو الاصالة الفلسطينية .

ومن جهة أخرى ، العروبة . ان خطر العروبة اكبر من خطر الخيالي . ذلك ان الخيالي يحتاج دائما الى امتلاء ولكن العروبة شيء ممتلىء . وهو امتلاء أبوي وأمومي في الوقت نفسه . أقصد انه ايعاز قهري (مع كل ما يرتبط بمفهوم الابـوة : احترام التقاليد ، رجولية متفاقمة ، واصرار على الانتماء الى المجموعة العربية واليها وحدها) . وهو أمومي بمعنى انه التجاء الى كنف هذه المجموعة « للهروب » من عالم الخارج — أي العالم غير العربي — واستعادة ما سماه وائل وما كان يبحث عنه : الحرارة الانسانية .

بدت لي الجهود التدريسية في مخيم البقعة ومخيمات أخرى جديرة بالاهتمام . وكان الاطفال ، أولادا وبنات يبدون تعطشا شديدا للتعلم ، وربما عاد ذلك لنوعية المعلمين ، أو رغبتهم الطبيعية في المعرفة ، أو تطلعهم الى التخلص من سواد المخيمات . (ففي البقعة ، لم تكن هناك مثلا صيدلية واحدة تحتوي على أدوية بدائية والوضع نفسه كان في اربد) . ومن الصعب علي الا اذكر ملاحظات صديق لي ، وهو معلم انكليزي : يحاول الطفل وهو يدون فروضه أن يغطي وراء كوعه الايسر دفتره ، ليمنع جاره من رؤية ما يكتب ، وكذلك ليضع منذ عمر خمس او ست السنوات حدودا لملكيته الخاصة . وكان الصديق يضيف أن بالامكان تفادي هذا التصرف ، بالسماح للطفل الذي يصل الى حل أن يوضح على طريقته هذا الحل الى جاره الصغير .

واذا كنت تطرقت الى هذا الاسلوب بشكل عرضي ، فلأنه يوفر شيئا من الانفتاح والاخوة منذ الطفولة ، ولا أنكر اهمية التنافس ، ومواجهة التحدي وروح الهجوم : ولكني أؤكد على ضرورة التعاون المتبادل منذ السنين الاولى .

لماذا اقف الى جانب الفلسطينيين ؟

واذا وجه لي سؤال بسيط : لماذا أقف الى جانب الثورة الفلسطينية ؟ سأذكر اولا ان ممثل منظمة التحرير في فرنسا دعاني لزيارة مخيمات الفلسطينيين وقواعدهم في الاردن.

وما حدث لي في هذه القواعد هو التالـــي : في الوقت الذي استمرت فيـــه الثـــورة الفلسطينية مجردة وغريبة عني نوعا ما ، أدركت انها لم تغير الفلسطينيين فقط وانما غيرتني أنا أيضا . أوضح : في أوروبا ، بفعل كسل آلي ، كنت أنظر الى الوظيفة وليس الى الانسان . كان خادم المطعم ضروريا لوضع الصحن ، والكأس واملاء الكأس : واذا وقع مريضا ، فالصحن والكأس سيكونان كذلك أمامي . سيكون هناك خادم مطعم آخر يحل محل المريض . وكان هذا يحدث على كل المستويات وفي كل الوظائف : كان كل رجل قابلا للاستبدال في اطار وظيفته ، وباستثناء حالات خاصة ، لم نكن نلمس الا الوظيفة . في القواعد الفلسطينية ، كان يحدث العكس : لقد تغيرت بمعنى ان علاقاتي تغيرت ، لان كل العلاقات كانت مختلفة . كان كل رجل غير قابل للاستبدال كرجل ، ولم نكن نلمس الا الرجل دون الوظيفة ، والوظيفة [illegible] ، وانما قتالا

وكل ثورة لا تعمد الى تغيير بتغيير العلاقات بين الناس ، لا تهمني ، وأكثر من هذا ، أشك ان ثورة لا تؤثر علي لتحولني هي بالفعل ثورة . لقد اقامت الثورة الفلسطينية نوعا جديدا من العلاقات ، غيرتني ، وبهذا المعنى فان الثورة الفلسطينية هي ثورتي . ومن عوامل اهتمامي بالمنطقة ، خدمتي العسكرية في دمشق وقراءة « أعمدة الحكمة السبعة » ، واحساسي الغامض بأن لورانس كان دجالا حتى حينما ادعى انه يساهم في تحرير العرب . فتحريرهم من نير العثمانيين لصالح بريطانيا أو فرنسا أو اسرائيل ليس مكسبا . وبحكم وجودي هناك ، وحرية تنقلي في دمشق التي انهالت عليها قنابل غورو ، وكذلك بتأثير جاذبية شخصية سلطان الاطرش المتمرد ضد الاحتلال الفرنسي ، بقيت مهتما بشعب الشرق العربي .

في ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، وصلتني في فرنسا أصداء الامر الواقع الاسرائيلي بشكل خافت . كما أثار انفجار عبدالناصر ضاحكا حينما أمم قناة السويس حماسي . وعاد العالم العربي يقبع في شبه نعاس ، في الوقت الذي كان فيـــه شمال افريقيا يتحرر مـــن السيطرة العسكرية والادارة الفرنسيتين ، علما بأن المصالح الفرنسية — الاوروبية استمرت بشكل واسع ، وخاصة في المغرب .

وفي عام ١٩٦٨ ، أي بعد الحرب العربية الاسرائيلية ، كنت في تونس . كان ذلك في عصر « بن صلاح » الذهبي . وصلتني حينذاك بطريق الصدفة ، انبـــاء أفواج الجزائريين والمغاربة الذين كانوا يمرون من الشمال والجنوب متجهين نحـــو القاهرة للانضمام للمقاومة الفلسطينية . ففي قطار قابس — تونس ، سمعت بالامر لاول مرة ، ثم حدثني صاحب مكتبة وتونسي آخر في قفصة عن شعر فتح وأناشيدها .

وفي ١٩٧٠ ، استحوذ اختطاف الطائرات اهتمامي . فكنت في درعا في مطلع اكتوبر ١٩٧٠ .

تعريب فلسطين أم فلسطنة العالم العربي ؟

الشعب الفلسطيني موجود بلا أرض . واذا ترسخ هذا الوجود في الخيالي ، فذلك لا يشكل خطرا كبيرا . أما الحاحي على اخطار « العروبة » على مسيرة هـــذا الشعب وخاصيته ، فلا يعني ان الفلسطينيين ليسوا عربا . فهم عرب ، ولكنهم أكثر من ذلك .

العروبة خطر لانها تشكل حنينا بورجوازيا الى الماضي ، يعمل على تحويل انظار الشعب عن مصالحه الحقيقية .

واصراري على نقد التوجه العروبي ليس الا محاولة للبحث عن التحول الذي سيجعل من الانسان العربي التقليدي ، انسانا ــ **عربيا أم لا** ــ ولكنه اشتراكي . ومن الامة العربية ، التي تضيع ملامحها بين تناثر دولها المصطنعة ، أمة جديدة ــ **عربية أم لا** ــ ولكنها اشتراكية ، متحدة أم لا ، ولكنها اشتراكية . هل سيكون التحول طويلا ؟ ربما ولكنه بدأ . فقد شرع شبان وشابات لا يدينون الا بالقليل الى التقاليد **والى أوروبا** ، في نفض غبار القديم .

يقال لي أن الثوري التونسي حساس للثورة الفلسطينية أكثر منه مثلا للثورة الفيتنامية . وهذا غالبا صحيح . فهذه الثقافة المشتركة قد تكون ايجابية اذا عملت في اتجاه تضامن ثوري ، ولكنها خطيرة اذا تحولت الى عاطفية لا علاقة لها باحتياجات الثورة . ليست الخطورة في العروبة كثقافة مشتركة ، ولكنها في كون العديد من العرب يعتبرونها **جوهرا** essence . جوهرا ، يشكل لب « الكائن العربي » ، باستثناء الآخرين .

واذا كانت الثقافة عنصر تمييز فهي ليست تمييزا جذريا . أوليست النظرة السائدة للعروبة كجوهر حائلا محتملا بين الحركة الفلسطينية وازدهار ثقافة فلسطينية مميزة ؟ وحتى اذا كان التونسيون أكثر تعاطفا مع الثورة الفلسطينية منهم مع ثورات ايرلندة الشمالية أو فيتنام ، فالفلسطيني (والفدائي على أي حال) كما رأيته في قواعد الاردن ، يبدي الحماس نفسه وحب استطلاع اكبر نحو ثورات لا تجري في الفلك العربي . وربما كانت هذه الملاحظة دليلا على ان الثقافة العربية أقل شمولا مما يقال ، وان الفدائي بدأ في الانطلاق منها .

اذا كانت الثورة ، باختصار ، هي القضاء على نظام أو واقع سياسي مرفوض ، واستبداله بآخر ، يتفق أكثر مع مصالح الجماهير الشعبية ، فلا ريب ان الثورة الفلسطينية لم تحدث لانها لا تستهدف ابدال نظام قائم ، لان الوعي القومي قائم مع افتقاد الارض ، ولان من الصعب تحقيقها لصعوبة تغيير نظام الشعب الفلسطيني الذي يعيش في مخيمات يسري عليها بتفاوت نظام الدولة القائم فيها . ولكن استعمال لفظة الثورة ممكن بالمعنى التالي : ان تجذير الوعي القومي يترافق مع اتضاح وتطوير فكرة نظام **آت** ليسري فعلا على الشعب . ولكن هذا النظام الذي يتفاعل عند بعض العقول السياسية الفلسطينية ، لم يفرز بعد ، على ما أعتقد ، فكرا ثوريا منطلقا من الخيالي لينتهي في « نظام جديد » مطبق فعلا من قبل الجماهير الفلسطينية ، ولا حتى متفاعل معها بشكل يسمح للوعي الثوري ان يطلق الجماهير في استكشاف حركة تحريرها الخاصة وتنفيذها في الدول التي تؤوي المخيمات .

اذا كانت حدة الضرورة الثورية ستستمر بالدوران في حلقة مفرغة ، اي خارج اي مجال تطبيق حقيقي ، الن تتعرض الثورة من جراء ذلك لخطر المثالية ؟ واذا كانت الحال كذلك ، فما هي السبل لتفادي الخطر ؟

أعلم ان الامر لم يبلغ هذه الخطورة . ذلك لان الثورة الفلسطينية ، اذا أردنا غض الطرف عن كونها تطرح نفسها **كنظام للمستقبل** قادر على حكم الناس ، هي ايضا وقبل كل شيء ، من خلال العروبة التي انطلقت منها ، اشارة أو ، اذا شئنا ، مثال . والقول انها تنطلق من العروبة يعني بالتأكيد انها تتخطاها . وقد لاحظتم ، دون شك ، ان هذه الحركة اللولبية او الحلزونية التي تسير بسكان مقاطعة عثمانية نحو تكوين وحدة حقيقية ، دون أية ركيزة أرضية ، انما هي انعكاس للحركة اليهودية التي أدت الى الصهيونية . واعني بالانعكاس الصورة المقلوبة . فهاتان الولادتان النقيضتان تعطيان على مدى تطورهما صورتين نقيضتين : فاليهود الذين أتوا الى فلسطين وحملوا اسم « اسرائيليين » وفي جعبتهم أفكار اشتراكية مبهمة ، عادوا بسرعة الى تاريخ قديم لا

يعدو كونه اسطورة . وعوضا عن **الدولة الاشتراكيـــة** ، اقاموا دولة ثيوقراطية او بالاحرى انشأوا **ثيوقراطية بدون اله** ، بمعنى انهم حرصوا علـــى تغذية فكرة **الجوهر اليهودي** الموجودة ضمنا في شعار « الشعب المختار » .

اما الفلسطينيون الذين طردوا من ارض هم سكانها منذ أجيال ، فقد تصرفوا في كل شيء بعكس الاسرائيليين تماما ، لاضطرارهم لذلك في بادىء الامر : فكلما تقدم الاسرائيليون، غاص الفلسطينيون في العالم العربي ، وكلما كسبت اسرائيل أرضا ، وجد الفلسطينيون انفسهم في الخيالي . وكلما تقوقعت اسرائيل ضمن دولة بورجوازية رأسمالية ، أراد الفلسطينيون أنفسهم واكتشفوا انفسهم ثوريين . كلما تلقت اسرائيل المال من جاليات «الشتات» اليهودي كي ترسخ أقدامها في اراض احتلتها ، استخدم الفلسطينيون الهبات العربية لانماء الفكر والنضال الثوريين . لذلك يبدو لي من الخطأ ، كما ورد في بعض الكتابات الفرنسية ، مطابقة تصرف الفلسطينيين ومصيرهم مع تصرف اليهود ومصيرهم، باستثناء نقطة واحدة : ارادة العيش كشعب مميز . اما التباعد فقائم منذ البداية ، بفعل الواقع نفسه .

امرأة من الشعب

من المستحيل الا يرافق الثورة الفلسطينية تحرر المرأة الفلسطينية . ولنطرح جانبا النساء البرجوازيات ، أو اللواتي يضعن أنفسهن في خدمة الثورة عند تخرجهـــن من الجامعات ـــ غربية كانت أم لا ـــ . انني أتكلم عن امرأة عامة الشعب : فهي ، حتى في موقعها الحالي العنصر الاكثر ديناميكية والاكثر نورية . ويخيل لي ان هذه الحرية التي تتمتع بها ـــ حرية ما قبل التحرر ـــ لا تعود الى ١٩٧٠ أو ١٩٦٧ أو ١٩٤٩ بل تنحدر الى زمن أبعد بكثير من ذلك .

ويمكنني القول على نمط ما قاله روسو : ان المرأة الفلسطينية ولدت حرة ، وحالهـــا أفضل من حال سواها على ما يبدو لي ، وهي مستعدة لتقبل اية افكار ثورية ، رغم كونها في الوقت نفسه وبحكم موقعها وطبيعتها ، عنصرا محافظا . والمرأة بشكل عام ـــ لا المرأة الانثوية والمتصنعة كما أرادها الرجال واصبحته ـــ بل المرأة التي تؤمن في قرارة نفسها انها متساوية مع الرجل ـــ بمعنى انها ليست **أمه** أو **أخته** أو **عشيقته** بل رفيقته ، هذه المرأة عليها ان تشارك في النضال ضد النظام لانها ـــ مع الطفل ـــ الكائن الاكثر تعرضا للاستبداد . ولا أعني أبدا نضالا مسلحا بالاظافـــر أو بعض الفورات العصبية ضد الرجال ، بل تعبيرا مستمرا عن حريتها وعن تحررها . وان لم تكن كل النساء الفلسطينيات أم حسن ، فكلهن يشبهنها في مضمار مهم : ألا وهو تقبل متطلبات النضال . عندما قدمني حسن لامه ، كنا في شهر رمضان . وحينما أعلمتها انني لست مسلما وانني لا أؤمن حتى بالله ، نظرت الي دون تعجب أو استهزاء . كانت ارملة ناهزت الخمسين ، وكان الوقت قارب الظهر .

ـــ « ان كان لا يؤمن بالله ، عليّ اذا ان أعد له الطعام » .

وأعدت لنا الطعام . فكوني ملحدا خلال شهر رمضان قادها للاجابة الصحيحة : طعام الغذاء . اما هي ، فلن تأكل الا بعد السادسة مساء .

عند الغروب ، ساعدت العائلة مجتمعة في تعبئة الرصاص في الامشاط . واعني العائلة: الام ، حسن ، أخته وزوج أخته . كان الجيش الاردني يطلق النار على مخيم اربد من مستشفى تمركز فيه . وما ان هبط الظلام ، حتى التحق حسن بمركزه داخل المدينة ، فبقيت وحيدا في غرفته مع ثلاثة رشيشات كلاشنكوف مطروحة قرب مدخل الملجأ الذي كان يحتوي بدوره على عدد من قطع السلاح . كان اطلاق النار ما زال مستمرا عند الساعة العاشرة ، ولم أستطع النوم . ولكنني تظاهرت بالنوم عندما قرع الباب ، فلم

أجب . وفتح الباب بعد لحظات قصيرة ، ودخلت أم حسن حاملة طبقا عليه كوب ماء وفنجان قهوة . وكانت بندقية تتدلى من كتفها . وضعت الطبق قرب السرير ثم خرجت . تشربت القهوة . وقرع الباب من جديد بعد بضع دقائق . لم أجب . فدخلت أم حسن واستردت الطبق ، ثم خرجت .

ما سبق هو وصف للتصرف البسيط والانيق الذي تتحلى بـه امراة فلسطينية مـن الشعب . وشاهدتها في اليوم التالي جاثية وهي تعد بعض الحلوى . واستأذنتني بالدخول ، وبعد التحية ، سألتني ان كنت جائعا . ولما أجبت بالنفي الحت كي تعد لي كوب شاي ، ولكنها رفضت أن تشرب هي : فالشمس كانت قد أشرقت . ثم ابتسمت وقالت : « الله » ! . وبدا لي خطيرا الا يدرك المسؤولون الحـد الذي تكف النساء بالتصرف عنده كشرقيات ، حسب التقاليد . وباستطاعتي سرد أمثال أخرى عن حرية المرأة الفلسطينية ، على الاقل في الوقت الحاضر .

وفي شيء من الحدة ، يقول لي عصام ، الـذي يحاول عقلنة مفهـوم الثورة ، والثورة الفلسطينية بالتحديد : « الفلسطينيون بشكل عام فلاحون . علينا اذا ان نعود لنعمل في ارضنا . اما في الدول العربية الاخرى ، وهنا في باريس ، فنحن مقتلعون من الجذور » . ويقول ذلك بالانفعال نفسه الذي لمحته على وجه فدائي شاهد أنوار الخليـل التي كان يشير اليها من ضفة الاردن . والانفعال حقيقة بالتأكيد ، وهو ناتج عن النفي ، ولكننا اذا امعنا النظر بعض الشيء في الامر ، وجدنا ان فكرة الجذور هذه التي يعتبرها عصام اساسية هي في الواقع عابرة . ويتابـع عصام : « الفلاح سعيـد بفلاحة ارضه » . « هذا صحيح . ولكن صحيح ايضا ان الولد او الاولاد ، عند وفاة والدهم الفلاح ، او حتى قبلها ، لا يعودون يأبهون بالارض ، وبالعمل فيها ، فيبيعون المنزل والحقل ليعملوا في المدينة عند « رينو » ، وليقضوا عطلتهم في اسبانيا او اليونان » . ويقر عصام بذلك .

أود ان اصفي هنا حسابي مع فيلسوف لبناني قال لي يوما : « على الثورة الفلسطينية ان تتعرب اكثر فأكثر . فالعروبة كانت دائما ثورية » . وكنت قد اجبته : « أتمنى عكس ذلك تماما : ان يصبح العالم العربي فلسطينيا اكثر فأكثر ، نظرا لكون الفلسطينيين هم الشعب الوحيد في العالم العربي ، اذا استثنينا مثالي ظفار واريتريا ، الذي برهن عن تصرف ثوري » .

ربما لعبت العروبة فيما مضى دورا ثوريا : لا أعلم . لكن ما اخشاه اليوم هو ان تعود بنا العروبة الى حنين ساحر بقدر ما هو خداع . اذكر سيدة لبنانية ثرية كانت تستعيد أمامي بشيء من الحماسة وقائع معركة بدر وامجاد الامويين . فاذا كانت امثال تلـك الاحداث ما زالت عالقـة في ذهـن عامة الشعب ، فذلك يعـود في الغالب لمفهـوم العروبة وما يحمله من ترسبات الماضي . ويمكن اعتبار تاريخ العرب اسطورة ، لمـا تمتزج فيه الحقائق بالخيال ، لكنها اسطورة قد تعرقل العمل الثوري . فاذا كانت الثورة الفلسطينية قادرة على اختيار العناصر التاريخية التي تقدمها كنماذج ضمن خط ثوري محدد ، فاني أشك في مقدرة العروبة على التصرف بالشكل نفسه : فهمها الاكبـر هو اثارة عواطف البورجوازية عبر امجاد التاريخ السالف .

الاردنيون والفلسطينيون

ثم رحنا نستعرض الاخطاء التي ارتكبتها المقاومة ، واخطرها اخفاقها في اقامة رابطـة مصلحة مشتركة بين الجماهير الاردنية والفلسطينية . كان بمقدور هـذه الجماهير ان تفرض نفسها اذا اتحدت لا برابطة العروبة وحسب ، بل بواسطة عمل تثقيفي جـدي وثابت ، وبواسطة المشاركة والاعمال الجماعية . وعوضا عن ذلك كان هناك من جهة ، الفدائيون الفلسطينيون ، المسلحون ، والمتباهون بثيابهم المرقطة ، والمتجاهلون كليـا

لعقلية الفلاح الاردني . ومن جهة أخرى ، الفلاحون ، وقد ازعجتهم واخافتهم تصرفات الفدائيين الاستعراضية . فاستداروا بالطبع نحو الملك ، وجيش البدو ، الذي كان « يحميهم » — ويحمي الملك المتطلع الى اميركا .

اذكر يوم وصلت الى اربد قادما من درعا وكان موظف جمارك اردني ينـاهز الخامسة والعشرين قد ركب معنا ، عند مركز الجمارك ، ليصل الى منزله في اربد . وكان سائق السيارة فلسطينيا وما ان وصلنا الى فندق يديره فلسطينيون حتى تركنا السائق . واصر الموظف الاردني على حمل حقيبتي ، ودخل معي الى الفندق . كان الفندق صغيرا جـدا وكانت كل غرفة من غرفه تتسع لاربعة او خمسة اسرة . وكان يعج بالرواد . وبينما استقبلني الفلسطينيون كصديق عاملوا الموظف باحتقار . فسألتهم ، بعد ذهابه ، لما لا يحاولون اقامة علاقة مع موظف اردني متواضع الحال مثلهم ، علاقة صداقة في بادىء الامر ، ثم علاقة سياسية . عندها هز صاحب الفندق كتفيه بلا مبالاة : فالموظف لم يكن فلسطينيا !

ويسألني عصام ايضا اذا كنت لاحظت حين وصولي (نهايـة تشرين ١٩٧٠) تـراجع المقاومة واذا كنت حللت اسباب هذا التراجع . وبما انني كنت بين الفدائيـين ، فكان من المستحيل الا ارى ما يجري . ولفت انتباهي حينذاك حالة البهجة والسرور التي كانت تسود احراج عجلون والسلط ، والنابعة من كون الفدائيين قد استطاعوا الافلات من جحيم عمان . وكانوا يتحلون ببهجة الشباب ، وضحكه وطيشه ، بينمـا كان ذلك غائبا عن الجيوش النظامية . ولكن هذه البهجة كانت ستارا للهزيمة ، الا في بعـض حالات تسليم الاسلحة ، حيث كانت علائم الهزيمة تظهر في حساسية حادة . اما اسباب تلك الهزيمة فكان يصعب علي تحميل المقاومة وحدها مسؤوليتها . اذ كنت ارى رغما عني ، صفقات دول كبرى ومساوماتها . وما زالت حتى الان اسئلة عديدة دون اجابة .

الفدائي كانسان

سؤال : كيف كانت نظرتك للفدائي كانسان ؟ ما هو رايك في منطلقات التزامه الى حد التضحية التامة ، وفي الاهداف التي يقاتل من اجلها ؟

ما يراودني قبل كل شيء ، ويذهلني ايضا ، هو حرية التعبير الكبيرة التي كان يمارسها الفدائي . وكلمة « مذهـل » ليست مبالغة في وصف تلك الظاهـرة . كان في وسعهم — اذا شاؤوا — التكلم في اي موضوع . لا أذكر اي موضوع محظور عليهم . كـانوا مهتمين بما يجري في الصين وكوبا ، وفي باريس بعض الشيء . كانوا يتطرقون الى كل المواضيع ، ويعالجونها بمزيج من الخفة والرصانة .

وبدون المام يذكر باللغة العربية ، كنت اشعر ان اللغة التي يستعملونها كانت ابسط من سواها ، وكانها افرغت من الزركشات المألوفة . فالوقائع والتعابير البسيطة كانت اهم من التعليقات عليها ، الا اذا كانت تلك التعليقات وقائع لا احكاما .

كان مظهرهم بهيا . كان هناك ما اسميه بالجمالية الفدائية . فاخلاقيتهم كانت تذوب في جماليتهم . هذا فيما يختص بالمظهر الخارجي . اما داخلهم فكان اقـل وضوحا واشد قسوة في آن واحد . فكلمة « ثوار » كلمة تستعر نارا . كانـوا يحملون ارادة انجاز تحول تاريخي مزدوج : قيادة الثورة الفلسطينية مـن خلال التحرير لتشمـل الشعب العربي بأجمعـه ، واستعادة فلسطين . بالنسبة للهـدف الاخير ، كـانت الجماهير الفلسطينية في المخيمات او خارجها مطلعة على الموقف ، اما تثوير العالم العربي فلـم تكن تعرف عنه شيئا . لذلك جاء دعم الفدائيين كمقـاومين ، وتم تجـاهلهم كثوار . فاصيبوا بنوع من العرج المعنوي كاد يفقدهم توازنهم . من الممكن تغيير كل هذه الامور

وربما جرى ذلك الان . ضروري ان يتوجه الشعب بأجمعه نحو ارض ميعاده ، ونحو اضرام نار الثورة الشعبية في العالم العربي . لا شك ان الفدائيين يرغبون في ارض ثابتة ، ولكن اكثرهم رشاقة ادرك ان علامة العصر ليست التأصل ، والشجرة ، والبيت ، والصخرة ، وانما استعداد دائم لحركة متعاظمة . وقد قال لي فارس بعد خوضه معركة في صفوف فتح ، انه مستعد للنضال من اجل التحرير في اي قطر يستقبله . اما حسن فكان يقوم بعمل منتظم وصارم في اربد ، وكلاهما لم يتجاوز الثانية والعشرين . ولكنني اقول واردد ، ان الجماهير لم تكن تدرك تماما جانب الثورة . المقاومة نعم ــ الثورة لا . ربما كان ذلك من قبيل الحيطة لئلا ينزعج اليمين الفلسطيني !

الثورة في الكلمات

علينا ان نتطرق هنا لمسالة اللغة . فاذا اردنا ان نكون شعبا ملتحما وثابتا ، اي متمتعا بتلك الكثافة التي سبق وتكلمت عنها ، فلا بد من جعل اللغة المتداولة لدى هذا الشعب ــ وهي العربية هنا ــ اكثر جمالا . والكلام عن الجمال لا يعني الزخرفات التي تخفي الفكرة ، بل على العكس ، فان اللغة تزداد جمالا بقدر ما تتوفر مطابقة دقيقة بين الوقائع من جهة والتعبير عن تلك الوقائع من جهة اخرى .

ان اليسارية الطفولية تميل الى ادخال اي شيء ضمن الكلمات والتعابير . واذا كان الجمال لا يساوي البساطة ، فان البساطة هي دون شك عامل جمال . كذلك الامر بالنسبة للدقة في التعبير . فهي لا تعني التشنج بل الليونة . ان الثوريين الطفوليين يستعملون قاموسا لا يغطي اي جزء من الواقع ، واتساءل ان لم يكن استعمالهم لهذا القاموس تعبيرا عن رغبة خفية في افشال الثورة ، هذا اذا كانت الثورة هي **ايضا** تبديل نمط العلاقات بين الافراد . واعني اخيرا بجمال اللغة رفض كل نزعة اكاديمية ، وتقبل كل الاكتشافات التي يقوم بها الشعب تلقائيا وتشجيعها .

ليس حمل السلاح كل شيء في هذا العالم . فالانسان يميل الى الابتعاد عن الحياة ، او بالاحرى عن الجهد في فترة اصبحت فيها الحاجة الى السكون ماسة ، وراج خلالها مبيع تلك العقاقير المسماة مسكنات . لقد الفت السلاح منذ حداثتي ، ثم نسيته : فقد دفعني نوع من الجبن الى « التعقل » . ولكن لقائي في الاردن بفدائيين يعشقون سلاحهم ، وصمموا على استعماله ــ الفدائيين وجميع سكان المخيمات ــ اعادني الى واقع العنف ، وافهمني ان العنف ضرورة . واعني بالعنف الجهد الرامي الى تحقيق قطيعة مع نمط تراجعي يحول دون الحياة : فتفجر البراعم التي تتفتح عنف ، وعنف ايضا نمو حبوب القمح حين تحطم فروعها قشرة الارض . واذا كانت الصحف ــ والبقية الباقية ــ ضد العنف فلأنها تدرك ان العنف هو منبع الحياة ، لذلك فهي تخلط عن قصد بينه وبين الفظاظة . ولكن هذه الاخيرة تتناقض في الواقع مع العنف ، بمعنى انها نابعة عن عمل ، او مجموعة اعمال مقتصرة على ذاتها . بينما العنف هو البحث ــ سهلا كان ام لا ــ الذي يقوم به جيل جديد .

لكن البرجوازية تدرك ان بمقدورها خلط مضامين الكلمات والتعابير ، فتستنكر اعمال العنف مهما كان مصدرها ، على الرغم من معرفتها كل المعرفة ان بين تلك الاعمال ما هو شراسة غير مجدية وما هو من الطرف الاخر عنف ضروري .

عندما سألت احد الفدائيين ، سنة ١٩٧٠ : « ما هو بالتحديد هدف المعارك التي تخوضها ؟ »

اجابني : « استرجاع ارضنا » .

وعندما اردفت : « وهل يمكنكم استرجاعها اذا كنتم لا تريدون اي شيء آخر ؟ »

اجاب : « ـــ وهل يمكننا الحصول على اي شيء اخر اذا لم نحصل على ارضنا ؟ » وقد لمسنا معا امكانية الضياع في متاهات لعبة الاجابات هذه .

اذا لم يتح لحسن وامثاله العيش في فلسطين عندما تعود ثانية « فلسطين » ، فمن سيعيش فيها ؟ الجماهير طبعا . أما الثوار الحقيقيون فسيتابعون ثورتهم في مكان آخر ، كما لو كانوا ارستقراطيي الثورة . وترتفع عدة اصوات لتقول لي : « الجماهير ثورية » . هذا صحيح بالنسبة لتطلعاتها الى العدل والحرية ، لا بالنسبة لاتخاذ القرارات .

لا يتكلم احد عن السعادة في الثورة . اتخالون العمل الثوري كئيبا ؟ ليست كل الاعمال الثورية بالتأكيد سارة ـــ ولكن هنالك نوعا من السعادة يرافقها ، حتى في تدمير البنية القديمة من قبل الثائر . طرحت السؤال عدة مرات على بعض الفدائيين « تبدو لي سعيدا فهل أنت تلهو ؟ » وكانت الاجابة دائما نفسها : « ولم لا ؟ لماذا تريد ألا نتعرف على اللذة خلال الحياة التي نعيشها ، حياة المقاتل الذي يهدم القيم البالية » ؟ واذا كان بناة الاسس الاخلاقية البرجوازية لا يعرفون الا نوعا من الحالة الكئيبة ، الحزينة ، المتشجنة ، فلربما كان للثورة ان تكون في احدى مراحلها ، نقيض تلك الكآبة .

اتذكر الآن سميرة وهي طبيبة فلسطينية مقيمة في الولايات المتحدة جاءت من تلقاء نفسها لمعالجة جرحى عمان . حسناء ترتدي سروالا . كان علينا الانتقال من جرش الى السلط لملاقاة طبيب ومسؤول سياسي هناك . اوصلنا سائق تاكسي ، وهو جندي ميليشيا في الوقت نفسه . وحين وصولنا في المساء ، كان الطبيب غائبا . نقلتنا سيارة الى قاعدته، فبلغناها في اثناء الليل . وما ان رآنا ذلك المسؤول حتى تمتم بضع كلمات ما لبثت سميرة ان ترجمتها : « يجب ارجاعها الى السلط ، من المستحيل ان تقضي الليل هنا ، فالمقاتلون لن يفهموا . ولن يفهم الشعب كيف يمكن لامرأة ان تقضي الليل في قاعدة » . وكانت الطريق والمنطقة محفوفة بالمخاطر . فطلب من فدائيين ارجاع السيارة الى السلط ومن ثم العودة ، وكل ذلك خلال الليل . اتعتقدون حقا ان الجماهير لن تفهم لماذا تقضي طبيبة الليل ، مرتدية تلك الثياب ، تحت لحاف في زاوية من الغرفة ، لو خوطبت بصراحة ؟ ان الجماهير الفلسطينية لن ترى حتما في ذلك اي فجور .

كنت لبضعة ايام خلت اسير مع سميرة عبر ازقة مخيم غزة ـــ وتحادثنا مع ست او سبع نساء ما لبثن ان دعوننا لتناول الشاي . وعلى ارض الغرفة الوحيدة التي كانت البيت ، فرشن بضعة اغطية لنا ، ووضعن وسادات قربها . وشعرت فجأة بغرابة الموقف بالنسبة لعالم عربي تقليدي : عالم الف ليلة وليلة ! اذ كنت الرجل الوحيد وسط سبع او ثماني نساء يتحادثن في السياسة . وما ان افصحت عن شعوري حتى علا الضحك . الم يكن بمقدور تلك النساء ، او بمقدور ازواجهن ، تفهم قضاء سميرة الليل في القاعدة ؟ ربما كان اصعب عليهم أن يفهموا لماذا تم ارجاعها في الليل عبر منطقة محفوفة بالمخاطر حتى في وضح النهار . كان من السهل ادراج ملاحظة في جريدة « فتح » تقول ما فحواه : « نظرا للمخاطر التي قد تتعرض لها في المنطقة من جراء تصرفات عناصر الجيش الاردني ، فقد اضطرت رفيقتنا الطبيبة سميرة الى قضاء الليل في القاعدة كذا . . » وما الذي يحول دون القيام بحملة تفسيرية ؟

تملكني الغضب في احدى المناسبات . كان ذلك حينما قال لي غسان بصوت لا يقبل الجدل : « على جميع الفلسطينيين ان يعملوا للقضية الفلسطينية ، وخاصة المثقفين منهم ، عليهم ان يستعملوا كل ما اوتوا به من مواهب من اجل القضية الفلسطينية » .

اما الذين لم يفعلوا شيئا لاجل الثورة ، فيجب نفيهم عن الامة ، بعد النصر . وقد صدمني ذلك الحكم المبرم ، وتلك العودة الى الحجة المطلقة ، الى اقصى حد . فالعالم لا يقتصر على الثورة الفلسطينية وحسب . ويجب ان تكون لاي امرىء — حتى الفلسطيني — حرية القيام بالابحاث على النحو الذي يرتأيه . يمكنه ان يخطىء ، ويمكننا ان نهمل ابحاثه . وحتى شخصه . لكن نفيه خارج جماعة — مهما كانت احجامها متواضعة — يعني نفيه خارج المجموعة الانسانية بأكملها . وهذا بالضبط ما تفعله الاخلاق البرجوازية — غربية كانت ام لا — حينما تطرد ، او تسجن ، او تعزل في موقع هامشي ، كل رجل لا يعترف بالقيم المتداولة .

ويجيبني عصام : « ربما اسأت فهم ذلك » .

ربما . فأنا اسيء الفهم بعض الاحيان . اما فيما يختص بحركة التحرر ، فما ان ارى محاولة حكم تسلطي ، ولهجة ادانة حاقدة حتى اخشى ان تكون الحركة قد بدأت تنكر نفسها ، او تهبط الى « الجدانوفية »* .

ثم قال لي : « ما كان البسطاء ليفهموا ذلك » .

فأجبته بشيء من الحدة : « البسطاء اقل غباء مما تعتقد ، وهم قادرون على فهم كل شيء تقريبا » .

على الرغم من حالة البؤس ، وعلى الرغم من البطالة الاضطرارية ، لم الحظ في المخيمات ، ذلك الاغتراب وذلك الضيق اللذين يسببهما دائما فصل نشاطات المرأة عن نشاطات الرجل ، والتفرقة بين مجال النساء ومجال الرجال . وعوضا عن ذلك الخمول الخبيث في نظرات سكان المغرب مثلا ، فان مخيمات الاردن ، وان لم تكن تعج ببهجة القواعد ، كانت تتسم بالصفاء والكرم .

فالارادة الثورية لا تقتصر على استعمال مرادفات مؤثرة ، ولا حتى على استعمال البندقية ، بل هي ايضا مرتبطة بالتحدي الرامي الى العيش حياة سعيدة . انني لا اعرف ، في العالم العربي ، شعبا يتوق الى التخلص من الافكار المضجرة مثل الشعب الفلسطيني ، والى التحرر من الاعمال المرهقة ، من الثياب الرثة ومن المواقف المذلة . واذا وضعنا جانبا البرجوازية الفلسطينية ، وهي شبيهة بسواها من البرجوازيات ، فالمخيمات الفلسطينية تتسم بالارادة في مجابهة الحقائق وجها لوجه .

نافذة الغرب على العالم الثالث

كانت الثورة الفلسطينية — المقاومة كما سميناها اول الامر — تصلنا عبر مصفاة الصحافة . واذا كانت تلك الصحافة تتقيد بذلك الحجاب الذي ارادته اسرائيل ، فقد كان هناك ثمة شيء اخر ، الا وهو النظرة للعالم الثالث . فالقراء الاوروبيون يريدون صحفا « نظيفة » : حتى وصف الثورات عليه ان يكون مطهرا ، خاليا من البقع ، ناصع الاسلوب ، لئلا ينزعج القارىء . وبما ان العالم الثالث موضوع مضجر بالنسبة اليه ، فما يجري فيه يجب ان يعرض على طريقة القصة المسلسلة ، مرفقا بكل التفصيلات الضرورية ، على ان ترد البقية « في العدد القادم » . فالعالم الثالث ، اذا اردنا ، يجب ان يكون رفيق القارىء المسلي في الصحيفة . واخيرا ، فان المستعمر (بفتح الميم) او الذي تحرر من الاستعمار — وما زال مستعمرا في الواقع — اصبح عنصرا هاما في مناظر البلاد البعيدة لدى الاوروبيين : فهو ينظر الى صورة امرأة عربية تعمل ، او رجل اسود يتسلق دربا وعرة ، كما ينظر الى صورة ببغاء ابيض على غصن شجرة استوائية . فالثلاثة في امكانهم الطبيعية ، واوروبا لا تخشى شيئا من هذه الناحية .

---

* جدانوف : رقيب الادب والفن في عهد ستالين .

لن ادع احدا يلمس المشهد الذي اتأمله . ادرك انه مصنوع من البؤس والخرق البالية، لكنه يفعم حاجتي الجمالية ، ويمكنني من امتحان تفوقي في تذوق حالة الفقراء ، كأنهم وجدوا هنا لارضاء نزوتي . أمن قبيل الصدفة ان يكون قصر « المشوار » في الرباط ، متاخما لاحياء تنكية تحوي ٦٠،٠٠٠ شخص ، او ان تكون بعض المخيمات الفلسطينية ملاصقة لاجمل ابنية بيروت ؟ أمن قبيل الصدفة ان يقضي الاوروبيون عطلتهم ، اكثر فاكثر ، في البلدان المتخلفة ، مظهرين شغفهم بالتجول في الاسواق القديمة قبل العودة الى القصور المبنية خصيصا لهم ؟ الى حد ان ولوج عربي رث الثياب او اميركي اسود في احد الاحياء السكنية الراقية أمر بحد ذاته كاف لاستنفار الشرطة .

اليكم ما اجابني به عامل مغربي عندما سألته عما يخشاه اكثر من اي شيء في باريس : « السير في الشارع ، لان كل المارة ينظرون الي » . وبالطريقة نفسها ، فعندما يعرض المهندس المعماري على الزبون منظرا لا يمكن حجبه في اعالي بناء فخم ، فلا يكون ذلك المنظر الا عبارة عن مزرعة قديمة وكرم يعمل فيهما رجال ونساء . فالبرجوازي «يتفرج» على المنظر — كما يتفرج الحسن الثاني على الاكواخ — ولكن ، قلما نتساءل عما اذا كان المنظر بحد ذاته — عما اذا كان اولئك المزارعون وعمال الكرمة راضين بأن يكونوا « فرجة » ؟ وماذا يدعو سكان المخيمات الى قبول وضعهم كمنظر يتأمله البرجوازيون ، وشهود صامتين على ملذات البرجوازية المحتاجة لذلك القدر من الفراغ والتسليات ؟ ان لم تكن تلك « الفرجة » الا منظورة ، لشعر المتفرج بطمأنينة ساكنة وسادية لانه ليس في المشهد ، ولا هو في احد ارجائه . والمتفرج محافظ بمعنى انه لا يريد لتلك « الفرجة » ، ان يتغير لونها او شكلها . فبؤس المقموعين يضفي الوانا بديعة على تلك اللوحة — او « الفرجة » — التي يتأملها الغربي . لذلك لا يجب تغيير أي شيء ، « فذلك قد يفسد جمال المنظر » ، يقول البرجوازي . و« الفرجة » « فرجته » هو . اما اذا كان المتفرج يستغل المنظر الذي يتأمله ، فذلك يمكنه من اقامة نوع آخر من العلاقات : اذ لا يكتفي الناظر ، هنا ، بالقيام بدور الحراسة السلبي ، بل يصبح سيد تغييره العملي ، علما بأن هدف عملية التغيير هذه لا يمكن الا أن يكون انتاجا لصالح السيد . وهذا الاخير لا يكون أبدا مشهدا ، ولا حتى جزءا من مشهد ، ولكنه قد يعرض نفسه للفرجة ، وهذا أمر يختلف كليا عن « المشهد » . فهو يرفض ان يراقبه المستغل (بفتح الغين) ، وحتى ان يراه . ولكن المستغل يراقب السيد بانتباه وصمت : وغالبا ما يكون ذلك لسوء طالع السيد .

ما قلته في الفقرة اعلاه انما يهدف الى الايضاح بأن استملاكا سلبيا وشهوانيا يتطابق بالضبط مع استملاك ايجابي وتغييري : ما ان تنظر العين ، وتتذوق لذة النظر ، حتى تريد الاحتفاظ بالصورة المنظورة ، فتسلب الصورة — المشهد للاحتفاظ بها والنظر اليها، كما يسلب السيد مشهده لاجل متعة أخرى .

لا يحلو لاحد أن يكون فرجة ينظر اليها الرجل القوي . وكل نظرة تتمتع بنفسها ، ان ارادت النظر لمجرد النظر ام الاحتفاظ بالشيء للتمتع بالنظر — هي خالية من البراءة . وما أتمناه ، هو الا يتمكن نظر الاوروبيين بعد الان من رؤية « الطابع المحلي » ، وان يختفي كل « طابع محلي » ، والا يقدم المقهورون اي شيء يمتع الانظار : مثلما قد تكون حالة أيلول الاسود بلا قناع ، في ميونيخ . ولكن ، هل سيحدث كل شيء وكأنه تحد للغرب ؟

كل ذلك مرهون بالطبع بالاسلوب الذي ستختاره الثورة الفلسطينية لنفسها ، فاذا ارادت الاحتفاظ بسمعتها لدى البلاد الغربية ، وحاولت أن تعطي عن نفسها صورة مقبولة لدى الغرب ، وحرمت نفسها ، تبعا لذلك ، من كل الحيل والاساليب التي تدينها اخلاق واخلاقيات الامم . ستخسر ذلك ولن تكسب شيئا عوضا عنه ، اذ ان يقظة

اسرائيل والسنتها المنتشرة في ارجاء المعمورة كافة ستعمل دائما على تقديم اية ظاهرة فلسطينية — ما عدا الاستسلام الكلي طبعا — على انه ضرب من الشر من الواجب محاربته وسحقه .

بعد قضاء بضعة أشهر مع الفدائيين في قواعدهم ، لا بد من أن أعرفكم على غرابة واقعي : فقد بذلت أقصى جهدي ، خلال سنوات ، لاقطع كل الاواصر التي تشدني الى الامة الفرنسية ، ونجحت في ذلك بعض الشيء . ولكنني في نهاية المطاف ، وجدت نفسي أساهم ، بمنتهى السعادة ، في نضال أمة مسلوبة ، من أجل استرجاع أرضها الضائعة . لا أشك في ضرورة النضال من أجل العودة الى الارض المغتصبة ، ولكنه يبدو لي ان الحاجة أمس لتغيير الانسان العربي ، بواسطة النموذج الفلسطيني أولا ، ثم بمساعدة الفلسطينيين . أرفض التعمق أكثر وأكتفي بالاقتراح التالي : **أصبح الفلسطينيون بلا أرض . الشعب الفلسطيني يعيش في الخيالي ، بكل كثافته . أليس باستطاعة بعض العناصر الفلسطينية التفلفل في أرجاء العالم العربي ، الذي هو بأمس الحاجة الى اعادة تكوين جذرية** ؟ فارادة استعادة الارض هي ارادة العدل . واذ اقتصرت على ذلك فهي محدودة . لكن الفلسطينيين قد يجعلونها تتخطى نفسها ضمن ثورة لا تقتصر على فلسطين ، بل تشمل العالم العربي بأسره . وهذا هو السبب الذي جعل شباب العالم أجمع يقفون مبهورين أمامها ، وأعطي مثالا على ذلك تصرف يساريي أيار ١٩٦٨ حينما أقاموا واجهة فلسطينية في باحة السوربون بمحاذاة الواجهة الصينية .

يصعب علي التكهن فيما اذا كان اختلاف منشأ الفدائيين (غزة ، الخليل ، القدس ، درعا ، دمشق ، عمان ، الكويت ، أو أحد المخيمات المنتشرة هنـا وهناك) ، يخلق الاحتكاكات بين السكان وفي منظمة التحرير الفلسطينية ، جاعلا العمل الجماعي عسيرا ، أم اذا كان ذلك التنوع يشكل ، على العكس ، عامل اضافة وكسب ، يغني الثورة الفلسطينية أكثر فأكثر .

كان الفدائيون قد حوصروا فوق السلط وجرش لدى مغادرتي بيروت . لكن انباء آخر كمين نصبه لهم الجيش الاردني لم تصلني الا في فرنسا . وقد برهن هذا الكمين على ان الحكم الاردني — والبرجوازية التي يحميها — كانا يخشيان الثورة الفلسطينية أكثر من اسرائيل .

هل نفذت عقوبات في القواعد دون أن أشعر بذلك ؟ ربما تدخل مسؤول دون أن الحظه ، لكني لا أذكر ، في أي حال ، اية مشاجرة او مناقشة حادة وعنيفة . اذ كان ذلك الجيش من الفدائيين يعيش في خفة مدهشة ، والصورة التي بقيت في ذهني عنه هي صورة مجتمع متمدن الى أقصى حد . وهذا القول بعد المجازر التي اقترفها بدو حسين يبدو وكأنه مجرد حشو . لكن الواقع عكس ذلك . فالفدائيون والمسؤولون ، الذين انخرطوا بارادتهم في صفوف فتح ، أو الجبهة الشعبية ، او الجبهة الديموقراطية ، او الصاعقة ، كانوا قد أنشأوا ، تحت ستار من اللامبالاة الظاهرية ، نوعا من الاشتراكية البدائية ، اشتراكية ما تحت الاشجار وتحت الامطار ، بداية اشتراكية بدوية وهزيلة كانت بمثابة بشير التفاؤل بمجتمع أكثر تقيدا قد يتكون حولها ...

وقد اغتال حسين بداية عالم جديد كهذا ، بالاشتراك مع اسرائيل ، ومع بعض البلاد العربية ، ومع كل البلاد الغربية .

ميونيخ والغرب

لم يدهشني حادث ميونيخ الا قليلا . كنت حينذاك في ايطاليا . وسأقـول لكم بضع كلمات في هذا الموضوع اذا كان ذلك يهمكم .

الالعاب الاولمبية — وقد ردد هذا القول بما فيه الكفاية — ليست سوى وسيلة متعة ، ومظاهرة دعائية عبر المباريات ، أي لعبة بيع أمم بالمزاد العلني من خلال الرياضة . فهي منظمة الامم المتحدة للرياضة ، اذا صح التعبير ، حيث يسمح للامم الضعيفة الاشتراك في المباريات ، بينما المنافسة تنحصر في الواقع بين المارين . والابواق التي رددت صدى مأساة ميونيخ لم تكن مهرجانات الالعاب بحد ذاتها ، بل الصحافة الغربية المرتبطة مباشرة او غير مباشرة ، بتل أبيب ، عبر شبكة معقدة من مديري الصحف ، والمحررين ، والكتاب ...

كان اختطاف الطائرات الثلاث عام ١٩٧٠ ، وتحويلها الى صحراء الاردن قد أثار موجة استنكار مماثلة لما حدث ابان ميونيخ . والمصطلحات كانت نفسها : مجرم ، متوحش ، دنيء ، وجبان لوصف الفلسطيني ، وضحية بريئة لسواه . وقد توصلت اذاعة « اوروبا رقم ١ » الى اختلاق حدث مدهش : يبدو ان امرأة وضعت طفلا وسط الصحراء ، دون ماء ودون عناية ، محاطة بالذباب والملاريا. وما لبثت أن انهمكت اذاعات أوروبا اجمعها بتقييم الاخطار التي يتعرض لها المولود الجديد ، بينما لم يكن هناك في الواقع أية راكبة حبلى على متن الطائرات ، ولم يلد احد أي شيء . واخيرا ، قام مذيع مجهول بتكذيب الامر ، دون أن يشعر به أحد ، وبعد فوات الاوان . اذ ان الجماهير الاوروبية كانت قد استنكرت تصرفات الفلسطينيين استنادا لحادثة مختلقة من الفها الى يائها .

تلك الصحف التي تتلاعب بالرأي العام تكتب كلمة « ارهابي » حيث يجب كتابة كلمة « فدائي » ، أي الذي يضحي بنفسه . فالعين العبرية تبهرها من وراء مثلثها المقدس ، كما تبهرها عين دايان الوحيدة .

واليكم هذا المثل : « من وراء النوافذ نصف المغلقة ، فتح قناصة البوليس الالماني النار، عند سماعهم الاشارة المتفق عليها ، **فأردوا الارهابيين الفلسطينيين قتلى** بظرف ثوان معدودة ، وحرروا في الوقت نفسه ، **ودون ان يصابوا بأية خدوش** ، الرهائن الاسرائيليين » . (فرانس سوار — في عددها الصادر بتاريخ ٨ أيلول ١٩٧٢) .

اذا ، يجب ارداء الفلسطينيين **قتلى** وتحرير الاسرائيليين **دون أية خدوش** . يمكن قراءة هذا الموقف كما يلي : « فلسطين مسحوقة ، المجد لاسرائيل » . والشركاء في الجرم هم الدول الاوروبية وغالبية شعوبها . واختيار الكلمات بات يهدف — بعد ميونيخ — الى وضع الفلسطينيين في مصاف المجرمين ، وكل عمل تحدده كلمات مماثلة انما مرتبط الى عالم تحتي ، هو العالم الثالث ، هنا ايضا .

تلك هي سلطة السيد : التحكم بمعاني الكلمات ، تحميلها أو افراغها من مغزاها المعنوي ، وابدال ذلك المغزى بوصمة عار .

وهوذا برهان آخر لصالح أيلول الاسود :

بتشجيع من اسرائيل والسنتها المنتشرة هنا وهناك ، عم اوروبا احتقار فظيع للقضية العربية بشكل عام ، وللقضية الفلسطينية بوجه خاص . ومفضوحا كان أم مبطنا — كما هي الحال بالنسبة للحكومة الفرنسية — فان هذا الاحتقار بلغ حدا بتنا مرغمين على القول تجاهه أن الفلسطينيين ، بما أنهم لا يتمتعون بأي حق اطلاقا، فلهم الان الحق في **أي عمل** يقومون به لاجل الحصول على حق ما . بما انهم سيعيرونهم في أي عمل يقومون به ، فلم الاكتراث بردود الفعل الاوروبية ؟ واذا كانت ميونيخ قد لقيت ترحيبا في المخيمات ، فهذه اشارة الى أن المخيمات أصبحت الآن قادرة على بذل الكثير تجاه الذين يبذلون الكثير تجاهها . ويعني هذا انه بات من الضروري القيام باعلام تحريضي داخل المخيمات ، لا أن تنتظر المخيمات سلبيا التحرير بفضل عمليات أيلول الاسود بمفردها .

يجب المباشرة بعمل تحريض سياسي ، سريا كان أم لا ، على نطاق القاعدة ، اي داخل المخيمات .

نعلم الآن ان سفير اسرائيل كان حاضرا في مطار ميونيخ . وان غولدا مئير اعطت الامر باطلاق النار ، من القدس : فمصرع اليهود أرادته اسرائيل . كان يجب ان « تنتحب اسرائيل بأسرها » ، وأن يتوعد الاسرائيليون بالانتقام .

ولنلاحظ هنا ما كتبته الصحف الالمانية: « ان شرطة اوروبا بأسرها قد تعاونت في مطاردة العرب الى حد يمكننا من القول انه لم تكن هناك الا شرطة اوروبية واحدة خلال الايام الماضية » .

ما أن تم اعلان فكرة « السوق المشتركة » ، و« اوروبا الستة » ثم « اوروبا العشرة »، حتى بات واضحا ان وحدة أوروبا لن تتحقق ، ولن تتكون بصلابة ، الا أمام عدو مشترك . والعدو لا يمكن ان يكون الا الفقير ، المذلول ، الزنجي ، العربي ، الاصفر ، العين المقطبة . ألم تكن الوحدة واقعة لا محال بعد ذلك التعاون الحميم بين شرطة كل قطر اوروبي ؟ زد على ذلك ان المنتفعين من تلك الوحدة لن يكونوا الرأسماليين دون سواهم ، بل جميع المواطنين ، كل أولئك الذين « يتفرجون » على « المنظر » ، البرجوازيون والبروليتاريون على السواء ، اذ ان هؤلاء ايضا برجوازيون بالنسبة الى « حثالة » الشعوب : العالم الثالث .

توصلت الامبراطورية البريطانية الى ذروتها — اي غطت أوسع مساحة من الاراضي والمحيطات — عندما كانت الاخلاق الفكتورية مسيطرة . وبينما كانت تسحق، لمصلحتها، الهند بأسرها ، بشطريها المسلم والهندوسي ، والشرق الاوسط ، ومصر محمد علي ، لتخترع من ثم العراق وفلسطين اليهودية والجزيرة العربية ، كانت انكلترا تتغلق بالاخلاق الى حد التزمت . وقد سمحت لنفسها بترف ديموقراطية ليبرالية سحرت العالم اجمع . وعندما قال الجنرال عيدي امين ان انكلترا هي المكان الذي يجب ان يعود له الاسرائيليون ، عبر عن قدر كبير من المنطق . وعندما تابعت اميركا مسيرة اوروبا ، كان من الطبيعي أن تأخذ على حسابها اسرائيل ايضا .

كل حكومات أوروبا البوليسية ، استعملت قدر ما استطاعت القراصنة والقرصنة . فقد اختطف سلاح الطيران الفرنسي احمد بن بيلا ، وتولت المخابرات امر المهدي بن بركة . ولبضعة أيام خلت ، كانت الشرطة الاميركية تختطف — في ستوكهولم ثم في كوبنهاغن — ديبلوماسيا حاول اغتيال ابن تشانغ كاي تشيك . ولم تحرك رابطة حقوق الانسان ساكنا . وتعرفون انتم كل المعرفة جرائم الشتيرن والارغون، وانفجارات حيفا وفندق الملك داود ، والجنود البريطانيين المقتولين والمحشوين بالمتفجرات . تعلمون بأمر مقتل برنادوت ، والغريب ان كل الناس في أوروبا — أعني الصحافيين — يعلمون بالامر ، لكن هنالك نوعا من الرقابة التي تمارس كلما دار الحديث حول ولادة الدولة اليهودية .

لا بد انكم ادركتم ان مقاتلي ايلول الاسود ماتوا بنظري كجنود ، وان تلك الشخصية الفلسطينية ، التي لا أرض لها سوى العروبة والخيالي ، لا بد وانها أصبحت قوية الى حد بعيد في صميم كل فلسطيني ، لتنجب رجالا يتسمون بذلك التصميم وذلك الاستعداد على التضحية بحياتهم لاجلها . وهذا يعني انه لا مجال اطلاقا لحوار مع اسرائيل . كان ظهور ذلك الشبح المتخفي تحت قناع مثقوب ، تعتليه حدبة صغيرة ، على شاشات التلفزيون وغلافات الصحف ، يخيف ويؤلم على حد سواء . هو تعبير اولا عن رفض ايلول الاسود بأن تكون تلك « الفرجة » ، اي أن تكون عالما ثالثا في مسرحية أوبرا ، ذات « الطابع المحلي » حيث يلذ النظر الى الموت والبؤس بالنسبة للمتفرجين

الاوروبيين البعيدين عنهما . هذا الظل أصبح قريبا منا الى حد ان الغربيين يخشون ان يكون بينهم . فهو ليس فانتوماس أو طرزان . لا يحمل اي اسم ، والامر افضل كذلك.

عندما نقلت ايلول الاسود النضال الى اوروبا ، انما أعـادته الى ساحته الاصلية . فاعادة نقل الحرب الى أوروبا هي ، بالنسبـة للفلسطينيين عودة منطقية الى منبع مصائبهم : فالحكومات الروسية والبولونية والالمانية والفرنسية والبريطانية هي التي ساهمت في خلق الدولة اليهودية . وعودة الفلسطينيين الى تلك الديار — سواء أكانوا رافعين اصبع الاتهام ام قبضة الانتقام ، لا بد وان تساعد اوروبا في تحمل مسؤوليتها في موجات اضطهاد اليهود . فأوروبا لم تبال بحملات اضطهاد اليهود المتتالية ، كما انها لم تبال لذبح السكان العرب في فلسطين . ولم يكن أمام اليهود ، حينذاك ، سوى اقتحام اقل المواقع مقاومة : تلك المقاطعة العثمانية التي ، حسب ما يقال الان ، كانوا قـد طردوا منها منذ الفي عام ونيف . ومن طردهم حينذاك ؟ الرومان ، لا العرب . وقدم الاسرائيليون من كافة أرجاء أوروبا . واما اذا حدث أن وجد بينهم بعض اليهود العراقيين واليمنيين الذين نجوا من مذابح مزعومة ، فهذه قد تكون نقطة سوداء في سجل اليمن أو العراق ، لا في خانة الفلسطينيين .

على اي حال ، ما هي تلك الالعاب الاولمبية بالضبط ؟ في الاصل ، صدر قرار تأسيسها في مدينة دلف ، وذلك لاقامة هدنة بين المدن الاغريقية المتحاربة . ولكن اليونان هي أيضا أوروبا . وعندما أعاد البارون « بيار دي كوبرتان » الحياة للروح الاولمبية ، فانه لم يفعل ذلك لبراءته الطفولية : اذ كان ذلك ضربا من الامبريالية الثقافية نظرا الى كون الرياضي الياباني والكوري والسنغالي والمغربي على السواء مرغمين على تعلم تاريخ اليونان ، ان هم أرادوا معرفة تاريخ الالعاب الاولمبية وروحها . لذلك ، يشكل اختيار الفلسطينيين لرهائن اسرائيلية ، في أوروبا ، في المانيا ، وسط العاب أولمبية ، تلخيصا جامعا وبليغا للمسالة الفلسطينية . وما بات يتضح بحدة من خلال ذلك النضال هو تخطي الصراع لنفسه ، بمعنى أن النضال لم يعد يقتصر على الصهيونية والامبريالية ، بل أصبح يكافح ضد أخلاقية طاغية ، هي الاخلاقية التي تنبع منها كل القيم الغربية ، والتي تنبع منها أيضا العنصرية ، ومعاداة السامية ، والصهيونية، والرأسمالية ومختلف الامبرياليات . وقد فرضت تلك الاخلاقية نفسها بطريقة طغيانية .

وجميع تفجرات العالم الثالث — وفلسطين من ضمنها — انما تهدف ، على ما يبدو لي ، الى مجابهة تلك الكلمات التي تريد فرض نفسها كأحكام وادانات . ان هذه الاخلاق بدأت تمارس تأثيرها من خلال تغلغلها داخل اللغة وتلويثها .

تقول الصحف الاوروبية في وصف الفلسطينيين واعمالهم : « أعمال عنف أعمى » ، و« جرائم لا يمكن تفسيرها » ، « لا انسانية » ، « دنيئة » . . . تلك محاولة لارهاب الفلسطينيين بواسطة اخلاق خانقة هي اخلاق الاوروبيين دون سواهم .

« نداء توجهه السيدة مئير الى العالم الحر » (الفيغارو — ١٣ ايلول ١٩٧٢) . هذا العنوان هو زلة لسان تكشف عن كون فلسطين ليست حرة . ولكن العنوان نفسه يعتبر ان « العالم الحر » — الذي تنتمي اليه اسرائيل — لا يمكن خلطـه مع العالم المغلل بالقيود ، الذي ينهبه « العالم الحر » . ودون أن يعي ذلك ، فان المحرر الصحفي قد جعل تلك الحقيقة جلية للعيان : « العالم الحر » له جيوشه ، ومصارفه ، وسجونه ، وأبنيته الشاهقة ، وبيروقراطيته ، وتاريخه المكتوب ذو الالتواءات التي لا حصر لها ، كل ذلك لمواجهة « الضياع » الفلسطيني . وكلما اندلعت حرب بين أوروبا والعالم الثالث ، فهي لا تلبث أن تصبح معركة الخير والشر ، حيث تمثل أوروبا طبعا الخير كله — هذا ان لم تكن هي الخير بحد ذاته . لذلك يجدر بنا التساؤل عن جدوى تصرف الفلسطينيين على

نمط العادات ــ او بالاحرى القواعد ــ التي تسير العالم الغربي . كل الاساليب جيدة طالما تنزل الضربات بتلك الاخلاق ، التي لا تحتل موقعها هذا ، ولا يجري الدفاع عنها باستماتة الا لسبب واحد ، وهو لانها تشكل سدا في وجه مطالب عالم مستغل (بفتح الغين) .

الثورة في الشرق والغرب

هذا سؤال يطرحه علي الفلسطينيون دائما : « **ما هي المقارنة التي يمكننا اقامتها بين الثورة الفلسطينية والحركات الثورية في الغرب (ايار ٦٨) ؟** » جوابي لن يكون مرضيا . فبعض ايام أيار ٦٨ كانت مبعثرة في الزمن الذي سبق ذلك الشهر في فرنسا . كانت مبعثرة في الزمان والمكان . الا انه كان لا بد من « لمة » هذه الايام اذا كنا نريدها ان تسجل في بضعة أيام بوضوح اكبر حتى يتم اكتشاف ما كان يتفاعل منذ زمن طويل . اما الثورة الفلسطينية ، فما زالت في الفترة التي تعتبر فيها كل الضربات مفيدة ، وذلك بالنسبة للعالم الغربي وبالنسبة للانظمة العربية البرجوازية . واذا أخذ الفلسطينيون بعين الاعتبار تلك القاعدة الدولية التي لا يحترمها أحد ، فسيدركون انهم قد أصبحوا في مرحلة محددة من لعبة يلجأ فيها الجميع الى الغش . (ذلك ان هنالك قواعد ثورية وحربية وضعها الغربيون بالطبع وقبلتها مختلف البرجوازيات العربية .) والتكهن عما ستكشفه فلسطين عند النصر ، مستحيل لان وعيها القومي ما زال قيد التكوين ــ كما سبق وقلت ــ في المخيمات والقواعد ، وفي اذهان الطلاب الفلسطينيين في الخارج .

واود ان أزيد كلمة اخيرة وهي ان قواعد الفدائيين قد خلقت جوا مفعما بالحيوية ، شبيها بالذي خلقه شهر أيار ٦٨ في فرنسا . ولكن اختلافا جذريا كان يفصل الاثنين . فالفدائيون كانوا مسلحين ، وكانت اسلحتهم تجر كالمغنطيس سلاح البدوي : فكانوا يعيشون وسط مزيج من البهجة والشعور بالخطر . وهذا الخطر كان يضفي شيئا من النقاوة والقساوة على الحياة في القواعد .

المسالة اليهودية

سؤال : ما هي نظرتك للجذور الاوروبية للمسالة الفلسطينية (المسالة اليهودية) والى مدى استمرار العداء للسامية ؟ واذا كانت الصهيونية ردا على المعاداة للسامية ، من موقعها نفسه ، فاي مخرج ترى لتلك المشكلة التي هي غربية قبل كل شيء ؟

جواب : من الواضح ان المعاداة للسامية ما زالت رائجة في أوروبا ، وانني اتساءل الى أي حد تستغل العنصرية المعادية للعرب لاخفاء المعاداة للسامية في الغرب المسيحي . بواعث هذا الشعور المعقد ترجع الى كون المسيحيين استلهموا جوهر عقيدتهم من النصوص المقدسة اليهودية، ولكن التوسع في هذا المضمار يتطلب دراسات طويلة لست قادرا على القيام بها . ومن الواضح انه ما دام الصراع العربي الاسرائيلي قائما فانه يريح ضمائر المعادين للسامية اذ يمكنهم من اتخاذ موقف علني الى جانب «أوروبيين» . « اوروبيون » لان الرأي العام الاوروبي لا يعطي عملية الاستيطان الصهيونية الا شكلا واحدا ــ وذلك عائد الى نوع من الكسل او الراحة الفكرية ــ : رواد اشتراكيون قدموا من بولونيا وروسيا لتأسيس الكيبوتزات . ويمكننا القول ان يهود اوروبا بأتوا بمنأى عن أي اضطهاد لان اضطهاد المانيا النازية الفظيع لهم أصبح بمثابة غطاء يحميهم . لكن اسرائيل في نظري أصبحت تشكل خطرا حقيقيا في الشرق الاوسط . اذ بات باستطاعة الامبريالية الاميركية التستر خلف امبرياليات ثانوية في تلك المنطقة ، واسرائيل احداها . وتاطعني عصام ليؤكد ان معاداة السامية ولدت في أوروبا خلال القرون الوسطى . وهو على حق ان كان يقصد اضطهاد اليهود ، وبالاخص تلك التي قامت بها المحاكم

الدينية آنذاك ، اذ لا يمكن انكار الحملات المسيحية المعادية لليهود في شرق اوروبا . وبما ان معاداة السامية هي علة وجود الصهيونية ، فان الصهاينة انفسهم باتوا يقبلون بذلك التفسير . ولكنني أعتقد ان الصهيونية هي ظاهرة القرن العشرين وهي نسخة مطابقة تماما لنموذجها الاصيل : الاستعمار . وقد برهنت منذ ولادتها على القدر نفسه من اللؤم الذي اتسم به الاستعمار حينما ادعي نشر قيم ١٧٨٩ الثورية عبر العالم ، بينما كان ينشيء نظام عبودية يمكنه من زيادة ارباحه . اذ ان الصهيونية اهتمت ظاهريا بالاحتفاظ بملجأ يحمي اليهود من معاداة السامية الغربية بينما كانت تبني ، في الواقع ، دولة ثيوقراطية بعد أن طردت شعبا بأسره . فأسلوب الاحتلال كان هو نفسه تقريبا في الحالتين : بضعة رواد بدائيين في افكارهم ، او مغامرين لا يتورعون عن ارهاب السكان المحليين او قتلهم . . .

ولكنكم تعرفون هذه الامور افضل مني . أما القسم الاخير من السؤال فأقول بصدده انني لا أرى اي حل خارج اقامة الاشتراكية . ولكن ذلك الحل لن يتم ما لم يدرك الاسرائيليون ضرورة الثورة الاشتراكية . ونحن الآن ، على ما يبدو ، بعيدون كل البعد عن ذلك الادراك . فاسرائيل اليوم مأخوذة بارادة القوة والعظمة .

واذا استعملنا كلمة اشتراكية بكثرة كما سبق ، يحق لكم طرح السؤال : « هل انت مستعد للقبول بعالم اشتراكي ؟ » اذا كانت هي الاشتراكية المطبقة في خطوطها العريضة — بدرجات متفاوتة — في كافة انحاء العالم ، فانني أرفضها دون شك ولكنني سأقبل المساهمة بشكل مطلق في خلق عالم تكون فيه الاشتراكية صيرورة دائمة .

دعم الثورة الفلسطينية في الغرب

سؤال : ما هو رأيك في حركة المساندة للثورة الفلسطينية في فرنسا والغرب عامة ، وبامكانيات اتساع نطاقها ؟ ماذا يستطيع الفلسطينيون واصدقاؤهم العمل في هذا المجال ؟

جواب : اذا كانت الحكومة الفرنسية مكرهة — وذلك لاسباب اقتصادية : بترول الشرق الاوسط — على الادلاء ببعض التصريحات المبدئية لصالح الفلسطينيين ، كالاعتراف بحقهم في الوجود وحتى بحقهم في تقرير مصيرهم ، أو التساهل بشأن وجود شبه تمثيل للفلسطينيين في فرنسا ، فان ذلك لا يجب أن يخدعنا : فالحكومة الفرنسية قد سلمت اسرائيل ، خلال اثني عشر عاما ، كميات هائلة من الاسلحة . واعطاؤها النصيحة بعدم استعمال تلك الاسلحة ، كما فعل الجنرال ديغول في سنة ١٩٦٧ ، ضرب من السخافة الطفولية — هذا ان لم يكن مناورة تدخل في لعبة فرنسا المزدوجة — . فكيف تريدون من دولة دفعت ذلك الثمن الباهظ مقابل تلك الاسلحة ، ان تطيع نصائح بائع الاسلحة هذا ؟ ان الحكومة الفرنسية تعلم كل العلم ان اليهود يسيطرون على الصحافة الفرنسية بأكملها تقريبا ، وان اسرائيل ما زالت تتمتع بعطف أكثرية يهود فرنسا . لذلك أعتقد ان ما تم انجازه هو جيد بالفعل : اي الضغط على البلدان البترولية كي تضغط بدورها اكثر واكثر على الحكومة الفرنسية لاستقبال الفلسطينيين في فرنسا . أما الحركة المساندة لفلسطين بحد ذاتها فما زالت ضعيفة ومعرضة دائما لتهمة معاداة السامية . فالمواقف المتخذة ما زالت ذات طابع انساني أكثر منه سياسي .

على اي حال فان قضائي معظم أوقاتي خارج فرنسا يمنعني من اتخاذ موقف على نحو ما تطلبونه مني . ولكني أعتقد أن الاكثار من الدراسات حول شعب قيد التكوين — على نحو الدراسات التي يقوم بها العلماء حول نجوم قيد التكوين — قد يعود علينا بالفائدة . عندئذ ، يجب دراسة فلسطين كما هي — لا كما ستصبح — فذلك مستحيل — اي كما هي منذ ان حرمت من ارضها — وحتى منذ ان تم سحب الاراضي الاردنية واللبنانية

الجنوبية من تحت أرجل الفدائيين .

وبينما اعتقد الناس ان كل تلك المصائب والتراجعات قد اضعفت فلسطين واجهزت عليها ـــ تماما كما توقعها دايان ـــ اذا بها تبدو اقوى من ذي قبل . وهذه هي الظاهرة التي علينا دراستها لمساعدة الثورة .

الادب والفن في الثورة

سؤال : ما هو الدور الذي يمكن للادب والفن ان يؤدياه في الثورة ، وفي المعركة من أجل تحرر الانسان ؟.

جواب : التوضيح واجب هنا ايضا . هنالك ثورة اجتماعية واقتصادية واحدة ترافقها ثورات فنية متعددة : ثورة في الرسم ، في الموسيقى ، في الادب الخ . . . هذا اذا امتنعنا عن التطرق الى الثورة الثقافية التي هي شيء آخر ايضا . وبشكل عام ، فان الحديث عن دور الفن في الثورة يجرنا بشكل طبيعي الى فكرة جعل الفن البرجوازي في خدمة الثورة . فنحاول مثلا استعمال الرواية لمحاربة البرجوازية ، بينما الفن الروائي هو بنظري تعبير برجوازي . انا لا أعرف رواية بروليتارية ، كما انني اشك في قبول بروليتاري او ثائر لتلك الثورات الصغيرة التي تم القيام بها داخل الفن الروائي في السنوات الاخيرة . كانت ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ عملا رائعا. واحداث ثورة في الرسم، كما فعل سيزان خلال عزلته ، هو عمل جميل ايضا . لكن رجال اكتوبر ١٩١٧ استولوا على السلطة السياسية وبادروا ، منذ سنة ١٩٢٤ ، الى منع معارض سيزان وكل الرسامين الذين فهموا أمثولته . ولئن كانت الثورة السياسية والثورة الفنية لا تتناقضان دائما ، فعلينا الاعتراف بأن كل ثورة ترغب في أن تمدحها تلك الاكاديمية نفسها التي يراد تحطيمها .

« معركة من أجل تحرير الانسان » . لا شك في ذلك . لكن الثورات الفنية هي كماليات تتعدى امكانات الثوار السياسيين . انني اؤمن بقوة ان عمل الفنان يجب ان يترك حرا . فليس بامكان أحد اداء النصائح له . **واذا كان بامكان الفنانين مساعدتكم من حين لآخر ، فلن يكونوا بالتاكيد افضل من ساعدكم .**

فالامر لا يتعلق بالفن ، بالنسبة للثورة ، بل بالمعلومات . لذلك علينا القبول بتلك المقولة : ان الفن الذي ستستعمله الثورة هو فن سيرفضه الفنانون ، منعزلين كانوا أم لا ، ويستبدلونه بفن جديد .

وفي حال قبولنا للمصطلحات السياسية ، علينا الاقرار بأن الفن مرتبط باليمين واليسار في آن واحد . فهو ، وان كانت جذوره متأصلة في التقاليد، ينعكس او يرغب في الانعكاس في مستقبل يكون قد صاغ جزءا بسيطا منه بيديه . وتلك الازدواجية في العمل الفني تجعله صعبا ضمن معركة سياسية .

ولنذهب الى ابعد من هذا الحد . العمل الفني هو في نظري على نوعين، وتحديد النوعين حسب وظيفة كل منهما لا يجب أن ترافقه أية مفاضلة . هنالك من جهة العمل الذي يخدم الثورة ، وهو بناء بهذا المعنى ، مع كونه يهدم القيم البرجوازية . وهنالك نوع آخر من الاعمال الفنية ، عنيف وتحريضي بالضرورة ، بمعنى انه يرفض التسليم **باية قيمة ، وباية سلطة** . فهو يناقش حتى وجود الانسان . وهذا هو النوع الذي كنت أقصد عندما قلت ان العمل الفني لا يمكن ان يخدم الثورة وانا الح على انه يرفض **كل قيمة وكل سلطة .**

هل يجب ربط الفن بالثورة ؟ الكلام هنا أسهل من الفعل . فكيف يمكننا ربط سهام تنطلق باتجاهات مختلفة ؟ فلنأخذ مثلا فظائع الحرب لغويا (Goya)وهي مجموعة لوحات كرسها

« غويا » لادانة الحروب النابليونية . وكل من أتيحت له فرصة تأمل المجموعة باكملها سحر بجمال ذلك العمل الفني . فروعة المشهد تنسينا ادانة الحرب التي يتضمنها ، نظرا لانهماكنا بخفةخطوط « غويا » وحيويتها . ما هي حالة المتأمل بذلك العمل ؟ يمكنني وصف شعوري كما يلي : حالة جمود باطني ، مستمرة في بحث لا متناه عن الجمال ، دون ان ينتهي الجمود . فهذه نقطة اللاعودة بالنسبة لها ، وهي ان تخطتها أطلت على حالة من الانبهار ، وفي حدها الاقصى ، الموت .

اما الثورة ومتطلباتها فهي دائما عبارة عن أوامر عمليـــة ، وقولي ان العمـــل الفني تحريضي ، انما يعني انه في آخر المطاف يهز كل نظام قائم ، والعمل الفني الذي يتهجم **مرحليا** على بعض القيم ، ويحاربها ويقوم بتحقيرها ، يبدأ أيضا ، وبالحركة نفسها ، بارساء أسمى سلطات الثورة . قد تقولون انها سلطات الشعب ، وانها مطلقة بما ان الشعب سيد مصيره . لكن علينا تقبل تلك الفكرة القائلة بأن أية ثورة لن تنتصر على الموت . وعلى الرغم من ذلك ، فمن واجب الثورة تشجيع أضدادها : الاعمال الفنية . وذلك لان العمل الفني — وهو نتاج الكفاح المنفرد الذي يخوضه الفنان — يميل الى التأمل . وهذا الاخير قد يتحول ، في المدى البعيد الى هدم لكل القيم ، برجوازية أم لا ، وابدالها بشيء آخر سيشبه أكثر فأكثر ما نسميه **حرية** .

لكننا ما زلنا بعيدين عن كل هذا . فالعمل الثوري له مكانته في النضال الثوري ، لكنه عرضة لكافة انواع التبجح والرشوة ، كما هو الآن ، وكما سيظل لامد طويل ، ضمن العالم البرجوازي . الفنان متواضع . والعمل الفني سوف يصبح مجرد تجربة تواضع ، أكثر فأكثر . أنا لا أقول غباء — بل تواضع . بينما هو حاليا ، أكان ذلك في العالم البرجوازي أم ضمن الثورة ، أداة سلطة . اما العمل الحرفي ، فيمكنه رد الذي يمارسه الى مواقف أكثر وأكثر رجعية . فلنأخذ مثلا صناعة الفخـــار بما انهـــا وسيلة للعيش بالنسبة لعدد كبير من العائلات في بعض البلاد العربية — وكونها كذلك هو سبب كاف يدفعنا الى المحافظة عليها ، لان الحاجة الاولى لاي كائن هو البقاء ، أي العيش . ان الحرفي مضطر ، كي يلبي طلبات زبائنه الذين يمرون به مرور طريق ، ان يعيد ، الى ما لا نهاية ، صنع الشكل ذاته للاواني التي يريد بيعها ، وهو الشكل الذي كان موجودا منذ الفي او ثلاثة آلاف سنة ، والذي يخاله السواح مرتبطا بشكل او بآخر ، بالبلد او بالمنظر . وسيعيد الخزفي صنع تلك الاشكال عشرة آلاف أو عشرين الف مرة . واذا أراد حقا ان يبيعها ، فتلك الاواني يجب ان تطابق تماما الفكرة التي تكونت عنها في ذهن السائح . وابسط خطأ كاف لجعل الاناء فاشلا يستحيل بيعه .

اما اذا حوّر بيكاسو شكل أي اناء ، فسيكسب ذلك الاناء قيمة بقدر ابتعاده عن الشكل القديم الاكاديمي . وكلما وضع بيكاسو من ذاته في الاناء ، ومن حريته الذاتية ، أي كلما كان الاناء تعبيرا عن حريته وشخصيته هو ، كان جميلا ، ومباغـــا . لكن أقل هفوة تتعرض لها الطينة الرطبة بين يدي الحرفي تعتبر خطأ . ولا يمكن للحرفي ان يواصل العمل في ذلك الخطأ ، او ان يدخل حريته في صنع الاناء عبر ذلك « الخطأ » . فالاناء لا يجب أن يحوي قدر ذرة من شخصية الحرفي .

ان العمل الفني — ونتكلم هنا عن الفن البرجوازي او الذي تقبله البرجوازية — يترك أوسع مجال للعوامل الذاتية لدى المرء . ولئن كان من الممكن ان تثير تلك العوامل الذاتية عواطف الناظر ، فمن المشكوك فيه أن تكون سلاحا ثوريا . اما اذا ابتعد الفنان عن عوامله الذاتية — رافضا كل ما هو عاطفة وشعور — فقد يكسب أبعادا جديدة : ذلك التطلع الى الموت مثلا الذي سبق وتكلمت عنه ، والذي هو بمثابة دعوة الـــى التأصل لا الى النضال . وأخيرا ، ربما كان احدى تعريفات العمل الفني : انه شيء لا يفي بأية حاجة .

شاعت حاليا اداة تعبير واتصال بسيطة الى حد مـــا وهي السينما . واننى اتساءل عما اذا كان من الممكن لبعض الفدائيين ـــ او مناضلين غيرهم ـــ أن يزودوا بآلات تسجل الصوت ايضا ، كي ينتجوا افلاما صغيرة ، يكتشفون بانفسهم التقنية والجمالية الاكثر ملاءمة لها ، ويتم عرضها في المخيمات فيما بعد .

وفيما يختص بالثورة الفلسطينية ، فهي على حق عندمـــا تستعمل الاشكال الفنيـــة البرجوازية ، ولكن ذلك الاستعمال قد يعرض الثورة للخطر ، اذا اغراها استغلال المواضيع ، والصور ، والكليشهـــات نفسها ـــ أي الاكاذيب نفسها ـــ التي تساند البرجوازية . وهنالك ما هو افظع : ففنانو البرجوازية (البارعون بينهم) هم هامشيون بالنسبة لتلك البرجوازية ، والفن الذي انشأوه يعمل ضد السلطة البرجوازية ، الى حد ما (على نطاق اضيق جدا من الواقع) واذا وضع فن باكمله في خدمة الثورة ، فقد يصبح باكمله ايضا ، في خدمة السلطة السياسية داخل الثورة . ولا اعتقد ان ذلك مما يحمد له ، الا اذا اعتبرنا ان السلطة الثورية قادرة ، في كل الاحـــوال ، على تقويم وتشجيع ثورة أدبية ، أو موسيقية ، الخ ...

لم تحدث بعد ـــ على حد معرفتي ـــ أية ثورة فنية فلسطينية . وعلى الرغم من أن كل الطاقات الفكرية قد جندت للمساهمة في المعركة السياسية أو المسلحة ، فمن الممكن ان يظهر فنان ما ـــ منفرد أو لا ـــ يتمتع بالقوة الكافية كي يعرض علـــى شعبه اشكالا جديدة ، اكثر وضوحا وجلاء . وحذار من احباط عزيمته حينذاك ، بحجة عدم أهلية الناس البسطاء : فالبسطاء سوف يستوعبون الفن الجديد بطريقة افضل من واضعي نظريات الثورة ، الغارقين في لجج الثقافة البرجوازية .

ومساندة للفنان المنعزل ، أود ايضاح ما يلي : ان العمل الفني هو دلالة على رفض القوانين العادية ـــ أي قوانين العادة ـــ من أجل اكتشاف قوانين جديدة قد تفتح السبيل للغة جديدة . فالعالم العربي في حالة جمود منذ اكثر من مئة وخمسين سنة . وسيشكل احجام الثورة الفلسطينية عن اعطاء الفنانين فرصهم للخلق خسارة كبرى . اما هؤلاء الفنانون ، فسيستخدمون ، للتوصل الى اهدافهم ، أساليب كل الناس ، الاساليب التي يستطيعون استخدامها . فليست هنالك ثمة مدارس ، ولا وجود لاية قواعد ، الا تلك التي يجب هدمها لاستبدالها بقواعد جديدة .

الفنان ضعيف ـــ وعلى الثورة حمايته حتى في نطاق الاخطاء التي قد يرتكبها ـــ لكنه في الوقت نفسه أحد أقوى أسلحة الثورة التحريضية .

صدر حديثا عن مركز الابحاث باللغة الانجليزية كتاب

مجلة نيو ستيتسمان والشرق الاوسط

بقلـــم

خالد قشطيني

يعرض المؤلف في الكتاب لمواقف المجلة من قضايا الشرق الاوسط ، وخاصة قضية فلسطين ، وذلك منذ أول صدورها ، كمجلة تقدمية يقرأها معظم مثقفي العالم الثالث ، وحتى الوقت الحاضر حيث توسعت المجلة بدعمها للصهيونية واسرائيل مما يدحض ادعاءها بالاشتراكية والتقدمية .

١٤٤ صفحة ، بليرتين لبنانيتين فقط

تضاف اليها أجور البريد الجوي : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ،

١٠٠ ق.ل. في اوروبـــا ، ٢٥٠ ق.ل. في سائـــر الـــدول.

الخروج من ساحل المتوسط

محمود درويش

جاء في الأنباء : أن قبور
الشهداء تتحرك في غزة ! .

١ – سيلٌ من الأشجار في صدري
أتيتُ .. أتيتُ
سيروا في شوارع ساعدي تَصِلُوا .

وغزّةُ لا تصلّي حين تشتعلُ الجراح على مآذنها ، وينتقلُ الصباح الى موانئها ، ويكتمل الردى فيها .

أتيت .. أتيتُ
قلبي صالحٌ للشربِ
سيروا في شوارع ساعدي تَصِلوا .

وغزةُ لا تبيع البرتقال لأنه دمُها المعلّبُ . كنتُ أهرب من أزقّتها ، وأكتبُ باسمها موْتي على جمّيزةٍ ، فتصيرُ سيّدةً وتحمل بي فقّ حراً .

فسبحان التي أسْرَتْ بأوردتي الى يدها !.
أتيتُ .. أتيتُ
غزة لا تصلّي .

لم أجد أحداً على جرحي سوى فمها الصغير ..
وساحلُ المتوسط اخترق الأبد ..

٢ – لا توقفوني عَن نزيفي !
ساعةُ الميلاد قلّدت الزمان ، وحاولتني .
كنتُ صعباً – حاولتني
كنتُ شعباً – حاولتني مرة أخرى ..
أرى صفـاً من الشهداء يندفعون نحوي ، ثم يختبئون في صدري ، ويحترقون .

ما فـتّكَ الزمانُ بهم ، فليس لجثتي حدّ . ولكني أحسّ كأن كلّ معـارك العرب انتهتْ في جثتي ، وأودّ لو تتمزق الأيام في لحمي ويهجرني الزمان ، فيهدأ الشهداءُ في صدري .. ويتفقون :

ما ضاق المكان بهم ، فليس لجثتي حـدّ . ولكنّ الخلافة لا تزال أهمّ من أعدائـكم وترابكم ورسولـكم –
لا توقفوني عن نزيفي

ساعةُ الميلاد قلّدت الزمان وحاولتني .
كنت صعباً – حاولتني مرة أخرى
أرى صفاً من الشهداء يندفعون نحوي
لا أحـدْ ! .

٣ – وتقاسمتْني هذه الأمم القريبة والبعيدةُ .
كلُّ قاضٍ كان جزّاراً
تدرّج في النبوءة والخطيئة
واختلفنا حين صار الكل في جزء ،
وصار الجرح وردتنا جميعاً
فابتعدنا ..
إذهبْ الى الموت الجميلِ –
ذهبتُ .
وحدي كنتُ

قلتم : نحن ننتظر الجنازة بالأكاليل الكبيرة والطبول ،
ونلتقي في القدس ..
ليتَ القدس أبعدُ من توابيتي لأتمّم الشهودَ
وما عليك ! ذهبتَ للموت الجميل
ومدينةُ البترول تحجز مقعداً في جنة الرحمن — قلتم لي .
وطوبى للمموّل والمؤذّن .. والشهيد !

٤ — تَعِبَ الرثاءُ من الضحايا
والضحايا جَمَّدتْ أحزانها
أوّاه ! مَنْ يرثي المراثي ؟
لستُ أدري أيّ قافية تحنّطني ، فأصبح صورة في معرض الكتب القريب
ولستُ أدري أيّ إحصائيّة ستضمني ..
يا أيها الشعراء .. لا تتكاثروا !
ليست جراحي دفترا .
يا أيها الزعماء .. لا تتكاثروا !
ليست عظامي منبراً .
فدعوا دمي — حبرَ التفاهم بين أشياء الطبيعة والاله
ودعوا دمي — لغة التخاطب بين أسوار المدينة والغزاة .
دمي بريدُ الأنبياء .

٥ — وأعود من تلقاء نفسي ..
ليت شُبّاكي بعيد كي أرى أمي
وليت القيد أقرب كي أحسّ النبض في زندي
وليت البحر أبعد كي أخاف من الصحاري
آهِ ، ليت الشيء عكس الشيء كي تتآكل الأشياء في نفسي ، وتأخذَ صيغة الفرح الحقيقيّ

ابتعدنا واقتربنا

يا أهالي الكهف قوموا واصلبوني من جديد
إنني آتٍ من الموت الذي يأتي غدا
آت من الشجر البعيد
وذاهبٌ في حاضري – غدكم .
أنا قشرتُ موجَ البحر زنبقةً لها معنى .
وغزةُ لا تصلّي ..

٦ – سيلٌ من الأشجار يخرج من ضلوع الصخر – يصقلني الفناء
وجدولٌ يمتد من صدري عموديّاً – وتنحدر السماء
رأيتُ رأي القلب – ذوّبني الضياء
فصرت صوتاً ، والحصى صار الصدى
وتنفّس القبرُ القديم ..
تحرّك الحجرُ .. استردّ دبيبَهُ منكم
أنا الأحياء والمدن القديمةُ . حاولوا أن تخلعوا أسماءكم تجدوا يديّ .
وحاولوا ان تنزعوا اثوابكم تجدوا دمي . أوحاولوا أن تحرقوا هذي الخرائط
تبصروا جسدي –
أنا الأحياء والوطن الذي كتبوهُ في تاريخكم ..
من جثتي بدأ الغزاةُ ، الأنبياء ، اللاجئون –
وفيه يختتمون سيرتهم لأبدأ من جديد .

٧ – تتحرّكُ الأحجارُ .
هذا ساعدي متمايل كالرعبِ
ليس الربّ من سكّان هذا القفرِ
هذا ساعدي .
تتحرك الأحجارُ .
ما سرقوا عصا موسى
وإنّ البحر أبعدُ من يدي عنكم

إذن ، تتحرك الأحجارُ
إن طلعوا وان ركعوا ، وإن مرّوا وان فرّوا –
أنا الحجرُ .. أنا الحجرُ الذي مستّهُ زلزلةٌ .
رأيتُ الأنبياء يؤجّرون صليبهم
واستأجرتني آيـةُ الكرسيِّ دهراً ، ثم صرت بطاقةً للتهنئات
تغيّر الشهداءُ والدنيا
وهذا ساعدي .
تتحرك الأحجارُ
فالتفّوا على أُسطورةٍ
لن تفهموني دون معجزةٍ ، لأن لغاتـكم مفهومةٌ . إنّ الوضوح
جريمةٌ . وغموض موتاكم هو الحقّ – الحقيقةُ .
آه ، لا تتحرك الأحجار إلّا حين لا يتحرك الأحياءُ
فالتفّوا على أُسطورةٍ :
سيل من الأشجارِ ، غزةُ لا تصلّي ، ساحلُ المتوسط اخترق الأبدْ .

٨ – لن تفهموني
تخرج العذراءُ من ضلعي
تكون مشيئتي
وأُصابُ بالأمطار والبرق الذي أدمنتهُ
لن تفهموني
ناهضاً من قبركم
والأرضُ للشهداءِ –
أنهيتُ المغامرة الأخيرة وابتدأتُ :
هنا الخروج . هنا الدخولُ
هنا الذهاب . هنا الإيابُ
ولا مكانَ هنا
أنا الزمن الذي لن تفهموني خارجَ الزمن الذي ألقى بكم في الكهفِ –
هذي ساعتي :

ينشقّ قبرٌ ثم أنهض صارخاً :
لا توقفوني عن نزيفي
لحظةُ الميلاد تسكنُني من الأزلِ ، استريحوا في جراحي –
ها هو الوطن الذي يتجدّدُ ، الوطن الذي يتمجّدُ ، اقتربوا من
الاشجار ، وابتدئوا معي !

٩ – في غزةَ اختلفَ الزمان مع المكانِ
وباعةُ الأسماكِ باعوا فرصة الامل الوحيدَ ليغسلوا قدميّ
أين المجدليه ؟
ذابتْ أصابعها مع الصابون
وانهمرت كتاباتٍ كتاباتِ
وكان الجندُ ينتصرون ينتصرون
كانوا يقرأون صلاتها
ويفتّشون أظافرَ القدمين والكفين عن فرَحٍ فدائيّ ،
وكانوا يُلحقون حياتها
بدموع هاجَرَ . كانت الصحراء جالسةً على جلدي . وأوّلُ دمعة
في الارض كانت دمعةً عربيّةً . هل تذكرون دموع هاجر – أوّلِ امرأةٍ
بكتْ في هجرة لا تنتهي ؟
يا هاجَرُ ، احتفلي بهجرتي الجديدةِ من ضلوع القبر حتى الكون أنهضُ
يسكنُ الشهداءُ أضلاعي الطليقةَ
ثم أمتشق القبورَ وساحل المتوسطِ
احتفلي بهجرتيَ الجديدهْ .

النفط العربي
في استراتيجية المجابهة العربية الاسرائيلية *

الدكتور يوسف عبدالله صايغ

مقدمـــة

صلة النفط بالقضية الفلسطينية صلة متعددة الجوانب . فهي **من الناحية الزمنية صلة تاريخية** اذ كان هناك بعد نفطي أو مصلحة نفطية، الى جانب الابعاد والمصالح الاخرى، خلف الجهد الامبريالي لارساء أسس الاستعمار الصهيوني في فلسطين وتوطيده في قلب العالم العربي ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشريـــن . وهي صلة معاصرة الى المدى الذي تعزز فيه الامبريالية الغربية اليوم علاقتها بالوجود الاسرائيلي وتعينه على التشبث بمكتسباته وتوسيع رقعتها في الوطن العربي .

وهي ، **من الناحية الوظيفية ، صلة عسكرية وسياسية واقتصادية** في آن واحد ، الى المدى الذي تتشابك فيه مصلحة الامبريالية الغربية المعاصرة بالمصلحة الاسرائيلية في هذه الحقول الثلاثة ، من خلال الاستغلال الغربي لموارد النفط العربية وتحويل هذه الموارد الى مصدر قوة عسكرية وسياسية واقتصادية للبلدان الغربيـــة التي تنتمي المصالح النفطية اليها ، ومن خلال تحويلها الى أداة رعب تشل الارادة العربية وتشوه الرؤيا العربية للمصالح العربية الحقيقية .

وهي أيضا ، **من ناحية نظام العلاقات بين البلدان والدول ، صلـــة معقدة تمتد عبر مستويات متعددة** ، لان للنفط دورا معقداً في أطار المجابهة العربية الاسرائيلية ، حيث يفعل النفط ـــ او يمكنه أن يفعل ـــ ضمن الاطار العربي على أصعدة التعاون العربي والانماء والتحديث والتسلح وخلق مجتمعات عدل وتكافؤ فرص ، ويفعل أو يمكنه أن يفعل ضمن الاطار الدولي الاوسع كجهاز ضغط على الغرب وكمادة رئيسية للمساومة ، ويفعل أو يمكنه أن يفعل في خلق توازن مع القدرة الاسرائيليـــة المضادة القائمة في الاساس على دور اسرائيل أو صورتها في العالم الخـــارجي كمجتمع حديث متقدم ، وكتجربة اجتماعية تدعو للتمعن ، وكبلد ذي فاعلية عسكرية بارزة .

وهي أخيرا ، اذا نظرنا اليها من الزاوية الواسعة لمجابهة القوى الفلسطينية العربية

---

* اعتمد الكاتب في القسم الثاني من هذا البحث على دراسة بعنوان « سبل استخدام النفط العربي لصالح القضية الفلسطينية » أعدها في نيسان (ابريل) ١٩٧٢ للمجلس الاقتصادي العربي بتكليف من لجنة وزارية فرعية في المجلس . وقد شكلت هذه اللجنة لجنة خبراء لتقييم المصالح الاقتصادية العربية/الاجنبية وسبل استخدامها لصالح القضية الفلسطينية . اما الصيغة الحالية فقد أعدت بنـــاء على طلب مجلس السلم العالمي والمجلس الوطني للسلم والتضامن في الجمهورية العراقية وقدمت للندوة العلمية المنعقدة في العراق من ١١ الى ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ حول « النفط كسلاح في الكفاح ضد الامبريالية والعدوان الاسرائيلي ووسيلة لتطوير اقتصاد وطني مستقل » .

للقوى الاسرائيلية الامبريالية ، **صلة جدلية** في اكثر من جانب من جوانبها . فبقدر ما يزداد شأن النفط في الوطن العربي يزداد فعل النفط كمصلحة عربية راسخة (Vested Interest) ويرتفع جدار التحفظات الرسمية العربية تجاه الضغوط الفلسطينية والشعبية العربية للقيام بعمل عربي شامل وحاسم تجاه اسرائيل والامبريالية . وبقدر ما يزداد التشبث العربي بالمكاسب النفطية يرتفع جدار الشك الفلسطيني بالارادة والتصميم العربيين على القيام بالعمل الشامل والحاسم . وكذلك ضمن الاطار الدولي ، فان العلاقة الجدلية تبرز من خلال تزايد التردد العربي في استخدام النفط كوسيلة ضغط ومجابهة مع الامبريالية الغربية كلما ارتفعت فاعلية النفط كوسيلة مجابهة، ومن الناحية الامبريالية يزداد الدعم لاسرائيل ويرتفع مستوى الاعتماد عليها كلما تصاعد شأن النفط العربي في الحياة الاقتصادية والعسكرية للغرب وتعاظمت طاقته كجهاز ضغط في المجابهة ، كما يزداد اطمئنان اسرائيل الى استمرار التردد العربي كلما ازداد تشبث العرب بمكاسبهم النفطية .

هذا التعريف المغرق في الاقتضاب يبدو وكأنه يؤكد ان صلة النفط بالقضية الفلسطينية حبلى بالتناقضات ، وكأنما هذه الصلة لا تلد في النهاية الا عكس ما يتوقع منها ، فبدلا من ان يصبح النفط قوة في يد العرب نراه وقد أصبح او كاد قوة في يد اسرائيل والمعسكر الغربي . هذا صحيح في ضوء المعطيات الموضوعية للواقع العربي اليوم . لكن اليوم ليس هو الغد ، ولو كانت رؤيانا للغد العربي انه امتداد للحاضر العربي لدعونا لانتحار جماعي للانسان العربي ولمجتمعه . والحلقة المفرغة التي تدور التناقضات ضمنها اليوم يمكن ان تكسر ، ومتى كسرت اصبح النفط قوة عربية في اليد العربية وتحولت مسيرة العلاقة الجدلية بين النفط والقضية الفلسطينية صوب الصالح العربي . هذه رؤيانا للغد الممكن التحقيق : اما مفتاح السر في تحقيقه وفي كسر الحلقة المفرغة فهو وضوح الادراك العربي لابعاد الخطر الصهيوني الاسرائيلي الامبريالي ، وتبلور ارادة النضال في المجتمع العربي ، والانعتاق من النظرة الضيقة للمصالح العربية الجزئية المتوقعة ضمن أفق زمني قصير الى رحاب النظرة الواسعة للوجود والمصير العربي المشترك الممتدة الى الافق الزمني البعيد . من هنا نبدأ والا انتهينا حيث نحن وجودا ومصيرا ، وخسرنا الموارد اياها التي نظن اننا نحرص عليها من خلال الارتهان للخوف في مجابهتنا للقوى الاسرائيلية الامبريالية .

* * *

اذن هذا هو الاطار الصحيح لفهم دور النفط في القضية الفلسطينية وبالتالي في المجابهة العربية الاسرائيلية . وتحديدا فاننا سنعالج الموضوع من خلال اسئلة رئيسية اربعة سنطرحها ونحاول الاجابة عليها في هذا البحث ، مركزين على امكانية استخدام النفط كجهاز ضغط عربي لصالح القضية الفلسطينية ، وشروط نجاح هذا الاستخدام . لكن لا بد قبل ان نفعل ذلك من تحديد بعض المنطلقات .

١ ــ المنطلق الاول يتعلق بنظرتنا الى النفط كمورد وكأداة . فلسوف يتضح اننا لا نعالج النفط كمجرد سلعة اقتصادية ، ولا نحن نحاول في محصلة التحليل مجرد اكتشاف كيفية تنظيم مردود انتاج وتصدير هذا المورد على أهمية هذا التنظيم ، لان اغراض البحث كما حددناها ليست اقتصادية بل سياسية استراتيجية تتعلق بالمصير العربي وبقضية فلسطين داخل هذا الكل . وكذلك فنحن نرفض الموقف الغربي الذي يرغب في ان نبقى النفط في منأى عن الاستخدام السياسي او الاستراتيجي وان نحصر استخدامه ضمن اطار التعامل التجاري البحت .

٢ ــ المنطلق الثاني ان النفط ، على عظيم شأنه ، ليس المورد الوحيد او الوسيلة الوحيدة الصالحة للضغط على العالم الخارجي لصالح القضية الفلسطينية . فهنالك

وسائل اخرى منها الارصدة العربية الضخمة في الخارج (وهي متصلة اتصالا وثيقا بمورد النفط ومصدراته) ، والتجارة الخارجية من البلدان العربية واليها ، وسائر الخدمات الاقتصادية كالنقل البحري والتأمين وسواها . على اننا في البحث الحاضر سنركز النظر على النفط الذي هو الموضوع المراد درسه .

٣ ــ المنطلق الثالث ان العالم الخارجي المستهدف من استخدام النفط كأداة ضغط يشمل جميع البلدان ، من عدوة وصديقة ، ولا عدوة ولا صديقة ــ أي في مختلف مواقع العداء والصداقة الممكنة ، والتي قد يكون لها قول او اثر في مجرى الاحداث . لكن البلدان المستهدفة بالضغط بشكل مباشر ستكون ــ كما سيتبين من سياق البحث ــ البلدان الغربية وخاصة تلك التي ساعدت منذ الاساس في نشوء الحركة الصهيونية الحديثة وفي قيام دولة اسرائيل والتي تساندهما الان وتمنحهما منعة وقوة واستمرارا ــ نعني بذلك الولايات المتحدة ثم بريطانيا .

٤ ــ المنطلق الرابع ان الاطار او المدى الزمني الذي يقع التحليل ضمنه يختلف باختلاف اجزاء التحليل ، فهو مدى قصير لبعض اوجه استعمال النفط ، وهو مدى متوسط او طويل للبعض الآخر . وسيحدد في كل جزء من البحث نوع المدى الزمني الملائم له .

٥ ــ المنطلق الخامس ان سبل استخدام النفط لصالح القضية الفلسطينية تتنوع فبعضها سلبي والبعض الآخر ايجابي ، وبعضها سلبي مرحليا فقط لكنه قادر على خلق حالة ايجابية بفضل رد الفعل المتوقع له . على اننا نشدد ان مسألة التصنيف الى سلبي وايجابي مسألة عابرة وينبغي الا نقع اسرى التسميات ، اذ أن المسألة المركزية هي الغرض النهائي للاستخدام .

٦ ــ المنطلق السادس ان استخدام النفط كما يرد في هذا البحث قضية معقدة وتنطوي على محاذير ومخاطر بالنسبة للعرب . وليس هنالك من اجراء او موقف او عمل لصالح القضية الفلسطينية لا ينطوي على محاذير ومخاطر . اذن فالاساس في الاستخدام ان يكون موقف العرب هو القبول بمخاطر واكلاف محسوبة اذا كانت محصلة الفعل ورد الفعل والتفاعل بالتالي في صالح قضيتهم ــ واختيار ذلك الموقف او القرار بين مختلف البدائل الذي تكون محصلته هي الافضل من وجهة نظر القضية .

٧ ــ المنطلق السابع ان التخطيط العربي ينبغي ان يتمتع بالمقدار الاكبر من المرونة بحيث يشمل مواقف واجراءات على درجات متفاوتة من الشدة وأن يستهدف القدرة على المناورة في مرحلة اولى هي مرحلة التلويح والانذار والتهديد ، كما يستهدف القدرة على الحاق الاذى بالقوى الخارجية المعادية او المراد التأثير فيها ، حين تفشل المرحلة الاولى ويتطلب الوضع الانتقال الى المرحلة الثانية التي هي مرحلة « عض الاصابع » او تجربة كل فريق لقوة الاحتمال لدى الفريق الآخر ، وفي اقصى حالاتها مرحلة العقاب . وبالطبع فان هذا المنطلق يفترض **التنسيق العربي** على الاقل من أجل التخطيط لكيفية استخدام النفط . كما يفترض التخطيط وضع **خطط لمختلف الاحتمالات** ليصار الى استعمال الخطة الملائمة في الموقف الملائم ، ابتداء من مرتبة التلويح والتهديد وصعودا الى مرحلة الحرج والحسم تصعيدا (Escalation) مع التهيئة لامكان التهبيط (De-escalation) كذلك ، وصيغ ذلك التهبيط ومرتباته .

٨ ــ المنطلق الثامن والاخير ان محاولة الاجابة على الاسئلة المركزية الاربعة التي سنتناولها بالبحث والتحليل تنطلق من الوضع العربي الراهن ولكنها ترفض اعتباره محطة نهائية . فلو لم تمتد رؤيانا الى وضع عربي افضل لاكتفينا بالقول ان البلدان العربية اليوم في حالة تشبه الشلل ولا قدرة لها على التحرك الديناميكي الفعال . واذن فاننا ، منطلقين مما هو كائن ، نتجه صوب ما هو ممكن اذا عبئت الارادة العربية .

ومفتاح السر في هذه التعبئة ــ فيما نعتقد ــ هو تحقيق مقدار من صفاء الادراك لحقيقة الخطر الصهيوني الاسرائيلي الامبريالي ولابعاده ، ودلالاته للمصير والوجود العربي ولمستقبل اجيالنا . ومتى اتضحت الرؤيا العربية ارتفعت درجة التحسس بالخطر وازداد القبول بالمواقف والاجراءات على كلفتها التي كانت مرفوضة قبل صفاء الرؤية والادراك للخطر .

من هنا ندخل صلب الموضوع من خلال التوجه صوب الاسئلة الرئيسية الاربعة التي هي مدار البحث ، وهي تعالج ما يلي : **اولا** ــ النفط والقوة الذاتية العربية ، **ثانيا** ــ النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية ، **ثالثا** ــ الضغط الاسرائيلي المعاكس ، **رابعا** ــ الغرب والضغط العربي .

اولا : النفط والقوة الذاتية العربية

منذ اللحظة الاولى يتوجب علينا أن نبين أن مصادر القوة الذاتية العربية متنوعة وليس النفط على كبير شأنه الا أحد مظاهرها المادية الملموسة . لكننا لسنا الآن في صدد تحليل هذه المصادر ، وبالتالي فاننا سنركز النظر على النفط . وينبغي بالتالي ابراز شأن النفط العربي من خلال تقديم خلاصة للوضع النفطي العربي ، وهي خلاصة تستند الى جداول الملحق الاحصائي :

خلاصة لابرز الحقائق حول النفط (سنة ١٩٧٠)

١ ــ نسبة احتياطي النفط الخام الثابت والمعلن الى احتياطي العالم بأسره :

في البلاد العربية	٤٩ر٧ ٪
في افريقيا غير العربية	٥ر٨ ٪
في الولايات المتحدة	٥ر٧ ٪
في نصف الكرة الغربي (الولايات المتحدة وكندا والكاريبي واميركا اللاتينية)	١٣ر٤ ٪
في البلدان الاشتراكية	١٦ر١ ٪

٢ ــ نسبة انتاج النفط الخام الى انتاج العالم بأسره :

في البلاد العربية	٣٢ر٦ ٪
في الولايات المتحدة	٢٠ر٣ ٪
في نصف الكرة الغربي	٣٧ر٥ ٪
في البلدان الاشتراكية	١٦ر٦ ٪

٣ ــ نسبة الاحتياطي الى الانتاج السنوي :

في البلاد العربية	١:٥٩ر٢
في الولايات المتحدة	١:١٢ر٨
في الكاريبي	١:١٠ر٦
في نصف الكرة الغربي	١:١٢ر٦
في البلدان الاشتراكية	١:٣٥ر١

٤ ــ نسبة صادرات النفط الخام ومشتقاته لجملة صادرات العالم :

من البلاد العربية : النفط	٦٣ر٣ ٪
النفط ومشتقاته	٥٤ر٨ ٪
من نصف الكرة الغربي : النفط	١٠ر١ ٪

النفط ومشتقاته	٪ ١٧ر٧
من البلاد الاشتراكية : النفط	٪ ٢ر٥
النفط ومشتقاته	٪ ٣ر٧

٥ ــ نسبة انتاج النفط الخام الى استهلاكه :

في البلاد العربية	٪ ١٠٥٠
في الولايات المتحدة	٪ ٦٨ر٦
في أوروبا الغربية	٪ ٣ر٦
في اليابان	دون ٥ر٠ ٪
في البلاد الاشتراكية	٪ ١١٢ر٧

٦ ــ عائدات تصدير النفط الخام من البلاد العربية (عدا مصر وسوريه)
سنة ١٩٧١ ٦٩٨٠ مليون دولار

٧ ــ تقدير عائدات تصدير النفط لعام ١٩٧٥ ١٥ر١١٨ مليون دولار

تتضح من هذه الخلاصة ومن الملحق الاحصائي ذاته ، الاهمية العالمية للنفط العربي ودرجة الاعتماد العالية على هذا النفط ــ وهي اهمية تتبدى من خلال عدة مؤشرات أبرزها ارتفاع نصيب البلدان العربية من المخزون او الاحتياطي النفطي الثابت وتصاعد تقديرات هذا الاحتياطي عبر السنين ، وارتفاع الانتاج السنوي وتزايده عاما بعد عام بثبات وبأكثر من تزايد الانتاج العالمي ، مما رفع نسبة الانتاج العربي لجملة الانتاج العالمي خلال الستينات ، وارتفاع نسبة ما يدخل التجارة العالمية من النفط العربي ان منسوبا الى جملة الانتاج العربي او الى جملة التجارة العالمية ، واخيرا استمرار اعتماد العالم الغربي على النفط العربي وتزايد هذا الاعتماد تزايدا شاهقا .

وكذلك وبقليل من التمعن تتضح حقيقة في غاية الخطورة هي ان انتاج النفط وتصديره اكثر نواحي العلائق الاقتصادية أهمية بين العرب والعالم الخارجي ــ وان هذه الاهمية ذات طبيعة اقتصادية في الواقع والظاهر لكنها ذات اهمية سياسية وعسكرية قصوى كذلك ، وان يكن العرب لم يفيدوا بعد من طاقة النفط كعامل سياسي عسكري . وهنا ينبغي ان نبين اننا نقصد بالعالم الخارجي العالم الغربي لاغراض هذه الدراسة ــ كما سيتضح من سياق البحث ــ ونحن نضع اليابان في اطار العالم الغربي لان هذا البلد يملك شيئا من رأس مال الشركات المنتجة للنفط ، شأنه في ذلك شأن فرنسا او بريطانيا أو سواهما من بلدان الغرب ، ولكون اليابان تصنف مع البلدان الغربية في « منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD » وهي ليست بدون دور سياسي في مجموعة البلدان الغربية .

اما اهمية الناحية النفطية في العلائق الاقتصادية العربية ــ الغربية فليست بسبب حجم المبيعات النفطية وقيمتها فحسب ، وانما كذلك بسبب الدور البالغ الخطورة الذي يلعبه النفط في حياة المستوردين اليومية وفي صناعتهم ووسائل نقلهم وفي قدراتهم العسكرية على السواء ــ مما يجعله سلعة استراتيجية حيوية من الطراز الأول ، وايضا بسبب الدور الذي يلعبه في الحياة الاقتصادية للبلدان العربية المصدرة للنفط ، ولبلدان المرور بما يجنيه من عملات اجنبية ودخل وبما توفره عائدات استخراج النفط ومروره من موارد للاستخدام في الاستهلاك الخاص والعام (ويتضمن الاستهلاك العام حاجات الدفاع) وفي التثمير الانمائي ايضا الخاص والعام ، وفي دعم الصمود العربي ، وبما يتيحه النفط من قوة سياسية لو استخدم لهذا الغرض ، واخيرا بما يسمح به فائض العائدات النفطية من تثميرات خارج البلدان المصدرة للنفط ومن تدعيم للاحتياطي المالي في الخارج .

***

السؤال الاول الذي نطرحه بعد تقديم هذه الخلاصة هو :

كيف يفعل النفط العربي في دعم القوة الذاتية العربية ورفع مستواها نوعية وفاعلية ؟ وتتطلب الاجابة على هذا السؤال النظر الى دور النفط من أربع زوايا متداخلة بطبيعتها .

١ ــ النفط كوسيلة انماء وتحديث وتحرر

زاوية النظر الاولى وهي تمتد الى الافق الزمني البعيد ، هي قدرة النفط على توفير الوسائل المادية اللازمة للانماء والتحديث في العالم العربي . وغني عن القول ان المجتمعات والاقتصادات العربية بحاجة الى تحقيق مستويات اكثر ارتفاعا ، من التنمية بمعناها الواسع ــ فالتنمية ليست مجرد تحقيق زيادة ملموسة في الناتج القومي الفردي على اهمية هذا الامر . ان تصدير النفط من البلدان الغنية بالنفط قادر في ذاته على تحقيق متوسط حسابي مرتفع للدخل الفردي . انما المقصود بالتنمية رفع فاعلية الاقتصاد الوطني وكفاءته ، وتحديث هذا الاقتصاد بنقل مؤسساته وتنظيمه وسبل انتاجه والتكنولوجيا المعتمدة فيه ــ وفي الاساس بنقل انماط التفكير فيه ــ الى القرن العشرين لتكون عصرية وعقلانية وفعالة .

واخيرا فان محصلة التنمية التي نقصدها تكون رفع مستوى الانتاج ثم ــ متى توفرت للمجتمع المفاهيم الصحيحة في نطاق عدالة التوزيع وتكافؤ الفرص ــ تحرير المجتمع من العوز والغيبية والخضوع للبيئة . واذن فان التنمية بهذا المعنى عملية تحررية وثورية شاملة ذات ابعاد تتخطى بكثير المفهوم الاقتصادي الضيق للمصطلح . وكذلك فان التنمية ــ كعملية ثورية ــ بفعل علاقة جدلية بين القوى التي تطلقها وتنطلق بها ، تخلق بمجرد انطلاقها ما لا نجد افضل من تسميته « ثورات مضادة » او تيارات معاكسة او سلبية في حقول الديموغرافيا والادخار والتثمير والتعليم والتطلعات الاستهلاكية وجمالية البيئة وخلافها من حقول . ومن الواضح ان المجتمع النير مدعو للاحتياط لهذه الثورات المضادة .

اين يرد دور النفط في كل هذا ؟ واين يقع كل هذا الجزء من البحث من موضوعنا العام ؟ الجواب بديهي دون ريب . فالنفط من ابرز وسائل تحقيق عملية الانماء ، وعملية الانماء من أقوى ركائز المجابهة العربية الاسرائيلية في المدى الطويل .

غير ان ابراز شأن التنمية في تمكين العرب من المجابهة يبرز في اللحظة نفسها تناقضا لا بد من التصدي له ، هو أن المجتمع الذي يبني قدراته الانتاجية يعز عليه ان يدخل في صراع مسلح يهدد بتدمير ما بناه . هذا التناقض لا يزول بمجرد ان نتجاهله، ولا هو يحل بمجرد ان نختار سبيل الاستسلام ، لان ما يظن انه مكتسبات يحميها الاستسلام من الدمار لا يلبث ان يتحول الى عمق استعماري لاسرائيل تستغله في ظل حالة الاستسلام فيصبح الاقتصاد الذي اريدت حمايته غنيمة لاسرائيل وحقلا لاستغلالها . واذن فان تنمية الاقتصاد والمجتمع برغم تهديد الدمار ينبغي ان تكون عملية مجازفة محسوبة ذات شقين : احدهما تنمية الاقتصاد والآخر تنمية القدرة النضالية العسكرية بشكليها الشعبي والنظامي لحماية المكتسبات الانمائية من خلال حماية الوطن .

يتصل بعملية التنمية ودور النفط في تحقيقها ، وبدور تحسين قدرة المجتمع على تحويل طاقاته الاقتصادية الى واقع في المجابهة مع اسرائيل ــ يتصل بهذين الدورين اتصالا وثيقا اعتماد العلم والتكنولوجيا اساسا لسيطرة الانسان العربي على بيئته الطبيعية ومفتاحا لحل مشاكله على تعددها . وهنا ينبغي التركيز على وجوب النظر الى العلم لا كأداة للسيطرة على البيئة وحل المشاكل وحسب ، بل ايضا وبالاولى كمنهجية تفكير واسلوب تطلع الى القضايا ومنحى في تحقيق انسانية الانسان . والنفط العربي ، كما

يبدو بوضوح ، وسيلة جبارة لتمكين العرب من الاخذ بالعلم الحديث وبتطبيقاته التكنولوجية ، وبتغذية البحث والتجربة في المعاهد العلمية والمؤسسات الاختصاصية .

٢ ــ النفط كوسيلة لتحقيق المجتمع العادل

فلما يفطن المختصون باقتصاد التنمية ، التقليديو النزعة ، الى الناحية الاجتماعية في التنمية . فهم يركزون على تعظيم الناتج القومي كأنما ذلك غاية في ذاته ، جاهلين أن المجتمع الطامح الى تحقيق مستوى رفيع من التنمية ، ومن القوة ، لا بد له من أن يشعر افراده بأنهم شركاء لا اجراء ، ومن أن تنال القوى العاملة فيه ثمار جهدها الانمائي ، ومن أن تترجم التنمية فيه لا الى فرص عمل ودخل متزايدة وحسب ، بل ومتكافئة كذلك . فلا قدرة لمجتمع يستغل أبناؤه مهما عظم الناتج القومي فيه على مجابهة عدو عنيد يجمع الى جانب قدراته العسكرية مقداراً واسعاً من المشاركة السياسية والاقتصادية بين مواطنيه .

وانه وان لم يكن للنفط دور مباشر في خلق مجتمع العدالة الذي نشدد على وجوب وجوده ، بل لعله حتى الان ادى دوراً معاكساً ، الا ان من الواجب التوضيح اولا ومن الناحية السلبية ان من الضروري الا يظل النفط اداة اثراء فاحش للقلة وتحسن اقتصادي طفيف للكثرة ، وثانيا ومن الناحية الايجابية ان من الضروري أن يستخدم النفط في تحقيق نمط من التوزيع أكثر عدالة للفرص والدخل والثروة ، الى جانب استخدامه في تعظيم حجم الناتج القومي للبلاد العربية .

٣ ــ النفط كوسيلة للتعاون الاقتصادي العربي

حتى الان أشرنا الى دور النفط في الانماء العربي وكأنما الوطن العربي قطر واحد او بلد واحد ذو سيادة واحدة . لكن الواقع أن الوطن العربي ممزق مشتت في سيادات وارادات متباينة ولم تعد لديه حتى رغبة التظاهر بنشدان الوحدة . ومع وضوح ضرورة الوحدة او على الاقل التعاون الصادق المنسق من ضمن تعدد السيادات في المجابهة مع اسرائيل ، تبرز اهمية العوامل التي تخلق جسور التعاون . من هذه العوامل النفط كمورد للتشغيل على الصعيد العربي المشترك ، وكحافز على التعامل التجاري المتسع ، وكوسيلة لتحسين نمط توزيع الثروة بين البلدان العربية ، وكطاقة لدعم الصمود ، وكأداة لتطوير بعض الصناعات الضخمة التي لا قبل لبلدان مفردة على تطويرها واستغلال انتاجها ضمن سوق متسعة ، وكجهاز لاعادة توزيع القوى والمهارات البشرية العربية في نمط أكثر عقلانية واقل قطرية .

٤ ــ النفط كوسيلة تسلح

أخيرا ، فان الموارد المالية لقطاع النفط العربي بمقدورها أن تمكن الدول العربية ــ خاصة دول « المواجهة » ــ من شراء الاسلحة الحديثة المتطورة والمرتفعة الاثمان لرفع الفاعلية العسكرية لهذه الدول . ومن الواضح ان السلاح المتطور الشديد الفاعلية يتطلب مستلزمات مالية باهظة قد لا يكون بمقدور بعض البلدان العربية القيام باعبائها منفردة .

ضمن هذا الاطار ، ومن خلال افتراض وجود الارادة العربية لرفع القدرة الذاتية العربية على الاساس القطري والقومي معاً، فان النفط قادر على الاسهام بشكل بارز في تحسين وضع العالم العربي بالنسبة الى المجابهة مع اسرائيل ضمن مدى زمني يتراوح بين القصير والبعيد .

ثانيا : النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية

بعد أن طرحنا السؤال الاول الذي تناول القدرة الذاتية العربية ، نطرح الان السؤال

الثاني وهو يتناول قدرة العرب في الضغط على العالم الخارجي ، وبالتحديد ، كيف يستطيع العرب أن يحولوا مورد النفط الى جهاز ضغط على القوى الخارجية ، لتحقيق تحول واضح في أوساط هذه القوى لصالح القضية الفلسطينية ؟ والاجابة على هذا السؤال تدور ضمن مدى زمني قصير الى متوسط — اي ان بالامكان استخدام النفط كجهاز ضغط خلال مدة زمنية أقصاها نحو خمس سنوات ، لاسباب سيوضحها البحث فيما بعد .

لقد طرحت جهات رسمية وخاصة في مناسبات ماضية مختلفة فكرة استخدام النفط كجهاز ضغط على العالم الخارجي . ولعل ابرز هذه المحاولات كانت محاولة الحكومة العراقية في مؤتمر وزراء المال والنفط العرب في بغداد في ١٥ آب (اغسطس) ١٩٦٧ والتي لم يكتب لها النجاح . وسنعمد فيما يلي ، وبشيء من التفصيل ، الى استعراض السياسات البديلة المطروحة او الممكن طرحها لهذا الغرض وذلك بتحديد طبيعة كل منها ، ومن ثم بتحليل مزايا السياسة ومساوئها ، آخذين بالاعتبار ما يترتب على كل سياسة مطروحة من نتائج ونتائج عكسية في البلدان العربية وفي الخارج على السواء ، ذلك ان مجموعة من القيود والحدود والروادع الاقتصادية والسياسية (وربما العسكرية) ترافق كل خيار مفتوح امام العرب ، وان الخيارات المفتوحة بدورها ذات جوانب وآثار اقتصادية وسياسية وعسكرية ، وان هذه الجوانب سواء أكانت في حساب القيود والحدود والروادع او في حساب الخيارات ليست كلها ايجابية او سلبية وانما هي تختلف وتتداخل ، كما يتبدل حجمها واثرها بالنسبة للافق الزمني المختار . لهذا يترتب علينا — توخيا للانضباط الفكري والمنهجية العلمية ان نوازن بين مختلف الآثار لكل من السياسات لنخرج بالتالي بمحصلة الحساب الصافي ، سلبا او ايجابا ، بشكل يمكن معه مقارنة محصلات جميع السياسات المطروحة وتسهل معه عملية الانتقاء بين هذه السياسات .

ولا بد من أن نبين ان المدى الزمني الاقصى الذي يدور التحليل خلاله بالنسبة لهذا القسم من البحث هو المدى المتوسط (اقصاه خمس سنوات) وذلك لثلاثة اسباب : **اولا** ، ان هذه المدة تمثل المهلة القصوى التي ينبغي التحرك ضمنها اذا أريد للقضية الفلسطينية الا تتحجر وللمكاسب الصهيونية الا تترسخ . **ثانيا** ، ان هذه المدة طويلة ويصعب التنبؤ بمدة أطول أو التخطيط لمدة أطول . **ثالثا** ، ان معطيات الطاقة ستتبدل تبدلا جذريا بعد هذه المدة من حيث اكتشاف مناطق نفطية جديدة او استثمار مناطق جديدة او قائمة الى مدى أوسع ، ومن حيث حدوث بعض التبدل في تكنولوجيا الطاقة وتبدل المركز النسبي لمصادر الطاقة البديلة للنفط .

ولكي ننقيد تقيدا تاما بالموضوعية فاننا سنترك للتحليل ان يدلل بنفسه على الاكثر فاعلية والاقل فاعلية من السياسات البديلة دون أن يعني تحليل المواقف حول اي من السياسات تبنيا لهذا التحليل بالضرورة . اما اختيار السياسة المفضلة فهو في التحليل النهائي من حق الذين يملكون القدرة على اتخاذ المقررات السياسية بعد أن يستعرضوا ما يضعه البحث بين أيديهم من وسائل تعين على اتخاذ القرار وتلقي ضوءا على مختلف جوانب المسألة المطروحة .

اخيرا ، لا بد قبل تقديم مختلف السياسات وتقييمها من أن نبين انه ليست لها جميعا الاهداف نفسها ، ولا هي تنطلق من المبررات نفسها ، وليست على المستوى نفسه من حيث أفقها الزمني . فبعضها — مثلا — يهدف الى وضع الضغوط على جميع البلدان الغربية منطلقا من مبدأ مسؤوليتها جميعا في شد ازر اسرائيل بشكل او بآخر ، في حين يهدف البعض الآخر من السياسات من خلال تطبيق انتقائي الى الضغط على بلدان غربية محددة دون بلدان أخرى . وكذلك فان بعض السياسات يعتمد التدرج والمرحلية

في حين يعتمد البعض الآخر مبدأ « الضربة الواحدة » . ثم ان بعض السياسات يركز في طبيعته وفي المقام الاول على تحقيق آثار اقتصادية ، فيما يركز البعض الآخر على تحقيق آثار استراتيجية تتعلق بأمن البلدان الغربية ذاته ـــ هذا مـــع الادراك لتداخل هذين النوعين من الآثار في النهاية . واخيرا فان بعض السياسات يرتب مواقف واجراءات متكافئة ومتشابهة على جميع البلدان العربية النفطية ، في حين ان البعض الآخر يرتب مواقف واجراءات متباينة لاسباب سيبرزها التحليل . والخيار بين هاتين الفئتين يحدده الواقع العربي واحتمال تطبيق كل من الفئتين . واخيرا لا بد مـــن التأكيد بأن طبيعة الوضع العربي ـــ الاسرائيلي في اي نقطة زمنية تعين موقع كل من السياسات في سلم الافضلية ، واذن فان تبدل الوضع يبدل هذا الموقع حتما .

* * *

يمكن وضع السياسات المختلفة التي جرى طرحها في الماضي او يحتمل طرحها حاليـــا ضمن مجموعات خمس هي : **اولا** ، السياسات التي تدور حول امتلاك العرب لراسمال شركات النفط ، جزئيا او كليا ـــ اي سياسات التأميم . **ثانيا** ، السياسات التي تدور حول حجب النفط جزئيا أو كليا عن البلدان الموجهة السياسات صوبها .**ثالثا**، السياسات الاكثر مداورة والتي تتعلق بممارسة سيطرة غير مباشرة على مشتري النفط العربي . **رابعا** ، سياسات أخرى لا يمكن تصنيفها تحت المجموعات الثلاث السابقة . **خامسا** ، السياسات المشتركة بين التأميم والحجب .

١ ـــ سياسات التأميم

لا بد من التأكيد أن التأميم في ذاته هو نهاية مطاف ، اذ انه متى مورس لم يعد من مجال للمناورة لانه عملية يكاد يستحيـــل أن تعكس . والمقصود اذن بسياسات التأميم هو الابتداء بمرحلة التلويح والانذار والتهديد سعيا نحو التأثير في موقف البلدان التي تنتسب شركات النفط اليها لصالح القضية الفلسطينية . فاذا فشلت مرحلة التهديد وتم اللجوء للتأميم انتهت مرحلة المناورة ومحاولة الضغط والردع ودخلنا مرحلة الحسم أي مرحلة العقاب والحاق الاذى ، ذلك ان قيمة الرادع هي في مصداقيته (credibility)بحيث لا يضطر الفريق الذي يهدد به الى تطبيقه ، اما اذا لم يستجب الفريق المستهدف وصار من الضروري تنفيذ التهديد انتهت قدرة الرادع كرادع وتحولت الى عقـــاب ، ولذلك يتوجب ان تتوفر مسبقا النية والقدرة على التنفيذ احتياطا لفشل الرادع .

من هنا ان محبذي سياسات التأميم ـــ الجزئي أو الكلي ـــ كثيرا ما يقفزون عن موضوع قدرة التهديد بالرادع فورا الى تنفيذ التهديد وبذلك يخسرون فاعليته كرادع ومؤثر في موقف الفريق الآخر . ولعل سبب الالتباس هو أن الذين ينادون بالتأميم لا يميزون دوما بين فاعلية **التهديد** بالتأميم لصالح القضية الفلسطينية وبين ضرورة التأميم ذاته كعملية لتثبيت الحق القومي في التصرف بالموارد الوطنية .

على ان القول بفاعلية التهديد ينبغي ان يدعمه اثبات خطورة دور النفط العربي في العالم الغربي ، وهو أمر لعل من الواجب ان نتصدى له الآن من خلال تقديم الحجج والحجج المضادة للسياسات التأميمية ، مبتدئين بسياسة التهديد بالتأميم الكلي لجميع الشركات المنتجة في جميع اقطار النفط العربية .

ا ـــ يتضح منذ اللحظة الاولى ان السياسة القائلة بالتهديد بالتأميم الكلي تجسد مبدأ تحميل جميع البلدان الغربية دون استثناء او تمييز المسؤولية المشتركة لجهة التواطؤ مع اسرائيل ومساندتها ومعاداة العالم العربي . ومن الجهة الاخرى تقوم هذه السياسة على مرتكز العمل العربي الموحد . وفي حالتها القصوى ـــ أي تنفيذ التهديد ـــ تمثل السياسة المثال الاوفى والاوسع لمبدأ « الضربة الواحدة » أو العمل الواحد الجراحي

الشامل غير المرن الذي لا عودة عنه ولا يمكن ممارسة التهبيط بعده .

ان هذه السياسة ذات طاقة تهويلية كبيرة من الزاوية العربية — اذا اقترن التهديد بالمصداقية — بالنظر للشأن الكبير الذي يتمتع به النفط العربي في أسواق البلدان الاجنبية — والغربية منها على وجه أدق — كما سبق وبينا . وهكذا فان التهديد بالاستيلاء على موجودات الشركات (التي بلغت قيمتها القائمة بنهاية ١٩٧٠ نحو ١١٫٥٠٠ مليون دولار وقيمتها الصافية بعد الاهتلاك نحو ٦٫٥٠٠ مليون دولار*) من شأنه ان يضع في يد البلدان العربية المنتجة للنفط قدرة ضاغطة تجاه اوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان كما انه يهدد بأن يحول الى الخزانات العربية موارد ضخمة تمثل الفرق السنوي بين الارباح الصافية — كائنة ما كانت — التي تجنيها الشركات واقساط التعويض التي تتعهد البلدان العربية بدفعها (ونحن نفترض اقرار مبدأ التعويض الى جانب التأميم) .

على ان ما يعطي هذه السياسة المزيد من الفاعلية هو توقع ارتفاع شأن النفط العربي في المستقبل بالنسبة للعرض والطلب العالميين ، كما يتبين من الجداول ٦ — ٨ في الملحق الاحصائي ، وبصورة اخص ارتفاع شأن النفط العربي في سداد حاجات العالم الغربي في السنوات المقبلة . وليس أدل على ذلك من ضآلة نسبة الاحتياطي النفطي في اليابان وأوروبا الغربية والولايات المتحدة الى الانتاج في هذه المناطق . ومع ان درجة الاعتماد العالي جدا في اليابان واوروبا الغربية من المعلومات الشائعة والمعروفة جيدا ، الا ان الكثيرين يجهلون ان الولايات المتحدة ستصبح مستوردا رئيسيا للنفط العربي خلال سنوات قلائل — حتى مع الاستثمار الواسع لمصادر النفط في الاسكا — اذ يتوقع أن يرتفع استيرادها من ١٧٠ مليون طن لعام ١٩٧١ (تشمل النفط الخام ومشتقاته) الى نحو ٦٠٠ مليون طن لعام ١٩٨٠ ، يتوقع ان يأتي بين ثلثيها وثلاثة ارباعها من المنطقة العربية** . ذلك ان كون الولايات المتحدة اكبر منتج للنفط الخام في العالم حاليا ، وكون مصادر الطاقة الاخرى خلاف النفط تمثل ٥٥٫٤ بالمئة من جملة انواع الطاقة المستهلكة في ذلك البلد (كما يتبين من الجدول ٩ في الملحق) ، ينبغي الا يخفى الواقع الآخر وهو ان الولايات المتحدة بالرغم من انتاجها الكبير للنفط الخام ومن تعدد مصادر الطاقة فيها ، هي مستورد صاف للنفط الخام اذ بلغت مستورداتها ٢٤٫٤ بالمئة من جملة استهلاكها للنفط الخام عام ١٩٧٠ . كذلك ينبغي ألا يغرب عن البال أن تطور مصادر الطاقة خلاف النفط في العالم الغربي كان أبطأ بكثير من تطور الاعتماد على النفط، وكذلك أبطأ من تطور الطلب على النفط .

اما بالنسبة لاوروبا الغربية واليابان فالامر أشد خطورة ، ذلك ان انتاج النفط الخام ضئيل جدا كما ان مصادر الطاقة البديلة ذات نسبة أدنى بكثير مما هي في الولايات المتحدة ، ففي أوروبا الغربية تبلغ النسبة ٣٨٫٨ بالمئة وفي اليابان تبلغ ٢٦ بالمئة لعام ١٩٧٠ . وليس هنالك من المؤشرات المقنعة ما يدل على انعكاس هذا الخط في المستقبل القريب وانما تتجه المؤشرات في اتجاه ارتفاع الاعتماد على النفط العربي كما هو الحال في الولايات المتحدة .

ينبغي أن يضاف الى ما اثبتناه لجهة قوة الجانب العربي النفطية وضعف الجانب الغربي ان البلدان غير العربية الغنية بالنفط هي بالتحديد الاتحاد السوفياتي وفنزويلا وكندا

---

* بموجب احصاءات بنك تشيس مانهاتن في دراسته «الاستثمارات الرأسمالية لصناعة النفط العالمية ١٩٧٠» .

** انظر شهادة مساعد وزير الخارجية الاميركية جان اروين أمام لجنة الشؤون الداخلية في الكونغرس، كما ورد نصها في نشرة وزارة الخارجية رقم ١٧١٤ بتاريخ ١٩٧٢/٥/١ ص ٦٢٦ — ٦٣١ . انظر ايضا « مجلة النفط والغاز » The Oil and Gas Journal بعدد ١٩٧٢/٣/٢٠ ، ص ٢١ .

وايران ونيجيريا واندونيسيا ، على ان جملة صادرات هذه البلدان من النفط الخام ومشتقاته لعام ١٩٧٠ كانت نحو ٣٤٥ مليون طن اي ٤٤،٤ بالمئة من صادرات البلاد العربية و٢٧،٤ بالمئة من الصادرات العالمية ، منها نحو ١٧٠ مليونا اتجهت الى الولايات المتحدة ، وهكذا فان نحو ١٧٥ مليون طن فقط اتجهت للبلدان المستوردة الاخرى ، وهذه الكمية بمجملها تعادل نحو ٢٢،٥ بالمئة فقط من الصادرات العربية . واذن فان رفع صادرات هذه البلدان لتعوض عن النفط العربي أمر لا يمكن ان يتحقق الا بتثميرات كبيرة وبعد مرور ثلاث الى خمس سنوات على الاقل — **هذا على افتراض استمرار الاستهلاك الحالي ودون أخذ ازديادة بالاعتبار** — وهو افتراض لا يجد ما يبرره .

في ضوء هذه الملاحظات يتضح ان التهديد بتأميم أسهم الشركات المنتجة امر في غاية الخطورة بالنسبة للعالم الغربي ، وللولايات المتحدة بالذات التي لا تفضح ضآلة مستورداتها الحالية من النفط العربي حقيقة ارتهانها المقبل لهذا النفط العربي ، كما ان ضآلة مستورداتها الحالية لا تعكس ضخامة تثميراتها النفطية في العالم العربي وارباحها من هذه التثميرات . ان الولايات المتحدة لن تجد لا في احتياطيها النفطي ولا في الاحتياطي في منطقة الكاريبي او في نصف الكرة الغربي بأسره ما يمكن له ان يتكفل باحتياجاتها المقبلة — وهي حقيقة تفضحها النسبة المتواضعة جدا للاحتياطي الى الانتاج السنوي في نصف الكرة الغربي ، ومحدودية قدرة المناطق الاخرى من العالم على الحلول محل النفط العربي ، في وضع عالمي يتميز بتوقعات ارتفاع الطلب بشكل متصل لسنوات عديدة مقبلة .

ثمة ناحيتان اخريان لسياسة التأميم الكلي جديرتان بالتسجيل . فبالاضافة الى الدور المستقبلي الكبير الذي سيلعبه النفط العربي في سد حاجات الولايات المتحدة للطاقة ينبغي أن نذكر ان شركات النفط الاميركية كانت تملك نحو ٦٠ بالمئة من جملة رؤوس أموال الشركات العاملة في المنطقة العربية قبل تأميم الحكومة العراقية لشركة نفط العراق في ١٩٧٢/٦/١ ، ونحو ٥٣،٤ بالمئة بعد التأميم العراقي . واذن فان اثر التأميم الشامل على الولايات المتحدة يكون فوريا عدا انه يزداد مستقبلا — لان خسارة الشركات للسيطرة على رأس مالها (وهو يعني انخفاض قدرة الولايات المتحدة ذاتها على تأمين تدفق النفط) يكون دون ريب مصدر قلق فوري للولايات المتحدة بل قد يكون رادعا قويا اذا استخدم بالشكل المناسب ، ورافقته الجدية وأدى الى مستوى عال من قابلية التصديق .

والناحية الاخرى مالية محضة : ففي تقديرنا بلغت أرباح الشركات الاميركية نحو ٢٦٧٠ مليون دولار لعام ١٩٧١ ، وهو مبلغ ذو اهمية ملموسة في الحساب الجاري بميزان المدفوعات الاميركي ، اذ لم يتخط الفائض في الحساب الجاري لعام ١٩٧٠ مبلغ ٤٤٤ مليون دولار وانقلب هذا الفائض الى عجز مقداره ٧٢٩ مليون دولار بآخر حزيران (يونيو) ١٩٧١*. هذه الارقام تدل دلالة واضحة على الدور الكبير الذي تلعبه ارباح شركات النفط في جعل رصيد الحساب الجاري ايجابيا او في التقليل من سلبيته . غير انه ينبغي عدم تضخيم هذا الاثر لارباح الشركات بالنسبة للناتج القومي في الولايات المتحدة لانها تشكل اقل من ثلاثة أعشار من واحد بالمئة من الناتج القومي القائم . على ان اثر التأميم على ميزان المدفوعات البريطاني يكون أكثر خطورة بكثير بل قد يؤدي الى كارثة ضخمة .

ب — قد يقال ، من الجهة الاخرى ومع الادراك لاهمية النقاط التي أثبتناها في الفقرة (أ) اعلاه ، ان التهديد بتأميم أسهم الشركات المنتجة ليس مخيفا للبلدان الغربية لانه يضع

---

* بموجب احصائيات صندوق النقد الدولي في : International Financial Statistics

على اكتاف البلدان المصدرة للنفط عبئا ثقيلا هو عبء تسويق النفط بقدر ما يضع في أيديها قدرة ضاغطة. والجواب المباشر هو ان عملية التسويق مع ما يواكبها من متاعب فنية وأخرى تجارية تتعلق بخلق شبكة التعامل بالنفط والتعاقد مع المستوردين ، هي عملية يمكن تنظيمها في السياق القصير ودون تأخير يذكر **أولا** لان شبكة العلائق قائمة ولن يتبدل فيها سوى شخصية الجانب المصدر ، **وثانيا** لان حاجة اوروبا الغربية واليابان للنفط العربي حاجة ماسة ، بل حيوية ، حيث لا يكفي المخزون النفطي لمهلة تزيد عن ثلاثة أو أربعة شهور الا لفترة قصيرة وبفضل تقنين صارم وثقيل الوطأة ، و **ثالثا لانه** في الوقت نفسه لا توجد مصادر بديلة للنفط يمكن اللجوء اليها في السياق القصير والمتوسط (أي ضمن حدود ثلاث الى خمس سنوات) . بعبارة قصيرة ان البلدان العربية المصدرة للنفط ، لانها تستطيع اذا شاءت ان تضغط بأصابع قوية على شرايين الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان ، فهي قادرة على حسم الموقف بالرغم مما يرافق الضغط في السياق القصير من بلبلة في انتاج النفط وتسويقه ، وذلك من خلال اسراع أوروبا الغربية واليابان اضطرارا الى التفاهم مع البلدان المصدرة للنفط لتأكيد تدفق النفط . كذلك تنبغي الاشارة الى امكان استخدام الخبراء الاجانب — وقد يكون عدد منهم موظفين سابقين في الشركات المؤممة ذاتها — في عمليات الانتاج والتسويق ، كما يمكن استخدام الشركات للقيام بهذه المهمات لقاء عمولة عينية أو نقدية . واذن فمشاكل الانتاج والتسويق التي قد تنشأ تكون على الارجح قصيرة الامد وقابلة للحل بفضل حاجة أوروبا الغربية واليابان للنفط العربي وعدم قدرتها على الرد المعاكس الفعال .

ج — وكذلك اذا قيل ان سياسة التهديد بالتأميم الكلي مجحفة لان اثرها المحتمل في معظمه يقع على اوروبا الغربية واليابان وهي تضم عددا من البلدان لم يشترك في احد أوجه العداء على العالم العربي وبصورة خاصة لم يشترك في تمكين الصهيونيين من فلسطين وتوطيد دولتهم التوسعية ، في حين ان هذه السياسة لا تصيب الولايات المتحدة بالقسم الاكبر من الاذى وهي الدولة المسؤولة في المقام الاول عن استمرار الوجود الاسرائيلي وامتداده التوسعي — اذا قيل هذا ، فان جواب محبذي سياسة التأميم الكلي هو أن اية متاعب تتحملها أوروبا الغربية واليابان ينعكس أثرها على الولايات المتحدة التي تمثل مركز الثقل في شبكة البلدان الغربية ، وعلى الولايات المتحدة بالذات يترتب العمل على رفع عبء المتاعب عن كاهل أوروبا الغربية واليابان . وبما ان هذه المتاعب ليست مالية وانما عينية ، اي بما انه لن يتوفر نفط بديل بمقادير وافية وان يكن بأسعار أكثر ارتفاعا ، فلن تستطيع الولايات المتحدة القيام بعمل معاكس يعيد النفط الى شرايين الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان ، سوى تبديل سياستها حيال القضية الفلسطينية . يضاف الى هذا ان الولايات المتحدة ستصبح مستوردا رئيسيا للنفط العربي خلال السنوات القليلة المقبلة واذن فان اثر التأميم الردعي سيقع عليها أيضا بصورة مباشرة وحتمية .

د — ثم ان محبذي سياسة التهديد بالتأميم الكلي يحاجون بأن الواجب القومي يدعو على أي حال الى امتلاك البلدان النفطية لوسائل الانتاج النفطي جميعها ، وما ضغط هذه البلدان مؤخرا من خلال « منظمة البلدان المصدرة للنفط » في سبيل المشاركة في ملكية أسهم الشركات المنتجة سوى خطوة في الاتجاه الصحيح . فلماذا لا تتخذ خطوات مسيرة التأميم كلها مرة واحدة ، انتقالا من التهديد الى التنفيذ ، خاصة بالنظر لخطورة الوضع العربي الحالي تجاه اسرائيل ، سياسيا وعسكريا ؟

هـ — أخيرا ، فان بعض القائلين بسياسة التهديد بالتأميم يعتقدون ان هذه السياسة وان كانت قيمتها الحقيقية تكمن في المرحلة الاولى منها وهي مرحلة التهديد ، الا ان مرحلة

التأميم — فيما اذا فشل التهديد وكان لا بد من اللجوء الى التأميم — ذات فائدة للقضية الفلسطينية . مرد ذلك في رأيهم الى كون شركات النفط — خاصة في الولايات المتحدة — هي في قرارة نفوسها وفي الحقيقة الى جانب اسرائيل لان هذه تخيف العرب وتحد من تطرفهم وتلهيهم عن شركات النفط . واذن — تقول هذه الحجة — فان التأميم يخرج الشركات من الحلبة كعامل قوي يساند اسرائيل سرا ويفيد منها في تبديد قوة العرب .

* * *

يوحي التحليل حتى هذه النقطة بأن سياسة التهديد بالتأميم الكلي هي سياسة سليمة ذات انياب قاطعة تشكل جهاز ضغط جبار على البلدان الغربية لصالح القضية الفلسطينية . غير ان التبصر في منطلقات هذه السياسة وفي النتائج العكسية المحتملة لها يرسم صورة مختلفة المعالم والسمات في التحليل النهائي . وبالتحديد ، هنالك خمس نقاط ضعف في سياسة التأميم الكلي ينبغي بحثها ، وهي تعدل الاستنتاجات التي توحي بها السياسة لاول وهلة :

أ — نقطة الضعف الاولى في سياسة التأميم الكلي هو منطلقها القائل بأن فاعلية التهديد بالتأميم تكمن في صدوره عن جميع البلدان المصدرة للنفط معا وفي آن واحد — على أساس ان قيام بلد واحد مهما عظم شأنه النفطي بالتهديد بتأميم اسهم الشركات الغربية المنتجة في أرضه لا يكون عملا مجديا لان الشركات تظل محتفظة بسيطرة واسعة على الانتاج كما تظل قادرة على التعويض عن نفط البلد المعني برفع انتاجها في بلدان أخرى عربية وغير عربية — كما حدث بعد تأميم مصدق في ايران سنة ١٩٥١ . اما ضعف السياسة المقترحة لهذه الجهة فهو انها تتجاهل الواقع العربي وتغرق في التجريد المثالي . وليس سرا ان البلدان العربية ليست كلها على نفس درجة الاستعداد للقيام بالتأميم ، او حتى بالتهديد به ، وهكذا فان اي تباين في الموقف من شأنه **أولا** ان يصل بالسياسة الى الفشل، **وثانيا** ان يفجر الموقف العربي غير المتراص وان يزيد من الثغرات فيه وبالتالي ان ينقل هذا الموقف الى مرتبة دون المرتبة الحالية تماسكا وانسجاما — وهي كما نعلم مرتبة متواضعة .

ب — وهنالك في الناحية الثانية أمر يستوجب التوقف في سياق التحليل الموضوعي : هو التساؤل فيما اذا كانت جميع البلدان العربية المصدرة للنفط (واطلاقا جميع البلدان العربية) تشعر بأن الخطر الاسرائيلي يهددها الى حد القيام باجراءات تنتهي بمغامرة احتمالات الخطر فيها للبلدان ذاتها مرتفعة جدا ، وبصيغة أخرى فيما اذا كانت هذه البلدان — على شديد اهتمامها بقضية فلسطين — مستعدة لتحمل المخاطرة الكبيرة لمجتمعاتها ومواردها من اجل فلسطين والعمل في سبيلها ، خاصة وان البلدان العربية لا يبدو انها مقتنعة تماما ان الخطر التوسعي الصهيوني يتهددها هي جديا كما هدد فلسطين من قبل ، ويتهدد مواردها الضخمة النفطية وغير النفطية ، كما هدد موارد فلسطين المتواضعة — مما هو واضح من تصريحات المسؤولين الاسرائيليين وأدبهم السياسي ومن ثنايا مواقفهم وتصرفاتهم . والتهديد يتم لحساب اسرائيل نفسها ولحساب الغرب الذي يناسبه ان تكون اسرائيل الشرطي الحارس لمصالحه . اننا لا نستطيع الا ان نقول ان الجواب على هذا التساؤل في مختلف صيغه لن يكون ايجابيا الا اذا كانت الادلة كافية بأن البلدان العربية تؤمن باخلاص وبدون تحفظ ان هنالك اندماجا عضويا كاملا بين قضية فلسطين والقضية الوطنية المصيرية لكل منها وكانت تشعر بانتماء كامل للقضية الفلسطينية يحملها على التصرف تجاه هذه القضية كما لو كانت ارضها هي أصبحت محطا لاستعمار واقتلاع صهيونيين كما أصبحت فلسطين ، والا اذا أدركت البلدان العربية ان الاطماع الاسرائيلية تشمل أرضها ومواردها هي ايضا وتهدد مستقبلها ومصيرها اقتصاديا الى جانب التهديد السياسي والقومي . عند هذا الحد لا

يرى المحلل بين يديه من الدلائل ما يكفي لافتراض الجواب الايجابي للتساؤلات المشار ذكرها .

ج — ثمة نقطة ضعف اخرى تكمن في هذه السياسة هي انها ، لكي تكون فعالة ومع افتراض وجود جواب مرض للنقطتين (أ) و(ب) اللتين سبق تقديمهما ، ينبغي ان يرافقها وقف تزويد البلدان الغربية بالنفط (وهو يقع تحت المجموعة الثانية من السياسات النفطية) . فاذا اقتصر التأميم في النهاية على تحويل ملكية اسهم الشركات للبلدان المصدرة للنفط ولم يتعد ذلك الى حجب النفط عن البلدان الغربية ، ظل اثر التأميم ماليا فحسب ، وهو اثر ضخم ووجيه لكنه ليس حاسما ، سواء في مرحلة التهديد أم التنفيذ . ذلك اننا نفترض التعويض الملائم للشركات خاصة وان معظم رؤوس اموالها قد جرى استهلاكه حتى الآن . وفي اية حال فان الاقتصادات الغربية قادرة على استيعاب الصدمة المالية الناجمة عن ضياع ارباح الشركات السنوية على ضخامة هذه الارباح ، ما دام تدفق النفط مستمرا (تمثل الارباح اقل من ربع واحد بالمئة من الناتج القومي الاجمالي للدول الغربية المعنية) ، هذا مع صعوبة استيعاب الصدمة في ميزاني المدفوعات الاميركي والبريطاني .

اذن فان الخطوة الحرجة في هذا الصدد هي **حجب النفط** عن البلدان الغربية ، وحجب النفط اكثر من اي عامل آخر يقود في تحليلنا الى ضربة معاكسة قد تبلغ حد الحرب كما ستبين عند تحليل المجموعة الثانية من السياسات .

ولئن قيل ان الناحية المالية لسياسة التأميم الكلي (فيما اذا نفذ بعد فشل مرحلة التهديد) والمؤدية الى توجه ارباح الشركات (كائنة ما كانت) الى خزانات البلدان العربية المصدرة للنفط هي بيت القصيد لانها توفر للعالم العربي احتياطيا ماليا ضخما يمكن تمويل النضال ضد اسرائيل بواسطته ، جاز التساؤل فيما اذا كان العالم العربي يشكو شحة في الموارد المالية الآن وقبل التأميم . وبالتحديد فان عائدات النفط العربي بلغت عام ١٩٧١ نحو ٦٫٩٨٠ مليون دولار كما ان الحساب الجاري في ميزان المدفوعات العربي الموحد يتمتع بفائض ضخم نقدره لسنة ١٩٧١ بأكثر من ٢٫٠٠٠ مليون دولار . والمشكلة اذن ليست مشكلة موارد مالية وانما مشكلة التعاون العربي الصادق والقبول بتوجيه قسم كبير جدا من هذه الموارد لحاجات النضال العسكري والسياسي ، وهذه قضية **ارادة نضال لا قضية اقتصاد في المقام الاول** — وبالتالي فان توفر المزيد من الموارد بفضل التأميم اي الحصول على ارباح الشركات (التي تقدر لعام ١٩٧١ بنحو ٤٤٫٤٥٠ مليون دولار) قبل حسم اقساط التعويض ، لن يبدل الصورة الا هامشيا ما دامت الرغبة العربية في الالتزام الكامل وغير المتحفظ بالنضال غير متوفرة .

د — نقطة الضعف الرابعة ان البلدان الموجهة سياسة التأميم الكلي ضدها ليست الآن جميعها على المستوى نفسه من العداء للعالم العربي . وبما ان المفروض ان تتأثر الدول وتعمل بوحي مواقفها ومصالحها الراهنة اقل مما هو بوحي أوضاع تاريخية قريبة او بعيدة ، فان البلدان المصدرة للنفط تخطىء اذ تضع فرنسا مع بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ او ايطاليا او اليابان على نفس مستوى المعاملة كالولايات المتحدة . وتوجيه المعاملة نفسها الى جميع الشركات والبلدان التي تنتسب هذه الشركات اليها تكون محصلته الاساءة الى علائق جيدة او مقبولة قائمة مع بعض البلدان الاجنبية ونقل هذه البلدان من مصاف الدول الصديقة او على الاقل المحايدة **حاليا** الى مصاف الدول العدوة . وبالطبع فان هذا ينافي مبدأ تقديم المصلحة الحالية والمستقبلة في التصرف السياسي للدولة على اي اعتبار آخر في التعامل .

هـ — أخيرا ، هناك موضوع « الضربة الاقتصادية المعادلة » ونعني بذلك قيام الدول

الغربية التي يستهدفها التهديد بالتأميم الكلي (أو التأميم ذاته اذا نفذ) بالتهديد بالانتقام (أو بالانتقام) اقتصاديا . وأكثر الاسلحة الاقتصادية فعالية في يد هذه الدول هو بالذات الارصدة العربية الحكومية والخاصة الضخمة ، في مصارفها وفي اسواق اسهمها، والتي نقدرها بنهاية ١٩٧١ بما لا يقل عن ٦٫٠٠٠ مليون دولار يتوقع ان ترتفع بنهاية ١٩٧٢ الى نحو ٧٫٥٠٠ مليون . وبالطبع تستطيع البلدان الغربية التهديد بتجميد الارصدة وايقاف سيولة الاسهم والاستثمارات ، أو تنفيذ ذلك اذا نفذ التهديد بالتأميم .

ولا يفيدنا في شيء الظن اننا نستطيع نقل هذه الاموال الى بلد آخر قبل اعتماد سياسة التأميم الكلي اذ ليس هنالك من سوق مالية اخرى قادرة على استيعاب أموال بالحجم الذي بيناه ، سوى سويسرا (وحتى هذه مع التحفظ) ، التي نرجح انها ستمتنع في تلك الحال عن استقبال الاموال العربية بالادعاء بأن نظامها المصرفي وسوقها المالي مشبعان اكثر من اللازم بالاموال الاجنبية ، وسيكون تمنعها في الواقع تضامنا مع الدول الغربية الاخرى . اما المانيا الغربية ، وهي ليست بين كبار ممتلكي أسهم شركات النفط فانها لا توفر حلا للمشكلة ، **أولا** لان سوقها المالي اصغر من أن يتسع للأموال العربية ، **وثانيا** وما هو اهم لانها من أولى البلدان الغربية التي يجب ان تستهدفها سياسة الضغط العربية بسبب مساندتها لاسرائيل التي اتخذت منذ منتصف الخمسينات **ولا تزال تتخذ** ابعادا خطيرة ، من خلال اتفاقية التعويضات المعقودة مع اسرائيل الدولة ثم من خلال اتفاقية « التعويض الشخصي » التي يفيد منها الافراد الاسرائيليون ، وهما اتفاقيتان افاد منهما ميزان المدفوعات الاسرائيلي افادة كبرى — هذا عدا تصدير المانيا الغربية لبعض انواع الاسلحة لاسرائيل واستيراد البعض الآخر منها .

اما الادعاء المعاكس بأن الدول الغربية لن تقدم في حال التأميم الكلي على تجميد الارصدة والاستثمارات لانها بذلك تخسر المستوردات العربية فقول مردود لسببين: **أولا** ، ان حجم الضربة العربية يكون من الشدة بحيث انه سيتطلب حتما ردا قاسيا وسريعا — على الاقل تجميد الارصدة والاستثمارات — **وثانيا** ، ان البلدان الغربية لن تصاب بأذى شديد من جراء توقف مستوردانا من أسواقها بسبب تجميد الاموال التي نسدد بها ثمن تلك المستوردات . فجملة مستوردات البلدان المصدرة للنفط من البلدان الغربية تمثل اقل من ٤ بالمئة من جملة مصدرات البلدان الغربية . وهكذا نعتقد — كحصيلة لهذا القسم من البحث — ان الصيغة الاولى لسياسة التهديد بالتأميم الكلي بسبب طبيعتها المالية في الاساس لا تستطيع منفردة تحقيق تبدل عميق في المواقف الغربية لصالح القضية الفلسطينية ، وان التأميم ذاته اذا طبق ينهي مرحلة المناورة والردع ويصبح حالة لا عودة عنها من شأنها استدراج اجراءات اقتصادية غربية معاكسة قد لا تقبل البلدان العربية بأن تتحملها . وعلى أي حال فان اثر التأميم بعد تنفيذه يكون في وضع المقدرات النفطية في يد البلدان العربية النفطية دون ان يكون له بالضرورة اثر حاسم بالنسبة للقضية الفلسطينية . اننا لا نقلل من شأن السيطرة العربية على الموارد النفطية ولكننا نميز بين تحقيق هذه السيطرة ، والتأثير في الموقف الدولي بالنسبة للقضية الفلسطينية ، لانهما نتيجتان مختلفتان في طبيعتهما .

* * *

الصيغة الثانية لسياسة التهديد بالتأميم الكلي (أو التأميم الكلي ذاته) ، هي سياسة التهديد بالتأميم الجزئي (او التأميم الجزئي ذاته) . وهنا ينبغي ترداد الملاحظة التي أوردناها عند بحث سياسة التأميم الكلي من أن تنفيذ التأميم يدخل الموقف في مرحلة جديدة هي مرحلة العقاب التي هي بطبيعتها نهائية ولا عودة عنها او مناورة حولها ، في حين ان التهديد بالتأميم الجزئي (كما سنحدده) يبقي الموقف داخل نطاق المناورة وتجربة اعصاب القوى المتقابلة .

تقول هذه السياسة بالتهديد بتأميم أسهم الشركات التي تنتسب الى الدول المساندة لاسرائيل تاريخيا وحاضرا ، وتعني بالتحديد بريطانيا والولايات المتحدة ، واستعمال الموارد الاضافية المتاحة بفضل التأميم (وتمثل الفرق بين ارباح الشركات التي تنتقل الى البلدان العربية بالتأميم واقساط التعويض) لاغراض المجهود الحربي والانمائي .

وبما ان البلدين المذكورين كانا حتى أول حزيران (يونيو) ١٩٧٢ يملكان ٧٩ بالمئة من جملة أسهم الشركات المنتجة في البلدان العربية (او نحو ٧٠ر٣ بالمئة بعد تأميم الحكومة العراقية لشركة نفط العراق) فان هذه السياسة في صيغتها النهائية اي صيغة تنفيذ التهديد تضع في الايدي العربية القدرة على التحكم بأكثرية الطاقة الانتاجية وبكل ما يترتب على ذلك من آثار ونتائج تالية ، دون استثارة البلدان الغربية الاخرى التي ساندت اسرائيل او تساندها بشكل اقل كثافة واستمرارية والتي لن يطالها التأميم او التهديد به . هذه هي الحجة الاولى التي تقدم في صالح السياسة المطروحة .

الحجة الثانية ان عمليات الانتاج والتكرير اصبحت او كادت عمليات روتينية يتقنها الخبراء والمهندسون والعمال المهرة العرب ويستطيعون القيام باعبائها ، منفردين أو بالاستعانة بخبرات فنية مستوردة من الخارج في الحالات الاستثنائية ، أو بخبرات ترغب في التعاون من بين اجهزة شركات النفط التي يطالها التأميم . وتفترض هذه السياسة ان الشركات ، لشعورها بالاضطرار لشراء النفط العربي ، ستسارع على الارجح للدخول في صيغة علاقات تجارية محضة جديدة مع الحكومات العربية كما ستسارع الى عرض خدماتها الفنية على الحكومات بعد التأميم من اجل استخدام بعض أجهزتها أو كلها وتشغيل ناقلاتها ومعامل تكريرها في الخارج ، وانها اخيرا سترضى بأن تقوم بهذه الخدمات لقاء اجر او عمولة ، نقدية أو عينية .

في تقييم السياسة المطروحة ينبغي ان نبين انها في كثير من نواحيها — مع التحفظ في انها محدودة المدى ولا تشمل جميع الشركات المنتجة — تشبه السياسة الاولى القائلة بالتهديد بالتأميم الكلي . فهي تتسم بالمزايا نفسها وتلازمها بنقاط الضعف نفسها مع التعديل لجهة درجة شمول كل من السياستين . ومن هنا فاننا لسنا مضطرين للتبسط في شرح وتحليل المزايا ونقاط الضعف وسنكتفي بالاشارة اليها بايجاز كلي .

أ — سياسة التأميم الجزئي تضع في يد البلدان العربية قدرة ضاغطة جبارة وموارد مالية ضخمة نقدرها بحوالي ٣ر٥١٥ مليون دولار على اساس ارباح الشركات البريطانية والاميركية لعام ١٩٧١ . (طبعا ينبغي خصم اقساط التعويض من هذا الرقم ، واي هبوط في الدخل نتيجة انخفاض المبيعات او الاسعار) . كما ان هذه السياسة في حال تنفيذها تحرم البلدين — خاصة بريطانيا — ركيزة رئيسية من ركائز ميزان المدفوعات الدولي .

ب — لا يقوى البلدان على مقاطعة العرب اقتصاديا بالمقابل بسبب السياسة المطروحة لانهما — خاصة بريطانيا — بحاجة للنفط ولان الولايات المتحدة وهي ليست اليوم بحاجة الا لمقدار ضئيل نسبيا من النفط العربي ستصبح بحاجة ماسة اليه وخلال سنوات ثلاث او أربع . وهكذا تصبح بريطانيا عامل ضغط سياسي على الولايات المتحدة في صالح قضية فلسطين من اجل تأمين استمرار تدفق النفط اليها ، الى جانب مصلحة الولايات المتحدة نفسها في تأمين النفط العربي لسوقها بالذات في المدى المتوسط .

ج — ما دام امتلاك العرب لمنشآت الانتاج في اراضيهم كليا هو الهدف النهائي الذي لا مفر منه فلماذا لا يصار الان الى تنفيذ التأميم في اللحظة المناسبة في خدمة قضية فلسطين ، اذا لم ينجح التهديد في ذاته ؟

تقابل هذه الميزات بعض نقاط الضعف في سياسة التأميم الجزئي ، التي نجملها فيما يلي:

أ ــ ان سياسة التهديد بالتأميم الجزئي لا تؤدي الى الضغط الفعال على بريطانيا والولايات المتحدة ما دامت مقتصرة على الاثر المالي أي الحصول على أرباح الشركات البريطانية والاميركية ، وما دامت تنقل السيطرة على النفط الى العرب **دون ممارسة السيطرة كسلاح سياسي** . ويستطيع الاقتصادان البريطاني والاميركي امتصاص الصدمة المالية نتيجة للخسارة في حال تنفيذ التهديد التي انما تمثل نحو ثلث من واحد بالمئة من الناتج القومي المشترك فيهما (نحو سبعة أعشار من واحد بالمئة في بريطانيا ونحو ثلاثة أعشار من واحد بالمئة في الولايات المتحدة) ــ هذا مع الاعتراف بصعوبة امتصاص الصدمة اللاحقة بميزان المدفوعات. اما ضياع السيطرة الاميركية والبريطانية فيخفف من حدته وخطورته عدم ممارسة العرب لهذه السيطرة بالمعنى السياسي : بالتحديد عدم ايقاف النفط عن البلدين المعنيين .

ب ــ وليس مما يقوي حجة هذه السياسة القول انها تضع في يد العرب موارد مالية ضخمة للاستعمال في المجهود الحربي ، لان هذا المجهود لا يحده الآن شحة الاموال وانما عوامل أخرى ومعظمها من النوع المعنوي غير الملموس والمتعلق بارادة النضال .

ج ــ الصدمة الحقيقية والحاسمة تكون في حجب النفط العربي عن هذين البلدين الى جانب تأميم أسهم شركاتهما . وهنا يقوم الاحتمال المرتفع باقدامهما على الرد القاسي ، اقتصاديا في أحسن الاحوال (بتجميد الاموال العربية في أسواقهما المالية)، أو عسكريا، أو في الحقلين معا . (مما سيبحث في باب سياسات حجب النفط) .

د ــ كذلك فان سياسة التأميم الجزئي تقوم على فرضية التزام العرب بمبدأ القيام بعمل مشترك ــ وهي فرضية سبق أن تبين عدم واقعيتها .

وهكذا اجمالا فاننا نجد ان سياسة التأميم الجزئي اذ هي تتحاشى بعض العيوب التي تلازم سياسة التأميم الكلي الا انها تشكو في الاساس من نقاط ضعف من نفس الطبيعة كتلك كما انها تتمتع في الاساس بمزايا من نفس الطبيعة كتلك .

٢ ــ سياسات حجب النفط

تدرس هذه السياسات هنا بمعزل عن استخدام سياسات التأميم ، على أن يبحث تمازجهما في الباب الخامس . وكما رأينا عند دراسة سياسات التأميم فان سياسات حجب النفط يمكن ان تبدأ بالتهديد ثم ــ في حال فشل هذا الرادع ــ ان تنتهي بالحجب عن الفريق المستهدف بالسياسة. لكن الفرق بين المجموعتين لهذه الناحية هو أن الحجب في حال تنفيذه يظل يسمح بالمناورة بحيث يمكن العدول عن الحجب جزئيا او كليا . أي انه كما ان التصعيد المتدرج ممكن في حال الحجب ، كذلك فالتهبيط المتدرج ممكن ، فلا توجد حالة نهائية لا تمكن العودة عنها .

يمكن طرح سياسة حجب النفط العربي ضمن صيغ مختلفة ، أبرزها صيغتان : **الاولى** تقول بالتهديد بحجبه كليا عن جميع الشركات الغربية (أي عن البلدان الغربية التي تنتسب الشركات اليها) ، أو بحجبه فعليا لفترة ذات فاعلية في حال فشل الرادع عن ان يحمل مصداقية كافية لدى الفريق المستهدف . **والثانية** تقول بحجبه جزئيا أي عن بعض الدول .

اما بالنسبة للصيغة الاولى ، فالمسألة بديهية بمعنى ان حجب النفط عن العالم الغربي أيضا لفترة ذات فاعلية من شأنه أن يشل الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان شللا رئيسيا خلال اشهر قلائل ، وأن يفضح عجز الولايات المتحدة عن التعويض عن النفط العربي لان قضية التعويض ليست فحسب قضية تدبر الاموال للاستثمارات

النفطية اللازمة في مناطق أخرى من العالم وانما هي في المقام الاول تدبر النفط البديل بسرعة أي في السياق القصير — وهذا مستحيل ، بل انه يكاد يكون مستحيلا خلال المدى الزمني المتوسط كذلك — يقابل ذلك حقيقة مركزية وجوهرية هي ان طاقة الاحتمال لدى البلدان الغربية لا تتوفر الا ضمن المدى الزمني القصير اي دون السنة الواحدة . واذن فان حجب النفط عن أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة يخلق حالة جديدة لا تستطيع هذه المناطق مجابهتها مباشرة أي ضمن نطاق موضوع النفط وضمن المدى الزمني المتاح لها . وبالتالي فان سياسة الحجب هي الرادع السياسي الاقصى الذي يملكه العرب تجاه الغرب والذي اذا هدد به واقترن التهديد بقابلية التصديق يمكنه ان يكون ذا اثر ايجابي ورئيسي في صالح القضية الفلسطينية .

على ان حجب النفط يعني توقف موارده المالية ، لانه لا توجد اسواق بديلة تعوض عن الاسواق الغربية . والدول المصدرة للنفط اصبحت تعتمد اعتمادا كبيرا على انماط استهلاكية وتثميرية في القطاعين الخاص والعام يجعلها على درجة منخفضة من الاستعداد للقبول بتوقف الايرادات المالية الناجمة عن النفط الا لفترة قصيرة قد لا تتعدى الثلاثة الى ستة شهور ، هذا مع العلم ، وبالرغم من أن لدى البلدان المصدرة للنفط احتياطيا ماليا في الخارج يقدر على تمويل المستوردات والمشاريع التثميرية في فترة الشهور المبينة . غير ان موضوع الارصدة والاستثمارات في الخارج يثير تساؤلات أخرى بدوره مما سنبينه فيما بعد .

على ان ما هو أهم من فقدان الموارد المالية بالنسبة لبلدان النفط هو الخطر الكبير النابع عن قدرة هذه السياسة الجبارة بالذات . فالقدرة العربية في الضغط على شرايين الحياة الاقتصادية الغربية — وهي قدرة لا ريب فيها في نطاق حجب النفط — تشكل في الوقت ذاته نقطة انكشاف في الموقف العربي . فالبلدان الغربية اذا شعرت ان حياتها الاقتصادية — وحياتها البيولوجية — اصبحت او تكاد تصبح في خطر ضمن مدى زمني قصير ، ستضرب بالقوة نفسها دفاعا عن النفس . وليس من الحكمة وحسن التبصر اطلاقا أن يتجاهل المحلل الاحتمال المرتفع جدا لقيام البلدان الغربية بعمل حربي من أجل تأمين استمرار تدفق النفط .

ولئن قيل ان العالم الغربي لا يستطيع تجريد حملة عقابية ضد البلدان العربية المصدرة للنفط جميعها كان الجواب **أولا** ان وسائل الضرب الحديثة ليست مقصورة على حملات الجيوش والاساطيل وان ترسانة البلدان الغربية مليئة بمختلف انواع انظمة الاسلحة التي تعطي هذه البلدان مرونة فائقة في الردع والضرب الوقائي والضرب اللاحق على جبهة واسعة ، **وثانيا** انه يكفي على الارجح ان يضرب بلد واحد بفاعلية لكي تبدل البلدان النفطية الاخرى مواقفها رضوخا وملائمة للبلدان الغربية خوفا من أن ينالها ما يكون قد نال البلد المضروب أولا . كذلك ليس من الحكمة وحسن التبصر الافتراض ان الرادع السوفييتي — أو أي رادع آخر — يمكنه أن يمنع البلدان الغربية عن الضرب لاننا في تحليلنا نستبعد ممارسة هذا الرادع لان ممارسته ستؤدي بما يشبه الحتمية الى حرب شاملة سوفياتية غربية ، ونحن نستبعد قبول الاتحاد السوفياتي لهذه النتيجة . واذا كان هذا هو توقع الغرب نفسه — وهو ما نرجحه — فان الغرب يكون قادرا على الضرب وهو يشعر بالاطمئنان .

لكن تظل سياسة حجب النفط في النهاية اقوى الاسلحة العربية . ويزيدها قوة ان الحجب يمكن ان يتم نتيجة ضغط شعبي ومن هذه الناحية فهو أقل احراجا للدول العربية من التأميم لان التأميم يتطلب تشريعات تقوم بها الدولة لا مجرد اجراءات يفرضها الضغط الشعبي .

الصيغة **الثانية** لسياسة الحجب تقول اما بحجب النفط عن بريطانيا والولايات المتحدة فقط على أساس انهما تاريخيا البلدان اللذان قدما أكبر العون للصهيونيين ، اذ كانت بريطانيا مسؤولة عن قيام الوطن القومي اليهودي ومن ثم عن قيام الدولة ، وجاءت الولايات المتحدة بعد ذلك فأصبحت مصدر العون الرئيسي لاسرائيل سلاحا ومالا وسياسة ودبلوماسية ، او بحجبه عن بريطانيا والولايات المتحدة زائدا المانيا الاتحادية وهولندا لان البلدين الاخيرين (خاصة المانيا الاتحادية) يدعمان اسرائيل بصورة متكررة أكثر من بقية بلدان أوروبا الغربية .

ا ـــ وسواء أكانت السياسة من النوع الاول الضيق ام الثاني الموسع فهي تقوم على الاساس نفسه، وهو ان التهديد بحجب النفط عن بعض البلدان الغربية التي تحمل بحق مسؤولية ضخمة في مساندة اسرائيل بشكل متماد هو من نوع القصاص العادل . ومع اعتراف انصار سياسة حجب النفط الجزئية بأن الولايات المتحدة اقل تأثرا بحجب النفط من دول أوروبا الغربية (واليابان) لانها لم تستورد عام ١٩٧٠ من العالم العربي سوى ١٢ مليون طن تمثل ٧ بالمئة من جملة استيرادها و١ر٧ بالمئة من جملة استهلاكها ، الا انهم يعتبرون ان حجب النفط عن اصدقاء الولايات المتحدة الذين يعتمدون اعتمادا أساسيا وخطير المدى على النفط العربي (بنسبة متوسطها ثلثا مجموع الاستهلاك) من شأنه ان يحمل دول أوروبا الغربية المعنية ـــ بل كل هذه الدول ـــ على ان تصبح جهاز ضغط على الولايات المتحدة يجعلها تبدل سياستها ـــ وهي البلد الذي يمثل مركز الثقل اليوم في مساندة اسرائيل ودعمها باستمرار ضد العرب . (على أي حال يتوقع أن تستورد الولايات المتحدة نحو ٧٧ مليون طن من النفط العربي خلال ١٩٧٢) . ويضيف البعض الآخر تعديلا بسيطا لهذه الحجة هو ان حرمان بعض بلدان أوروبا الغربية القارية من النفط يجعل هذه البلدان تضغط على الولايات المتحدة **وعلى بريطانيا ذاتها** ـــ عدا الضغط الداخلي في بريطانيا الذي سيولده الحرمان من النفط ـــ ويجعل بريطانيا بالذات تستخدم نفوذها الخاص لدى واشنطن لحملها على تبديل سياستها من قضية فلسطين تبديلا جذريا .

ب ـــ اما آلية جهاز الضغط المستهدف فهي ان البلدان الاوروبية التي تحرم من النفط العربي ستضغط على الولايات المتحدة لتبدل سياستها لانها لا تستطيع ان تفعل شيئا لتخفف متاعب البلدان المحرومة ولتعيد دورة الحياة الاقتصادية فيها (التي يتوقع أن تتباطأ كثيرا بعد حوالي ثلاثة شهور من انقطاع النفط العربي) . وهنا أيضا ـــ كما لاحظنا عند عرض سياستي التأميم ـــ فان قدرة الولايات المتحدة المالية لا تفيد في شيء لان المطروح **ليس شراء نفط بديل** بأسعار أكثر ارتفاعا **وانما أساسا ايجاد نفط بديل** خلال فترة قصيرة تعد بالشهور ـــ وهو أمر غير ممكن حتى ولو طال الافق الزمني فامتد الى الاجل المتوسط اي حتى خمس سنوات ، ذلك ان الطاقة الانتاجية لفنزويلا ونيجيريا وايران واندونيسيا والاتحاد السوفياتي لا تستطيع التعويض عن النفط العربي في المدى القصير أو المتوسط . وهكذا توضع الولايات المتحدة في « الزاوية » وتضطر الى تبديل سياستها من قضية فلسطين لانقاذ اقتصاد أعز حلفائها وأقربهم اليها . والقضية هنا ليست فحسب في توفير النفط والغاز للمصانع والسيارات والصناعات البتروكيميائية والمولدات الكهربائية ـــ وانما هي كذلك توفيره للاستعمال المنزلي في الطبخ والتدفئة والانارة (بفضل توليد الكهرباء حراريا اي بواسطة النفط) . اذن فان حجب النفط العربي يمس الاقتصاد والحياة اليومية للبلدان المستهدفة على السواء ـــ بل ببساطة انه يمس الحياة البيولوجية لهذه البلدان .

ج ـــ ينطلق بعض محبذي هذه السياسة في توضيح حسناتها بالقول انها لا تثير عداء الغرب كسياسة التأميم الكلي لانها تقتصر على حجب النفط ، وحجب النفط يعني رفض

التعامل التجاري مع البلدان الغربية التي توجه السياسة ضدها ، وليس هنالك ما يوجب على بلد ما الاتجار مع بلد آخر برغم انفه .

د ـــ ثم يحاج محبذو سياسة الحجب الجزئية بأن هذه السياسة مع كونها تقول بحجب النفط عن بعض البلدان الا انها قادرة على ضبط الامور بحيث لا يتسرب النفط من البلدان التي يسمح بتدفق النفط العربي اليها الى تلك التي يحجب عنها . وهذا صحيح اذا كانت البلدان المصدرة للنفط جادة في الامر لانه بمقدورها ان تتقيد في مبيعاتها للبلدان المسموح لها بالاستيراد بالكميات التي كانت تتجه اليها في الفترة السابقة لحجب النفط . وبالطبع فان توفر النفط في البلدان المسموح لها بالاستيراد واستمرار الحياة العادية فيها سيخلق المزيد من الضغط على البلدان المحرومة والتي سترى ان البلدان الاخرى التي يتوفر لها النفط ستقتنص الاسواق التجارية منها وتسبب لها بذلك ضررا بعيد المدى حتى بعد العدول عن سياسة حجب النفط . وهذا سيؤدي الى قيام البلدان المحرومة بالاسراع في اعادة النظر في سياساتها العربية وبالمزيد من الضغط على الولايات المتحدة للغرض نفسه . على ان الجدير بالذكر ان مقرري السياسة في الولايات المتحدة بداوا يشعرون بضغط داخلي كذلك مرده الى ازدياد الادراك لمدى تزايد الاعتماد على النفط العربي . وقد برز عدة محللين سياسيين وخبراء اميركيين حتى الآن وركزوا في الصحافة الاختصاصية وفي شهادات رسمية أمام لجان نيابية على وجوب الادراك بأن النفط العربي بمقدوره أن يصبح قوة سياسية ضاغطة جبارة في الولايات المتحدة*. والمؤلم ان هذا الادراك والتحسب له يسبقان الادراك العربي والتصرف بمنطقه .

كما رأينا عند بحث سياسة الحجب الكلي ، فان سياسة حجب النفط العربي عن عدد محدد من البلدان الغربية تبدو جذابة للوهلة الاولى ، لكنها في الوقت نفسه تشكو من عدد من نقاط الضعف نجملها في ثلاث نقاط :

ا ـــ ان القول بأن حجب النفط ان هو الا رفض للتعامل التجاري مع البلدان المستهدفة ، والبلدان العربية لا يتوجب عليها الاتجار برغم انفها ، هو قول مغرق في التبسيط . فالنفط ليس سلعة عادية وانما سلعة ستراتيجية حيوية هي بمثابة الدم في شرايين الحياة اليومية والاقتصادات وانظمة الدفاع . والنفط العربي يمثل نحو ٦٥ بالمئة من جملة النفط المستخدم في البلدان الاوروبية الغربية المستهدفة في السياسة ـــ واذن فقطع النفط العربي عن هذه البلدان هو حكم بالشلل على معظم الجسم الاقتصادي فيها ، كما انه معطل لنمط الحياة اليومية المنزلية كما رأينا .

ب ـــ يترتب على هذا التحفظ آثار خطيرة . فالبلدان الغربية المعنية سترد حتما بضربة متكافئة او أشد قسوة . وفي ابسط الحالات ستجمد الارصدة والاستثمارات المالية العربية في مصارفها واسواقها المالية وهي الملجأ الرئيسي للارصدة والاستثمارات العربية ، حتى مع الاعتراف بأهمية السوق المال السويسري . وان قيل بانه يمكن التحسب لنقطة الضعف هذه مسبقا بنقل الارصدة والاستثمارات قبل حجب النفط الى اسواق فرنسا وسويسرا ، كان الجواب ـــ كما بينا قبلا ـــ ان السوق المالي الفرنسي لا يقدر على استيعاب الاموال العربية (وقد شاهدنا بالاختبار كيف انه بعد ان نقلت جمهورية ليبيا العربية اموالها من بريطانيا الى فرنسا عند تأميم شركة بريتش بتروليوم عام ١٩٧١ ، أعادت فرنسا الجزء الاكبر من هذه الاموال الى المصارف البريطانية خلال أسبوع) ، وان السوق السويسري سيرفض استقبال هذه الاموال ، ظاهريا بحجة

---

* كنا أشرنا الى شهادة جان اروين فيما سبق ، والى مقال في مجلة The Oil and Gas Journal بتاريخ ١٩٧٢/٣/٢٠ . ونضيف الى ذلك مقالا آخر بقلم جين كتي بموضوع « الحصول على نفط الشرق الاوسط مرتبط بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة » ـــ نفس المجلة بتاريخ ١٩٧٢/٦/١٢ ، ص ٧١ .

الاشباع وفي الحقيقة تضامنا مع البلدان المحرومة من النفط . وهكذا مرة اخرى نرى ان العرب يصبحون اسرى اموالهم لانها تقيد حرية تصرفهم .

غير ان رد البلدان المحرومة قد يجيء اشد عنفا من الاجراءات الاقتصادية كتجميد الاموال العربية . فبالاضافة لهذا التجميد قد تعتمد البلدان الغربية المعنية ردا عسكريا بصيغة او بأخرى ، اذا طال امد انقطاع النفط وهدد الحياة الاقتصادية واليومية واجهزة الدفاع بالشلل . ولئن قيل ان هذا الاحتمال الذي شهدنا اهميته عند بحث سياسة الحجب الكلي تتغير ظروفه بين سياسة واخرى، اي انه احتمال ضعيف الان لان سياسة حجب النفط الجزئية انما تستهدف عددا محدودا من البلدان الغربية في حين ان حجب النفط الكلي يستهدف جميع البلدان الغربية — اذا قيل هذا كان ردنا ان البلدان ذات النزوع للعمل العسكري في كلتا الحالتين هي البلدان نفسها ، وبالتحديد الولايات المتحدة وبريطانيا (خاصة البلد الاول) ، ولذلك فينبغي عدم استبعاد الرد العسكري وان يكن احتماله الان اضعف منه في سياسة الحجب الكلي . وهنا ايضا فقد يستهدف العمل العسكري بلدا عربيا واحدا او اكثر .

ج — نقطة الضعف الاخيرة هي الفرضية التي تقوم عليها سياسة حجب النفط عن عدد محدد من البلدان الغربية والقائلة بأن هذه السياسة يلزمها عمل عربي موحد . ونحن احتراما منا للواقع وتحاشيا للتجريد المثالي نعتقد ان شرط الالتزام العربي الواحد غير المتحفظ والمشاركة بالعمل الموحد الممتد زمنيا حتى يحقق اغراضه ، غير متوفر في الظرف العربي الحالي ، وليس من المنطق او حسن التبصر والتخطيط السليم ان تبنى سياسة ذات ابعاد خطيرة كالسياسة المطروحة على اساس فرضية غير سليمة .

* * *

حصيلة هذا التحليل لسياسات التهديد بحجب النفط او حجبه ان قدرة الضغط العربية تكمن في هذه المجموعة اكثر مما تكمن في مجموعة سياسات التهديد بالتأميم او تنفيذه . لكن هذه القدرة بسبب ضخامتها وفاعليتها تستثير على الارجح ردود فعل غربية عنيفة بل قد تستدرج اجراءات عسكرية غربية (عدا الاجراءات الاقتصادية) لا نخال البلدان العربية في الوضع العربي الراهن تقبل بأن تتعرض لها . لكن في النهاية تظل المسألة مسألة حرب اعصاب ، فالغرب يدرك ضعف مركزه لكنه يناور من نقطة ادراكه لضعف الفريق العربي الخائف على موارده المالية وعلى امنه فيما اذا كان رد الفعل الغربي عسكريا . وليس المهم حقيقة انكشاف العرب بقدر ما هو اعتقادهم بانكشاف موقعهم . اما هذا الخوف فلا يبطله سوى الفهم العربي الحقيقي للوضع المقارن وارتفاع ارادة النضال لدى العرب .

٣ — السياسات الاكثر مداورة والتي تتعلق بممارسة سيطرة غير مباشرة على مشتري النفط

نأتي الآن الى مجموعة اخرى من السياسات او الاجراءات الجزئية التي يمكن ان تتخذ وتكون ذات أثر على السياسة الغربية عامة والاميركية خاصة ، وان يكن الاثر غير مباشر او جزئيا . وسنعدد اربعة منها :

أ — الاجراء **الاول** هو قيام البلدان العربية النفطية بشراء اكبر نسبة ممكنة من اسهم شركات النفط ، ما كان يعمل منها في اراضي البلد المعني وما كان يعمل في اراضي عربية اخرى ، وذلك لغرضين اثنين ، **أولهما** السيطرة على السياسة النفطية لهذه الشركات بالمعنى الاقتصادي والتجاري للسياسة ، **وثانيهما** ممارسة ضغط سياسي على بلدان الغرب مما لا تمارسه الشركات الآن ، لصالح القضايا العربية عامة وقضية فلسطين خاصة . ومن الواضح في هذا الصدد انه لا يوجد اعضاء في مجلس

ادارة اي شركة حتى الان يستطيعون ممارسة ضغط سياسي خارج النواحي المالية والادارية البحت ، على ان المستهدف هو ممارسة ضغط على سياسة البلدان التي تنتسب الشركات اليها من خلال تقوية نفوذ الاعضاء العرب في مجالس الادارة وتمكينهم بفضل نسبة الاسهم العربية المرتفعة من حمل هذه المجالس على ان تلعب دورا موازيا ومعدلا (بكسر الدال) لدور الاوساط الممالئة للصهيونية في البلدان الغربية المعنية .

ب ــ الاجراء **الثاني** هو قيام بلدان النفط بالتهويل باسترداد أجزاء من مساحة الامتيازات النفطية بواسطة التشريع ، من اجل الاستثمار المباشر او الاستثمار بالتعاون مع فرقاء غير غربيين أو مع فرقاء غربيين لقاء عمولة محددة ــ وذلك ايضا كوسيلة ضغط سياسي على البلدان الغربية ، اذ من المعلوم ان الشركات تحرص كثيرا على الاحتفاظ بالمقدار الاقصى من الاراضي المشمولة بالامتيازات الاصلية .

ج ــ الاجراء **الثالث** هو ايعاز سلطات بلدان النفط للعمال في الشركات بالتباطؤ في الانتاج وفي تحميل الناقلات (خاصة الناقلات العملاقة) لاشعار البلدان الغربية بقوة بلدان النفط العربية وبتصميمها على ممارسة الضغط السياسي على الغرب لصالح القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة .

الخلاصة التي تنبثق عن هذه الاجراءات الثلاثة انها جميعا تهدف الى رفع قابلية التصديق لدى الغرب بصدد الموقف العربي والتصميم العربي على مناصرة قضايا العرب ، والى تصديق التهديد العربي بأن اجراءات اشد وطأة ستتخذ اذا لزم الامر وكانت الاجراءات ذات الاثر المداور قليلة الجدوى .

والجدير بالذكر ان اتخاذ هذه الاجراءات لا يتعارض مع اعتماد اي من السياسات الاخرى الا بمعنى ان الاجراءات متواضعة الاثر ، فالتباطؤ في الانتاج هو طبعا دون حجب النفط حدة وفاعلية ، واسترداد قسم من الامتيازات وشراء المزيد من اسهم الشركات هما دون التأميم شمولا وفاعلية كذلك . وبالتالي تمكن المباشرة باتخاذ الاجراءات الثلاثة المبينة فورا من قبل جميع البلدان المنتجة كمقدمة لاتخاذ ما هو اشد وامضى من اجراءات .

د ــ اخيرا ، لا بد من التأكيد بأن هنالك جانبا ايجابيا ينبغي تقديمه وتوضيحه الى جانب السياسات المقترحة قبلا والتي كانت بشكل عام ذات صفة سلبية بمعنى انها كانت تهدف الى خلق ضغط على الغرب من خلال ايقاع الاذى بمصالحه . هذا الجانب هو تنمية قطاع النفط العربي وتقويته بفضل تنمية صناعات الغاز والتكرير والبتروكيمياويات وتنمية النقل البحري وخدمات تأمين النفط ، من أجل تحقيق مورد دخل مرتفع بديل يعوض الى حد ما عن الانخفاض في مورد تصدير النفط الخام فيما اذا اتخذت البلدان العربية اجراءات تحد من تصدير النفط الخام ، كما تحقق السياسة مزيدا من السيطرة في حال استمرار التدفق . وما ينطبق على تنمية قطاع النفط الوطني ينطبق بشكل أوسع على تنمية الاقتصادات العربية ككل لان ذلك يحد من الاذى الذي تصاب به اذا اتخذت البلدان العربية اجراءات ردعية ضد الغرب من شأنها ان تؤدي بمورد النفط الى الهبوط . غير اننا بحثنا موضوع التنمية من زاويته الواسعة في القسم الاول حين عالجنا دور النفط في تنمية القدرة العربية الذاتية .

٤ ــ سياسات اخرى

سنعرض سياستين في هذه المجموعة يصعب تصنيفهما تحت اي من المجموعات السابقة ، **اولاهما** فرض رسم تصدير انتقائي لدعم المجهود الحربي العربي .

طرحت هذه السياسة كاجراء زجري ومالي في اعقاب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وقالت بفرض رسم تصدير قدره ٢٠ سنتا اميركيا على كل برميل نفط يصدر من البلدان

العربية (مرة واحدة او تدريجيا) لتمويل عمليات التعمير والتسلح العربية . وقد استندت هذه السياسة الى الحجج التالية تبريرا :

أ ـ ان فرض الرسم اجراء سهل التطبيق .

ب ـ ان الاجراء يمكن ان يكون انتقائيا في التنفيذ ، اي ان البلدان الصديقة المستوردة للنفط يمكن أن تدفع لها رديات معادلة للرسم المدفوع او ان تستثنى منذ الابتداء من الرسم، وهكذا تقع وطأة الرسم المفروض على البلدان العدوة المساندة لاسرائيل (وعلى رأسها كما كان مقترحا في السياسة المطروحة الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الاتحادية وهولندا) .

ج ـ ان النفط العربي منخفض الاكلاف وبالتالي فان سعر المبيع يستطيع ان يستوعب الرسم المفروض . وطبيعي ان نسبة ما كانت الشركات المنتجة للنفط ستقدر على تحويله من الرسم للمستهلك النهائي ، ونسبة ما كانت ستضطر هي ذاتها لتحمله ، تتوقف على مرونة الطلب لجهة سعر المبيع . وفي كل الاحوال كان الاعتقاد بأن رسم التصدير لن يعدل نمط الاكلاف العالمي بحيث تتمكن الشركات من التحول بسببه عن النفط العربي الى سواه ، **أولا** لاستحالة التعويض عن النفط العربي في المدى الزمني القصير او المتوسط ، و**ثانيا** للميزات التي يتمتع بها النفط العربي من حيث كلفة الانتاج. الضعف الاساسي في هذه السياسة انها مالية في طبيعتها وليست في ذاتها كافية للتأثير في السياسات الغربية المناصرة لاسرائيل والمساندة لها ـ خاصة سياسة الولايات المتحدة . فرسم التصدير يمكن استيعابه ـ وقد امتصت شركات النفط والبلدان التي تنتسب هذه الشركات اليها اكثر من الرسم المقترح منذ منتصف ١٩٦٧ خلال الاتفاقيات الجديدة في مطلع ١٩٧١ ومطلع ١٩٧٢ مع البلدان المصدرة للنفط . كما ان اتاحة المزيد من الموارد المالية للمجهود الحربي العربي بفضل سياسة كالسياسة المطروحة لا يضمن **القيام الفعلي** بمجهود حربي من الناحية الاخرى . ولهذا نعتقد ان هذه السياسة تخطتها الاحداث لان الغرض الاساسي الذي من اجله طرحت لم يعد قائما مع التصاعد الشاهق في العائدات النفطية للبلدان العربية بين صيف ١٩٦٧ وربيع ١٩٧٢ ، ولان اثر السياسة المالي اضعف من أن يحمل البلدان الغربية على اجراء التبدل المنشود في سياساتها من قضية فلسطين . فاذا فرض رسم تصدير من الارتفاع بحيث شكل عبئا غير مقبول على المستورد نتج عن ذلك توقف التصدير فعلا اي تصبح السياسة المطروحة كسياسة حجب النفط ، وقد عرضناها وحللنا آثارها اعلاه بما لا يضطرنا لاعادة العرض والتحليل هنا .

باختصار ، ان فرض رسم تصدير اما ان يكون سياسة ضعيفة وغير ذات اثر اذا كان الرسم منخفضا ، او أن يكون كسياسة حجب النفط اذا كان الرسم مرتفعا جدا .

السياسة **الثانية** ضمن المجموعة الحالية ما لا نستطيع افضل من تسميته « بسياسة اللاسياسة » .

نعني بهذه السياسة ترك الامور على ما هي عليه الان ، اي الاستمرار بالسعي لتحسين شروط الاتفاقيات بين البلدان المصدرة للنفط والشركات المستثمرة ، وبرفع مستوى الصادرات الكمي ، وبالتالي الاستمرار بتحسين الوضع المالي للبلدان المصدرة باضطراد لكي ترتفع قدرتها على تحمل اعباء الدفاع المتزايدة وقدرة بعضها على التبرع لدعم الصمود . من هنا كانت تسميتنا لهذه السياسة « باللاسياسة » لانها في الواقع تقوم ضمنا ان لم يكن صراحة على مبدأ عدم استخدام النفط سلاحا او وسيلة ضغط فعال على العالم الغربي وعلى مبدأ عدم المجابهة المباشرة مع بلدان العالم الغربي ـ بالاختصار فهي تقوم في جوهرها على اساس ابقاء الوضع على ما هو عليه ـ مع

تحفظ هام بصدد نمط الوضع الراهن : هذا التحفظ يتعلق بمبدأ المشاركة العربية برأس مال الشركات ، ونقصد به ان المشاركة — إلى جانب كونها عملية ذات مظهر مالي ودخلي الا انها في الوقت ذاته ذات دلالة سياسية وقومية ، لانها تمكن البلدان النفطية من ممارسة مقدار من السيطرة (يتناسب مع حجم المشاركة ومع موقف الفريق العربي وكيفية تحديده لدوره) على السياسات النفطية وبالتالي على سياسات البلدان التي تنتسب شركات النفط اليها .

من الواجب الاعتراف ، قبل المضي في تحليل سياسة اللاسياسة ، ان بعض المجابهات الماضية التي ادت الى قطع النفط كانت لاغراض سياسية تتعلق بقضية فلسطين ومتفرعاتها وليس لغرض جني المزيد من العائدات النفطية . اي ان البلدان المصدرة للنفط (او بلدان المرور) التي تصرفت في الماضي بشكل يحد من تدفق النفط او يوقفه ، قبلت مبدأ المجابهة مع الغرب . لكن الواقع ايضا ان جميع هذه المجابهات لم تكن حاسمة ، فهي اما كانت قصيرة المدى فلسم تمتد زمنيا حتى نقطة الحرج ثم الحسم بالنسبة للاسواق الغربية ، او هي لم تكن شديدة الوطأة لانها اقتصرت على عدد قليل من بلدان النفط او هي اخيرا لم تطبق بدقة تمنع تسرب النفط الى من كان يراد حرمانهم منه . وفي كل الحالات فقدت المجابهات قابليتها للتصديق بسرعة بما رافقها من شكوى وتخوف عربيين من ان وقف النفط سيؤثر سلبا في الاوضاع المالية والاقتصادية العربية ، او بما لازمها من اعتقاد بان الغرب سيعدل موقفه السياسي ايجابيا وبسرعة ، دون ان يقوم هذا الاعتقاد على قاعدة موضوعية صلبة ودون ان يتمتع بخلفية تاريخية تبرره .

اذن فان المجابهات الماضية لا تصلح لان تعتبر سابقة لتوقع مجابهات مقبلة حاسمة يكون العرب مستعدين فيها لان يوصلوا السياسة المختارة الى نقطة الحسم او على الاقل الى مستوى الحرج . ومن هنا تكتسب سياسة اللاسياسة اغراءها وجاذبيتها لانها من جهة تتحاشى المجابهة التي يبدو ان درجة القبول بها منخفضة جدا ، ومن جهة اخرى توفر على البلدان العربية مخاطر المجازفة (الاقتصادية — السياسية — العسكرية) المترتبة على المجابهة ، ومن جهة ثالثة تضمن لهذه البلدان موارد مالية يصح اتخاذها مبررا لسياسة الاستمرار لانها — اي الموارد — يمكن ان تبرز على انها قادرة على دعم الصمود وتمويل حاجات الدفاع الى جانب حاجات الاستهلاك والانماء في البلدان المعنية .

لكن مهما يكن من امر ، فان سياسة اللاسياسة او سياسة الاستمرار ضمن خطوط الوضع الراهن لا تصلح وسيلة ضغط على الغرب والدليل على ذلك ان البلدان العربية عاجزة عن ممارسة اي ضغط بفضلها . « فحسن السلوك » الذي يعتبره بعض انصار هذه السياسة اقوى عناصرها في التعامل مع الغرب ليس له مكان في قاموس التعامل السياسي ، حيث يتأثر التعامل بنمط توزع القوى وبممارسة القوي لقوته او بتهديده المقنع والقابل للتصديق باستعداده لممارستها ، اما لردع الخصم او لتصحيح مواقفه . ثمة سبب آخر يحملنا على التقليل من قيمة سياسة الاستمرار في نطاق السياسات المطروحة في هذا البحث ، هو ان مبررها المالي لا يشكل حجة تحمل على القبول بها . فقدرة هذه السياسة على توفير المزيد من الموارد المالية الضخمة للبلدان المصدرة للنفط امر لا ريب فيه . لكن الحاجة ليست الى المزيد من الاموال ، والمال ليس عنق الاختناق الاساسي الذي يمنع الجانب العربي من ممارسة وزنه السياسي لتعديل موقف الجانب الغربي . وكما بينا قبلا فان عنق الاختناق هو عدم توفر ارادة المجابهة والنضال واستخدام جميع الموارد والقبول بالتضحيات لصالح القضية الفلسطينية .

٥ ــ السياسات المشتركة بين التأميم وحجب النفط

لعل هذه المجموعة اكثر المجموعات فاعلية لانها تتمتع بمرونة فائقة منبثقة عن امكـــان استخدام التهديد بالتأميم (او التأميم) والتهديد بحجب النفط (او حجبه) في تمازجات مختلفة وضمن برنامج تدرجي ، كما يمكن التهبيط فيها من خلال عنصر حجب النفط الذي يمكن تصعيده وتهبيطه . اما ميزاتها الاخرى والتي يرجح ان تعوض عن نقاط الضعف الكامنة في مجموعة سياسات التأميم ومجموعة سياسات الحجب كل على حدة فستتضح من خلال التحليل كما سنشدد عليها في ختام التحليل .

وبالرغم من ان هذه المجموعة يمكن ان تضم صيغا مختلفة فاننا سنتكلم عن احدى هذه الصيغ كعينة لتمازج معين لعنصري التأميم والحجب .

تقول هذه السياسة بخطوات تدريجية تقوم بها بعض البلدان النفطية لا كلها (على ان يظل الباب مفتوحا امام البلدان الاخرى للمشاركة) وتوجه الخطوات صوب بلد غربي واحد هو الولايات المتحدة . وبالتفصيل تتضمن السياسة الاجراءات التالية :

أ ــ ترتكز السياسة في الاساس على العراق وليبيا ومصر وسورية والجزائر . اما في المرحلة الاولى فترتكز على البلدان الثلاثة الاولى . وبما ان العراق قد امم المصالح غير الفرنسية في مجموعة شركة نفط العراق في اول حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، تقوم ليبيـــا ومصر بموجب هذه السياسة بالانذار بانها ستؤمم اسهم الشركات الاميركية العاملة على اراضيها والتي يشكل نصيبها من الانتاج الاجمالي للبلـدين ٨٢ بالمئة (٨٦٪ في ليبيا و ٤٦٪ في مصر ، وقد كانت النسبة الاجمالية قبـــل التأميم ٦١،٢ بالمئة نظـــرا لكون المصالح الاميركية في العراق كانت تبلغ ٢٣،٧٥٪) ، ما لم يحدث تبدل واضح في موقف واشنطن من القضية الفلسطينية . فاذا لم تكن الاستجابة مرضية ، ينفذ التأميم فعلا ، مما يرفع المصداقية العربية فورا ويعيد اليها بعض الاحترام .

ب ــ اذا لم يكن من اثر سياسي ايجابي لهاتين الخطوتين ، او كان اثرهما ضئيلا ودون مرتبة معينة تكون البلدان المعنية قد حددتها مسبقا ، او اتت برد فعل عكسي ، تقـــوم البلدان الثلاثة زائدا سورية والجزائر (زائدا اي بلد اخر يود المشاركـــة في تنفيـــذ السياسة بشكل طوعي) بالانذار بحجب النفط والغاز عن الولايات المتحدة . فاذا جرى تجاهل الانذار ايضا ، يصار الى حجب النفط والغاز ضمن برنامج تدرجي (اي حجب نسبة مئوية يصار الى تصعيدها بموجب الانذار المحدد) .

ج ــ الى جانب هذه الخطوات من البلدان الخمسة ، تقوم بقية البلدان العربية المصدرة للنفط بتحديد الانتاج لكي لا يتمكن اي بلد من استيراد فوق ما كان يستورده قبـــلا من النفط منعا لتسرب المزيد من النفط العربي الى الولايات المتحدة ، وكوسيلة للضغط على البلدان الغربية لتضغط بدورها على الولايات المتحدة لصالح قضية فلسطين .

تقوم السياسة المقترحة على ثلاث فرضيات اساسية : **الاولى** ان الولايات المتحدة هي مركز الثقل في المساندة الغربية لاسرائيل وهي البلد الذي يمكن الاستعمار الصهيوني من الرسوخ والامتداد ومن تحدي الاسرة الدولية والعرب على السواء ، لذلـك ينبغي ان توجه اية اجراءات زجرية في الوضع الراهن الى الولايات المتحدة . **الثانية** ان الـــدول الغربية الاخرى بالرغم من الدور الذي قام به بعضهـــا في فتح ابواب فلسطين امـــام الصهيونيين ومساندتهم ماليا وسياسيا ومعنويـــا هي ذات اثر سياسي ضئيل اليـــوم بالنسبة لقضيـــة فلسطين ومن الواجب تحييدها على الاقـــل ، وفي احسن الاحتمالات جعلها تصبح نصيرا للعرب في الضغط على الولايات المتحدة . **الثالثة** ان البلدان العربية الخمسة المذكورة قادرة على اختطاط سياسة مشتركة بصدد التأميم وهي على درجة من

القبول لفكرة التأميم اكثر من سواها ، كما انها ايضا قادرة فنيا على تحمل نتائج التأميم — ولهذا كان اختيارها دون سواها من البلدان العربية النفطية .

تتميز السياسة المطروحة بعدة ميزات اهمها :

أ — انها واقعية في فرضياتها اذ تقصر اجراءات التأميم على مجموعة من البلدان العربية اكثر استعدادا للقبول به من سواها . (ليس في الجزائر وسورية شركات اميركية عاملة ذات شأن) .

ب — انها واقعية لجهة الهدف بحيث انها توجه الضربة الاولى تجاه العدو الغربي الاكبر لقضية فلسطين اي الولايات المتحدة .

ج — انها تعتمد التدرج والمرحلية فتضغط تدريجيا على الولايات المتحدة وتعطيها فرصة اولى لتعديل سياستها العربية ، فاذا لم تتجاوب الولايات المتحدة فان السياسة تقول بتصعيد الاجراءات كما بينا .

د — انها تميز بين الولايات المتحدة وبقية البلدان الغربية وتعطي الانطباع بالمرونة والروية والتمييز بين بلد هو عدو مكشوف وبلدان اخرى عداؤها محدود الاثر او هي محايدة تجاه العرب .

هـ — انها لا تتطلب من البلدان العربية المصدرة للنفط خارج الخمسة التي عددناها اتخاذ خطوات مرهقة ماليا او محرجة سياسيا وكل ما تطلبه منها هو تحديد الانتاج لكي لا تتملص اميركا من فعل خطوتي التأميم وحجب النفط من جهة ، ولكي تجهد البلدان الغربية الاخرى بسبب تحديد تدفق النفط اليها للضغط على الولايات المتحدة . اما مقدار التحديد فينبغي اقراره بعد دراسة ومشاورات بين البلدان العربية المعنية ، لكنه في اكثر صوره تواضعا يعني تجميد الانتاج على مستواه السابق للتحديد . وبالطبع فان البلدان التي يطلب اليها التحديد لن تشكو ازمة مالية بالنتيجة ، **اولا** بفضل ما لديها من احتياطي مالي كبير **وثانيا** لانها ستستمر بالافادة من عائدات نفطية ضخمة وان تكن غير متصاعدة .

و — انها تتحاشى السياسات الكلية او القائلة بتطبيق مبدأ الضربة الواحدة التي مر ذكرها بما رأينا انه يرافق تلك السياسات من احتمالات خطر على البلدان العربية كلها اقله ذو صفة اقتصادية واقصاه ذو صفة عسكرية .

ز — انها تجسد مبدأ « العصا والجزرة » او العقاب والثواب في انها تتضمن وسائل الاكراه ووسائل الترغيب في آن واحد وضمن قابلية الاستخدام المرن .

غير ان السياسة المطروحة — بما تتمتع به من مرونة وتدرج واعتدال نسبي تتكشف للنقد لانها لا تعطي الانطباع بانها موجعة جدا وبشكل درامي . على اننا نعتقد ان ميزات هذه السياسة وسيئاتها ، بالمقارنة مع السياسات المعروضة قبلا ، تحمل على الاعتقاد انها **في ظل الظروف العربية الراهنة** اصلح السياسات البديلة في صافي التحليل النهائي لغرض استخدام النفط العربي وسيلة ضغط ، من اجل تحقيق تعديل اساسي في السياسة الاميركية من قضية فلسطين . فمع ان سياسة حجب النفط عن جميع بلدان الغرب من قبل جميع البلدان النفطية العربية تبدو وكأنها سياسة فضلى ، الا انها سياسة متسرعة في التصعيد ومغرقة في الشمول ، ولعلها تجسد حالة اليأس النهائي الذي يتخذ التصرف العربي معه موقفا متطرفا يكاد يكون انتحاريا في اقصى حالاته . ومن الواضح ان هذه السياسة الكلية القائمة على مبدأ « الضربة الواحدة » تلائم حالة الازمة القصوى التي تنشأ فيما اذا اندلعت حرب عربية — اسرائيلية جديدة ولم يعد الظرف يسمح بالتصعيد المتأني وبالتدرج البطيء . من هنا كان تفضيلنا للسياسة

الاخيرة المعروضة اي سياسة تمازج التأميم والحجب ضمن صيغة متدرجة مرنة .

* * *

ينبغي توضيح ثلاثة امور ختاما لهذا التحليل الدائر حول دور النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية :

١ ــ الامر الاول هو ان مناقشة السياسات المطروحة تقوم **على اساس وضع عربي راهن** وان تفضيل سياسة ما على سياسة اخرى يتبدل حتما اذا تبدل هذا الوضع صوب مزيد من التعاون العربي ومزيد من الالتزام الفعلي بقضية فلسطين والعمل لها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، ومزيد من القبول بالمخاطر والاعباء التي تترتب على هذا العمل . كما تقوم مناقشة هذه السياسات على اساس افتراض حالة اللاحرب مع اسرائيل . **فاذا نشبت الحرب معها وقامت الولايات المتحدة بمساندة اسرائيل تصبح السياسات الاكثر « تطرفا » اكثر جاذبية واجدر بالاختيار لانها تكون أكثر جدوى وحسما .**

٢ ــ الامر الثاني هو ان انتقاء سياسة نفطية ما لا يعني الاقتصار على هذا الاجراء في المجابهة مع الغرب . فهنالك نواح ايجابية طويلة الامد ينبغي اعتمادها تدور حول رفع الفاعلية الاقتصادية العربية والانماء العربي بشكل عام ، مما يقوي ساعد المجتمعات والاقتصادات العربية في مجابهتها مع الغرب ويجعلها اكثر قدرة على تحمل آثار المجابهة السلبية واعبائها النفسية والمادية .

٣ ــ الامر الثالث هو ان انتقاء سياسة ما بين السياسات المطروحة هنا ، او سواها ، واعتماد هذه السياسة ، يلزمه استيفاء خمسة شروط ليصبح فعالا ولكي تؤدي السياسة المنتقاة بالتالي الى اغراضها المستهدفة :

ا ــ ان يحافظ على السرية التامة قبل التطبيق ، لان الاعلان دون خطة مرسومة من شأنه الا يحمل على محمل الجد على الارجح بالنظر لهبوط درجة قابلية التصديق لدى الغرب ، ولان الفريق العربي يخسر عنصر المفاجأة ويعطي الفريق الغربي المجال لاحباط السياسة او للاحتياط لآثارها . اذن فالاعلان ينبغي ان يكون جزءا من الخطة ذاتها .

ب ــ ان يتم الالتزام بدقة بالسياسة المنتقاة ، بتفاصيلها التي يتفق عليها ، وان يستمر التضامن بين الفرقاء المسند اليهم تطبيق السياسة .

ج ــ ان يرافق التطبيق الادراك المسبق ان المجابهة سلاح ذو حدين وان يرافقه القبول بالاعباء التي تترتب على المجابهة بعد ان تكون الدراسة الدقيقة قد اثبتت ان حصيلة حساب المجابهة هي في الصالح العربي .

د ــ ان تعتبر البلدان العربية المعنية بأية سياسة منتقاة ان فاعلية المجابهة تكمن في استمرارها حتى مستوى الحرج ومن ثم مستوى الحسم ، وانه اذا جرى تطبيق السياسة لفترة ما ادنى من ذلك المستوى (لمجرد المشاركة العاطفية او تسجيل المواقف) فانها لن تكون ذات أثر وستفشل ، والاحرى بها عندئذ الا تعتمد على الاطلاق كي لا يتحول التهديد بها الى مهزلة ــ مأساة .

هـ ــ ان لا يحصل تردد بعد مباشرة تطبيق السياسة المنتقاة ، وان تطبق باقدام وجرأة ، والا شعر الخصم بالتردد والضعف واستغله لاحباط السياسة بطريقة او بأخرى من طرق الارهاب وحرب الاعصاب .

ثالثا : الضغط الاسرائيلي المعاكس

السؤال الثالث الذي ينبغي ان نطرحه الان هو : ما هي القدرة الاسرائيلية المضادة ، او الضغط الاسرائيلي المضاد الذي يمكن ممارسته لمنع العرب من استخدام النفط

كجهاز ضغط ؟ بعبارة اخرى ، ما هي قدرة الردع الاسرائيلية التي من شأنها منع العرب عن استخدام النفط كجهاز ضغط ، وما هي قدرة اسرائيل على التصرف اذا جرى هذا الاستخدام ؟

انطلاقا ، ينبغي ان نؤكد ان قدرة الردع ليست بالضرورة القدرة العسكرية ، وان تكن القدرة على القيام بعمل عسكري رادع ، او عمل عسكري لاحق لاستخدام النفط ، متوفرة لدى اسرائيل وكان استخدامها واردا في اي حال . فمن الممكن ان تقوم اسرائيل بالدور نفسه الذي قامت به عام ١٩٥٦ في مهاجمة سيناء حين تصرفت نيابة عن بلدين غربيين حماية لما اعتبراه مصلحة حيوية لهما ، واصالة عن نفسها لضرب مصر قبل ان يتدرب جيشها على استعمال السلاح السوفياتي الذي كان قد وصل حديثا . وعلى اي حال فان المصلحة الحيوية الغربية اكثر وضوحا واعظم شأنا بالنسبة للنفط مما كانت بالنسبة لقناة السويس ، ولا ينبغي اسقاط احتمال تكليف الغرب لاسرائيل لتقوم بعمل عسكري ، او لتلوح بعمل عسكري ، من شأنه ردع العرب عن استخدام النفط بشكل فعال ضد القوى الغربية ، او فيما اذا جرى الاستخدام من شأنه ضرب العرب بسرعة وحسم لايقاف الاجراءات النفطية التي تكون قد اتخذت .

هذا هو الجواب البديهي للسؤال الذي طرحناه حول قدرة اسرائيل على ممارسة ضغط معاكس للضغط العربي النفطي . على ان هنالك نواحي اخرى ليس اي منها بارزا لكنها في مجموعها تعطي اسرائيل وزنا دوليا يجعل الغرب يعير هذا البلد اهتماما ما كان ليعيره اياه لولا هذه النواحي . اي ان استعداد الغرب للرضوخ للضغط النفطي العربي يحده او يخفف من وزنه اربعة عوامل هي : **اولا** ، احترام الغرب لاسرائيل كبلد متقدم وعصري نجح خلال حقبتين ونصف في توطيد مركزه وترسيخ اقدامه وسط محيط عربي ضخم ومعاد . **ثانيا** ، احترام الغرب لاسرائيل كمجتمع ذي تجربة اجتماعية تدعو للانتباه على الاقل في نواح ثلاث هي : استيعاب اعداد ضخمة من المهاجرين ، واقامة المستعمرات التعاونية (الموشافيم) والاشتراكية (الكيبوتسيم) وقيام هذه بدور فكري وعقائدي وقيادي رائد ، وتحديث جهاز الدولة والمجتمع . **ثالثا** ، اطمئنان الغرب الى قدرة اسرائيل على الحفاظ على شريان نفطي هام هو خط أيلات عسقلان — وتوسيع هذا الشريان ان لزم — ليقوم بنقل النفط الايراني الى المتوسط متحاشيا قناة السويس ، وبنقل اي نفط عربي يمكن الحصول عليه بالتحايل في صيغ معروفة (وان تكن هنالك صعوبة في اثبات حصولها) . **ورابعا** ، اطمئنان الغرب الى قدرة اسرائيل العسكرية على الردع او ممارسة العمل العسكري الفعلي بنجاح — دفاعا عن نفسها وعن مصالح اصدقائها الغربيين على السواء ، مهما كان تعريف مصطلح « الدفاع » و « المصالح » . اذن نستطيع ان نستنتج ان هذه العوامل الاربعة في مجموعها تشكل بوضوح قدرة اسرائيلية على ممارسة الضغط المعاكس للطاقة الغربية على الضغط وذلك في المدى الزمني القصير ، والمتوسط ، وربما البعيد ايضا ، وان تكن هذه القدرة مداورة لا مباشرة . واهم ما في الموضوع ان هذه العوامل — بسبب ما تخلقه من صورة خاصة لاسرائيل في الغرب **وفي الوسط العربي على السواء** — تصبح ذات اثر في توجيه التصرف العربي (او على الاصح عدم التصرف) ، بحيث ان العرب يشعرون بوجود قدرة اسرائيلية على الضغط المعاكس ، او هكذا يوحون . وفي حالة كهذه ان ما يشعر به الفريق المستهدف من الضغط المعاكس — اي العرب في السياق الحالي — له اهمية ملموسة ما دامت للضغط المعاكس قابلية التصديق . والقدرة الاسرائيلية تتمتع بهذه القابلية دون ريب لدى الغرب والعرب على السواء .

رابعا : الغرب والضغط العربي

بقي ان نطرح السؤال الرابع والاخير : ما هي قدرة الغرب على مقاومة الضغط العربي

النفطي ؟ وجوابا نقول انه سبق ان بينا في القسم الثاني من هذا البحث أن قدرة الغرب قد تكون مباشرة على الصعيد العسكري او الاقتصادي او الاثنين معا ، وقد تكون مداورة كما بينا في القسم الثالث اي انها قد تتحقق من ضمن قدرة اسرائيل على ممارسة ضغط معاكس . وكذلك كنا قد بينا في القسم الثاني ان حاجة الغرب للنفط العربي من الضخامة بحيث لن يتوفر له نفط بديل خلال المدى الزمني المتوسط — اي في حدود خمس سنوات مقبلة — والغرب اذن والى هذا المدى ، لا قدرة له على الاستغناء عن النفط العربي وبالتالي التملص من اثر الضغط الذي يستطيع العرب ممارسته . اما تحديد المدى الزمني الذي يقدر الغرب ضمنه على مجابهة الضغط العربي فامر معقد . فالغرب لديه هذه القدرة من خلال اسرائيل في المدى القصير والمتوسط ، ولديه هو ذاتيا قدرة الضغط العسكري المعاكس في حال حدوث ازمة حاسمة كحجب النفط . اما قدرته المنبثقة عن الاستغناء عن النفط العربي فغير واردة في المدى القصير او المتوسط وستظل محدودة في المدى الطويل .

هذا من حيث قدرة الغرب على مقاومة الضغط العربي من منطلقات خارج الوطن العربي . لكننا نعتقد ان الصيغة الاشد خطورة للقدرة الغربية تكمن في وتنطلق من قلب العالم العربي بالذات : انها حالة التفكك والخوف ، انها عدم القدرة على اتخاذ قرارات عربية شاملة حاسمة ، انها ضعف الارادة العربية في النضال . اذن فقدرة الغرب انما هي في المقام الاول في ضعف العرب وفي استمرار التصور الخاطىء — بل الآثم — لدى عدد من الدول العربية بان « حسن السلوك » العربي تجاه الغرب كفيل في النهاية بان يجعل الغرب يتحول عن سياسته الحالية المناوئة للحق العربي في فلسطين والمائلة للادعاء الصهيوني وللوجود الاسرائيلي ، صوب وجهة النظر العربية .

لسنا نجزم بأن هذا التصور هو تصور صادق في كل الحالات . فلعل بعض الدول العربية غير مقتنعة به لكنها تدعيه لانه يعفيها من ممارسة ارادة النضال ضد الامبريالية الغربية ، ولعل البعض الاخر مقتنع بـه . لكنه في اي حال يعكس حالة المراهقة السياسية المسيطرة في بعض اجزاء المحيط العربي ؛ ويفضح ضعف الادراك لحقيقة الخطر الصهيوني الاسرائيلي وللاطماع التوسعية الصهيونية الاسرائيلية ، او انه — وهذا اخطر ما في الامر — يفضح قلة الاكتراث الصادق بمصير فلسطين وبالمصير العربي على السواء .

خاتمة

اتضحت فيما نعتقد الامور الجوهرية التالية :

١ — صلة النفط بالاطماع الامبريالية في المنطقة العربية وصلة هذه الاطماع بالاستعمار الصهيوني الاسرائيلي ،

٢ — الموقع الخطير الشأن والمتزايد الاهمية الذي يحتله النفط العربي في مجمل موارد الطاقة المتاحة عالميا ،

٣ — امكان استخدام النفط لتنمية القدرة الذاتية العربية في السياق الطويل ، وامكان استخدامه كجهاز ضغط جبار على القوى الغربية الامبريالية في السياق الزمني المتوسط ، لصالح القضية الفلسطينية ،

٤ — وجود عدة سياسات او صيغ لاستخدام النفط لغرض الضغط الفعال ، ووجوب اختيار السياسة او الصيغة المفضلة انطلاقا من الوضع العربي الراهن وتطلعا صوب وضع مقبل يرضي الطموح العربي برفع مستوى التعاون العربي ورفع فاعليته ورفع مصداقيته ،

٥ ــ بسبب تفتت ارادة النضال العربية اليوم والارتهان العربي للمكاسب النفطية ، وقوع العرب اسرى مواردهم النفطية وبالتالي شلل ارادتهم ، وصيرورة النفط عامل استمرار للوضع الاستسلامي الراهن بدل ان يكون عامل قوة وتبديل من اجل التحرير ،

٦ ــ كون الوضع الراهن اذن لجهة الافادة من النفط وضعا قاتما جدا ، ووجوب الافادة من النفط في المدى الزمني القصير والمتوسط اي قبل ان يطور الغرب موارد نفطية بديلة للنفط العربي ، من خلال سياسة تتمازج فيها اجراءات التأميم وحجب النفط ضمن خطة مرنة متدرجة ،

٧ ــ ختاما واستطرادا ، وجوب حصول تبدل جذري في المجتمع العربي وفي اوساط سلطاته ، ووجوب تحقق فهم افضل لحقيقة الخطر الاسرائيلي الامبريالي ، ووجوب تحقيق تماسك عربي اقوى ، ووجوب تبلور ارادة النضال **شروطا اساسية** لتحول النفط الى اداة لتنمية القدرة الذاتية العربية والى جهاز ضغط فعال على القوى المعادية للقضية الفلسطينية . فان لم تستوف هذه الشروط ظل العرب اسرى نفطهم واموالهم ، رهائن الخوف وفقدان الثقة بالذات ، وحكموا على مصيرهم بالتأقزم .

ملحق احصائي

جداول ١ ــ ١٠

(١) تقديرات الاحتياطي العالمي الثابت والمعلن للنفط الخام ، بنهاية ١٩٧٠ .
(٢) تقديرات الاحتياطي الثابت والمعلن للنفط الخام في البلدان العربية ، بنهاية ١٩٧٠ .
(٣) تطور انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٦٠ ــ ١٩٧١ .
(٤) صادرات البلدان العربية من النفط الخام ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ .
(٥) عائدات النفط للبلدان العربية ١٩٦٠ ــ ١٩٧١ وتقديرات ١٩٧٢ ــ ١٩٧٥ .
(٦) تطور العرض والطلب على النفط الخام في العالم ، وفي الشرق الاوسط وشمال افريقيا : ١٩٦٠ ــ ١٩٧٠ وتقديرات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ .
(٧) تقديرات انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٧٢ ــ ١٩٧٥ .
(٨) تقديرات صادرات البلدان العربية من النفط الخام ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .
(٩) استهلاك المصادر الاولية للطاقة في العالم الغربي ١٩٧٠ .
(١٠) خلاصة للمصالح النفطية الغربية في البلاد العربية .

جدول (١)

تقديرات الاحتياطي العالمي الثابت والمعلن للنفط الخام بنهاية ١٩٧٠

البلد او المنطقة	الف مليون برميل	نسبته الى العالم ٪
الولايات المتحدة الاميركية	٤٦٫٧	٧٫٥
كنـــدا	١٠٫٤	١٫٧
منطقـــة البحر الكاريبي	١٦٫٣	٢٫٦
بقية نصف الكرة الغربي	٩٫٩	١٫٦
جملة نصف الكرة الغربي	٨٣٫٣	١٣٫٤
اوروبا الغربية	٤٫٤	٠٫٧
افريقيـــا	٧٤٫٧	١٢٫١
الشرق الاوسط	٣٤٣٫٩	٥٥٫٤
الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية والصين	١٠٠٫٠	١٦٫١
بقية نصف الكرة الشرقي	١٤٫٤	٢٫٣
جملة نصف الكرة الشرقي	٥٣٧٫٤	٨٦٫٦
العالم (باستثناء الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية والصين)	٥٢٠٫٧	٨٣٫٩
العـــالم	٦٢٠٫٧	١٠٠٫٠

ملاحظة : تشمل التقديرات للولايات المتحدة وكندا النفط الذي يعتقد بامكـــان استخراجه من احتياطي الغاز الطبيعي .

المصدر : *BP Statistical Review of the World Oil Industry*, 1970 ص ٤

جدول (٢)

تقديرات الاحتياطي الثابت والمعلن للنفط الخام في البلدان العربية بنهاية ١٩٧٠

البلد او المنطقة	مليون برميل	نسبته الى العالم ٪
ابو ظبي	١١٬٨٠٠	١٬٩٣
البحرين	٦٣٤	٠٬١٠
دبي	٩٨٣	٠٬١٦
العراق	٣٢٬٠٠٠	٥٬٢٣
الكويت	٦٧٬٠٠٠	١٠٬٩٧
السعودية	١٢٨٬٥٠٠	٢١٬٠٢
المنطقة المحايدة (السعودية والكويت)	٢٥٬٧٠٠	٤٬٢٠
عمـــان	١٬٧٠٠	٠٬٢٨
قطـــر	٤٬٣٠٠	٠٬٧٠
ســـورية	١٬٢٠٠	٠٬٢٠
الجزائر	٣٠٬٠٠٠	٤٬٩١
مصر	٤٬٥٠٠	٠٬٧٤
ليبيـــا	٢٩٬٣٠٠	٤٬٧٨
المغـــرب	١	—
تونـــس	٥٥٠	٠٬٠٩
مجموع البلاد العربية	٣٣٨٬١٦٨	٥٥٬٣١
مجموع العالم (عدا مجموعة الدول الاشتراكية)	٥١١٬٠٧٢	٨٣٬٥٩
مجموعة الدول الاشتراكية	١٠٠٬٣٢٥	١٦٬٤١
مجموع العالم	٦١١٬٣٩٧	١٠٠٬٠٠

ملاحظات : (١) تختلف التقديرات باختلاف المصادر ، فمثلا توجد تقديرات في مجلة World Oil لنفس السنة مجموعها للبلدان العربية ٣٢١٬٤٠٩ ملايين برميل ونسبتها للمجموع العالمي ٥٨٬٨٢ بالمئة (على اساس ان المجموع العالمي بما في ذلك مجموعة الدول الاشتراكية هو ٥٤٦٬٣٦٤ مليون برميل) . والفرق كبير كما يبدو .

(٢) ان مصدر المعلومات في الجدول هو نفس المصدر الذي استند اليه التقرير الذي استقينا منه معلومات الجدول (١) فيما عدا للولايات المتحدة وكندا . اما الفرق بالنسبة للاحتياطي العالمي فهو بسبب الاختلاف في اساس الحساب للولايات المتحدة وكندا حيث شمل الجدول (١) تقديرات استخراج النفط من احتياطي الغاز الطبيعي في البلدين ولهذا فان الاحتياطي العالمي في الجدول (١) يزيد عنه في الجدول (٢) بنحو ٩٬٣ مليون برميل .

(٣) الفروقات الكبرى بين تقديرات مجلة World Oil والمصدر المعتمد لهذا الجدول هي في : الجزائر ، السعودية ، الكويت ، ابو ظبي ، المنطقة المحايدة ، عمان ، ومصر .

المصدر : مجلة *Oil & Gas Journal* عدد ٢٨ ديسمبر ١٩٧٠ .

جدول (٣)

تطور انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٦٠ — ١٩٧١

(الانتاج السنوي مليون برميل)

البلد	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١
ابو ظبي	—	—	٦٠	١٨٠٢	٦٨٠٤	١٠٢٠٩	١٣١٠٣	١٣٩٠٢	١٨٢٠٦	٢١٩٠٤	٢٥٣٠٢	٣٤٠٠٩
البحرين	١٦٠٥	١٦٠٤	١٦٠٤	١٦٠٥	١٨٠٠	٢٠٠٨	٢٢٠٥	٢٥٠٤	٢٧٠٥	٢٧٠٨	٢٨٠٠	٢٧٠٤
دبي	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٣٠٨	٣٠٠٧	٤٥٠٦
العراق	٣٥٤٠٦	٣٦٥٠٤	٣٦٦٠٦	٤٢٢٠٣	٤٥٦٠٨	٤٨٠٠٠	٥٠٦٠٦	٤٤٧٠٩	٥٥٠٠١	٥٥٢٠٠	٥٦٠٠٥	٦٢٢٠٣
الكويت	٥٩٤٠٣	٦٠٠٠٢	٦٦٩٠٣	٧٠٥٠٥	٧٧٤٠٨	٧٩١٠٩	٨٣٠٠٥	٨٣٦٠٧	٨٨٦٠١	٩٤٠٠٠	٩٩٨٠١	١٠٠٦٧٠٦
المنطقة المحايدة	٤٩٠٨	٦٤٠٤	٨٩٠٢	١١٤٠٢	١٣٢٠٢	١٣١٠٧	١٥٣٠٤	١٥١٠٥	١٥٦٠٦	١٥٦٠١	١٨٣٠٤	١٩٨٠٩
عمان	—	—	—	—	—	—	—	٢٣٠٠	٨٧٠٨	١٢١٠٤	١٢١٠٣	١٠٤٠٨
قطر	٢٣٠٩	٦٤٠٧	٦٨٠٠	٦٩٠٩	٧٧٠٦	٨٤٠٣	١٠٥٠٨	١١٨٠٢	١٢٤٠٤	١٢٩٠٧	١٣٢٠٤	١٥٦٠٩
السعودية	٤٥٦٠٤	٥٠٨٠٣	٥٥٥٠١	٥٩٤٠٦	٦٢٨٠١	٧٢٩٠١	٨٧٣٠٣	٩٤٨٠١	١٠٠٣٥٠٨	١٠١٧٣٠٩	١٠٣٨٦٠٧	١٠٦٤١٠٨
الجزائر	٦٣٠٢	٢٢١٠٧	١٥٩٠٣	١٨٣٠٧	٢٠٣٠٢	٢٠١٠٣	٢٥٧٠١	٣٠٢٠٨	٣٢٤٠٥	٣٥٠٠١	٣٧٣٠١	٢٨٤٠٧(١)
مصر	٢٢٠٦	٢٦٠٣	٣٢٠٣	٣٨٠٨	٤٤٠٠	٤٤٠٨	٤٣٠٣	٣٩٠٦	٥٢٠٣	٨٨٠٥	١١٩٠٢	١١١١٠٧(١)
ليبيا	—	٦٠٦	٦٧٠٢	١٦٩٠٢	٣١٥٠٦	٤٤٥٠٣	٥٤٩٠٩	٦٣٦٠٥	٩٥١٠٦	١٠١٣٤٠٨	١٠٢٦٢٠	١٠٠٠٦٠٧
المغرب	٠٠٧	٠٠٦	١٠٠	١٠١	١٠٠	٠٠٨	٠٠٨	٠٠٧	٠٠٨	٠٠٤	٠٠٣	—
تونس	—	—	—	—	—	—	٤٠٥	١٧٠٥	٢٣٠٥	٢٨٠١	٣٢٠٢	٣٢٠٥(١)
العالم العربي	١٠٦٢٦٠٠	١٠٧٧٤٠٤	٢٠٠٣٠٠٤	٢٠٣٣٤٠٠	٢٠٧١٩٠٧	٣٠٠٤٢٠٩	٣٠٤٧٩٠٠	٣٠٦٨٧٠١	٤٠٤٠٣٠٦	٤٠٩٣٦٠٠	٥٠٤٣١٠١	٥٠٦٤١٠٨
العالم	٧٠٦٥٠٦٠٨	٨٠١٤٦٠٢	٨٠٨٥٢٠١	٩٠٤٧٦٠٨	١٠٠٢٨٢٠١	١١٠٠١٠٠٦	١١٠٩٧٣٠٢	١٢٠٨٧٦٠٣	١٤٠٠٢٠٠١	١٥٠٣١٦٠٦	١٦٠٦٧٧٠٨	٠٠٠
نسبة العالم العربي للعالم ٪	٢١٠٢	٢١٠٨	٢٢٠٩	٢٤٠٦	٢٦٠٥	٢٧٠٦	٢٩٠١	٢٨٠٦	٣١٠٥	٣٢٠٢	٣٢٠٦	٠٠٠

ملاحظة : (١) تقديرات مجلة Middle East Economic Survey

المصدر : مجلة World Oil عدد ١٥ آب (اغسطس) ١٩٧١ و Middle East Economic Survey

جدول (٤)

صادرات الدول العربية من النفط الخام(١) ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠

(١٠٠٠ برميل / يوم)

البلد	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	النسبة لصادرات العالم من النفط ٪ ١٩٧٠
السعودية	١٤٨٥٨٥	٢٤٢٧٦٤٦	٢٤٤٢٩٤٦	٢٤٦٤٣٥٤	٢٤٧٩٤٤٧	٣٤٢٢٠٤٦	١٥٤٥
الكويت(٢)	٢٤٠٣٥٤٣	٢٤١٨١٤٨	٢٤٢٠٢٤٢	٢٤٣٠٧٤٠	٢٤٤٤١٤٧	٢٤٤٩٩٤٤	١٢٤٠
العراق	١٤٢٥٢٤٩	١٤٣١٩٤٥	١٤١٦٩٤٥	١٤٤٢٩٤٢	١٤٤٥٤٤	١٤٤٧١٤٢	٧٤١
ابو ظبي	٢٨٠٤٢	٣٦١٤٤	٣٨١٤٠	٤٩٥٤٤	٥٩٦٤٥	٦٩٤٤٨	٣٤٣
قطر	٢٦٢٤٧	٢٩١٤٠	٣١٩٤٧	٣٣٩٤٠	٣٥٣٤٠	٣٦٢٤٨	١٤٧
عمان	—	—	٦٧٤٤	٢٨٣٤٣	٣٢٨٤٠	٣٢٨٤٠(٣)	١٤٦
ليبيا	١٤٢١٢٤٧	١٤٤٩٩٤٦	١٤٧١٧٤٣	٢٤٥٨٢٤٤	٣٤٠٦٩٤٥	٣٤٣١٢٤١	١٥٤٩
الجزائر	٥٤٦٤٣	٦٧٤٤٧	٨٦٨٤١	٨٦٧٤١	٨٨٣٤٠	٩٤٨٤٠(٣)	٤٤٦
مصر	٣٠٤٤	٢٩٤١	—	١٤٤٣	١٩٤٤٣	٢٦٢٤٠(٣)	١٤٣
تونس	—	١٣٤٠	٢٣٤٨	٤٥٤٠	٦٠٤٥	٧٠٤٠	٠٤٣
العالم العربي	٧٤٤٤٣٤٠	٨٤٦٤٦٤٧	٩٤٠٧٨٤٦	١١٤٠٠٦٤١	١٢٤١٦٦٤٦	١٣٤١٦٨٤٩	
العالم	١٢٤١٣٩٤٠	١٣٤٨١٦٤١	١٥٤٣٩٧٤٨	١٧٤٦٥٨٤٨	٢٠٤٦٣٩٤٩	٢٠٤٧٩٥٤٠	
نسبة العالم العربي للعالم ٪	٦١٤٣	٦٢٤٦	٥٩٤٠	٦٢٤٣	٥٨٤٩	٦٣٤٣	٦٣٤٣

ملاحظات : (١) بما فيه اعادة التصدير Reexports

(٢) باستثناء صادرات شركة Aminoil

(٣) تقديرات حسب نسبة الصادرات للانتاج في السنة السابقة .

(٤) لم تظهر دبي بين المصدرين المسجلين في مصدر المعلومات اعلاه فاذا اضيفت كانت صادرات ١٩٧٠ نحو ١٣٤٣٠٠٤٠٠٠ برميل يوميا .

المصدر : مجلة World Oil ، اعداد مختلفة .

جدول (٥)

عائدات النفط للبلدان العربية ١٩٦٠ — ١٩٧١

وتقديرات ١٩٧٢ — ١٩٧٥

(مليون دولار)

السنة	ابوظبي	قطر	السعودية	الكويت(٥)	العراق	ليبيا	الجزائر	عمان	دبي
١٩٦٠		٤٩٫١	٣٣٣٫٧	٤٤٤٫٨	٢٣٩٫٦				
١٩٦١		٤٨٫٩	٣٣٧٫٦	٤٦٧٫٩	٢٣٨٫٩				
١٩٦٢	١٫٨	٥٠٫٩	٤٠٩٫٧	٤٨٤٫٤	٢٣٩٫٧	٣٩٫٨			
١٩٦٣	٥٫٨	٥٤٫٤	٦٠٧٫٧(١)	٥٣٣٫٧	٢٧٧٫٢	١٠٧٫٨			
١٩٦٤	١١٫١	٥٧٫٥	٥٢٣٫٢	٥٧٧٫٤	٢١٧٫٨	٢١٠٫٦			
١٩٦٥	٣٠٫٠	٦٢٫٢	٦٦٢٫٦(٢)	٦٠٥٫١	٢٣١٫١	٣٥١٫١			
١٩٦٦	٨٩٫٧	٨١٫٦	٦٨٩٫٧(٣)	٦٤٨٫٨	٢٥٤٫٨	٥٢٢٫٨			
١٩٦٧	٩٩٫٨	٩٦٫٠	٩٠٩٫١(٤)	٧٣٦٫٧	٢٣١٫٩	٦٢٥٫٢	١٩٩٫١		
١٩٦٨	١٦١٫٠	١١٧٫٤	٩٢٦٫٨	٦٩٠٫٢	٥١٢٫٣(٦)	١٤٠٠١٫٨	٢٦١٫٨		
١٩٦٩	٢٠٠٫٣	١٢٣٫٥	٩٤٩٫٠	٧٨٢٫٠	٥٠٣٫٠	١٤١٧٥٫٢	٢٩٨٫٨		
١٩٧٠	٢٤٠٫٧	١٢٨٫٥	١٤٢١٠٫٠	٨٣٣٫٦	٥٣٨٫٣	١٤٣٥١٫٣	٣٢٥٫٠		
١٩٧١	٤٢٠٫٠	١٩٠٫٠	١٤٩٠٠٫٠	١٤٣٩٠٫٠	٨٣٠٫٠	١٤٧٥٠٫٠	٣٢٠٫٠	١٣٠٫٠	٥٠٫٠
١٩٧٢(٧)	٥٤٣٫٢	٢٢٥٫٧	٢٤٣١٦٫٩	١٤٥٧٧٫٦	٩٢٧٫٥	٢٤٣٢١٫٢	٣٤٧٫٣	١٥٥٫٤	٦٠٫١
١٩٧٣	٦٨٠٫٩	٢٥٩٫٢	٢٤٧١٨٫٥	١٤٧٢٣٫٧	١٤٠٠٠٫٠	٢٤٩٦٦٫٧	٤٥٦٫٠	١٨١٫٠	٦٩٫٣
١٩٧٤	٨٤٩٫٩	٢٩٧٫١	٣٤١٨٣٫١	١٤٨٩٢٫٤	١٤٠٨٣٫٣	٣٤٧٨٣٫٩	٥٣٦٫٣	٢٠٨٫٩	٨٠٫٥
١٩٧٥	٩٤٠٦٧٫٤	٣٤٢٫٣	٣٤٧٢٠٫٠	٢٤٠٧٣٫٤	١٤١٧١٫٢	٤٤٨١٧٫٠	٦٢٩٫٤	٢٤٢٫٣	٩٣٫٢

ملاحظات : (١) بما فيه دفعات خاصة من ارامكو بمبلغ ١٥٢ مليون دولار .

(٢) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٤٦ مليون دولار .

(٣) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٢٩٫٤ مليون دولار .

(٤) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٢٣٫٤٦ مليون دولار .

(٥) ابتداء من ١٩٦٠ تنتهي السنة في ٣١ آذار .

(٦) بما فيه مقبوضات اضافية تساوي ٥ سنت عن كل برميل للفترة حزيران — كانون اول ١٩٦٧.

(٧) احتسبت تقديرات عائدات ١٩٧٢ — ١٩٧٥ على النحو التالي :

أ — قدر معدل الزيادة السنوية في الانتاج لكل بلد على اساس معدل الزيادة السنوي الوسطي من ١٩٦٥ الى ١٩٧٠ كما ورد في ***BP Statistical Review of the World Oil Industry, 1970*** ص ٨ — عدا عمان ودبي اللتين بدأ انتاجهما متأخرا حيث احتسبت الزيادة بمعدل وسطي هو ١٠٤٧ ٪ وهو معدل المنطقة ككل اذا اخذنا الانتاج الفعلي في الفترة المبينة أي ١٩٦٥ — ١٩٧٠ .

ب — ضربت تقديرات الانتاج للسنوات ١٩٧٢ — ١٩٧٥ (الناجمة عن طريقة الحساب اعلاه) بالعائدات الوسطية للبرميل الواحد محسوبة كما يلي :

١٩٧٢ — عائدات البرميل لسنة ١٩٧١ مضافا اليها ٨٫٥ ٪ .

١٩٧٣ — ١٩٧٥ — عائدات البرميل في ١٩٧٢ مضافا اليها ٤٫٥ ٪ سنويا لكل سنة .

المصدر : OPEC Annual Statistical Bulletin ومصادر خاصة .

جدول (٦)

تطور العرض والطلب على النفط الخام في العالم ، وفي الشرق الاوسط وشمال افريقيا ١٩٦٠ — ١٩٧٠ وتقديرات ١٩٧٥ و١٩٨٠

(الف برميل في اليوم)

	العـــــالم		الشرق الاوسط وافريقيا	الشرق الاوسط وشمال افريقيا	
السنة	الطلب	العرض	الطلب المحلي في المنطقة	العرض	نسبته الى العرض العالمي ٪
١٩٦٠	٢١،٩٩٣	٢٢،٠٨٢	١،١٠٩	٥،٤٦٩	٢٤،٨
١٩٦١	٢٣،٢٩٤	٢٣،٥٥٨	١،١٧١	٦،٠٢٠	٢٥،٦
١٩٦٢	٢٥،٣٢١	٢٥،٥٠٢	١،٢٢٠	٦،٨٥١	٢٦،٩
١٩٦٣	٢٧،١٨٠	٢٧،٤٠٩	١،٢٨٨	٧،٨٧٦	٢٨،٧
١٩٦٤	٢٩،٣٣٢	٢٩،٦٤٢	١،٣٧٧	٩،١٥٥	٣٠،٩
١٩٦٥	٣١،٦٩٧	٣١،٧٩٢	١،٤٨٣	٨،٧٩٩	٢٧،٧
١٩٦٦	٣٤،١٠٨	٣٤،٥٠٢	١،٥٥٩	١١،٧٠٣	٣٣،٩
١٩٦٧	٣٦،٥٢١	٣٧،٠٣٥	١،٥٧٨	١٢،٧٧٨	٣٤،٥
١٩٦٨	٣٩،٢٢١	٤٠،٤٦٣	١،٦٨٥	١٤،٩٨٩	٣٧،٠
١٩٦٩	٤٣،٢٣٥	٤٥،٢٨٧	١،٨٢٩	١٦،٤١٣	٣٦،٢
١٩٧٠	٤٦،٨٨٥	٤٧،٧٤٧	١،٩٨٢	١٨،٩٨٠	٣٩،٨
١٩٧٥	٦٣،٧٦٤	٦٤،٩٣٦	٣،١٧١	٣٠،٣٦٨	٤٥،٨
١٩٨٠	٨٢،٨٩٣	٨٤،٤١٦	٥،٠٧٣	٤٨،٥٨٩	٥٧،٦

ملاحظات : (١) بما فيه النفط الخام ، والغازولين الطبيعي ، الخ.

(٢) لعدم توفر بيانات مفصلة احتسب عرض شمالي افريقيا بحسم انتاج افريقيا الوسطى والجنوبية من العرض لمجمل افريقيا .

(٣) معدل الزيادة السنوي العالمي للعرض والطلب بين ١٩٦٥ و١٩٧٠ هو ٨ ٪ في المتوسط.

(٤) تقديرات ١٩٧٥ للعالم احتسبت بمعدل زيادة سنوي قدره ٦ ٪ عن سنة ١٩٧٠ في المتوسط.

(٥) تقديرات ١٩٨٠ للعالم احتسبت بمعدل زيادة سنوي قدره ٥ ٪ عن سنة ١٩٧٥ في المتوسط.

(٦) التقديرات للشرق الاوسط وافريقيا احتسبت على اساس معدل زيادة سنوي للعرض والطلب قدره ١٠ ٪ عن سنة ١٩٧٠ في المتوسط .

المصدر : World Oil اعداد مختلفة.

جدول (٧)

تقديرات انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٧٢ ــ ١٩٧٥

(بالالف برميل في السنة)

البلد	معدل الزيادة السنوي ٪ ١٩٦٥ــ٧٠	الانتاج الفعلي ١٩٧١	تقديرات ١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥
ابو ظبي	١٩٫٨	٣٤٠٬٩١٠	٤٠٨٬٤١٠	٤٨٩٬٢٧٥	٥٨٦٬١٥٢	٧٠٢٬٢١٠
البحرين	٥٫٨	٢٧٬٣٧٥	٢٨٬٩٦٣	٣٠٬٦٤٢	٣٢٬٤٢٠	٣٤٬٣٠٠
العراق	٣٫٥	٦٢٢٬٣٢٥	٦٤٤٬١٠٦	٦٦٦٬٦٥٠	٦٨٩٬٩٨٣	٧١٤٬١٣٢
الكويت	٤٫٨	١٬٠٦٧٬٦٢٥	١٬١١٨٬٨٧١	١٬١٧٢٬٥٧٧	١٬٢٢٨٬٨٦٠	١٬٢٨٧٬٨٤٥
المنطقة المحايدة	٦٫٣	١٩٨٬٩٢٥	٢١١٬٤٥٧	٢٢٤٬٧٧٩	٢٣٨٬٩٤٠	٢٥٣٬٩٩٣
قطر	٩٫٨	١٥٦٬٩٥٠	١٧٢٬٣٣١	١٨٩٬٢٢٠	٢٠٧٬٧٦٣	٢٢٨٬١٢٤
السعودية	١٢٫٠	١٬٦٤١٬٧٧٠	١٬٨٣٨٬٧٨٢	٢٬٠٥٩٬٤٣٦	٢٬٣٠٦٬٥٦٩	٢٬٥٨٣٬٣٥٧
الجزائر	١٢٫٣	٢٨٤٬٧٠٠	٣١٩٬٧١٨	٣٥٩٬٠٤٣	٤٠٣٬٢٠٥	٤٥٢٬٨٠٠
ليبيا	٢٢٫٠	١٬٠٠٦٬٦٧٠	١٬٢٢٨٬١٣٧	١٬٤٩٨٬٣٢٨	١٬٨٢٧٬٩٦٠	٢٬٢٣٠٬١١٠
دبي	—	٤٥٬٦٢٥	٥٠٬٥٠٧	٥٥٬٩١١	٦١٬٨٩٣	٦٨٬٥١٦
عمان	—	١٠٤٬٧٥٥	١١٥٬٩٦٤	١٢٨٬٣٧٢	١٤٢٬١٠٨	١٥٧٬٣١٣

ملاحظات : (١) حسبت الزيادة المقدرة في الانتاج للسنوات ١٩٧٢ــ١٩٧٥ على اساس معدل الزيادة السنوي الوسطي الفعلي للسنوات ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ (عدا عمان ودبي اللتين باشرتا الانتاج متأخرتين) . وقد ظهر بنتيجة استخدام هذا الاسلوب ان المعدل الوسطي للسنوات ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ لجميع البلدان (عدا عمان ودبي) كان ١٠٫٧ ٪ . وقد اعتمد هذا المعدل لتقديرات التزايد في الانتاج في عمان ودبي .

(٢) لم يحسب معدل الزيادة السنوي المئوي لعمان لانه يشوه الصورة بسبب قفزة الانتاج المفاجئة بعد المباشرة به .

(٣) نسب الزيادة للفترة ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ مأخوذة من

BP Statistical Review of the World Oil Industry 1970 ص ٨ .

جدول (٨)

تقديرات صادرات العالم العربي من البترول ١٩٧٥ ، ١٩٨٠

(١٠٠٠ برميل في اليوم)

المنطقة	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠
العالم العربي	١٢٬٣٠٠٬٠	١٩٬٩٥٠٬٠	٢٩٬٩٢٥٬٠
العالم	٢٠٬٧٩٥٬٠	٢٩٬١١٣٬٠	٤٠٬٧٥٨٬٢
نسبة العالم العربي للعالم ٪	٦٣٬٩	٦٨٬٥	٧٣٬٤

ملاحظات : (١) العالم العربي : السعودية ، الكويت ، العراق ، ابو ظبي ، قطر ، عمان ، دبي ، ليبيا ، الجزائر ، مصر ، تونس .

(٢) ١٩٧٠ : الصادرات الفعلية .

(٣) معدل الزيادة السنوي التقديري للعالم العربي ١٠ ٪ (فائدة بسيطة) .

(٤) معدل الزيادة السنوي التقديري للعالم ٨ ٪ (فائدة بسيطة) .

جدول (٩)

استهلاك المصادر الاولية للطاقة في العالم الغربي ١٩٧٠

(الكميات بما يعادل ملايين الاطنان المترية من النفط)

المنطقة والبلد	النفـــــط		الغاز الطبيعي		الوقود الصلبة		الطاقة المائيـــة		الطاقة الذرية		المجمـــــــوع		
	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	نسبته من مجموع الاستهلاك٪
الولايات المتحدة	٦٩٦٫٦	٤٤٫٦	٥١٣٫٠	٣٢٫٨	٣٢٩٫٨	٢١٫١	٢٢٫٠	١٫٤	٢٫٠	٠٫١	١٥٦٣٫٤	١٠٠٫٠	٥٥
اوروبا الغربية	٦٢٧٫٨	٦١٫١	٦٣٫٢	٦٫١	٣٠١٫٤	٢٩٫٤	٣٫٠٤	٣٫٠	٣٫٧	٠٫٤	١٠٢٦٫٥	١٠٠٫٠	٣٦
منهـــا													
انكلترا	١٠٢٫٥	٤٩٫٥	١٠٫٩	٥٫٣	٩١٫٤	٤٤٫١	٠٫٣	٠٫١	٣٫١	١٫٠	٢٠٧٫٢	١٠٠٫٠	٧
فرنســـا	٩٤٫٦	٦٥٫٠	٩٫٠	٦٫٢	٣٧٫٢	٢٥٫٥	٣٫٠	٤٫٤	٠٫٤	٠٫٣	١٤٥٫٦	١٠٠٫٠	٥
المانيا الغربية	١٣٠٫٧	٥٦٫٠	١١٫٨	٥٫١	٨٩٫٠	٣٨٫٢	١٫٢	٠٫٥	٠٫٥	٠٫٢	٢٣٣٫٢	١٠٠٫٠	٨
ايطاليـــا	٨٦٫٦	٧٧٫٣	٩٫٩	٨٫٨	١١٫١	٩٫٩	٤٫٠	٣٫٦	٠٫٤	٠٫٤	١١٢٫٠	١٠٠٫٠	٤
اليابـــان	٢٠٠٫٢	٧٤٫١	٢٫٧	١٫٠	٥٩٫٩	٢٢٫٢	٧٫١	٢٫٦	٠٫٢	٠٫١	٢٧٠٫١	١٠٠٫٠	٩
مجموع اوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان	١٤٥٢٫٦	٥٣٫٣	٥٧٨٫٩	٢٠٫٢	٦٩١٫١	٢٤٫٢	٥٩٫٥	٢٫١	٥٫٩	٠٫٢	٢٨٦٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠

ملاحظة : ان استهلاك الطاقة في هذا الجدول محسوب على اساس ما يعادل كلا منها بالاطنان المترية من « النفط » .

المصدر : BP Statistical Review of the World Oil Industry 1970 ، ص ١٦ .

جدول (١٠)

خلاصة للمصالح النفطية الغربية في البلاد العربية

(بالنسبة المئوية)

	الكويت	السعودية	العراق	ابوظبي	المنطقة المحايدة	قطر	عمان	دبي	البحرين	ليبيا	الجزائر	مجموع البلاد العربية
الولايات المتحدة	٥٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	٢٣٫٧٥	١٤٫٧٠	٣٣٫٨٠	١٢٫٢٣	—	—	١٠٠٫٠٠	٨٥٫٩٠	—	٦١٫٨٠
بريطانيا	٥٠٫٠٠	—	٢٣٫٧٥	٤٠٫٣٠	—	١٢٫٣٣	—	—	—	١٠٫٨٠	—	١٧٫٥٠
فرنسا	—	—	٢٣٫٧٥	٢٣٫٧٥	—	١٢٫٣٣	—	—	—	٠٫٣٠	٢٠٫٠٠	٥٫٩٠
هولندا	—	—	٢٣٫٧٥	١٤٫٦٠	—	٦٠٫٦٤	—	—	—	—	—	٦٫٧٠
اليابان	—	—	—	—	٦٦٫٢٠	—	٨٥٫٠٠	—	—	—	—	٢٫٣٠
المانيا الغربية	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٢٫٧٠	—	٠٫٦٠
اسبانيا	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٠٫٣٠	—	—
غلبنكيان	—	—	—	—	—	—	١٥٫٠٠	٢٫٦١	—	—	—	١٫٦١٠
المشاركة الوطنية	—	—	—	٣١٫٠٠	—	—	—	—	—	٠٫١٠	—	٤٫٠٠
المجموع	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠

ملاحظات : فيما عدا ليبيا احتسبت النسب اعلاه على اساس المشاركة النسبية للبلاد الاجنبية في الشركات المنتجة كما ورد في المصدر (١) ، موزونة بانتاج هذه الشركات لعام ١٩٧١ كما وردت في المصدر (٢) و(٤) .

بالنسبة لليبيا : نفس الطريقة اعلاه ولكن باستعمال اوزان مختلفة هي انتاج الشركات في العام ١٩٧٠ كما وردت في المصدر (٣) .

هناك مشاركة لا تذكر لبعض الشركات الاميركية في حصة فرنسا من البترول الجزائري .

المصادر :

(١) *Middle East-Africa Oil*, Statistical Summary, Aug. 1970

(٢) *Middle East Economic Survey (MEES)*, March 3, 1972

(٣) ... October 15, 1971

(٤) ... Publishing Centre

القوى السياسية الفرنسية والمسالة الفلسطينية

داود تلحمي

سنقوم في هذا المقال ، باستعراض مواقف القوى المؤثرة في المجتمع الفرنسي تجاه « مشكلة الشرق الاوسط » . وتسهيلا لهذه المهمة ، سنعمد الى ترتيب هذه القوى على الاسس الرسمية التي تتبعها اجهزة الاعلام دون نقاش تناسب هذا الترتيب مع مواقع هذه القوى . سنلجأ اذا الى استعمال التقسيمات التالية :

١ ــ قوى اليمين واقصى اليمين : ويقصد بها عادة القوى الشوفينية المتخلفة والمتطلعة الى الماضي ، او القريبة من المفاهيم السياسية الفاشية . وهذه القوى تقليديا ضعيفة في فرنسا وتاثيرها الذاتي على المجتمع الفرنسي محدود جدا . وللتبسيط ولاعطاء فكرة اولية عن واقعها ، سنعطيها نسبة ٥ بالمئة من القوة التمثيلية (لاسباب سنوضحها فيما بعد) .

٢ ــ الوسط : يستعمل هذا اللفظ ليشمل قطاعا غير واضح الحدود يمثل بقايا الديمقراطية المسيحية والتيارات الرأسمالية الليبرالية التقليدية . وللاسباب نفسها اعلاه ، سنعطيها نسبة ٢٠ بالمئة .

٣ ــ الديغوليون : او الاغلبية الحاكمة منذ ١٩٥٨ وتشكل تجمعا غير متجانس يضم مجموعات من آفاق مختلفة بعض الشيء ، التفت حول ديغول لما يمثله من تجديد للمفاهيم القومية الفرنسية ، وبشكل سطحي نستطيع القول أن هذا التيار يمثل الرأسمالية « الوطنية » او المحلية الطامحة الى استقلال نسبي عن الرأسمالية العالمية (وبالذات الامريكية) . وسنعطي هذا التيار نسبة تمثيلية ٤٠ بالمئة .

٤ ــ اليسار المعتدل : ويشمل ما يسمى بالاشتراكيين الديموقراطيين ، دعاة الاشتراكية « الحرة » اي الاصلاحية ، وبشكل رئيسي بقايا الاممية الثانية . وسنعطي هذا اليسار نسبة تقريبية ١٠ بالمئة .

٥ ــ اقصى اليسار : ويضم جميع التنظيمات والقوى التي تتبنى الماركسية (والنظريات الجذرية القريبة منها) في اجتهاداتها ومدارسها المختلفة ، ويشكل الحزب الشيوعي القوة الرئيسية بينها . ويتبقى لها نسبة تمثيلية تقريبية ٢٥ بالمئة . ونكرر ان هذه النسب ليست الا لاعطاء فكرة اجمالية مبسطة ولا تشكل في اي حال ميزانا علميا للتاثير الحقيقي لكل هذه القوى . كما نؤكد على ان استعمال الفاظ اليمين واليسار هنا هو اتباع لتسميات متعارف عليها ولا تغطي بالضرورة محتوى سياسيا واضحا (فمفهوم اليمين قد يمتد ليشمل اجزاء كبيرة من المجموعات الاخرى) .

اقصى اليمين

كما ذكرنا اعلاه ، لا يشكل هذا التيار بقوته الذاتية عنصرا ذا تاثير واسع في الحياة السياسية الفرنسية ، على الرغم من أن بعض المفاهيم التي تشكل ايديولوجيته العامة منتشرة في أوساط عدة وعلى نطاق واسع . فالعنصرية (تجاه العرب بشكل خاص

والتعصب القومي المتطرف (الشوفينية) والعداء للاجنبي لها امتدادات في العائلات السياسية المختلفة . الا أن تجسيد هذه المواقف في تنظيمات سياسية كان يجد دائما في فرنسا صدى اقل منه في الدول الاوروبية المجاورة (المانيا وايطاليا مثلا حيث تعود النازية مجسدة في الحزب القومي الديموقراطي والفاشية في الحركة الاجتماعية الايطالية) .

واليوم وبعد فشل انصار استمرار الاستعمار في الجزائر في بناء قاعدة واسعة خارج مجموعات المستوطنين العائدين الى فرنسا ، لا يشكل اي تنظيم من تنظيمات هذا التيار حركة استقطاب هامة . وهكذا تلد التنظيمات وتموت أو تتكاثر دون ان تخرج التيار من قوقعته المتضائلة . واذا اتخذنا النسب الانتخابية دليلا ولو تقريبيا للاحظنا هذا التدهور . (لا بد من الاشارة الى ان كافة النسب التي نشير اليها هي نسب المعبرين عن مواقفهم السياسية ، وتستثني اذا الممتنعين عن التصويت الذين يشكلون عادة ٢٠ بالمئة من مجموع الناخبين وغالبيتهم من عديمي الاهتمام بالقضايا السياسية ، وقلة منهم من المقاطعين المبدئيين) .

ففي انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ فاز ممثل اليمين المتطرف تكسييه فينيانكور بنسبة تقارب ٥ بالمئة من الاصوات . وفي الانتخابات النيابية الاخيرة عام ١٩٦٨ حصل اليمين الرسمي على أقل من ٤٠٣ بالمئة . وفي مدينة باريس ، في الانتخابات البلدية عام ١٩٧١ فازت حركة (النظام الجديد) الاكثر تمثيلا لليمين المتطرف حاليا بنسبة تقارب ٢٠٦ بالمئة . والتيار بذاته ليس ممثلا الآن في اي من الاجهزة التمثيلية (البرلمان ، مجلس الشيوخ) ، ولن تقوم اذا بالاهتمام بهذا التيار بشكل مفصل ، متغاضين عن تعداد تنظيماته وانما سنعمل على استخلاص مواقفه بشكل عام تجاه المسألة الفلسطينية . وفي هذا الصدد ، يخرج البحاثة جان وليام لابيير في دراسته عن « الاعلام عن دولة اسرائيل في كبريات الصحف الفرنسية خلال عام ١٩٥٨ » باستنتاج يبدو صالحا حتى اليوم ، وهو ان اليمين بمجمله وبشكل واضح مؤيد لاسرائيل . ولا تشكل التيارات العنصرية التي يغلب عداؤها لليهود على كراهيتها للعرب الا الشواذ عن القاعدة .

ومنطلقات هذا التيار في تأييد اسرائيل واجهار عدائها للعرب واضحة وفي صلب منطقه. فالعنصرية والتعصب العرقي اللذان يميزان هذا التيار يمارسان بشكل خاص تجاه العرب لاسباب تاريخية واهمها هزيمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر ووجود مئات الآلاف من العمال المغاربة في فرنسا نفسها (كما وضحنا ذلك في مقال سابق) . ولا تقف العنصرية ضد اليهود (اللاسامية) عائقا دون ترسيخ هذا العداء ، اذ ان منطق الصهيونية الذي يدعو الى تجميع اليهود في بلد واحد يتفق مع المنطق اللاسامي الداعي الى اخراجهم من دول نشئتهم . هذا الى جانب اعتبار الكثيرين من اليمينيين لاسرائيل كقاعدة غربية متقدمة تدافع عن وجود الغرب وحضارته امام الشرق المتمرد . وهكذا يفسر موقف لا سامي شهير وهو كزافييه فالا المفوض السابق للشؤون اليهودية اثناء الاحتلال النازي ، اذ صدر جريدته ابان حرب ١٩٦٧ بعنوان : « لماذا اصبحت صهيونيا ؟ » .

ولم تفت أية مناسبة منذ « حرب الايام الستة » ، الا وعبر فيها رؤوس اليمين الفرنسي عن موقفهم هذا . فتكسييه فينيانكور ، زعيم « التحالف الجمهوري للحريات والتقدم »، وممثل اليمين المتطرف في انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ اعلن اكثر من مرة عن تأييد حزبه المطلق لاسرائيل وعدائه للعرب ولسياسة الحكم الفرنسي بالنسبة لحظر شحن الاسلحة (وقائع مؤتمر الحزب في نوفمبر ١٩٦٩) . وجاك سوستيل ، المندوب السابق في الجزائر واحد الد اعداء استقلالها ، والذي شكل تجمعا يضم غالبية من المستوطنين سابقا في شمال افريقيا ، كرس نفسه على ما يبدو في السنوات الاخيرة للدفاع عن اسرائيل في كتب ومقالات ومحاضرات عديدة : كما قام بزيارة اسرائيل واستقبله مناحيم

بيجن بحرارة رفاقية ، (مجلة « الارض المستعادة » الصهيونية تتكلم في معظم اعدادها عن خدمات سوستيل . مثال ذلك عدد ١٩٦٩/١٢/١٥) . ووقف جورج بيدو رئيس الوزراء السابق وأحد قادة ارهابيي الجيش السري اثناء حرب التحرير الجزائرية وزعيم حركة العدل والحرية مواقف مشابهة .

والامثلة عديدة والمواقف متطابقة . وباستثناء بعض المجموعات الضئيلة التي تغلب عنصريتها ضد اليهود على عدائهـــا للعرب (كمجموعتي بيير سيدوس و « الدفـــــاع عن الغرب ») ، وبعض المجموعات الاخرى التي يتساوى عداؤها للطرفين فامتنعت عن اتخاذ موقف الى جانب احدهما ، يقف مجمل اليمين المتطرف اذا الى جانب اسرائيل .

الوســـط

تستعمل بعض التنظيمات السياسية هذه التسمية المطاطة لتؤكد على اختلافها مع اليمين الشوفيني من جهة واليسار الاشتراكي من جهة أخرى . وبشكل عام ، تمثل التنظيمات الوسطية الحالية تيارا راسماليا ليبراليا غربي النزعة يتشابه الى حد بعيد في موقعه ومواقفه مع الديموقراطية المسيحية (في المانيا وايطاليا مثلا) . ومنذ بروز الظاهرة الديغولية التي جمعت جزءا كبيرا من « القوميين » والليبراليين ، أصبح هذا التيار قوة ضعيفة نسبيا وهامشي الدور في حوار سياسي كثيرا ما ظهر كمواجهة بين الديغوليين والحزب الشيوعي (القوة اليسارية الكبرى في فرنسا) . الا أن السياسة الديغولية المتميزة بالرغبة في الاستقلال نسبيا عن الدول الكبرى وبالذات عن امريكا ، القت على هذا التيار مهمة الدفاع عن الاحلاف الكلاسيكية (وبالذات عن الحلف الاطلسي) والاقتصاد الحـــر .

ومنذ ابتعاد ديغول عن الحكم انقسم الوسط الى جزئين : اولهما دخل في تحالف مع الحكم القائم ، وثانيهما حافظ على موقفه المعارض لنظام بومبيدو . والتيار الثاني يتمثل بشكل رئيسي في حزب « الوسط الديموقراطي » الذي يرأسه جان لوكانويه مرشح الوسط لانتخابات الرئاسة في عام ١٩٦٥ . اما الاول فنواته حزب « الوسط ديموقراطية وتقدم » الذي يقوده وزير الثقافة الحالي جاك دوهاميل . وهناك تنظيمات وسطيـــة اخرى ، ممثلة في مجلس الشيوخ (كاتحاد الوسط لديموقراطي التقدم ، والوســـط الجمهوري للعمل الريفي والاجتماعي) ، الا ان تأثيرها السياسي محدود او يعبر خلال التنظيمين المذكورين اعلاه .

ولتحديد قوة هذا التيار التي تتراوح نظرا لعدم وضوح حدوده ، سنعود لبعض النسب الانتخابية . ففي انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ ، فاز لوكانويه بنسبة تقارب الـــ ١٧ بالمئة من اصوات الناخبين ، وفي الانتخابات النيابية الاخيرة ، حاز تجمع الوسط تحت اسم « التقدم والديموقراطية الحديثة » على نسبة اكثر بقليل من ١٠ بالمئة بينما فاز الان بوهير في انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٩ بنسبة ٢٣،٦ بالمئة . فالنسبة اذا متغيرة حسب الظروف الا انها ، كما ذكرنا اعلاه ، تدور حول ٢٠ بالمئة .

بشكل عام ، يقف هذا التيار الى جانب اسرائيل باجماع يفسره الموقع الاقتصادي والايديولوجي لقادته .

فلوكانويه ، زعيم « الوسط الديموقراطي » مثلا لا يتخلف عن المشاركة في أية تظاهرة صهيونية مهمة ، وكذلك بوهير رئيس مجلس الشيوخ الحالي . اما دوهاميل وتنظيمه ، فمشاركتهم في الحكم الحالي تمنعهم من التعبير بهذا الشكل الصارخ عن عواطفهم ، الا انهم لا يخفون عواطفهم في مناسبات كثيرة .

لوكانويه ، استحق من وزير النقل الاسرائيلي شمعون بيريس لقب « الصديق المتفاني

لاسرائيل » (جريدة « اخبار اسرائيل » ١٩٦٩/١٠/٢٤) . وهذا اللقب حرص لوكانويه على استحقاقه في كل المناسبات . ففي تظاهرة ضخمة ضد صفقة الاسلحة الفرنسية لليبيا يوم ١٩٧٠/١/٢١ ، احتج بشدة على سياسة الحكومة الفرنسية واتهمها بتعريض وجود اسرائيل للخطر (لوموند ١٩٧٠/١/٢٣) ، وفي رسالة لوزير الدفاع ، وصف لوكانويه بصفته عضو مجلس الشيوخ ، حظر شحن الاسلحة لاسرائيل بانها « سياسة غير نظيفة وخادعة » وطالب برفعه واعادة العلاقات الطيبة السابقة مع اسرائيل (لوموند ١٩٦٩/١٢/٣١) ، وتبنى حزبه رسميا هذا الموقف في مؤتمره الذي انعقد في مطلع ١٩٧٠ .

اما بوهير ، خصم بومبيدو في آخر انتخابات للرئاسة ، فلا يقل حماسة في الدفاع عن اسرائيل . ففي ندوة نظمتها المجموعة الصهيونية اهافات ــ زيون صرح بـأن « مصير اسرائيل واوروبا مرتبطان » . وكان قد عرض في الانتخابات المذكورة على الجنرال كونيغ ، رئيس لجنة التضامن مع اسرائيل ، ان يرشح نفسه بدلا منه ، الا ان الاخير اعتذر . وفي ندوة اخرى ، القى بوهير محاضرة تحت عنوان « شكل آخر من العنصرية، العداء للصهيونية » قال فيها : « قبل قرار التقسيم ، كان العداء للصهيونية يتمثل في معارضة خلق الدولة اليهودية، وهو اليوم يتمثل في معارضة سياسة دولة اسرائيل... وفيكلتا الحالتين يتضمن هذا الموقف اسس اللاسامية التقليدية»(لوموند ١٩٧٠/٤/٢٩). ومثل حليفه لوكانويه ، لا يتخلف بوهير في التعبير عن تأييده المطلق لاسرائيل في كل مناسبة ومشاركته في المهرجانات المنظمة من قبل انصارها (جريدة «الارض المستعادة» الصهيونية مثلا ، بتاريخ ١٩٦٩/١٢/١٥) .

اما جاك دوهاميل ، قائد الوسط المتحالف مع الحكم الحالي ووزير الثقافة فقد قال عنه شمعون بيريس بعد مقابلة معه يـوم ١٩٦٩/٩/٣٠ (« اخبار اسرائيل» المصدر السابق) ان « من دواعي السرور ان يجد المرء ان الاصدقاء القدامى ما زالوا علـى صداقتهم لاسرائيل حتى بعد توصلهم للحكم » . وفي مقال آخر في احدى الجرائد الاقليميـة (لوجورا) حاول دوهاميل تبرير الصفقة الليبية على اساس انها « سياسة الشر الاقل على اسرائيل » لانها تمنع تسرب الاسلحة السوفياتية «بشكل اوسع وبدون اشراف» . واكد في المقال نفسه على ان السياسة الفرنسية تغيرت بمجيء بومبيدو الذي « عـاد عن الحظر الكلي الى حظر جزئي وتخلى عن شرط الانسحاب المسبق للقوات الاسرائيلية في مقترحات السلام الفرنسية » . فبرأي دوهاميل اذا ، ان الذي غير موقفه تجاه اسرائيل ليس هو وانما بومبيدو .

وهذه المواقف التي يكررها ممثلو التيار الوسطي في كل مناسبة هي جزء بالطبع مـن الرؤية السياسة الشاملة لهذا التيار (الذي يتخذ مواقف عدائية من حركات التحرر كافة وفيتنام بالذات) وتجعل منه حليفا طبيعيا ودائما لمعسكر العدو .

الديغوليـون

نظرا لعدم وضوح الخط السياسي الديغولي (على الرغم من وجود بعض المواقف المميزة له) فان هذه التسمية غير دقيقة وتشمل مجموعات ذات آفاق سياسية واجتماعية مختلفة . وان كان الالتفاف حول ديغول هو القاسم المشترك لها في اثناء حياته ، فهي اليوم لا تشكل كتلة متجانسة متراصة ، والتناقضات التي كانت مغلفة في الماضي بدأت منذ استلام بومبيدو للحكم بالظهور على السطح .

وقد شملنا تحت هذا العنوان عائلات ثلاث : الاولى : هي « التجمع الوطني للجمهوريين المستقلين » الذي يتزعمه وزير الاقتصاد الحالي فاليري جيسكار دستان . ونعتـه بالديغولية يعود الى تحالفه خلال فترة مع ديغول ، الا ان هذه الصفة اصبحت اليـوم

غير صحيحة لا سيما وان التنظيم ابتعد عن ديغول قبل فترة من استقالته ، وهو أقرب سياسيا الى الوسط الذي تحدثنا عنه . الثانية : هي مجموعات « اليسار الديغولي » وهي تنقسم اليوم الى كتلتين ، احداهما في الحكم والثانية في المعارضة (باعتبار أن بومبيدو برأيها تخلى عن سياسة ديغول) . والثالثة : وهي الاهم هي « اتحاد الديموقراطيين من أجل الجمهورية » وهو الحزب الرئيسي الحاكم الذي يتزعمه رئيس الجمهورية نفسه . وسنبدأ باستعراض مواقفه .

١ ــ اتحاد الديموقراطيين من اجل الجمهورية : اتخذ الحزب الديغولي الرئيسي هذه التسمية على أعقاب انتفاضة ايار ١٩٦٨ ، وكان حتى ذلك الحين يحمل اسم « اتحاد الجمهورية الجديدة » الذي شكل جهاز الحكم الديغولي بعد عودة ديغول للحكم في ايار ١٩٥٨ . وقوة الحزب لم تنفك في الازدياد منذ ذلك التاريخ ، حين كانت اضعف من الحزب الشيوعي ، فاصبحت بعد التقاء كل التيارات التي ارهبها احتمال التطور الثوري لحركة ١٩٦٨ ، تشكل قوة انتخابية تزيد على ضعف قوة الشيوعيين (٤٤ بالمئة من المقترعين تقريبا) . الا أن هذا اللقاء معرض للتفسخ (بعد انسحاب عدد من الديغوليين القدماء اثر استقالة زعيمهم) ، وبوادر التقلص بادية ، كما أظهر ذلك استفتاء نيسان ١٩٧٢ حول دخول بريطانيا للسوق المشتركة .

وبحكم تنوع الانتماءات السابقة والمواقع (رغم غلبة طابع الرأسمالية القومية) لا يقف الحزب من القضايا العالمية وقضية فلسطين بالذات موقفا موحدا حقيقة . فالموقف المعروف لديغول ، والذي بدأت بوادره بالظهور قبل حرب حزيران وتبلورت بشكل خاص في مؤتمره الصحفي الشهير في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، حين أعاد الى الاذهان تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين ومعارضة السكان المحليين له ووصف اسرائيل « بالعسكرية والتوسعية » واليهود على حد تعبيره بأنهم « شعب نخبة ، واثق من نفسه ومتسلط » ، هذا الموقف لا يعكس اطلاقا شعور الاغلبية الديغولية وعواطفها ، والتي اضطرت رغما عنها الى الالتزام به ، وأحيانا لم تلتزم .

وقد وضح ديغول فيما بعد موقفه في رسالة رد بها على بن غوريون بتاريخ ١٢/٦/ ١٩٦٧ ، قال فيها : « يبدو لي ان انسحاب القوات الاسرائيلية ، سيؤدي الى حل يضمن الاعتراف بدولتكم من قبل جيرانها ، كما يكفل حدودا آمنة من كلا الجانبين ــ تحددها وساطة عالمية ــ ، ويحقق مصيرا كريما وعادلا للاجئين والاقليات ، وحرية الملاحة للجميع في خليج العقبة وقناة السويس . ان فرنسا مستعدة لتحقيق حل كهذا ، في اطار الامم المتحدة ، بالمشاركة بشكل مباشر في تطبيقه ليس فقط على المستوى السياسي وانما ايضا على ساحة المعركة نفسها » . [لوموند ١٠/١/١٩٦٨] .

وبعد مجيء بومبيدو الى الحكم ، كرر مرارا التزامه بمواقف سلفه . الا ان بعض بوادر التساهل تجاه اسرائيل ظهرت ، وقد يفسرها جزئيا ــ الى جانب اختلاف الرؤى السياسية بين الشخصيتين ــ دخول عناصر جديدة في التحالف الحاكم متعاطفة جميعها كلية مع الجانب الاسرائيلي (وهذا بالطبع جزء من تطور شامل انعكس على مجمل السياسة الداخلية ــ والاقتصادية خاصة ــ والعالمية) . وأكد هذا التطور وزير الخارجية موريس شومان في لقاء له مع المكتب السياسي للمجموعة البرلمانية للحزب الحاكم حين قال : « اتبعنا بعد ذلك سياسة النوايا الحسنة ، فأعلنا عن الحظر الجزئي، وعملنا لصالح التعاون بين اسرائيل والمجموعة الاقتصادية الاوروبية في بروكسل ، كما اقترحنا تعويض اسرائيل عن المبالغ التي دفعتها مقابل شراء الميراج » [لوموند ١٤/١/ ٧٠] . ويروي شمعون بيريس في جريدة يديعوت احرونوت انه سمع كلاما من هذا النوع حول العلاقة بالسوق المشتركة والعودة الى الحظر الجزئي من وزيرين فرنسيين

اثناء رحلته في خريف ١٩٦٩ [نقلا عن « اخبار اسرائيل » ١٩٦٩/١٠/٢٤] .

الا ان هذا التحول الجزئي لم يغير الموقف الفرنسي في الشرق الاوسط بشكل جوهري . ذلك ان الاسباب الرئيسية التي دعت الى اتخاذ هذا الموقف ما زالت قائمة. (يلخصها بول بالتا في عدد ايار ١٩٧٠ من مجلة «الدفاع الوطني» شبه الرسمية ، بمقارنة الميزان التجاري الفرنسي مع اسرائيل ومع مجمل الدول العربية . ويظهر هـذا الميزان ان الصادرات الفرنسية للدول العربية عام ١٩٦٦ (٤٥٠٣ ملايين فرنك) اقل من نصف الواردات (٩٩٨٠ مليون فرنك) التي يشكل البترول عنصرها الرئيسي.في المصدر نفسه اعلاه ، نقل شمعون بيريس عن « احدى الشخصيات الفرنسية » قولها « بأن فرنسا يجب ان تأخذ بعين الاعتبار بترول الشرق الاوسط » . واشار رئيس الوزراء السابق شابان دلماس امام نواب الحزب الحاكم الى سياسته بالقول : « سياستنا في هذه المنطقة تسير في الخط الذي رسمه الجنرال ديغول . نحن لسنا موالين لاسرائيل ولا للعرب وانما لفرنسا . وسياستنا التي تستهدف السلام ، تقوم بشكل مطلق علـى اساس مصالح فرنسا » . [لوموند ١٩٧٠/١/٢٣] .

وهذا التعبير لاسس السياسة الخارجية ، في صلب المنطق الراسمالي ، ولا يمكن ، في اي حال ، مطالبة الحكم الفرنسي باستعمال منطق آخر لا يتناسب مع طبيعته . [مقال اريك رولو تحت عنوان « دور فرنسا في الشرق الادنى » فى لوموند ١٩٧٠/١١/١٢] . هذه المواقف المتتالية لاعمدة النظام الديغولي هي اذا مواقف الحزب رسميا . وفي كل مؤتمراته ، اتخذ الحزب قرارات تأييد لسياسة الحكومة في هذا المجال بالذات . الا ان ذلك لا يمنع ان « غالبية جهاز الحكم والتوجيه ، اي مجموعة القائمين على القطاعات الرئيسية في الحياة القومية وفي تكوين الراي العام ، هم في غالبية الاحيـان موالون لاسرائيل ، وذلك يفسر التردد والمعارضة التي تلقاها سياسة الحكومة عندما تاتي الى التنفيذ » . [من مقال احد كبار محرري لوموند فيانسون بونتيه عن « الفرنسيين تجاه اسرائيل » بتاريخ ١٩٧٠/١/١١] . وهذا يعيد الى الاذهان حادثة «خطف» البوارج الحربية من ميناء شربورغ في ليلة ١٩٦٩/١٢/٢٥ ، وقد اشارت حينذاك منظمات عدة منها الحزب الشيوعي واحدى التنظيمـات الديغولية اليساريـة (« اتحاد العمـل الديموقراطي ») الى تواطؤ على مستوى عال سمح للاسرائيليين بنقل البوارج الى ميناء حيفا [لوموند ١٩٧٠/١/٦] .

ولم يكتف بعض اعضاء « اتحاد الديموقراطيين » بالتردد ، بل عبروا علنا عن معارضتهم لموقف الحكم وحزبهم . ففي اللجنة الادارية « لتحالف فرنسا ــ اسرائيل » شخصيتان من الحزب الحاكم هما النائب جاك مرسييه والوزير السابق ريمون تريبوليه من اصل ثمانية اعضاء . والاخير يترأس كذلك لجنة الصداقة البرلمانية فرنسا ــ اسرائيل التي تضم ٥٥ نائبا ديغوليا [مجلة « الارض المستعادة » ١٩٧٠/٢/١٥] .

يبقى هناك بالطبع الاقلية الملتزمة عن قناعة بموقف مؤسس الجمهورية الخامسة . ونكتفي بذكر اسم لوي تيرنوار الوزير السابق ورئيس رابطة التضامن الفرنسية العربية [الذي يعبر عن مواقفه باستمرار في نشرة الرابطة : فـرنسا والدول العربية] ، وميشال حبيب دولونكل السكرتير العام المساعد للحزب المختص في الشؤون العالمية [لوموند ١٩٧٠/١/١٣ والجريدة الديغولية « لاناسيون » التي يشرف عليها] وبعض المجموعات كرابطة « العمل الديغولي » [لوموند ٦٩/١٢/٣٠] و« الحركة من اجـل استقلال اوروبا » [لوموند ١٩٦٩/١٢/٣١] .

الا ان « اتحاد الديموقراطيين من اجل الجمهورية » يبقى بحكم ايديولوجيته ومواقعـه محدود التطور، واي تغيير حقيقي لن ينشأ الا بحكم التناقضات بين الراسمالية الفرنسية

الحاكمة والامبريالية الامريكية التي تغذي وتشرف على استمرار وجـود أداة القمع الصهيونية من جهة ، وتحت تأثير اختلال التوازن الذي تحدثنا عنه بين حجم المصالح الفرنسية في العالم العربي وفي اسرائيل من جهة اخرى .

٢ ــ **الجمهوريون المستقلون** : وهو التنظيم الذي يرئسه وزيـر الاقتصاد جيسكار دستان، والذي قلنا أن علاقته بالديغولية لم تعد اليوم أكثر من تحالف مع القوة الرئيسية الحاكمة ، يترك للتنظيم شخصيته المميزة . والواقع انه على الرغم من قرب مفاهيم هذا الحزب مع المفاهيم الوسطية (مع تبني بعض المواقف الديغولية المتعلقـة بالاقتصاد الوطني)، فان شخصية جيسكار دستان (التي تعتبر من اقوى شخصيات الحكم الحالي والمرشحين للرئاسة في المستقبل) تعطيه كيانا قد يهدد الحزب الديغولي نفسه .

ومن الصعب تحديد قوة هذا التنظيم ، لانه في معظم المعارك الانتخابية التي خاضها ، كان متحالفا مع الحزب الديغولي . الا ان عدد نوابه في البرلمان (٦٢ نائبا بعد الانتخابات الاخيرة) يشكل تقريبا سدس المجموعة الديغولية كلها ، واذا حولنا هذه النسبة الى نسبة أصوات ، فالنتيجة تقارب ٧ بالمئة من مجموع الاصوات (هذه النسبة تضعه في المرتبة الخامسة من ناحية القوة الانتخابية ، الا أن القانون الانتخابي غير النسبي يعطيه المرتبة الثانية من حيث عدد النواب) .

فيما يختص بموقفه من المسألة الفلسطينية ، فرغم تصريحات جيسكار دستان المتتالية التي يؤكد فيها « تضامنه مع السياسة الحكومية » [لوموند ١٩٧٠/٢/٤] ، الا أن الحزب بمجمله على ما يبدو يقف موقفا شبيها بموقف الوسط ، اي مؤيدا تأييدا كليا لاسرائيل . فالسكرتير العام للحزب ميشيل بونياتوفسكي عضو في اللجنـة الاداريـة « لتحالف فرنسا ــ اسرائيل » [لوموند ١٩٧١/١/٣٠] ولا يفوت اية فرصة في التعبير عن عواطفه . فبعد صفقة الاسلحة الليبية ، اعلن بوضوح ادانته وطالب الحكم بدعم اسرائيل « العقبة الوحيدة أمام النفوذ الروسي في البحر المتوسط » [لوموند ١٩٧٠/٢/٣ والارض المستعادة ١٩٧٠/١٢/١٥] . والنائب جاك دوميناتي الذي يدير جريدة « باريس غدا » يعبر بوضوح عن وقوفه الى جانب اسرائيل [لوموند ١٩٧٠/٢/٤] . وكذلك النائب دستريمو الذي طالب في اجتماع برلماني في ربيع ١٩٧٠ « بالعودة الى سياسة فرنسا في الشرق الاوسط كما كانت قبل ١٩٦٧ » [لوموند ١٩٧٠/٤/٣٠] . وهذه المواقف ليست غريبة بالنسبة لحزب ممثل بـ ١٨ نائبا في اللجنة البرلمانية للصداقة الفرنسية الاسرائيلية [الارض المستعادة ١٩٧٠/٢/١٥] .

ولم يسمع داخل الحزب اي صوت نشاز بالنسبة للموقف الشرق أوسطي ، فتصريحات الالتزام بالموقف الحكومي « لانه الوحيد الذي يأخذ بعين الاعتبـار مصلحة فرنسا » [تصريح لايميه باكيه رئيس المجموعة البرلمانية للحزب في لوموند ١٩٧٠/٢/٨] لا يلغي التعاطف شبه الكلي تجاه اسرائيل .

٣ ــ **اليسار الديغولي** : تطلق بعض القطاعات الهامشية في الحركـة الديغولية لقب « اليسار » على نفسها ومرة أخرى لن نقيم هنا استحقاقهـا لهذا اللقب وسنكتفي باستعراض وصفي لمواقفها (استعمل ديغول في الماضي هذه الصورة في وصفه لليسار الملتزم به : « انه خمر جيد ، ولكنه نادر » [لوموند ٧١/١٠/٣]) .

ويتشكل اليسار الديغولي اليوم ، بشكل أساسي ، من مجموعتين رئيسيتين : الاولى وهي فيدرالية اليسار الديغولي وتضم ثلاثة تنظيمات يتزعمها ليو هامون وايفون موراندا وفيليب دوشارتر وتلتزم بالحكم الحالي وهي ممثلة فيه بوزيرين . والثانية هي الاتحاد العمالي الذي نشأ عن دمج اربعة تنظيمات ، ويتزعمها اليوم الوزير السابق جيلبير

غرانفال ، وهي تعتبر النظام الحالي غير مخلص للتراث الديغولي ، وتقف اذا في ضفة المعارضة .

وفي المسألة الفلسطينية ، تقف المجموعتان على أرضيتين مختلفتين . فالاولى (أي الحكومية) تعتبر أكثر عطفا على الجانب الاسرائيلي من الحكم بينما تعتبر الثانية « أقرب الى الجانب العربي » [لوموند ١٩٧٠/١/٩] . فأحد زعماء الفيدرالية ليو هامون ، الوزير حاليا ، معروف بانتماءاته الصهيونية ، بينما لا يخفي المسؤولون الآخرون في التجمع عواطفهم الى جانب اسرائيل ، الا بقدر ما يقتضيه التزامهم بالموقف الحكومي القاضي بمراعاة المصالح الفرنسية في العالم العربي . فبعد أزمة زوارق شربورغ في مطلع ١٩٧٠ ، اتخذت الفيدرالية موقف الدفاع عن الحكم ، وطالبت باتخاذ « موقف حياد حقيقي » في الصراع الشرق أوسطي [لوموند ٧٠/١/٩] .

بينما اتخذت تنظيمات التجمع الآخر موقفا اتهاميا وصفت فيه الحكم « بالازدواجية ، اذ يدعي الاستمرار في سياسة الجنرال ديغول بينما يتخذ في الواقع مواقف مناقضة » . وذكرت بقرار بومبيدو بالعودة الى « الحظر الجزئي » على الاسلحة المرسلة الى اسرائيل ، ملمحة بأن الزوارق لم تخطف وانما أعطيت سرا في اطار الموقف الجديد [لوموند ٧٠/١/٦] . وأعلنت احدى تنظيمات « الاتحاد العمالي » وهي جبهة الشبيبة التقدمية في مؤتمر صحفي بالقاهرة « ادانتها للعملية الاسرائيلية ، وانتقادها للاستخفاف الحكومي الفرنسي » كما أكدت دعمها « لنضال الشعب الفلسطيني من أجل اقامة دولة فلسطينية ديموقراطية يعيش فيها العرب واليهود » [لوموند ١٩٧٠/١/٧] . وأوضح عضو تنظيم آخر ملتحم داخل « الاتحاد العمالي » (وهو جان دو بير من جبهة التقدم) في مقال له في لوموند [٧٠/١٠/٧] وجهة نظره قائلا : « لقد استعدنا — بفضل موقف الجنرال ديغول — في الشرق الاوسط مكانة مرموقة . واليوم نرى لماذا لم تحتمل الحكومة الاسرائيلية نصائح الرئيس الفرنسي ... لانها ليست مستعدة لاعادة ما استولت عليه ... ومقابل هذا الموقف الصريح والواضح ، قامت حكومة بومبيدو بانتهاج سياسة متماوجة ، لم تؤد لا لتهدئة الاسرائيليين ولا لطمأنة العالم العربي الذي لا يرى في هذه السياسة صلابة السياسة السابقة وبعد نظرها » .

باختصار اذا ، نستطيع ان نقول ان اليمين الديغولي الذي يشمل تنظيم الجمهوريين المستقلين وغالبية الحزب الرئيسي الحاكم يقف عاطفيا مع اسرائيل ، بينما تقف بعض اطراف « اليسار » الديغولي وبعض التيارات الهامشية في الحركة موقفا يصفه البعض بأنه متعاطف مع العرب . أما القوة الحاكمة ، فتبني في الغالب موقفها من طموحها لاحتلال مكانة اقتصادية ذات شأن في الساحة العربية ، ويقع هذا الطموح في اطار التناقضات بين الامبريالية الرئيسية في العالم (الولايات المتحدة) والامبرياليات الثانوية ، ومن واجب الوطنيين العرب الاستفادة منها ، مع الادراك التام لطبيعة القوى المتصارعة عالميا وفي كل قطر ، وفي فرنسا بالذات ، مع اعتبار القوى الصديقة استراتيجيا هي الجماهير المناهضة للرأسمال المحلي .

اليسار المعتدل

تقع تحت هذه التسمية اعداد كبيرة من العائلات السياسية ، القديم منها والجديد ، ويجمعها تطلع اصلاحي للمجتمع نحو توزيع أقل اجحافا للنتاج القومي دون احداث تغيير جذري في بنائه . وتنعت هذه العائلات غالبا بالاجتماعية (أو الاشتراكية) الديموقراطية . ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ، ومثل هذه التنظيمات (العمالية أحيانا) تلد وتتكاثر ، وهي تشكل الآن في معظم دول اوروبا الغربية قوى ذات تأثير تقليدي في الحكم او خارجه .

وسنقصر حديثنا هنا على تنظيمين رئيسيين : الاول هو الحزب الراديكالي الاشتراكي والثاني هو الحزب الاشتراكي . وسنعتبر مواقفهما ممثلة للتيار بمجمله ، الذي أعطيناه نسبة تمثيلية تقارب العشرة بالمئة . وقد يتجاوز هذه النسبة في الاشهر القادمة نظرا للتغييرات التي طرأت على بنية الحزبين الرئيسيين (في اتجاهين مختلفين) .

الحزب الراديكالي الاشتراكي : هذا الحزب من أقدم الاحزاب الفرنسية الحية (تأسس عام ١٩٠١) ولعب دورا سياسيا مهما في الجمهوريتين الثالثة والرابعة (١٨٧١ — ١٩٤٠ و١٩٤٥ — ١٩٥٨) . وهو منذ عودة ديغول في طريق الاضمحلال ، ويتحول الان شيئا فشيئا الى حزب وسطي شبيه في بنيته الطبقية ومواقفه السياسية الداخلية والخارجية من أحزاب الوسط التي تحدثنا عنها خاصة بعد سيطرة مدير مجلة الاكسبرس ، جان جاك سرفان شريبر عليه (اذ أصبح سكرتيرا عاما عام ١٩٦٩ ورئيسا للحزب في العام الماضي) . وتنازع الرئيس الحالي أقلية من قدماء المسؤولين تطلق على نفسها صفة « اليسار الراديكالي » ويقودها رئيس الحزب السابق موريس فور ، وقد عقدت هذه الاقلية اتفاقات سياسية مع الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي ، بينما تتحالف الاغلبية مع أحزاب الوسط المعارضة للحكم في اطار « الحركة الاصلاحية » . وهذا التناقض الذي قد يؤدي الى انقسام الحزب لا ينعكس اطلاقا على المواقف في السياسة الخارجية وبالذات بالنسبة للمسألة الفلسطينية . فكافة القوى المتصارعة تقف موقفا مستمرا من التأييد المطلق لاسرائيل والعداء لحركة التحرر العربية .

فتصريحات سرفان شريبر وأعوانه ومقالات مجلته الاكسبرس (التي تجد سوقا واسعا للتوزيع في بعض الدول العربية) لا تنقطع عن الدفاع عن وجهة النظر الاسرائيلية . ولا تقع خطورة ذلك في وزن الحزب (الضئيل نسبيا) وانما في تأثير المجلة التي أصبحت أكثر المجلات السياسية الاسبوعية توزيعا ، وتلعب اليوم دورا كبيرا في تسميم الرأي العام الفرنسي .

ونستطيع تلخيص موقف سرفان شريبر من خلال بعض تصريحاته الاخيرة . ففي مؤتمر له في الولايات المتحدة في صيف ١٩٧٠ ، حدد موقفه من المشكلة قائلا : « كل من شارك منا في الصراع ضد النازية يعتبر استمرار وجود اسرائيل قضية مقدسة ، ولذا فاننا لا نستطيع فهم ولا قبول سياسة الحكومة الفرنسية » . [لوموند ١٩٧٠/٨/١] . وكتب في مجلة « المنبر اليهودي » الصهيونية [كانون الاول ١٩٧١] : « اعتقد أن الشرق الاوسط هو المكان الاكثر خطورة على السلام العالمي ، والسبب الرئيسي هو تهديد وجود اسرائيل ... ومن واجب اوروبا ، وفرنسا بالذات ، الاهتمام بميزان التسلح ، وذلك بتسليح اسرائيل ، اذا استمر الاتحاد السوفياتي في تسليح الدول الاخرى وكسر التوازن » .

ولا يخالف سائر الراديكاليين سرفان شريبر في موقفه . فميشيل سوليه نائب الرئيس السابق، عضو في الهيئة الادارية « للتحالف الفرنسي الاسرائيلي » واحد النجوم الدائمين للمهرجانات الصهيونية في فرنسا [لوموند ١٩٧٠/١/٢٣] . وموريس فور ، خصم الرئيس الحالي ، هاجم مثلا بشدة صفقة الاسلحة الليبية منتقدا الحكومة الفرنسية على موقفها ومعتبرا اياه « مناقضا للمنطق والاخلاق » [مجلة « الارض المستعادة » ١٩٧٠/٢/١٥] . وهذا الاجماع في العواطف الصهيونية للحزب الراديكالي يبدو اذا مطلقا .

الحزب الاشتراكي : يشكل الحزب الاشتراكي (الذي كان يحمل حتى العام الماضي اسم الفرع الفرنسي للاممية العمالية) الرديف الفرنسي للاحزاب الاشتراكية الديموقراطية المنبثقة عن الاممية الثانية والحاكمة في عدة دول من اوروبا الغربية (كالمانيا والنمسا والدول الاسكندنافية) . وقد لعب الحزب دورا غير قليل في السياسة الفرنسية في

النصف الاول من هذا القرن ، مع ان الانشقاق الاساسي الذي حدث في مؤتمر تور عام ١٩٢٠ والذي ادى الى ولادة الحزب الشيوعي الفرنسي ، كان في النهاية من ناحية الوزن لصالح الاخير . والقارىء العربي يذكر غي موليه الذي كان رئيس وزراء فرنسا اثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، والذي سيطر خلال فترة طويلة بصفته أمينا عاما على مصير الحزب وسياسته . ولكن السنوات الاخيرة التي شهدت تقلصا مستمرا لوزن وصدى الحزب (الذي كانت نسبه التمثيلية تتراوح بين ٥ و٧ بالمئة) ادت الى احداث بعض التغييرات في بنيته القيادية وسيطرة عناصر كانت منتمية لتنظيم آخر (هو تعاهد المؤسسات الجمهورية) اندمج هذا العام في الحزب . وعلى راس هذه العناصر القائد الحالي للحزب ، فرنسوا ميتران ، السكرتير الاول ، الذي كان مرشح اليسار في انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٥ ضد ديغول .

وتاريخ هذا الحزب في مساندة الصهيونية واسرائيل ودعمهما تاريخ غير متعرج . فلم يحدث حتى الان ان اتخذ اي موقف متردد (وبالاحرى نقدي) في حماسه الصهيوني . فسكرتيره السابق غي موليه ما زال يفاخر بعملية السويس (العدوان الثلاثي) ويشبه عبدالناصر بهتلر ، ويرسل البرقيات في كل مناسبة لاقطاب الصهيونية . ولا بد من التذكير هنا ان الحزب العمالي الاسرائيلي (اي حزب غولدا مئير وموشيه دايان) عضو في المؤتمر الاشتراكي العالمي ، ورئيسة وزراء اسرائيل شاركت في المؤتمر الاخير الذي انعقد في فيينا [هذا لا يعني ان جميع الاحزاب التي شاركت في هذا المؤتمر تقف الموقف نفسه من « مشكلة الشرق الاوسط »] .

وفي السنوات الاخيرة عبر الحزب مرارا عن تعاطفه مع الجانب الاسرائيلي ومعارضته لسياسة الحكم الفرنسي التي اعتبرها تجنيا على « دولة شجاعة وديموقراطية » [تصريح لغاستون دوفير عضو المكتب السياسي ورئيس بلدية مرسيليا ، لوموند ٢٣/ ١٩٧٠/١] وتشجيعا « لصراع مسلح جديد في المنطقة » [بيان للحزب في مجلة « الارض المستعادة » ١٩٧٠/٢/١٥] .

ورغم ان السكرتير الجديد ، كان اقل حماسا قبل اندماج تنظيمه بالحزب في تأييده لوجهة النظر الاسرائيلية ، الا ان مسؤولياته وطموحاته الجديدة دفعت به ، على ما يبدو الى المزاودة على اسلافه . ففي احدى مؤتمراته الصحفية الماضية ، عبر فرنسوا ميتران عن موقفه بالشكل التالي : « دولة اسرائيل لها الحق في الوجود وفي الحصول على أدوات استمرارها . لكنها يجب الا تتحول الى دولة مسيطرة . وكما اننا يجب ان نؤكد على وجود دولة اسرائيل ، فاننا لا نستطيع ان ننفي الواقع الفلسطيني . وعلى هذين الشعبين ان يتفاهما » . [لوموند ١٩٧٠/٢/٧] . الا ان هذا التحفظ الخفيف اختفى تماما اثناء زيارته كسكرتير اول للحزب الاشتراكي الجديد ، لاسرائيل . فحين وصوله ، قال : « ان فرنسا ، والفرنسيين يعتبرون انفسهم قريبين جدا من اسرائيل . وان استطعنا فسنعمل على تحسين العلاقات، والتعبير عن تطلعات القادة الاسرائيليين» [لوموند ١٩٧٢/٣/١٦] . واعرب اثناء زيارته عن اتفاقه مع مشروع الون ورفضه لفكرة الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة كشرط مسبق للمحادثات [لوموند ٢٣/ ١٩٧٢/٣] .

الا ان هذه التصريحات التي يراد منها غالبا طمأنة العناصر الصهيونية والموالية لاسرائيل داخل الحزب على استمرار موقفه المؤيد لها ، لا تستطيع ان تخفي تحولا بطيئا عند بعض العناصر الشابة نحو تفهم اكبر للواقع الفلسطيني . وقد اشارت مجلة الاكسبريس [١٩٧٠/٢/١٦] الى هذا التطور في مقال لها بعنوان « اليسار المريض بفلسطين » قالت فيه : « قبل ثلاث سنوات ، كان الحزب الاشتراكي يتجنب حتى الاشارة الى قضية اللاجئين ... ولكنه اليوم يتطور بحذر آخذا بعين الاعتبار التطور على الساحة ...

ومتقبلا بصعوبة استمرار احتلال الاراضي العربية » . ويبدو ان بعض القيادات الجديدة وتنظيمات الشباب في الحزب يعمل في هذا الاتجاه .

وبالانتظار ، نستطيع اعتبار الموقف الرسمي للحزب الاشتراكي معبرا عنه بالشكل الاكمل في برنامج الحزب الذي نشر في شكل كتيب تحت عنوان « لنغير الحياة » [في دار نشر فلاماريون ص ٢٠٢] ، وجاء فيه : « اربع سنوات بعد الحرب الاخيرة بين الدول العربية واسرائيل ، ما زالت الدول الكبرى تساهم بتموينها العسكري في استمرار خطر اندلاع حرب جديدة . ان الحزب الاشتراكي يعبر عن تقديره لمجهودات ممثل الامم المتحدة من اجل تطبيق قرار مجلس الامن في مجمله . ويؤكد على ان اي سلام دائم يجب ان يعتمد على المبادىء التالية :

ـــ الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود والعيش بأمان ، وبحق كافة الامم الاخرى في الشرق الاوسط (كدول ذات سيادة) بما في ذلك الامة العربية الفلسطينية ، التي تختار ممثليها بحرية .

ـــ ضمان حق الملاحة في قناة السويس ومضائق تيران لاسرائيل ولكل الامم .

ـــ الاتفاق بين الدول الكبرى لوقف سباق التسلح في المنطقة .

ـــ وضع حدود دائمة بمحادثات بين الاطراف المعنية ، واخلاء الاراضي المحتلة .

ـــ اقامة شبكة اعانة عالمية لشعوب الشرق الاوسط لمساعدتهم على تطوير اقتصادهم والتعايش السلمي بانتظار تعاون مفيد بين كل دول المنطقة .

ـــ اجراء محادثات بين كافة دول المنطقة لاسكان اللاجئين العرب بمساعدة المجتمع الدولي . »

أقصى اليسار

تحت هذا الاسم ، نجد في التقارير الرسمية الاحزاب والقوى السياسية التي تتبنى الماركسية او الايديولوجيات القريبة منها . وسنهتم هنا بشكل خاص بالقوى التالية : الحزب الشيوعي ، الحزب الاشتراكي الموحد ، الماويون ، التروتسكيون .

الحزب الشيوعي : يعتبر الحزب الشيوعي الفرنسي أكبر حزب منظم في فرنسا ، وبعد الحزب الشيوعي الايطالي أهم حزب شيوعي خارج المعسكر الاشتراكي . آخر احصائيات الحزب تعطيه عددا من المنتمين يقارب نصف المليون ، بينما يرتفع عدد المصوتين له في الانتخابات فوق الاربعة ملايين (نحو ٢٢ بالمئة) . تكوّن الحزب كما ذكرنا على اثر الانقسام الذي حدث في الحزب الاشتراكي الفرنسي عام ١٩٢٠ في مؤتمر تور ، واختار منذ ذلك الحين خط الحزب الشيوعي السوفياتي ، رغم بعض التحفظات (حول دخول قوات حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا مثلا) .

وينعكس هذا الوفاء للخط السوفياتي على معظم مواقف الحزب خاصة في المجال العالمي ، وبالذات ـــ في مجال بحثنا ـــ في موقفه من المسألة الفلسطينية . ويتلخص هذا الموقف في فقرة من فقرات « البرنامج من أجل حكومة ديموقراطية للاتحاد الوطني » الذي نشره الحزب مؤخرا ، جاء فيها :

« في الشرق الاوسط ، ستعمل فرنسا على تطبيق حل سياسي للصراع ، يتضمن تطبيق قرارات الامم المتحدة وخاصة اخلاء الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق القومية لكافة شعوب المنطقة بما في ذلك شعب فلسطين العربي ، وبحق الوجود لكافة الدول ، بما في ذلك دولة اسرائيل » . (الكتيب ، دار النشر الاجتماعية ، ص ٢٢٦) .

وهذا الموقف المتطابق نصا مع الموقف السوفياتي ، يعكس في الوقت نفسه اهتمامات

مختلفة . فبينما تتخذ الحكومة السوفياتية مواقفها على ضوء استراتيجية عالمية (تتميز مثلا في الشرق الاوسط بالحرص على تفادي الصدام مع الولايات المتحدة) ، يواجه الحزب الشيوعي الفرنسي اساسا مشاكل فرنسية بحتة. واحدى هذه المشاكل هي آثار المسألة اليهودية ، وما نتج عنها من امكانات ضغط للقوى الصهيونية التي تسارع الى الخلط بين مناهضة الصهيونية والعداء للسامية . والحزب الشيوعي الذي عانى من العزلة التي فرضت عليه طويلا في الساحة السياسية الفرنسية ، حساس لاية محاولة تستغل بعض مواقفه لاعادته لهذه العزلة . ونذكر مثلا انفراد الحزب الشيوعي (بين القوى السياسية المهمة) في ادانة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، وكذلك في اتخاذ موقف واضح ضد عدوان حزيران ١٩٦٧ مباشرة بعد بدئه (مدعوما هذه المرة بموقف ديغول الذي لم يعكس اطلاقا مشاعر العطف على الجانب الاسرائيلي عند غالبية الراي العام في ذلك الحين ، نظرا للحملة الدعائية الصهيونية التي صورت اسرائيل في خطر الابادة) . وهذا يفسر جزئيا حرص الحزب على التأكيد على وجود الدولة الاسرائيلية ونفي تهمة التحريض على القضاء عليها ، في الوقت الذي يتخذ فيه موقف الادانة تجاه الصهيونية ايديولوجيا والتعاطف المتزايد مع المقاومة الفلسطينية ، خاصة بعد ١٩٦٨ (بينما كان التركيز قبل ذلك ومباشرة بعد ١٩٦٧ على التضامن مع الانظمة التقدمية العربية) .

وبالفعل ، وبعد مدة اتصالات قام الحزب الشيوعي لاول مرة بتوجيه دعوة رسمية لحركة فتح لحضور مؤتمره التاسع عشر الذي انعقد في شباط ١٩٧٠ ، واستقبل وفد فتح استقبالا حارا من قبل اعضاء المؤتمر . [لوموند ٦ و١٩٧٠/٢/٧ ، ومحاضر المؤتمر الصادرة عن الحزب] . ورغم ان الحزب لم يغير رسميا موقفه بعد المؤتمر الا ان بياناته اصبحت تشدد اكثر فأكثر على « الحقوق القومية لشعب فلسطين العربي » [لوموند ٧٠/١٢/١٥ و٧١/١/١٧ وبيانات المكتب السياسي للحزب في جريدة لومانيته ٧١/١/١٤ وتصريحات جورج مارشيه السكرتير العام المساعد وجاك ديكلو عضو المكتب السياسي ومرشح الحزب لانتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٩ في الجريدة وفي مجلة « الديموقراطية الجديدة » عدد شباط ١٩٦٨ مثلا] . وفي تصريح لرولان لوروا عضو المكتب السياسي وسكرتارية الحزب ، طرحت قضايا الصهيونية واللاسامية كالتالي : « اننا نناضل ضد اللاسامية والصهيونية . فكلاهما تحاولان فصل اليهود عن باقي السكان وتحويلهم عن الصراع الطبقي ... اللاسامية والصهيونية تغذي الواحدة منهما الاخرى وتعملان على الخلط بين مجموع اليهود والصهيونية وبالتالي سياسة اسرائيل وهذا ما نرفضه » . [لومانيته ١٩٧٠/٧/٢] .

وهذا التشديد على « الحقوق القومية لشعب فلسطين » وعلى ادانة الصهيونية يرافقه كذلك في البيانات الاخيرة التركيز على « طرد الفلسطينيين من أرضهم الاصلية » والاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني [لومانيته ١٩٧٢/٩/٧] .

الحزب الاشتراكي الموحد : تشكل هذا الحزب في أواخر الخمسينات من بعض العناصر المنشقة على يسار الحزب الاشتراكي . ورغم تبنيه للماركسية ، بقي فترة طويلة يتأرجح بين المواقف الديموقراطية الاشتراكية وبين اليسار المتطرف ، وقد حسمت احداث ايار ١٩٦٨ هذا التأرجح (على الاقل شكليا) لمصلحة التيار الاخير . والحزب محدود التأثير (٣ بالمئة تقريبا في الانتخابات الاخيرة) ولكنه ذو وجود في بعض الاوساط المثقفة والمسيحية ، وطبيعة تكوينه تفسر التناقضات التي يعاني منها اليوم ، اذ تترعرع فيه اتجاهات ماوية وتروتسكية بينما يحاول سكرتيره الوطني النائب ميشال روكار ان يحافظ على توازن بين كافة القوى المتنازعة .

وكان الحزب في مطلع الستينات قريب الصلة بأوساط « اليسار » الصهيوني . فبينما

كان الحزب الاشتراكي على صلة وثيقة بالماباي ، كان الحزب الموحد يتعامل مع المابام، الذي كان يرى فيه الرديف له في اسرائيل ، وبالتالي كانت مواقفه قريبة من هذا الاخير.

وجاءت حرب ١٩٦٧ (كان طلبة الحزب من أولى القوى التي ثارت على جو الهستيريا الصهيونية قبل الحرب) وبعدها تصاعد المقاومة الفلسطينية ، وكذلك احتداد الصراعات الطبقية في فرنسا (وخاصة في حركة ايار ١٩٦٨) ، لتفرض مواقف اكثر يسارية على الحزب سواء على الصعيد الداخلي أم الخارجي . ففي تشرين الاول ١٩٦٩ وعلى اثر مؤتمر حضره وفد من حركة فتح ، قطع الحزب علاقته رسميا بالمابام ، واتخذ موقف التأييد الكلي للمقاومة الفلسطينية . ففي بيان للمكتب القومي للحزب على اثر قصف منطقة ابو زعبل الصناعية ، ورد « ان الحزب يدين العدوان الاسرائيلي بدون تحفظ . ويحيي الشعب الفلسطيني وكافة الشعوب العربية ضحية العدوان . كما يبدي ثقته بالاقلية الثورية من يهود فلسطين من اجل تطوير النقمة الشعبية ضد هذه السياسة وخلق جو يسمح بنضال مشترك للثوريين الفلسطينيين عربا ويهودا ضد الامبريالية » . [لوموند ٧٠/٢/١٥] .

وكرر الحزب بعد ذلك موقفه هذا (المؤيد اذا لبناء دولة فلسطينية ديموقراطية اشتراكية على ارض فلسطين كلها) في عدة مناسبات [لوموند ١٩٧٠/٩/٢٥ و١٩٧٢/٩/٨ مثلا والمقالات الاسبوعية في مجلة الحزب « المنبر الاشتراكي »] رغم معارضة تيار صهيوني قوي داخل الحزب ما لبث في النهاية في غالبيته ان انفض عنه . وفي المؤتمر الاخير للحزب الذي انعقد في صيف ١٩٧١ ، حضر ممثلان عن حركة فتح والجبهة الشعبية الديموقراطية اللتين يعترف بهما الحزب بشكل اساسي كقوة رئيسية وطليعية سياسيا في صفوف المقاومة .

الماويون : في اواسط الستينات انعكس الخلاف الصيني ــ السوفياتي على القوى اليسارية في فرنسا ، فبدأت بعض التيارات المتبنية للفكر الماوي بالبروز بين مثقفي الحزب الشيوعي وطلبة الجامعات (وخاصة الكلية العالية للمعلمين ، المعتبرة من أعلى الكليات مستوى) . وتشكلت تنظيمات عدة كان أهمها الحزب الشيوعي الماركسي اللينيني (الذي ما زال موجودا رغم منعه من قبل السلطات الفرنسية اثر انتفاضة ايار ١٩٦٨) واتحاد الشبيبة الشيوعية الماركسية اللينينية (الذي أعطى فيما بعد تنظيمات حملت تسميات اخرى وأهمها اليسار البروليتاري الذي تنطق باسمه جريدة « قضية الشعب ») . وهناك اليوم تنظيمات ماوية عدة ويجمع جميعها ــ مع بعض التفصيلات في تفسير المنطلقات ــ على تأييد مطلق للمقاومة الفلسطينية على أهدافها في القضاء على اسرائيل وبناء دولة ديموقراطية في فلسطين ، على طريق استكمال الثورة الوطنية الديموقراطية في العالم العربي . وحتى السنوات الاخيرة ، كان هذا التأييد بالنسبة لمعظم الماويين ، يتجه نحو حركة فتح بشكل خاص باعتبارها « تنظيما جماهيريا » ، الا ان اوضاع المقاومة بعد أيلول ١٩٧٠ وبعض مظاهر السياسة الخارجية الصينية منذ العام الماضي غيرت نوعا ما من وضع هذه التنظيمات ومن موقفها هذا ، مع استمرار التأييد طبعا لمجمل حركة المقاومة وأهداف النضال الفلسطيني .

التروتسكيون : الحركة التروتسكية (الاممية الرابعة ومشتقاتها) وليدة معارضة تروتسكي لستالين في نهاية العشرينات ، ولها امتداد منذ ذلك التاريخ في اوروبا والامريكيتين وحتى في اسيا (سيلان) . والحركة بمجملها ضعيفة في معظم اقطار اوروبا ، وتتوالى فيها منذ الخمسينات الانقسامات على اساس اختلافات ايديولوجية واستراتيجية . وفي فرنسا ، عدة تنظيمات اهمها العصبة الشيوعية (الاممية الرابعة) ، وتحالف الشبيبة من اجل الاشتراكية (المنظمة الشيوعية الاممية) و « الصراع العمالي » . وتمتاز الحركة التروتسكية بنظرة « عمالية » ، اي انها تشدد ، حتى في

الحركات القومية ، على ضرورة الصبغة العمالية لاية حركة ثورية . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نلخص موقف التروتسكيين كالتالي . ادانة كلية للصهيونية كحركة بورجوازية صغيرة بين يهود اوروبا تغفل عامل الصراع الطبقي ، وتتحالف مع الامبريالية من اجل تحقيق اهدافها . وتاييد للحركات الثورية في المنطقة (عربية او يهودية) التي تؤكد على تحالف الطبقات العمالية من اجل تحقيق الاشتراكية ، والقضاء على الدول العميلة للامبريالية (وعلى راسها اسرائيل) . ويختلف التروتسكيون في موقفهم من حركات التحرر الوطني ، فالبعض (كالاممية الرابعة) يتعاطف مع التيارات الاشتراكية فيها ويندد بالحركات القومية بشكل محض ، أما الاخرون فيرفضون جملة وتفصيلا مفهوم مرحلة التحرر الوطني ، ويشترطون في تاييدهم طرح الصراع الطبقي على مستوى كل قومية منذ المراحل الاولى (وهذا حال المنظمة الشيوعية الاممية) .

المنظمات الاخرى : استعرضنا فيما سبق مواقف القوى السياسية الرئيسية في فرنسا . هناك بالطبع قوى اخرى متفاوتة الاهمية (كالفوضويين مثلا والتنظيمات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية) ولكنها في الغالب تعبر عن نفسها من خلال التيارات الرئيسية ، والدخول بتفصيل في مواقفها سيطيل البحث . وهذا حال النقابات (وخاصة نقابات العمال والشبيبة) التي تلعب دورا هاما في حياة المجتمع الفرنسي ، وقد اعتمدنا للاسباب نفسها ، الاستغناء عن ذكرها وذكر الحركات ذات الاهتمامات الاكثر حصرا (كالمنظمات التعاونية ، وحركات النضال ضد العنصرية الخ) .

خلاصة

من هذا البحث ، نستطيع الخروج بالاستنتاج التالي : كقاعدة عامة ، يتزايد التعاطف مع القضية الفلسطينية من اليمين الى اليسار . وهذه القاعدة صالحة على المستوى العالمي . وتفسيرها بديهي اذا اخذنا بعين الاعتبار الطابع التقدمي والمناهض للامبريالية للثورة الفلسطينية (موضوعيا) . وهذا يفرض علينا ان نرى في مجتمع متقدم اقتصاديا كالمجتمع الفرنسي حلفاءنا الاساسيين في الطبقات المستغلة (بفتح الغين) والقوى السياسية المعبرة عنها . ومهما كانت المواقف الحالية لهذه القوى والوعي الذاتي لجماهيرها ، فلا بد في نهاية المطاف (اي مع تصاعد المد الثوري الفلسطيني والعربي) ان تقف كلية الى جانبنا . ولهذا يجب ان نتجنب المواقف المتشنجة التي تستبعد التحالف مع القوى التي يرافق تاييدها لنا بعض الاختلاف في الرؤية الحالية .

وهذه النظرة يجب ان تدفعنا كذلك الى العمل بشكل مستمر على عزل العدو الصهيوني في اضيق الحلقات ، بكسب تعاطف كافة الجماهير المعادية لاشكال الاضطهاد على الا تتكون عندنا اوهام حول القطاعات السياسية اليمينية والمعبرة عن الطبقة المستغلة (بكسر الغين) ، التي تتحكم فيها في النهاية ايديولوجيتها المضادة للثورة ، وان اظهرت مواقف متناقضة معها فبحكم حرصها على مصالحها الاقتصادية وتسويق بضائعها .

من الآثار غير المنشورة للشهيد غسان كنفاني

تنفرد « شؤون فلسطينية » بنشر قصتين بدأ الشهيد غسان كنفاني بكتابتهما وسقط قبل ان ينجزهما

الاعمى والاطرش

— ١ —

سيقال فيما بعد ان ما حدث كان مستحيلا ، أما الآن فالأبعدون يقولون انها مغامرة ، وانا أقول انها الولادة . ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة، والمسألة مسألة وقت ليس غير . كذلك تبدأ القصص وكذلك تنتسى . ان المعجزة ليست أكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس ، ثم يولد على غير توقع من أحد ليضحى جزءا من الاشياء ، تبدو ، ثمة ، ناقصة دونه .

وقد كنت أسمع دائما عن قبر الولي عبدالعاطي وعن شجرته ، ولكنني لم اكترث قط . لقد حجت امي ، حين كنت لا أعرف الى ايـــن تحملني وتمضي ، الى قبور كل الاوليـــاء الصالحين ، المزروعة في كل حي وعلى درب كل قرية ، وسكبوا هناك على عيني من الزيت والدعاء ما يذوب جبلا من الصمت والعناد ، ولكن شيئا لم يحدث ، كأن العمى كان شيئا مكتوبا علي منذ البدء ، والى النهاية .

ومضت الآن سنوات لا حصر لها على تلك الايام ، حين كانت تضعني أمي على كتفها وتمضي ماشية كأنها تغوص في بحر لا قرار له ، وكنت أحس المسافة على جبهتها حين تنزلق اليها كفي الصغيرة فألمس فوقها طوفانا من تفصد العرق التعيس ، ولكننا كنا نعود دائما من قبور الاولياء كما كنا نذهب ، تضيء أمي طريقنا بعينيها الباكيتين الراجيتين ، وأتعرف أنا الى مسافة الرحلة من العرق المتفصد على جبهتها .

ولقد يئست . اقول لك يا حمدان انني يئست . ولو كنت جذع شجرة زيتون لتعبت ، عصرت على عيني كل اعشاب الارض ، وتركت أكف الالاف من الاتقياء والدجالين تمر فوقهما فلا تزحزح راقة واحدة من راقات العتـــم الابدي الذي كان يوصد بين جفني بوابات ليل ضار ، لا نهاية له ، وذات يوم اكتشفت العبث كما تكتشف انت المبصر شروق الشمس . انت تعرف تلك اللحظات العجيبة التي تساوي العمر كله . كانت لحظة من ذلك الطراز الذي لا يقهر والتي تجيء وهي عازمة على عدم الارتداد . ومذ ذاك وانا جالس ، كما تراني ، أرشو الظلام بالصوت ، وانسى . انت يا حمدان ما زلت صغيرا ، تتصور القدر ضربة صدفة لا تزحزحه الا ضربة صدفة أخرى ، وبعد أن مضى كل هذا العمر تقول لي أن أمضي الى قبر الولي عبد العاطي ، حيث قام الكسحاء يركضون ، والخرس ينطقون ، والعواقر يلدن ؟ أتريد أن أركب تلك الارجوحة مرة أخرى في عمر واحد يا حمدان ؟ اتريدني مرة أخرى أسير ذلك الامل التافه المروع ؟

قبر الولي وشجرته ! واليوم تقول انهم رأوا راسه الوقور يتجه بالدعاء الصامت الى

السماء ، معلقا بين فرعي الشجرة . تقول انه يبدو وكأنه نما هناك كما ينمو الثمر ، وانه يكاد يخاطب الناس . لقد سمعت هذه القصة في مكان آخر ، ذات يوم ، وذهبت الى هناك . لا ، ليس مرة اخرى يا حمدان ، ليس مرة اخرى ، ان العمـــر الواحد لا يتسع لاكذوبتين كبيرتين .

ولا بد ان حمدان ابتسم ، فأنا أحس ذلك بصورة غريبة اعتدتها منذ زمن لا ترقى له ذاكرتي ، اكان يعرف انني سأذهب ؟ اكان يعرف عمق تلك اللعبة الهائلة التي نسميها الامل المهيض الجناح ؟ سمعت خطواته تمضي بعيدا عني الى بوابة بيت النار ، ليخبز دفعة جديدة من الخبز ، ولكن مهما كان يحسب ، فانني أعرف ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، وان القصص تبدأ هكذا ، وهكذا تنتهي . لقد قذفتني اقدار تعمل من وراء ظهورنا الى هذا المكان ، وانـــا اتساءل بين الفينة والاخرى عما يستطيع الاعمى أن يفعل غير أن يبيع خبزا ؟ ان الرغيف وحده هو الشيء الوحيد الذي يمكن ان يرى بالاصابع ، تماما مثلما يرى بالعين . وحين يصل الامر الى الرغيف فان أحدا لا يستطيع أن يخطىء ، حتى الرجل الضرير الذي ولد ، لسبب ما ، دون بصر . فمنذ عشرين سنة وأنا جالس على هذا الكرسي أبيع خبزا ، ولا أذكر قط انني أخطأت . ان اصابعي تتذوق الرغيف وتزنه وتتعرف الى عمره وثمن جودته ، وهي تفعل ذلك كله كالعين والميزان معا ، فمما لا ريب فيه ان حياتنا مركبة على صورة فريدة ، ولو لم يكن الامر كذلك لما وجدت في هذا الكون كله متسعا لي ، أنزل فيه مثلما تنـــزل النبتة في الحوض ، وأنمو هناك ، مع الارغفة الساخنة وأصوات الناس ، يوما بعد يوم .

ولكن أما آن لذلك كله أن يمضي الى غير رجعة ؟ أليس ثمة في هذا الكون كله ، كله كله ، رجل واحد ، ميت واحد ، شيء واحد ، يعيد لهاتين العينين ضوءا مرميا على الطريق ، وليس من حق واحد دون الآخر ؟ كان الصخب يملأني وأنا أسمع حمدان يقذف الارغفة الى بلاط الفرن فتصدر عنها أصوات صفعات مكتومة ، وعرفت ، كما تعرف الارض ان عشبة ما ستنمو هنا ، انني سأذهب .

وكنت في أعماقي أكره ذلك ، ولكنني كنت أحس نفسي مربوطا اليه بلا فكاك ، وربما لذلك بالذات اعتزمت ان أمضي الى هناك في الليل ، ففي نهاية الامر ليس ثمة فارق عندي ، وكذلك يتعين على الاولياء الا يناموا .

وانتظرت مضي الساعات وأنا أحس التوقد يملأني . لقد اعتدت أن انـــام في الفرن ، وتركت الوقت يمضي حتى عم الصمت تماما ، فقمت .

— ٢ —

لم يكن هناك ما هو غير عادي ، ذلك اليوم . كان يوما من تلك الايام التي عشتها سنوات لا حصر لها ، ولكن الحقائق الكبيرة ، كما يبدو ، لا يحتاج مجيئها الى مناسبات . كنت أناول رجلا ما كيس الاعاشة ، وكنت أقول : « عيشة النكد هذه ، أود لو ... » وفجأة جاء ذلك الشيء الغامض ، وانقلب العالم رأسا على عقب ، وقلت لنفسي : « يا ولد ! انت منذ عشرين سنة تقول ذلك الف مرة في اليوم » وللتو ، شعرت بشيء من الخجل ، واقتحمني ذلك مثل شيء لا يرتد ..

كنت أرى شفاههم تتحرك ، ولكن الصوت كان يتكسر أمـــام جدار رهيب يسد اذني ، ولذلك فان أقوالهم لم تكن لتعنيني . اعتدت ذلك ؟ لا شك . فجسور الصوت التي تمتد بين الانسان والانسان كانت عندي مقوضة تماما ، ولكن الانسان يتعلم . وكما يعتاد الميت الموت فان الاطرش يتعود الصمم . أحيانا أقول : كما يعتاد الانسان العيش ، فان الاصم يعتاد الصمت .. ولكن المسألة الاكيدة هي ان الاشياء أكثر تعقيدا .

ذات يوم لا بد لي من التفكير بهدوء . اقول لنفسي دائما ان فرصة ان افكر بهدوء لم تتح لي قط في العشرين سنة الماضية ، فقد كانت عيشتي عيشة نكد حقا .

اننا ، حين نفقد واحدة من حواسنا ، فانها لا تضيع . كيف أشرح ذلك الاحساس الغامض ؟ ان الصمم نوع من نوم الصوت . الحاسة ذاتها تظل في داخل الجسد كهدير طاقة حبيسة ، ويكاد صوت استغاثتها أن يسمع ، وهذا بالذات هو الشيء الذي اعتزمت ، طوال عمري ، أن أفكر فيه بهدوء .

اما الان فليس ثمة الا الطواف على سطوح الاشياء الساكنة . الدوران الصامت في قاع الساعات الرتيبة لحياة لا يعرف احد كيف تسير ولا الى اين . ومنذ عشرين سنة وانا اجلس هنا ، اناول الاكياس لصفوف لا تنتهي من اللاجئين . منذ عشرين سنة يمتد امام بصري هذا الصف الطويل من الرجال والنساء والاطفال ، يتحركون امامي كالاشباح . يتدافعون بلا صوت ، وترتطم الصفائح التي يحملونها ببعضها دون ان يصدر عن ذلك الارتطام اي رنين . كأن العالم كله يغطس في حوض ماء زجاجي امام عيني .

وشيئا فشيئا اخذت ادرك ان وجودي هنا لم يكن مصادفة ، فمما لا ريب فيه ان هذه الارتال التي لا تنتهي من البشر البائسين كانوا يكيلون لي سبابا لا يحتمل ، فانا — امامهم — يد وكالة الغوث التي تمتد لهم بالطحين والسمن والفول . وقد يكون الطحين قليلا او فاسدا ، وقد تكون حبوب الفول اقل من قشوره ، ولكنني لم اكن لاسمع . كانت يداي تمتدان بالاكياس ، وكنت ارى شفاههم تتحرك ، ولكنني لم اكن لاسمع .

وعرفت ، يوما بعد يوم ، انهم وضعوني هنا قصدا ، فلم يكن من الممكن لاي رجل اخر ان يحتمل ذلك الطوفان من الغضب الكسيح عشرين سنة متواصلة ، يوما وراء يوم ، ويدا ممدودة وراء يد ممدودة . لقد كنت البوابة الحديدية لقصر المحسنين ، على اقدامها يتكسر صوت الغضب . وامامي كان ملايين اللاجئين يعومون داخل حوض زجاجي كالاسماك الصغيرة العاجزة ، دون صوت .

اقول ملايين ، لانني ، ربما لكوني لا اسمع الاصوات ، قد تعودت ان ارى ارتال اللاجئين امامي رتلا واحدا مستمرا مثل نهر متجدد . لقد فقدت القدرة على التاكد من ان ما اراه ليس الا تكرارا . شهريا لمشهد واحد عمره عشرون سنة ، واكتسبت بالتدريج شعورا بانني اقف امام صف لا نهاية له من البشر ، يعبر افراده واحدا واحدا من تحت ذراعي وبصري ، ولكنه لا ينتهي ، لا ينتهي ، لا ينتهي .

ولست ادري كيف تسلقت نغمة « عيشة النكد » الى لساني من اعماق سحيقة ، ربما لانني كنت بصورة ما مسحوقا ، في مكان لا يكاد يرى ، بين جدار البوابة الحديدية لقصد المحسنين وبين الامواج المتكسرة للاصوات الغاضبة القادمة من الخارج ، او ربما لانني بصورة ما كنت فردا في ذلك الرتل البائس من البشر ، سقط بالصدفة امامه ، وصار بالصدفة ايضا يتلقى امواجه الصامتة ويمتصها دون ان يعي ، وظللت هناك ، شيئا معلقا في الهواء مثل غيمة .

وهكذا تبدأ القصص ، ثم لا يعرف احد كيف تنتهي : قرأت في الصباح ان الولي عبد العاطي ، المدفون في الحقول القريبة من المدينة ، قد بدأ يجترح المعجزات . وان ثمة كسحاء عادوا من عنده يمشون ، والى جانب ذلك الكلام نشروا صورة للقبر الطيني الواطيء ، الذي لا يحوطه اي حاجز ، والمنخفض اكثر مما اعتادت القبور ان تكون خفيضة ، ووراء كومة الطين تلك كانت ترتفع شجرة ذات جذع ثخين ، عارية تماما من اية ورقة ، وبين فرعين في اعاليها نبتت ، مباشرة من الجذع ، كتلة تشبه رأس الانسان ، مرفوعة قليلا الى الاعلى ، كأنها تنظر الى السماء ، في وقت لا تكف فيه عن

سماع اصوات الناس الذين يركعون الى جانب القبر الواطىء ...

واعتزمت ، على التو ، ان امضي الى الشيخ عبد العاطي ، ورغم انني لم افكر قط طوال عمري بتصديق مثل هذه الاشياء ، فلست أدري ما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات . الآن استطيع ان اقول ان الامرين جاءا معا آن اكتشف نفسي ، واكتشف عبد العاطي ، ولو جاء احدهما قبل الاخر او بعده ، لمرت الامور فوق سطح ايامي مثلما انزلق الاف من الاولياء الى النسيان . ولكنهما جاءا معا ، مثل القفل والمفتاح ، كنت أهوي بصخب من ذلك الكرسي الذي قعدت عليه عشرين سنة ، وهاءنذا أرى نتوءا في جدار تلك الهوة المروعة .

وعبر عالمي الذي كان دائما يسبح صامتا في حوض ماء زجاجي ، مضيت الى قبر الولي عبد العاطي .

— ٣ —

انني امد لك يدي ، ايها الشيخ التقي الميت ، من قاع هذا الصمت (وقاع تلك العتمة) التي لا يسبر غورها ، يا حبيب الله ، المعاد الى هذه الارض ثمرة متفجرة على الخشب . اخاطبك من وراء ظهر الحواس التي يخاطب بها الانسان قدره المكتوب له . مد لي يدك يا عبد العاطي ، يا عاطي ، وانشلني من هذا الصمت (والظلام) . انني اطلب منك الشفقة ، ايها الولي ، بعد ان رفضتها سنوات لا اذكر عددها . اركع قرب طينك المبتل ، ايها الولي ، واقول : انني تعبت . اصيح بين الجدران التي لا ترى ، في عالمي المعتم (الاصم) ، واهز بكفي الاعمدة التي ترفع السماء ، حيث تجلس مخبئا اجوبتك ، وأرجوك ، اتوسل اليك ، ابكي كل الدموع التي منحتها لي ، واعتصر ايماني حتى قراره المسكين : اطلب الفكاك من اسر الصمت (والظلام) ، اسالك يا ملك الصمت (والظلام) ان ترمي صولجانك على وجهي ، وتمنحني حصتي من هذا العالم . اسالك ان تكف عن منحي للعالم امثولة على سطوة الغيب التي لا تفسر . او خذني اليك يا عبد العاطي ، علقني معك على ذلك الجذع العالي ، لنسخر معا من ذل هذا العالم المنكفىء على نفسه ، العاجز المكبل المبصوق على وجهه . اخاطبك وحدي ، وجها لوجه ، من اعماق هذه البرية المتوحشة المهجورة ، واتحداك ان تجترح معجزتك ، ان تقول لي بان كوم الطين القديم يستطيع ان يكون اكثر جدوى من الحياة النابضة داخل صدري ، وفي عزوق كفي المشرعتين أمام وجهك . أول مرة اجيء وأمضي الى آخر مرة ، واذا كان ثمة في هذه الحياة من لا يستحق رؤيتها (ولا سماعها) فلتقل لي ذلك ، هنا والآن ، ايها الشيء الخرافي الذي يتدلى من السماء كخطاف . انني اعلق عليك عمري كما يعلق القميص ، واعلق عليك ايماني وكل المعاني التي تعودت ان استبدل بها الضوء (والصوت) ، وانتظر تحت سقف العتمة مثلما تنتظر انت تحت بلاطة الموت شموع المخدوعين .

— « هل قلت شيئا ؟ انني لا اسمع » .

— « لم اسمعك تأتي ، فانا رجل ضرير ، كما ترى ، جئت للولي اطلب البصر ، وما زلت انتظر » .

— « لا تتعب نفسك . انني رجل اصم ، لا اسمع ، ربما استطيع ان افهم حركة من يديك اكثر » .

فسألت : « لماذا انت هنا ؟ »

وجاء الصمت ، الذي صار علي ان اعتاده منذ هذه اللحظة ، وفجاة يصير همي وعبئي وهاجسي الفولاذية الاحكام ، ولكنه الاختبار الذي لا يخطىء ، فها نحن ذا غريبان

مخلوعان عن العالم مثلما يخلع المارد قضيبا عن شجرة ، يطل علينا عبد العاطي من فوق ، وسيطنا الوحيد المجهول القدرة .

وقلت له : «انني رجل ضرير» . واشرت بأصابعي نحو عينيّ ثم قاطعت كفيّ مفروشتين امامهما ، مثلما ينغلق مصراعا باب ، وسمعته يهمهم ، ثم قال : « فهمت » وخيم الصمت اثقل مما كان ، وبدا لي اطول مما توقعت ، وجاءت كلماته من ثم مثل شيء يعبر مسرعا دون ان يترك سوى صدى الحفيف : « واين يمكن لاصم واعمى ان يلتقيا الا هنا ؟ » ووضع كفه على كتفي وخيل الي انها التصقت بي الى الابد . « اين يمكن لاصم واعمى ان يلتقيا الا عند ضريح عبد العاطي ؟ » قلت لنفسي : « ومع ذلك ، فان العالم صغير » ورفعت كفي نحو السماء السوداء ، واشرت الى فوق . « هذا رأس عبد العاطي ، وانت لا تستطيع ان تراه ، هو نفسه الذي رأيته في الصورة ، هو نفسه الذي يجترح المعجزات ، وهو الذي سيعيد اليك بصرك ، ولكنك لا تراه الان » وضحك ، فرن في البرية صوت يشبه افراغ قربة ماء . « ليس اجن منك الا انا ، نبحث في كوم الطين عن كنز مسروق ، ورأس عبد العاطي يضحك علينا ، لا انت تراه ولا انا اسمعه » وخبط كفه على كتفي فبدونا صديقين عتيقين نتبادل حواسنا على صورة فريدة . ولا شك في انني ضحكت عند ذاك ، اذ انه ضحك بدوره مرة اخرى بعد ان كان قد توقف ، وسأل : « اتريد أن تراه ؟ » ودار حولي : « أعني أن تلمسه » ، ومضى عني الى قرب الشجرة ثم عاد الي . « لو رفعتك على كتفي فستصل بكفيك اليه وهو معلق على الجذع ، تستطيع أن تلمسه وتتعرف اليه ، لا احد هنا يرانا » وصمت ثم مضى « ... ليرانا ويضحك علينا ، هيا ! » وشدني من كمي الى الامام ، وجعلني اتحسس جذع الشجرة ، ثم اخذ العكاز «وضعت عكازك على قبر عبد العاطي ، سيحافظ عليها جيدا» وضحك مرة اخرى مصدرا صوت قربة تفرغ من مائها ، ويبدو انه ركع على الارض اذ صرت اسمعه من تحت ، وثبت احدى قدمي على كتفه وامسك بكلتا كفي : « ارفع قدمك الاخرى » . تركت نعلي ينزلق وسحبت قدمي ببطء على ملمس من ظهره ،وشعرت بعضلات كتفيه مشدودة ومفروشة تحت قميصه كأسنان مشط عريض ، وبدا يقف حين وجدت قدماي مكانهما على كتفيه ، يرتج قليلا تحت ثقلي ولكن دون ان يبدو انه سيفقد توازنه ابدا ، وعندما انتصب تماما ترك كفي فتمسكت بجذع الشجرة ، وتركتهما ينطلقان الى فوق كأنما من تلقائهما ، يتحسسان الخشب الخشن واسمع حفيفهما . كنت ارتجف قليلا ، ولست ادري ان كنت خائفا او متوجسا او قلقا ، وربما كنت مستثارا فقط . « وجدته ؟ » كأنت احدى كفي قد وصلت الى منبت الغصن الثخين المنطلق من الجذع ، ومضيت معه ببطء « الى يسارك قليلا » وفجأة اصطدمت يدي بشيء طري . « هذا هو عبد العاطي ، هل له اذنان ؟ » وضحك وهو واقف هناك .

لا بد ان يكون ذلك الذي لمسته هو الرقبة . كان شيئا طريا ولكنه اكثر نشافا من اللحم . شيئا بين اللحم والثمر . هذه الذقن ، ملتصقة من جهة بالعنق ومن جهة اخرى بخشب الغصن ، وفوقها انبساط صغير ، هنا ينبغي ان تكون الشفتان ، ولكن لا يوجد اي شيء . ثمة نتوء يكاد يكون مستديرا الى الاعلى . هذا الانف ، ثم تلمست الخدين اللذين كانا خشنين قليلا ، وببطء بحثت فوقهما عن العينين ، ولكنني لامست سقف المحجر . لا توجد عينان ، والى فوق جاء نتوء الجبهة مندفعا الى الخارج اكثر من المعتاد ، وتأتي الجبهة منبسطة عالية ، وبدت لاصابعي وكأنها لن تنتهي ، وعدت فوق استدارة الرأس اتحسس الصدغ ، لا توجد اذنان . وكانت اصابعي تقول انه رأس غريب وغير ودود . عنق ثخين قصير وذقن عريضة تكاد تكون مربعة ، وانف مستدير وبارز ، وخدان قصيران وجبهة عالية ناتئة اكثر من المعتاد ، وعدت اتحسسه من جديد، بجمع راحتي كله ، اضغط عليه قليلا ، واعتصر ندواته برفق . اي رأس هذا بلا عينين

وبلا فم وبلا اذنين ؟ ومن تحت سمعته يقول : « هـل استغرقتمـا في الحديث ؟ كدت أتعب ... ماذا قال ؟ » واخذ يضحك ، وبدأت كتفاه تهتزان . ولست أدري كيف قلت له هامسا ، دون ان اعي : « انه فطر ، مجرد ثمرة فطر . فطر . » ثم ادركت انـه لا يسمع ، فصحت بصوت عـال : « انه فطر . فطر » . وسمعته يسأل : « هـل قلت شيئا ؟ وصحت بكل قدرتي : « فطر » وراق لي صوتي يرتد الي في البرية وكأنه صراخ آلاف من الناس المختبئين تحت الحجارة ووراء الأشجار : « فطر .. مجرد ثمرة فطر ! الا تسمع بعد ؟ فطر » واشتبكت الاصوات حتى ملأتني ، قادمة من كل مكان تحت سقف العتمة الواطىء ، وبدأ هو يغوص الى تحت ، وشعرت بانني اهوي الى القاع ببطء ، ولكن بصورة نهائية . وكنت ما زلت اقول « فطر .. فطر .! » حين انزلني عن كتفيه . « ماذا تقول ؟ » واخذت أصرخ نافضا ذراعي حولي : « انه فطر ، راس عبد العاطي مجرد ثمرة فطر طلعت هناك بالصدفة » وشعرت به يقتـرب مني ، وأدركت انه لـم يسمع ، ابعدته من امامي وتقدمت الى جـذع الشجرة . كنت متيقنا ان الشجرة التي تنبت فطرا على غصنها تنبته ايضا في كعب جذعها . بحثت بيدي في اسفـل الجذع ، ومن بين الحشائش النامية حوله عثرت على واحدة تشبه التفاحة الصغيرة . انتزعتها ، ودفعتها اليه ، مشيرا بيدي الى فوق حيث كان الرأس مـا زال معلقا . وخيم الصمت الثقيل مرة أخرى ، وكما توقعت ، جاءت ضحكته التي لا تنسى : « هذا هـو اذن ! » وضحك مرة اخرى ، واخذ يضرب على كتفي بكفه القوية . « يسمونه ايضا فقعـا » وسكت . « سأظل كل عمري اضحك على نفسي كلما اتذكر انني جئت اطلب من حية فقع ان تعطيني اذنين اسمع بهما ! » وتابع « وانت أيضا ! » ثـم لا شك انه تطلع الى فوق : « اهكذا تضحك علينا يا عبد العاطي ؟ » ومشى الى الامام قليلا ، ثم عاد وكأنه تذكر شيئا ، ناولني العكاز ، وأمسك بيدي . « هيا بنا نعود » . وبعد ثلاث خطـوات فقط وقف مرة اخرى وقال : « اسمي ابو قيس ، ما اسمك ؟ » قلت لـه « عامـر » ولكنه لم يسمع ، ولو سمع لما كان لذلك اية أهمية ، ولما كان جديرا بأن يعني شيئا ، وقال : « سأسميك عبد العاطي ، مباركة لهـذه الذكرى » وضحـك ، ولم يسمعني اضحك ، فيما اخذنا نخطو معا في قلب العتمة والصمت .

— ٤ —

كان اول ما قاله حمدان حين جاء بفرش الخبز الاول ، في الصباح :

ـ « كنت اعرف جيدا انك ستذهب لضريح الولي ، وقد أنتظرت في الخارج حتى رأيتك تمضي » .

وسألته : ـ « لماذا لم تتعقبني الى هناك ؟ » .

ـ « لانني اردتك ان تصفو وحدك مـع الولي . لعل لدي من الخطايـا ما يمنع وقوع المعجزة في دائرة قطرها ميل » قلت ، بما يشبه الهمس : « ولم تقع اية معجزة » .

ـ « ربما لانك لم تكن صافي النية ، ذلك يحتاج الى ايمان عميق وحقيقي ، والى صبر ومثابرة .. اتحسب ان الامر يحدث بهذه السرعة ؟ » .

وعددت خمسة ارغفة لزبون ، وانزلت الثمن في الدرج ، ولم اقل شيئا . ايمكن ان تكون ثمة نية اصفى من نية رجل يريد البصر لعينيه ، ايمكن ان يكون هناك ايمان اكثر عمقا من ايمان رجل يتوق للخروج من العتمة ؟ الصبر والمثابرة ! اية عملة غير رائجة في حبس الليل الابدي ! لست استطيع ان اكسب من الضوء والبصر اكثـر من حصتي ، وكـل لحظة تمضي وانا في هذا الليل الرهيب خسارة لا تعوض ، ليست ابـدا رصيدا للحظة آتية ، ليست صبرا ، ولكن كيف يمكن لحمدان ان يعرف ؟

ـ « قراوا لي اليوم في الجريدة ان امراة لم تنجب طوال عشرة اعوام ، انفك عنها الرصد ببركة الولي عبد العاطي ، وحملت . جاؤوا بها الى الجريدة وصوروها ، وها هي صورتها ، لها جديلة طويلة ، وهي تضحك » .

قلت :

ـ « خانت زوجها » .

ـ « استغفر الله ! انت لا تطاق » .

ـ « شيخك ليس الا كتلة من الفطر » .

ـ « اعوذ بالله . . . لا اريد ان اسمعك » .

وعاد ، يدب بخطواته الحافية ، الى الفرن ليخبز دفعة جديدة ، فيما كنت احس بانني تغيرت بصورة لا استطيع ان اتجاهلها لحظة واحدة . ما الذي حدث ؟ شيء ما انكسر في اعماقي بلا ريب ، وقد حدث ذلك بسرعة ، وكأنما على الرغم مني . ربما صارت الامور امامي اكثر قسوة ، ولكنها بلا شك اكثر وضوحا وصفاء . وكان ذلك يبتعث في راحة غريبة ومفاجئة ، واخذت اتساءل ان كان الشيء ذاته قد حدث لابي قيس ، وكنت ما زلت اسمع ضحكته مثل قرقرة قربة ماء ، واحس كفه القوية تخبط على كتفي . آه ايها الليل ، يا ملك المعجزات الحقيقي ! . ان كان هناك ما هو معجز في قبر الطين فهو انه يجتذب الخاسرين ، وحوله يكتشفون شراكتهم في هذا العمر المحطم ، ثم يمضون تاركينه وراء ظهورهم وكأنه لم يكن . اكان من الممكن ، ابدا ، ان اكتشف الولي على تلك الصورة الفريدة ؟ ان نقتحمه معا ، من خلال العتم والصمت ، ونسبر غوره حتى القرار؟ أكان حتما علينا يا ابا قيس ان نزحف كأثواب مهترئة يجررها حبل من الغيب ، لننشر ذلنا وكساحنا امام فقاعة فطر ؟ عددت ثلاثة ارغفة ووضعت ثمنها في الدرج فخشت مصدرة صليل قيد ، ووراء ظهري اصطفقت ارغفة العجين على بلاط الفرن حين قذفها حمدان ، واخذت النار تهرج مثل ريح حبيسة . كنت احسب ان المعجزات تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف ، نعلق عليه اعمارنا كما تعلق القمصان ، ولكن اصابعي ما زالت تغوص في ذلك الخشب الطري الذي انبثق في غور العتمة ، ثمرة من الطيش وقنديلا مطفأ في ليالي البائسين المسحوقين المنكفئين على وجوههم واللاعقين جراحهم بالسكاكين . أما هي فقد خانت زوجها ، وعلقت عارها على مشجب الولي النائم الى الابد تحت قبضة طين لم تعد تصلح الا ليتكيء عليها عكاز رجل اعمى . عددت رغيفين واسقطت ثمنهما في الدرج ، وخفت صوت النار ، فيما اخذ حمدان يغسل كفيه . وجاءت خطوات ابي قيس ، وانتابني فرح صغير لانني تعرفت الى صوتها ، وقال : « كيف أنت اليوم يا عبد العاطي ؟ » ووراءي كفت يدا حمدان عن الاغتسال هنيهة ، فلا شك ان التسمية حيرته ، وجاء الصمت مثلما يجيء الاستفهام ، ليوقف تدفق الامور لحظة ، ويعيد ترتيبها من جديد . « جئت اسألك ان كنت تريد الذهاب مرة اخرى الليلة » انه يرفع صوته قليلا فيبدو وكأنه يخاطب رجلا يقف على بعد منه . وهززت راسي مجتارا متسائلا وانا ارد عن وجهي ضحكة كانت تتسلقه من الداخل . وعاد يقول : « نذهب هذه المرة لنعترف بفضله ، لقد اجترح المعجزة » . عددت ستة ارغفة ، وتركت ثمنها يسقط قطعة بطيئة وراء قطعة بطيئة في الدرج ، ولا شك ان ابا قيس لم يكن ليسمع اصواتها وهي تصطدم بالقطع المعدنية الاخرى . وتصورت للحظة كيف ستبدو له وكأنها تسقط في حفرة بلا قرار ، وتظل تهوي في الفراغ الى الابد : « لقد اجترح المعجزة ، وهي معجزة غريبة حقا » وأدرت وجهي نحوه ، فهمس « سألت عنك اليوم » . كان شيء ما يولد في تلك المسافة المتوترة والممتدة بين عالمينا ، وانا استشعر ذلك بصورة لا يمكن تفسيرها ، ومضى : « قالوا لي انك من طيرة حيفا » وسكت قليلا : « وانا ايضا من طيرة حيفا » . اسقطت قطعة النقد الاخيرة من بين اصابعي الى الدرج ، فصدر رنين

كأنه صوت الدهشة « نلتقي بعد عشرين سنة ! » وضحك ، مصدرا ذلك الضجيج الصغير ، والودود : « اثنان من طيرة حيفا ، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع ! أليس ذلك معجزة يا عبد العاطي ؟ »

— ٥ —

الحياة ، وايقاعها الرتيب الذي له صوت التقوض ، خطوات العبث تضرب في تيه مجنون الى ابدي وابدك وآباد الاخرين . الصمت الذي له مذاق البئر المهجورة . العتم الذي له صوت النواح . هذه الجسور التي لم توجد قط ، لم تبن قط ، لم تكن قط ، بيني وبين العالم . انني انمو على الحائط الخارجي لهذا الكون ، أنمو مثل طحلب مقرف يشمئز من نفسه ويبحث دائما عن الزاوية وعن الظل . الصمت والعتم ، الصخب والضوء ، اي بديل لاي شيء ؟ الخسارة عدوي ، وكذلك الفجيعة ، وحين افتقد الضوء يضحي الصوت عبئا . حين اغطس في الصمت الابدي تصبح العينان هما ، ونحن انما نتمدد تحت مطرقة العالم ، بايقاعها الذي له صوت التقوض . الا يمكن ان يكون التاريخ كله حلم طفل احمق يعبث بالعاب اكثر تعدادا من ان تستطيع طاقته استيعابها ؟ يا للخاسرين حين يؤلبون على انفسهم الكون بحثا عن سلوى ! حين يعلقون اقدارهم على مخالب قدر لا يعرفون عنه شيئا كي يصير بوسعهم ان يتحملوا انفسهم ! يا لك يا عبد العاطي ، الحي والميت ، يا لكما من هذا العالم المجنون الذي لا يصدق ! ترى كيف ركبت ايها الولي عبد العاطي زورق الناس التعساء وعلمتهم ان العالم انما يصنع من وراء ظهورهم ؟ وان عليهم انتظار اقدارهم مثلما ينتظر صف من المصابين بالبرص شفاءهم امام عيادة طبيب لم يوجد قط ؟ وها انتذا تعود على جذع شجرة مثلما تنبت الاسطورة في وهم المهزومين ، تعطي تحت جبة التقوى للمرأة حظ ان تنتهك زوجها . وللدجال وراء دخان المعجزة حظ ان يتقدم متلصصا الى صف الامام في طابور المنسيين !.. وقد خلعت عنك قداستك ، سلبتك اسمك واعطيته لرجل حي ينبض بالبؤس الذي لا تستطيع انت شفاءه ، وهو لم ينبت على جذع شجرة ، ولكنه نبع مثلما يتفجر الصبح ، مثلما يسقط الشهب مطفأ من المجهول ليصير شيئا ، وهاءنذا جعلت عبد العاطي الولي عبد العاطي الرجل ، اراه يمشي ، واحس اصابعه على كتفي ، واشمه كائنا يقف الى جواري . اعدتك انسانا رغما عنك ، خلعتك عن وهمي مثلما يخلع الطفل ضرسه ، تخلصت منك ، هزمتك ، جعلتك قبضة من عتم الليل قذفت بها الى وهج نار ضروس .. كسرتك من تحت قبضتي عصا كنت اتوكأ عليها ، وصرفت عمري آملا منها ان تعطيني ما لا يعطى ، ولست اريدك بعد : لا درعا ولا زورقا ولا وعدا . اخلعك عن شجرتك ، عن عمرك ، عن معجزاتك كما يسترد العاري قميصه المعلق على خطاف يتدلى من السماء ... واقول لك ، لم يعد يوجد في جدار اوهامي مكان لمسمار جديد ، اعلق عليه وعدا بالاصوات التي لم اسمعها قط ، وقد خلقت لنفسي اذنين اسمع بهما العالم ، اما انت فلست الا حبة فقع ، سقطت بالصدفة في مستنقع الناس المهزومين ، ورأوا فيها جزيرة طافية من وعود ليس بالوسع تلمسها باليد ، ولا سماعها بالاذن ، ولا رؤيتها بالعين والاصابع ...

وانا ؟ لولا ابو قيس لما كان بوسعي ان اراك يا عبد العاطي . واذا كان العمى فخ الاخاديع فكذلك البصر ، ولقد تحسستك بالاصابع التي لا تخطىء ، في تلك اللحظة الفريدة التي ترتطم فيها اشياء الواقع باشياء الوهم وانني لاصفح عنك ، واغفر لك ، فماذا بوسعي ان افعل اكثر من ان اراك تغيب في الفضاء وتذوب مثلما يذوي حلم ؟ وهما كنت ووهما ولدت ووهما انتهيت ، وها انا استرد قدري واحس ملمسه الثقيل على كتفي ، مثلما كانت امي — بلا ريب — تحس جسدي معلقا على كتفها وهي تمضي بي ، انا ، قدرها الصغير والوحيد ، لتضعني بين ايدي اوهام العالم كله ، ولا تحصد الا

الخيبة ، ولا احصد الا العرق يتفصد عن جبهتها العالية ...

ولولا ابو قيس لما عرفت ، انا الاعمى ، كيف نلتقي اقدار البائسين تحت جبال الانتظار المهيض الجناح ، لولاه لما استطعت ان اراك ، يا عبد العاطي ، ولولاي لما استطاع ان يسمعك ... انما انت ثمرة طيش تنبت في رؤوس الكسحاء الذين يتعلمون ، بجرعات البؤس المر ، ان الحياة ليست سوى الانتظار ، ولولا اننا تقاسمنا الخيبة ، سمعا وبصرا ، لما ارتدت الي طيرة حيفا ، ولما التقيت فوق قبرك قدري ، ولما عثرت تحت رأسك على شريكي في هذه المرارة التي يكاد طعمها ان يقتلني اختناقا ، ولقد قادني المبصرون خارج طيرة حيفا ، وآن للعمي ان يتحركوا . ان الاشياء التي ترونها ليست هي ، وذات يوم سأشرح لكم ذلك كله ، والا لما كان بوسعكم ان تروا في ثمرة فطر نبيا صامتا يجترح المعجزات ، وانا الاعمى الذي اعرف ان المعجزة انما تجترح من القاع ، فالثمرة هي معجزة الجذور الضاربة في رحم الارض ، الضاربة في غور هذا البدن المقدس للتراب الذي ليس له ملامح ، وليس بوسع الفطر الا ان ينزلق على الجذوع الجوفاء ، ان يطل على الناس من فوق وان يخدعهم ، ولكنه ليس المعجزة ، وانا الان ربما لاول مرة ارى في الظلمة المحيطة بعيني حقيقة تتوهج بضوء لا قبل لاحد على احتماله ، واقبلك ايها العمى ، اتحداك ، واستطيع ان اسبر غورك ، واذا كان المبصرون يرون في الفطر نبيا ووليا يجترح المعجزات ، فانا الذي رأيت فيه ، باصابعي ، ثمرة من الطيش تنزلق على سفح احلامنا مثلما التفاحة تنبو وتنقرض ، ولقد اطرحتك ، ايها الولي ، واعطاني الرجل الاصم اسمك ، ولم يكن بوسعك ان تدافع عن هذا الذي بقي لك ، وتركتنا نمضي ، ونحن حين مضينا انما قتلناك ودفناك مرة اخرى ، بلا ضوء وبلا صوت ، وبالصمت الذي تستحقه !

— ٦ —

جاء حمدان فوقف ابو قيس واخذ يستعد ليمضي : « اسمع يا عبد العاطي ، نستطيع ان نأخذ فأسا ومنكوشا ونذهب الليلة الى هناك » .

قال حمدان : « أعوذ بالله » . الا ان ابا قيس لم يسمعه ، فمضى يقول : « لو قطعنا الشجرة ، ودفنا رأس الولي ، فلعلنا نسترد ابصارنا واسماعنا » . واخذ يضحك فيهز الطاولة امامي ، ويضرب بجمع كفه على ظهر حمدان الذي اخذ يدمدم حانقا ، وعاد ابو قيس يقول متجها بصوته الي : « ان ظهور الولي لم يجترح المعجزة ، فلعل غيابه يفعل .. أتأتي معنا يا ولد ؟ » وكنت اعرف أن حمدان سيفقد صبره ، فأخذ يتنهد بصوت مسموع ، ثم قال : « انتما كافران مارقان تستحقان العمى والطرش ، اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته فسيحكم عليكما بالمحق ، ويمسخكما » قلت له : « اذهب انت ، واطلب منه عقلا ، لعله يستجيب » فعاد يقول : « اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته اخذت على عاتقي ابلاغ الشرطة ، انني انذركما : سأبلغ الشرطة » قلت لنفسي : ها قد صار عند الولي جهاز شرطة ! وصاح ابو قيس بصوته الذي يشبه صوت رجل يتحدث من نافذة قطار في محطة صاخبة : « هذا الولد خائف ، اليس كذلك؟ ماذا كنت تقول يا ولد ؟ » ولكنه لم ينتظر الجواب ، بل مضى بخطواته الثقيلة الى خارج المخبز ، وعندما وصل الرصيف صاح : « سأراك فيما بعد يا عبد العاطي ، علينا ان نتحدث » .

وخيم صمت نخش فيه رائحة الوقد في الفرن ، وهو يغوص صوب الموت . وظل حمدان صامتا ويفوح في صمته طنين الندم ، مثلما يفوح كلما كان يشتط به الغيظ فيتحدث عن العمى الذي اصابني وكأنه عقاب . عددت ثلاثة ارغفة واسقطت ثمنها في الدرج واتجهت برأسي صوب حمدان احثه على الكلام ، فقال :

— لماذا يسميك عبد العاطي ؟

— لانه لم يسمع اسمي .

— لا . انه يتمسخر على الولي ، هذا الكافر .

— ربما . عندنا في الطيرة حين يموت عزيز ، حين يموت اب او جد او اخ ، نعطي الوليد الجديد اسمه ، وابو قيس من الطيرة كما سمعته يقول :

— وما علاقة هذا بذاك ؟

— لا شيء . ظننت ذلك . .

وامتد الصمت مرة اخرى بيننا . هذه المرة مثل جسر ، وليس مثل هوة ، كان حمدان محتارا قليلا ، ولكنه كان عازما على سبر غور ذلك الموقف المعقد الذي اقحم نفسه فيه، فقال :

— « هل تعتزمان حقا تخريب قبر الولي وشجرته ؟ »

وفجأة اخذت كفاي تنضحان عرقا ، ولاول مرة في حياتي لاحظت ان العرق يملأ راحتي يدي كلما تحدثت أو تحدث احد امامي عن ولي . لعله التوتر . لعله انبثاق أمل هش ليس بالوسع امساكه باليد . لعلها الخيبة المحزنة . اخذت افرك راحتي يدي على صدري ، وقال حمدان :

— « ان ليس من اجلك ومن اجل الناس فمن اجل المرحومة امك ، هذه المرأة الصالحة التي عرفت قبور جميع الاولياء . من أجلها انس تلك الفكرة الحمقاء ، ما الذي تستفيده من تخريب قبر الولي وشجرته ؟ ثم ان الشرطة . . . »

— « لقد عرفت المرحومة امي قبور كل الاولياء . صحيح ، ولكنها لم تعرف فيها الا الخيبة . . »

— « ومع ذلك لم تفقد ايمانها ، انت قلت لي . قلت لي انها كانت تحملك على كتفيها وتمشي ، وكانت . . »

وكنت انا اقيس المسافة بتلمس العرق الذي كان يتفصد من جبهتها المجهدة ، واحيانا كانت تتملق كفاي الصغيرتان فاحس وجهها كله ينضح بالعرق وبالدموع معا ، لو كان البؤس بذارا لنبت في شقوق وجهها شوكه الضاري من فرط ما سقتها بالعرق وبالدموع، ولكنها لم تفقد ايمانها ، هذا صحيح ، لم تفقد ايمانها ، وماتت فيه ، وها هو ذا بالنسبة لي يموت معها .

رفعت راحتي يدي في وجه حمدان ، وكانتا ما تزالان تنضحان عرقا :

— « اسمع يا حمدان . أتعرف لماذا تمتلىء راحتا يدي بالعرق كلما جاءت سيرة ولي ؟ الان عرفت ، وكنت اجهل ذلك من قبل . وسأقول لك : لان هذا العرق هو العرق الذي سقاهما من جبهة امي ، سنة وراء سنة وميلا وراء ميل في طرق لا نهاية لها . كلما كانوا يقولون لها : « هناك قبر ولي » كانت تحملني ، وكنت اتعلق بالعرق المنساح على وجهها ذهابا وبالدموع البائسة الكسيحة ونحن في طريق الاياب . ها هما كفاي ينضحان ذلك العرق كلما سمعت اسم ولي . ذلك هو كل ما اورثته لي امي المرحومة » .

الا ان حمدان لم يكن يكترث . كان كل ما يهمه هو ان يعرف فيما اذا كنا ننوي حقا هدم قبر الولي وقطع شجرته ، فعاد يسأل :

— هل ستذهب مع ذلك الاطرش الكريه ؟

ولكنني لم اكن لاعرف ، لقد عرفت فقط ان شيئا ما في داخلي ، مثل جسر يستند عليه

بناء ، قد انكسر . وسوف يتقوض شيء ما في لحظة ما ، وكان يتعين علي أن أترقب ذلك دون ايقافه — لانني لا اريد — ودون الاسراع بحدوثه — لانني لا استطيع .

— ٧ —

وصلت الى مكتبي في مركز توزيع الاعاشة في وكالة الغوث ، كنت قد تأخرت ، ولاحظت ذلك على الوجوه الجامدة لزملائي الذين كانوا بالانتظار . بدأت رائحة غبار الفول ورائحة السمن والحليب المجفف تختلط وسط بحيرة الصمت التي اعيش فيها .

جلست ، ونظرت الى طاولتي . ثمة شيء قد تغير في داخلي . كان احد الموظفين يتحدث الي ، وكنت اشعر بذلك ، الا انني اصطنعت عدم الانتباه . احيانا يكون الصمم درعا في وجه التفاهة .

قلت لنفسي : « الله الله يا عبد العاطي ! سقا الله ايام الطيرة .. » ثم وجدت انه لا سبب يمنعني من رفع صوتي ، فذلك طراز فريد من الحوار ، خصوصا عندما يكون المرء مثلي الان ، غير مكترث بما سيقوله الاخرون .

قلت ، غير متجه الى احد على وجه التعيين : « ذهبت امس الى قبر الولي ، وقلت له : يا سيدنا الولي اريد ان ترد لي سمعي ، فانا اطرش .. اتعرفون ماذا قال ؟ » وانتظرت قليلا ، لا شك ان واحدا منهم سأل : « ماذا قال ؟ » فمضيت ! « لم اسمع ما قال . فانا اطرش ! ها ها ها ! » .

فتحت الدروج واخرجت هذه القوائم الطويلة من الاسماء التي علكتها اصابعي دون صوت شهرا وراء شهر ، وكانت الاسماء متشابهة ، تصطف مثلما تقف باصات الحكومة في الكراج . احيانا نشطب اسما ونقول : « مات . يا حرام . في السماء لا يوزعون اعاشة ! » . وكل يوم نسجل اسماء جديدة لاطفال يولدون ، ونقول : « بزر جديد ، اللاجئون الذين اضاعوا التراب يحرثون ويزرعون الفراش ! » وهذا الصف الطويل من البشر ، واقف مثل طريق مسفلت متعرج يمتد من عام ٤٨ الى عام ١٩٦٧ ، ليس فيه ثغرة واحدة . مثل الطرق الصحراوية في دول النفط ، كلما انفتحت فيها حفرة جاؤوا بالزفت ورقعوها . كلما سقط واحد من الصف ، ميتا من السل او فقر الدم او القهر او الشيخوخة او الهجرة او السجن جاؤوا بولد ولصقوه محله .

نظرت الى الموظفين ، الذين شرعوا ينصرفون الى عملهم ، وقلت : « اللاجئون مثل شارع طويل . طوله عشرون سنة .. ولكن هل تعرفون من الذي يمشي فوق هذا الطريق ؟ » نظروا الي ، وقال احدهم شيئا فضحكوا ، وعدت اقول : « تمشي سيارات وباصات . كادلاك وفولكسفاكن . بسكليتات وكنادر ومداحل ، صنادل وحوافر ، جنازير دبابات وكلاب .. خصوصا يمشي على هذا الشارع الاولياء الصالحون . عبد العاطي مثلا .. »

وضرب مصطفى على الطاولة وقال شيئا لا شك انه شتيمة ، فقلت اهدىء خاطره : « لا تزعل .. ذات يوم سأحضر عبدالعاطي الى هنا .. لا ، لن يوزع الاعاشة معنا ، لا . الاولياء لا يوزعون اعاشة ، يوزعون وعودا ، نحن فقط نوزع اعاشة ! »

وعاد هو نفسه يرعد غاضبا . كان يحمل قلما عريض الرأس يستخدمه للشطب ، فكتب على ورقة كبيرة : « اخرس » .

وضعت كفي مفروشة فوق رأسي وقلت له : « حاضر يا سيد مصطفى ، سأخرس . انا اعرف ان الولي عبد العاطي قريبك . حماك . اليس هو والد زينة ؟ »

مزق الورقة حانقا ، واخذ باقي الموظفين يبتسمون وينظرون الى دفاترهم وكأنهم لم

يلحظوا شيئا ، هم الذين شرحوا لي ما حدث وأفهموني اياه يوما بعد يوم واشارة وراء اشارة . زينة ! لا شك انه حلف يومها بكل الاولياء الصالحين . جاءت المسكينة تصرخ وتبكي وتقول انهم شطبوا اسمين في اعاشتها لان اخبارية نقلها احد جواسيس الوكالة تقول انها تعمل خادمة وتحصل مئة ليرة كل شهر . ارملة مشحرة مات زوجها تحت حمولة شاحنة حصى حين افرغها السائق فوقه دون ان ينتبه . عندها اربعة أولاد ، وجاءت تولول عند مصطفى ، وتقول انها وأولادها سيموتون جوعا . كانت ما تزال شابة سمراء قوية . ووعد مصطفى أن يدبر المسألة . وبعد اسبوع عادت زينة تبكي وتولول : « وعدت انك ستعيد الاعاشتين فأعدت اعاشة واحدة فقط . لقد اقتسمت يومها ... » وأخذت تبكي وتضرب رأسها على الحائط وقالت أنها خدعت ، وأخذت تردد كلمات باكية : « اولادي . تعبي . عرضي .. عرضي ! عرضي ! عرضي ! » تعلقت هذه الكلمة في سقف المخزن، مثل ضوء اللوكس ، وأخذت تمطر علينا هياجا وعارا في آن واحد ، ولا شك انها ما تزال معلقة هناك وقد خفت اشعاعها مثلما يخفت ضوء اللوكس مع الوقت .. « عرضي » !. هكذا يا سيد مصطفى يتحول الخبز الى فراش . انت تريد الفراش وهي تريد الخبز . آه يا عكروت . لا شك انك اقسمت لها يومها بكل أولياء الارض ، الان وظفت نفسك عند الولي عبدالعاطي . الان صرت تدافع عن تلك الثمرة الطائشة من الفطر ! ترى هل وعدتها بالزواج ؟ سيد مصطفى . مصطفى افندي ؟

« اخرس » . مكتوبة بالحبر الاسود العريض من القلم المخصص لشطب الاسماء ، كأنما نستخدم هذا القلم العريض لنطمئن الى ان الاسم الذي نشطبه انما انشطب كليا وتماما فلا تقوم له قائمة من بعد . من يدري ؟ لعل مديرية الوكالة تحسب ان اللاجئين يولدون من جديد ، فلماذا يعثرون على اسمائهم بسهولة ؟ اننا نكتب الاسماء الجديدة بأقلام حبر رفيعة ، خجولة ، فلماذا نشطبها بذلك القلم الاسود الثخين الذي يستخدمونه لكتابة الاسماء على اكياس الخيش .

حملت القوائم ووقفت . نظرت الى الموظفين وقلت « لنبدأ بتوزيع اعاشة اليوم » . مضينا في صف الى المخزن يتقدمنا مصطفى الذي يحتفظ بالمفاتيح ، ووقف كل واحد في مكانه . انا قرب الباب المطل الى الخارج .

فتحت الباب فأخذت الاكف تلوح بدفاتر الاعاشة الحمراء وتتدافع وترتطم الاوانى ببعضها فلا تصدر صوتا . استغرقت في العمل ، وكانت يداي تنشطان : من البراميل الى الاكياس الى الميزان الى الدفاتر . فجأة حدث شيء غريب ، فقد اكتشفت لاول مرة انني انما اقرأ شفاه الناس الذين أمامي . افهم ماذا يقولون : « عدس . كوكوس . حليب . طحين . فول .. » آه يا عبد العاطي ! أتراك اجترحت المعجزة ؟ هراء . ملق حنك . ولكن الحقيقة هي انني كنت أقرأ شفاه الناس ، وأعرف ماذا يطلبون .. ما الذي حدث ؟ عملتها يا عبد العاطي يا ولي ؟ مستحيل ، فأنا ما زلت مصرا على ان احمل الفاس والمنكوش واذهب مع عبد العاطي لاهدم قبر الولي واقطع شجرته ..

وظلت الافواه تقول لعيني ، طوال ذلك اليوم : عدس ، حليب ، فول ، كوكوس ، تمر ، طحين ...

— ٨ —

كنا على وشك أن نغلق المخبز ، أنا وحمدان ، حين سمعت خطوات ابي قيس على الرصيف ، دخل فسلم وأخذ يتحسس الارغفة ويقلبها ، ثم اختار واحدا وناولني ثمنه وأخذ يلفه بورقة . دفعت نحوه كرسيا واطئا من القش فجلس ، وجاء حمدان من الداخل ، وقال :

— ها قد جاء ذلك الشقي الكافر .. هل تريدان الذهاب الى هناك ؟

ولم يسمع ابو قيس شيئا ، الا انه قال لي :

ـــ يبدو ان هذا الولد كثير الثرثرة .

ضحكت وهززت راسي موافقا ، واخذ حمدان يدمدم حانقا ، فقال ابو قيس :

ـــ لا تضيع وقتك . لماذا لا تذهب وتشتري لنا نص وقية جبنة ؟

قال حمدان :

ـــ لا . لن اتركك هنا وحدك مع عامر . لن اسمح لكما بالذهاب الى قبر الولي . سأظل هنا وسأظل أراقبكما .

وجاء الصمت ، الذي صرت معتادا عليه الآن ، والذي هو صوت الانتظار ، بكل ما فيه من ترقب يحبل بالجديد . صوت الولادة وهي تتدفق بسكون من قلب الفراغ ، مثل الارتطام الساكن لغيمتين متفقتين على موعد المطر ..

وبهدوء ، تماما مثلما يشرع المطر ، قال ابو قيس :

ـــ أتعرف يا عبد العاطي ؟ ظنت اليوم ان الولي قام بالمعجزة .

قلت لنفسي : امس قام بالمعجزة فعرّف واحدا من الطيرة على واحد من الطيرة بعد عشرين سنة ، اليوم قلت لنفسي : ها هو ذا جعلني اسمع على صورة فريدة ، لقد اكتشفت فجأة انني أفهم ما يقوله الناس وذلك بقراءة حركة شفاههم . ولكن أتدري ؟ هراء . طق حنك . في آخر النهار عرفت انني لا استطيع أن أقرأ من حركات الشفاه الا تلك الكلمات المحدودة : فول . عدس . حليب . كوكوس . طحين . تمر وغير ذلك من بضائع الاعاشة .. اما غيرها فلا شيء .. أتعرف لماذا ؟ لان هذا هو كل ما تعلمت أن أسمعه من عشرين سنة . كل يوم كل يوم كل يوم . لا معجزة ولا من يجترحونها . ذلك شيء مثل أن أتعرف في وجه الانسان على البكاء ، ذلك لا يحتاج الى سمع ، لا هو ولا تلك الكلمات المعولة ... يا لعفريت البؤس كم هو ذكي ! مثلما تتعرف أصابعك على الرغيف ، أنت الاعمى . دونما حاجة الى بصر ، أتعرّف أنا على تلك الكلمات التي ليست لغة ، والتي ترتسم على الوجه مثل الحزن او النعاس او الخيبة ... »

وعاد الصمت ، صوت الانتظار هذا ، الذي أحسه الآن اكثر من اي وقت مضى مترعا حتى حافته بولادة غامضة ، على وشك ان تنبثق في أية لحظة . أن هذا العالم يدور بسرعة مجنونة وتختلط اشياؤه في فوضى مروعة ما تلبث ان تنداح في حقائق متسقة . هذه اللغة التي يتحدث عنها ابو قيس ، لغة اللاجئين ، لغة البؤس التي لا يسمعها ، ولكنه يراها ، لغة البؤس التي لا أراها ، ولكنني أسمعها ، وغالبا أحسها ، تارة في رغيف الخبز ، وتارة حين تتفصد راحتا يدي بالعرق والدموع . اللغة التي لا يستطيع عبد العاطي لا سماعها ولا رؤيتها .

واخذ ابو قيس يضرب رغيف الخبز الذي يحمله على حافة الطاولة برفق ، غارقا في أفكاره ، ثم مضى يقول :

ـــ « اللغة عادة ، وقد تعودت أنا لغة الاعاشة ، وأنت تعودت لغة بيع الخبز . انني افهم لغة زينة جيدا ، ولغة مصطفى ، ولغة شارع الاسفلت الذي تسير عليه الاحذية والمداحل والدبابات والكلاب ، ترى لو تعودت لغة اخرى ، اما كنت أفهمها ؟ أعني لو انني عشت في جو آخر . اما كان لدي لغة اخرى ؟ »

ووقف ثم راح يتمشى في الممر الضيق الذي يفصل الفرن عن دكان البيع ، وجاء حمدان فوضع يده على كتفي ، وقال هامسا :

ـــ « لا تترك هذا الشيطان يضللك . اترك الولي بحاله ، ان المعجزات التي اجترحها

تكاد لا تحصى ، سيقطعك الناس اربا » .

قلت له :

ـــ « هل ستذهب اليه الليلة ؟ لماذا لا تذهب يا حمدان ؟ اطلب منه ان يعطيك قميصا ، أن يعطيك حذاء تدخل به الى العيد . ان يعطيك أبا أنت الذي عشت عمرك بلا أب ، فاذا أعطاك سمعنا وصيتك ، واذا لم يعطك تنضم الينا » .

ـــ « أنتما كافران متساويان . هل يعني ذلك انك مصر على الذهاب لتخريب قبر الولي وقطع شجرته ؟ »

ـــ « لست أدري ، اسأله »

ـــ « ولكنه لا يسمع » .

ـــ « اكتب له السؤال .. »

ـــ « لا أعرف » .

ـــ « اذن اسكت » .

ـــ « لا . أريدك انت أن تجيب ، هل ستذهب ؟ »

أحسست بصدري يمتلىء فجأة بالهواء ، فنتهدت مرة ومرتين . كان ابو قيس قد كف عن التجوال الحائر فجلس على الكرسي الواطىء ومضى يزداد غوصا في صمته الفريد .

ـــ « هل ستفهم ؟ هل ستفهم لو قلت لك ؟ اذن اسمع : لا حاجة بعد لتخريب قبر الولي وقطع شجرته . ذلك عمل لا يريد شيئا ولا ينقص شيئا بالنسبة لي . الولي عبد العاطي مات ، انتهى ، خلص ، فاذا ذهبت ونكشت قبره وأحرقت شجرته فذلك مجرد احتفال ، مجرد احتفال ، وليس هذا هو المهم ، هل فهمت ؟ »

وفجأة قال ابو قيس كمن يكمل حديثا بينه وبين نفسه :

ـــ « وماذا سنفعل الآن يا عبد العاطي ؟ »

وأحسست بعينيه تفترسان وجهي ، مثلما أشعر أحيانا بأذني مشرعتين أمام أدنى طنين ، مثل فخ جيد الاخفاء تحت الحشائش ، الا انني لم أقل شيئا ، كانت كل الابواب في رأسي مغلقة ، ولم ينتظر ابو قيس طويلا ، فدمدم ساخرا :

ـــ « تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء » .

ومضى يضحك ، فأتذكر تلك الليلة الغريبة في البرية ، حين كان صوته الضاحك يشبه صوت افراغ قربة ماء ، يرتد صداه من خلف الاشجار وتحت الحجارة وأعماق التراب . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء . انه ينظر الآن ، بلا ريب ، نحو حمدان . أجل ، تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ؟ ولكن لا بد منها . ها هم الرجال يرفعون أعمارهم عن الخطاف المتدلي من السماء ويمضون ، يتلمسون بأصابعهم راس الولي المتفجر ثمرة على شجرة ويعتصرون نداوته فيجدونه ثمرة فقـــع بلا وعود . يلتقـــي المهزومون المكسورون المحزونون فوق البلاطة التي تنام تحتها المعجزة ، فلا يرون تحتها الا جثة الموت الجبان . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ، تنهار جسور الوهم وتتعفن الوعود ويتعين عليك أن تحمل قدرك .

ـــ ٩ ـــ

مضيت طوال الليلة التالية أحلم حلما قصيرا واحدا ، أصحو من أعماقه مذعورا ، ولكنه ما يلبث ان يعود فيتكرر وكأنه اعادة عرض لشريط مصور : كنت أرى نفسي متجها الى

مكتبي في وكالة الغوث ، وفجأة أجدني واقفا فوق اكياس الطحين، وباب المخزن مشقوق شقا رفيعا يدخل منه شعاع الشمس مثل نصل سكين ، وعبر هذا الشق ارى اكوام اللاجئين تغلي على امتداد البصر ، وأشرع وسط طنين لا مثيل له بالقاء خطاب ، ويختلط الامر فاذا بي أنظر من شق الباب الى زينة واقفة هناك تخطب وانا أحـــاول أن افهم صوتها الغاضب ، الا انها تنزل بين ذراعي مصطفى ، واعود فاخطب وقد استبد بي غضب يملأه الالم ، وتتحرك الجموع وتحطم باب المخزن ، وفجأة تمتلىء اذناي بأصوات ضجيج لا قبل لي باحتمالها ، وارى عبد العاطي وسط السيل يتدافع بالاكتاف ، واصحو .

وكنت أعرف ان الذهاب الى مكتبي في الوكالة ، صباح اليوم التالي ، سيكون مؤلما ، وان شيئا ما قد حدث في حياتي ، لا أستطيع تبينه على وجه الدقة . لقد حطمت شيئا وليس لدي ما أستعيض به . كنت أعرف انني لن أطيق ، بعد ، العمل في المكان الذي وضعوني فيه عشرين سنة ، ولكنني لم أكن لاعرف اين يتعين علي أن أتجه . ليست الحياة الا سلسلة تأخذ فيها الحلقة بيد الحلقة ، فاذا اكتشفت وليا أدخلت العالم تحت جبته ، واذا قتلته أخرجت العالم كله من هناك ، ولكن الى أين ؟

واخذت أتذكر الشيخ حسنين ، أمام الجامع في طيرة حيفا ، فقد كان جارنا ، وظل يشدد علي وعلى أبي حتى صرت اذهب الى الجامع ، ولكنني كنت أخفق في سماع خطاباته كل يوم جمعة، وذات يوم قلت له وهو يأخذ بيدي خارج المسجد : « لو كان يريدني أن أسمع خطبتك لأعطاني اذنين » ولفرط دهشتي ضحك الشيخ حسنين ضحكا شديدا ، وصار يتراخى في تشديده علي حتى تركت تقريبا عادة الذهاب الى المسجد ، ولكنني صرت أكثر اعتمادا على أبي ، وقد لاحظ الجميع ذلك الى حد كان يبعث في الالم ، وقد انضم الشيخ حسنين الى المجاهدين في الطيرة ، وكان منظر عمامته فوق البدلة الكاكية طريفا ، وبدت البندقية على كتفه وكأنها خدعة دينية ، لا اكثر . ولكنه في الحقيقة كان مقاتلا من الدرجة الاولى ، وكان دوره مهما الى أن استشهد ذات ليل ، واخفق الرجال في العثور على جثته من فرط ما كان متقدما على خطوط البلدة .

تذكرت الشيخ حسنين لانه عندما مات شعرت تقريبا بما أشعر به الآن . ذلك الفراغ المروع الذي يضعك على عتبة قرار جبان ، وقد فعلت ، اذ انني أخذت منذ ذلك الوقت انتظر المعجزة ، وحتى عندما وقعت الواقعة كنت أشعر في أعماقي بأن معجزة ما قد أنقذتني . وقد حدث الامر كله في لحظة صغيرة لا تكاد ذاكرتي تحصرها : يبدو انني لم أسمع أصوات الانفجارات ونحن نجلس أمام بيتنا في الطيرة ذلك المساء ، واندفع والدي وشقيقي وأمي عبر الطريق الى حيث يقوم الملجأ المرتجل ، وسقطت عليهم القنبلة وهم في منتصف المسافة ، اما أنا فكنت ما أزال جالسا في مكاني ، وانقذني الصمم ، وقلت لنفسي سنة وراء الاخرى ان المعجزة قد وقعت ، وأنني أدين بحياتي لعلة طالما شكوت منهـــا .

الآن ، لا فرار . لعل وجود عبد العاطي قد دفع القرار الى نهايته ، فتمزق كل شيء دفعة واحدة ، وليس ثمة الآن الا ذلك المفترق بين طريق الحياة وطريق الموت ، ذلك المفترق الذي تميزه فجأة ، والذي تكتشف انك أمضيت عمرك تراوح أمامه دون ان تتخذ قرارك ، ليس لانك لا تريد ، ولكن لانك غافل عن ضرورة ذلك .

القرار . القرار . القرار . ماذا أستطيع انا وعبد العاطي أن نفعل في وجه هذا العالم ؟ هل بقي لدينا ، بعد ، متسع من الوقت لنفعل شيئا ؟ أم تراه بقي متسع من الوقت لكي نعود فنمزق صفحة عبد العاطي الولي من حياتنا وننساها ونعود الى أمكنتنـــا وكأن الزلزال لم يقع ؟

ولكن قدمي ساقتاني ، دون أن أعي ، الى مكتبي في وكالة الغوث . دخلت وسلمت

وجلست الى طاولتي . اخرجت القوائم ، وراحت الاسماء المتشابهة تمتد امام بصري مثل طريق لا نهاية له ، وبدت لي فجأة سلسلة من القيود التي تكبلني وتحول دوني ودون ان اتحرك . خطر لي ان استل القلم الاسود العريض وامضي اشطبها واحدا وراء الآخر ، أو اختار اسماء بعينها فأشطبها ، ولكنني استبعدت ذلك ، واخذت انظر الى المخزن عبر الباب نصف المفتوح ، حيث كنت اقف في حلمي واخطب بصوت مجلجل ، وخيل الي ان الباب الكبير للمخزن سيتحطم تحت قبضة الجموع في لحظة واحدة ، وان اللاجئين سيتقدمون صفا وراء صف مثل سيل لا يكف عن الهدير ، وان اصواتهم الغاضبة ستحطم ، فيما ستحطمه ، بوابات الصمت المغلقة في اذني . سيحدث ذلك . هذه اللحظة . هذه اللحظة . وقفت واستندت على الطاولة واخذت احدق ببوابة المخزن . هذه اللحظة . الدوي سيتفجر الآن . الآن . الآن . فجأة استبدت بي استثارة لم اعشها في حياتي ، وشعرت انني ارتجف بلا هوادة وكادت عيناي تنفجران وانا اصوب نظري الى ذلك الباب المغلق . كأنه باب الصمم . باب الموت . باب القدر الذي لا يهزم والذي يوشك في اللحظة التالية ان يتقوض . كنت في قرارة نفسي متيقنا من انه سيتحطم امام الاكتاف المتكدسة وراءه لصف من اللاجئين طوله عشرون سنة مرة . سيتحطم في اية لحظة . فجأة ضاع ذلك الحد الذي يفصل بين الحلم وبين الحقيقة وامتزج كل شيء ، ورايت بعين الحقيقة ما رايته ليلة أمس مئة مرة بعين الحلم . انهم يجمعون ارادتهم في اكتافهم وراء هذا الباب ، يكورون قبضاتهم فتصبح مثل الصخور المحيطة بصفد ، ويستعدون . هذه اللحظة . هذه اللحظة . الآن . الآن . الآن .

ولكن غور الصمت اصبح اشد عمقا ، وظل ، كما كان دائما ، يخيم على كل شيء ، نظرت حوالي ورايت في عيون الموظفين نظرات الدهشة المليئة بالخشية تنصب عليّ من كل جانب ، وكان مصطفى يبتسم ابتسامة لا تكاد ترى . تنهدت ، وفككت التوتر من قبضتي يدي اللتين كانتا ما تزالان مكورتين فوق خشب الطاولة ، وعدت فجلست .

بذلت جهدا كي لا انظر مرة اخرى الى ذلك الباب الكبير المغلق ، الصامت ، الذي يشبه شاهدة ضريح . ثم قلت لنفسي : « ها انت مرة اخرى يا ابا قيس تتوقع معجزة . لا . ان الامور يا حبيبي لا تحدث كذلك . . الله عليك شو خفيف ! »

— ١٠ —

نمت في غرفة الفرن ، فوق فرش الخبز ، وقبل ان اغفو سمعت خطوات حمدان الخافتة تتجه الى الباب ، حيث مد فراشه ونام . قلت لنفسي : « انه ينام امام الباب كي يصحو اذا ما حاولت الخروج . لقد وجد لنفسه اخيرا عملا مفيدا يرضي ضميره . عين نفسه دركيا لحراسة الولي !. آه كم يحتوي كيس البؤس من الاخاديع ! انه يشبه نبعا لا تنضب مياهه . . » .

وبدا لي حمدان ، بجسده الضئيل وطيبته وتصميمه ، سدا يشبه جدارا من الصخر ، يقف امامي وامام ابي قيس ، وانه ، على صغره ، يحجب من امام اعيننا امتداد الطريق الذي ضيعناه . اخذت اسمع تنفسه الثقيل ، تنفس رجل اعتصر عضلاته طوال النهار بالعمل المضني ، وهو يغطس في عالم النوم كما يغطس رجل في العمى او رجل في الصمم ، وكان نومه هناك تمثيلا طريفا لواقع احسه احساسا صميميا : فقد كان فعلا يغلق الباب بجسده القوي ، ويعرقل امامي طريق الخروج ، لو شئت ان اخرج ، وبدا لي ان اختياره العفوي هذا ليس في الحقيقة الا تجسيدا عابرا لدوره في حياتي .

ولم اكن اعرف من حمدان الا صوته ، وهو صوت فتى عقد عزمه وقر رايه وملأ نفسه بقناعات صغيرة ولكنها متراكمة في كل جسده . كانت زحزحته مستحيلة ، وكان الحوار معه اكثر صعوبة . ففي عالم مرتب على تلك الصورة التي في راس حمدان يستحيل

العبث بالاشياء الموضوعة ، منذ الولادة ، على رفوف الذاكرة ، نائمـــة تحت الغبار والقبول والاستسلام الكلي .

ولست اعرف على وجه التحديد من اين اتى ، وما الذي انتهى به الى هذا الفرن . وكان هو ضنينا في الحديث عن ماضيه ، ولكنني علمت ، مثلما يجمع الانسان شظايا صحن زجاجي محطم ، انه لم يذهب الى المدرسة الا اياما قليلة ، وقد تزوجت امه بعد شهور من ذهاب والده للسجن ، واذاقه زوج امه مر العيش ، فقد كان فقيرا ، وفظا وشرها ، وحين وجد في طريقه طفلا مستسلما مستعدا للقبول ، اخذت شراسته تشتد ضراوة .

وقد لجأ الى اماكن عديدة الى ان انتهى به الامر الى هذا الفرن منذ عشر سنوات تقريبا . ونحن ما زلنا منذ ذاك نعيش معا ، ونشكل ثنائيا غريبا فاقت شهرته حدود الحي الذي يقوم فيه الفرن . كان جسده قد أضحى قويا بلا حدود ، وصار مضربا للمثل في البأس والشدة ، الا انه لم يستخدم قط تلك القوة الهائلة النائمة في ساعديه واكتافه لتحقيق اي نوع من انواع العنف ضد اي كان ، لقد كان فعلا على قناعة عميقة بأن أمور هذا العالم لا تحتاج الى تقويم ، وان القوة في جسد الرجل ليست الا رفاها اضافيا يمكن الاستغناء عنه ، وانه اذا ما اعترضت حياة الانسان معضلة ما فلا سبيل لزحزحتها الا بالمعجزة ، وليس بقوة العناد او بعناد القوة .

ومنذ عشر سنوات وانا انظر الى العالم بعيني حمدان ، ومع ذلك فانني لم أستطع ان ارى شيئا حقا ، كان العالم بالنسبة لعينيه منبسطا كأنه مرسوم على بلاطة وكان يرى الاشياء والناس على صورة فريدة من البساطة والآلية ، وفي أحيان كثيرة كانت رؤيته تشكل في ذهني جدارا او بابا بيني وبين الحقيقة في شكلها الأكثر صفاء ، تماما كما هو نائم الآن امام الباب .

ومنذ ايام قليلة وانا أحس ذلك أكثر من اي وقت مضى ، واكاد ارى في حمدان قيدا يزداد ثقله ، ومع ذلك لا غنى عنه بالنسبة لي ، انا الذي ادرك كيف تحول خلال عشر سنوات الى جزء لا يتفكك من حواسي ، وتحولت في هذه السنوات العشر الى جزء ثابت في عالمه ، والى رف كبير داخل رأسه ، يضع عليه أشياء الذاكرة ، وصور العالم ، المدفونة تحت غبار لا يريد مسه .

— ١١ —

كان يوم جمعة ، عطلتي من العمل في مكتب توزيع الاعاشة في وكالة الغوث . ومع ذلك صحوت باكرا على غير عادتي في أيام العطل ، ولما شعرت بأنني نهب للحيرة والضجـــر والافكار المتناقضة ، مضيت أزور عبد العاطي .

وقد وصلت الى الرصيف المقابل للفرن في ساعة مبكرة جدا ، وكان النهار ما زال محتفظا بطعم النوم ، وغير قادر بعد على ان يكون حقيقيا تماما ، كأنه لم يسحب نفسه بصورة كاملة من عالم الاحلام الصامت . ولعل ذلك بالذات ما جعلني أرى ما رأيت على تلك الصورة المدهشة : فقد كنت اعتزم عبور الشارع الى الفرن عندما لاح لي عبد العاطي واقفا قرب الواجهة . كان ما يزال لابسا ثوبه الليلي الابيض ، وكان يزن خبزا لزبون لم يكن بوسعي أن أراه من مكاني ، وهكذا فقد كان واقفا بطول قامته وذراعه امامـــه ترفع عصا الميزان النحاسي ذي الكفتين المربوطتين اليها بالسلاسل وهو يقوم بوزن الخبز وقد وضع تحت ابط ذراعه الاخرى عدة ارغفة اضافية ، فيما مضى يتجه بعينيه الضريرتين الى الامام مثلما يفعل العميان حينما ينصرفون الى تركيـــز وعي حواسهم الاخرى .

كان الصباح المتلىء بجو الليل يخيم على الطريق ، والمرن من الداخل ما يزال مظلما تقريبا ، وهكذا فقد بدا عبد العاطي الواقف قرب الباب بثوبه الابيض الطويل وكأنه

يتوهج بنور خاص ، يمد ذراعه بخط مستقيم وهو يرفع حلقة الميزان ويصوب رأسه الى الامام كأنه ينظر الى آفاق لا يراها غيره ، ويضع تحت ابطه عدة ارغفة ، فأراه مثل تمثال من الرخام المتوقد بالحياة .

وقفت انظر اليه عبر الطريق ، ولا ريب انني كنت مأخوذا تماما ، اذ لاحظت ان احد المارين اخذ يحدق الي ، ثم نظر الى حيث كنت انظر الا انه لم يجد على باب ذلك الفرن ما يستحق الانتباه ، فعاد ينظر الي مدهوشا ، وقال شيئا ثم مضى .

عبرت الشارع وكأنني مسحوب بخيوط غير مرئية الى حيث يقف عبد العاطي ، وحين وصلت قربه شاهدت الزبون الذي كان يزن الخبز له ، كان ولدا صغيرا حجبه أحد أعمدة الواجهة عن نظري حين كنت على الطرف الآخر من الطريق ، اما عبد العاطي فقد كان يوشك ان يضع الميزان جانبا ، وظننت انه لم يشعر بمقدمي اذ وقفت بلا حراك اشرب بعيني المزيد من ذلك المشهد الذي ظننت انه غير حقيقي تماما .

في اللحظة التالية وجه عبدالعاطي رأسه نحوي وابتسم ، فعرفت انه أحس بمقدمي ، فقلت له :

ـــ لا تتحرك . ابق واقفا لحظة واحدة اخرى ... انك تبدو مثل تمثال قديم .. تمثال العدالة . تلك المرأة التي تحمل ميزانا وسيفا ، ويبدو لي رغيف الخبز تحت ابطك اكثر معنى من ذلك السيف الذي تحمله امرأة معصوبة العينين ...

ونظر الطفل نحوي ، ثم عاد ينظر الى عبد العاطي الذي ظل واقفا دون حراك ودون ان يرتسم على وجهه أي تعبير ، ولم أسمع ما قاله الطفل لعبد العاطي الذي رد عليه مبتسما ، ثم جاء الولد يدب من الداخل ويتصبب العرق على وجهه من حرارة الوقد الذي كان يحشوه في بيت النار . كان عاريا فوق سرواله الابيض المتسخ ، وكانت عضلات صدره وكتفيه تبدو متسقة وجميلة وقوية دون حدود . نظر الي بامتعاض ، ولم أستطع معرفة ما اذا كان قد حيا أو شتم ، فظللت صامتا .

كان يتجه الى الطاولة يبحث عن شيء ما ، فتح الادراج وعاد فأغلقها ، ورفع الصحف والاكياس ونظر وراء الواح الخشب ، واخيرا مد يده خلف احد تلك الالواح وتناول من هناك سكينا كبيرة طويلة النصل من ذلك النوع الذي يستخدمونه لتقطيع العجين، وخطا عائدا الى الفرن ..

الا انه بعد خطوتين اثنتين عاد أدراجه ، وأخذ ينظر الى عبد العاطي واقفا هناك ، ما يزال ، جامدا . أمسكه من ذراعه بقبضته القوية وقاده بحنان لا مثيل له الى حيث اعتاد ان يجلس ، ثم اخذ الميزان من كفه وأعطى الخبز للطفل وقال شيئا دون ان ينظر الى أحد ، وعاد أدراجه الى الداخل .

وفي لحظة صغيرة ، تكاد لا تحس ، تقاطعت الاشياء والاشخاص على صورة فريدة ، فقد تداخل ذلك الجسد الفولاذي العاري ، المتصبب بالعرق ، وتلك السكين ذات النصل اللامع الطويل بذلك الوهم الذي خيم علي عندما شهدت عبد العاطي واقفا والميزان مرفوع امامه ، على امتداد ذراعه ، عاليا ..

هززت رأسي بعنف ، وقلت لنفسي انني رجل اخذت منذ أيـــام افقد صلتي بالواقع الذي عشته حتى الامتلاء كل عمري ، وانني أغوص في عالم الاحلام والاوهام والرؤى العجيبة، وأرى الاشياء والناس والحركات كما لم يحدث لي قط من قبل في حياتي ، وأورثني هذا كله شعورا مفاجئا بالتعاسة ، فقد تذكرت ما حدث أمس الخميس في مكتبي في مركـــز توزيع الاعاشة عندما كنت طوال لحظات خارجة عن عالم المعقول متأكدا من أن جموع الواقفين على البوابة سيحطمونها وان جدار الصمت المبني بيني وبين العالم سيتحطم في

اللحظة ذاتها ، وقد احتاج خروجي من ذلك الوهم جهدا يكاد لا يصدق ، مثلما يقتلع الرجل جذر شجرة ، وكدت اجعل نفسي نكتة الموظفين في المكتب .

والآن ، أول ما يحدث لي هذا الصباح شيء لا مثيل له ، فأعيش بين عبد العاطي والولد والطفل ، الخبز والميزان والسكين ، حلما جديدا يكاد يشبه كابوسا يصاب به حارس ليلي جديد لمتحف قديم .

لا شك ان شيئا رهيبا يحدث لي ، ولا ريب بوجود مخرج ما ، لـم استطع الى الان استكشافه او تلمسه ، وكان عبد العاطي جالسا هناك ، مغوصا هو الآخر كما بدا لي ، في عالمه الذي لا يعرف احد أين يقع قراره ، وقلت لنفسي : أتراه يفكر بالشيء ذاته ؟

قلت فجأة ، دون ان أدرك بالضبط ما الذي كنت أنوي قوله :

ـــ « أتعرف يا عبد العاطي ؟ يتعين علي انا وكذلك انت ان نفعل شيئا . لا ينبغي ان نستمر كذلك ، لم يعد بوسعنا أن نستمر حتى لو اردنا . يجب ان نفعل شيئا ... »

وكان عبد العاطي يتجه برأسه نحوي ويستمع بكل جسده ، ليس بأذنيه فحسب ، وقد هز رأسه موافقا على ما قلت ، الا انه أشار الى داخل الفرن اشارة لها معنى ، فقلت :

ـــ « تقصد الولد ؟ انا وانت والولد ؟ »

هز رأسه ، فيما مضيت أقول :

ـــ « وماذا ينفع ذلك الولد ؟ انني متأكد انه يكرهني ويكرهك ، وذات يوم سيقتلنا » .

ابتسم عبد العاطي ، وقال شيئا وهو يهز رأسه منكرا ما قلته ، الا أنني لم أكن مقتنعا بجدوى هذا الثلاثي المتنافر الذي لا يعرف اين يتعين عليه أن يذهب .

قلت :

ـــ « طيب ... حتى لو كنا ثلاثة ، انا وانت وذلك الولد ، فماذا ترانا سنفعل ؟ »

ولم أعد احاول معرفة ما سيقوله عبد العاطي ، فقد كنت متأكدا انه يعيش مثلما أعيش ، وسط تلك الغابة الكثيفة من علامات الاستفهام ، فمضيت أتحدث وكأنما لنفسي :

ـــ « نستطيع مثلا ان نذهب فنحطم قبر الولي ونخلع شجرته ونفش غلنا . نستطيع أن نذهب فنضرب مصطفى ونرغمه على الزواج من زينة . نستطيع أن نلقي خطابا في جموع اللاجئين الذين يقفون بالصف لتسلم الاعاشة . نستطيع أن نفعل ذلـك وأكثر ... نستطيع أن نعود الى الطيرة .. الا نستطيع ؟ »

تلك اللحظة دخل الولد مرة أخرى ، قادما من الفرن ، ويبدو انه سمع جزءا مما كنت أقوله ، فرماني بتلك النظرة القاسية التي يعطيهـا جسده الحديدي العاري نبرة اشد قسوة ، واتجه الى عبد العاطي بالحديث ، وقد استغرق الاثنان بالجدل فجأة حتى انهما لم يلتفتا الي وانا اقف ، ثم أغادر الفرن خارجا الى الطريق الذي كان يسبح ، صامتا ، في وهج الشمس .

ـــ ١٢ ـــ

ها انت تغطس في عتمة الذاكرة كما تنطفىء الشمعة ، أيها الولي المقدس النائم في البرية تحت شجرته المباركة ، وحين ذهبت انما اخذت معك كل الشموع التي أضاءتها أمي في ليلي الذي قالت لي انه سيمتد الى الابد ، وقد حسبت ان العتمة ستزداد حلكة ، ولكنها بقيت على حالها ، وها أنت ذا توغل في الماضي كأنك لم تكن قط .

وطوال أيام ، بعد أن قتلناك تلك الليلة في اعماق البرية ، كنت انتصارنا الذي رد الينا نبض الحياة في صدورنا ، وها هي الايام تمضي ، فاذا بموتك يفقد نضارته ، واذا بنا

نحسه في أيدينا انتصارا صغيرا يذوب ويفقد توهجه . انت يا درع البؤساء الوهمي ، ما الذي فعلته بنا ؟

كنت درعنا وكنا نحسب انك تحمينا من طعن رماح الزمن الذي نخوض في غماره ونسبح بين انصالها ، وحين أطرحناك عرفنا اننا لم نكن نخوض في غابة الزمن ، وكنا واقفين على ضفته واهمين ، متمسكين بذلك الدرع الذي هو أنت وكأن القتال في اوجه .. الآن نحن بلا درع ، ولكننا نخوض في شوك الزمن وفي ناره وفي أمديته ، بصدور بشرعة عارية تطعم لحمها لذلك الارتطام المخيف مع المجهول .

فأعطنا يا عبد العاطي ، ايها الولي النائم تحت بلاطة النسيان ، في البرية التي تعوي فيها الغربة ، القدرة على أن نكرهك ، فقد تيقنا ان موتك لا يكفي ، وانه انتصار يذوب مع الايام ولا نستطيع ان نعتاش على مذاقه الذي كان له ، ذات ليلة ، طعم القضاء والقدر .

فاعطنا ، ايها الولي الذي صرفت من اعمارنا عمرا اضافيا لك ، القدرة على أن نكرهك بكل وشيجة من وشائج قلوبنا ، فليس أمامنا ، بعد ، الا أن نحييك بالكراهية ، كي نقتلك مرة أخرى . فكما صرفت أنت من أعمارنا كي تعيش ، لا نستطيع الا أن نصرف من موتك ، كي نمحوك تماما من حياتنا ، ثم نرتقي فوقك .

— ١٣ —

كان يوما مترعا بالضجر حتى قرارته ، لكأن الناس كفوا عن شراء الخبز لسبب غامض لا يفهم ، وكنت جالسا هناك على باب الفرن ، غارقا في تأملاتي ، حينما جاء حمدان يلهث من الداخل ، وكانت رائحة العرق تفوح من صدره العاري وتملأ المكان ، وقد عرفت انه أراد الكلام ، فتلك هي عادته حين كان يعتزم مفاتحتي بأمر يشغل باله ، وكنت أحسب انه يريد انهاء ذلك الخلاف ، بيني وبينه ، حول منزلة الولي عبد العاطي ، اذ أنني لم أكن اعرف ان هناك ما يشغل باله في هذه الايام اكثر من هذا الموضوع ، الا ان ظني خاب تماما فقد تنهد ، ثم قذف جملته دفعة واحدة مثلما يرمي المرء صندوقا ثقيلا عن ظهره :

— « لقد عاد والدي » .

واخذت بهدوء امتص الصدمة حين لطمتني هذه العبارة القصيرة دون توقع مني ، ورغم أنني كنت طوال السنوات الماضية على يقين من أن ابا حمدان ، الذي لم اعرفه قط الا من خلال أحاديث قصيرة متقطعة مع حمدان ، لا بد له أن يعود يوما ، الا أنني أبدا لم أتصور ذلك يحدث على هذه الصورة ، بل انني لم أتصوره يحدث على أية صورة ، فقد كنت اتوقع حدوثه ، ليس غير .

وعاد حمدان يكرر عبارته ، بعد أن تصور انني لم اسمعها :

— « لقد عاد والدي . أطلقوا سراحه أمس » .

ولا ريب ان حمدان لاحظ كيف انتفضت ، اذ انه لم يقل لي قط ان والده كان محبوسا ، وبدا لي لوهلة ان هذا الفتى الذي عشت معه عشر سنوات كاملة احتفظ لنفسه طوال تلك السنوات بحياته الخاصة ، ولم يسمح لي بالتعرف الا على اجزاء يسيرة منها ، الا انني حاولت ان ابدو طبيعيا ، وقلت له :

— « هل انتهت مدة حبسه ؟ »

— « لا كان محكوما بالحبس المؤبد . دخل السجن قبل نحو ١٢ سنة ، وكان عمري سبع سنين ، وربما ثماني . لقد أخذوا منذ شهور قليلة يطلقون المحابيس الذين مثله ،

وانت تعرف لماذا ، الحرب والهزيمة والفدائيون .. انت تعرف .. »

ـــ « وما علاقة والدك بالحرب والهزيمة والفدائيين ؟ »

ـــ « كان فدائيا .. »

ـــ « كان ماذا ؟ »

ـــ « كان فدائيا .. »

ـــ « منذ ١٢ سنة ؟ »

ـــ « نعم ، دربوه في سوريا ، ونزل الى هناك عدة مرات .. »

ـــ « ولماذا حكموه بالحبس المؤبد ؟ »

ـــ « اطلق الرصاص على خمسة من العسكر ، فجرحهم وسلم نفسه .. »

ـــ « عسكر ماذا ؟ »

ـــ « عسكر في الاردن . كان ذاهبا مع شخصين الى الداخل فأطلقوا عليهم الرصاص . مات واحد ، ووالدي اخذ يطلق النار على العسكر ... هذا غير مهم الآن » .

اخذت نفسا عميقا وتنهدت ، ولاول مرة في حياتي شعرت انني راغب حتى اعماقي في التعرف على وجه حمدان ورؤية تعابيره وهو يروي ذلك كله ، اذ أن صوته كان محايدا كأنه يتحدث عن كمية الطحين التي يتوجب علينا ان نعجنها اليوم ..

وامتد صمت قصير بيننا ، الا أن حمدان قطعه فجأة :

ـــ « كان من الافضل لو ظللت صامتا . لا يجوز أن اتحدث لاحد عن ذلك كله ، كان عليك أن تطلب مني السكوت » .

ومع ذلك فقد كان منساقا الى الحديث كأنما بقوة لا يستطيع ايقافها ، وقد تردد لبرهة قصيرة فقط ، ثم مضى يقول :

ـــ « لو رايته في المحاكمة ! كنت مع أمي ، وقد حكمه القاضي بالحبس المؤبد ، فنظر توا من داخل القفص الى أمي ومد نحوها ذراعـــه وصاح : « روحي طالقة بالثلاثة طالقة ، طالقة » ثم أدار ظهره دون أن ينظر الي ، وخرج من القفص بين الحراس » .

وصمت قليلا ، ثم تنهد :

ـــ « وها هو يعود ... اطلقوا سراحه أمس . لو كانت أمي تعرف ان ذلك سيحدث لما كانت ... »

وصمت فجأة ، وبدا لي انه لن يتكلم قط بعد هذه اللحظة ، ومع ذلك فقد ظللت محتارا في سبب مفاتحته لي بالامر كله ، أتراه ينوي ترك العمـــل في الفرن ؟ أم تراه يستكشف الطريقة التي يتعين عليه ان يعامل بها هذه الحقيقة الجديدة في حياته ؟ لا ريب انه محتار حتى قرارة أحاسيسه ، فلم يحدث له قط في حياته ان واجه حالة على هذا المستوى من الخطورة ، الا ربما عندما قر قراره ذات يوم على الفرار الـــى الابد من بيت امـــه وزوجها ..

وعندما طال سكوته ، سألته :

ـــ « وما الذي ستفعله الآن ؟ »

ـــ « انا ؟ انا ؟ لا شيء . لماذا ؟ ماذا تغير ؟ حسبت انك تسأل عما سيفعله هو .. »

ـــ « صحيح . هو . ما الذي سيفعله يا ترى ؟ »

— « لست ادري . هذا ما يحيرني . . »

— « كم عمره الآن ؟ »

— « ٣٨ او ٤٠ سنة ، واعتقد انه ما زال قويا ، ولكنني لا أعرف شيئا عنه ، بل انني لا اعرف الى اين ذهب ».

وخيم الصمت ، أعمق غورا ، هذه المرة ، ووقف حمدان ثم سمعت خطواته تدب الى الداخل . وما لبثت أن سمعت أصوات أرغفة العجين وهي تصطفق على أرض بيت النار فتصدر ذلك الصوت الحميم الذي يشبه تصفيقا خجولا لطفل يختبىء وراء ظهرك .

كان حمدان ، طوال السنوات التي عرفته فيها ، يميل الى اعتبار والده ميتا ، فقد حذفه من حياته بنجاح او شبه نجاح ، وقد اعتقدت دائما ان السنتين اللتين أمضاهما مع امه المتزوجة من ذلك الرجل الفظ هما اللتان شكلتا أساس هذه العادة ، ففي بيت من ذلك النوع لا بد ان يرغم الطفل على نسيان والده وعلى حذفه من وجوده ، ومع ذلك فقد كان من السهل أن يكتشف المرء أن حمدان يحتفظ لوالده بمكانة خاصة في ذاكرته ، ولكن كرجل ميت ليس أكثر ، مثلما يتحدث حفيد عن كنز دفنه جده في مكان مجهول ، ولا أمل له بالعثور عليه ، فلم يبق امامه الا الاعتزاز بذكراه .

ولست أدري بالطبع كيف بنى حمدان لنفسه صورة ذلك الاب الغائب ، الذي تبدت لي حياته الآن عاصفة ومثيرة وايضا محزنة ومغلوبة على أمرها ، ولست أعرف شيئا عن بسعة تلك الهوة بين والد حمدان كما هو ، وبينه كما هو في راس حمدان ، ومهما يكن الامر فقد كنت على يقين بأن حمدان أخذ منذ الآن يقف على عتبة حياة جديدة ، وانني قد أفقده في اية لحظة .

— ١٤ —

مضت أسابيع منذ ذلك اليوم الذي استطاع فيه عبد العاطي ، بالاشارات والكتابة وكل أنواع الاتصال التي اخترعها البشر ، ما عدا السمع والبصر ، أن يشرح لي فيه كيف ظهر والد الولد حمدان الى الوجود فجأة ، قادما من مكان يشبه عالم الموت .

وكان الولد حمدان نفسه قد استغرق في تأمل يكاد لا ينتهي ، ولكنه لم يعد يكترث ، مثلما كان من قبل ، بما يدور حوله ، ومع ذلك فلم يقدر لي ، ولا لعبد العاطي ، أن نرى والد الولد حمدان ولو مرة واحدة ، ولم يكن بوسعنا أن نعرف فيما اذا كان الولد حمدان نفسه يرى والده ، وأين ، ومتى .

وفي لحظات عابرة كان يخيل الي أن الولد حمدان اختـــرع قصة مثيرة من قلب راسه الصغير ليشغلنا بها أو يشغل نفسه فيها ، على انني لم أكن على يقين من ذلك ، فقد كنت أشك أساسا في قدرة الولد حمدان على اختراع شيء من هذا النوع .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الولد حمدان ان ينسينا ، ولو الى حين ، قصتنا مع الولي عبد العاطي ، وكان يمكن له أن يجرنا بعيدا عما كنا غارقين فيه ، لولا انني وجدت نفسي انا الآخر اعيش مشكلة غير متوقعة ، فاجأتني في المكتب . .

فقد لاحظنا كلنا كيف اخذ مصطفى يتغيب عن المكتب بين الفينة والاخرى ، ثم امتد غيابه في احدى المرات أسبوعا كاملا . وحين عاد في الاسبوع الماضي كان يلبس بذلة خاكية ، وقد جعلنا — كأنما دون قصد — نرى المسدس الكبير الذي كان يدسه تحت حزامه .

وفي اثناء غيابه كانت الشائعات قد اكتسحت المكتب ، وقيل لي ان مصطفى أصبح فدائيا ، وهو يختفي بين الفينة والاخرى في مكان ما ليتدرب على استخدام مختلف الاسلحة ، وانه قد تسلم قيادة مجموعة من الفدائيين الشبان التحقوا قبل فترة وجيزة بالثـــورة الآخذة في الصعود .

كان مصطفى أول من فعل ذلك من بين جميع الموظفين الذين أعرفهم في الدائرة التي أعمل فيها ، وفي الدوائر الاخرى التي أزورها بين الفينة والاخرى ، وقد اكسبه ذلك العمل ، على التو ، نفوذا جديدا في المكتب ، وصار — دون اتفاق مسبق من احد — يلعب دور الرئيس .

على أن مصطفى نفسه ما لبث بعد اقل من ثلاثة أيام أن استغنى عن جميع الاحتياطات المصطنعة التي كان يتخذها ، وصار يتمنطق بالمسدس فوق قميصه الخاكي ، ووضع على صدره شعارا نحاسيا لامعا وعلق وراءه ، على الجدار ، خارطة مضرجة بالدم ، ومعنونة بأبيات من الشعر الوطني .

وامس جاء مصطفى الى طاولتي ، وأخذ يتحدث بصوت غاضب ، ولكن من الواضح انه يجعله عاليا قدر الامكان متوقعا مني أن أسمع ، الا انني لم أفهم شيئا ، وقد هدأت من فورته بحركة متصلة من كفي ، ثم قلت :

— « لا اسمع شيئا .. لا أسمع شيئا ، فلا تتعب نفسك ... »

وصمت قليلا ، ثم احتقن وجهه بالغضب من جديد ، وأخذ مرة اخرى يصرخ بملء صوته ، واخيرا ، انحنى ، وكتب على ورقة أمامي :

— « ماذا فعلت من اجل وطنك ؟ »

ونظرت اليه مندهشا ، ولكنني لم أستطع أن أجيب لتوي على ذلك السؤال المفاجيء ، وقد شعرت — خصوصا — انه سؤال مهين اذ جاء على لسان مصطفى ، وقد انتهز هو فرصة حيرتي وترددي فالتفت الى بقية الموظفين الذين كانوا يراقبوننا صامتين ، واشار اشارة جانبية نحوي ، وأخذ يتحدث اليهم ضاربا بجمع قبضته ، بين لحظة واخرى ، على الطاولة ، ملوحا بذراعيه ، متقدما خطوة الى الامام متراجعا الى الوراء بحركات شبه مسرحية ، وكان من الواضح ، وانا أراقب عروق رقبته ، ان صوته آخذ بالعلو درجة وراء درجة ..

وفجأة تذكرت ذلك الحلم الذي عشته فترة من الزمن ، وقلت نفسي : « ها هو ذا مصطفى يأخذ مكاني ! » فأخذت ابتسم ، الا انه رآني ، فتقدم نحوي والشرر يتطاير من بين اسنانه ، وامسك بياقتي بكلتا يديه وأخذ يهزني بضراوة وهو يقول شيئا ، هو أغلب الظن شتيمة واحدة مضى يكررها مرة تلو المرة .

منذ زمن طويل لم أستخدم عضلاتي التي كانت ذات يوم قوية ، وقد انتابتني في تلك اللحظة قشعريرة من الغضب لم اشعر بمثلها في حياتي . أمسكت زنديه بقبضتي وأخذت اضغط بكل الغضب الذي كان يستعر في صدري — وقد رأيت في عينيه انحناءة الضعف ، وحين فك اصابعه عن ياقتي ظللت ممسكا بزنديه ، وكان يقاوم جاهدا ، الا انني ضغطتهما الى أدنى ببطء ، حتى أوصلتهما الى سطح الطاولة ، فضربتهما هناك مرتين ، ثم تركتهما ، وجلست .

وظل مصطفى لحظة ينظر الي مشدوها ، دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة . الله الله يا طيرة حيفا ! هكذا تصبح قبضات الايدي من فرط ما تعاملت مع الارض والوعر والشتل ! الله الله يا طيرة العز ! حتى عندما كنت طفلا صغيرا كنت أرى في الحقول المكان الوحيد الذي يصح فيه الكلام . كنت أمضي النهار وانا أدق بالمنكوش ذاك التراب الذي سرعان ما ينشف من جديد ، أحمل الحجارة ، أستل النبات الضار من جذوره الضاربة في عمق التراب .. الله الله يا طيرة العز ! كنت معروفا هناك — وأنا ما أزال فتى — بأن القوة الكامنة في زندي هي من الضخامة بحيث لا يقوى أحد على تحديها ، ولطالما انتظرت أمام الجامع ، في الطيرة ، حتى يفرغ الشبان من اختيار بطلهم حتى أثني له ذراعه على بلاطة

درج المسجد ، ولم يكن ذلك ليستغرق مني الا دقيقة أو دقيقتين ... كم مضى من الزمن دون أن أختبر تلك القوة ؟ أتراها ما تزال مختزنة في جسدي ، أم ان مصطفى بالذات رجل خرع ؟

عدت فوقفت ، ولوحت أصبعي في وجه مصطفى الذي كان ما يزال واقفا هناك يحدق الى مشدوها ، وصحت بوجهه :

ـ « اسمع يا ضرنط ! سأكسر يدك ان حاولت مرة أخرى أن تمدها نحوي .. تستطيع ان تذهب وتتشاطر على الارامل والمطلقات ... أم تراك تحسب ان البدلة صيرتك رجلا يا حرام الشوم ! »

وأخذت شفتاه تتحركان ببطء ، الا أن وجهه ظل جامدا كأن رجلا آخر كان يتكلم في تلك اللحظة . ولم أستطع حتى ان أخمن ما الذي كان يقوله لي ، وما لبث أن استدار ، بعد أن انتهى ، وخرج من المكتب صافقا الباب خلفه بعنف ..

وقد هدأ الغضب في صدري مثلما تنطفىء نار مهملة ، وظللت جالسا الى مكتبي مضطربا طيلة ساعات الدوام ، فقد كنت أحس في أعماقي بأن مصطفى يعد لي فخا ، وانه قد يعود في أية لحظة ويفاجئني بأمر لا أحسب حسابه ، وتوزعتني مشاعر متناقضة . ومع ذلك ، فقد كنت أدرك وسط كل حيرتي انه يتعين علي الذهاب الى عبد العاطي ، فقد أحتاج للولد حمدان ، او لعلني أحتاج الى والده المجهول الغامض .. ولكنني لم أكن أعرف على وجه التحديد ما الذي يستطيعون عمله ، وقد انتظرت بلهفة انتهاء الدوام ، ومضيت لتوي الى عبد العاطي ..

وقد شرحت لعبد العاطي ما حدث ، وكان حمدان واقفا على باب الفرن يستمع بعنايه الى كل كلمة اقولها ، ولست أدري لماذا كنت أخشى ، أكثر مما أخشاه ، أن يؤلب مصطفى ضدي كثيرا من الناس ، وكذلك الشرطة ، بسبب حديثي المتواصل عن الولي عبد العاطي ، وعن تكرار التصريح بعزمي على هدم قبره وقطع شجرته ، ولعلني قلت مرة ، انني سأبول هناك . والواقع ان اصراري على الحديث عن الولي عبد العاطي على تلك الصورة كان سببه بالدرجة الاولى اصرار مصطفى على الدفاع عنه ، فقد كنت عازما على الانتقام منه واغاظته وقلب حياته في المكتب الى جحيم ..

ومع ذلك ، فانني لم أصرح لعبد العاطي بمخاوفي هذه ، رغم انها تمسه مباشرة ، ولعلني كنت خائفا من ان اثير غضب حمدان ، الذي كان ينصت الى حديثي بانتباه فائق ، وكنت أخشى أن يأخذ جانب مصطفى فأفقد تأييده لي .

ولكن ما أن انتهيت من شرح حكايتي مع مصطفى ، وعبرت عن مخاوفي من انتقامه ، وطلبت نصح عبد العاطي ، حتى انغمس حمدان مع عبد العاطي في جدال مطول ، وقد انتهى الامر بأن طلبا مني التريث ، وان أترقب بحذر خطوة مصطفى التالية .

وقبل أن أذهب لحق حمدان بي ، وقد رأيته لاول مرة في حياتي يبتسم ، وقد شرح لي بالاشارات انه سيخبر والده بكل ما حدث ، مؤكدا لي أن والده له مكانته المهمة ، حتى الآن ، بين قادة الفدائيين .

ـ ١٥ ـ

عاد حمدان من عند أبيه ، وشعرت من خطواته وهو يدخل الى الفرن انه يحمل على اكتافه خيبة أمل ، وقد جلس على الكرسي الذي نضعه عادة قرب الباب ، واستغرق في الصمت منتظرا مني أن أحرضه على الكلام ، مثل عادته كلما كان يحمل خبرا سيئا .. وقد تركته صامتا لفترة طويلة ، وأنا افكر فيما عساه سمع من والده الغامض بشأن القضية التي تقلق أبو قيس ، وأخذت اتصور ما يمكن أن تكون اثنتا عشرة سنة من

الحبس قد فعلت برجل مثل أبي حمدان ، لعله قد غرق في النسيان ، ولعله حين قطع أواصره بالعالم ، وهم يقتادونه الى ما حسب انه قبره طوال العمر ، فطلق امرأته ، ونسي ولده ، وغرق في وحدته المضجرة ، انما عود نفسه على أن يحتقر العالم ، وليس بوسعك ان تفعل ذلك الا اذا روضت نفسك على اليأس منه الى حد القطيعة معه ، وهي الحيلة التي يلجأ اليها السجناء كي لا يموتوا من الحزن في وحشتهم وبعدهم عن العالم ..

فكيف تراه ينظر الى هذا العالم ، والى الناس ، والى كل المعاني البسيطة التي تشغلنا وتشغل رجلا مثل أبي قيس ؟ أتراه يستطيع أن يخرب حمدان أو يزرع في شبابه غيوم اليأس من هذا العالم ؟

قلت أخيرا ، كي أخفف على حمدان :

ـ لا ريب ان اباك يسخر من كل شيء ، وهو يرى ان قضية ابي قيس لا تستحق كل ذلك ... بشرفك ، ألم يضحك عليك ؟

وبعد هنيهة جاءت الدهشة التي توقعتها ، في صوت حمدان :

ـ كيف عرفت ؟ قل لي كيف عرفت ؟

ـ ذلك شيء متوقع ..

ـ ربما ، ولكنك لا تعرف ! لقد تغير والدي كثيرا ، كثيرا جدا . السجن غيره ، وهو ليس كما كنت أتوقع ...

ـ ماذا تعني ؟

وأخذ حمدان يتأتىء ، مترددا ، فعرفت انه لا يستطيع التعبير على وجه الدقة عما حدث ، فتركته يفكر ، وقد اختار جملة أو جملتين ، على أنه عاد فتوقف في منتصف كل منهما والتجأ الى الصمت . وأخيرا قذف عبارة مختصرة دفعة واحدة وكأنه كان يخاف أن يغير رأيه :

ـ لقد تعلم السياسة في الحبس !

وخيم صمت طويل بعض الشيء ، ميزته فيه ذلك النوع من السكون الذي اعتدت أن ينشأ بيني وبين ابو قيس . ذلك الصمت الذي يدوي فيه صوت الانتظار ، وكان هذا النوع من الصمت نادر الحدوث بيني وبين حمدان ، وأخيرا عاد حمدان الى الحديث :

ـ انه طوال الوقت يتحدث عن رجل كان سجينا معه ، تارة يقول انه رفيق ، وتارة يقول انه مناضل . وكل شيء له معنى عنده ، ويستجر حديثا طويلا ، وحين شرحت له ما حدث بين مصطفى وبين أبو قيس ضحك وقال ان مصطفى من «جماعة الطق طق» ..

ـ « جماعة الطق طق » ؟

ـ اي نعم . قال « جماعة الطق طق » ، اي أولئك الذين يختارون من بين كل المتاعب بند « الطق طق » ..

ـ ماذا يعني « بالطق طق » ؟

ـ يعني القواص . يقول ان اطلاق الرصاص نوعان ، نوع يسميه « الطق طق » ، ونوع يسميه السياسة ... وهو يقول أن مصطفى من « جماعة الطق طق » ..

ـ لم أفهم شيئا ..

ـ وانا لم افهم ، والظاهر انني أخطأت حين قلت له انك انت الذي ستطيع أن تفهم

عليه ، وذات يوم لا بد ان احضره الى هنا كي تثرثرا حتى تتفلقا . انكما تشبهان بعضكما من حيث انكما تقولان أمورا كثيرة لا معنى لها . .

وقام حمدان من مكانه وأخذ يتجه الى الداخل . وعندما مر بجواري امسكت بزنده القوي فوقف ، وسألته :

— مهما يكن . . . ماذا بشأن ابو قيس ؟

وأجاب حمدان :

— قال انه لا يستطيع أن يفعل شيئا ، وان على ابو قيس ان يقلع شوكه بيده . .

وفيما كنت أسمع خطواته تدب نحو الفرن كان رنين الاعتزاز الكامن في صوته ما زال يرن في رأسي ، ولم يكن من الصعب على المرء أن يسمع ، تحت نبرة الحيرة التي كانت تكسو صوته ، رنة عميقة من الافتخار بوالده ، انه يتحدث عنه ، وعما قاله ، وكأنه تعاليم ينبغي علينا التعمق في حل رموزها واشكالاتها ، ولكن لا ينبغي لنا الشك بصوابها مهما كان الأمر .

وقلت لنفسي ان الاقدار تلعبه ببراعة ، اذا ما حاولنا أن نفهم ، فهاءنذا أضيع نبيا حين اخفق الولي عبد العاطي في نجدتي ، وها هو حمدان يجد وليا جديدا ، ولكنه ولي محير ، ومع ذلك فليست عذاباتنا تختلف كثيرا عن بعضها . .

ويبدو ان حمدان لم يستطع البقاء طويلا أمام بيت النار مع افكاره ، اذ ما لبث ان عاد ، وقد جاءت رائحة العرق التي تنبعث من جسده ، كلما وقف امام النار ، قبل ان تجيء أصوات خطواته . ووقف أمامي ، وسألني :

— أتعتقد ان السجن أثر على والدي ؟ أم انه كان طوال عمره هكذا ؟ لقد قال لي هو نفسه انه تعلم كثيرا من السجن ، وان الحظ قد ساق له ذلك الذي يسميه تارة رفيقا وتارة أخرى مناضلا ، فتعلم منه الشيء الكثير . . وقد سألني عما افعل ، وحين قلت له انني أعمل هنا لم يقل شيئا ، بل أخذ ينظر الي بدهشة . .

— هل يعمل الآن مع الفدائيين ؟

— أعتقد ذلك ، ولكنه يقول ان ما تعلمه في السجن يجعله يعتقد بأن «جماعة الطق طق» بحاجة الى تعلم الكثير ، وانه هو نفسه كان من جماعة الطق طق قبل ١٢ سنة ، اما الآن . .

وخيم صمت قصير ، وفجأة غير حمدان الموضوع ، ولكن دون ان يبدو ذلك التغيير في نبرة صوته :

— لقد تحدثنا عدة مرات عن الولي عبد العاطي . .

— ماذا ؟

— رويت له قصتكما معه ، ومعي ، وسألته رأيه ، أنت تعرف ، أردت ان أتيقن من هذه القضية . فهي تشغلني منذ فترة . .

— طيب ، ماذا قال ؟

— لقد ضحك كثيرا ، ثم قال ان الاولياء مثل الافاعي التي في قصة الزير ، اذا قطعت لها رأسا طلعت مكانه سبعة رؤوس . . . ثم شتمني ، وقال انني « ولية » . وقال انه ياما هدم الناس قبورا للاولياء ، وياما كفروا ، وياما حلفوا بالطلاق الا يسمحوا لاحد بأن يخدعهم مرة أخرى ، ولكنه قال ان هذا ليس هو المهم ، المهم انك اذا هدمت قبر الولي فعليك أن تقلعه من شروشه ، والا تسمح لولي آخر بأن يأتي من وراء ظهرك . .

انه طول الوقت يحكي هكذا ، تقول له : كيت وكيت يقول لك ، طيب ، ولكن شرط كذا وكذا . كل شيء عنده له أول ووسط وآخر ، ودائما يقول ان الامور غير هذا ، وان المسائل أعمق من هكذا .. وهكذا .. ولكنني لا أفهم كل شيء ، وأظل أهز رأسي ..

ـــ أنا أعتقد انني أفهم بعض الشيء أيضا ..

ـــ أنت مثله . انتما تتحدثان أكثر من قاضي معزول ، وأنا أعتقد انه لم يشعر بالملل في السجن ، فقد أمضى الوقت ، طوال ١٢ سنـــة ، يتحدث مع ذلك الرجـل الآخـر بالسياسة ... على كل حال . فقد رأيت انه يحتفظ تحت فرشته بمدفع رشاش . هل تعرف معنى هذا ؟ معناه أن الحبس لم يغيره ؛ أليس كذلك ؟

ـــ ١٦ ـــ

دخل ابو حمدان الى حياتنا عن بعد ، ولكنني لم أره قط ، ولا استطاع عبد العاطي أن يراه ، وكنا نسمعه من خلال الولد حمدان ، ونراه من خلال التغير الثابت الذي كان يطرأ على هذا الفتى يوما بعد يوم ، وكان عبد العاطي يستمع الى الولد حمدان وهو ينقل تفاصيل مقطعة عن الكلام الذي كان يتبادله مع أبيه، ومن ثم كان يشركني بالحصيلة عبر أساليب مختلفة كنا ، دون أن ندري ، نطورها نحن الثلاثة معا من خلال احتكاكنا المتواصل ، ومن خلال المواضيع التي كنا نرى انفسنا نبحثها في كل يوم .

ولم يعد مصطفى يخيفني ، وفي الحقيقة انه لم يخفني قط قبل ذلك ، الا انه كان يثير فيّ خشية بالنسبة للمستقبل ، ومع مضي الايام أخذت أنا ، وأخذ بعض الموظفين ، يدركون بأن الحدود التي يستطيع ان يصلها في نشاطه ليست بعيدة الى الحد الذي اعتقدناه في البدء ، وان مسار يومياته قد مضى على الاسلوب نفسه الذي كان لها منذ ان عرفناه ، لعدة سنوات خلت ، الا أن زيادات طفيفة ـــ مثل ملح الطعام او بهاراته ـــ قد طرأت هنا وهناك على نشاطه اليومي .

وقد كانت حياتنا تسير بشيء يشبه الهدوء ، لولا ذلك الطعم الجديد الذي أدخله حمدان اليها ، بطريقته المفعمة بالتحير ، الى أن حدث ذات يوم حادث بدا لي صغيرا في لحظتها، ولكنه لم يكن كذلك كما تيقنت فيما بعد ، فقد كنت في مكتبي في الوكالة حين أحسست بأن شخصا ما يقف قرب طاولتي ، وحين رفعت بصري وجدت زينة واقفة هناك وهي تحمل احد أطفالها على خاصرتها ، وقد بدت لي أقل جمالا مما تصورت ، ولا شك ان الحزن قد انهكها ، وكانت تتحدث الي والدموع تملأ عينيها ، الا انني لم أكن لأفهم شيئا ..

وفجأة اصطدم بصري بمصطفى الذي كان جالسا وراء طاولته ، فبالتي يسترق النظر دون ان يتحرك ، فأشرت لها ان تذهب اليه ، ولكنها دون ان تنظر الى حيث أشرت أخذت تهز رأسها رافضة وهي تصرخ ، وشرع طفلها يبكي ويتمسك بها ، ودون توقع مني بدأت دموعها تنهمر وكأن أبوابا موصدة امام عينيها قد فتحت فجأة على مصاريعها.

وربما لن أعرف ، طوال عمري ، ما الذي كانت تقوله تلك اللحظة ، واشعر في كل لحظة بندم شديد ولا أدري لمن يتعين علي ان أوجه وخزاته ، اذ لست أعرف من الذي ينبغي أن يلام ، ولقد استدارت وخرجت من المكتب وأنا أنظر الى كتفيها يهتزان من تأثير النشيج الذي كانت غارقة فيه ، وكان رأس طفلها المعلق على خاصرتها يهتز هو الآخر بتناغم محزن ، وفي تلك اللحظة نظرت نحو مصطفى ، وأعتقد انني شهدت ، للحظة أقل من الثانية ، بقايا ابتسامة خبت بسرعة حين شاهدني انظر اليه ، وعندها فقط مر في رأسي قرار صغير ، بأن انهض وأتجه نحو مصطفى وأستل عمره من عروق رقبته ، ولكنني هدأت بسرعة ، وتنهدت ، وعدت الى أوراقي .

العاشق

في البدء لم يعرف أحد في الغبسية كيف جاء قاسم اليها وسكن فيها ، دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئا من أشيائها الصغيرة ولكنه أبدا لم يستطع ان يكون من ناسها ، ويبدو انه هو ذاته لم يكن راغبا في أن يصبح كذلك . لقد تسلل اليها بلا صوت وبقي صامتا طوال الوقت تقريبا وهكذا فقد حرم الناس حتى من أن يجدوا فيه قصة يحكونها بعد أن حرمهم من اية علاقة معه ، وفي الحقيقة فهم لم يروه تماما الا بعد مضي زمن طويل على قدومه ، حتى انهم تعرفوا اليه عبر حكاية رواها لهم الشيخ سلمان ، كبير الغبسية ، الذي يملكها بأرضها وناسها ودوابها وزيتونها . « لو تعرفون ما حدث لقاسم هذا الصباح » وهكذا عرفوا اسمه لاول مرة ، ولكن قلة منهم استطاعت في تلك الوهلة ان تذكر ملامحه ، انه ، لاول مرة ، صار موجودا فجأة ، ويبدو ان حضوره بهذا الشكل على لسان الشيخ سلمان ربطه به الى الابد ، ولم يعرف قاسم نفسه في حياته كلها رجلا استوقفه الا وسأله عن حال الشيخ سلمان .

لقد جاء قاسم في ديوانية الشيخ سلمان ذلك الصباح فجأة ، ودون توقع ، دخل الى الناس مع ايقاع صوت الشيخ سلمان المهيب وسط الصمت الذي كان يخيم عادة كلما تحدث ، والحقيقة ان قاسم نفسه كان في تلك اللحظة جالسا بهدوء على كوم من التبن في الاسطبل ينظر بحيرة الى قدميه وقد رفعهما قليلا الى فوق ، وكان الشيخ سلمان يقول لزواره انه صحا في الفجر فصلى وكان المنزل صامتا ومستغرقا في النوم . اخذت كرسيا وخرجت ، كانت السماء جدارا عاليا من البللور النقي باردا وبعيدا وكان الفضاء يشبه الدخان ، وراء البيت سمعت صهيلا صغيرا وصوتا زاجرا ثم رأيت رجلا يطل من وراء الجدار مع الفرس .

كنت قد غسلت الفرس وسقيتها وجعلتها تخب في الساحة الخلفية للدار كي تنفض النوم عن عضلاتها ، وعرفت حين وقفت فجأة وصهلت ان الشيخ سلمان قد خرج من البيت ، وحين صرت مع الفرس على زاوية البيت رآنا ، فأشار لي أن أتقدم .

سألته ان كان معجبا بالفرس فهز رأسه وربت على كتفها ونظر في عينيها وابتسم ، عندها سألته عن اسمه فقال « أنا قاسم » ثم سألته ان كان يستطيع أن يحضر لي فنجانا من القهوة فهز رأسه ونظر في عيني الفرس ورأيتهما يبتسمان لبعضهما ثم يسيران معا دون ان يقود أي منهما الآخر .

وضعت الفرس في مربطها وأخذت بنا من داخل البيت وجمعت حطبا ومضيت ، في دورة واسعة حول الساحة الامامية للبيت كي اتجنب المرور من أمام الشيخ سلمان ، الى أول الحقل . كانت نارا جيدة .

واخذت اراقبه من بعيد ، عبر الساحة الامامية ، ينفخ النار ويهز فيها وفوقها ابريق النحاس هزة العارف ، كان رجلا صلبا وقد رأيت عضلاته تحت قميازه الرقيق تتكور مشدودة وهو يحني قامته الطويلة فوق النار ، وبدا لي لوهلة ، وهو محني فوق الوهج أمام صفحة السماء الشهباء ، يشبه الحصان الفتي . وتساءلت : من ترى وجده وأعطاه عملا هنا ؟ وفي اللحظة التالية انتصب واقفا فبدا أطول مما توقعت ولوح بالابريق ثم بدأ يتجه نحوي ، عبر الساحة . . وكدت انتصب واقفا وأصرخ الا انني ، قبل أن أتزحزح ، كان الاوان قد فات ، ورأيته بأم عيني يدوس على الرماد الذي تخلف من نار ليلة أمس الكبيرة التي اشعلناها في الساحة ، وقلت لنفسي « اذن ، فالرماد قد برد » وتنفست

السعداء ، الا انني فجأة رايت الشرر يتطاير من تحت قدميه الحافيتين وهو يغوص في حقل الرماد الواسع ، ولا شك انني بدوت له مجنونا وأنا أحدق فيه فاغر الفم يسير بهدوء وثبات فوق النار .

لم أنتبه الا حين خطوت الخطوة الاولى فوق الرماد . لقد بدا لي باردا في ذلك الفجر المسالم ، لم يخطر في بالي على الاطلاق انه كان مجرد فخ ملعون ، وأحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي وكدت اسمع نزيز الدم ينطفىء بصوت مسموع تحت بدني ، وفجأة رايته ينظر الي بعينين مفتوحتين على وسعهما ، كان ابريق القهوة الممتلىء حتى حلقه يرجف في يدي رجفات صغيرة . انه من سوء الطالع ان تسقط الركوة من يدي وتندلق القهوة في ذلك الفجر وجها لوجه انا والشيخ سلمان وحدنا في هذا العالم .

وظل يتقدم ، كأنه يمشي على عشب . لقد هزني الرعب وسمعت نبض قلبي جنبا الى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين وقلت بيني وبين نفسي « نبي او مجنون » . ان ضوء الفجر جدير بأن يحبل بالاعاجيب ، ولكنه وصل ، ووقف أمامي بالهدوء ذاته فيما أخذت أحدق الى قدميه ، كان الابهامان فقط يرتفعان عن التراب بحركة راجفة . سكب القهوة بثبات ، ووضعها على الحجر المستدير الى جانبي وتحرك مبتعدا دون ان يوليني ظهره وصرخت : « قاسم ! » فوقف دون أن يقول شيئا ، وعدت أقول : « ماذا فعلت بنفسك يا فتاح يا عليم ؟ » فنظر وراءه الى حقل النار ، ورأينا معا دخانا صغيرا يتعالى من الحفر التي خلفتها خطواته ، ثم عاد فنظر الى قدميه ثابتتين فوق التراب . ثم الي . وانتظرت ان يقول شيئا الا انه فرش راحتيه محتارا ، وعاد ينظر الى ابريق القهوة .

وكنت أريد أن يتركني أمضي الا انه ظل ينظر الي مستنكرا ، ولم يكن لدي ما أقوله ، فهو يعلم انني لو تركت ابريق القهوة يسقط من يدي في ذلك الصباح الساكن ، وأنا وهو وجها لوجه وحدنا في هذا العالم ، لما تيسر لي أن أظل هنا لحظة اخرى ، ولما تيسر لي ابدا ان أرى « سمرا » مرة أخرى ولكانت قدماي ، على اي حال ، قد احترقتا ايضا ، مضيت الى الاسطبل واسقطت قدمي في بركة شرب الخيل : في البدء انداحت حولهما غيوم رمادية أخذت تحمر رويدا رويدا وأحسست بلسع البرد يمتزج بأنين الجروح ، ثم جاءت « سمرا » فشمت الماء ونظرت الي برهة ثم تقدمت فحكت أنفها الوردي فوق كتفي وقالت لي ان القروح لن تلبث ان تلتحم ، فقمت معها الى كوم التبن حيث جففت قدمي ، وهناك تركتني أتمدد ريثما تجف القروح .

في تلك الظهيرة ، وبعد أن ترك الزائرون ديوانية الشيخ سلمان ، ولد قاسم فجأة ، وصار يرى في الغبسية هنا وهناك . ولم يكن بوسع الناس ان يحكوا عنه الا قصة مشيه الهادىء على النار، لقد تحدثوا ايضا عن قدميه الملفوفتين بكوم كبير من القماش المتسخ، ولكن فيما عدا ذلك ظل قاسم خارج حياتهم ، واذا كان قد دخلها لفترة قصيرة فقد خسر مقابل ذلك شيئا عزيزا عليه هو اسمه .. ذلك انه حين رويت القصة لاستاذ المدرسة في مساء اليوم ذاته ضرب كفا فوق كف وهو يضحك ضحكته الشهيرة التي تشبه غرغرة الابريق وقال : « هذا شيء لا يحدث الا لعاشق » وجامله الشيخ سلمان بضحكة مقتضبة عرف منها الاستاذ انه مطالب بتوضيح ، فمضى يقول : « ان نار العشق التي تكويه من الداخل أشد حرارة من النار التي داس عليها ، ولذلك لم يحس بها . انه عاشق » ، وهكذا فقد قاسم اسمه دفعة واحدة ، وفجأة .. وفي الواقع كان حضوره ذلك اليوم قصيرا جدا ، ففور ان اكتشف الناس وجوده جردوه من اسمه فغاب مرة اخرى ولكن بطريقة جديدة .

ولم أعرف ما حدث الا في المساء ، كنت واقفا خارج الباب حين بدا ضيوف الشيخ سلمان

يغادرون ، وفجاة قال لي صوت ما : « ليلة سعيدة يا عاشق » وضحك صوت آخر وراءه ، ثم سمعت صوتا ثالثا يقول لي يا عاشق وعرفت فورا انني فقدت الشيء الاخير الذي حملته معي من تلال ترشيحا .

●

لا احد ، على اي حال ، يعرف كيف ترتب الحياة نفسها .. أحيانا يحسب المرء ان قصة ما انتهت فاذا بها تبدأ . ان مستقبل انسان كاملا تراه فجأة متعلقا بحادث صغير لا قيمة له ، ان عقدة المسبحة اصغر من حباتها ولكنها اذا انفكت كرت ثلاث وثلاثون حبة واحدة اثر الاخرى ، واحيانا ينجرف الماعز الاكبر في القطيع وراء قشرة برتقالة فيتبعه القطيع بأكمله ، وقد يجتاز سياجا فيشتبك الرعاة بالمزارعين ويموت ناس وتفقد دواب وتعقد ولائم الصلح فيأكل فقراء القرية ومجانينها وأطفالها العراة وخيلها وبقرها ، ويرى مدعو ما فتاة ما هناك فيخطبها ويتزوجها وتنجب له أولادا وبنات يعيشون ويموتون ويمشي في جنازاتهم رجال لا يعرفونهم خطوات السنة العشر ويتحدثون وقد يتفقون على شيء او يتشاجرون .

والذي لا شك فيه انه كان مقدرا لقاسم أن يمضي حياته كلها وراء بيت الشيخ سلمان يحادث سمرا وينام الى جوارها فوق هسيس التبن لو لم يدس ذلك الصباح على الرماد الملتهب ويدخل ، بخطواته الثابتة الجريئة ، الى راس الشيخ سلمان وذاكرته ، فحين كان الشيخ سلمان يستوي بمهابة في الحنطور صباح اليوم التالي مستعدا للعودة الى بيته في عكا سأله القيم على مزارعه أن يعين موظفا جديدا يحمل الخضار على ظهور الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد أن ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا وهرب بحمولته الى مكان مجهول تاركا الحمير الثلاثة الاخرى واقفة على عرض الطريق قرب مقبرة عكا الى أن وجدهم رجل بالصدفة .

وكان الشيخ سلمان على عجلة ، شأنه كلما كان على وشك العودة الى عكا ، ولم يكن في ذهنه ايما شيء ، فقال للرجل الذي كان يقف الى جوار العربة : « دع العاشق يتسلم الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد ان ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا في الساحة الخلفية مدركة انه يتعين عليها الانتظار حتى بعد ظهر الخميس القادم كي ترى الشيخ سلمان مرة اخرى ، وأطل قاسم من وراء البيت وراى الرئيس واقفا ما يزال في حلق الطريق الضيق فأحس فورا بأن شيئا رهيبا سوف يحدث ، وفي اللحظة التالية تلاقت ابصارهما .

رايت في عيني العاشق وميضا مخيفا ، ولاول مرة أحسست بأن هـذا الرجل المتين الصامت الذي جاءني منذ اسبوعين يستجدي أن اعينه حراثا يخفي وراء جلدته شيئا مخيفا لا سبيل الى نكثه ، انه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فاذا بك غير قادر على نسيانه ، وبدل ان يتجه مثل كل الناس الى الاشياء تتجه اليه الاشياء من تلقائها . كانت قدماه ما تزالان ملفوفتين بكومين من القماش المتسخ وكان اذ يسير يباعد فيما بينهما وينفضهما نفضا ، الا انه لم يكن مضحكا ، كانت سمرا تسير الى جانبه ، وأنا لا أذكر انني رأيت أيا منهما وحده منذ جاء الى هنا . لقد وقف ينظر الي من بعيـد متوقعا أن أستدعيه ، وحين أومأت له بيدي تقدم نحوي بثبات ، وقلت له : « فجر غد ستأخذ الخضار الى الحسبة » .

وكان ذلك ما كنت اتوقعه وأخشاه ولكنني حين سمعته ظللت صامتا كأن الامر لا يعنيني فيما أخذت سمرا تنفض رأسها المتكبر بغضب ، وأخذ الرئيس ينظر الي منتظرا جوابي فيما ظللت واقفا انظر اليه .

وبدا لي انه لا يريد ، فأفهمته ان كل الحراثين يتمنون ان تكون لهم مثل هذه المهمة ، فهي

مريحة ومربحة وتحمل صاحبها مرة كل يوم الى المدينة ، وان الشيخ سلمان اختاره من بين الجميع لهذا العمل وعليه أن لا يخيب أمل الرجل فيه .

واستدار ومضى وتركني مع سمرا عاجزين عن قول ايما شيء : كان يبدو انه يحب وظيفته بلا حدود ، ويسعده ان ينقل الاوامر والطلبات التي يعرف انها لا ترد ، كان معروفا هنا بسلطته القوية وعناده المستمد من دقته في تنفيذ اوامر الشيخ سلمان وحرصه عليها ، والواقع انه لم يكن يحس بأنه انسان آخر غير الشيخ سلمان ولذلك فحين يكون الشيخ هنا فانه يختفي ، وحين يغيب الشيخ يبدو في كل مكان في كل الاوقات . وكانت سمرا تنظر اليه محتارة وهو يدق بحذائه الثقيل الساحة الامامية لبيت الشيخ سلمان متجها نحو الحقول ، وحين غاب استدرنا وذهبنا الى الاسطبل لنلقي نظرة أخرى على الحمير .

لقد كرت المسبحة فجأة بالطريقة التي كان يتوقعها قاسم في أعماق نفسه دون أن يقدر على تحديدها بالضبط : وصل الى عكا في الصباح ، وقبل أن يدور حول الساحة متجها الى الحسبة في آخر حديقة البلدية التي تصفر فيها اوراق الكينا زعقت قربه سيارة ، وقرقعت اصوات الاحذية الثقيلة واصوات أعقاب البنادق المكتومة ، وخشخشت القيود ، ووجد نفسه محاصرا فيما اخذت الحمير ، وقد فوجئت ، ترتد نافضة اعناقها الثخينة وتصدم بعضها بعضا ، وأطبقت الايدي على جسده من كل ناحية ودفع دونما اتجاه مرتين او ثلاث مرات .. الا أن ذلك حدث وكأنه كان يتوقعه بالتفصيل تماما ، فلم يقاوم ، والواقع انه كان يساعدهم بطريقة ما ، فقد سهل على العسكري الذي كان اكثرهم حماسا ربط القيود حول معصميه ، وتقدم نحو السيارة من تلقائه وصعد اليها دون الاستعانة بأي شيء ، والقى نظرة كسيحة على الحمير وقد ظلت واقفة تنفض رؤوسها باحثة عن اتجاه ما ، وحين شقت السيارة طريقها بين الناس الذين تجمعوا نظرت قبالتي ، وكنت اتوقع ان أراه هو ذاته كأن ذلك كان شيئا مرسوما منذ ولدت ، وتلاقت نظراتنا . كان يبتسم ابتسامة الرجل الذي انتصر اخيرا على غير توقع منه . اسمه الكابتن بلاك ، وقد عطلت أنا بلا شك صعود رتبته ثلاث سنوات كبيرة ، بالاضافة الى المرارة التي سببتها له طوال ذلك الوقت الطويل . نظر الى قدمي أولا وهو ما زال يبتسم خارجا من كابوس لا يتصوره العقل ، ثم الى صدري ، ثم الى عيني مرة اخرى ، ثم وجد الكلمة المناسبة فقالها من بين اسنانه ، « وأخيرا يا عبد الكريم ! »

وفي ذلك المساء قالوا في الغبسية : لقد كان العاشق مجرما خطيرا اختفى هنا فترة من الوقت وخدع الرئيس والشيخ سلمان وكل شيء والحمد لله الذي جعلهم يمسكونه قبل أن يرتكب جريمة اخرى .

وفي الصباح الباكر وصل الشيخ سلمان الى الغبسية على غير توقع من احد ، كان وجهه مضرجا بالغضب وكان ينتفض ، وحين امسك الرئيس بلجام الحصان قفز الشيخ سلمان بفتوة شاب من مقعده وأخذ يركله ، وعرف الرئيس فورا انه سيدفع غاليا ثمن اهماله في التقصي قبل أن يقبل الموظف الجديد ، فترك المكان مسرعا واخذ يعدو .

واكمل الشيخ سلمان خطواته الغاضبة الى البيت فيما شبت سمرا على قائمتيها الخلفيتين واخذت تصهل صهيلا ممطوطا كأنه النواح . مجرم في منزلي ، محكوم بالاعدام . وقال له ضيوفه مهدئين : « ولكنه وقع اخيرا في جزاء أعماله » .. وضحك الشيخ سلمان بمرارة واخذ يهز رأسه . كلا . لم تنته قصته ، العاشق هذا ، قاسم ، عبدالكريم . الشيطان ذاته . سيعتقد الانكليز انني كنت اخبئه هنا .. من يصدق ان الشيخ سلمان لم يكن يعرف ؟ لعنة الله عليك يا رئيس يا مجنون .

ثم حلف الشيخ سلمان يمينا بالطلاق ان يرمي الرئيس بالرصاص اذا رآه في الغبسية ، من هنا الى الابد .

اما قاسم فقد وضع في سجن عكا ، في الغرفة رقم ٣٦٢ ، وصار اسمه منذ ذاك : السجين رقم ٣٦٢ .

●

العتبة ترتفع ثلاثة اشبار ، وفوقها يلامس كعب الباب الحديدي الاسود البلاط الرمادي الداكن ، طول الغرفة عشرة اشبار وعرضها عشرة اشبار امـا سقفها فيرتفع دون حساب ، وفي اعلاه تنفتح كوة صغيرة ينبثق منها ضوء غاضب . انه موسم الاخصاب عند السنونو ولكنه لا يدخل قط . رأسه فقط يبدو لوهلة مغطى قفاه بالضوء وحين يرف منطلقا ، بين الفينة والاخرى ، تسمع الزنزانة صوت الفرح لحظتين خارجتين عن العقل . الجدران من الحجر الوحشي ، منقور وملطخ ومحطم ولكنه لا يعبر عن شيء . انه تاريخ الاظافر واطراف الصحون والملاعق حين تضحي عند الحبيس كل أدوات فراره المهيض . رجال جاؤوا وحاولوا ومضوا أو أصيبوا بالجنون ، وكان السقف دائما ، أمام عيونهم ، يعلو يوما وراء الآخر وكانت الارض تنخفض تحت العتبة لحظة وراء الاخرى . في اليوم الاول أخذت أعوّد نفسي على ذلك الشيء الرهيب : أن لا أحسب انني في قاع بئر سحيق ، كلما نظرت الى السقف ارتددت لتوي الى اللحظة الاولى التي وطئت فيها هذا المكان : جاؤوا بي من الساحة ، وصعدت ثلاث درجات ومشيت في ممر طويل ضيق ومنبسط تماما ، لم أنزل درجة واحدة . الغرفة اذن في مستوى الارض وليست بئرا . ولكنني كنت اهوي من جديد كلما نظرت الى السقف والجدران والعتبة ، ومن جديد أعود الى البدء في انتفاضة الفرار التي لا تعوض : حين جيء بي الى هنا لم أنزل درجة واحدة .

ظللت واقفا فترة مديدة من الزمن كأنني جدار خامس . ان الانسان لا يمكن ان يكون الا محصلة تجاربه وهو يفترض دائما ان الامور ستعبر ، ورغم ذلك يعتبر ان اعتيادهـا واجب لا فرار منه ، جربت وضعين او ثلاثة اوضاع لنوع مريح من الاستلقاء ، واخيرا وجدت الطريقة التي صار يتعين علي منذ الان أن أقبلها وحدها حالـة للنوم ، وحين استلقيت على ظهري واضعا رأسي في الزاوية كي اكسب شبرا جديدا داهمني ذلك الشعور الذي كنت أعرف انه ذات يوم سيقتحمني كالسيف : انتهى الامر . اخيرا يا عبدالكريم . دارت الزوبعة دورتها الغاضبة ثم صدمها الجدار فسقطت كالخريف . انتهى الامر ، كل دروب الهروب لا تؤدي الا الى العقاب ، بطريقة أو بأخرى . كانت الجريمة في ذاتها عقابا ، كان الاختبار عقابا ، كان الانتقال من عبدالكريم الى قاسم عقابا ، كانت صهوات الخيل في تلك الليالي الجليدية التي لا تنتهي ولا تبدأ عقابا ، كان الرعب عقابا ، كان الصمت عقابا ، كان المسير على النار عقابا ، وهذا هو نهايـة المطاف . عقاب آخر لو كان اعتاده منذ ثلاث سنوات لما كان ، الآن على الاقل ، يكترث به مثلما يفعل هذه اللحظة . ان الجريمة لا منطق لها وكذلك العقاب ، وحين يعتقد المرء انه كان هاربا من العقاب يكتشف فجأة انه كان معاقبا بطريقة خاصة ، كنت مظلوما ، وكي لا أقع صرت مجرما ، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة اخرى . وفجأة يأتي العقاب مجرما ، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة اخرى . وفجأة يأتي العقاب وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت وراء كتفي ويترصد اللحظة المناسبة .

اللحظة المناسبة التي ولد فيها قاسم من جديد في طول الجليل وعرضه بعد غياب طويل . كالمد عاد فجأة فاذا به يملأ الجرود مرة اخرى ، من الجرمق الى ترشيحا الى جدين الى عكا . طار الغبار عن خيوط غير مرئية وربطها الناس باعتناء شبكة من الاساطير كانت مجرد احداث لا يكترث بها احد ، وفي اللحظة التي اغلق فيها الباب الحديدي في سجن عكا على قاسم ، او عبد الكريم ، او العاشق ، او السجين رقم ٣٦٢ انفتحت المصاريع عنه في كل القوى التي كانت تتواصل كالشريط البائس الخجول من صفد الى عكا ، صار

فجأة موجودا لحما ودما حين غاب ، وحين لم يكن يوجد منه في الحقيقة الا اسماء لا رابطة فيما بينها مثل مزق راية مهترئة جرجرت من ميدان هزيم الى ميدان هزيم آخر ، وحين كان هو ذاته وراء قلعة الحجار ، تحت العتبة ، في غرفة اضيق من رئتيه اللتين تنفستا الدم والرعب والجرود ثلاث سنين كالدهر . الشيخ سلمان تحدث عنه تلك الليلة في الديوانية ، كان غاضبا في البدء ولكنه كان يهدأ كلما كان الفضول يغلب على التوقع القلق ، الغبسية كلها حاولت تلك الليلة ان تذكره بالتفاصيل ، ومضت سمرا تصهل طوال الليل وتضرب أكوام التبن بحافريها الدقيقين . الكابتن بلاك تحدث عنه وفي صوته رنة الثأر الدفين الذي انتعش . وفي مركز البوليس في عكا فتحت الاضبارات من جديد ونفض عنها الغبار ، وفي ترشيحا تذكره الناس فجأة وارتجف احمد القاضي حين سمع قصصه ومسح على وجهه كمن ينسرب مـــن كابوس جارح . وتذكر الحج سالم يوم تصدى له رجل طويل ملثم بين الزيتون وسلبه فرسه وتركه مقيدا في الوحل . وتذكر رجال كثيرون قصصا حدثت لهم ولجيرانهم او كادت تحدث لهم أو لم تحدث لهم ، وتنفس رجال عائلة الرخي ونساؤها الصعداء ، وثمة قرى بعيدة عرفت الاخبار ، وقبور سقيت بالماء من جديد وقد تذكرها الناس فجأة ووضعت في مزهرياتها جرود النخيل مرة أخرى.

●

قال الكابتن بلاك للميجور ماكلود فيما كان ينفض الغبار عن سترته : سأحتفظ به في سجن عكا من دون كل الناس . اعرف انه صار ينبغي ان يفتح ملفه من جديد ولكنني سأبقيه هنا ، أتفرج عليه كل يوم ، حتى أراه معلقا . انا لا أصدق انه ظل ساكنا طوال ذلك الوقت الذي اختفى فيه عن ابصارنا ، لا بد انه سلب شيئا هنا وقتل شخصا هناك وغدا سترى كيف ستتدفق الشكاوى .

وقال له الميجور ماكلود وهو ينظر اليه من فوق سريره الخفيف : لم أرك في حياتي سعيدا كما تبدو الآن ، يخيل الي انك تزوجت .

ـــ تزوجت ؟ اوف ؟ اكثر من ذلك بكثير ، انت لا تعرف شيئا ، لست تدري ماذا يعني أن يسقط عبد الكريم أخيرا .

ـــ اعرف ، كنت تقول ان ذلك يشابه ان تجد نفسك فجأة في فراش مارلين ديتريتش .

ـــ انا قلت ذلك ؟ متى ؟

وطوى سترته ووضعها على الكرسي فيما ترك أذنيه مفتوحتين على وسعهما ، وقال الميجور ماكلود :

ـــ بعد أن هرب منك آخر مرة ، اعتقد ان ذلك حدث منذ نحو ستة شهور ..

ـــ آه . اكثر قليلا . كان يوما مرعبا ذلك اليوم خلت فيهانني لن افقد مستقبلي فقط ولكن حاضري أيضا .

ـــ كنت مغتاظا جدا يومها ، ويبدو انهم انبوك بلا هوادة الى حد رفضت ان تروي لنا كيف حدث الحادث .

ـــ كان في الواقع سلسلة من المصادفات . كنا يومها في كوكبة من ثلاثة رجال خرجنا لنرافق جابي الضرائب الذي كان قد استعد للعودة من ترشيحا الى عكا ، كنت قد نسيت كل شيء عن عبد الكريم تقريبا ، وعلى أي حال فقد كنت ما زلت اعتقد يومها انه مختبىء في مكان ما حول طيرة دندن قرب يافا حيث شوهد هناك آخر مرة ، وحين كنا على وشك الخروج من البلدة خيل الي انني لمحت رجلا أعرفه ، مر من جواري على ظهر حصان مثلما يمر بك اي رجل في اية لحظة في اي مكان من تلال الجليل ، لم الحظ وجهه الا لفترة

أقل من اللحظة ذاتها ، وحين مر بنا بدا وجهه يتشكل في راسي قطعة صغيرة فوق قطعة صغيرة اخرى ، مثلما يحدث حين تمسح بقماشة مبتلة وجها عتيقا مغبرا متآكلا في لوحة ما ، وفيما كانت أصوات حوافر حصانه تدق نازلة رويدا رويدا ورائي كان وجهه يتكابر صاعدا في داخل راسي ، مرعبا ووهميا وعلى بعد ذراع . مثل كابوس فاجاك مرة اخرى ، بعد أن استيقظت ، وراء المنعطف .

ان الزمن خديعة . اصطلاح واحتيال والا لما كانت تلك اللحظة الواحدة أطول من اية لحظة غيرها ولما كان بوسع ذلك الزحام من الاوهام والحقائق والمشاعر ، برعبها وتوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد ، ان تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته ، للآخرين ، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها . دور الحصان عنقه فيما اخذت تخشن على جسده المشدود أجراس الفضة الصغيرة ، ورفعت بصري فاذا به ، الكابتن بلاك ، أمامي . كان مشغولا باحصاء رجاله وترتيب مسيرتهم الصغيرة فتقاطعت نظراتنا تقاطعا خاطفا دون ان تتصادم ، ومن ساقيّ اللتين كانتا تشدان حول ظهر الحصان العاري انتقلت الى جسده رنة القشعريرة فانتفض ، ولكني لجمته ومضيت هادئا مثلما كنت ، احصي دقات الحوافر تحتي ووراءي متوقعا ان تنقض السماء أو تتراجع في وهلة واحدة .

وتكوّن في راسي مثل زوبعة صغيرة . انه عبدالكريم بلا شك وانا الذي اعرف ، وقبل أن استدير أسمعته صوت البندقية تتأهب ومغلاقها يتراجع ويرتد ، وصحت : عبدالكريم! قف والا أطلقت النار !

ووقف الحصان من تلقائه ثابتا ولكنه ، مثلما اردت ، لم يستدر ، كان الفرار موتا ، وبدأت شتلات التبغ حولي تتقصف واحدة وراء الاخرى وتسقط في صدري فأسمع أصوات تقوضها كالعويل . مرة اخرى ، اذن ، يا كابتن بلاك .

وعرفت لتوي انه يدبر لعبة أخرى ، ويقف هناك يفكر في تنفيذها ، فغيرت مكاني بهدوء كي أفشل افتراضه دون أن أزيح عيني عنه وهو مستو هناك على ظهر حصانه يعطيني ظهره ببرود ، كان حصانه عاريا ولكنني لم أكن متأكدا من انه لا يحمل ، في مكان ما تحت قميصه الفضي ، سلاحا . . وقلت بهدوء وقد استعدت رباطة جأشي : انزل عن الحصان وتقدم رافعا ذراعيك . وبدأت أنزل عن ظهر الحصان دون ان يكون في راسي شيء معين ، ولكنني قبل أن المس الارض سمعت صوت الكابتن بلاك ترن فيه الشماتة : « عبدالكريم . . هنا ثلاث بنادق مصوبة اليك تماما ، لا ترتكب أية حماقة » .

ونزل بهدوء ، مثلما رايته دائما ، واستدار كأن الامر لا يعنيه ، رافعا ذراعيه ولكنه لم يتقدم ، وتبادلنا النظر وفهم كل منا ما حدث ويحدث وسيحدث دون كلمة واحدة ، واغلب الظن انه رأى نجمة جديدة تلمع على كتفي حين رأيت في اللحظة ذاتها سوادا قاتما يحيط بعينيه ، وقبل أن أطلب منه التقدم خطا جابي الضرائب الى الامام وهو يتنفس الصعداء :

— اي عبد الكريم هذا يا كابتن بلاك ؟ نحمد الله انك لم تطلق الرصاص على ظهر هذا الرجل البريء . . انه حسنين ، احد جامعي التبغ عند الحاج عباس ، كل ترشيحا تعرفه .

وكنت أشعر تماما ان الكابتن بلاك ظل طوال الشهور الستة الماضية فوق هذه الخديعة وخارجها ، وان الامر لن يغير شيئا ولكن ربما يعطيني لحظة أخرى افكر فيها ، ومثلما توقعت ضحك الكابتن بلاك تلك الضحكة العصبية التي تبصقها اسنان رجل يعرف انه لن يستطيع ان يكسب النقاش الا فيما بعد ، وهز بندقيته وهو يشير نحوي صائحا :

— انه عبدالكريم ، وانا الذي أعرف . . تقدم ببطء الى هنا .

وحدث الشيء الرهيب قبل ان اتم جملتي . كنا نقف وراء المنعطف مباشرة حيث لمحت عبد الكريم لاول مرة ، وكان يبعد عنا حوالي خمسة امتار ولكن وجهه كان متجها نحو المنعطف ، وهكذا فقد شاهد تلك الشاحنة اللعينة قبلنا حين اطلت بأنفها الاحمر منزلقة بلا صوت تقريبا حول الطريق الموحل ، وفجأة انقلب كل شيء راسا على عقب ، وفيما كان السائق يكبح شاحنته تطايرنا من امامه ناجين بأنفسنا ، وهكذا طار عبد الكريم مثل حلم .

كنت قد بدأت اخطو حين رأيت الشاحنة فجأة تسد الطريق فتفتح امامي ابوابا لا حصر لها ، لقد دارت اللحظة الراعبة دورتها الجنونية ، ووقف الكون كله على صهوة جواد . كانت الجياد جميعا تقف على طرف الطريق تتلهى بالتهام العشب ، وقد لمحت الكابتن بلاك يدور حول نفسه مذعورا حين كنت اعتلي صهوة اقرب جواد لي ، وحماني المنعطف عن ابصار الجميع ، وضربت كالريح في الوعر الذي يستعصي على الماعز .

لم يهرب عبد الكريم فقط ولكنه هرب ايضا بحصان الجابي ، وفي سرجه ضرائب منطقة ترشيحا كلها ... آلاف من الجنيهات مرتبة ومربوطة وكان من المفترض ان اكون مسؤولا عنها وحاميا لها ... انت لا تستطيع يا ميجور ماكلويد ان تعرف كيف اسودت الدنيا في عيني : فهاءنذا اقف هنالك ليس مهزوما فقط امام عبد الكريم ولكن امام كل الجليل ، ومن حيث اعتقدت انني سأنتصر زججت نفسي في معركة خسرت فيها شيئا جديدا ، لقد فجأتنا الحادثة جميعا ، ولكن جابي الضرائب كان اول من استرد وعيه فقفز كالضفدع المذعور الى حصان عبد الكريم العاري وحين استوى على صهوته نقل الجواد الابيض خطواته مكانها كي يحفظ توازنه ثم وقف كتمثال ، وعبثا راحت جهود الجابي وأزيز مهمازيه وسلخ سوطه ، فقد ظل الحصان واقفا كأن الامر لا يعنيه ، وكان علي ان اتصرف بسرعة فارسلت جنديا الى ترشيحا كي يبلغ ويستنجد ، وأرسلت الجندي الآخر في اعقاب الشاحنة خشية ان يكون سائقها متواطئا ، وعدوت انا ، على ظهر حصاني ، في اثر صدى عبد الكريم ... ولكن ذلك كله كان عبثا : فلا سائق الشاحنة كان شريكا في الحادث ، ولا النجدة وصلت في وقتها ، ولا انا عثرت على عبد الكريم ... اتدري ؟ كنت اقول لنفسي وانا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب ان الارض ذاتها هي المتواطئة والشريكة ، وانك كي تقبض على عبد الكريم عليك اولا ان تلقي القبض على الارض ... انك تبتسم ، ولكن لو كنت مكاني لفعلت مثلي ، وقفت فجأة واخذت اطلق الرصاص على الشجر ، على الصخر ، على البلان ، على شقوق السيول ، على الطرق الرفيعة التي تطل وتختبىء ... وكان صدى الطلقات يمضي في ذلك العراء ويرتد الي كالقهقهات ، وكان عبد الكريم ذاته وراء كل شيء في ذلك الجرد ، يقيسني بعينيه اللامعتين الخبيثتين ويضحك ، مع الارض ، على غضبي ...

كانت حوافره ثابتة كأربعة مسامير وهو يضرب فوق الشوك والصخور ويلتزم المنحنى مثل من تعلم ان يهرب ، وسميته « ريح » فاستجاب دون تردد ومضى ينفض عرفه معتزا وقابلا لشراكة الفرار ... وبعد نصف ساعة عرفت انني ضيعتهم مرة اخرى فابطأت ، وعندها فقط شعرت بالخرجين تحت فخذي ينطان برفق على ظهر « ريح » ، لوهلة حسبتهما محشوين بالطعام ، ولكن الملامسة خيبت املي . نزلت وانزلت السرج وفتحت الكيسين فاذا بالمكان الاجرد يزهر بتلك الاوراق الخضراء ، واذا باللحظات الخارجة عن العقل تدور دورتها الجنونية من جديد ، فهاءنذا مع رجل غني ، اغنى مما كنت احلم وانا طفل ، ورغم ذلك فانا لا استطيع ان اشتري شيئا ، ولا حتى كسرة خبز وليس لي في هذا الكون كله، من اوله الى آخره ، انسان استطيع ان أعطيه شيئا ، وفي الوقت نفسه فقد اضفت من حيث لا اعي صفحات سوداء جديدة ، مثيرة للغضب والهياج ، في سجلي الموجود في مكان ما ينتظر ان ينفض عنه الغبار ذات يوم ...

والكابتن بلاك المسكين ايضا ! يا لغرابة هذا الكون الرهيب ... فحين حسب انه استرد اسمه على ذلك المنعطف الجنوني خسر ، في لحظة كالبرق ، كل ما تبقى له من ذلك الاسم العريق الذي كان مرهوبا ذات يوم ... ان شفقتي عليه تزداد في الوقت الذي تزداد فيه رغبته بقتلي ... رفعت الاوراق الخضراء جاعلا من اصابع كفي مشطا كبيرا واخذت اقلبها مثلما الفلاجون يفعلون بأكوام السنابل ، وكان يكتسحني شعور أعرفه ينتابني حين احمل بندقية غير محشوة في لحظة تحبل بالخطر . وهمهم ريح وهو يرصد بأذنيه أية حركة يمكن ان تنأم حوالي فنظرت اليه مخلوقا قادرا على ان يعطي دون حدود ودون مقابل ودون كلمة واحدة ، وفي عينيه الواسعتين برق الحل : ليس بوسعنا ان نفعل شيئا الا ان ننتظر نهاية هذه اللعبة ، اخذت احفر بهدوء وهو ينظر الي ، ثم أعدت النقود دون ان أعدها الى كيسها الجلدي . حفرت عميقا في الارض حتى عجزت ، وضعت الكيسين فوق بعضهما ورصفت الحجارة فوقهما وحولهما ثم أعدت التراب ، وفي التراب زرعت من جديد شجيرات الشوك التي اقتلعتها في البدء بعناية ومن جذورها وقست المكان بعيني وخطواتي وتذكرته جيدا ، وعدت الى صهوة ريح فأخذ ينحدر وحده على السفح هادئا ، فيما أخذت العتمة تتسلق السماء وراء الجبال البعيدة . وسميت نفسي « قاسم » ، وكان « ريح » اول من عرف ، ومضينا طوال الليل نسير ونقف ونغفو قليلا ونتحادث ونغني بصوت خفيض ونبحث عما يتعين علينا ان نفعل ، وفي الصباح التالي اتفقنا ان نودع بعضنا ، فليس من الصالح بعد ان نظل معا ، نزلت عن صهوته حين كانت الشمس تشرق ومشطت عرفه باصابعي فنوّح دون ان يفتح فمه واخذ يهز رأسه وينفض عنقه وينقل حوافره وهو على باب قرار صعب ، ثم استدار فخبطت راحتي على مؤخرته ، مضى بطيئا اول الامر وهو يطأطىء رأسه ، ثم انطلق فجأة دون ان يلتفت واخذ يرفّ في ريح الصباح كالراية حتى غاب في الغبش .

نام الكابتن بلاك ملء عينيه تلك الليلة ، كان يصحو احيانا وهو يخشى ان يكون ما حدث مجرد حلم ثم يعود فيغفو دون ان تذوب الابتسامة عن شفتيه الحمراوين ، وكان الميجور ماكلويد يراقبه وهو يخرج من كابوسه الطويل ... ان الميجور ماكلويد يعرف تماما ان الكابتن بلاك سيكون اول من يبكي على عبد الكريم اذا ما شنق ... فقد كانا ، رغم كل شيء ، عائلة واحدة . وطوال شهور مديدة كان عبدالكريم كل شيء في حياة بلاك ، يمثل امامه ليل نهار اليأس والامل والخيبة والانتصار والدين والسداد في آن واحد . كان جزءا من مشاعره واضحى دون ارادته مقياسه للامور والاشياء ، وحتى عيد الميلاد كان بالنسبة للكابتن بلاك مناسبة يقيسها على عبد الكريم، وهو لن ينسى يوم قال له كئيبا : « بودي لو استطيع ان اتمتع باجازة الميلاد » وصمت قليلا ثم اكمل : « ان اقبض على عبد الكريم قبل العيد » .

ولكن العيد مر ، ذلك العام ، دون ان يقبض عليه ... كان قريبا منه الى حد كان يشمه مثلما تفعل كلاب الاثر ، ورغم ذلك فقد استطاع ان يفر من اصابعه . وشغل الكابتن بلاك شهورا بعد ذلك الحادث وهو يتعقب عبد الكريم ، شهورا ضائعة بلا ادنى ريب ... فها هي الاحداث تقول انه في الوقت الذي كان فيه الكابتن بلاك مشغولا بالبحث عن عبد الكريم في الجنوب كان عبد الكريم يختبىء خلف اسم حسنين ويقطف التبغ بسلام في حقول الحاج عباس في ترشيحا !

ولكن الحاج عباس ، حين استدعي للتحقيق اثر حادث حسنين مع الكابتن بلاك وجابي الضرائب ، لم يكن يعرف شيئا ... كان مثلنا جميعا ضحية رخيصة لذلك الرجل الصامت ، فقد جاء حسنين الى بيته في ترشيحا مشعثا ممزقا منهكا ، قبل نحو عام من الحادث وطلب مثل عشرات من الفلاحين في الموسم ، ان يلتحق بحقول التبغ يقطف

وينضد ويحرس وينقل ويحصي ، كان يصطحب فرسا سوداء وصرة صغيرة واوجاعا في معدته ولكنه كان رجلا قويا وفي ملامحه ما يطمئن .

كانت زينب قد كبرت فجأة في بيتي ، انبثق جسدها على حين غرة تحت ثوبها كأن الامر قد تم بين العشية والصباح ... كنا قد نسيناها تقريبا ، واعتاد الناس ان يقولوا : زينب ابنة الحاج عباس . وكانت تعيش في بيتي منذ كانت في الثالثة وكانت تقول عني والدها وعن زوجتي امها ولكنها كانت بلا شك تعرف الحقيقة ولا ترى لزوما لتعريفها او التذكير بها ، أن الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين رايت حسنين للمرة الاولى واقفا امامي يطلب عملا دون ان يلح ودون أن يتكلم كثيرا ودون ان تبدو في صوته رنة استجداء صغيرة ، نظرت فورا الى اصابع يديه ، وحين لم ار اي خاتم فيها قلت لنفسي : هذا هو زوج زينب . ولكنني سألته ان كان متزوجا فاجاب بالنفي ، وسألته عن أهله فقال انه يعرف فقط ان امه عادت الى حوران حين ارسل لها أخواله نعي والدها وتركته وحده يتدبر امره او يلتحق بأخواله ، وانه يعمل الآن ليجمع قليلا من المال يعيده الى بلدة امه التي لم يرها في حياته . وقلت لنفسي : « هذا هو الرجل » وكان كل ما احتاجه قليلا من الاصطبار . ان الاقدار تتساقط على رؤوسنا كالمطر من حيث لا ندري ولا نتوقع ، وها هي حكاية زينب تدور دورتها الواسعة ثم تصل الى نهايتها اللائقة ... الم تكن امها ، هي الاخرى ، من حوران ؟ يا رحمة الله عليك يا زيد !.. أكنت تدري حين فعلت فعلتك ان السماء لا تنام ؟ يومها نقم الناس جميعا على تلك الزيجة وقالوا : ذهب زيد الى يافا وعاد بعروس من حوران ... وصعقت قرى ترشيحا كلها حين عرف ناسها ان العروس كانت خادمة عند بيت الرخي ، ولكن لو فكروا يومها هكذا : ومن هو زيد ؟ انه فلاح منفرد لا يعرف أبعد من ابيه ولا يعرف احد من أين جاء ، التحق بزراعة التبغ اجيرا وحين صار في جيبه خمس جنيهات سافر بها الى يافا فماذا به يتزوج هناك ويعود بها ... فماذا كان سيحدث ؟ ولكن الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين انفجرت الثورة في الجبل اختفى زيد مثلما ظهر تاركا في ترشيحا زوجته وابنته الصغيرة دون ان يترك لهما شيئا ... وقلنا يعود زيد اليوم ، ويعود زيد غدا ويعود بعد اسبوع ويعود بعد شهر ... ولكنه لم يعد الا بعد ثلاثة شهور جثة مطرزة بالرصاص ومحمولة على ظهر حمار . وقال الناس : هذا زيد وهذا بيته ، وساق الانكليز الحمار الى البيت ، واطلت زوجته ونظرت اليه وقالت للعسكر : « انا لا اعرف هذا الرجل » ... مسكينة ، حسبت ان ذلك سوف يحميها من العقاب ولكنها كانت امرأة بلا ظهر ، وحيدة اكثر من فأرة الحقل زمن القحل ... وحين اخذوها جاؤوا بزينب الصغيرة الى بيتي . وقلنا : تعود امها اليوم ، وتعود غدا وتعود بعد شهر ، ولكنها لم تعد ، ولم يعرف احد ماذا حدث : لقد التحق زيد بالشيخ القسام في تلال يعبد مجذوبا بالكلمة القصيرة الكافية التي كان يقولها ذلك الرجل : موتوا شهداء، فمات زيد وضاعت اخبار زوجته وظلت زينب في بيتنا ، وقالت زوجتي : نتركها هنا ، وغدا تكبر فتخدم وتنفع ويأتي نصيبها فتتزوج وتكسب ثوابها ... فأي ثواب اكثر من ان نزوجها لرجل لا يعرف عنها الا انها من داري ؟ طويت الفكرة في رأسي بانتظار الوقت المناسب وقلت لحسنين : « اذهب الى الحقول ، وستجد العمل هنا مريحا ومربحا اذا كنت انت مريحا ، وعلى اي حال فان سلوكك وحده هو الذي سيحكم عليك ، واذا كنت طيبا فسترضى » .

واخذت انظر الى الحاج عباس جالسا وراء سبحته المصنوعة من بزر الزيتون وقد لمعت حباتها بين اصابعه الثخينة ، ورايت في عينيه الباسمتين ما يشبه الفخ ، أتراه يعلم ؟ انه يريدني لصفقة صغيرة مجهولة ، الايام وحدها ستظهرها . أتراه يعلم ؟ أيريدني ان اقتل رجلا واتركه يمسح اصابعه في قميصي الملطخ ؟ ولكنني كنت أريد العمل بأي ثمن فقد

كان العمل بالنسبة لي اكثر من طعامي وشرابي ، كان مخبأي بعد ذلك الحادث التعيس وكنت لا أملك في هذا العالم الا مرتينة جيدة مدفونة في مكان لا يعرفه أحد ، وحقدا أحمر يطل من حدقتي الكابتن بلاك اثر النزال الاخير بيننا أمام شجرات الصبار الوحشي في الطيرة .

كان حسنين يرتجف ، ولكن بكبرياء .. واحسست وانا انظر اليه واقفا هناك ينقب في كلماتي القصيرة انني أمام رجل خاص . أجل . هذه هي الكلمة . رجل خاص لست تستطيع أن تعرف عنه اكثر من احساسك به ، وسيظل يطوي سره بعناية مثلما يتوجب علي أيضا . لقد عبرت الصفقة الصغيرة بيننا في ذلك الصمت الصاخب فبت في اللحظة ذاتها التي عرف فيها انني أخبىء له سرا اعرف أنه يخبىء هو الآخر سرا آخر في المقابل، وحين جاءت هذه الفكرة الى رأسي نظرت اليه فأخذ يبتسم ابتسامة صغيرة، كالمصافحة، ودون أن يقول شيئا استدار ومضى .

ذهبت الى الاسطبل فوضعت « الهيجا » في مربطها وعلقت لهـا واستلقيت على كوم التبن جاعلا من صرتي وسادتي واخذت انظر اليها واقفة هناك تضرب حوافرها برضى ، فهي الاخرى وجدت سقفها ومربطها بعد طول طراد ، ان الخيل تشبه الشجر وبوسعي التيقن من هذا حين أرى هيجا بالذات تقف على قائمتيها الخلفيتين وتخبط ذراعيها في الهواء رافعة عنقها الطويل الى الاعلى مصدرة صهيلا راجفا مثل صوت الريح حين تتسرب عبر أغصان شجرة متوحدة ، في أي أرض كنت يا هيجا ؟ ان اقدار الخيل مثل اقدار الرجال ، اني ذلك ايما شك ؟ ومثل أقدار الرجال تتلاقى اقدار الخيل في البراري وتحت جبال الليل ، ولولا ذلك لما لاقيت الهيجا ، ولما كان بوسعي أن اكمل فراري من الطيرة ، لقد هربت بعد اللقاء الاخير مع الكابتن بلاك راجلا وفي يدي بندقية جديدة ، وبعد ليلتين سلبت فرسا أصيلة من رجل كان يغني وحده في الليل وكنت اعرف ان علي التخلص من هذه الفرس في أول فرصة ، فأنت لا تستطيع الا تكون معروفا حين تكون مع فرس أصيلة مفروقة ، ولكن أقدار الخيل تتلاقى مثل اقدار الرجال ، وفي الليل ، بعيدا وراء تلال طولكرم وعلى مدارج كفر عناب سمعت أصوات حوافر تسترق الخطو، فقلت : أستبدل فرسي . رفعت كوفيتي حتى جفني وتيبست مع الحصان وراء المنحنى ، ورأيت شبحهما يندمج كتلة من السواد ، ولكنه رآني في اللحظة ذاتها وسمعت فولاذ بندقيته يمضغ الطلقة ، وقال صوت بدوي : أهذه فرس أصيلة ؟ ولم أجب فتقدم على ظهر فرسه خطوة ، وتبينت جزءا من وجهه النبيل المتكبر وقال لنفسه : انهـا فرس اصيلة . ودار حولي واثقا من فرسه ثم دفع فوهة بندقيته في خاصرتي وقال : وأنت ايضا سرقت هذه الفرس . وهززت بندقيتي برفـق وحركت فرسي حوافرها وشمت بصوت مسموع ، وكانت الصفقة تتم ببساطة بيننا نحن الاربعة ، انزل بندقيته وقال : اعطني فرسك وخذ فرسي ، ونزلت عن صهوتها في اللحظة التي نزل فيها ، ونظر اليها وهو يعطيني اللجام وقال ، كأنه يحادثها : انهم يسمونني ابو الهيجا ، سرقت هذه الفرس في البادية وجئت استبدلها هنا ، وسأعود بفرس لا يعرفونها .. ونظر الي : وهذه فرس لا يعرفونها هنا .. وبهذه البساطة تداخلت أقدارنا نحن الاربعة في بعضها ، امتطى فرسي وامتطيت فرسه واسميتها « هيجا » ومضينا دون أية كلمة ، عاد هو الى باديته وراء الحدود وضربت انا مع هيجا شمالا .. من اي أرض جئت يا أصيلة ، يا امرأة ، يا شجرة ؟ كانت تغطس رأسها في التبن وتمضغ بدعة، وجاء الرئيس فنظر اليها ودار حولها فبادلته النظر ، ومشط عرفها بأصابعه ثم جاء نحوي دون أن ينظر الي وجلس الى جانبي وهو يفتح علبة من المعدن الصدىء ثم دفعها نحوي وهو يقول : لف سيجارة ، انه تبغ ممتاز ، وأخذنا نلف سيجارتين صامتين ، وبلعت الدخان حتى قرارة رئتي فاغتسلت أعماقي بشهوة لا مثيل لها وكان ينظر الي فاحصا دون ان يقول شيئا .

لقد شاهدت في حياتي عددا قليلا من الرجال يجترعون الدخان بهذه اللذة ، وكان حسنين منهم ، لا شك انه اشتهى هذه اللفافة منذ ولد ، وربما جاء الى هنا كي يضع دخانها في صدره ويمضي ، لم يبد في تلك اللحظة راغبا في اي شيء آخر من الحياة كلها ، وكان كل شيء في هذا الرجل يقول لي انه سيكون فلاحا صعبا ، وقد تعلمت دائما ان الرجال الذين يمتلكون فرسا أصيلة يصعب التعامل معهم من فوق ولذلك ، فهم لا يبيعونها حتى لو فتك بهم الجوع ، انها ـــ لهم ـــ اكثر من صهوة أمينة ، انها ملاذ وصديق وشقيق في وجه العالم .

وقال لي « انا الرئيس هنا ، قال لي الحاج عباس عنك . وغدا سنبدأ معا » . ولكنني كنت أعرف انه يريد أن يقول شيئا آخر ، وخذله صمتي فقام بطيئا ، وعاد الى الهيجا فخبط يده برفق على ظهرها العاري ونظر الي :

ـــ « انها فرس لا تقدر بثمن » وهزت هيجا رأسها برضى وحكت أنفها على ظاهر يده وعادت الى علفها ، وقال الرئيس قبل أن يترك المكان « سيكون لنا حديث طويل غدا »، واذ خرج جاء رجل آخر وقف على الباب وهتف : الحاج عبـــاس يريدك يا حسنين ، وقمت ، وكان الحاج عباس واقفا امام الاسطبل ينظر الى ثلاثة اكياس من الطحين ملقاة فوق بعضها ، واشار نحوها دون ان ينظر الي ، وتطوع الرجل الاخر فحكى : « يريدك أن تدخلها الى البيت » ، وسحبت كيسا فوق بلاط المدخل الخشن ، ثم استدرت وعطفته على ظهري ودخلت ، ووراءي جاء صوت امرأة يقول « الى الامام قليلا » ، وحين وضعته نظرت اليها فقالت وهي تبتسم : أنا زينب .

ولم أكن على استعداد لأرى ذلك الوجه حين استدار الظهر المغبر بالطحين ، ولكنني حين فوجئت بعينيه السوداوين تنظران الي لم اجد شيئا أقوله غير اسمي ، كان شابا في أواسط العشرين ان كنت أحسن تقدير الاعمار ، صلبا طويلا وله كفان كبيرتان تلفتان الانظار . انهما تذكران بالحائط . وكان قميصه الفضي ممزقا ومفتوحا عن صدر أسمر مشدود العضلات ، وكانت عنقه مشعرة وقوية تحت ذقن تكـــاد تكون مربعة كحجر محطم سقط هناك بالصدفة ونبت عليه طحلب أسود شرس وقصير .. وحين نظرت الى كتفه لاحظت ذلك الخط الداكن الذي خلفه هناك ، بلا ريب ، حزام بندقية . واستدار دون ان يقول شيئا وخرج ، ومن شق الباب رأيته يعالج الكيس الآخر بقدمين ثابتتين كجذعي شجرة . وسمعت « عبود » يقول له : « قول الله يا حسنين » فقلت لنفسي : اسمه حسنين .

ودخلت بالكيس الآخر وتركته ينزلق عن ظهري الى جوار الكيس الاول ، ومرة اخرى سمعت صوتها يقول : « الله يخليلك هالهمة يا حسنين » فهززت رأسي مشغولا بتسوية الكيس واقفا ، ولكنها قالت : من اين انت ؟ وحاولت أن أجيب حقا ، ولكنني سمعت صوتا ورائي ، وجاءت خطوات الحاج عباس هادئة كأنها تسترق شيئا فعدت أدراجي الى الخارج لاحمل الكيس الثالث وظل الحاج عباس واقفا الى جوار زينب ، وحين رجعت بالكيس كان ثمة شيء جديد في جو الغرفة الرطب استشعرته في نظراتها الي . ووقف واخذ ينظر الينا واقفين معا ، زينب وأنا . كأننا أب مع ابنته حقا ، وعندها طلبت منه أن يسوي الكيس الى جانب الكيسين الآخرين ففعل دون تردد ، لقد بدا الكيس اصغر من المعتاد وأخف وزنا حين شاله من أذنيه بين ذراعيه القويتين وحطه دون عنف في المكان المناسب ، وفجأة وجدتني اقول له ما كنت أنوي أن اقوله له بعد شهـــر أو شهرين :

ـــ سأعطيك زينب يا حسنين ان نويت على الخير .

وكنت أتوقع أن يحدث كل شيء ، تلك اللحظة ، الا أن اسمع الحاج عباس يلفظ تلك

الجملة بهذه البساطة ، وكأنما من وقع اللطمة المفاجئة طار بصري الى زينب دون ارادة مني فاستدارت منتفضة وهرولت صوب الباب ، ولكنني ، في أقل من اللحظة ، شهدت وجهها ورأيته جميلا حقا ، وضحك الحاج عباس بما يشبه الغرغرة ، مثلما يضحك الرجل الذي يرغب في ترقيع موقف مليء بالثقوب وتقدم نحوي خطوة واخذ يضرب كفه العجوز على كتفي وهو يقول : انها بنت طيبة ، ضع عقلك في راسك .

اليوميات الفلسطينية

أول وأدق سجل علمي شامل للقضية الفلسطينية

في تطوراتها وأحداثهـا واخبارهـا

مـدة ست سنـوات ونصف السنة

(من ١٩٦٥/١/١ الى ١٩٧١/٦/٣٠)

ثلاثة عشر جزءا كل جزء يغطي نصف عـام

٧١٠٠ صفحة مـن القطع الكبـير

سعر المجموعة ١٤٥ ل. ل.

(عدا اجور البريد)

اطلبها من قسم التوزيع في مركز الابحاث ـ م. ت. ف.

ص. ب ١٦٩١ ـ بيروت

دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني

عمر سرحان

لا نعرف الكثير عن الحياة الشخصية للدكتور توفيق كنعان ، رائد حركة احياء الفولكلور الفلسطيني ، وان كنا نملك مادة وفيرة من كتبه ومقالاته التي استمر ينشرها تباعا ابتداء من العشرينات من هذا القرن . وقد كان يعمل طبيبا في المستشفى الالماني في القدس . واصبح في عام ١٩٢٧ رئيسا لجمعية الاستشراق الفلسطينية . ويبدو ان الدكتور كنعان نشر معظم دراساته وابحاثه باللغتين الانكليزية والالمانية(١) وان المادة الوفيرة التي جمعها عن ملامح الحياة الشعبية الفلسطينية كانت مكرسة لتعريف الانسان الغربي بحياة سكان فلسطين ـــ الاراضي المقدسة .

وتقول د. هيلما جرانكفيست الباحثة الفنلندية المتخصصة في دراسة الحياة الشعبية الفلسطينية ان د. توفيق كنعان باحث محنك تمرس في دراسة المأثورات الشعبية الفلسطينية منذ فترة طويلة . وتصفه بأنه صديق قديم لها تعرفت عليه اثناء عملها في ميدان الفولكلور الفلسطيني في الفترة بين عامي ١٩٢٥ ـــ ١٩٣١ . وفي عام ١٩٥٩ قابلته جرانكفيست ثانية عندما زارت القدس مجددا . وتقول جرانكفيست ان الرجل اذ ذاك كان مريضا . وكان فقد بيته ومكتبته ومجموعاته ومخطوطاته عندما اصبح بيته في المنطقة الحرام في القدس بعد حرب عام ١٩٤٨ . ومع ذلك فهي تشهد له في ذلك الوقت بأنه ظل على نشاطه المعهود يقرأ ويكتب ويجمع المادة الفولكلورية الخام ويلقي المحاضرات في هذا المجال .

ونحس بذلك الحماس المتوقد لدى الدكتور توفيق كنعان والرغبة الصادقة في جمع ملامح الحياة الشعبية في ما يكتبه في مقدمة كتابه « المزارات والاولياء المسلمون في فلسطين » حيث يقول : « ان الملامح البدائية لفلسطين تختفي بسرعة كبيرة . ولن يمضي وقت طويل حتى تتلاشى هذه الملامح نهائيا . ولذلك فانه من واجب كل طالب ودارس فلسطيني متخصص في دراسة الفولكلور أن لا يضيع أدنى وقت وأن ينشط لجمع العادات والمعتقدات الشعبية والملامح الفولكلورية الدارجة في فلسطين » . ويضيف الدكتور كنعان في مكان اخر من المقدمة فيقول : « وأنا كابن لهذه البلاد شعرت أنه من واجبي أن أعاون في هذا الجهد العلمي . وبما انني لا ادعي انني دارس محترف فانني أحاول هنا أن أضع المادة الفولكلورية الخام كما جمعتها تاركا للدارسين المحترفين امور تفسيرها ومقارنتها » .

وتأتي دراسة الكاتب الحالي لاعمال توفيق كنعان المنشورة بالانجليزية كمحاولة اولية لنفض الغبار عن تلك الاعمال الاصيلة تمهيدا لنقلها او نقل الافكار الرئيسية فيها الى اللغة العربية والتنويه بأبرز ملامح الحياة الشعبية وعلى الاخص منها المعتقدات الشعبية التي تبرز الثقافة الاساسية والبدائية للانسان الفلسطيني . وتكمن اهمية المادة التي جمعها الدكتور كنعان في أن هذه المادة قد جمعت في وقت مبكر من هذا القرن ، ذلك الوقت الذي عاش فيه العديد من الرجال والنساء المسنين الذين عاشوا ومارسوا تلك المظاهر الحياتية التي اثبتها لنا الدكتور توفيق كنعان . ومن جهة اخرى

ان الكاتب الحالي يشعر انه من الضروري جدا ان يلفت انتباه المؤسسات الثقافية الوطنية والافراد ذوي الاهتمام والغيرة على تراث الشعب الفلسطيني الى اهمية مثل هذه الدراسات التي تصور طابع الشعب وتخلق الصلة المعنوية بين الانسان الفلسطيني المشرد وبين أرضه المحتلة التي يحاول الاعداء ان يطمسوا معالمها ويذيبوا شخصيتها تمهيدا لابتلاعها وانكار حق اهلها فيها . ان اثبات مفردات الحياة الشعبية الفلسطينية في عمل موسوعي كبير مدعم بكشف بالمراجع الاجنبية والعربية والتي تعرضت لدراسة الحياة الشعبية الفلسطينية وخاصة ما نشر منها قبل الهجمة الامبريالية الصهيونية على أرض فلسطين يمكن ان يضع أمام القارىء العربي والاجنبي صورة وثائقية عن حياة الشعب الذي يعيش الان في المنفى وتوضح العلاقة الوثيقة بين الناس المشردين وأرضهم المحتلة .

المزارات والاولياء في فلسطين(٢)

تعتمد دراسات الدكتور كنعان لهذا الموضوع على زيارته وملاحظته الشخصية لـ ٣٢٥ مزارا في فلسطين ، كما انه جمع معلومات وافرة عن ٣٤٨ مزارا اخر . ويقول د. كنعان انه كان يحضر الاحتفالات والاذكار والموالد التي كانت تقام في تلك المزارات كما جمع مجموعة كبيرة من الحكايات التي تفسر الظواهر المتعلقة بموضوعه ، واعتمد في دراسته على مجموعة من الأشعار الصوفية والمدائح والامثال والاقوال المأثورة . وكانت لديه مجموعة من الحجابات التي صنعها المشايخ بهدف البركة والعلاج الشعبي . ويقول د. كنعان عن طبيعة دراسته : « ان هذه الدراسة توصل القارىء بشكل مباشر للحياة اليومية في فلسطين ، وتوضح كل ما هو غامض في اذهان الناس في مجال المعتقدات والخرافات الشعبية . كما تعطي هذه الدراسة مقارنة مع ما كان سائدا في الازمان البدائية ، وتظهر ان العديد من المعتقدات والخرافات ظلت منذ الاف السنين عالقة في اذهان الناس في الوسط الشعبي » . ويعرف الدكتور كنعان المزار ويقول انه لا يعني بالمزار ذلك المكان الذي يدفن فيه نبي أو ولي من أولياء الله المعروفين فحسب بل يعني بالمزار كل حرم او معبد او ضريح أو شجرة او شجيرة ، او كهف او نبع او بئر أو صخرة والتي يوليها الناس تقديسا او احتراما خاصا سواء كان ذلك يعتمد على معتقدات دينية او خرافية .

وبعد ذلك يفيض المؤلف في دراسة مواقع المزارات المنتشرة في فلسطين وانماطها ويدرسها من الناحية المعمارية والمعتقدية ويوضح وجود النموذج الامثل للمزار الذي يضم ضريحا وقبة ومقاما ، وتلك المزارات التي لا تحوي ضريحا وتلك التي هي مجرد « حويطة » أو كومة من الحجارة . ويعدد المزارات بأسمائها ومواقعها في فلسطين . ويتحدث المؤلف عن الطقوس والممارسات الدينية التي يمارسها الشعب في هذه المزارات والتي تتلخص في أداء العبادات وقسم الايمان والوفاء بالنذور وطلب البركة والشفاء . ويذهب الفلاح الفلسطيني الى المزار للحصول على البركة التي تشع من المكان المقدس لكل شخص يتصل به او يمر بيده على الستائر والضريح والبناء . كما اعتاد الناس أن يودعوا ممتلكاتهم المنقولة لتكون في حمى الولي ، اما الممتلكات غير المنقولة مثل المحاصيل في الحقول فانهم يضعونها « بوجه الولي » اي يعلنون انها تحت حمايته فلا يجرؤ احد على مسها .

ومن الممارسات الشعبية في المزارات ذات الصبغة السحرية ربط الخرق بنوافذ المزار واشجاره . ويعلل المؤلف هذه الظاهرة فيقول انها تهدف الى اثبات زيارة الانسان للمقام وتذكرة الولي بالزائر ورغباته . ويربط المريض الخرقة ويقول : « رميت عليك حملي يا ولي الله » . وهذا النوع من الممارسة الشعبية يسمى بالسحر الاتصالي . اذ ان كل شيء كان على اتصال بشخص ما او كان له به علاقة سوف يستمر بحمل العلاقة

مع ذلك الشخص . وهكذا تظل الخرق تحمل رغبات الشخص الزائر وأمله بالشفاء . وبمرور الوقت تأخذ الخرق شيئا من قوة الولي وتنقلها للمريض . ويذهب الفلاح لزيارة أولياء الله في مزاراتهم طالبا الشفاء وواعدا الولي بتقديم أضحية اذا من الله بالشفاء . وقد يأخذ الفلاح شيئا من الزيت او القماش او الماء او الحجارة من المزار او مما يجاوره ويستعمل كل ذلك كوسائل للحصول على الشفاء . كما يذهب الناس ومعهم أحد المتهمين بارتكاب ذنب ما ليقسم اليمين في المزار . وفي ذلك تأكيد للمتهم بأن الولي سيتسبب في ايذائه اذا كان كاذبا . ويورد المؤلف نص احد الايمان الشعبية التي كان يؤديها المتهم في المزار . يقول اليمين : « والله ومحمد رسول الله / والله وما اعز من الله / وحياة هالعود والرب المعبود والنبي داهود / والصليب الحي / وحق القبلة المحمدية / وحق هالكنيسة والساكنين فيها / وباب هالشرق معبد النصارى / والكعبة / والمهد الشريف / والمصحف / ولحية النبي / وحق عوينة هالشمس المقربة لطاعة ربها / وحياة هالشارب / وحياة الماي المطهرة الحي والميت / وحياة الماي الجارية والسموات العالية / وحياة هالشجرة اللي تشرب من عرقها وبتسبح ربها / وحياة هالبساط الاخضر اللي طلع من الارض خرسا طرشا وحق من يعلم كم ورقة في هالشجرة وكم شعرة في هالحيوان ... » .

وتقدم النذور للمزارات ولوجه الشيخ وفاء بوعد قطعه مريض او صاحب حاجة . ويقول الشخص « نذرن علي لاقدم كذا وكذا اذا شفي ابني او حملت زوجتي او ... » . ومن الاشياء التي تقدم وفاء بالنذور تقدمات لتجميل المزار واصلاح بنائه ، كما تقدم الاضحيات أو المساعدات المالية للفقراء باسم شيخ المزار او الولي .

المعتقدات الشعبية حول الماء والابار والينابيع(٢)

لقد احتل الماء وما زال مركزا ممتازا في حياة الشعب الفلسطيني وسكان الارض العربية نظرا لندرته . واتخذ تلك الاهمية الكبيرة بحيث اصبحت استعمالات تمس أمورا مقدسة وممارسات اعتقادية تتصل بالطب الشعبي والاحتفالات الدينية ومضامين الخرافات . ولم يقتصر استعمال الماء ضمن هذه المعتقدات على الاحياء بل الاموات يحتاجون الماء . ويقول المعتقد الشعبي ان ارواح الموتى تنطلق ايام الجمع وهي تحمل « ظروف » الماء لتملأها من الينابيع .

يناقش الدكتور كنعان في دراسته لهذا الموضوع مسألة وجود « الينابيع المسكونة » والتي مؤداها ان ينابيع معينة تسكنها ارواح خيرة او ارواح شريرة . ولا تظهر هذه الارواح الا لشخص وحيد في النهار او في ساعات الليل . ومن أهم الاسباب التي تجعل الناس يعتقدون أن نبعا معينا مسكونا هي ان يكون النبع في مكان مهجور او في غابة او دغل كثيف الاشجار ، وان لا تصل اشعة الشمس الى مصدر النبع . ويتحقق ذلك الانعزال بوجود كهف أو شق من الصخور او قنال قديم يكون مدخل النبع . وتبدو هذه الظروف مواتية ومحببة للارواح وتكون على اتصال بداخل الارض وبالنجم « زحل » . ويستعرض د. كنعان الينابيع التي تنبثق بشكل دوري ، اي انها تدفع مياهها في وقت ما في حين تتوقف عن الجريان في وقت اخر . وتلك مسألة أثارت خيال الناس وانبثقت عنها معتقدات خرافية جميلة . لقد وجد الناس تفسيرا ذا صلة بالاعتقاد بالارواح الحارسة للمياه وهو اعتقاد منسجم مع الموروثات الدينية . انهم يعتقدون ان العين الدورية تسكنها اثنتان من الارواح : الأولى روح بيضاء والثانية روح سوداء . وكلا الروحين في صراع سرمدي دائم . وعندما تنتصر الروح الحرة تفسح المجال امام الماء لينساب لمنفعة البشرية العطشى . ولكن سرعان ما تنهض الروح المستعبدة السوداء وتستأنف المعركة . وعندما تنهزم الروح الحرة يغلق منفذ الماء .

ويعطي د. كنعان تفسيرا مبنيا على معتقد شعبي لظاهرة الينابيع الساخنة . يقول : « هناك عدد كبير من الارواح تسخن المياه باستمرار قبل ان تنفذ الى سطح الارض . ويستحضر الوقود من مسافة بعيدة . لقد أمر الملك سليمان الجن أن يقوموا بهذا العمل ليمنحوا سكان فلسطين حماما طبيعيا ساخنا وبما ان الارواح عمياء وطرشاء ولا تعلم بموت سيدها الملك فقد ظلت تخشى عقابه واستمرت تقوم بعملها . ويسود اعتقاد مماثل حول « الحمام التركي » اذ يقال : « سكانه بحموه » اي ان الارواح التي تسكنه هي التي تسخنه .

ويرى د. كنعان أن هناك صلة بين المعتقدات الحالية للشعب الفلسطيني وبين المعتقدات الاثنولوجية القديمة لسكان فلسطين . وهو يرى أن الينابيع التي يعتقد الان بأنها مسكونة بالارواح كانت في الماضي ينابيع مقدسة ومكرسة لعبادة الالهة المتعددة في فلسطين . وان ارواح الالهة لا تزال تزور تلك الينابيع — على حد المعتقد الشعبي — وان تغيرت اشكالها ، وقد ظلت الفكرة الاساسية سائدة . ويعتبر د. كنعان المعتقدات الحالية كرواسب متبقية من الممارسات الدينية القديمة في فلسطين . ويفسر ذلك ان العديد من الينابيع الموجودة حاليا ظلت تؤدي اغراضا علاجية كما هو الحال منذ عهد التوراة . ومن ذلك عين سلوان وحمام ستنا مريم وعين ام الدرج وحمام الشفا . وللسبب نفسه نجد ان هناك تقدمات تقدم للارواح حارسة المياه ، فتقدم الشموع والازهار لحمام ستنا مريم وتقدم المصابيح لغير هذا النبع . وتؤدى صلوات وادعية ويحرق بخور عند بعض الينابيع كما هو الحال عند نبع جفنا . وتسمع عند بعض الينابيع صلاة وصوت جمهور غير مرئي .

ان ملاحظات د. كنعان حول الابار المسكونة بأرواح خيرة وشريرة تدور حول الخوف من الارواح بنوعيها ، واذا كانت ارواح أولياء الله تقدم العون للاخيار فانه لا يجوز الاقتراب منها في حالة لا تظهر عدم الاحترام لاولئك الابرار . ولذلك لا يجوز لامرأة مؤمنة ان تقترب من نبع مقدس او تمسه وهي غير طاهرة . واذا حصل ذلك فان الولي سيعاقب مثل هذه المرأة باصابتها بمرض في جسدها . وقد يعاقب البلد بأكمله ويوقف جريان النبع . ولذلك لا يجرؤ احد على الاقتراب من نبع تسكنه روح رجل مقدس دون ان يذكر اسم الله او اسم الولي او القديس الذي يسكن ذلك المكان وخاصة اذا كان الوقت ليلا او كان الشخص يسير ليلا بمفرده في مكان مهجور . واذا لم يفعل الشخص ذلك فانه سيلقى المتاعب . أما الارواح الشريرة التي يمكن ان تصادف شخصا ما فانها قد تتبعه وتصيبه بالمرض والضعف وحتى الموت . ويمكن ان تقوم هذه الارواح بتجفيف مياه هذه الينابيع وخاصة اذا اقتربت منها امرأة غير طاهرة . وفي جفنا فان القسيس يذهب الى البئر الجاف فيتلو الدعاء ويحرق البخور ليسترضي الجنية او يجبرها على اطلاق سبيل الماء .

وهكذا يكون الخوف من الارواح بنوعيها القاسم المشترك للمعتقد الشعبي حول هذه الكائنات التي تحتل مكانا غامضا جدا في اذهان الناس .

الاواني السحرية(٤)

طاسة الرجفة او طاسة الرعبة اناء ذو قدرة سحرية مبنية على الكتابات المثبتة عليه . واذا ما شرب من مائه الشخص الخائف فانه يشفى . وقد اجرى د. كنعان دراسات على ٥٨ عينة من الاناء المعروف بطاسة الرجفة (أو طاسة الرعبة ، الخوفة ، الخظة) . ولا يتوقف أثر هذا الاناء السحري على شفاء المصاب بحالة الخوف انما هناك العديد من الامراض التي يشفى اصحابها اذا ما وضعوا ماء في هذه الطاسة وشربوا منه . وقد أورد المؤلف عشرات من الكتابات التي نقشت على تلك الاواني والتي توضح

القدرة الشفائية السحرية لتلك الآنية . وانقل للقارىء احدى هذه الكتابات كما اوردها المؤلف حرفيا : « وباذن الله تعالى تشفي هذه الطاسة النادرة من السموم كلها وقد جمع فيها منافع مجربة وهي للسعة الحية والعقرب والحمى ... للمطلقة والفرس المعلة للكلب والمغص وللقولبخ للشقيقة للطحال والقوة ... الدم ولابطال السحر وللعين وللنظر وللرمد والنزلة والرياح والارواح والبواسير للخلط البارد ولسائر العلل » . وتتضمن كتابة اخرى على احدى هذه الاواني رموزا غير مفهومة وان كانت ذات دلالات سحرية عند كاتبها . من ذلك هذه الكتابة التي تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . اذا السماء انشقتواذنت لربها وحقت واذا الارض مدت والقت ما فيها كذلك تلقي الحامل للجنين سالما باذن الله والله يخرجهم اخراجا وان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا . انصرف أيها القولبخ يانوح بنوح كلوخ كلخ الم المر ح م ع س ق ك ه ي ع ص ط ه س م ي س ن » .

ويفسر د. كنعان دور الآنية السحرية تفسيرا يتصل بالاعتقاد بقدرة النجوم والذي يلعب دورا مهما في حياة الناس في الوسط الشعبي الفلسطيني . وهناك اعتقاد ان لكل شخص برجا خاصا ، وهذا البرج يحكم مجرى حياته . وان علاقة هذا البرج مع غيره يسبب لصاحبه الخير او الشر . ولذلك فان على كل شخص ان يعرف نجمه ، ولما كان ذلك صعبا فانه يشرب من « الطاسة » والتي فيها الابراج الاثنا عشر والمتضمنة برج ذلك الشخص بالتاكيد . ويورد المؤلف حكاية عن أصل هذه الطاسة فيقول ان الجن اعتادت ان تستعمل مثل تلك الطاسة في الاستحمام . وذات مرة ذهب جن ليستحم بالقرب من نبع وبعد أن أنهى الاستحمام نسي الوعاء السحري بالقرب من النبع . واتفق ان مر بالمكان شخص محظوظ ووجد الوعاء فأخذه . وفي وقت قصير تمكن ذلك الرجل من اكتشاف مميزاته . وبمرور الزمن صنعت نسخ من الاصل واثبتت ان لها ميزات الاصل نفسها . وتدل الحكاية على ان القوة السحرية لا تعود لمعدن الاناء وانما للكتابات الموجودة عليه والمتضمنة كلمات من القرآن وأسماء الله والملائكة والكواكب والنجوم والجمل السحرية . وهنا يكمن السبب في أن طاسة الرجفة لا يجوز أن يمسها سوى شخص طاهر كما أنها تلف وتحفظ في مكان نظيف طاهر وباحترام كبير . واذا اضطر شخص غير طاهر لنقلها فانه لا يمسها بل يلفها بقطعة من القماش . وهناك من يعتقد ان هذه الطاسة ربما فقدت بعض قوتها اذا تعرضت للشمس الساطعة . وتستحضر الان معظم نماذج طاسة الرجفة بواسطة الحجاج الذين يذهبون الى مكة لاداء فريضة الحج . ويعتبر الناس ان تقديم هدية مثل طاسة الرجفة شيء ذو قيمة كبيرة جدا . ولا يقتصر استعمال طاسة الرجفة على الوسط الشعبي المسلم . وتتضمن قائمة الاواني التي أجرى عليها الدكتور كنعان دراساته أواني مأخوذة من أسر مسيحية .

البيت العربي الفلسطيني(٥)

كرس الدكتور كنعان الجزء الاكبر من دراسته للتحدث عن البيت العربي الفلسطيني من حيث معماره ومواد بنائه . واستعرض لذلك البيت الحجري والمبني من الطين والبيت القروي والبيت في المدينة ودرس الخيمة واعطى صورة واضحة عن المعمار الفلسطيني. وفي الجزء الاخير درس د. كنعان الجوانب الفولكلورية للبيت مكرسا معظم ما كتبه للمعتقدات الشعبية المتعلقة بعمارة البيت وسكناه والتصور الشعبي للامور المتعلقة بذلك .

يقول د. كنعان ان ابرز المناسبات الاحتفالية في الحياة الشعبية الفلسطينية هي : الزواج ، وولادة الذكور وبناء بيت جديد . وعندما ينتهي المرء من سقف بيته يجتمع لديه الاهل والاصدقاء والجيران لتناول وجبة احتفالية وتقديم الهدايا بهذه المناسبة الطيبة . ان الدار تحتل مكانا مرموقا في نفس الانسان الفلسطيني فهي تمثل ما يستره ويستر

اهله وتمثل الذكريات بشتى اشكالها . وهو يحن اليها اذا غادرها ويتمنى العودة اليها واعدا اياها بأجمل الزخارف والمحبة القلبية . ويتضح ذلك في هذه الاغنية الشعبية التي يسجلها د. كنعان :

يـا دارنـا يـا ام الحجـر الاحمـر	احنا رحلنا وغـيرنا اتوطن
يـا دارنـا يـا ام الحجـل والطوق	يا عاليه وامشرعة لفـوق
يـا دارنـا يللـي اربينـا فيكـي	لا عادت تآوينا ولا اتآويكي
يـا دارنـا ان نزلوك عربـان غيرنـا	اتوصيهم يا دار حتى نعاود
لاجيـب لـك يا دار حملـين نيلـة	وانقش يا دار نقش العرايس

ويستعرض الدكتور كنعان العديد من المعتقدات الشعبية المتعلقة بالبيت . يقـول ان هناك معتقدا سائدا في الوسط الشعبي الفلسطيني مؤداه ان كل بيت تسكنه مخلوقات خارقة للعادة ... وتوجد هذه المخلوقات على الاخـص في البيوت الخالية والخربـة والحديثة غير المأهولة . ولذلك يفترض في كل ساكن جديد ان يسترضي تلك المخلوقات . وتبدأ اجراءات ترضية هذه الكائنـات ومحاولة كف شرهـا منذ البدء في البناء بعـد الاساس . اذ يجب اذ ذاك ذبح ذبيحة كتقدمة للارواح ساكنة المكان تسمى « ذبيحـة الاساس » . ويستدعي المسيحيون الخوري ليبارك الاساس ويلقي عليه مياها مقدسة . وعند وضع حجر الاساس يضع صاحب البيت تحت الحجر قطعة عملة فضية باعتبـار أن ذلك يشكل فألا حسنا يدل على « الفضا » اي النور . وعندما يعقـد البناء شاشية باب البيت فانه يعلق على الحجر هناك خرزة زرقاء ، وثوما وقطعة من الشب وبيضة مفرغة . وهناك من يعلق شكل يد بشرية او صليبا . وهناك ايضا ذبيحة العقد والتي تذبح عند انهاء العمل في السقف . وقد اعتاد البدوي ايضا ان يذبح ذبيحة كلما نصب خيمته في مكان جديد للاسباب والمعتقدات نفسها السالفة الذكر .

ويروي الدكتور كنعان أنه كان هناك معتقد قديم مؤداه انه لن يخلد البناء الا اذا دفن في الاساس انسان او جزء من انسان !! وخاصة اذا كان البناء حماما عاما او عمـارة ذات صلة بالجمهور(٦) . وقد حلت فيما بعد عادة ذبـح حيوان بدلا من تلك العـادة . وهناك المعتقدات الشعبية ذات الاصل الاسلامي والتي تفرض على ساكن البيت الجديد أن يدعو شيخا ليقرأ القرآن أو يدعو الدراويش لاقامة الحضرة وهذه العادة ما تـزال موجودة حتى الان . ويعلق الناس راية بيضاء عـلى ظهر البيت وذلـك تيمنا برايـة الرسول محمد (ص) البيضاء .

دراساته الاخرى

تعتمد دراسات توفيق كنعان على رصد المعتقدات الشعبية ومن هذه المعتقدات التي القى ثقله الى جانبها مسألة الثنائية في المعتقد الشعبي الفلسطيني . فهو يدرس النور ويقابله بالظلام(٧) . ومن هذا القبيل درس الثنائيات التاليـة : الخير والشر ، الابيض والاسود ، الملائكة والشياطين ، العالم العلوي والعالم السفلي ، الاله مقابل ابليس . وهو يعتقد ان دراسة ظاهرتي النور والظلام يمكن ان تؤدي الى نتائج كبيرة وتوضح مواقف جمة . وبعد ان يتحدث د. كنعان عن سبل الانارة الشعبية والمصابيح الساذجة ، وبعد أن يتحدث عن خوف الانسان البدائي من الظلام فانه يحشد عشرات الامثلة من الحياة الشعبية التي تتصل بموضوع . وذلك يذكرنا بالمنهج المشهور الذي اختطه سير جيمز فريزر في الدراسات الانثروبولوجية الذي يعتمد على دراسة فكرة معينة من خلال ايراد حشد هائل من الامثلة الموضحة لها في بيئات انثروبولوجية شتـى . ومن هذه الامثلة العديدة المتعلقة بمسألة النور والظلام رصد كل التعابـير الشعبية المتصلـة بكلمات : مصباح ، ضوء ، قمر ، شمع ... الخ وفي بعـض الاحيـان نحس بتشعب الموضوع واتخاذه مسارات شتى . وعلى سبيل المثال فانه عندما يتحدث عن الزيت

كمادة اساسية تشعل للحصول على النور فانه يتحدث عن القيمة الغذائية للزيت من وجهة نظر الاقوال الشعبية المأثورة كما يسهب في الحديث عن اعتقاد الناس ببركة شجر الزيتون . ومن وجهة نظر الكاتب الحالي — وهي لا تتعارض مع ما أراده د. كنعان — فان المادة الخام التي خلفها لنا كاتبنا تشمل ثروة فولكورية لا ينضب لها معين تحتاج الى من يشمر ساعد الجد للعمل على جلاء ملامح الفلاح الفلسطيني ونظرته الخيرة . من هذا المنطلق يدرس توفيق كنعان الموضوعات الاخرى مثل فولكلور النبات(٨) وفولكلور الفصول(٩) ونحن نرى انه يتناول اسم نبتة معينة ثم يدرس الامثال والاغاني الشعبية والاقوال المأثورة المتعلقة بها . ومثلا نراه يدرس وجهة النظر الشعبية حول فترات الحياة المختلفة وهو يورد نبتة « الخيار » . وانقل عنه هذا النص : ابن عشرة مثل الخياره المقشرة ، ابن عشرين بماشر المجانين ، ابن ثلاثين زهر البساتين ، ابن اربعين من الكاملين . ثم يستفيض د. كنعان في دراسة النسخ الاخرى من هذا النص وتفسيرها . كما يقوده الحديث عن النبات من وجهة النظر الشعبية الى المعتقدات الشعبية المتعلقة بها فيرصد ظاهرة ارتباط النبتة بالمزارات واضرحة الاولياء ومسألة تقديس الاشجار التي هي مستمدة من القدرة الالهية المتمثلة فيها . ويفسر ذلك كثرة الزخارف الشعبية في البيوت والمزارات وعلى الملابس والتي تمثل اشكالا شتى من الاشجار .

ويستطرد كنعان فيدرس نباتات وردت في الكتب المقدسة ونبتت حولها معتقدات وخرافات كثيرة مثل نبتة القمح التي كانت تنتصب في وسط جنة عدن والتي قدمت الافعى منها طعاما لحواء — أم البشر — . وعندما طرد آدم من الجنة أرسل الله اليه بواسطة الملاك جبريل حبات القمح ملفوفة بسبع مناديل من الحرير . وقام آدم بزرع هذه الحبوب والتي اتخذت شكل حرف الالف (ا) وهي الحرف الاول من لفظ الجلالة (الله) . ولذلك فان القمح « نعمة من الله » ويحرص الفلاح على الا يدوس اية قطعة خبز مهما صغرت . واذا ما وجد الفلاح شيئا من الخبز وقد سقط على الارض فانه يتناوله بكل خشوع واحترام ويقبله ويضعه على جبينه ثم يودعه جانبا بحيث لا يتعرض لان يداس بالاقدام . وتأتي مادة فولكلور الفصول كتتمة لمقالة د. كنعان المنشورة بالالمانية حول هذا الموضوع(١٠) وكذلك استكمالا لما كتبه كتاب آخرون مثل بوهر(١١) وسونن(١٢) وستيفان(١٣) حول فولكلور الفصول في فلسطين . ويدور معظم هذه المادة حول أسماء الشهور والعطل والمواسم والمناسبات على مدار السنة وما ارتبط بها في الذهن الشعبي من افكار وممارسات ومعتقدات . أما دراسة د. كنعان للمعتقدات والممارسات الدينية فيما يتعلق بتصور قدرة الله(١٤) فيمكن اعتبارها ذات صلة بما كتبه عن الاولياء وهي حافلة بتصور الانسان لقدرة الله ودوره في مسائل الخير والشر والرزق والفقر والمرض والشفاء . وغني عن الذكر أن هذه التصورات تعزي كل ذلك لله . ويبدو ان جهد الباحث الفولكلوري ازاء مثل هذه الدراسات يجب ان ينصب على تمييز ما هو دين رسمي عما هو فولكلور . وهذه ليست مهمة سهلة . ونحن نعرف أن الكثيرين من الكتاب الغربيين الذين درسوا الفولكلور الفلسطيني خلطوا بين المعتقدات الشعبية المنحدرة من الشروح الدينية وبين الدين الرسمي .

وآخر الموضوعات التي درسها د. كنعان والتي هي موضوع استعراض الكاتب الحالي لاعمال ذلك الكاتب دراسته عن طبوغرافيا وفولكلور البتراء(١٥) . وتكمن اهمية هذا الموضوع بدراسة الحياة الاجتماعية لبدو البتراء وصلة ذلك بحياة بدو جنوب فلسطين ، اذ ان هناك علاقات وطيدة وحركة ارتحال تمت على طرفي وادي عربة وجعلت الاراضي على طرفي الوادي منطقة فولكلورية واحدة ذات صفة عربية بدوية .

يسكن اللياثنة ، بدو البتراء ، في وادي موسى وهم ذوو طبيعة بدوية الا أنهم يمارسون

الزراعة شأنهم في ذلك شأن الفلاحين . ويتحدث د. كنعان عن ملامح الحياة اليومية لهؤلاء الناس فيقول انهم يعيشون حياة صعبة ويقاسون من الحاجة والفقر المدقع ، ويعتمد مجتمعهم على سيطرة الرجل . ويتم زواج البنت عندهم على رغبة وليها ودون استشارتها ولا تحصل على شيء من المهر . وقد يمنحها والدها هدية وهي عبارة عن بعض الحيوانات أو قطعة من الارض . ويشيع بين اللياثنة زواج البدل بحيث يزوج الواحد منهم اخته أو قريبته لشخص ويتزوج هو أخت ذلك الشخص او قريبته دون وجود مهر . ويندر أن يتم الزواج بالخطف ، وفي هذه الحال يسمون الفتاة التي تهرب مع حبيبها « طموح » . وهناك عدد ضئيل من بنات المشايخ لعبن دورا كبيرا في حياة القبيلة وفي هذه الحالة يسمى الشيخ بكنية تعود لتلك البنت . وغالبا ما يقضي الرجال وقتهم في كسل دائم وثرثرة متصلة .

ويعتبر اللياثنة الاولياء مخلوقات ذات قوة خارقة ودورهم هـو مساعدة الناس عند الحاجة . ولذلك فهم يطلبون منهم العون أكثر مما يطلبونه من الله . ويقول د. كنعان انهم قليلو المعرفة بالدين فقد سأل هو شخصيا خمسة منهم أن يتلوا سورة الفاتحة ولكنهم لم يكونوا ليعرفوا تلاوتها . ويصدق هذا القول علـى البدو المقيمين في النقب واطراف سيناء فمعرفتهم بالدين جد ضئيلة ان لم تكن أحيانا معدومة .

ولم يجد د. كنعان عند هؤلاء البدو أي ممارسات أو طقوس في مزار أو كهف أو ضريح لولي .. ولكنه لاحظ انهم يقدسون الموتى مـن الاشخاص ذوي الدور الكبير في تاريخ العشيرة اثناء الحياة . ويؤمنون بالجن ويصفونه بانه يشبـه الغول كما هو ماثل في الحكايات الشعبية الفلسطينية .

منهج البحث عند توفيق كنعان

يمكن القول ان دراسة توفيق كنعان للفولكلور الفلسطيني هي دراسة وصفية . وهو يعتمد على تناول زاوية معينة بحيث يورد كل التفاصيل المتعلقة بها والتي يبدو انه جمع الكثير منها بطريق الاستجواب الشخصي . اما الجزء الآخر فقد اعتمد فيه على العمل المكتبي . ويبدو انه رجع الى العديد من المراجع الاجنبية والتي حاول ان يصحح ما جاء فيها على ضوء معرفته الاصيلة بالحياة الشعبية المحلية .

وقليلا ما يحاول د. كنعان أن يربط بين المادة التي يجمعها وبين مثيلاتها سواء أكان ذلك في بيئات أخرى ام البيئة الفلسطينية القديمة . وهو ان حاول ذلك فانه يقارن مع عهد التوراة أو مع ما جاء في القرآن الكريم . الا ان د. كنعان يكتب وقد اتضح في ذهنه المنهج الوظيفي بحيث يبذل جهدا طيبا في تفسير المادة التي يتحدث عنها من خلال ابراز وظيفتها في الحياة الشعبية ودورها في توجيه أفكار الناس وتكوين مفهوم معين مرتبط بممارسات معينة متفق عليها لدى الوسط الشعبي . ولذلك وجدنا انه القى ثقله الى جانب دراسة المعتقدات الشعبية لعلمه الاكيد أن هذه المادة ذات صلة بالواقع المعاش للناس فهي تؤثر فيه وتوجهه وتحكم مسار الحياة اليومية .

ولم ينس د. كنعان أنه يكتب عن تراث بلد مهدد بأخطار التذويب والابتلاع ، ولذلك نراه يربط بين المادة التي يجمعها وبين الارض ، ويخلق الصلة بينهما بحيث يمكن القول ان هؤلاء الناس — اهل فلسطين — هم أصحاب هذه الافكار المرتبطة بهذه الارض والتي وجدت الصلة عبر هذا الحشد الجغرافي العظيم مـن المزارات والاضرحة والكهوف والينابيع والآبار والاشجار ... الخ .

وبعد ، فان اعمال د. كنعان لهي اشبه بعمل موسوعي يحتاج الى من يعيد تنظيمه ويضيف اليه لتظهر « موسوعة الفولكلـور الفلسطيني » التي تبـرز وجه الشعب الفلسطيني صاحب الارض العربية الفلسطينية ومبدع تراثها وثقافتها الاصيلة .

الحواشي

١ — من ابرز مؤلفات الدكتور توفيق كنعان بالالمانية كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible

« الخرافات والطب الشعبي في فلسطين »

a) Der Kalender der Palästinenschen Fellachen.
b) Dämonglaube in Lande der Bible.
c) Die Neugeborenen in der Palästinenschen Volkssite.

اما دراسات توفيق كنعان بالانجليزية والتي هي موضوع هذه الدراسة فتضم كتاب :
Mohammeden Saints & Sanctuaries in Palestine.

واحدى عشرة مقالة اخرى نشرها في مجلة JPOS

٢ — *Mohammaden Saints And Sanctuaries in Palestine*, Luzac & Co., London 1927.

٣ — دراسة الدكتور كنعان حول هذا الموضوع في مقاليه :
a) Water And the Water of Life in Palestinian Superstition, *JPOS*, IX, 1929.
b) Haunted Springs and Water Demons in Palestine, *JPOS*, I, 1921.

٤ — درس د. كنعان هذا الموضوع في مقاليه :
a) Tasit Er-Radjfeh, (Fear Cup), *JPOS*, III, 1924.
b) Arabic Magic Bowls, *JPOS*, XVI, 1936.

كما استفاض المؤلف في التحدث عن هذا الموضوع في كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible, Hamburg, 1914.

٥ — تناول الدكتور كنعان هذا الموضوع في مقالة من جزءين بعنوان :
The Palestinian Arabs House, its Architecture and Folklore, *JPOS*, 1937, Vol. XII, (223-247).

٦ — فصّل د. كنعان هذه الظاهرة في كتابه :
Dämonenglaube im Lande der Bible (38-39).

٧ — Light and Darkness in Palestinian Folklore, *JPOS*, XI, 1930.

٨ — Plant-love in Palestinian Superstition, *JPOS*, VIII, 1928.

٩ — Folklore of the Seasons in Palestine, *JPOS*, III, 1924.

١٠ — أنظر مجلة : *Z.D.P.V.* XXXVI, 266-300

١١ — *Z.D.P.V.* XXXVIII, 54-57: Bemerkungen zu Dr. Canáan's Der Kalender des Palästinenschen Fellachen.

١٢ — Landwirtschafttiches vom see Genesareth, Das Heilige Land, Heft I, 1921.

١٣ — The Division of the Year in Palestine, *JPOS*, 159-170.

١٤ — More Palestinian Beliefs and Practices Relating to God, *JPOS* XIV, 1934.

١٥ — Studies in the Topography and Folklore of Petra, *JPOS*, IX, 1929.

الفنون الشعبية في فلسطين

بقلم

يسرى جوهرية عرنيطة

من منشورات مركز الابحاث في م.ت.ف. (ص.ب ١٦٩١ ، بيروت)

٢٥٦ صفحة ، ٨ ليرات لبنانية تضاف اليها اجور البريد الجوي : ١٠٠ ق.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في أوروبه ، ٥٠٠ ق.ل. في سائر الدول .

المتمردون على الخدمة العسكرية في اسرائيل

عبد الحفيظ محارب

ظهرت قضية التمرد على الخدمة العسكرية كقضية للمرة الاولى في اسرائيل عام ١٩٧١ ، واخذت تنمو وتتفاعل ببطء خلال عام ١٩٧٢ . والحقيقة ان المرء ــ للوهلة الاولى ــ يستغرب حدوث ذلك لسببين : (١) الطبيعة التوسعية التي جبل عليها المجتمع الاسرائيلي . (٢) نظرة المجتمع الاسرائيلي الى الجيش ، وهذه النظرة تحيط الجيش الاسرائيلي بهالة من الاعجاب والتقدير والاحترام قل ان يحظى بها جيش آخر في العالم ، ويعود ذلك الى ثلاثة اسباب رئيسية : أولا ، ان الجيش الاسرائيلي أداة صالحة لتغذية الروح التوسعية للجمهور الاسرائيلي ، ثانيا ، ان الدولة قامت على اكتاف الجيش على خلاف قيام الدول في معظم المجتمعات ، كما وان الجمهور الاسرائيلي عايش منذ قيام الدولة حالات امن متوترة أحرز فيها الجيش الاسرائيلي ثلاثة انتصارات خيالية ، بدءا بحرب عام ١٩٤٨ التي انتهت في عام ١٩٤٩ ومرورا بحرب ١٩٥٦ وانتهاء بحرب حزيران ١٩٦٧ ، كل ذلك خلال جيل واحد ، الامر الذي جعل هذا الجيل ، اي الجمهور الاسرائيلي ، يكن احتراما يصل في بعض الاحيان الى هالة مقدسة تجاه الجيش الاسرائيلي . ثالثا ، الدور الذي يلعبه الجيش الاسرائيلي في عملية دمج « يهود الشتات » ، ويمكن القول انه المؤسسة الاقوى والانجع في عملية صهر «يهود الشتات» في بوتقة واحدة بالرغم من فشل عملية الصهر وتخبطها .

لهذين السببين تبدو للوهلة الاولى قضية التمرد على الخدمة العسكرية مستغربة الا ان وجه الغرابة يزول عندما نقف على اسباب ظاهرة التمرد على الخدمة العسكرية وعواملها وحجمها .

من هم المتمردون على الخدمة العسكرية ؟ ينتمي المتمردون على الخدمة العسكرية ، او رافضو الحرب كما يطلق عليهم في بعض الاحيان ، الى فئتين رئيسيتين ، الفئة الاولى تنطلق من فكر سياسي ايديولوجي ضد الحرب ، وتعتبر الجيش الاسرائيلي جيشا محتلا ، والفئة الثانية تنطلق من أوضاعها التعيسة التي خلقتها الهوة الاجتماعية في اسرائيل ، معتقدة انها تستغل في جميع مجالات الحياة ، وان النضال التقليدي ضد النظام المستغل لا يأتي بنفع ، ولذا اقدمت على نضال فعال للتمرد ضد الخدمة العسكرية .

قبل التطرق الى الاسباب والعوامل التي ادت الى التمرد الايديولوجي والتمرد الناجم عن الهوة الاجتماعية ، لا بد لنا من الوقوف قليلا على قانون الخدمة العسكرية وعلى فئة أخرى اخذت تتهرب من الخدمة العسكرية لاسباب ليست سياسية او ايديولوجية . يلزم القانون الاسرائيلي كل رجل وامرأة من الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و٢٩ بالخدمة النظامية في الجيش الاسرائيلي ، تستغرق خدمة الرجل ٣٠ شهرا والمرأة ٢٤ شهرا ، ويستثني القانون النساء المتزوجات ، كما ويعفي الفتيات المتدينات وتلاميذ المدارس الدينية المعروفة باسم الـ « يشيفوت » ، اما الرجال الذين يعارضون الحرب لاسباب

ضميرية فان القانون يعفيهم من الخدمة في الوحدات المقاتلة ، وينص على تجنيدهم في وحدات غير مقاتلة مثل سلاح الخدمات الطبية والتوجيه القومي وما شابه. وفيما يتعلق بالخدمة في سلاح الاحتياط فان القانون يلزم كل رجل حتى سن ٤٩ والنساء (اللواتي يشملهن القانون) حتى سن ٣٤ ، بالعمل في الخدمة الاحتياطية ٤٢ يوما خلال العام .

ان الفئة التي أخذت تتهرب في الآونة الاخيرة من الخدمة العسكرية لاسباب ليست سياسية أو ايديولوجية هي فئة الفتيات اللادينيات ، وقد غدت عملية التهرب هذه ظاهرة ملموسة في النصف الثاني من هذا العام ، حيث اخذت اخبار هؤلاء الفتيات مكانا في الصحف الاسرائيلية . ومن الجدير بالذكر ان نسبة الفتيات اللواتي لا يشملهن القانون الاسرائيلي بسبب تدينهن او ادعائهن بالتدين قد بلغت عام ١٩٦٩ ، ٤٠ بالمئة ، وقد تصاعدت هذه النسبة خلال العام الحالي بسبب كثرة الغارات من الخدمة تحت ستار التدين ، بمساعدة الفئات الدينية المتطرفة ، حيث أخذت هذه الفئات تنشط في التستر على الفتيات الهاربات وايوائهن ، كما واخذت تنشط في تشجيع الفتيات على عدم الانخراط في سلك الخدمة العسكرية لتنافي ذلك مع الشريعة اليهودية .

هنالك أسباب عدة تقف وراء ظاهرة تهرب الفتيات من الخدمة العسكرية من أهمها العامل الاقتصادي حيث تفضل العائلات الفقيرة ومحدودة الدخل ان تقوم الفتاة في سن الثامنة عشرة بالعمل لمساعدة أفراد العائلة على الانخراط في الخدمة العسكرية التي لا تدر مردودا اقتصاديا ، كما وهنالك العامل الديني لدى رب الأسرة وليس بالضرورة لدى الفتاة ، الامر الذي يضع الفتاة أمام ضغوطات عائلية ، وهنالك عامل ثالث وهو أكثر رواجا من العاملين السابقين بين صفوف الشرائح الاجتماعية المتوسطة والمتدينة ، وهو عامل الاخلاق ، التي تستغله العائلات التي ترفض ارسال بناتها الى الخدمة العسكرية مدعية — سواء كان الامر صحيحا أو غير صحيح — بأن الخدمة تؤثر على شرف الفتاة وعفتها ، مدعمة وجهة نظرها عادة بأقوال « الابن البكر » الذي أنهى خدمته في الجيش: « لقد كان الابن البكر في الجيش وهو يعرف جيدا ما يجري هناك » . ومن الجدير بالذكر ان « الابن البكر » واولئك الذين يرفضون تجنيد أخواتهم في الجيش يشنون حملة ضد الفتيات اللواتي يعملن في الجيش ، ضاربين على وتر العفة والشرف على غرار أحد الجنود الذي قال : « ان الامر اسهل بكثير مع المجندات . عندما أخرج مع فتاة بشكل جدي من أجل الزواج ، فانني أختار فتاة لم تذهب الى الجيش . انني منعت أختي من التجنيد » (دافار ٧١/١٠/٢٥) .

نعود الآن الى أسباب وعوامل التمرد الايديولوجي السياسي ، الذي قاده مجموعة من الاشخاص وعلى رأسهم جيورا نويمان وروجر درهي وغيرهما من الشباب الذين تفتحت أمام عيونهم طبيعة الحركة الصهيونية والاحتلال الاسرائيلي . لقد كانت هنالك اسباب عدة وراء التمرد على الخدمة العسكرية اهمها :

١ — الاعمال « المخزية والمشينة » التي تقوم بها قوات الاحتلال واهمها على سبيل المثال لا الحصر ، سياسة العقاب الجماعي ، وسياسة الاستيطان الاسرائيلي وما يترتب عنها من سلب ونهب للفلاحين العرب ، وسياسة التشريد والتهجير ، ورش المزارع العربية بالمواد السامة (كما حدث في قرية عقربة) بواسطة طائرات سلاح الجو ، الامر الذي جعل بعض الفئات الاسرائيلية تنظر الى الجيش الاسرائيلي **كجيش محتل** ، وهذا أمر لا تعترف به التكتلات السياسية الرئيسية في اسرائيل ، فبعضها يرى ان المناطق المحتلة « مناطق محررة » والبعض الآخر يعتبرها « مناطق محتفظا بها » مع ان جميع هذه الكتل تجمع على ضرورة عدم العودة مطلقا الى حدود الرابع من حزيران. وكان من نتيجة الاعمال المخزية في المناطق المحتلة ان حدثت قفزة جيدة في نضال العناصر اليسارية الاسرائيلية المعارضة ، حيث أخذ البعض يربط بين الاعمال المشينة والخدمة

في الجيش ويدعو علنا الى رفض دخول المعركة فيما اذا وقعت الحرب ، مثل الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان الذي قال في اجتماع احتجاجي ضد الاستيطان الكولونيالي في مشارف رفح : « لقد جئنا للاحتجاج ضد السياسة الكولونيالية لاننا ندخل عصرا جديدا لاسرائيل الكولونيالية . ان الاستيطان لا يبعد السلام فقط ، بل يجعله أمرا مستحيلا . لقد قامت اسرائيل جديدة ، قبيحة ، تتشكل من خليط ديني وعسكري وبرجوازي » . واضاف ان الاعمال الكولونيالية في المناطق المحتلة تؤدي الى الحرب « وينبغي علينا ان نعلن الآن بأننا لن نقاتل في هذه الحرب » (معاريف ٢/٤/٧٢) .

٢ ــ تعنت اسرائيل في مواقفها السياسية وعدم استجابتها لمشاريع « السلام » سواء العربية منها او الدولية ، مع ان هذه المشاريع تمنح وجودها وكيانها صفة الشرعية ، وتعطيها أكثر بكثير مما كانت تطلب هي قبل حرب حزيران ، وهذا الامر ناتج عن الطبيعة التوسعية للمجتمع الاسرائيلي ، ولذا اتخذت السلطات الاسرائيلية مواقف متعنتة تتسم بالغطرسة كالاصرار على المفاوضات المباشرة والقول في الوقت نفسه بأنها لن تعيد هذه المنطقة أو تلك حتى ولو جلس العرب « معنا على مائدة المفاوضات المباشرة » وذلك نتيجة لانتصارها الباهر في حرب حزيران من ناحية ، وضعف حركة التحرر العربي من ناحية اخرى ، كما واخذت تضع قيودا على السلام تحول دون تنفيذ مشاريع السلام العربية المشفوعة بالتنازلات والتي تعطي اسرائيل أهم شيء كانت تطلبه وتسعى اليه ، الاعتراف العربي الرسمي بها علاوة على منحها تعديلات على الحدود اي توسيع رقعتها ، ولو ان هذه المشاريع العربية طرحت قبل حرب حزيران لقبلتها اسرائيل فورا وبدون تردد ، ولاتهم اصحابها اي الطرف العربي بالخيانة ، ولكان من المشكوك فيه ان يبقى صاحبها على سدة الحكم يوما واحدا ! وبالرغم من ذلك وقفت اسرائيل حجر عثرة أمام مشاريع السلام العربية والدولية ، وأنحت باللائمة على الطرف العربي وبعض الاطراف الدولية ، وخرجت من كل ذلك بأن الوضع الراهن سيستمر على ما هو عليه ، متذرعة **بعدم وجود خيار** أو « لا مناص من ذلك » . ومع ان الخيار في بعض الاحيان ــ أي الخيار الاسرائيلي ــ يكون موجودا فان السلطات الاسرائيلية تسارع الى عرقلته وسد الطريق امامه ، متذرعة بالجملة نفسها « لا خيار » ، وخير دليل على ذلك ما اشيع حول موافقة الرئيس عبدالناصر على مقابلة الدكتور ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، واشتراط عبدالناصر ان تتم المقابلة بموافقة السلطات الاسرائيلية ، الا ان « مقابلة السلام » هذه لم تتم بسبب رفض السلطات الاسرائيلية اعطاء موافقتها للدكتور جولدمان ، وكان من نتيجة ذلك كله ان بدأ قسم من الجمهور الاسرائيلي يتشكك في جملة « لا خيار » أو « لا مناص » ، الا انه ظهر هنالك أكثر من مجرد التشكك حين حدث نوع من التمرد بين أوساط تلاميذ المرحلة الاخيرة في المدارس الثانوية الذين يقفون على عتبة الانخراط في سلك الخدمة العسكرية ، ضد سياسة « لا مناص ولا خيار » ، وقد خلق هذا النوع من التمرد شبه تيار ضاغط في المجال السياسي في اسرائيل بين أوساط الشبيبة ، فقد تصدى طلبة ثانويون في القدس لهذه السياسة ، وبعثوا برسالة الى رئيسة الحكومة غولدا مئير في شهر ابريل من عام ١٩٧٠ ، ربطوا فيها بذكاء وبجرأة واقع وقوفهم على عتبة الخدمة العسكرية بتفويت الحكومة كافة فرص السلام « نحن مجموعة من الطلبة الثانويين ، **نقف على عتبة تجنيدنا في الجيش الاسرائيلي** ، نحتج على سياسة الحكومة تجاه قضية مباحثات جولدمان ــ عبدالناصر ، لقد آمنا بأننا نذهب للقتال وللخدمة العسكرية خلال أعوام ، لانه لا يوجد خيار ، بيد انه اتضح لنا في أعقاب هذه القضية انه أيضا في حال وجود خيار ولو كان بسيطا جدا فان نصيبه التغاضي . وعلى ضوء ذلك **فاننا ، مع الكثيرين غيرنا ، نفكر كيف سنقاتل في حرب متواصلة لا نهاية لها** ، في الوقت الذي تعمد الحكومة في سياستها الى تفويت فرص

السلام . اننا نطالب الحكومة باستغلال كل فرصة واحتمال للسلام » (هعولام هزيه ٧٠/٦/١٧) .

ان قيمة الرسالة لا تكمن بالاحتجاج بقدر ما تكمن في عمليـة ربط الاحتجاج بالخدمة العسكرية ، وهذا امر غير مألوف حتى ذلك الحين في الصراعات القائمة في المجتمع الاسرائيلي . وقد وعت الحكومة وادركت خطورة عملية الربط هذه ، وشنت هجوما بوسائل الاعلام الاسرائيلية ضد مجموعة الطلبة صاحبة الرسالة ، وكان من الطبيعي ازاء هذه الحملة أن تحدث انشقاقات بين التلاميذ المتمردين على سياسة الحكومة خاصة وأنهم لا ينتمون الى حزب أو تيار ايديولوجي معين ، الا أن روح التمرد اجتاحت طلبة ثانويين آخرين حيث بعثوا برسالة في شهر مايو من عام ١٩٧٠ الى نائب رئيسة الحكومة يجآل آلون ، احتجوا فيها على سياسة الحكومة المترددة تجاه السلام ، وعلـى رد الحكومة غير المتسامح على رسالة تلاميذ القدس .

٣ ــ افتضاح خرافة الابادة : من بين الامور الاساسية التي ازالت الكثير مـن الامور المسلم بها والمغروسة في ذهنية الجمهور الاسرائيلي افتضاح خرافة الابادة التي روجت لها السلطات الاسرائيلية منذ قيام الدولة وحتى الآن. فقد اصبح « خطر الابادة » المحدق باسرائيل يتلاشى من خلال اعترافات الزعامة العسكرية بأن اسرائيل لم تواجه عشية حرب حزيران خطرا يهدد كيانها مخالفين بذلك « الامر اليومي » الذي صدر عند اندلاع الحرب لوحدات الدروع الاسرائيلية : « بالدم والنـار والحديد سنحول دون تنفيـذ المؤامرة ... اننا ننطلق لتحطيم مؤامرة الابادة » ومناقضين التصريحات الكثيرة التي لا حصر لها قبل حرب حزيران وبعدها التي عكف الزعماء الاسرائيليون على ترديدها . لا نقصد هنا التطرق الى اسباب قضية خطر الابادة وعواملها وملابساتها وكذلك ليس الى ملابسات تصريحات القادة العسكريين التي نسفت الفكرة السائدة وكشفت القناع عن زيف ادعاءات الزعماء الاسرائيليين بل نود الاشارة اليها كعامل مساعد استغله المتمردون على الخدمة العسكرية في دفاعهم عـن مواقفهم ومعتقداتهم ، متسلحـين باعترافات القادة العسكريين الذين كانت لهم يد طولى في حرب حزيران .

كان أول المتحدثين عن خرافة الابادة الزعيم (احتياطي) متتياهو بيلد وتبعه كل من عيزر فايتسمان وحاييم بارليف واسحاق رابين وغيرهم . يعتقد بيلـد ان اسرائيل لم تكـن معرضة الى خطر الابادة الا في عام ١٩٤٩ ، ويشاركه في هذا الرأي عيزر فايتسمان . ومع ذلك فقد « ثابرنا على تنمية الاحساس بالخطر المحدق بنا ، وكأننا شعب صغير ضعيف ، يتخوف باستمرار على كيانه ، ومعرض في كل لحظة لخطر الابادة » . ويعتقد بيلد « انه حسب رأيي جرى منذ الحرب جهد محسوب لطمس جوهـر المشكلة التي مثلت أمامنا في مايو/يونيو ١٩٦٧ ، وطرح الحرب وكأنها تفجرت عقب خطر كبير وان العرب كانوا يعرضوننا للخطر ، وان هذا الخطر ناجم عـن وضع حدودنا التي كانت مكشوفة » . ويستنتج من ذلك بأن الهدف من هذا الطرح هو **« توسيع حدودنا »** . ويضيف بيلد « انني على يقين بأن الحكومة لم تستمع مرة واحدة الى تقرير مـن قبل القيادة العامة بأن التهديد العربي كان يشكل خطرا على اسرائيل ، أو بأن اسرائيل لم تكن تملك القدرة لالحاق الهزيمـة بالجيش المصري الذي كشف نفسه بغباوة مذهلة للضربة القاضية للجيش الاسرائيلي ... ان الادعاء القائل ان تلك القوات المصرية التي احتشدت على حدودنا الجنوبية كان بامكانها تهديد كيان اسرائيل لا يعني فقط الاستهزاء بالمثقفين الذين لا يستطيعون تقييم هذه الامور ، بل أيضا تحقيرا للجيش الاسرائيلي » (معاريف ٧٢/٣/٢٤) .

أما عيزر فايتسمان فانه يعترف بأن عامل الخطر المحدق بالكيان الاسرائيلي لم يكن قائما « وان الدولة لا تخرج الى الحرب فقط عندما يحدق بها خطـر الابادة » وان المصالح

القومية كانت وراء الحرب « ان امن اسرائيل ليس هدف وجودها . ان الدولة اقيمت للسعي لتحقيق الاهداف القومية الاخرى » (هآرتس ٧٢/٣/٢٩) .

لقد احدثت هذه الاعترافات موجة من التساؤلات بين الجمهور الاسرائيلي الذي عانى من حالة خوف رهيبة عشية حرب حزيران نتيجة ترداد خطر الابادة على كل لسان وفي كل مكان ، واكثر من ذلك نسفت الفرضيات الاساسية التي تقوم عليها السياسة الاسرائيلية . (للاستزادة حول هذا الموضوع انظر مجلة **شؤون فلسطينية** : عدوان حزيران وخرافة الابادة ــ الدكتور اسعد رزوق . عدد ١٣ ، وخطر الابادة اسطورة في قاعدة الاستراتيجية الاسرائيلية ــ المقدم الهيثم الايوبي . عدد ١٤) .

٤ ــ المسرحيات المناوئة للحرب : في اعقاب حرب ١٩٦٧ اخذت تبرز في اسرائيل حركة مسرحية مناوئة للحروب يقودها كتاب شباب من الثائرين على الاوضاع السياسية والساخطين على سياسة « لا مناص » و« لا خيار » ومن ابرز المسرحيات التي ظهرت مسرحية « ملكة الحمام » للكاتب الشاب حانوخ ليفين . كتبت المسرحية على شكل اناشيد واغان ، كل انشودة تنافس الاخرى في شدة انطلاقها ضد الحرب ، وهذا الامر مناف للروح العسكرية المسيطرة في المجتمع الاسرائيلي التي خططت لها القيادة السياسية وحافظت عليها الزعامة العسكرية من أجل تحقيق الاهداف الصهيونية . ولذا واجهت هذه الاغاني المناوئة للحروب استهجان وعداء السلطة والتيارات السياسية الفاعلة في اسرائيل . ان قيمة مسرحية « ملكة الحمام » لا تكمن في كلماتها الساخطة ضد الحروب فحسب ، بل ايضا (وهذا امر اساسي) في كونها الصوت الساخط الذي يطلق صرخة « لا » و« كفى » في مجتمع تتحكم فيه العسكرية .

وهنالك مسرحية أخرى تجاوزت صرخة « لا » و« كفى » وتجرأت على التمرد ضد اهم سلاح تملكه العسكرية الاسرائيلية ، الا وهو سلاح « الخدمة العسكرية » في مسرحية « اقفز » التي ظهرت في عام ١٩٧٠ نجد للمرة الاولى روح تمرد الشباب ضد الخدمة العسكرية ، وسنقتطف ثلاثة مقاطع تتطرق الى موضوع التهرب من الخدمة ويمثل المتمردين الشاب ابي (انظر مجلة الجديد كانون الثاني شباط ١٩٧٠ حيفا) .

« ايلي : اذن انت تهرب يا جبان . اقتد بيوسي

ابي : لا تسخر ، للهروب أوجه حسنة جدا

ايلي : هروب انه عدم القدرة على مجابهة المشاكل

ابي : من قال ذلك ؟ بياليك ؟ احاد هعام ؟ ترومبلدور ؟ عم تتحدث ؟ ثلاثة يهود استطاعوا الهروب من روسيا ، كاتب هرب من المانيا النازية ، متهم بريء هرب من السجن ، ملحق شهير هرب من اليونان ، اليس سماع هذه الاخبار فرحة عظيمة . لكلمة هروب لا توجد نغمة شاذة ، بالعكس تماما ، فهي نغمة الحرية ، رنين السعادة ، انها ليست نغمة المنطق ، اتفهم يا سيدي ؟

موشيه : الى الجحيم ، قل لي ، بأية مقاييس تحكم على الحرب ؟

ابي : بالمقياس الوحيد ، وهو ان حياة الانسان هي الشيء الاكثر سموا واهمية . »

وفي مقطع آخر يمثل ابي طلبة المدارس فئة الثانويين المتمردين على الخدمة العسكرية والذين أخذوا يرفضون مفاهيم حاولت السلطة ترسيخها في اذهانهم .

« ابي : بعد اسبوعين سننهي الثاني عشر ، ستصابين بصدمة اذا قلت لك ماذا سأعمل! **لن اذهب الى الجندية !!**

روني : هل تقصد ان تعلن بذلك ، انك متدين ؟

ابي : لا ، انما قررت أن أتلاعب

راحيل : ابي ، هل صحيح ما قالته لي الجارة من أنك وصفت « المبكى » بأنه مجرد جدار ؟

ابي : لكن يا امي ، جدار ... انه مجرد جدار ... »

وفي مقطع آخر يصل « ابي » الى ذروة اليأس من الواقع ، ومن خلال هذه الذروة يرى الحل وهو التمرد على خدمة العلم بشكل نهائي .

« ابي : لا أدري ما العمل ؟ انني لا أرغب في وحدة سكن ... لا أريد الجهات الست... لا أريد شرفة مغلقة ، أريد شرفة كبيرة مفتوحة ومستديرة ككل العالم . لن أعود ، **أماه ... لن أخدم العلم .. لا أريد ، أماه .. أنا لا ، انا لا** » .

لهذه العوامل مجتمعة ، ابتداء من الاعمال المشينة التي تقوم بهـا قوات الاحتلال في المناطق المحتلة،وتعنت اسرائيل فيمواقفها السياسية وعدم استجابتها لمشاريع «السلام» سواء العربية منها ام الدولية ، ومرورا بافتضاح خرافة الابادة ، وانتهاء بالمسرحيات المناوئة للحرب ، أخذت تبرز في الساحة الاسرائيلية ظاهـرة التمرد على الخدمـة العسكرية، وكان للاحزاب والهيئات الثورية في اسرائيل وعلى رأسها المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية « متسبين » والحزب الشيوعي الاسرائيلـي « راكاح » وبعض عناصر اليسار الاسرائيلي الجديد ، وكتاب وشخصيات اسرائيلية ثورية مثل عاموس كينان ودان بن اموتس والدكتور شاحك ، فضل كبير في استثمار هذه العوامل ضد السلطة وتوجيهها في مسار نضالي أدى في النهاية الى ظهور الفئة المتمردة .

قبل أن نتطرق الى رافضي الخدمة العسكرية ومعتقداتهم لا بد لنا من الوقوف قليلا حول ردود الفعل في اسرائيل على هذه الظاهرة وعلى ردود الفعل العالمية . لقد اتسمت ردود الفعل الاسرائيلية بالتضارب والتشعب حسب أهواء ومشارب التكتلات السياسية الفعالة في اسرائيل ، بيد أنها تجمع على استنكار الظاهرة واعتبارها ظاهرة عرضية في مجتمع « مستنير » . ومما يلفت النظر ان وسائل الاعلام الاسرائيلية الرسمية منها او غير الرسمية دأبت ، من خلال تحليلها وتعليقها على رافضي الحرب ، على تشويه صورة الدول العربية ونعتها بأقذع الاوصاف . ولكي تتضح أمامنا صورة ردود الفعل لا بد من استعراض مواقف التيارات المختلفة في اسرائيل ، مبتدئين بحزب مبام (يسار صهيوني) الذي عبر عن نفسه في مقال نشرته صحيفة عل همشمار (٧٢/٦/١٤) تجاه قضية نويمان جاء فيه : « أن هذه الظاهرة يمكن ان تكون فقط ظاهرة هامشية في حيـاة اسرائيل . ففي دولة مستنيرة ، محاطة بدول ديكتاتورية عسكرية متخلفة وعدوة لن يكون هنالك كثيرون من أمثال نويمان . لا يمكن في ظروفنا ان يكون رفض حمل السلاح رفضا يعود الى الضمير ، الا اذا كان هذا الضمير فاسدا » . اما وجهة نظر المتدينين فانها لا تختلف عن وجهة نظر اليسار الصهيوني ، بيد انهـا أرادت ان تستثمر قضية نويمان ، وتخلق منها قضية أخرى ، قضية من هو اليهودي ؟ فقـد نشرت صحيفـة « هتسوفيه » الناطقة باسم الحزب الوطني المتدين مقالا افتتاحيا أخذت تشكك فيـه بيهودية نويمان على اعتبار انه ابن لام غير يهودية ، ولذا « فهو غريب ، حقا انه يتحدث العبرية وتثقف في مدرسة عبرية ، ومسجل كابن للقومية اليهودية ، الا انه غريب وفق الشريعة اليهودية » ثم شكك المقال الافتتاحي في مسألة ختنه ! وخرج مـن كل ذلك بمطالبة السلطات المسؤولة في التدقيق الشديد عند تسجيل هوية كل شخص في وزارة الداخلية « هل هو مختون ؟ هل هو من أم يهودية ؟ » وبذلك أراد المتدينون تفجير قضية من هو يهودي مرة اخرى . ومن الجدير بالذكر ان هنالك عددا من اليهود متزوجين بنساء من اصل غير يهودي ، لا يعترف المتدينون بيهودية اولادهم . اما التيار اليميني

فقد عبر عنه رئيس ادارة حزب حيروت عيزر فايتسمان حين قال في اجتماع امام جمهرة من الطلبة في الجامعة العبرية في القدس حول قضية نويمان انه « لا يوجد مكان في الدولة لرافضي الخدمة العسكرية ، واذا كان الشاب يرفض قبول سيادة دولة اسرائيل ، فانه ينبغي سحب الجنسية الاسرائيلية منه » (معاريف ٧٢/٦/١٥). اما كتلة هعولام هزيه فقد اتخذ رئيسها أوري افنيري موقفا مناوئا من قضية رفض الخدمة العسكرية لاعتقاده بأنه اذا ما اصبحت ظاهرة الرفض ظاهرة عامة فان ذلك سيشجع مثيري الحروب في الخارج لشن الحرب . يقول اوري افنيري : « لو ان عمل جيورا نويمان سيؤدي الى موجة متصاعدة لرفض التجنيد ، فهل سيقرب هذا الامر السلام ؟.. اذا ما خلق انطباع في العالم العربي بأن قوتنا العسكرية آخذة بالانهيار ، واننا سنفقد بعد بضعة اعوام ارادة الدفاع عن انفسنا ، فان الامر لن يؤدي الى تعزيز قوى السلام العربية ، بل ان ذلك سيكون بمثابة تشجيع لمثيري الحرب عبر الحدود ، ومثيري الحرب عندنا . ان الضعف لا يجلب السلام » (هعولام هزيه ٧٢/٥/١٠) .

من الملاحظ ان ردود الفعل الاسرائيلية تهربت عن عمد من معالجة الاسباب الحقيقية لرافضي الحرب ، ولم تمس جوهر الموضوع بل فضلت التركيز على جوانب معينة منه مع بذل محاولة لتشويه صورة الجانب العربي ، الا أن الفئات الثورية في اسرائيل وعلى راسها المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية متسبين ، وكذلك فئات من اليسار الاسرائيلي الجديد والحزب الشيوعي الاسرائيلي راكاح ، وشخصيات مستقلة اخرى مثل دان بن اموتس ، وقفت الى جانب قضية التمرد على الخدمة العسكرية المتمثلة في ظاهرة جيورا نويمان ، ومست جوهر المشكلة ، وقامت بتنظيم تظاهرة في تل أبيب أمام مبنى وزارة الدفاع وتظاهرة اخرى أمام مبنى المحكمة أثناء محاكمة جيورا نويمان ، كما ونشطت في نقل قضية التمرد الى الخارج . وقد تمثل حضور القضية في الخارج في تظاهرة حدثت في لندن لاطلاق سراح نويمان وفي عرائض احتجاج مذيلة بآلاف التواقيع من بريطانيا وفرنسا والمانيا وأمريكا واستراليا،بيد ان أهم رد فعل خارجي قد صدر من جانب الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر . وتكمن أهمية موقف سارتر في عاملين ، أولا ، لكونه فيلسوفا يملك التأثير على قطاع كبير من البشر ، وثانيا ، للتحول الذي طرأ على موقف سارتر تجاه اسرائيل ، فقد كان سارتر عشية حرب حزيران متعاطفا مع اسرائيل وربما كانت اسطورة الابادة أحد العوامل الرئيسية الكامنة وراء هذا التعاطف ، ويتمثل موقفه في الرسالة التي بعث بها الى السيدة صوفيا أم جيورا نويمان والتي تنص : « بودي أن أعبر لك عن تعاطفي الكامل مع ابنك . ان أعواما من السجن تنتظره بسبب العمل الشجاع والعملي . انه برفضه الخدمة في جيش كان في بدايته جيش دفاع وتحول الى **جيش معتد محتل** ، يشجب سياسة حكومة اسرائيل التي تحول الان دون أية خطوة نحو السلام . **وكلي أمل بأن يثير عمله تفكير اكبر عدد من الشبان ابناء جيله** . ومن البديهي أن تكون هنالك قيمة لاسباب (عمله) توازي على الاقل نفس قيمة اسباب رفض الخدمة العسكرية لاسباب ضميرية محضة ، واعتقد ان تبرئة ساحته ستكون شرفا للمحكمة . ثقي يا سيدتي بأنني أشعر بآلامك » (معاريف ٧٢/٦/١٢) .

قضية جيورا نويمان : يعتبر جيورا نويمان رمز الثائرين على الخدمة العسكرية واصبح يشكل قضية تعرف باسمه ، وبالرغم من محاولة السلطات الاسرائيلية كبت القضية وحبسها الا انها أفلتت من ايديها وغدت من بين القضايا التي تتداولها الاوساط اليسارية الثورية في العالم ، ويعود الفضل الكبير في ذلك الى صمود جيورا نويمان الذي يناهز الثامنة عشرة من عمره والى المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية متسبين التي اخذت تروج لها بين الاوساط والتيارات المستنيرة في الساحة العالمية .

بدأت قصة نويمان عند مطلع شهر آب من عام ١٩٧١ عندما قام مع ثلاثة آخرين من ابناء

جيله (١٨ عاما) على عتبة الخدمة العسكرية بعد أن انهوا دراساتهم الثانوية (وهم رؤبين لسمان ، دوف جال ، عيريت يعقوبي « فتاة ») بارسال رسالة الى وزير الدفاع موشيه ديان ونسخ أخرى عنها الى كبار المسؤولين الاسرائيليين والى مندوب الامم المتحدة في اسرائيل، تعتبر سابقة وفاتحة لنضال عملي ضد المؤسسة العسكرية المحاطة بهالة من القدسية في اسرائيل . لم تكن هذه الرسالة كرسالة خريجي المدارس الثانوية الذين يشتكون من سياسة « لا مفر » و« لا مناص » وهم على عتبة الخدمة العسكرية والتي نالت استحسان ورضى قطاع من الجمهور الاسرائيلي ، بل كانت ثورة على الخدمة العسكرية بالذات ، على الاداة الرئيسية القوية التي لا تتعزز السياسة الاسرائيلية الا بها ، على الجيش الاسرائيلي : « اننا لسنا على استعداد للخدمة في قوات الدفاع . ان شبابا يفقدون أرواحهم في هذه الدولة في معارك من أجل صراعات داخلية وليس من اجل قيم عليا . مقابل كل قتيل في القناة ، يثري رجل في تل ابيب . **اننا لسنا على استعداد للخدمة في جيش محتل** . لم نولد احرارا لكي نصبح مضطهدين. ان الاضطهاد ليس سببا كافيا لبذل الروح من اجله ، اننا لسنا على استعداد لنتحول الى مرشحين في قائمة اعلانات الوفيات فقط لمجرد استهتار الحكومة بأرواح البشر . اننا لا نرغب أن يكتبوا عنا « حديث الموتى » في يوم من الايام . **اننا لسنا على استعداد لنرتكب بحق شعب آخر ما ارتكب بحق آبائنا وأجدادنا** . مرفق بذلك أوامر التجنيد التي استلمناها » (مجلة متسبين ٧١/٨/١٠) .

وقفت السلطات الاسرائيلية حيال ذلك مندهشة ، ولجأت الى اسلوب طمس الحقائق وتطويقها خشية انتشارها ، فأنكر وزير الدفاع في بداية الامر انه تلقى رسالة رفض للخدمة العسكرية من قبل الاشخاص الاربعة ، كما ومنع التلفزيون الاسرائيلي من بث مقابلة مع الاشخاص الاربعة كانت قد اعدت ، واخذت وسائل الاعلام الاسرائيلية تبرز رسالة أخرى بعث بها أحد المشوهين يطلب فيها الانضمام الى الجيش الاسرائيلي ، بيد ان الرسالة كانت قد أخذت طريقها الى الصحف الاجنبية ولم يعد بالامكان التستر عليها. حينذاك لجأت السلطات الاسرائيلية الى ثلاث طرق في معالجتها لقضية المتمردين على الخدمة العسكرية (١) توجيه مذكرات توقيف بحق المتمردين ووضعهم في سجون عسكرية مع تجديد هذه المذكرات عند انتهاء المدة والقيام خلال ذلك بحملة نفسية مشفوعة بالتهديد ضد الشخص الموقوف بغرض تليينه وكسر مقاومته . (٢) افساح المجال امام الرافض للخدمة ، للعمل في مجال آخر ضمن الخدمة العسكرية ولكن في الوحدات غير المقاتلة مثل الوحدات الطبية ، وضمن حدود الرابع من يونيو فقط . وقد استطاعت السلطة العسكرية القضاء على تمرد عدد من الاشخاص بواسطة البديل الجديد : الخدمة في حدود الرابع من يونيو وفي الوحدات غير المقاتلة . (٣) في حالة تعذر كسر مقاومة الرافض من خلال تجديد مذكرات التوقيف في السجن ، واصراره على رفض الخدمة سواء في الوحدات المقاتلة ام غير المقاتلة في المناطق المحتلة او ضمن ما يسمى بالخط الاخضر ، تحاول السلطة فتح طريق أمامه للتخلص من المشاكل التي يثيرها بواسطة التلميح للرافض بأن بامكانه عدم الالتحاق بالخدمة اذا كان مصابا بمرض جسدي أو نفسي ، واذا ما استجاب الرافض لهذا « الاغراء » وصرح بأنه يعاني من مرض ، تطلق السلطة سراحه من الخدمة العسكرية على اساس انه « غير ملائم للعمل في الجيش الاسرائيلي » وبهذه الوسيلة أطلق سراح عدد من الرافضين للخدمة . اما في حالة عدم جدوى هذه الوسائل الثلاث فان الرافض يحال على محكمة عسكرية لاصدار الحكم بحقه في السجن . ليس من السهل اجتياز هذه الاساليب الثلاثة لسببين اثنين : (١) التهديد والوعيد من قبل السلطة ، (٢) يفاعة سن الشباب الرافضين الذين تناهز أعمارهم الثامنة عشرة فقط ، غير ان من يكون مسلحا بايديولوجية معينة فيمكنه التغلب على كافة الصعوبات النفسية والجسدية .

لقد جربت السلطة مع جيورا نويمان الاساليب الثلاثة وفشلت معه وانتصر عليها ، فبالنسبة للاسلوب الاول اصدرت مذكرة بتوقيفه ٣٥ يوما في سجن عسكري ، وعند انقضاء المدة الحقتها بمذكرة توقيف ثانية بالمدة نفسها ثم الحقتها بثالثة ورابعة وخامسة ، وخلال ذلك استخدمت معه الاسلوب الثاني ، وكادت أن تنجح حين أشيع ان نويمان قبل العمل في الجيش ضمن حدود الرابع من يونيو وفي الوحدات غير المقاتلة . ويبدو ان نويمان وافق لفترة زمنية صغيرة للعمل في وحدة غير مقاتلة تحت تاثير عاملين : الضغط الموجه اليه في السجن من قبل سلطات الجيش ؛ ومن قبل ابويه اللذين ضغطا على ابنهما — بالرغم من تأييدهما لموقفه — لقبول البديل بدل أن يبقى بين الجدران الاربعة ، والشعور الذي اعترى نويمان بأنه يجب ان لا يقدم على خطوة تجعله في مرتبة المتفوق على زملائه ، بيد ان هذين العاملين سرعان ما سقطا عندما أعلن نويمان كما جاء على لسان أبيه : « انني لا اريد أن اكون في جيش مضطهد حتى ولو لم أجند في المناطق المحتلة ، وكذلك فانني لن التحق بسلاح الخدمات الطبية ... **وانني لا اريد أن أطلق سراح جندي آخر لكي يخدم مكاني في المناطق المحتلة** » (هعولام هزيه ٧٢/٦/١) .

وهكذا استمر جيورا في مواصلة نضاله . وقبل التطرق الى الايديولوجية المسلح بها لا بد من الوقوف قليلا حول التربية المنزلية التي ترعرع عليها . ويحدثنا ابوه عن ذلك بقوله : « لقد هاجرنا الى البلاد عام ١٩٥٨ ، وكان جيورا يناهز الرابعة والنصف من عمره ، كان في طفولته يريد معرفة ما جرى لجده ؛ وروينا له كل شيء ، وروت له امراتي التمرد في وارسو ، حيث كانت في وارسو لغاية عام ١٩٤٤ حين طرد سكانها وغدت المدينة حجارة فقط وأرسلت امه مع اهلها للعمل في المانيا . لقد قتلوا امي في اوشفايتس ، وتوفي ابي في هانوفر في احد المعسكرات ، كما لقيت اختي حتفها في معسكر اعتقال في تشيكوسلوفاكيا . حدثت جيورا عن كل شيء وكان دائما يريد المزيد من المعرفة . لقد اثر ذلك عليه كثيرا . ان هذه المعاناة لم تكن معاناة بالنسبة للشعب اليهودي بل ايضا بالنسبة للشعب البولوني والشعوب الاخرى التي عانت الامرين من الالمان . ومن الواضح ان التربية البيتية قد اثرت عليه ... **اننا لم نشتر له ابدا لعب اطفال على شكل بندقية او دبابة او جنود** . بل كنا دائما نشرح له ضرورة احترام كل الشعوب وكافة البشر بغض النظر عن دينهم او جنسهم » (المصدر السابق) .

هنالك ملاحظتان تجدر الاشارة اليهما (١) وجه الشبه بين الماضي القريب والحاضر الراهن ، بين ما ارتكبته النازية من فظائع ضد اليهود وشعوب اخرى وبين ما ترتكبه اسرائيل من فظائع ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية ، وجه الشبه هذا اخذ ينمو ويرتسم بشكل متزايد في اذهان اوساط إسرائيلية مستنيرة ؛ وهذا هو ما دفع الرافضين للخدمة العسكرية الى اختتام رسالتهم بالقول : « اننا لسنا على استعداد لنرتكب بحق شعب آخر ما ارتكب بحق ابائنا واجدادنا » . (٢) الملاحظة الثانية تتعلق بالجملة التي وردت على لسان ابي جيورا حول لعب الاطفال . لم تكن هذه الجملة عرضية بقدر ما هي اتهام للمجتمع الاسرائيلي ، فمن المعروف ان لعب الاطفال العسكرية رائجة في اسرائيل ، الامر الذي يولد بالضرورة روحا عسكرية لدى الطفل ، ولا ينتهي الامر عند هذا الحد ، بل تنمى في الطفل روح عدوانية من خلال بعض الالعاب التي تسيء الى شعب اخر كلعبة « العربي المشنوق » ومن خلال التربية العنصرية التي يترعرع بين احضانها ، « **فالطفل في أسرائيل** » كما جاء في مقال عن لعب الاطفال العسكرية (ملحق معاريف ٧١/١٢/١١) « **يقتل عربيا كل مرة يضغط بها على زناد مسدسه** » .

نعود الآن الى المنطلقات الايديولوجية التي دفعت نويمان لرفض الخدمة ، وكانت ايضا بمثابة السلاح القوي الذي صمد به اثناء صراعه . ان نويمان لا يعتبر نفسه رجلا

« سلامیا » یعارض الحروب لکونها حروبا ویعارض العنف لکونه عنفا ، وهذا لا یعني انهما ینطویان علی امر ایجابي « ولکن قد یکون هنالك نضال تستعمل فیه القوة ویکون نضالا صادقا » ، ویعتقد نویمان « ان الامر المطروح هو التخلص من الکیان والسلطة والنظام الصهیوني » ویشرح رفضه للخدمة العسکریة في مقابلة اجریت معه علی النحو التالي : « رفضي للتجنید لیس خطوة قائمة بحد ذاتها ، انه جزء من عقیدة شاملة وجزء من تجربة لرؤیة شاملة لواقع الشرق الاوسط ولتاریخه والنزاع في هذه المنطقة. بایجاز اني اری في الصهیونیة العامل الاساسي في هذا النزاع ، وهذا العامل یحمل بین ثنایاه ظواهر ، بدءا بالکیرن کییمث ، وکیرن هیسود ، ومرورا بالوکالة الیهودیة وحتی الدولة وجیش الدفاع الاسرائیلي . ان الامر المطروح علی بساط البحث من الناحیة التاریخیة المبدئیة هو **التخلص من الکیان والسلطة والنظام الصهیوني** . ان من یعرض «المشکلة» علی « انهم یریدون ذبحنا » انما یخدع نفسه ویخدع الاخرین . المشکلة الاساسیة هي التحرر من الصهیونیة » (مجلة متسبین عدد ٦٢ فبراير ١٩٧٢) .

من خلال هذه الرؤیة الشاملة لواقع الشرق الاوسط وتاریخه وهي رؤیة متطابقة معرؤیة منظمة متسبین التي ینتمي الیها ، دافع نویمان عن نفسه اثناء مثوله امام محکمة عقدت في یافا في بدایة شهر تموز من هذا العام ، وانکر ان یکون ما اقدم علیه بمثابة مخالفة ، وان سبب رفضه للخدمة في الجیش یعود الی طبیعة هذا الجیش والدور المطلوب منه « ان السبب في ذلك هو ان الجیش الاسرائیلي کما اراه هو جیش احتلال » ثم اخذ نویمان یتطرق الی الاعمال المشینة التي یرتکبها الجیش الاسرائیلي في المناطق المحتلة مثل هدم حارات باکملها فيقطاع غزة في عام١٩٧١ وقیامه بطرد الاهلین وتهجیرهم «للمرة الثانیة في حیاتهم » معتبرا ان ذلك جزء بسیط جدا من الاعمال المشینة التي ترتکب الا انه ذکرها لکونها قد حدثت في الفترة التي تلقی فیها امرا بالانتساب للخدمة العسکریة ؛ ومشددا علی ان « اعمال الجیش الاسرائیلي في المناطق المحتلة هي بمثابة اضطهاد واهانة وتهجیر ونفي ، تشکل بمجملها کافة الظواهر الکلاسیکیة للاحتلال » (هآرتس ٧٢/٧/٦) وان هذه الاعمال تتنافی والمبادیء التي یؤمن بها ، ومنهیا مرافعته بقوله « حسب رایي انني اقف الیوم هنا لیس بسبب مخالفة ارتکبت ، بل بسبب استجابتي لضمیري » . ومن الجدیر بالذکر ان امه صوفیا قد استدعیت الی المحکمة لتشهد في قضیة ابنها ، وقد کشفت النقاب عن التهدیدات والحملة النفسیة التي کان یوجهها قائد المعسکر ضد ابنها « سأحطم ابنك » وانه کان یقترح علیها في بعض الاحیان التنکر لابنها « ولکنني لن افعل ذلك مطلقا لانه غیر مجرم . . . لقد ثقفته علی المحبة والسلام واحترام الانسان بغض النظر عن الدین واللون والجنس » وقد اصدرت المحکمة حکمها بسجن نویمان ٨ اشهر ضاربة بعرض الحائط قول الفیلسوف الفرنسي « اعتقد ان تبرئة ساحته سیکون شرفا للمحکمة » .

لم یقتصر التمرد علی اشخاص منتمین او مقربین من منظمة متسبین ، بل شمل ایضا اشخاصا اخرین لیسوا منتمین الی المنظمة وان کانت معتقداتهم ومبادئهم تتطابق او تتشابه مع معتقدات متسبین ومبادئها ، فهنالك علی سبیل المثال الشاب دوف جال الذي لا یعتبر رفضه للخدمة العسکریة ناجما عن فلسفة سلامیة ، ذلك لانه یؤید العنف ولکن في حالة واحدة فقط « العنف من اجل الثورة الاشتراکیة لانه عنف المستغلین ضد مستغلیهم » ، وسنورد هنا مقتطفا من مقابلة صحفیة معه نشرت في مجلة متسبین (٧١/٨/١٠) یوضح اسباب تمرده المتمثلة في معاداته للصهیونیة التي یعتبرها سبب کل المآسي في منطقة الشرق الاوسط .

« س : من خلال اية مبادیء توصلت الی الاستنتاج بخصوص رفضك للخدمة في الجیش الاسرائیلي ؟

ج : قبل كل شيء ، بسبب كوني معاديا للصهيونية .

س : ما هي مبادئك وهل تنتمي الى تنظيم ؟

ج : انني اشتراكي ، ولا انتمي الى تنظيم معين او اتعاطف معه .

س : لماذا تعادي الصهيونية ؟

ج : لاعتقادي بأنها جلبت كافة المآسي في منطقتنا .

س : الا تعتقد بوجود مكان في ارض اسرائيل **لدولة** يهودية ؟

ج : هنالك مكان في البلاد **لبشر** يعتبرون انفسهم يهودا ، وكذلك يوجد مكان لكل انسان اخر يريد العيش هنا .

س : وماذا بخصوص المسألة اليهودية ؟

ج : ان الفكرة الصهيونية لم تأت بالفعل لحل المسألة اليهودية . انني لا اعتقد ان اليهودي في اسرائيل اكثر امانا من اي مكان اخر في العالم .

س : الا يوجد تمييز واقع على الاقليات اليهودية في العالم ؟

ج : ليس هنالك تمييز موجه ضد اليهود لكونهم يهودا ، بل هنالك تمييز ضد يهود لكونهم صهاينة ، ففي روسيا على سبيل المثال .. يعتبر الشخص الذي يحمل افكارا صهيونية مناوئا للثورة ، ولذلك فانهم يضطهدون هناك يهودا صهاينة » .

والى جانب هؤلاء المتمردين المنطلقين من فكر ايديولوجي هنالك متمردون على الخدمة العسكرية ينطلقون من فلسفة « سلامية » مناوئة لكافة انواع العنف مثل الشاب « الن روبين » من تل ابيب الذي توجه برسالة الى قيادة الجيش يعلن فيها رفضه للخدمة العسكرية « لاسباب ضميرية وليس الى اسباب سياسية » بيد ان ذلك لا يعني الافلات من السجن وان كانت المدة التي تصدر بحق هؤلاء عادة اقل من المدة التي تصدر بحق المتمردين الايديولوجيين . ولعل « روجر درهي » هو اكثر المعبرين واشدهم اصرارا في موقفه « السلامي » ضد الحرب . فقد كان من بين اوائل الذين رفضوا الانصياع للامر بالخدمة العسكرية واخذ يعمل طيلة عامين ضد هذا الامر بوسائل شتى منها ارسال مذكرات الى نحو ٩٠ صحيفة داخل اسرائيل وخارجها لتوضيح موقفه الذي يعتمد على « استعداده للخدمة ٤ — ٥ اعوام ولكن ليس في خدمة عسكرية بل في خدمة السلام ، خدمة منظمة كالجيش ولكن بدل القيام بالحرب ينبغي العمل من اجل السلام » (معاريف ٧٢/٦/٢٦) واوضح انه يدعو الى اقامة جيش سلام وافساح المجال امام الشباب للانضمام اليه . ومن الجدير بالذكر ان روجر درهي البالغ من العمر ٣٠ عاما كان قد قدم الى اسرائيل من فرنسا تاركا دراسته الجامعية ابان حرب حزيران تصورا منه ان اسرائيل تواجه « خطر ابادة » بيد ان هذا التصور اخذ يمحي من خلال ادراكه لواقع زيف الدعاية الصهيونية الامر الذي ولد لديه الدعوة الى الافكار السلامية المناوئة للحرب التي بقي مؤمنا بها ضاربا بعرض الحائط الحكم الذي صدر بسجنه ستة اشهر . فعند مثوله امام المحكمة قام بدور توجيه الاتهام اكثر من قيامه بالدفاع عن نفسه فقد وجه حديثه الى القاضي قائلا : « ان المحكمة تحاكم الاشخاص المتهمين بالقتل ، والان تريد انت محاكمتي لانني ارفض تنفيذ القتل ؟ صحيح ان من واجبي الدفاع عن نفسي وعن الدولة ، ولكن من قال بان هذا الدفاع يتأتى فقط عن طريق الحرب ؟ في الحرب يموت اناس . وقبل كل شيء ينبغي ان نعيش ، حينئذ يمكن صنع السلام . ان اية حرب حتى الان لم تحل قضية السلام بل تسببت بحرب اخرى .. » (المصدر السابق) . والامر اللافت للنظر في قضية (درهي) انه كان بامكانه الخلاص من السجن

ومن الخدمة في الجيش معا بسبب مرض في كليته بيد انه انكر ان يكون مريضا ، وعندما سأله القاضي عما اذا كان مستعدا لاجتياز فحص طبي اجابه الرافض بالنفي القاطع وقال انه لائق من الناحية البدنية للخدمة في الجيش غير انه يرفض الخدمة « لاسباب ضميرية » . ودفع الثمن ٦ اشهر في السجن بنفس مطمئنة ، بيد ان هنالك من لا تطمئن نفسه الى اجتياز الاساليب الثلاثة ودخول السجن مثل « يوسف هرئيل » (٢٨ عاما) من سكان تل ابيب ، الذي قام عند مداهمة الشرطة العسكرية عند منتصف شهر سبتمبر من هذا العام بسبب فراره من الخدمة بمحاولة الهرب من نافذة بيته ، الا ان المحاولة كلفته حياته ، اذ سقط على الشارع جثة هامدة .

وازاء الاوضاع الصعبة التي يواجهها رافضو الخدمة العسكرية ، ومن اجل نقل قضيتهم الى الراي العام العالمي بشكل اوسع وانجع ، اقدم شابان اسرائيليان على طلب حق اللجوء السياسي في السويد وذلك بسبب رفضهما « سياسة الحرب القذرة » التي تتبعها السلطات الاسرائيلية ، اسوة بزملاء لهما من الجنود الاميركيين الذين اعتادوا طلب حق اللجوء السياسي في البلد نفسه ، احتجاجا على « سياسة الحرب القذرة » التي تشنها الولايات المتحدة ضد شعب فيتنام .

وقد عبر كل من الشابين اللذين يناهزان الثامنة عشر من عمرهما عن آرائهما في قضية الحرب والسلام في المنطقة فقد قال هاري اوستفلد في مقابلة اجرته معه صحيفة افنو بلادت السويدية « انني اعتبر جيراننا العرب اصدقائي ، لذلك لن اجازف بالتورط في القتال ضدهم » واما زميله يعقوب غولدبوف فقد قال للصحيفة نفسها : « انني ارفض ان تكون لي اية يد في هذه الحرب القذرة . وبصفتي جنديا فقد اجبر على الاشتراك في عمليات انتقامية قاسية ضد العرب ، مثل اقدام الاسرائيليين على قتل الشيوخ والنساء والاولاد كما حدث بعد مأساة ميونيخ » (كما نقلته صحيفة النهار ٧٢/١٠/١٧) . وبذلك فتح الرافضون للخدمة العسكرية جبهة جديدة في تصديهم للجيش الاسرائيلي .

المتمردون من خلال الهوة الاجتماعية : هنالك ظاهرة تمرد اخرى على الخدمة العسكرية اخذت تتفشى في النصف الاول من هذا العام بين الفئات المسحوقة من ابناء الطوائف الشرقية نتيجة التمييز الذي يواجهه اليهود الشرقيون في كافة مجالات الحياة والناجم عن الهوة الاجتماعية (أنظر مقالة الهوة الاجتماعية في اسرائيل **شؤون فلسطينية** عدد ١٥) لا تتوفر معلومات دقيقة حول عدد هؤلاء المتمردين ، فبينما تقدر بعض المصادر الاسرائيلية العدد بانه يناهز الاربعين ، نجد مصادر اخرى تلمح بان عددهم وصل الى المئات . ولعل خطورة هذا النوع من المتمردين قد بدت واضحة امام المسؤولين الاسرائيليين ذلك ان ابناء الطوائف الشرقية الذين يشكلون اكثر من نصف السكان في اسرائيل يعتبرون خميرة صالحة لنمو حالة التمرد على الخدمة العسكرية بسبب اوضاعهم وظروفهم التعيسة ، ولذا اخذت السلطات الاسرائيلية المسؤولة تنظر الى هذه المشكلة بجد وتعامل في الوقت نفسه بذرة التمرد بلين تحسبا من العواقب الوخيمة، ويتضح ذلك من ردود الفعل المتسامحة نسبيا تجاه هؤلاء المتمردين بين التكتلات السياسية الفاعلة في اسرائيل التي تجمع على استنكار التمرد وفي الوقت نفسه تبدي تفهما للاسباب الكامنة وراءه وتدعو الى حل مشاكل هؤلاء الشباب ! اما اسباب الخطورة فتتمثل في قول رئيس هيئة الاركان اللواء دافيد اليعازار « ان السبب الذي دفعنا للنظر الى المسألة بجد ، ينبع من واقع وجود دول في العالم تستخدم فيها بطاقة التجنيد كوسيلة للصراعات الداخلية . اننا لا نرغب في ان نغدو هذه الظاهرة مألوفة في البلاد ، لذلك فان مصلحتنا تتطلب فصل الصراعات الداخلية عن الخدمة في الجيش الاسرائيلي . ان الجيش الاسرائيلي هو لليهود كافة وينبغي ان يبقى معزولا عن اي صراع داخلي في الدولة » (معاريف ٧٢/٣/٢٨) . بيد ان مسألة عزله عن الصراعات

الداخلية اصبحت في الاونة الاخيرة بالنسبة للمسحوقين من ابناء الطوائف الشرقية مسألة فيها نظر ، ذلك انه اتضح امامهم انهم خلال ٢٤ عاما جربوا وخاضوا كافة انواع النضالات التقليدية من اجل تغيير الواقع التمييزي الذين يعيشونه ، بدءا بالاضطرابات والتظاهرات المتكررة المشفوعة في بعض الاحيان بالعنف ومرورا بانتفاضة وادي الصليب في حيفا وانتهاء بظهور حركة الفهود السود ، دون ان يحدث تغيير في واقعهم المر ، ولم يبق امامهم لا خوض نضال واحد : رفض الخدمة العسكرية . وقد توصل عدد من ابناء الطوائف الشرقية الى هذه النتيجة حين تمرد سبعة منهم في شهر اذار من هذا العام على الخدمة العسكرية وذلك بارجاع الهويات العسكرية الى الجيش ادراكا منهم بأن الجيش هو المكان الوحيد الذي تحتاجهم فيه السلطة ، حيث يشكل ابناء الطوائف الشرقية لبنة اساسية في حجمه ، مطلقين صرخة المسحوقين الذين يساقون الى الحروب لمصلحة الاسياد : نقاتل من اجل من ؟ او كما يقول حانوخا مزراحي ابرز الشبان السبعة ، « انهم يرسلوننا الى الجيش للمحافظة على المتحف الذي يخص موشيه ديان في الوقت الذي لا نملك فيه مكانا للنوم — لماذا ينبغي علينا ان نذهب للجيش ؟ » او كما يقول احد زملائه : « عندما روى زميلان لنا بانهما تلقيا امرا بالانخراط في سلك الاحتياط ، اخذنا نفكر : نقاتل من اجل من ؟ ولماذا نقاتل ؟ عندما كنا ابناء ١٨ عاما ذهبنا الى الجيش بقلب مفعم بالحب ... واعتبرنا ان ذلك بمثابة فخر لنا ، ولكن اتضح بمرور الزمن ان الجيش هو المكان الوحيد الذي تستخدمنا فيه الدولة .. ليس من المعقول ان يطلبوا منا تقديم ارواحنا لدولة لا توفر لنا ابسط الشروط للعيش كبشر » .

ولعل ما هو اخطر من ارجاع البطاقات العسكرية ، ظاهرة التهديد باستخدام العنف من قبل ابناء الطوائف الشرقية المتمردين على الخدمة العسكرية ، والذين لا يرون في ارجاع البطاقات العسكرية اخر المطاف في نضالهم بل حلقة تؤدي الى حلقة من العنف كما يقول حانوخا مزراحي : « اننا نأمل ان يستمعوا الينا الان ، **وان لا يعطونا فرصة لاستخدام ما تعلمناه في الجيش** ... ولكن في المكان الذي لا يمكن فيه الحصول على شيء الا عن طريق العنف ، فاننا لن نتردد ايضا نحن عن التصرف كالاخرين . **لن ناكل الطين ونقول بانه عسل** » (هعولام هزيه ١٥/٣/٧٢) .

ويمكن القول ان الضوء البسيط الذي اخذ يشع وسط المجتمع الاسرائيلي ، يعتبر ظاهرة جديدة ، تتصدى — على الرغم من بساطتها — لاداة القمع الرئيسية التي تستخدمها الصهيونية في الحفاظ على الكيان الاسرائيلي وتوسيعه على حساب شعوب المنطقة .

ان هذا الضوء علاوة على انه بمثابة المعيار الحقيقي لثورية الفئات الثورية وخاصة تلك المعادية للصهيونية ، لا يعتبر عاملا مساعدا للثورة الفلسطينية وانما ايضا شريكا لها في صنع المجتمع الجديد البديل ، على انقاض المجتمع الصهيوني المتمثل في الكيان الاسرائيلي ، عقب تحرير كامل التراب الفلسطيني ، هذا المجتمع الذي يحتضن عربا ويهودا متساوين في الحقوق والواجبات وينتفي فيه استغلال الانسان للانسان .

ملاحظات حول تجربة الاتحاد العـــام للمعلمين الفلسطينيين

شحاده موسى

يمكن اعتبار الاتحاد مؤسسة في طور التكوين ، وتجربة محدودة . فقد اعلن تأسيسه في أواخر عام ١٩٦٩ ، أما مؤتمره الاول فعقد في شهر آب ١٩٧٢ . ولذا تنحصر تجربة الاتحاد عمليا في نشاط قيادته (الامانة العامة) وبعض فروعه التي اكتمل تشكيلها منذ وقت مبكر نسبيا مثل فروع لبنان وسورية والكويت . من جهة اخرى ، لا يصح ان يكون نشاط الاتحاد في هذه الفترة المحدودة مقياسا نهائيا لتقييمه ، اذ انه عبارة عن نشاط في مرحلة تحضيرية . ان هذا الوضع ، وطبيعة المعلومات المتوفرة حول الاتحاد تجعـل دراسة الاتحاد ذات طبيعة جزئية وغير متكاملة . لذلك ستكتفي هذه الدراسة بطرح عدد من الملاحظات والاقتراحات ، التي قد لا تكون صحيحة كلها ، ولكنها ربما كـانت مفيدة في اثارة بعض القضايا امام الاتحاد وهو على ابواب بدء مرحلة جديدة في عملـه كمؤسسة مكتملة . ولا يقصد بهذه الملاحظات مجرد الانتقاد بقدر ما تهدف أن تشكل محاولة للاسهام في دفع تجربة الاتحاد على الطريق الثوري المنشود . وسنحاول القاء الضوء على بعض الجوانب الهامة في الاتحاد مثل : ١ ــ قطاع المعلمين : اي الوسط الذي يعمل ضمنه الاتحاد . ٢ ــ الوضع الخاص للمعلمين الفلسطينيين : بهدف ابراز النواحي الموضوعية التي تتحكم بعمل الاتحاد . ٣ ــ مهمات الاتحاد : ونحاول تصور المهمات الاساسية التي ينبغي على الاتحاد التصدي لها . ٤ ــ الاتحـاد كمؤسسة : واخيرا نحاول استعراض تجربة الاتحاد منذ انشائه ، مع التركيز على بنيته ومـدى انسجامها مع مهماته .

أولا : قطاع المعلمين : اكتسب التعليم لـدى الفلسطينيين بعد نكبة عـام ١٩٤٨ قيمة خاصة واضحى « الحرفة » الرئيسية التي تجتذبهم ، وذلك نتيجة للوضع الجديد الناجم عن النكبة . ولقد تمثل هذا الوضع ، من جملة ما تمثل بفقدان الفلسطينيين ، وغالبيتهم من سكان الريف ، كل وسائل الانتاج ، وبتركزهم عموما في مخيمات مكثفة على هوامش المدن . وعلى صعيد الاقتصاد العربي المحلي (الاردن ، سورية ، لبنان) كانت الصناعة مبتدئة ونطاق العمل الزراعي ــ المجال الـذي يمكن ان يتجـه اليه الفلسطينيون ــ محدودا ، بحيث كانت الدول العربية تشهد تحولا سكانيا من الريف الى المدينة . ليس هنا مجال البحث في الوضع الاقتصادي العربي في ذلك الوقت ولكن يهمنا ان نؤكد انـه نتيجة للوضع الفلسطيني والعـربي ، من الزاوية الاقتصاديـة ، انقسم الفلسطينيون

---

* تنحصر منشورات الاتحاد تقريبا في تقرير عن مؤتمر رابطة سورية ، تقريران عن مؤتمري رابطة لبنان ، كراس صغير عن الامانة العامة بعنوان « الاتحاد في سنته الثالثة » ، بالاضافة الى النظام الداخلي والقانون الاساسي ، وبعض البيانات .

بشكل عام الى قسمين : طبقات ميسورة نسبيا اقامت في المدن ، خاصة في الاردن ولبنان ، واندمجت بالاقتصاد المحلي ، التجاري بوجه عام ، والقسم الاكبر فقير لا يملك شيئا ، جمع في المخيمات وعاش حالة بطالة شبه كاملة في البداية ، والاعمال التي تيسرت له كانت على هامش البنية الاقتصادية مثل العمل الزراعي الموسمي ، العمل في قطاع الخدمات (مقاهي ، مطاعم ، فنادق) والتجارة البسيطة (دكاكين ، باعة متجولون) .. الخ .

في ظل هذا الواقع كان لا بد للتعليم من ان يكتسب وضعا متميزا لعدة اعتبارات :

١ ــ تأمينه مجانيا من قبل وكالة الغوث ، ولو لمرحلة محدودة ، وكذلك من قبل الدول العربية المضيفة (ما عدا لبنان) . ٢ ــ ازدياد الطلب على المتعلمين وخاصة المعلمين ، سواء للعمل في مدارس وكالة الغوث ، أم في الدول العربية وخاصة السعودية ودول الخليج التي بدأت تشهد نهضة وتوسعا كبيرا في مجال التعليم . ٣ ــ وبذلك اصبح التعليم الفرصة المتاحة عمليا او الراسمال الوحيد الذي يمكن به تحقيق الطموحات الفردية كتحسين الوضع المادي والمكانة الاجتماعية . ولذلك نقول ان التعليم اصبح « الحرفة » او المهنة التي اجتذبت الفلسطينيين ، ولكنها كانت في الوقت ذاته حرفة ممتازة من حيث مردودها المادي وكقيمة اجتماعية . فاكتسب المعلم مكانة اجتماعية مرموقة ، كما ان دخله المنتظم والمرتفع نسبيا مكنه من تحسين وضعه المادي والمعيشي بشكل ملموس متميز عن غالبية سكان المخيم . ربما تكون صورة المعلم ومكانته الاجتماعية قد اهتزت الان بفعل التطورات التعليمية والاقتصادية التي حدثت في اوساط الفلسطينيين ، لكن المعلمين ما زالوا يشكلون شريحة اجتماعية كبيرة لها أوضاعها الخاصة .

لا نملك احصاءات دقيقة عن المعلمين الفلسطينيين من حيث العدد او من حيث توزعهم بحسب مكان الاقامة ، والجنس ، والجنسية ، والتخصص المهني والمستوى العلمي .. الخ . ولكن لدينا تقديرات اتحاد المعلمين لعدد المعلمين وتوزعهم في مناطق عملهم ، كما نملك احصاءات وكالة الغوث الخاصة بالمعلمين العاملين في مدارسها . يقدر اتحاد المعلمين العدد بـ ٤٨ الفا موزعين كما يلي(١) : الارض المحتلة ١٠ الاف ، شرق الاردن ٩ الاف ، سورية ٤ الاف ، لبنان ٣ الاف ، مصر ٣ الاف ، السعودية ٧ الاف ، الكويت ٦ الاف ، الخليج الف واحد ، ليبيا الفان ، الجزائر ٣ الاف . اما عدد معلمي وكالة الغوث فكان ٦٧٠٦ في عام ٧٠ ــ ٧١ موزعين كما يلي(٢) : الضفة الشرقية ٢٢١١ ، الضفة الغربية ٩٢٩ ، غزة ١٦٠٣ ، سورية ٩٥٩ ، لبنان ١٠٠٤ . لا يبين الاحصاء المذكور عدد المعلمات ، الا ان عددهن في العام السابق كان ٢٧١٨ معلمة(٣) .

يمكن القول ان معظم المعلمين الفلسطينيين هم من سكان المخيمات او قريبون منها جغرافيا او بحكم العلاقات العائلية . واستنادا الى تقديرات اتحاد المعلمين فان اكثر من نصف المعلمين اي ٢٦ الفا يعملون في المناطق المحتلة وفي الاردن وسورية ولبنان ، يضاف اليهم ٣ الاف في مصر اي ان نحو ثلثي عدد المعلمين يعملون في مناطق تجمع الفلسطينيين . يضاف الى ذلك ان المعلمين ، بطبيعة المهنة ، يظلون اقرب الى سكان المخيمات من حيث الاحساس بالاثر المادي والمعنوي للنكبة وحالة اللجوء . فالمعلمون اجمالا يعملون خارج اطار الاقتصاد المحلي (بعكس موظفي الشركات والبنوك واجهزة الدولة، واصحاب راس المال)، ويعود معظم العاملين في مناطق بعيدة،سنويا ــ في اجازة الصيف ــ الى اماكن اقامتهم التي هي غالبا في المخيمات ، كما ان دخلهم المحدود يجعل موقعهم في اسفل سلم البورجوازية الفلسطينية .

الوضع الخاص للمعلمين الفلسطينيين : هناك عدة امور تجعل للمعلمين وضعا خاصا يؤثر على تحركهم وعلى عمل الاتحاد ايضا . من هذه الامور :

١ ــ **التوزع** : حيث يعمل المعلمون في بلدان عدة وفي قطاعات مختلفة مثل وكالة الغوث ، والقطاع الرسمي والقطاع الاهلي او المدارس الخاصة . ويؤكد هذا الوضع عدة حقائق مثل : أ ــ **صعوبة الاتصال** ، ولا تقتصر هذه الصعوبة على من هم في الارض المحتلة ومن هم خارجها بل تشمل كذلك العاملين في البلدان العربية سواء بسبب البعد الجغرافي ام بسبب قيود السفر التي تفرضها بعض الدول العربية على الفلسطينيين . ب ــ **اختلاف اوضاع العمل** ، فتوزع المعلمين بين بلدان مختلفة وقطاعات مختلفة يجعلهم يخضعون لاوضاع مختلفة من حيث شروط وقوانين العمل والضمانات . جـ ــ وينجم عن ذلك أن يواجه المعلمون مشاكل مختلفة بمعنى ان المشاكل التي يواجهها معلمو وكالة الغوث هي غير المشاكل التي يواجهها معلمو المدارس الخاصة او المعلمون في البلدان العربية الاخرى . د ــ **حرية التحرك** والمرتبطة بالاوضاع الخاصة لكل بلد . فهناك دول لا تمانع في العمل الفلسطيني السياسي والنقابي ، بينما تعارض بعض الدول او لا تحبذ مثل هذا العمل لانها لا تسمح به لمواطنيها انفسهم . وخلاصة القول ان هذا التوزع وما ينتج عنه يشكل ثغرة اساسية في عمل اية مؤسسة فلسطينية كالاتحاد العام للمعلمين .

٢ ــ **الوضع الطبقي** : يشكل المعلمون الفلسطينيون من الناحية الطبقية شريحة اجتماعية متجانسة ولكنها ليست متماسكة . والمعلمون في أي مجتمع يشكلون فئة اجتماعية متميزة ، تعيش أوضاعا متشابهة من حيث طبيعة العمل وقوانينه وامتيازاته. ومن جهة اخرى ، تكاد العلاقات ضمن مؤسسة التعليم تكون خالية من التناقض والصراع . فعلاقة المعلمين باداريي التعليم مثلا ليست كعلاقة العمال بأصحاب العمل ، بمعنى أن العلاقة ليست استغلالية ولا يتمتع هؤلاء الإداريون بامتيازات **فارقة** عن مجموع المعلمين ، وليس لهم مصلحة مباشرة في معارضة اي تحرك للمعلمين للحصول على مزيد من الحقوق*. وعلى الصعيد الفلسطيني نلاحظ ان فئة المعلمين لها اوضاعها وقضاياها الخاصة ولكنها في الوقت ذاته غير متماسكة ليس بسبب طبيعة العمل فحسب بل بحكم توزع هذه الفئة بين بلدان وقطاعات كما مر معنا .

لقد ولد الوضع **الطبقي** الموضوعي للمعلمين انعكاسات خاصة على علاقتهم بسكان المخيمات . فالمعلم مقارنا بباقي سكان المخيم يتمتع بامتيازات خاصة ، فهو يحصل على عمل دائم ورواتب منتظم ، لا يتعب جسديا ويتمتع بالاجازات والعلاوات ويعيش جوه الخاص في حياة مادية مريحة بالنسبة للوسط المحيط به . كذلك فان قضايا المعلمين هي قضايا خاصة مفصولة عن قضايا القطاع الاكبر من الاهالي ، حيث انحصرت هذه القضايا ، أو ظهرت وكأنها محصورة في المطالبة بتحسين الرواتب والضمانات ، أي بالكسب المادي المباشر غير المرتبط بمصلحة باقي الاهالي . ولذا كان موقف الاهالي سلبيا من تحركات المعلمين حتى ان هؤلاء بدأوا يتحدثون عن الفجوة الحاصلة بينهم وبين الجماهير . ان قضايا المعلمين بطبيعتها قضايا خاصة ليست مثلا كقضايا الطلاب والعمال التي هي قضايا الجماهير نفسها . ان هذه الفجوة ليست مفتعلة بل لها اسبابها الموضوعية والمتمثلة اساسا بوضع المعلمين الطبقي . ولكن هذه الفجوة قابلة للردم ــ خاصة ونحن نخوض معركة تحرر وطني ــ ولكن ذلك يتوقف اولا على ممارسات المعلمين وعلى مقدرة الاتحاد على تحديد مهمات وطرح قضايا تنقل المعلمين من واقعهم وقضاياهم الخاصة الى صلب القضايا الجماهيرية .

---

* يختلف الوضع بالنسبة لاصحاب المدارس الخاصة ، وعلاقاتهم بمستخدميهم ، من المعلمين ، حيث يتحدد مسلكهم حسب مصلحتهم كمالكي مؤسسات خاصة .

مهمات الاتحاد :

عند الحديث عن مهمات اتحاد المعلمين ، او اية مؤسسة نقابية او تنظيم جماهيري فلسطيني ، لا بد ان نأخذ بعين الاعتبار قضيتين اساسيتين : الاولى ان الاتحاد كمؤسسة نقابية لا بد ان يعطي للعمل النقابي بعده الكامل (تحقيق انجازات مطلبية لاعضائه ، تأكيد الممارسات الديمقراطية ، خوض نضالات من اجل حقوق النقابة ومكاسبها، خوض نضالات مشتركة مع النقابات الاخرى ... الخ) . والثانية ان شعبنا يخوض معركة مريرة لاسترداد ارضه . وفي معارك التحرر الوطني ترجع القضايا المطلبية الى مكانة ثانوية ، حيث تطغى المسألة السياسية ــ دحر العدو القومي وقهره ــ على نشاط مختلف المؤسسات الشعبية والتنظيمات الجماهيرية . بكلام آخر ، لا بد ان **تكون الثورة محور عمل الاتحاد، مما يحتم عليه ان يتصدى لمهمة مزدوجة، سياسية ونقابية معا** ، فلا ينكمش العمل النقابي في حدوده التقليدية بل ينطلق من النضالات المطلبية لتعبئة طاقات الاعضاء وبشكل فعال في خدمة الثورة . وضمن هذا الاطار تتم محاكمة مؤسساتنا الجماهيرية ، وذلك في ضوء قدرتها على صوغ أهداف محددة تحقق لاعضائها انجازات خاصة دون ان تتحول الى مؤسسة نقابية تقليدية ، وتجند جماهير الاعضاء في النضال الثوري دون أن تتحول الى مجرد جهاز سياسي فوقي .

وقبل الحديث عن مهمات محددة للاتحاد ، ينبغي ان نسجل بعض القضايا التي تعتبر بمثابة الركائز او المستلزمات لعمل الاتحاد كتنظيم جماهيري ثوري .

١ ــ **تأمين المسألة التنظيمية** : ان الغاية الاولى التي لا بد ان يحققها الاتحاد هي ان يصبح المؤسسة او التنظيم الفعلي المحرك لقطاع المعلمين . ولن يتحقق ذلك بسهولة وبصورة تلقائية بل من خلال الممارسة وتحقيق الانجازات بحيث يصل المعلم الى قناعة بأن الاتحاد **هو الجهة التي تفكر له بقضاياه وتلاحقها ، الجهة التي تستجيب لهمومه وقلقه لانها ساهرة على مصلحته** وعلى تأمين حقوقه وتحسين اوضاعه ومساعدته ماديا ومعنويا عندما يلحق به الضرر . وبالطبع فان مثل هذه القناعة تستلزم قناعة اخرى من قبل المعلم مؤداها ان الاتحاد لا يستطيع القيام بهذا الدور دون المساعدة الفعالة والتجاوب الكلي من قبل الاعضاء مع ما يطلبه ويقرره الاتحاد . ان اكتمال هذه الصورة يعتبر الركيزة الاولى في عمل الاتحاد وعليها تتوقف مقدرته على القيام بدوره وتحقيق أهدافه .

٢ ــ **تحديد مهمات عملية**: يحدد الاتحاد عددا كبيرا من الاهداف العامة في المجالات النقابية والسياسية والاجتماعية وهي أهداف جيدة ولا شك(٤). ولكن يبدو ان الاتحاد قد قفز فوق الواقع الموضوعي للمعلمين والمتمثل بتوزعهم وبوضعهم الطبقي . لقد راينا ان توزع المعلمين بين البلدان والقطاعات قد أوجد ظروفا متباينة للعمل ، كما ان وضع المعلمين في المخيمات ــ بغض النظر عن الاسباب ــ قد أدى الى فجوة بينهم وبين الجماهير . واذا كنا نقول ان المطلوب تحديد مهمات عملية فلكي تنسجم مع هذا الواقع، اذ ان المهمات او الاهداف العامة لا تكفي بل لا بد من برنامج للعمل. وعلى هذا الاساس فربما كانت المهمات المنوطة بفرع الاتحاد في الكويت او في السعودية تختلف عنها في سوريا ولبنان او الاردن . كذلك فان مهمات الفروع في المناطق البعيدة لا بد وان تختلف عن المهمات العملية للفروع في مناطق تجمع الفلسطينيين اي في مناطق المخيمات .

٣ ــ **التركيز على العمل في المخيم** : تمتاز المخيمات بكونها مناطق التجمع الاساسية للفلسطينيين ، ومراكز العمل الثوري، وفيها تقوم المدرسة الفلسطينية، ويعمل عدد كبير من المعلمين الفلسطينيين في مؤسسة واحدة هي وكالة الغوث . وبالطبع ، لا يقتصر العمل الثوري على المخيمات ولكن الجماهير هي محور العمل الثوري وهدفه . والاتحاد

يدرك ذلك حين يحدد اهدافا له مثل « بناء الشخصية النضالية للشعب الفلسطيني ، تحقيق الوحدة الوطنية ، العمل على تطوير المجتمع الفلسطيني ثقافيا واجتماعيا .. الخ »(٥). وما ينبغي التأكيد عليه هنا هو اعطاء ثقل **نوعي** للعمل في المخيم . فالمخيم هو الاطار الموضوعي للعمل الفلسطيني لان العامل او المعلم يشعر بأن المخيم هو اطار تحركه ، وليس المصنع او المدرسة ، ان لم تكن مدرسة المخيم . هذا لا يعني ان الانسان الفلسطيني انسان سلبي في مجال عمله ولا يناضل مع زملائه وان لم يكونوا فلسطينيين، الا انه مع ذلك يظل يشعر بأن قضيته واطار عمله الجماعي ليس هنا وانما وسط جماهيره في المخيم . هناك حقيقة اخرى وهي ان المخيم ليس وحدة **سكنية** بل تجمع **مهني** ان صح التعبير ، وهو المكان الذي يلتقي فيه أهله ليتداولوا مشاكلهم الخاصة والقضايا الوطنية معا . ومن ثم فلا بد ان يشكل العمل الثوري في المخيم وحدة لها مجاريها التنظيمية وتفرعاتها المهنية والاجتماعية والسياسية . يمكن الان ان نحاول تصور المهمات الاساسية لاتحاد المعلمين والتي تندرج ، برأينا ضمن العناوين التالية :

اولا — **مهمة سياسية** : تتمثل هذه المهمة في ان يشكل الاتحاد ، عبر اعضائه، تنظيما من تنظيمات الثورة ، واحدى قنواتها التي تصل الثورة بمجموع المعلمين وبالجماهير ، وتقيم صلة حية بين الجماهير والثورة. وانجاز هذا الدور مرهون — كما ذكرنا سابقا — بقدرة الاتحاد على ان يصبح هو مؤسسة المعلمين التي يتحركون من خلالها ، وان يقيم علاقات متينة مبنية على الثقة مع الجماهير . كما ان انجاز هذا الدور يتطلب تحديد برامج تفصيلية لعمل الاتحاد ضمن قطاع المعلمين في اماكن تواجدهم المختلفة ، ولعمله بين الجماهير . والاتحاد هو الجهة الاقدر على تحديد الوسائل التي تمكنه من ان يربط به المعلمين العاملين في السعودية مثلا ، او المدارس الخاصة في لبنان ، وكيف يجند طاقاتهم لخدمة الاتحاد والثورة . كما انه الجهة القادرة على وضع برنامج عمل يومي على صعيد المدرسة والمخيم . في الكراس الذي أصدره الاتحاد حول اهدافه ونشاطاته نجد في مجال النشاط السياسي أن هذا النشاط انحصر اجمالا في المشاركة بالتظاهرات والمناسبات الوطنية ، وبارسال المذكرات والبرقيات الى جهات مختلفة وفي مناسبات مختلفة(٦). ومثل هذا النشاط يتم عادة عن طريق قيادة الاتحاد ، وربما كانت طبيعة الاتحاد التكوينية في هذه المرحلة هي التي حصرت معظم نشاطه بامانته العامة . انما العمل السياسي المثمر هو في النهاية عمل القاعدة ، العمل في اوساط المعلمين ومع الجماهير . والعمل السياسي متعدد الاشكال والمستويات ، يأتي في أولوياته ايصال الاتحاد لمواقف الثورة الى جميع المعلمين ، وخلق حوار مستمر بين المعلمين ووسط الجماهير حول جميع المواقف والقضايا المتصلة بالثورة . غير ان العمل السياسي لا يقتصر على ذلك كما ان أسلوب طرح هذه القضايا ومعالجتها له اهمية قصوى. ان تجربة الفيتكونج غنية في هذا المجال خاصة بالنسبة للعمل على مستوى القرية واقامة « رابطات التحرير الوظيفية » فيها مثل : رابطة التحرير للمزارعين ، للشباب ، للمثقفين .. الخ والتي تهدف جميعها الى « مساعدة الفرد للآخرين ، والاشتراك في النضال السياسي » والتي اكملت بذلك تحريك الامكانات المادية والمعنوية للمجتمع وتعبئتها(٧). ولذا يمكن القول على سبيل المثال ان انشاء مكتبات عامة هو عمل سياسي وكذلك اصدار صحيفة مجلية ، بالتعاون مع التنظيمات الاخرى ، والمساهمة في تكوين وتطوير المؤسسات الشعبية ، والمناقشة العامة للقضايا الخاصة ، ومناقشة العمل الداخلي للاتحاد وسلوك أعضائه بهدف تمتين العلاقات التنظيمية : فالمناقشات العامة التي تتناول مختلف القضايا العامة ، والخاصة بقطاعات السكان المختلفة ، تضع الجماهير في صلب العمل الثوري وتفتح الآفاق لمبادراتها في دعم الثورة وتقويتها . ولكن، مرة أخرى ، ان مثل هذا العمل والبرنامج يقع على عاتق اتحاد المعلمين بالدرجة الاولى وعلى تعاونه مع المؤسسات الاخرى القائمة .

ثانيا ــ **مهمة نقابية** : يحدد الاتحاد عددا من المهام النقابية مثل « تنمية الوعي النقابي والثوري بين المعلمين ، العمل على تحسين الظروف المعيشية والمهنية ، العمل على تقرير الروابط القومية بين الاتحادات ونقابات المعلمين في الاقطار العربية . . الخ »(٨) لن يتطرق هذا البحث الى المهمات النقابية الخارجية ، بل يهتم بالناحية الداخلية والتي من ضمنها تنمية الوعي النقابي والعمل على تحسين الظروف المعيشية والمهنية ، لان نقطة الثقل تكمن هنا . فلكي يتمكن الاتحاد من القيام بدور فعال على مختلف الاصعدة ، لا بد وان يؤمن أولا وجوده كهيئة منظمة للمعلمين قادرة على قيادتهم وضامنة لتجاوبهم معها . نقطة الانطلاق اذن هي في تأمين هذه الصورة من التنظيم ، اي ان ما ينبغي على الاتحاد ان يواجهه اولا هو كيف يمكن ان يصبح التنظيم الذي لا يجذب المعلمين الى صفوفه فحسب ، بل يجعلهم يشعرون بضرورته وبضرورة وجودهم ضمنه . ولن تتولد مثل هذه الحالة بدافع سياسي صرف ، او لمجرد القناعة باهمية التنظيم ، بل يرافق ذلك وربما يأتي قبله الادراك المحسوس للمعلم بأن تحقيق المكاسب وتحسين اوضاع العمل والضمانات بل تأمين العمل يأتي عن طريق الاتحاد . وهذه مسالة صعبة ولا شك ، الا ان الاتحاد استطاع ان يحس المسالة تماما وحقق بعض الخطوات على الطريق اهمها تقديمه مساعدات مادية للمعلمين الذين تضرروا في حوادث الاردن ، ومحاولته تأمين عمل للمعلمين الذين يطردون من عملهم او العاطلين عن العمل ، والاهم من ذلك سعيه لاكتساب صفة شرعية ورسمية لدى بعض الدول بحيث يستشار عند توظيف المعلمين الفلسطينيين . واذا ما استطاع الاتحاد انجاز المزيد من هذه الخطوات ، كأن يصبح له دور كبير في الاشراف على التوظيف وتأمين العمل ، وتقديم المساعدات وتأمين بعض الضمانات الاجتماعية والصحية . . الخ فسيدرك المعلمون اهمية الاتحاد بالنسبة لهم ، واهمية التفافهم حوله وتأديتهم لالتزاماتهم نحوه ، لانهم سيدركون ولا شك ان الاتحاد ليس قيادة ، بل جمهرة الاعضاء . كذلك فان خوض نضالات مطلبية جماعية تزيد من ترابط الاتحاد الداخلي ، وتقوي وحدته ومكانته السياسية . ويتطلب ذلك حصر المشاكل الخاصة بالمعلمين وعلى مستوى قطري حيث يعملون في ظروف مختلفة ومن ثم يواجهون مشاكل مختلفة . واثارة المطالب التي يمكن تجنيد المعلمين حولها ، وخوض نضالات ترتفع فيها احتمالات النجاح امر مهم كعملية تكتيكية ولكنها تتطلب تخطيطا وحسابا . غير ان هناك محذورا يجدر التنبه له يتعلق بفهمنا لحل المشاكل الخاصة . فالذي يحدث أحيانا أن تنشط القيادة لتحقيق بعض المكاسب المادية لعدد محدود من الافراد آملة ان يكون ذلك مشجعا للمعلمين كي يلتحقوا بالاتحاد . فلا يجب ان ننسى ولو للحظة اننا تنظيم ثوري يؤمن بأن تحقيق المكاسب لا يكون الا نتاج عمل جماعي ، وذلك يتطلب ادراك جميع الاعضاء لابعاد المشاكل المطروحة وصعوبات حلها ، وضرورة خوض نضال واتخاذ مواقف موحدة حيالها بحيث يصبح النجاح او الفشل مسؤولية جماعية وليس واجبا منوطا بالقيادة وحدها . قضية اخرى تتعلق بالمهمة النقابية لانها تلازم العمل النقابي الا وهي الديمقراطية . واذا كانت الممارسة الديمقراطية من اهم خصائص العمل النقابي فانها تكتسب بالنسبة لنا اهمية خاصة . فشعبنا لم تتوفر له فرصة حقيقية لممارسة حياة ديمقراطية ، ربما عبر تاريخه كله ، كذلك لم يكن بوسع الحركة الوطنية الفلسطينية على امتداد تاريخها ان تؤمن مثل هذه الحياة لجماهير شعبنا ، حتى ضمن اطارها الذاتي المحدود . ولذا فان سيادة المفاهيم الديمقراطية ، والتعود على النظام والانضباط ، والمناقشات العامة والعمل الجماعي مسالة في غاية الاهمية والخطورة . وفي ظل الواقع الذي يحياه شعبنا يبدو ان التنظيمات الجماهيرية والمؤسسات النقابية هي المؤهلة لتوفير هذه التجربة ، بما تعنيه من انعكاسات ايجابية على مجمل عملنا الوطني . وليس يقصد بالديمقراطية عملية الانتخاب ، فتلك مجرد مظهر ديمقراطي يمكن تزييفه ، ولكن الممارسة الجماعية ــ بدءا من القاعدة ــ في تناول مختلف القضايا كحق لا يقبل الجدل ،

ومناقشتها واقتراح الحلول لها ، وممارسة النقد والنقد الذاتي على المستويات كافة ، والتعود على الاستماع الى آراء الغير واحترام راي الاقلية والخضوع لراي الاكثرية ، وغير ذلك ، هو ما يمكن ان يعطي للديمقراطية ابعادا ايجابية تصل حتى المستوى المسلكي للافراد . وعلاقة القيادة بالقاعدة مسالة مركزية في عمل اية مؤسسة ، بل لعل من اخطر ما يهدد وحدة المؤسسة وخط سيرها حصول فجوة بين قيادتها وقاعدتها . وبقدر ما تكون القيادة ديمقراطية في تكوينها وممارستها ، وفي حرصها على تطبيق هذه الممارسات على كل المستويات ، بقدر ما تستقطب جماهيرها ، وتساهم في تعميق وعيها لقضاياها ، وتفتح المجال لمبادراتها .

ثالثا — **مهمة تربوية** : يتميز قطاع المعلمين بانه مسؤول عن تربية النشء وتثقيفه . وتشكل هذه المهمة حلقة مباشرة بين المعلمين والاهالي ، ويمكن ان تساعد في ردم الفجوة الحاصلة بين الطرفين . في المجال التربوي يحدد الاتحاد لنفسه عددا من الاهداف النموذجية مثل : تنشئة الاجيال الفلسطينية تنشئة ثورية ، صقل المواهب الفكرية وتنميتها تنمية ثورية ، مقاومة المناهج التي يحاول العدو فرضها في فلسطين المحتلة ، المساهمة في توحيد المناهج التعليمية العربية(٩). ولا شك ان الاتحاد هو الجهة الاقدر على اكتشاف الثغرات والمخاطر في الثقافة المقدمة للنشء ، وعلى تقييم المناهج ومدى ملاءمتها لاوضاعنا ، وعلى بلورة أهم القضايا والمشاكل في مؤسساتنا التعليمية . ومن الطبيعي ان يتصدى الاتحاد لمثل هذا الدور ، خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار ان مهمته مهمة ثورية وليست تربوية بالمفهوم الاكاديمي الصرف . غير ان السؤال هو كيف يمكن ترجمة هذه الاهداف العامة الى برامج وممارسات عملية ؟ ما هي الوسائل التي يمكن بها تأمين تربية ثورية للنشء ؟ وكيف سيتم صقل المواهب الفكرية ؟ ، هل يتم ذلك من خلال مناهج التعليم المطبقة حاليا ام هناك بديل آخر ؟ لانه بدون تحديد لمثل هذا البرنامج العملي ، ولو على مستوى تجريبي ، فستبقى هذه الاهداف مجرد شعارات عامة لا تغير من واقع الامر شيئا . لقد أصبح من المسلمات القول بأن المهمة التربوية لا تقتصر على المدرسة والمعلم ، بل لا بد أن يشارك فيها البيت والمجتمع لكي تأتي ثمارها المرجوة . لقد صدرت عن مؤتمر فرع الاتحاد في لبنان عام ٧١ بعض التوصيات التي تهدف الى تقوية العلاقة بين المعلمين والاهالي مثل : العمل على ايجاد مدارس ليلية لمكافحة الامية بين الكبار من أهالي المعسكر ، المساهمة في المشاريع الحيوية كأسبوع النظافة والحملات الصحية ، العمل على اقامة ندوات تثقيفية عامة في مقر الرابطة في المعسكر ، العمل على اعادة الثقة بين المعلم وجماهير المعسكرات بغية التعاون لتوفير جو التعليم في المدارس ويكون ذلك بزيارة الاهالي في بيوتهم أو توجيه الدعوة اليهم لزيارة المدارس، العمل على تشكيل لجان من الاهالي لملاحقة أمور أولادهم في المدرسة ، وغير ذلك من الوسائل التي تقوي علاقة المعلمين بالاهالي وبالمؤسسات القائمة(١٠). لا نود هنا مناقشة ما أنجزه الاتحاد من هذه التوصيات ، ولكننا نسجل الملاحظتين التاليتين :

أ — ان هذه التوصيات ، في حال تنفيذها تؤدي الى تحسين جو التعليم ولكنها لا تولد تربية ثورية . ب — وهي قد تقوي الثقة بين المعلمين والجماهير ولكنها لا تردم الفجوة الحاصلة بينهما. فلهذه الفجوة اسبابها الموضوعية ولا يردمها سوى ممارسة موضوعية تختلف كليا عن تأدية بعض الخدمات ، هذا المفهوم الخاطىء الذي يعتقد بأن المشاركة بالشعور وتأدية بعض الخدمات مثل المشاركة بأسبوع النظافة يحل المسألة . وانما تتمثل هذه الممارسة بأن يعيش المعلمون فعلا مشاكل الجماهير وان يناضل الاتحاد مع الجماهير من اجل قضاياها المختلفة . ولعل المدرسة (بما في ذلك مشاكل التعليم ومصير الابناء) تمثل المسألة المشتركة والاكثر وضوحا بين المعلمين واهالي المعسكرات . ويمكن على سبيل المثال ان يبادر اتحاد المعلمين بطرح **الممارسة الديمقراطية على مستوى المدرسة** . بمعنى ان تصبح الجماهير طرفا اوليا في مناقشة اوضاع المدرسة ومحلكمتها

كمؤسسة اجتماعية . ويتخطى هذا مسألة التعاون بين الاهالي والمدرسة كطرفين ، بل يصبح التعليم في المخيم مسؤولية جماعية تتحدد فيها مسؤوليتنا الذاتية ومسؤولية غيرنا، وما يمكننا عمله ، وما هو خارج عن ارادتنا . ماذا يمكن ان ينجم عن هذه الممارسة : أ ـ ان المناقشة العامة ستجعل اوضاع المدرسة بادارتها ومعلميهـا وطلابها وجميع مشاكلها واضحة امام الجميع ، كما ستتناول بالنقد الصريح كل مسؤول عن خطأ بعد توضيحه . وهذا النقد الذي سيتناول المعلم من حيث قيامه بواجبه ، ونشاطه وتعامله مع الطلاب .. الخ سيتناول كذلك الاب وطريقة معاملتـه لابنه ومتابعة احوالـه في المدرسة ، مما يوضح الخطأ ويحدد مصدره . وبذلك يمكن للجميع ان يتلمسوا مواطن الخطأ وطرق الصواب ، كما تتم عملية توعية وتوجيه بصورة تلقائية . ب ـ تضع هذه المناقشة الصريحة المعلمين أمام مسؤولياتهم التعليمية والتربوية والوطنية مما قد يتطلب تغييرا في نمط حياتهم خارج المدرسة . ج ـ ان هذه الممارسة ستؤدي الى عملية فرز حقيقية ضمن جهاز المعلمين وفق مقاييس تربوية وثورية . اما عملية الفرز القائمة الان ـ اذا اعتبرنا العضوية في الاتحاد مقياسا ـ فهي عملية مشوهة تلعب فيهـا عوامل ادارية وتنظيمية وحزبية ، بحيث لا يعود الاعضاء بالضرورة هم الاقرب الى الجماهير والاكثر التزاما بقضاياها . ولا شك في ان هذه الممارسة بحاجـة الى برنامج عملي ينظمها ويضبطها لكي تحقق غايتها ، والاتحاد هو الجهة القادرة علـى ذلك ، كما انه الجهة المؤهلة لوضع برنامج عملي يوضح كيف يمكنه أن ينجز مهمته التربوية ويعطيها ابعادها العميقة ، ولتحديد الوسائل الاجرائية التي ينبغي اتخاذها ليضمن تحقيق خطته واهدافه .

رابعا ـ **مهمة مالية** : لا بد وان تكون المهمة المالية احدى المهمات التي يضطلع بها اتحاد المعلمين ، وذلك انطلاقا من الامكانات المالية الكبيرة نسبيا التي يملكها المعلمون . فلو دفع المعلم ليرتين لبنانيتين في الشهر مثلا لحصل الاتحاد على دخل شهري لا يقل عن خمسين الف ليرة . وبغض النظر عما هو قائم يحسن بنا ان ننظر الى النواحي التي يمكن استخدام الامكانات المالية بهـا . أ ـ في المسألة التنظيمية اي في مجال تقوية العلاقات بين المعلمين وربطهم بالاتحاد وتدعيمه وتقوية نشاطاته . ويمكن للاتحاد ان يقوم بمشروعات مساهمة ، تشجع المعلمين على استثمار اموالهم ، تستهدف الربح ويستفيد المساهمون من الارباح بحسب مساهمتهم . ومثل هذا الاتجاه يستلزم خطة تأخذ بعين الاعتبار : ١ ـ ان الغاية الاساسية من هذه المشروعات هي خدمة المعلمين انفسهم والجماهير والثورة، مع توضيح ابعادها الثورية واهمية دور المعلمين في النهوض الاجتماعي . ٢ ـ ان تكون رساميلها معقولة واسهمها رخيصـة تمكن الجميع مـن المشاركة فيها . ٣ ـ ان يعود للمساهمين قسم من الارباح فقط مع تبيان المجالات التي سيوجه اليها القسم الآخر . ٤ ـ اشتراط العضوية في الاتحـاد للمساهمين بهـذه المشروعات . كذلك يمكن للاتحاد تعميم تجربـة الكويت في الضمان الاجتماعي بعـد دراستها بحيث يتم انشاء صندوق للضمان الاجتماعي والصحـي لاعضاء الاتحـاد . ب ـ المساهمة في تنشيط التنظيمات الشعبية الاخرى . اذا يفترض نظريا ان يكون اتحاد المعلمين هو الاتحاد « الغني » بالنسبة للاتحادات الاخرى . ويمكن في هذا المجال مثلا اصدار نشرة نقابية موحدة يتحمل اتحاد المعلمين القسط الاكبر من ماليتها . كما يمكن للاتحاد ان يساعد اتحاد العمال في اقامة بعض المشروعات على مستوى المخيم او مشاركته في ذلـك . كما يمكن ان يقدم الاتحاد بعض المساعدات لاتحاد الطلبة .. الخ ج ـ المساهمة في دعم الثورة . لا بد اولا ان يبحث الاتحاد ومنظمة التحـرير مسألة الجباية من المعلمين وتنظيمها وتحديد نصيب الاتحاد منها . ان تدعيم مالية الاتحـاد يساهم في تخفيف الضغط المالي على المنظمة ، ويصبح رافدا لها بدل الاعتماد عليها . كما ان ذلك يمكنه من المساهمة في تدعيم الثـورة ماديا ومجالات ذلك كثيرة بدءا مـن

المساهمة في اقامة اللاجىء وانتهاء بتأمين الملابس او التموين للمقاتلين .

الاتحاد كمؤسسة : ننتقل الان الى الحديث عن الاتحاد كمؤسسة بعد أن تحدثنا عن مهماته . وينبغي الاشارة الى ان هذه المهمات لا تختلف عن الاهداف التي حددها الاتحاد لنفسه ، وربما كان ما قمنا به هو ترتيب هذه الاهداف ضمن عناوين رئيسية مع محاولة اعطائها ابعادها الكاملة . ويجدر بنا أن نتذكر ونحن نتحدث عن الاتحاد كمؤسسة انه لا زال في مرحلة تكوينية . سنحاول الآن القاء الضوء على تجربة الاتحاد من حيث تشكيله وبنائه التنظيمي ونشاطه ، مع محاولة تبين مدى ارتباط ذلك بمهماته الاساسية :

لمحة تاريخية : بدأ العمل على تشكيل اتحاد عام للمعلمين الفلسطينيين في عام ١٩٦٩ في الاردن وفي اعقاب حركة عامة بين معلمي مدارس وكالة الغوث في كل من الاردن وسوريا ولبنان . خلاصة ذلك ان الوكالة حاولت في عام ١٩٦٨ تطبيق نظام جديد سمي « اعادة تصنيف المعلمين » يتناول مرتباتهم وتصنيفاتهم المهنية واهم ما فيه : ١ ــ فصل المعلمين عن باقي موظفي الوكالة من حيث سلم الرواتب والتصنيف المهني ، بحيث تحدد الرواتب مثلا بحسب المرحلة التعليمية اي يختلف راتب المعلم الابتدائي عن راتب المعلم الاعدادي . ٢ ــ عدم الاعتراف بالشهادات الجامعية وعدم تعيين جامعيين . ٣ ــ الغاء مبدأ التعيين الدائم للمعلم واحلال مبدأ التعيين المؤقت(١١) . واهم المخاوف التي اثارها هذا النظام هو ان يكون فصل جهاز التعليم عن باقي أجهزة الوكالة مقدمة لتسليم خدمات التعليم الى منظمة اليونسكو ، ومن ثم الى الدول العربية المضيفة ، وكذلك الى التصفية التدريجية لاعمال الوكالة حيث يشكل التعليم الخدمة الاساسية فيها . يضاف الى ذلك عدد من المخاوف الاخرى والشعور بالاجحاف الذي سيلحق بالمعلم من جراء تطبيق النظام الجديد . بدأت ردة الفعل في سوريا حيث رفضت جمعية الموظفين النظام الجديد ، ثم اضرب معلمو الوكالة في لبنان لمدة شهر في بداية عام ٦٩ ولم يسفر ذلك عن شيء تقريبا، واختاروا في اثناء ذلك ممثلين عن مدارسهم اطلق عليهم اسم «وفد المعلمين» الذي انتهى عمليا بانتهاء الاضراب ، ثم تشكلت قيادة جديدة حاولت ان تقوم باضراب جديد الا ان المعلمين لم يكونوا في موقف واحد فانتهى الاضراب الجزئي الذي أعلن بالفشل ايضا . وفي الاردن قام المعلمون باضراب لمدة يومين في شهر أيار ٦٩ للسبب نفسه وانتهى الاضراب بناء على وعد بعودة الوكالة عن النظام الجديد . وفي ٦٩/٩/٢٠ عاد المعلمون في الاردن الى اعلان الاضراب لان الوكالة لم تعد عن سياستها في تطبيق التصنيف الجديد ، وشمل الاضراب كذلك مدارس الوكالة في كل من سوريا ولبنان واستمر شهرا كاملا ، كان معلمو الاردن محوره اذ كان الاضراب في سوريا ولبنان اقرب الى موقف التضامن مع الاردن . كذلك جاء هذا الاضراب ولاول مرة باسم الاتحاد(١٢) .

اما انشاء الاتحاد فقد جاء بمبادرة من لجنة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير . فقد اتصلت دائرة التنظيم الشعبي في أواخر شهر تموز ٦٩ ببعض المعلمين في الاردن وطلبت منهم أن يسافروا الى مدينة الاسكندرية لحضور مؤتمر المعلمين العرب واستصدار موافقة على عضوية الاتحاد في اتحاد المعلمين العرب . سافر الوفد وحصل فورا على هذه الموافقة، اي اصبح الاتحاد عضوا في اتحاد المعلمين العرب (والاتحاد لم يتأسس بعد) . وبعد عودة الوفد الى الاردن سمت دائرة التنظيم امينا عاما للاتحاد ، هو الامين العام الحالي ، وطلبت ان يكون اعضاء وفد الاسكندرية اعضاء في الامانة العامة الا ان بعضهم آعتذر . باشرت الامانة العامة بعد ذلك عملها في الاردن وخارج الاردن بأن بدأت بتعيين لجان تحضيرية في عدد من المناطق التي يتواجد فيها معلمون فلسطينيون . ففي أواخر عام ٦٩ عينت لجانا تحضيرية في كل من سوريا ولبنان والكويت . وفي أوائل عام ٧٠ عينت لجانا في العراق ومصر والجزائر والمغرب ، وعام ٧٢ في ليبيا . وكانت مهمات هذه اللجان أن تقوم بعملية التنسيب للاتحاد ثم اجراء انتخابات الروابط المحلية والفروع .

وحتى الآن حدثت انتخابات وعقدت مؤتمرات قطرية في كل من سوريا ، العراق ، الكويت ، لبنان ، المغرب ، الجزائر(١٢).

حول هذه الفترة من تاريخ الاتحاد يمكن ايراد بعض الملاحظات التي ربما وقف المؤتمر الوطني عندها وهو يراجع تجربة الاتحاد الماضية . احدى هذه الملاحظات تتعلق بفاعلية المعلمين ، ومن ثم الاتحاد ، في هذه الفترة . من المعروف ان في الفترة التي اعقبت النكبة لعب المعلمون ، كأفراد ، دورا بارزا في الحركة الوطنية ، وشكلوا مدخل العمل السياسي لعدد من التنظيمات والاحزاب . غير ان المعلمين لم يشكلوا تنظيمهم المهني الخاص على غرار القطاعات الشعبية الاخرى مثل الطلاب والعمال والمرأة ، والتي شكلت تنظيمات خاصة بها منذ فترة طويلة نسبيا وقبل قيام حركة المقاومة الفلسطينية . اما اتحاد المعلمين — مع انه جاء بمبادرة فوقية من اللجنة التنفيذية للمنظمة — فقد أعلن قيامه في عام ٦٩ وهو عام تميز بزخم المقاومة واتساع نفوذها وممارستها نوعا من النفوذ خاصة في الاردن ولبنان . من جهة ثانية يلاحظ ركود ملموس لفروع الاتحاد في مناطق التجمع السكاني الفلسطيني ، مع ان المفروض بهذه الفروع ان تكون محور النشاط بسبب وجودها وسط الجماهير الفلسطينية ولامكانات التحرك النقابي ، سواء لما تواجهه من مشاكل أم لما يمكن ان تقوم به من مشروعات ونشاطات . لذلك نقول ان الاتحاد بحاجة الى مراجعة نقدية لممارسات ونشاط فروعه خاصة في مناطق التجمع السكاني ، في هذه الفترة. صحيح **أن الاتحاد كمؤسسة نقابية** يعمل للحصول على مكاسب مادية للمعلمين، ولكن الغاية الاساسية من وجوده هي العمل على تنظيم هذا القطاع ليلعب دورا ثوريا في الحركة الوطنية . وعندما لا يتم التحرك الا من اجل الحصول على بعض المكاسب المادية ، او عندما ينكمش نشاط الاتحاد الى ما تقوم به قيادته وحدها ، فربما يكون الاتحاد قد وصل الى نتيجة هي عكس ما يريد . ولا بد أن تستهدف مثل هذه المراجعة للتجربة السابقة معرفة اسباب هذا الركود وهل يعود ذلك لاسباب موضوعية خارجية، ام انها تعكس صورة سلبية لطاقة المعلمين على التحرك الثوري وتحمل مسؤوليته . وهذا ولا شك سيساعد الاتحاد على وضع اهداف مرحلية وقابلة للتنفيذ .

والملاحظة الثانية التي ينبغي تسجيلها تتعلق بديمقراطية التجربة . يمكن القول ان التجربة بدأت بشكل غير ديمقراطي حين قامت المنظمة بتسمية الامانة العامة التي مارست عملها باسم الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين طوال ثلاث سنوات دون ان تدعو ولو لمؤتمر استثنائي يعطيها صفة الشرعية . وكذلك سارت الفروع طوال هذه المدة ، وبعضها اجرى انتخابات ، وعقد مؤتمره القطري منذ اكثر من سنة ، على نظام داخلي يفترض ان يكون مؤقتا وبغرض تنظيم تأسيس الفروع واختيار المندوبين للمؤتمر الوطني الاول . من جهة اخرى ، جرت في هذه الفترة حادثتان نذكرهما لمجرد التسجيل. كانت الاولى قيام الامانة العامة بحل اللجنة التحضيرية في سوريا وتعيين لجنة جديدة لاجراء الانتخابات . وبررت الامانة العامة عملها بانتهاء المدة القانونية على عمل اللجنة التحضيرية دون اجرائها للانتخابات . اما لجنة سوريا فقد اوردت على لسان امين سرها في كلمته في المؤتمر القطري لرابطة سوريا في شهر ايار ١٩٧١ ، ان اللجنة قد اجلت اجراء الانتخابات « بسبب الاوضاع في الاردن وما تبعها من مضاعفات ». وعبرت الكلمة عن أسفها لاقدام الامانة العامة على حل اللجنة(١٤). في الوقت ذاته ، وعلى سبيل المثال ، كانت رابطة سوريا في اثناء عمل اللجنة المنحلة اكثر نشاطا واكتمالا من رابطة لبنان ، كما يتضح من تقرير المؤتمرين القطريين في كل من البلدين، واللذين عقدا في الفترة نفسها (أيار ٧١). فبالنسبة لعدد الاعضاء كان في رابطة سوريا ١٤٤١ عضوا وفي رابطة لبنان ما يقارب من ١٢٠٠ عضو . وبالنسبة للناحية المالية كان في رابطة سوريا وفر قدره خمسة آلاف ليرة،بينما كانت رابطة لبنان في عجز مالي «ومنذ وجودها تعتمد في ماليتها على الامانة العامة »(١٥).

الحادثة الثانية التي ينبغي ايرادها تتعلق بالائتلاف الذي حصل في لبنان واختيار أعضاء المؤتمر القطري الاول عام ١٩٧٠ . فقد اتفق تنظيمان فدائيان فيما بينهما على اختيار أعضاء المؤتمر ، وحدث ذلك بموافقة الامانة العامة ، ولم تجر انتخابات الا في منطقة طرابلس حيث لم ينجح الائتلاف . وكان من نتيجة ذلك ان قاطعت منطقة صور ، بكل معلميها ، المؤتمر تعبيرا عن رفضها للمبدأ الذي اتخذ . وكان ذلك عاملا في احداث فجوة بين المعلمين واللجنة التنفيذية التي اختارها المؤتمر الائتلافي(١٦). والملاحظة التي يجب تسجيلها على الامانة العامة هي ان الانتخابات تشكل الحق الطبيعي والمظهر الديمقراطي الاساسي الذي يمارسه أعضاء النقابة ، وعلى الاتحاد ان يستفيد من تجارب الاتحادات التي سبقته ويكون نموذجا في الممارسات الديمقراطية .

بنية الاتحاد : لا يهمنا استعراض البناء التنظيمي للاتحاد بقدر ما يهمنا ان نؤكد على قضيتين . اولا ان يكون هذا البناء قائما في الاصل لخدمة المهمات الاساسية او الاهداف التي يحددها الاتحاد لنفسه . وثانيا ان يكون هذا التنظيم مرنا بحيث يتلاءم والاوضاع المختلفة في مناطق عمل الاتحاد . واهم الملاحظات التي يمكن ايرادها بهذا الصدد ما يلي : ١ ــ ان انجاز المهمات الاساسية للاتحاد (سياسية ــ نقابية ــ تربوية ــ مالية) مرتبط بالجماهير ، أي ان الفعالية الاساسية للاتحاد هي في مناطق التجمع السكاني للفلسطينيين . وربما يكون من الطبيعي ان تتوفر في النظام الداخلي للاتحاد مرونة تسمح لفروعه في هذه المناطق اقامة تشكيلات تنظيمية خاصة مثل عقد مؤتمرات خاصة لفروعها ، او تشكيل قطاعات تنظيمية في كل رابطة وذلك حسب المهمات الاساسية ... الخ ٢ ــ يحدد النظام الداخلي للاتحاد الهيكل التنظيمي على النحو التالي : ــ الوحدة (المدرسة) وتنتخب لجنة الوحدة . ــ الدائرة (مجموعة مدارس) وتنتخب لجنة الدائرة . ــ المنطقة (مجموعة دوائر) وتنتخب لجنة المنطقة . ــ الرابطة (مجموعة المناطق) وتنتخب لجنة تنفيذية .

يلاحظ اولا عدم امكانية تطبيق هذه التشكيلات التنظيمية في جميع مناطق عمل الاتحاد ، ولذلك اضيف في النظام الداخلي مادة تنص على ان « لكل رابطة ان تحدد عدد تشكيلاتها التنظيمية وفقا لظروفها الجغرافية والبشرية»(١٧) ومن جهة اخرى يبدو ان القصد من هذه التشكيلات هو ضبط العملية الداخلية او التنظيمية في الاتحاد . وهي بذلك اقرب الى التنظيم الحزبي منها الى التنظيم النقابي ــ خاصة اذا علمنا ان مهمات هذه التشكيلات تكاد تنحصر بحضور الاجتماعات الدورية وكتابة التقارير من قبل اعضائها ، في حين يفترض ان تكون هذه التشكيلات قد اعتمدت لكونها الوسيلة الافضل لخدمة اهداف ومهمات الاتحاد وانجازها . فقد لا يكون مهما مثلا وجود عشر وحدات في مخيم ما ، بل وجود لجان لها مهام محددة . ومن الدلائل على ان هذه المهمات كانت غائبة حين رسم الهيكل التنظيمي ، ان الاتحاد يضع لنفسه مثلا برنامجا طموحا للمشروعات الانتاجية ولكنه لا يفرز لذلك جهة او جهازا مسؤولا لمتابعته بل يترك ذلك للمسؤول المالي في الامانة العامة بالاضافة الى قيامه بالمسؤوليات المالية للاتحاد باسره(١٨).

وفيما يتعلق بالنظام الداخلي للاتحاد يمكن اثارة بعض الملاحظات التي تحتاج الى نقاش. ا ــ **الاشتراكات** : يترك النظام الداخلي لقيادة كل رابطة تحديد قيمة رسم الانتساب والاشتراك الشهري للعضو في بلده(١٩). والملاحظة هي انه من اوليات التنظيم ، باعتقادنا ، خضوع جميع الاعضاء لقواعد مالية واحدة واذا كان الدافع لهذه القاعدة هو التفاوت في رواتب المعلمين ، فالحل الاكثر « عدالة » يكون في جعل رسم الانتساب او الاشتراك تصاعديا بنسبة الراتب ، لا في ترك الامر لكل رابطة على حدة لان الناحية المالية لا تتوقف على الاشتراكات وحدها ، بل هناك أمور تتعلق بالتفرغ والمساعدات والنفقات وغيرها . ب ــ **عدد اعضاء المؤتمر القطري** : يترك النظام ايضا لقيادة كل

رابطة تحديد عدد ممثلي المناطق في بلدها الى المؤتمر القطري(٢٠). ويبدو كذلك ان هذه القاعدة وضعت لاعتبارات موضوعية تتعلق بالاوضاع المختلفة في المناطق التي يعمل بها المعلمون ، ولكن مع ذلك فالمبدا هو وضع القواعد العامة اولا ثم تضاف بعض اللوائح التي تعالج الحالات الاستثنائية .

وليس واضحا لماذا لا يتم تحديد الممثلين على اساس عددي ، علما بان ذلك لا يعني بالضرورة تطبيق نسبة واحدة في كل الفروع . جـ — **مدة عمل اللجنة التنفيذية والمؤتمر القطري** . هناك مادة في النظام الداخلي بحاجة الى تفسير اذ تحدد مدة عمل اللجنة التنفيذية للرابطة بثلاث سنوات(٢١). في حين يفهم ضمنا ان المؤتمر القطري الذي ينعقد سنويا هو مؤتمر جديد يتم اختيار اعضائه بالانتخاب(٢٢)، مع اعطاء المؤتمر حق حجب الثقة عن عضو او اكثر من اعضاء اللجنة التنفيذية . السؤال هو لماذا لا يكون من ضمن اعمال المؤتمر انتخاب لجنة تنفيذية جديدة ، قد تكون هي نفسها اللجنة السابقة .

د — **مجلس الاتحاد** : ينص النظام الداخلي على وجود مجلس للاتحاد مكون من اعضاء الامانة العامة وامناء سر الروابط . والمجلس عبارة عن محطة تنظيمية عامة تتابع سياسة الاتحاد في غياب المؤتمر الوطني . ولكن النظام الداخلي لا يحدد موعدا دوريا لاجتماعات المجلس ولا يعطيه صلاحيات او مهمات فعلية ، بل يقصر ذلك على « النظر في الخطة العامة التي يضعها المؤتمر العام ، والفصل في طلبات الاستقالة التي يتقدم بها احد اعضاء الامانة العامة »(٢٣).

نشاط الاتحاد : لم يكن الغرض من هذا البحث تسجيل تاريخ الاتحاد واستعراض نشاطاته ، الا انه يحسن بنا في النهاية ان نذكر ابرز النشاطات التي قام بها الاتحاد خلال هذه الفترة من وجوده ، وبهدف تبين مدى ارتباطها بالمهمات او الاهداف المنوطة بالاتحاد . كان من ابرز نشاطات الاتحاد سلسلة الاضرابات التي قام بها معلمو مدارس وكالة الغوث ومتابعة الاتحاد لقضايا المعلمين مع الوكالة . كذلك اظهر الاتحاد اهتماما بأعضائه وتقديم مساعدات لهم وخاصة تقديمه مساعدات مادية لاسر المعلمين الذين اعتقلوا في الاردن، ودفع رواتب دائمة لاهالي الذين استشهدوا في حوادث ايلول ١٩٧٠ . ويعتبر مشروع الضمان الاجتماعي الذي طبق في رابطة الكويت (يقضي بدفع تعويض مالي للمعلم في حالة الوفاة ، او الفصل او الاصابة بعاهة مستديمة) امرا مهما ومثالا يحتذى به . هذا بالاضافة الى عدد من النشاطات الاخرى مثل جمع تبرعات للهلال الاحمر ، زيارة المقاتلين في قواعدهم ، حضور المؤتمرات العربية والدولية واصدار بيانات او ارسال برقيات في المناسبات المختلفة(٢٤). والملاحظة التي تتكرر مرة اخرى هي ان معظم نشاطات الاتحاد **لم تكن على مستوى القاعدة ووسط الجماهير** ، اذ انحصرت هذه النشاطات اجمالا بالامانة العامة واللجان التنفيذية . وهذا النمط من النشاط لا يبدو وثيق الصلة بالمهمات الاساسية للاتحاد ولا يؤدي الى تحقيقها . فالاتحاد ، مرة اخرى ، ينجح في انجاز مهماته عندما يتحول الى مؤسسة شعبية من خلال ما يطرحه من قضايا وما يمارسه من نشاط بين جماهير المعلمين وجماهير المخيمات(٢٥).

---

١ — مقابلة مع الامين العام للاتحاد ، شهر ايار ١٩٧٢ .

٢ — الاتروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي لعام ٧٠ — ٧١** ، ص ٥٤ و ٨٦ .

٣ — الاتروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي لعام ٦٩ — ٧٠** ، ص ٦١ و٩٦ .

٤ — الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين ، الامانة العامة ، **الاتحاد في سنته الثالثة** ، ص ١١ .

٥ — **المصدر نفسه** .

٦ — **المصدر السابق** ، ص ١٦ — ١٧ .

٧ — دوجلاس بايك ، **الفيتكونج** ، منشورات

دار الطليعة ، ص ٥٨ .

٨ ــ اتحاد المعلمين ، **المصدر السابق** ، ص ١١ .

٩ ــ **المصدر نفسه** .

١٠ ــ اتحاد المعلمين ، رابطة لبنان ، **تقرير المؤتمر القطري لعام ٧١** ، ص ١١ ــ ١٢ .

١١ ــ اتحاد المعلمين ، **الاتحاد في سنته الثالثة** ، ص ٥ .

١٢ ــ مقابلة مع الامين العام لرابطة لبنان ، ايار ١٩٧٢ .

١٣ ــ مقابلة مع الامين العام للاتحاد ، ايار ١٩٧٢ .

١٤ ــ اتحاد المعلمين ، رابطة سوريا ، **تقرير المؤتمر القطري لعام ٧١** ، ص ١٥ .

١٥ ــ اتحاد المعلمين ، راجع **المصدر السابق** ، **التقرير** ص ١ ــ ٢ ، وتقرير مؤتمر لبنان ص ٦ .

١٦ ــ مقابلة مع الامين العام لرابطة لبنان ، ايار ١٩٧٢ .

١٧ ــ **النظام الاساسي** ، ص ٨ .

١٨ ــ **النظام الداخلي** ، ص ٢٨ .

١٩ ــ **المصدر السابق** ، ص ١٩ .

٢٠ ــ **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢١ ــ **المصدر السابق** ، ص ٢٧ .

٢٢ ــ **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢٣ ــ **المصدر السابق** ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

٢٤ ــ اتحاد المعلمين ، **الاتحاد في سنته الثالثة** ، ص ١٢ ــ ٢٥ .

٢٥ ــ كتب هذا البحث قبل انعقاد المؤتمر الاول للاتحاد في آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، وبهدف المساهمة في اعمال المؤتمر .

علاقات اسرائيل مع دول العالم

(١٩٦٧ ــ ١٩٧٠)

بقلم

شحادة موسى

٥١٧ صفحة من
الحجم الكبير

١٠ ليرات لبنانية

تضاف اليها أجور البريد : ١٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ٣٠٠ ق.ل. في أوروبه ، ٦٠٠ ق.ل. في سائر دول العالم

اطلبه من : مركز الابحاث ، قسم التوزيع ، ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت

مستقبل الثورة الفلسطينية ودور الشباب العربي فيها

في بحث مستقبل الثورة الفلسطينية لا بد أولا من تحديد العوامل الاساسية التي بلورت ضرورات انطلاقها . هذه العوامل الاساسية تنطلق من نقطة جوهرية واساسية لا يجوز المس بها لانها مثبتة تاريخيا وقوميا وحتى مصلحيا ، وهي ان القضية الفلسطينية قضية عربية أولا وبالاساس وقد فرض هذا بالتالي ان تكون حركة التحرر الفلسطينية جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر العربي . وهذه الكلمة التي ترددت حتى فقدت معناهـــا في الاذهان تحتاج الى تثبيت في هذه المرحلة بالذات بسبب ما تواجهه الثورة الفلسطينية حاليا من متاعب وبسبب بروز وجهات نظر تحاول دفع الثورة الفلسطينية الى المرتبة الثانية في جدول الاعمال .

ولكن كون الثورة الفلسطينية جزءا لا يتجزأ من حركة الثورة العربية لا يجوز أن يلغي مطلقا الدور الفلسطيني الخاص الذي يجب أن يقوم به الفلسطينيون تجاه قضيتهم . ولتوضيح ذلك لا بد من ذكر الوقائع التالية :

١ ـــ ان قيام دولة اسرائيل قد توافق مع مرحلة الاستقلال التي نالت فيها أغلب الدول العربية ، وأغلب دول العالم الثالث استقلالها ، وفي جو معركة الاستقلال كان موضوع الوحدة العربية مطروحا في المنطقة على انه موضوع قابل للتحقيق والتنفيذ على مدى سنوات منظورة فقط .

٢ ـــ ومن منطلق الترابط بين القضية الفلسطينية والقضية العربية ، ومن منطلق العمل لاقامة الدولة العربية التقدمية الموحدة ، قام الفلسطينيون بعد نكبة عام ١٩٤٨ بمتابعة نضالهم من اجل استرداد وطنهم من خلال الاندماج في الحركة الوطنية العربية ، ممثلة بأحزابها السياسية في المشرق العربي . فاندمج الشباب الفلسطيني في هذه الاحزاب مؤمنا بأن توحيد الوطن العربي وبناء المجتمع الاشتراكي القوي فيه ، سيكـــون طريق النضال لتحرير فلسطين ، انطلاقا من الايمان العميق بعروبة القضية ، وبمسؤولية العرب جميعا تجاهها . وقد جاءت بعض الانتصارات التي تلت ذلك لتزيد في عمق هذا الايمان ولتدعم النهج الذي يدعو ويعمل لتحرير فلسطين من خلال العمل لتحرير الوطن العربي وتوحيده ، نذكر من هذه الانتصارات : ـــ معركة مواجهة حلف بغداد التي عمت الوطن العربي وتبلورت في أوساط الشعب الفلسطيني داخل الاردن بالانتفاضة ضد زيارة « تمبلر » ، لتمثل انجازا على صعيد مواجهة السياسة الاستعمارية ودحرها . ـــ ثم جاء طرد « جلوب » البريطاني من الاردن ، وقيام حكومة النابلسي الوطنية في عمان

البحث الذي قدمه الوفد الفلسطيني الى الندوة الفكرية المنبثقة عن مؤتمر الشباب العربي الاول ، المنعقد في الجزائر من ٥ ـــ ١١ تموز ١٩٧٢ . أعد البحث في مركز الابحاث الفلسطينية . وكان الوفد برئاسة الزميل بلال الحسن .

ليمثل انجازا آخر على الطريق نفسه . — ثم جاء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ليطرح أمام الجماهير العربية بالدليل الملموس ارتباط اسرائيل بالامبريالية العالمية وتهديد اسرائيل الملموس ايضا للبلاد العربية ذاتها وليس لفلسطين وحدها . وليكشف من خلال السعي لضرب تأميم قناة السويس دور اسرائيل كقوة عسكرية هدفها ضرب قوى حركة التحرر العربية وتدمير اي انجاز تحصل عليه . ومن خلال الصمود والنجاح في المعركة التي تثبتت فيها كل هذه القضايا ، تعمق الدور اليومي والمباشر لمصر في حركة التحرر العربية ، فزاد ذلك من قوة النهج الداعي للتحرير من خلال العمل الوطني العربي . — ولكن أعمق الاحداث التي دعمت منهج العمل لتحرير فلسطين من خلال الاندماج في الحركة الوطنية العربية ، كان بدون شك قيام الوحدة بين سوريا ومصر . فبقيام هذه الوحدة شعر المواطن الفلسطيني انه اصبح وجها لوجه امام القوة العربية القادرة على العمل من اجل التحرير ، لانها تملك الطاقة البشرية والاقتصادية المؤهلة لذلك . من ضمن هذا المنطق ومن ضمن هذه الوقائع اندمج الشباب الفلسطيني في الاحزاب العربية وناضل من خلالها داعيا للوحدة ولبناء المجتمع الاشتراكي ولبناء القوة العسكرية القادرة على مواجهة اسرائيل وانجاز عملية التحرير .

٣ — الا أن هذه التجربة الفلسطينية في العمل الوطني ما لبثت ان واجهت جملة من الحقائق الموضوعية كان لها تأثير عميق في مسيرة الشعب الفلسطيني : — فقد قام الانفصال بين سوريا ومصر محطما الحلم الكبير بتطويق اسرائيل ، ومحطما الامل ببناء قوة اقتصادية وعسكرية قادرة على مواجهة اسرائيل . — ثم تمكنت القوى الرجعية العربية من توجيه ضربات متلاحقة للحركة الوطنية العربية ممثلة بأحزابها بحيث واجهت هذه الاحزاب مرحلة من الانحسار بعد مرحلة المد التي كانت تعيشها . وظهر من خلال ذلك ضعف في بنية هذه الاحزاب وتكوينها جعلها غير قادرة على مواجهة الموجة الرجعية، والتآمر الامبريالي المتصل لدعم القوى الرجعية وضرب القوى الوطنية ، حفاظا على مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية . — ثم أخذت الانظمة العربية تواجه — بعد أن انتهت موجة نيل الاستقلال وكسبه — مشكلاتها الاقتصادية الداخلية ، وتواجه الضغط الاستعماري لابقاء هذه المشاكل على حالها بحيث اضطرت لاسباب موضوعية تتعلق بطبيعة المشكلة الاقتصادية ، ولاسباب ذاتية تتعلق بطبيعة هذه الانظمة ونمط علاقتها بالجماهير ، ان تقوم بعملية انغلاق لمواجهة مشكلاتها الداخلية وايجاد حلول لها .

ازاء هذا الواقع والصعوبات التي ينطوي عليها بدأ الفلسطينيون يدركون ان العمل لتحرير فلسطين من خلال الحركة الوطنية العربية ، على الرغم من انه موقف سليم وصحيح من حيث المبدأ ، الا انه موقف غير كاف . وهو يفرض عليهم ، بدون التنازل عن حتمية الارتباط العضوي بين النضال الفلسطيني والنضال العربي ، أن يبلوروا عملهم الوطني الخاص ، وأن يتسلموا زمام قضيتهم بأيديهم وبشكل مباشر . وقد كان هذا الدرس الفلسطيني نوعا من المناخ العام ، اذ برزت في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، تنظيمات فلسطينية عديدة في أكثر من قطر عربي ، وفي وقت واحد تقريبا ، لتعكس احساسا جماهيريا عاما بضرورة قيام عمل فلسطيني خاص. وغرض هذا الواقع نفسه على الاحزاب القومية نفسها ، وعبرت عن ذلك باندفاعها نحو انشاء فرع خاص يضم الفلسطينيين داخل كل حزب عربي ، محاولة بذلك أن تتلاءم مع القناعة الشعبية الفلسطينية . وكان على هذه التنظيمات الفلسطينية أن تواجه بالاضافة الى اهمية الدور الفلسطيني الخاص وضرورته موضوعا آخر يتعلق بأسلوب النضال من أجل التحرير . هل يبقى أسير أسلوب الانظمة الداعي لانشاء جيوش نظامية تتفوق على القوة العسكرية الاسرائيلية ، في ظل اقتصاد متخلف ؟ وقد جاء الجواب واحدا تقريبا من خلال التنظيمات الفلسطينية الناشئة التي حاولت بشكل او بآخر بلورة استراتيجيتها للكفاح

الشعبي المسلح واعتمادها خطا للتحرير ، وكان هذا الطرح لاسلوب الكفاح الشعبي المسلح منطلقا من صورة الواقع العربي الذي تسيطر عليه التجزئة ، وهمسوم البناء الاقتصادي الذي يتعرض لتآمر الرجعية في الداخل ، ولضغط الاستعمار من الخارج ، ولتهديد اسرائيل بضرب المنجزات الوطنية العربية ، اذا ما تخطت مرحلة الامان بالنسبة لها . في هذه المرحلة جاء نجاح الثورة الجزائرية ، في نيل استقلالها عن طريق الحرب الشعبية فقام بدور بارز في ترسيخ القناعة الفلسطينية بالاتجاه الجديد الذي برز في أوساطهم وبامكان النجاح في مواجهة اسرائيل من خلال استغلال طاقة الجماهير ، والاستفادة من نقطة القوة التي تملكها في مواجهة قوة استعمارية كبيرة تملك طاقات عسكرية ومادية ضخمة .

وقد انطلق العمل الفدائي الفلسطيني تجسيدا لكل ذلك في عام ١٩٦٥ ، مواجها صعوبات الاعتراف الرسمي العربي به ، ومواجها منذ البداية محاولات القمع . ولكن هزيمة حزيران ١٩٦٧ فرضت على الانظمة العربية تجميد محاولات القمع هذه ، والانطلاق مباشرة الى تأييد الانطلاقة الجديدة للثورة الفلسطينية ودعمها . فأصبح منطقها في العمل المنطق السائد في أوساط الجماهير ، والذي يلقى منها كل تأييد ، خاصة بعد ان سكتت المدافع العربية معلنة عجز الانظمة عن متابعة المعركة .

٤ ـ وكنتيجة لكل ذلك نقول ان العمل الوطني الفلسطيني المستقل : الايمان بالدور الفلسطيني الخاص ، لم يكن في منطلقه أو في غاياته الا محاولة لتكميل العمل الوطني العربي وتطويره ، والا محاولة لتكريس الارتباط بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية ، من خلال التصدي المباشر للعدو الصهيوني الذي يلعب دور الدركي لحماية المصالح الامبريالية في المنطقة ، ولسحق أي انجاز تقدمي تحققه الحركة الوطنية العربية . وهذا العمل الوطني الفلسطيني كان بعد عام ١٩٦٧ بالذات اسهاما جديا في حماية الحركة الوطنية العربية نفسها ، لان ارتفاع صوت المقاومة ضد الاحتلال أعطى الانظمة العربية فرصة لالتقاط الانفاس حتى تبدأ في العمل لاستعادة قواها الذاتية ، وحتى لا تقع اسيرة شروط الاستسلام الاسرائيلية .

ان التأكيد على هذه الظروف الموضوعية لبروز العمل الفلسطيني المستقل ، ضروري الان بسبب ما تواجهه حركة المقاومة من انتقادات كثيرة يصل بعضها الى مبدأ وجودها بالذات ، طارحا من خلال السعي لانهاء وجودها ، أن يعود العمل الوطني الفلسطيني ليرتبط بعجلة العمل الوطني العربي على غرار ما كان الوضع عليه في الخمسينات ، متجاهلا التجربة التي بلورت وأنضجت الظروف الموضوعية لقيام عمل فلسطيني مستقل ، ومتجاهلا ايضا الدرس الكبير والعميق الذي بلورته هزيمة حزيران .

مرحلة الانطلاق :

لقد لقيت الثورة الفلسطينية تأييدا جماهيريا واسعا منذ لحظة انطلاقتها بعد الهزيمة وفي أوساط الشعب الفلسطيني بالذات ، كان هذا التأييد شاملا بحيث استطاعت ان تنتزع بنضالها شرعية تمثيلها لشعبها . كما لقيت الثورة الفلسطينية تأييدا مماثلا في أوساط الجماهير العربية عمق من لحمة العلاقة التاريخية بين النضال الفلسطيني والنضال العربي ، وبرزت هنا امكانية تحويل هذه الطاقة الجماهيرية الفلسطينية والعربية الى قوة فعالة من خلال تنظيمها وتعبئتها باتجاه النضال ضد اسرائيل . ولكن جملة عوامل ذاتية وموضوعية تدخلت لتعيق النمو المستمر لامكانية التحويل هذه . وبعض هذه العوامل يتعلق بفصائل حركة المقاومة نفسها وأبرزها :

ـ حالة التشتت التنظيمي التي كانت انعكاسا طبيعيا لاندماج الشباب الفلسطيني في احزاب وتيارات فكرية متعددة ، كما كانت انعكاسا طبيعيا للتشتت الجغرافي الذي عاش

في ظله الفلسطينيون . ومن قلب هذا الوضع الذي هو حصيلة عشرين عاما من التشرد بذلت حركة المقاومة بفصائلها الاساسية كافة محاولات عديدة لايجاد صيغة فعالة للوحدة الوطنية ، من خلال اللقاء داخل منظمة التحرير ، في عضوية المجلس الوطني ، وفي عضوية اللجنة التنفيذية. وما زالت تجري حتى الآن محاولات دؤوبة لتطوير الصيغة القائمة للوحدة الوطنية من أجل صيغ أفضل وأرقى . ـ تقصير حركة المقاومة في ادراك قيمة العمل السياسي المنظم في أوساط الجماهير ، من أجل دعم العمل العسكري نفسه. ونتيجة لذلك بقي التأييد الواسع الذي لقيته المقاومة تيارا عفويا لم تستغل طاقاته بشكل كامل . مع اننا نسجل لهذا التيار العفوي انه قام بدور بارز في حماية المقاومة من بعض المؤامرات التي دبرت لتصفيتها في الاردن ولبنان . ـ تقصير في تطوير اساليب العمل العسكري ، بحيث تكون اكثر ملاءمة لظروف الارض ولاساليب العدو في المقاومة المضادة . ـ تقصير في ادراك معنى الاجراءات الاقتصادية والادارية التي لجأ اليها العدو في الاراضي المحتلة ، والبدء مبكرا في تحضير الاجواء لمواجهتها .

ولكن هذه العوامل لا يمكن مناقشتها بعيدا عن العلاقات التي نشأت بين الثورة الفلسطينية والواقع العربي الرسمي فمن خلال هذه التناقضات لم تستطع حركة المقاومة ان تواجه نقاط ضعفها الذاتية ، منشغلة بمواجهة تناقضها مع الاوضاع العربية ، وأبرز هذه التناقضات التناقض في الموقف الاساسي حول منهج مواجهة اسرائيل بعد الهزيمة، بين منطق القتال ومنطق قرار مجلس الامن والتسوية السياسية. ونقول بألم شديد وبموضوعية كاملة ان الموافقة العربية على مشروع روجرز في تموز ١٩٧٠ ، والبلبلة الجماهيرية التي أحدثتها هذه الموافقة في أوساط الجماهير ، قد خلقت مناخا استغلته الرجعية الاردنية في التحضير لمجزرة أيلول في العام نفسه .

وقد فرض على الثورة الفلسطينية ان تواجه سلسلة متلاحقة من عمليات القمع في الاردن وفي لبنان عطلت الجزء الاكبر من طاقاتها من أجل حماية نفسها من تآمر القوى الرجعية بدل التوجه لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي . وحين تمكنت الرجعية الاردنية من خلال مجزرة أيلول ١٩٧٠ وما تلاها من معارك أن تنهي الوجود العلني لحركة المقاومة في الضفة الشرقية ، تمكنت اسرائيل من : (١) ان تطلق العنان لتنفيذ مخططاتها في الضفة الغربية من خلال الانتخابات البلدية ، سعيا وراء ابراز قيادات فلسطينية جديدة، تكون كقيادات بديلة لحركة المقاومة ، (٢) ان تتفرغ لوضع مخطط شامل لضرب المقاومة الباسلة في قطاع غزة ، حسب اعتراف التقرير السنوي العسكري لعام ١٩٧١ الصادر عن قيادة الاركان الاسرائيلية .

ـ فرض على الثورة الفلسطينية أن لا تتعامل مع قطاع واسع من الجماهير العربية الا من خلال الانظمة نفسها ، وبالحجم الذي تراه هذه الانظمة مناسبا لمصالحها ولسياستها الداخلية . وأدى ذلك الى تعطيل عملية التفاعل العميقة بين الثورة الفلسطينية والجماهير العربية ، بل ان بعض هذه الانظمة قد سعى الى استيعاب الثورة الفلسطينية والسيطرة عليها ، كي تصبح خاضعة لافق سياستها الرسمية .

ـ اما اجهزة الاعلام العربية فقد انطلقت في فترة المد التي عاشتها الثورة الفلسطينية ، في عملية تضخيم لمنجزاتها ، كانت تهدف الى تغطية حالة القصور العربية القائمة ، وأدت في الوقت نفسه الى خلق حالة وهمية حول العمل الفدائي جعلت المواطن العادي يتوقع منه المعجزات، وحين لم يجد هذه المعجزات بدأ يشك في العمل الفدائي وجدواه. وحين واجه العمل الفدائي بعض التراجعات قامت اجهزة الاعلام نفسها لتنشر صورة من التشاؤم حول العمل الفدائي بدل ان تساعده في مواجهة ظروفه الصعبة .

ـ وفي ظل هذا كله فان الاحزاب العربية الحاكمة منها وغير الحاكمة ، عجزت عن

استيعاب المد الجماهيري الذي ولدته الثورة الفلسطينية وتنظيمه فبقي كما قلنا ، قوة عفوية ، غير قادر على أن يعطي كل طاقاته للمعركة .

ولا نستطيع أن ننكر ان هذه العوامل التي ذكرناها لعبت دورها — بمستويات مختلفة — في تجسيد سلسلة من العقبات التي أعاقت العمل الفلسطيني عن تأدية دوره بشكل أفضل مما تم حتى الآن . وهي مسؤولة — بمستويات مختلفة — عن التراجعات التي اضطرت حركة المقاومة للقيام بها دون أن نقلل مطلقا من شأن أخطائنا نحن .

التخطيط الاسرائيلي

بينما كانت الثورة الفلسطينية تواجه هذه العوامل التي ذكرناها ، كانت اسرائيل تباشر تنفيذ خطتها الدائمة في مقاومة العمل الفدائي من خلال ضرب الاقطار العربية نفسها . وقد أعلنت اسرائيل ذلك علنا وبوضوح وعلى لسان أكثر من مسؤول كبير فيها . وهدف اسرائيل من وراء ذلك اجبار الانظمة العربية على أن تقوم بنفسها بالتضييق على العمل الفدائي وضربه ، تخلصا من تهديد الهجمات الاسرائيلية . كذلك خلق التناقض بين العمل الفدائي والانظمة ، وبين العمل الفدائي والجماهير التي تتعرض للقصف والغارات ليحاط العمل الفدائي بجو من العداء والرفض . وقد كان هذا المخطط الاسرائيلي يفرض عملية من التعبئة داخل هذه الانظمة ، تزيد فيها من قوتها العسكرية وتلجأ الى تسليح جماهيرها لمواجهة الاعتداءات الاسرائيلية التي تخفي وراءها أطماعا بالاراضي والمياه العربية موازية للرغبة في ضرب العمل الفدائي . ولكننا وجدنا بدلا من ذلك ، أن بعض هذه الانظمة قد استجاب لضغط التخطيط الاسرائيلي ، أكثر مما استجاب لدور العمل الفدائي في التصدي لهذا التخطيط . وأبرز الامثلة على ذلك : (١) النظام الاردني الرجعي الذي استغل قصف اسرائيل المتصل لمنطقة الاغوار لتعبئة سكان هذه المناطق تعبئة اقليمية حاقدة سعت جهدها للتفريق بين الفلسطيني والاردني . ثم بلغ هذا التخطيط ذروته في مجزرة أيلول . (٢) النظام اللبناني الذي سعى اثناء الاعتداء الاخير على جنوب لبنان الى الضغط على حركة المقاومة لتسحب قواتها من المنطقة . ومرة اخرى يطلب من العمل الفدائي أن يواجه الاحتلال الاسرائيلي وأن يحقق المعجزات حتى ينجو من النقد الذي يتعرض له ، وهو يواجه مهمة حماية نفسه والاحتفاظ بوجوده في لبنان قبل أن يواجه الاعتداءات الاسرائيلية . فهل نستطيع أن نتناسى هذه الامثلة العربية ونحن نقيم ونحاسب الثورة الفلسطينية ؟

صورة المستقبل

ان هذه المشكلات التي ذكرناها سواء على الصعيد العربي أم على الصعيد الاسرائيلي لا يمكن فصلها عن تحديد صورة مستقبل الثورة الفلسطينية . وفي تحديد هذه الصورة يجب أن ينصب التركيز مرة أخرى على الترابط النضالي الفلسطيني العربي من ضمن اطار الدور الفلسطيني الخاص الذي تحدثنا عنه ؛ ذلك ان تطور العمل الفدائي الفلسطيني مرهون في نظرنا بقضيتين : القضية الاولى : أن يتوقف تآمر الانظمة العربية على الثورة الفلسطينية ، اما خوفا من وجود السلاح في أيدي الجماهير واما خوفا من التيارات الجماهيرية المناضلة التي توجدها حولها ، واما هربا من الاعتداءات الاسرائيلية ومن نتائجها . القضية الثانية : أن تنمو القوة العربية الذاتية باستمرار لتشكل قوة دعم فعالة للعمل الفدائي وقوة ردع أيضا للتهديد الاسرائيلي . في ظل هاتين القضيتين يمكن للعمل الفدائي ان ينمو . ومن الظلم الفادح أن يناقش نمو العمل الفدائي وأن تقيم نتائجه بعيدا عنهما ، اذ بمقدار ما تنمو القوة العربية الذاتية بمقدار ما ينعكس ذلك على النضال الفلسطيني مهيئا له ظروف الانطلاق الصحيح وظروف التوجه نحو الاهداف الحقيقية التي عليه أن ينشغل فيها بدل انشغاله في حماية نفسه .

ومن ضمن هذا الاطار العام ومن خلاله يمكن ان تحدد المهمات الاساسية للعمل الوطني الفلسطيني في المرحلة الراهنة : المهمة الاولى : هي مهمة النضال من أجل استعادة الموقع الذي خسرته حركة المقاومة في الاردن بسبب جميع الاعتبارات التي تجعل من الاردن الموقع الطبيعي لانطلاق الثورة الفلسطينية سواء منها ما يتعلق بالعامل البشري أم الجغرافي أم الاقتصادي . المهمة الثانية : مهمة التواجد الفعال داخل الضفة الغربية وقطاع غزة . مع الاخذ بعين الاعتبار بأن تطوير العمل المسلح وتنميتـــه في الاراضي المحتلة اصبح مرتبطا الى حد بعيد بضرورة العمل على مواجهة التخطيط الاسرائيلي الذي يعتمد على الامور التالية: (١) دمج اقتصاد الاراضي المحتلة بالاقتصاد الاسرائيلي ليكون ذلك تمهيدا لاحتواء هذه المناطق وضمها نهائيا لاسرائيل . (٢) خلق طبقة من المتعاونين مع الاحتلال الاسرائيلي تتكون أساسا من الفئات المستفيدة من الاحتلال وتتمثل في كبار المزارعين وكبار التجار . (٣) اجراء الانتخابات البلدية تمهيدا لاعتبار رؤساء البلديات المنتخبين حسب القانون الاردني الذي يفرض أن تكون الانتخابات مقتصرة على أصحاب الاملاك فقط (أي ٧ ٪ من السكان) ممثلـــين سياسيين للشعب الفلسطيني يتولون التفاوض مع العدو الاسرائيلي والخضوع لمطالبه . (٤) استيعاب الايدي العاملة في المشاريع العاملـــة في المشاريع الاسرائيلية تحت وطأة التهديد بالجوع ، لابعـــاد هذه القطاعات الفقيرة عن التعامل مع حركة المقاومة والانضمام الى صفوفها . (٥) الاصرار على سياسة الجسور المفتوحة ، كي تبقى هذه الجسور صلة وصل بشرية واقتصادية بين اسرائيل والبلاد العربية .

ان مواجهة هذا التخطيط الاسرائيلي مهمة فلسطينية وعربية وليست مهمة فلسطينية فقط . المهمة الفلسطينية في هذه المواجهة تتوجه نحـــو بناء التنظيم السياسي داخـــل الاراضي المحتلة لكي يتولى توعية الجماهير بأهداف التخطيط الاسرائيلي ، ولكي يتولى تنظيم نضالات جماهيرية ضد هذا التخطيط تستعمل فيها أساليب النضال المعروفة كافة، من المناشير الى التظاهرات والاضرابات والعصيان المدني ليقود كل ذلك الى خلق مناخ ملائم لنمو العمل العسكري وتوفير ظروف الحماية له . امـــا المهمة العربية ، فهي بالاضافة الى ما ذكرناه سابقا ، تتطلب التفكير من جديد بسياسة الجسور المفتوحة ومدى استفادة اسرائيل منهـــا في تجنب تبعات المسؤوليات الاقتصاديـــة في الاراضي المحتلة ، مع ما يترتب على ذلك أيضا من تعامل اقتصادي عربي مبطن مع اسرائيل من خلال وسطاء من كبار التجار والمتمولين . ولا ينفصل عن هذه المهمات العربية ان تتوقف محاولات التدخل ومساعي فرض المواقف الاستسلامية على الثورة الفلسطينية حتى تنسجم مع الاستراتيجية العربية الرسمية ، خاصة بعد أن تبين بالدليل القاطع بعد خمس سنوات من الاحتلال عبث كل المحاولات التي بذلت للوصول الى تسوية سياسية مع اسرائيل وبروز نوايا الدمج للاراضي المحتلة بشكل واضح في تصريحات المسؤولين الاسرائيليين .

مهمات الشباب العربي :

في ضوء هذه المهمات الفلسطينية والعربية التي تحدد صورة المستقبل بالنسبة للثورة الفلسطينية نستطيع أن ننتقل انطلاقا منها لتحديد مهمات الشباب العربي في دعمها . وهي مهمات تنقسم في تصورنا الى قسمين اساسيين : مهمات مباشرة في دعم الثورة ، ومهمات غير مباشرة ، ولكنها لا تقل عن الاولى قيمة واهمية . **المهمات المباشرة** يمكن ان نلخصها بما يلي : (١) العمل على توعية الجماهير العربية بقضايا الثورة الفلسطينية والمصاعب التي تواجهها ، بطريقة علمية واقعية ، لا تميل نحو المبالغة كما حدث في السابق ولا تميل نحو التشاؤم كمـــا يحدث الآن . (٢) التطوع في صفوف الثـــورة الفلسطينية لخلق الصلة اليومية بين القضية الفلسطينية والاوضاع العربية حتى يكون

هذا الاسهام المباشر تجسيدا اوليا لكون معركة فلسطين معركة الامة العربية . (٣) المطالبة بالتدريب والتسليح وخاصة في دول المواجهة لتساهم قوى الشباب في رفع درجة الاستعداد لمواجهة اسرائيل وصولا الى المرحلة التي يكون فيها الشعب بأكمله موضوعا تحت السلاح للاسهام في عملية التحرير . (٤) النضال داخل كل قطر عربي من أجل تنظيم الاطار الجماهيري الداعم للثورة الفلسطينية بحيث يكون هذا الاطار المنظم أداة قادرة على التحرك في اللحظة المناسبة لحماية الثورة من اي ضربات تتعرض لها . (٥) وفي اللحظة الراهنة تقع على عاتقكم جميعا مهمة مباشرة تستدعي العمل الدؤوب والسريع لدعم الثورة الفلسطينية في لبنان ، لكي تقطع الطريق على المحاولات الجارية لالغاء وجود العمل الفدائي هناك ، من خلال تكتيك شبيه بالتكتيك الذي نفذ من قبل في الاردن .

هذه هي المهمات المباشرة التي نرى ان الشباب العربي قادر من خلالها على الاسهام في دعم الثورة الفلسطينية . أما **المهمات غير المباشرة** ، والتي نعتبرها المهمات الاساسية في هذه المرحلة فيمكن ان نلخصها فيما يلي : النضال داخل كل قطر عربي من أجل تطوير اوضاع ذلك القطر بحيث يتجه بكل طاقاته لبناء القوة العسكرية والاقتصادية التي تجعله قادرا على الصمود في وجه التحدي الاسرائيلي ، كمرحلة أولى من اجل الاسهام الجدي في معركة التحرير . وفي عملية النضال من أجل هذا الهدف تبرز مهمات متعددة اهمها : أ ــ مواصلة النضال من اجل ضرب المصالح الامبريالية في الوطن العربي سواء الاقتصادية منها أم العسكرية . ب ــ ارساء عمليات التنمية الاقتصادية على أسس تخدم متطلبات المعركة الطويلة الامد مع اسرائيل . ج ــ اطلاق حرية التنظيم امام الجماهير العربية لتصبح قوة فاعلة في المعركة ،لخلق حالة تتجاوز ما كان الوضع عليه عشية هزيمة حزيران اذ كانت الجماهير بكل زخمها قوة معطلة عن المشاركة في المعركة. د ــ رفع درجة التنسيق والتعاون والتوحيد بين القوى العربية الوطنية الى مستوى يؤهلها لمواجهة الخطر الاسرائيلي . هـ ــ النضال لتجسيد موقف سياسي عربي يخدم المطلب السابق ، ويتخلى عن الاعتقاد بامكانية تراجع اسرائيل بالحوار والاساليب الدبلوماسية .

ان صورة نضال يتجه نحو هذه الاهداف قادرة في اعتقادنا على ان توفر مناخا صحيا لنمو حركة التحرر العربية ، تستفيد منه الثورة الفلسطينية لتنمية طاقاتها وامكاناتها من أجل تحقيق المهام الكبيرة الملقاة على عاتقها . واذا كان هناك مجال لان نبدأ من هذا اللقاء الذي يتمثل فيه شباب الوطن العربي باجراء عملي يكون بداية لترجمة هذه المهمات فاننا نقترح على لقائكم هذا ان يبحث في ايجاد صيغة تنظيمية تنبثق عن مؤتمر الشباب العربي ، لتؤمن صلة اتصال دائمة في ما بينهم لتكون اطارا لتوحيد جهودهم وتنسيق نضالهم دعما للثورة الفلسطينية وللنضالات العربية .

لقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى

اعداد

بلال الحسن

جرى هذا اللقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى ، والمدعوين لحضور المؤتمر الرابع للاتحاد العام لعمال فلسطين ، المنعقد في دمشق في ١٩٧١/٨/٢٠ في مقر الاتحاد العام لنقابات العمال في سوريه ، وحضره كل من :

١ ــ نصري الحلو ، ٢ ــ فؤاد شما ، ٣ ــ ابراهيم عليان ، ٤ ــ عبدالله قنديل ، ٥ ــ المرحوم حسني صالح الخفش . أدار اللقاء بلال الحسن من مركز الابحاث في ١٩٧١/٨/٢٢ . واعتبرت الجلسة جزءا من اجتماعات اللجنة النقابية للمؤتمر .

١ ــ حديث السيد نصري الحلو :

س : هل يمكن ان تروي لنا ذكرياتك عن الحركة العمالية التابعة لجمعية العمال العربية الفلسطينية ؟

ج : انتسبت لجمعية العمال العربية الفلسطينية لاول مرة سنة ١٩٢٥ ، وكنت أعمل في ذلك الوقت بسكة حديد فلسطين في مدينة حيفا . في ١٩٢٣ طلب بعض العاملين في سكة حديد فلسطين تأسيس ناد ليكون مقرا لاجتماعهم وبحث بعض المشاكل العمالية وامكان حلها . ولكن تطورت الفكرة من تأسيس ناد الى طلب ترخيص بانشاء جمعية سميت « جمعية العمال العربية الفلسطينية » . وبناء على سياسة حكومة الانتداب آنذاك ، والتي كانت سياستها حسب وثيقة الانتداب تقوم على مساعدة الصهيونية في بناء وطن قومي ، ووجه الطلب بمعارضة ومماطلة ، لان حكومة الانتداب كانت ضد أي نوع من التنظيمات العمالية لشعب فلسطين . وبعد الحاح واصرار ومراجعات متعددة، استطاع الاعضاء المؤسسون أن يأخذوا ترخيصا رسميا بانشاء الجمعية عام ١٩٢٥ . وكانت الجمعية في ذلك الوقت مقتصرة على نقابة عمال سكة الحديد في حيفا (العمال فقط وليس الموظفون) ، وكانت امكاناتها المالية قليلة جدا ، اذ لم يكن لديها عدد كبير من الاعضاء . كان عدد الاعضاء في ذلك الوقت نحو ٣٠ عضوا فقط .

س : من كان يقود الجمعية في ذلك الوقت ؟

ج : اذكر منهم الاخ عبد الحميد حيمور ، والاخ سعيد قواص ، والاخ عيد حيمور شقيق عبد الحميد ، والاخ الياس نصار الملقب بالياس الزوك ، والحاج حسين نصار .

س : في فترة التأسيس من كان متفرغا للعمل في الجمعية ؟

ج : لم يكن هناك أحد متفرغ . كان العمل موزعا على الجميع ، ويتم انجازه بعد الانتهاء من الدوام ، حيث كنا نلتقي في مقر الجمعية ونتداول بالقضايا التي تهمنا . لم يكن هناك كاتب متفرغ او موظف او كناس ، وكان الاعضاء انفسهم يقومون بهذه الاعمال . وبعد فترة وجدنا من الضروري أن يتواجد شخص ما في المكتب اثنـاء النهار ، تحسبا لاي

طارىء قد يحدث ، أو لاستقبال عامل يريد ان يراجع في أمر ما ، فأحضرنا المرحوم سامي طه ليقوم بهذه المهمة .

س : ما هي ذكرياتك عن الاحداث المهمة بعد التأسيس ؟

ج : لم يطل عملي بسكة الحديد . تركت العمل بعد فترة قصيرة وغادرت مدينة حيفا ، ثم انقطعت عن النشاط العمالي ، لانه لا يوجد تنظيم عمالي في المنطقة التي ذهبت اليها. وقد عدت الى حيفا في بداية الاربعينات ، لذلك أستطيع التحدث عن هذه الفترة . ولكن أذكر ان أول اضراب عمالي كان في « شركة نيشر » ، وهي شركة يهودية ، وكان العمال العرب فيها ينقلون التراب لشركة اسمنت . وقد حصل العمال نتيجة الاضراب على بعض الحقوق . ولان الحركة العمالية كانت في بدايتها ، فقد كان الحصول على اي مطلب يشكل مكسبا هاما .

س : ماذا كانت مطالب الاضراب ؟

ج : مطالب عمالية ، اي زيادة أجور ، تحديد ساعات عمل . . . الخ .

س : هل طالب العمال بتشريع نقابي ؟

ج : لا . لم يكن هناك تشريع نقابي . ولم يكن واردا لدينا ان نطالب منذ البداية بتشريع نقابي .

س : لنتحدث الآن عن فترة الاربعينات ؟

ج : منذ بداية الاربعينات ، وقعت عدة أحداث ادت الى تقوية جمعية العمال وتثبيت وجودها ، كما أدت الى اجبار حكومة الانتداب على الاعتراف بوجودنا ، وأخذ وجهات نظرنا بعين الاعتبار . فبالرغم من الترخيص الرسمي الذي كان لدينا ، الا انهم كانوا في البداية يتجاهلون وجودنا بضغط من زعماء منظمة الهستدروت التي كان على رأسها في ذلك الوقت دافيد بن غوريون وجولدا مائير .

في تلك الفترة ، أي فترة الحرب العالمية الثانية ، كان هناك عدد كبير من معسكرات العمل التابعة للجيش البريطاني في فلسطين ، وكان عدد العمال في هذه المعسكرات نحو ١٦٥ الفا* منتشرين في جميع انحاء فلسطين ، وكان العمال العرب يشكلون الاكثرية ، ولكنهم كانوا يفتقدون التنظيم، ويعاملون بتمييز واضح لصالح العمال اليهود. في عام ١٩٤١ التحقت بعمل في معسكر هندسة للجيش في منطقة الطيرة ، معسكر رقم ١٥٣ ، وكانت مهنتي «ساين رايتر»**، واعطاء فكرة عن طبيعة توزيع المهام داخل هذا المعسكر ، يوضح الفرق في معاملة العمال العرب ومعاملة العمال اليهود ، فقد كان القسم الاكبر من الاعمال الفنية بيد اليهود ، اما الاعمال العادية فكانت كلها تعطى للعمال العرب . واذكر انه كان يوجد ٣٦ نجارا بينهم نجار عربي واحد ، ونحو ٤٠ بناء ومورقا بينهم عربي واحد ، و٧ عمال تمديدات صحية بينهم مساعد عربي واحد ، و١٠ — ١٢ دهانا وساين رايترز بينهم عربي واحد هو أنا . كنا نشعر بخطورة هذا التمييز ، وبخطورة افتقاد التنظيم بيننا، فأخذنا بتوجيه من جمعية العمال بتشكيل نقابات محلية في كل معسكر . ومن النقابات المحلية في كل منطقة شكلنا لجانا مركزية ، ومن اللجان المركزية شكلنا لجنة قطرية واحدة ، تمثل كل عمال المعسكرات في فلسطين ، وكنت أنا سكرتير هذه اللجنة منذ عام ٤٥ وحتى سقوط مدينة حيفا . وكانت هذه اللجان كلها منتخبة بشكل حر ورسمي . وكانت اللجنة القطرية تعقد اجتماعاتها في مقر الجمعية بحيفا . وأقول بصراحة أن الذي دفعنا للعمل بسرعة لتنظيم عمال المعسكرات كان نشاط

* يحتاج هذا الرقم الى تدقيق .

** مهنة الـ « ساين رايتر » هي الرسم الفني .

اليهود وتجمعهم وتنظيمهم القوي ، وبشكل خاص رغبتهم في ضم أكبر عدد ممكن من العمال العرب الى مؤسساتهم الصهيونية ، اذ كانوا يهمسون دائما في آذان العمال العرب ان مؤسساتهم قادرة على ان تحقق لهم مطالبهم ، وان هذه المؤسسات لا علاقة لها بالسياسة .

س : ما هو نوع المطالب التي كنتم تعملون لتحقيقها داخل المعسكرات ؟

ج : كنا نهتم بكافة شؤون العمال . اذا طرد بعض العمال نتدخل ، اذا أعطي لعامل عربي فني ٢٥ قرشا في اليوم ، بينما عامل يهودي أقل منه مهارة يأخذ ٥٠ قرشا نتدخل . اذا حصلت تنسيقات ، وفصل العمال العرب وبقي اليهود نتدخل . وهكذا ، حتى بدأ عمالنا يشعرون ان هناك من يطالب لهم بحقوقهم ، وكان لذلك أثر في تخفيف الضغط عليهم .

س : هل حصل أي تصادم بين تنظيمكم وتنظيم الهستدروت داخل المعسكرات ؟

ج : في عام ١٩٤٢ أو عام ١٩٤٣ (لا أذكر) عقدنا أول مؤتمر لعمال المعسكرات، واتخذنا في هذا المؤتمر قرارا هاما جدا يقول بأنه لا يحق لاي جهة أن تتكلم باسم العمال العرب في فلسطين ، الا جمعية العمال العربية الفلسطينية . وفي تلك الفترة كان الهستدروت يسعى لتنظيم اضراب عام داخل المعسكرات . وكانت دعايتهم لانجاح هذا الاضراب ترتكز على القول بأن الاضراب هدفه عمالي ولا دخل له بالسياسة . ونحن نريد غلاء معيشة لان الاسعار ترتفع باستمرار ، وأجور السكن زادت بنسبة كبيرة ، ولا يوجد ضمان في حالة المرض ، وكل ما يمكن أن يؤثر على عواطف العمال . ولكن الواقع أن الهدف من الاضراب كان هدفا سياسيا خالصا . بعد أن عقدنا مؤتمرنا ، زاد اليهود من نشاطهم ، وعقدوا مؤتمرا اتخذوا فيه قرارا بتقريب موعد الاضراب ليعلن في ١٠ نيسان ١٩٤٣ ، وكان الهدف من تقريب الموعد ، ان يتم الاضراب اثناء التحضير لمؤتمر العمال العالمي* ، الذي كان مقررا عقده بعد فترة ، على أساس ان نجاح اضراب يضم العرب واليهود تحت اشراف الهستدروت سوف يؤدي الى اختيارهم كممثلين لكل عمال فلسطين في المؤتمر العالمي ، ويظهرهم أمام العالم على انهم يمثلون شعب فلسطين ، ويكرسون بذلك دعايتهم التي كانت تقول بأنه لا يوجد أي خلاف بين الحركة الصهيونية وبين شعب فلسطين ، وان الخلاف كله منحصر بالبكوات والافندية .

قررنا مواجهة دعوة الهستدروت للاضراب ، لتفشيل هدفهم السياسي من وراء ذلك . وبدأنا حملة توعية في النهار والليل وفي كل مكان ، خاطبنا كل عامل حسب فهمه ، عامل نتحدث معه من ناحية عاطفية ، عامل آخر من ناحية دينية ، والذي كنا نلمس لديه شيئا من الوعي نخاطبه من الناحية الوطنية ونشرح له القصد من الاضراب . ولتدعيم رأينا كنا نقول للعمال العرب « قولوا للعمال اليهود ، نحن مستعدون للاشتراك في الاضراب بشرط واحد ، أن نوزع منشورا واحدا يدعو للاضراب موقعا من جمعية العمال ومن الهستدروت » ، ولكن لجان الهستدروت المحلية كانت ترفض دائما هذا الطلب ، ويكتشف العمال العرب صحة رأينا ، ويدركون ان الهدف من الاضراب كان سياسيا وليس عماليا . كان هناك بعض العمال اليهود المعتدلين ، الذين وافقوا على حقنا في التوقيع على المنشور الذي سيدعو للاضراب ، ولكنهم كانوا قلائل جدا ، ولم يكن صوتهم مسموعا . وأخيرا جاء يوم الاضراب دون أن نصل نحن والهستدروت الى أي اتفاق . وكنا واثقين من انفسنا ، ومن الجهود التي بذلناها ، ونسقنا عن طريق اللجان المحلية ان يحل عامل عربي مكان كل عامل يهودي يشترك في الاضراب ، حتى لا يكون هناك توقف عن العمل في أي مجال . وبعد مضي وقت قصير على بدء العمل جاء ضباط

---

* مؤتمر النقابات الدولي — عقد بلندن بتاريخ ٦ شباط ١٩٤٥ .

المراقبة لاعداد تقرير عن الاضراب الذي لم يكن له اي اثر ، حتى ان قسما ضئيلا من العمال اليهود كانوا يشاركون في العمل . واذيع في اليوم التالي تقرير يقول ان الاضراب قد فشل ، وان العمال العرب عملوا بنسبة ١١٠ ٪ . والسبب في ذلك ان كافة العمال العرب المجازين بشكل عادي او لاسباب مرضية ، قطعوا اجازاتهم وشاركوا بالعمل في ذلك اليوم . وكان ذلك نجاحا حقيقيا لنا ، وفشلا ذريعا للهستدروت . وعلى اثر ذلك أعلمتنا قيادة الجيش انها تعترف بجمعية العمال العربية الفلسطينية الممثلة الوحيدة للعمال العرب ، وطلبت تشكيل لجنة تجتمع اسبوعيا مع الضابط المسؤول لدرس قضايا العمال العرب ومشاكلهم .

س : ماذا كان رد الفعل داخل الهستدروت على هذه النتيجة ؟

ج : برز في صفوفهم تذمر حاد ، لان قيادتهم كانت تعرض عليهم تقارير تفيد ان الاضراب سينجح ، وان موقف العمال العرب ليس مهما ، فهم لا يهتمون بغير لقمة العيش ، والمعارضة تأتي فقط من البكوات .

دعت الهستدروت الى اجتماع خاص لبحث الموضوع ، ووجهت دعـــوة الى الجمعية لارسال وفد عنها لحضوره ، وفهمنا فيما بعد ان هذه الدعوة وجهت بضغط من العمال اليهود ، الذي شكوا بأقوال زعمائهم ، وأرادوا ان يفهموا الحقيقة ، واضطرت قيادة الهستدروت أن تلبي طلبهم . تشكل الوفد بموافقة جمعية العمال (معارضة من أعضاء الندوة الآخرين) . اجتمعت مع المرحوم سامي طه ووافق على ذهابنا . في قاعة المؤتمر اخبرونا ان كل خطيب سيتحدث بلغته ثم يجري القاء ترجمة لها . تحدث أحد العمال اليهود بالعبرية وفهمنا كلامه تماما ، وحين ترجمت كلمتـــه للعربية كانت الترجمـــة مغايرة تماما لما قال . ولذلك حين أعطيت الكلمة لنا صعد مندوبنا الى المنصة ، وبدأ يتكلم بالعبرية . قاطعوه وطلبوا منه ان يتكلم بالعربية فرفض قائلا انكم تقدمون ترجمة خاطئة ، ولا تريدون لعمالكم أن يفهموا الحقيقة ، ولكنهم اصروا على الرفض ، فحدث لغط شديد فيما بينهم داخل القاعة تطور الى مشادة جرح فيها حوالي ١٥ عاملا يهوديا ، وانسحبنا على اثر ذلك من الاجتماع . وبعد هذا الحادث طلبوا رسميا من الجمعية ان يكون هناك تعاون مشترك بين المنظمات العماليـــة اليهودية والعربية لحل مشاكـــل العمال ، واضطروا لاول مرة أن يزوروا مقر الجمعية للاجتماع بنا . وكان هذا تحطيما لغرورهم .

س : هل كان لكم في تلك الفترة نشاط سياسي ؟

ج : الحقيقة ... اننا لم نكن في ذلك الوقت نقوم بأي نشاط سياسي ، ولكن عملنا بحد ذاته كان عملا سياسيا أكثر من عمل السياسيين . وقد نجحنا فيه الى حد ان اجبرنا القيادة العامة للجيش البريطاني في عام ١٩٤٧ ان تستدعينا للاجتماع مع القائد العام للجيوش البريطانية في فلسطين . واذكر من أعضاء الوفد في ذلك الوقت جمال عقاد ، وشفيق دلال وانا ، ولا اذكر بقية الاسماء ، وحضر الاجتماع أيضا وفد مـــن العمال اليهود . وقد طلبوا منا أن يكون الحديث باللغة الانجليزية وبدون ترجمة ، بينما سمحوا للوفد اليهودي أن يتحدث بالعبرية مع الترجمة . وقد اعترضنا على ذلك وطلبنا أن يكون حديثنا باللغة العربية ، وحين رفضوا طلبنا انسحبنا من الاجتماع ، ولم نكد نخرج من باب القاعة حتى استدعونا من جديد ووافقوا على ما طلبناه .

س : ماذا كان الهدف من هذا الاجتماع ؟

ج : بحث المشاكل العمالية : الاجور ـــ التعويض ـــ التثبيت . وقد اضطروا لدعوتنا بسبب قوة تنظيمنا ، اذ بدأت نظرتهم لنا تتغير بعد أن كانوا يعتقدون ان التنظيم والاتحاد بين العرب أمر مستحيل .

س : كيف كانت علاقتكم مع الاحزاب السياسية القائمة آنذاك ؟

ج : لم نكن ننتمي لاي حزب ، ولم نكن نأخذ رأي أي حزب .

س : اثناء الاضرابات العمالية هل كانت الاحزاب تؤيد اضراباتكم ومطالبكم ؟

ج : هنا من الضروري أن أوضح اننا كنا على خلاف مع الاحزاب في موضوع الاضرابات. كانوا يطلبون الاضراب لسبب من الاسباب ، ويسعون لتنفيذه بشكل مرتجل فكنا نعارض الاضرابات المرتجلة . في احدى المرات دعت الاحزاب الى اضراب يستمر ٦ ايام ، فعارضنا نحن الفكرة ، واقترحنا عليهم ان يضرب العمال بصورة رمزية مدة نصف ساعة فقط ، على أن نأخذ من كل عامل أجر نصف يوم ، وقد نفذ الاضراب حسب اقتراحنا بالرغم من معارضتهم ، ولم يشمل العمال فقط ، بل شمل اصحاب المحلات ايضا ، وقدمنا على اثره مبلغا كبيرا من المال للهيئة العربية العليا .

س : هل عقدت مؤتمرات أخرى لعمال المعسكرات بعد المؤتمر الاول الذي أشرت اليه ؟

ج : عقد مؤتمر آخر لعمال المعسكرات ، بعد انعقاد المؤتمر الاخير للجمعية في عام ١٩٤٧ . ولكن لا أذكر تاريخه بالضبط ، ولا اذكر شيئا من مقرراته . وانتخبني الاعضاء مستشارا دائما للمؤتمر ، ولم يكن الاخ سامي طه مرتاحا لذلك ، وكان يفضل أن أبقى أمين سر اللجنة القطرية . وبعد عام ١٩٤٨ ، بعثت من بيروت برسائل الى الحكومة البريطانية ، حول تعويضات مستحقة لبعض عمال المعسكرات ، وتلقيت اجابات عليها، ثم توقفت عن متابعة هذا الموضوع*.

س : هل كانت لكم علاقة مع « جمعية العمال العرب » في يافا التي أسسها ميشيل متري ؟

ج : عندما عقد مؤتمرنا في يافا عام ١٩٤٣ كان لعمال المعسكرات فقط ، ولهذا السبب لم تدع هذه الجمعية لحضوره . اما ميشيل متري فقد كان قبل اغتياله على صلة وثيقة بالجمعية الرئيسية في حيفا ، ولكن جمعيته انتهت بعد اغتياله .

س : وجورج منصور ... الم يستطع احياءها بعده ؟

ج : لم يستطع أن يحييها ، مع انه كانت لديه روح عمالية عالية . كان يعيش في مصر وعندما عاد منها أراد أن يطبق النظام الاشتراكي بنفسه ، ففتح بالمال القليل الذي يملكه مصنعا للاحذية ، طبق فيه على العمال النظم الاشتراكية التي كان يؤمن بها . وانتهى به الامر الى الافلاس .

٢ ــ حديث السيد فؤاد شما :

س : ما هي الفترة التي ترغب بالحديث عنها ؟

ج : أنا سأتحدث عن فترة ١٩٤١ ، لانني في ذلك العام التحقت بالعمل في ورش معسكرات الجيش البريطاني كعامل خياطة . كان التنظيم العمالي في ذلك الوقت ناشطا ، وجمعية العمال العربية الفلسطينية تضم عدة نقابات ، ولها ايضا عدة فروع . فسكة الحديد ، ومعامل الدخان ، والبلديات ، كان عمالها جميعا منتسبين للجمعية . وبدءا من عام ١٩٤٠ ، وهو العام الذي أقيمت فيه ورش المعسكرات في الجيش ، أصبح عمال المعسكرات أيضا جزءا من الجمعية . وقد اتسع نطاق هذه المعسكرات بسبب ضخامة المجهود الحربي في ذلك الوقت ، وكانت تجمعاتها الرئيسية حول مدن غزة وعكا وحيفا التي كانت تضم أكبر عدد من المعسكرات .

---

* أضيفت بعد لقاء شخصي في بيروت يوم ١٩٧١/١٠/١٣ .

س : أين كان مركز عملك بالضبط ؟

ج : أنا التحقت بالعمل في معسكر « كيشون » عند مدخل حيفا ، وكانت الورشة تضم نجارين وخياطين وكندرجية وسروجية ، ومع تطور العمل نقل قسم الخياطة الخاص بنا الى معسكر يقع بعد مصفاة النفط (الريفاينري) ، ثم نقلونا الى معسكر خاص للالبسة (خياطة — تصليح — رتي كنزات ... الخ) ، وهذا المعسكر كان يضم ١٢٠٠ عامل وعاملة من العرب واليهود .

س : كيف بدأت تجربتكم بالتنظيم النقابي داخل المعسكرات ؟

ج : في الفترة التي أتحدث عنها ، تكاثر العمال العرب بشكل كبير داخل المعسكرات . وكانت الهستدروت ناشطة بشكل واضح ، وهدفها السيطرة على التنظيم العمالي في المعسكرات . وردا على هذه المحاولات بدأت الجمعية تتصل بالعمال العرب لبحث الوضع معهم . واذكر ان المرحوم سامي طه اتصل بمعسكرنا وطلب أن نرسل شخصين او ثلاثة لمقابلته في مقر الجمعية ، وقد ذهبت انا وشخص آخر اسمه يعقوب الارمني لمقابلته ، وحدثنا عن نمو عمال المعسكرات ، وافتقادهم للتنظيم ، وادعاء الهستدروت المتواصل انها تمثل كل عمال المعسكرات . ثم قال ان جمعية العمال منظمة ، ولها فروع في كل مكان ، ولها نشاطات عديدة توسع في شرحها ، ثم طلب منا ان نعمل لتنظيم عمال المعسكرات وضمهم الى الجمعية . وكانت الجمعية قد أجرت في الوقت نفسه اتصالات ببقية المعسكرات القريبة من حيفا ، وطلبت من بقية الفروع ان تجري اتصالات مماثلة في مناطقها . وعلى اثر هذه الاتصالات ، امضينا فترة شهر تقريبا نبشر بالفكرة بين عمال المعسكرات حيث طلب منا بعد ذلك ان نجري انتخابات في كل معسكر ، لاختيار مندوبين الى المؤتمر الذي قررت الجمعية عقده لعمال المعسكرات . وقد اجرينا الانتخابات بشكل حر ، وكان كل مندوب يحمل تفويضا رسميا موقعا يخوله الحديث باسم عمال المعسكر الذي ينتمي اليه .

عقد المؤتمر في يافا عام ١٩٤٢ كما ذكر الاخ نصري الحلو ، وكان يمثل نحو ٨٠ — ٨٥ بالمائة من عمال المعسكرات في فلسطين ، ولم يستثن من حضوره الا المعسكرات البعيدة التي لم يكن الاتصال بها ممكنا (جنوب رفح مثلا) . وكان المؤتمر ناجحا مئة بالمئة ، ومن قراراته التي اذكرها : ١ — لا يحق لاي هيئة عمالية ان تنطق باسم العمال العرب الفلسطينيين غير جمعية العمال العربية الفلسطينية . ٢ — المساواة بالاجور بين العامل العربي والعامل اليهودي . ٣ — طلب مقابلة مع المندوب السامي البريطاني لشرح القرارات له والبحث في كيفية تنفيذها . ٤ — انشاء تنظيم قوي لجمعية العمال العربية الفلسطينية في اوساط عمال المعسكرات وقرارات أخرى لا اذكرها ، صدرت كلها في كراس رسمي .

وبعد انتهاء المؤتمر بدأنا في تنفيذ القرارات التنظيمية ، فأجرينا انتخابات داخل كل معسكر لانتخاب لجنة محلية ، ثم اجتمعت اللجان المحلية وانتخبت لجنة تنفيذية اسمها « اللجنة التنفيذية لعمال المعسكرات » ، وكانت تضم على ما اذكر ٩ اشخاص منهم : نصري الحلو — نديم موسى — وليد سلطان — عبد الرحمن صالح — فؤاد شما ، وأجرت اللجنة التنفيذية انتخابات مكتب لها ، وانتخبت امين سر للجنة التنفيذية* . عندما اكتمل تنظيمنا واكتسب صفته الشرعية شكلنا وفدنا لمقابلة المندوب السامي برئاسة المرحوم سامي طه وعضوية كل من خليل شنير وفؤاد شما . وقد ذهبنا ثلاثتنا

* يلاحظ التعارض في ذكر بعض الوقائع بين الاخ فؤاد شما والاخ نصري الحلو فيما يتعلق بالهيكل التنظيمي ، وبأمانة سر اللجنة التنفيذية .

الى القدس بناء على موعد رسمي . ولكن قبل حلول الموعد بيوم او يومين ابلغنا باعتذار المندوب السامي عن حضور الاجتماع بسبب مرض او سفر مفاجىء (لا اذكر) وانه فوض السكرتير العام لحكومة فلسطين ان يجتمع معنا . وقد تم الاجتماع في عمارة الملك داوود في القدس ، وكان يضم مفتشي دوائر العمل في فلسطين وكلهم من البريطانيين ، واثنين او ثلاثة من المترجمين العرب . وقد عرضنا عليهم مقررات المؤتمر ، وطلبنا ايضا ترخيصا باصدار صحيفة كانت الجمعية قد طلبت ترخيصها من قبل .

عندما عرضنا موضوع مستوى الاجور العام ، وموضوع المساواة في الاجور بين العامل العربي والعامل اليهودي ، قالوا ان السبب يعود الى ان العامل اليهودي يعيش في مستوى افضل من العامل العربي (مع اعترافهم بأن العامل العربي ينتج أكثر) . وطبعا حصل نقاش طويل حول هذه النقطة ، احتد على اثره السكرتير العام للحكومة وبدا يقول : انتم لا تهتمون لغير المادة . انكم تنسون أن جيوشنا تحارب وتحميكم من النازية وتنسون ان شبابنا يموتون للدفاع عنكم ، وتنسون ان كل مواردنا تستهلك في الحرب من أجل ذلك . وقد طلبت الاذن بالكلام للرد على هذا الحديث وقلت : اذا كنتم تحاربون بالنيابة عنا فنحن ليس لنا مصلحة في هذه الحرب ، لانها حرب بين مبدأين متصارعين هما النازية والحلفاء ، وانتم الذين فرضتم علينا أن نوجد داخل هذا الصراع ، وكانت النتيجة اننا اكتوينا بنار الحرب وما ولدته من خراب ودمار وغلاء معيشة . وهنا تدخل أحد المترجمين مشيرا لي بيده انني تجاوزت الحدود في هذا الكلام ، فقلت له انت مترجم ومهمتك الترجمة بدون تعليق .

ركزنا في الاجتماع على موضوع الاعتراف ، وكان هذا اكثر طلب نهتم بـه ، لان الهستدروت كانت تدعي آنذاك انها تمثل العمال العرب . وخرجنا من الاجتماع بوعد بالنظر في طلباتنا وفي قرارات مؤتمرنا .

س : ماذا كان رد الفعل الاسرائيلي على مؤتمركم وقراراته ؟

ج : على ضوء قرارات المؤتمر ، وعلى ضوء النشاط التنظيمي الواضح الذي أسفر عنه ، ساد في اوساط الهستدروت شعور بأن ما بنوه في سنين تهدم في فترة قصيرة . وقد تحدث الاخ نصري عن هذه القضية ، ومن المفيد أن أعرض ما اتذكره انا ايضا حول الموضوع نفسه لاننا عاصرناه معا . كان هدف الهستدروت الاساسي ضرب تنظيمنا داخل المعسكرات . وكان موضوع الاضراب هو المدخل ، فدعوا الى عقد مؤتمر في تل ابيب ، وقاموا بنشاط واسع لانجاحه ، ولاشراك ممثلين عن العمال العرب به ، بحجة — كما قال الاخ نصري — ان المؤتمر سيبحث في القضايا النقابية فقط . وأزيد على ما قاله الاخ نصري ، انهم لجأوا الى أسلوب الاغـراء الرخيص لاقناع بعض العمـال بالحضور ، فكانوا يقولون انكم لن تخسروا شيئا ، فأجرة يوم المؤتمر ستدفع ، واجرة الطريق ستدفع ، وأيام الاضراب ستدفع ، وكذلك يمكن قضاء وقت طيب في تل ابيب مع الاصدقاء والصديقات . وقد كان ردنا على هذه الاغراءات قاسيا في أكثر من مناسبة . وحين عقد المؤتمر المذكور ، بعد مؤتمرنا في يافا بشهر او بثلاثة اسابيع ، اتخذوا قرارا بالاضراب ، وعينوا يوما محددا له ، وكانت المطالب المعلنة تتناول مستوى الاجور وغلاء المعيشة . . . الخ ، وبدأوا بعد المؤتمر بنشاط واسع لانجاح الاضراب .

قال الاخ نصري أنهم وجهوا دعوات للجمعية لحضور الاجتماع في تل ابيب . ولكن مـا اذكره أن الدعوات كانت شخصية وليس باسم الجمعية ، وقد ابلغوني شخصيا بالدعوة في مكان عملي . وحسب عادتنا التقينا مساء ذلك اليوم ، نحن أعضاء اللجنة التنفيذية لعمال المعسكرات ، في مقر الجمعية بحيفا . كنا كما اذكر يومها خمسة اشخاص : عبد الرحمن صالح ، نديم موسى ، وليد سلطـان ، نصري الحلو وأنا . كـان سامي طه

مسافرا ، فاستشرنا الاخ عبد الحميد حيمور بشأن تلبية الدعوة أو رفضها ، فقال انتم اعضاء اللجنة التنفيذية ، وهذا من اختصاصكم ، فتصرفوا على ضوء مصلحتكم . وبعد المشاورة قررنا حضور الاجتماع بصفتنا الشخصية .

كان يرأس الاجتماع في تل ابيب ، بن غوريون وأبا حوشي . افتتح بن غوريون الاجتماع . قال ان الهدف منه تنفيذ اضراب يتعلق بالعامل العربي والعامل اليهودي ، وليس له دخل بالسياسة . طلبت ابا الكلام وقلت : نحن لنا تنظيم عمالي عربي ، وهو الذي يمثلنا ، ولذلك نرفض ان يتخذ الهستدروت قرارا ويفرض علينا تنفيذه . ان الهدف من ذلك تحطيم تنظيمنا العمالي العربي ، والاثبات للحكومة البريطانية المنتدبة ان الهستدروت هو الذي يمثل العمال العرب ، وبناء على ذلك لا يمكن ان نوافق على الاضراب . ثم أخذت أتلو عليهم قرارات مؤتمرنا في يافا .

حاول رئيس الاجتماع ايقافي عن الكلام فرفضت ، ودار جدل في القاعة بين مؤيدين ومعارضين . وعندما انتهيت ، ترجم كلامي الى اللغة العبرية ، ولكني لاحظت ان الترجمة كانت موجزة جدا ، فطلب زميل اخر لنا الحديث ، وفي نيته ان يتكلم بالعبرية ردا على ايجاز المترجم ، ولكنهم رفضوا السماح له بالكلام ، وحصلت المشادة التي تكلم عنها الاخ نصري . خرجنا من الاجتماع ، وعلمنا فيما بعد انهم قرروا الاستمرار في الدعوة للاضراب ، وتأجيل موعد التنفيذ لمدة اسبوع . وبالمقابل تابعنا نحن اجراءاتنا لافشاله* .

س : ماذا كان موقف الادارة البريطانية من هذا الاضراب ؟

ج : لقد كان واضحا لنا منذ البداية ان التهيئة للاضراب من قبل الهستدروت تتم برضى الضباط البريطانيين المسؤولين عن المعسكرات وبالتعاون معهم . وكان مندوبو الهستدروت يعقدون اجتماعات مع هؤلاء المسؤولين ، ويعقدون اجتماعات مع العمال بالاتفاق مع الادارة . وهنا من المفيد ذكر واقعة حدثت معي شخصيا . فقبل الاضراب بيومين جاء الضابط المسؤول وهو بريطاني برتبة كابتن يرافقه بن غوريون و ٣ او ٤ اشخاص من موظفي الهستدروت ، ونحو ١٠ من اليهود ، ورئاسة المعسكر بأكملها . اوقف الضابط العمل وبقي حوالي نصف ساعة يخطب بالعمال ، ويوجه لي التهم والاهانات ، وقال في حديثه انني أبث دعاية عنصرية بين العمال ، وانني اعطل الانتاج ، والهستدروت تنظيم قديم وهو اساس العمل النقابي ، وجمعيتكم جديدة وضعيفة . وخاطب العمال قائلا : غدا (اي يوم الاضراب) ستكون لديكم عطلة رسمية ، وبالامس عملتم ساعتين اضافيتين واليوم ستعملون ساعتين ايضا ، وسيكون ذلك بديلا عن اجر يوم الاضراب ، وما ينقص عن الاجر المعتاد ساسجله لكم على حسابي الخاص ، وآمل ان اذهب غدا الى العزيزية (منتزه مشهور) والقاكم جميعا هناك ، عربا ويهودا . اما الدعاية العنصرية التي ينشرها هذا (ويشير الي) وجمعيته ، فلا تستمعوا اليها . يجب ان تكونوا جميعا اصدقاء وتستمتعوا بعطلتكم .

كنت متضايقا جدا من هذا الحديث ، وخاصة ما يتعلق منه بالاتهامات التي وجهها للجمعية ، فلما انتهى من حديثه طلبت الاذن بالكلام وقلت له ان كل معلوماتك عن الجمعية معلومات خاطئة ، فجمعيتنا ليست جديدة ، وهي مؤسسة منذ عام ١٩٢٥ ، قاطعني بحدة وقال : ارني عاملا واحدا نظم في الجمعية منذ اكثر من عام . وقد كان محقا في ذلك لان تنظيمنا كله كان حديثا ، ولكن الانقاذ جاء من احد العمال الذين كانوا

---

* يلاحظ التعارض في تحديد موعد هذا الاجتماع ، قبل الاضراب او بعده ، بين حديثي الاخ نصري الحلو ، وفؤاد شما ، كذلك التعارض في لغة الحديث .

يعملون في سكة الحديد ، ويدعى محمد فايز . اذ وقف وقال انا منظم في جمعية العمال منذ ٥ سنوات ، ولم يكن من الضابط البريطاني الا ان رفسه بقدمه وخرج . عند خروجه استدعيت احد عمالنا ، وهو مصري يدعى الريس محمد ، واستحصلت له على تقرير طبي ، وكتبت رسالة طلبت منه ان يذهب ويسلمها لسامي طه ، واخبرته في هذه الرسالة بكل ما حصل ، وكيف ان الضباط البريطانيين يريدون ان يفرضوا علينا الاضراب فرضا . ويظهر ان المرحوم سامي اتصل بالجهات المختصة ، اذ جاءنا عند العصر موظف من الادارة ليخبرنا ان يوم غد هو يوم عمل ، وبعد فترة قصيرة عاد الضابط البريطاني نفسه ليسألني عن الشخص الذي اتصل بي والحديث الذي دار بيننا . فاخبرته انني سألته عما يجري في ورشتهم فقط ، ونقل لي انك طلبت منهم التوقف عن العمل غدا . فصمت ، ثم خاطب العمال قائلا : غدا سوف يكون يوم عمل . وتفسيري لذلك ان البريطانيين كان يهمهم نجاح الاضراب ليساعدوا الهستدروت في فرض سيطرته ، ولكن حين تنكشف الامور ، وتصل الى المسؤولين الكبار ، لم يكن من مصلحتهم اخذ موقف علني يكشف سياستهم ، ولذلك اصدروا اوامر معاكسة بعد ان اتصل سامي طه بالمسؤولين وعرض عليهم المعلومات التي ارسلتها له .

س : هل مارست مهمات اخرى في الجمعية ؟

ج : انا تركت العمل في المعسكرات قبل ان ينتهي وجودها في عام ١٩٤٧ . ويعود سبب تركي الى ان الجمعية اسست تعاونية لعمال الخياطة كان اسمها « جمعية الرخاء التعاونية » ، وفتحت التعاونية مشغلين للخياطة ، مشغلا للنساء ومشغلا للرجال . المشغل النسائي لم ينجح واقفل ، وبقي المشغل الرجالي ، وكان يضم ٢٥ شخصا من الخياطين والمساهمين وقد كلفتني الجمعية ان ادير هذا المشغل بعد حوالي ثلاثة اشهر من تأسيسه بسبب استقالة المسؤول عنه ، وانقطعت بذلك صلتي بعمال المعسكرات ، وتابعت نشاطي من خلال الجمعية التعاونية ، واصبحت ممثلا لها في مجلس النقابات .

٣ ــ حديث السيد ابراهيم عليان :

س : متى التحقت بالعمل النقابي ؟

ج : مارست العمل النقابي بدءا من عام ١٩٤٤ من خلال نقابة عمال السكة الحديد في حيفا ، ولم يتم الالتحاق بمبادرة مني ، بل كان الفضل للجمعية في الاتصال بالفرع الذي كنا نعمل فيه ، وسكة الحديد كانت تضم ١٠ آلاف موظف وعامل ، وهي ذات اقسام عديدة ، اهمها قسم الورشة الذي كان يضم ٣ الاف مهني ، والواقع ان الورشة هي ام جمعية العمال العربية الفلسطينية ، اذ كانت مركز التنظيم الفعلي ، وكان يعمل بها ابرز اعضاء الجمعية ، عبد الحميد حيمور وسعيد القواص وعيد حيمور وعلي نصار . اما الاقسام الاخرى ، قسم الهندسة ، قسم الجرد ، قسم الحركة ، فقد كان التنظيم فيها شبه محدود ، لان نقابة سكة الحديد كانت مقتصرة فقط على عمال الورشة ، وخاصة في الاعوام ٤٢ او ٤٣ وحتى ٤٤ .

في عام ١٩٤٤ قامت الجمعية بالاتصال بقسم الجرد ، وهو القسم الذي يضم السواقين ، وطلبوا منا ان ننضم للنقابة ، وان ننتخب لجنة تمثلنا . وقد استجبنا للطلب وقمنا بانتخاب لجنة محلية (انتخابات الخط العريض ، والخط الضيق ، والخط الحجازي) وابلغنا الجمعية نتائج الانتخابات ، التي اختير منها ٤ او ٥ اشخاص ، كانوا كلهم شبابا صغارا في السن . وفي الواقع كان هناك ممثلون معتمدون لدى الجمعية كممثلين للسواقين في قسم الجرد ، ولكنهم لم يمارسوا اي نشاط منذ انتخابهم . وارادت الجمعية من وراء الانتخابات الجديدة ان تطعم القسم بدم جديد . وقد قامت الجمعية بمحاولات مماثلة في الاقسام الاخرى : قسم الحركة ــ قسم الهندسة ، واذكر انه تم

انتخاب زهير صالح وشقيقه وجماعة من الموظفين في قسم الحركة ، وبذلك اصبحت معظم الاقسام في سكة الحديد بحيفا ممثلة داخل النقابة في عام ١٩٤٤ . وكان للسواقين داخل هذه النقابة اهمية خاصة ، اذ ان اي حركة اضرابية لا يشارك فيها السواقون تكون مهددة بالفشل . وقد انتخبت كممثل للسواقين في الهيئة الادارية لنقابة سكة الحديد ، واستلمت في الهيئة الادارية منصب السكرتير الثاني ، وكان السكرتير الاول الحاج حسين نصار . وكان اختيار اثنين لمنصب السكرتارية يعود الى كبر حجم النقابة .

س : ما هي ابرز الاحداث التي عاصرتها ؟

ج : ابرز الاحداث التي عاصرتها الاضراب الذي دعت له الجمعية عام ١٩٤٦ ، وهو الاضراب الذي بدأ في ١٠ نيسان ١٩٤٦ وانتهى في ٢٠ نيسان ، واستطاعت الجمعية في هذا الاضراب ان تحقق معظم مطالبها مما ادى الى ترسيخ مكانة الجمعية واتساع نطاق المؤيدين والتفاف قطاعات واسعة من العمال حولها ، وبدأت الاوساط الجماهيرية كافة تشعر بوزن الجمعية وثقلها . وعلى اثر هذا الاضراب عقدت الجمعية مؤتمرها في ٢٨ آب ١٩٤٦ ونجح نجاحا كاملا ثم تلاه مؤتمر عام ١٩٤٧ .

س : هل اقتصر نشاط الجمعية على القطاع العمالي ؟

ج : لقد حاولت الجمعية بداب ان لا يقتصر نشاطها على القطاع العمالي ، وعملت كثيرا من اجل مد تنظيمها الى اوساط الفلاحين والمزارعين ، وكانت تنفذ ذلك من خلال فروع الجمعية في كل منطقة . وكان اسلوبها في تنظيم الفلاحين يعتمد على انشاء جمعيات تعاونية ، هدفها تحسين احوالهم المعيشية ، ونيل الحقوق التي يطالبون بها . وقد كان للجمعية اهتمام خاص بالثروات الفلسطينية ، وانطلاقا من ذلك ، وانطلاقا من اهتمامها بقضايا الفلاحين ، دعت الى عقد مؤتمر لمزارعي الدخان . ويعود اختيار هذا القطاع الزراعي الى اوضاع اصحابه السيئة بسبب تسلط الشركات عليهم ، وفرض الاسعار التي يريدونها عند الشراء . فقد كان مزارع التبغ الفلسطيني يضطر — بسبب افتقاد مراكز تجميع الدخان الصحية — الى وضع الدخان في بيته ، ومن المعروف ان الدخان المخزون يسبب مرض السل . اما عند البيع فقد كان الفلاح يبيع دخانه بارخص الاسعار ، اذ كانت شركات الدخان تتفق مع رجال الجمرك ، ليزوروا القرى ويقوموا بتصنيف انواع الدخان حسب امزجتهم ، فارضين على الفلاح ان قسما كبيرا من انتاجه من الصنف السيء . فيضطر الفلاح الى بيعه حسب تصنيف رجال الجمرك له . كما كان رجال الجمرك يقومون بالاتفاق مع الشركات بتصنيف جزء من انتاج الدخان على انه غير صالح ولا بد من حرقه ، ثم تستولي عليه الشركات نفسها وتقوم بتصنيعه . وقد كان هناك اتفاق بين الشركات على انه لا يجوز السماح لاي فلاح غير راض عن السعر المدفوع له ، بنقل انتاجه من شركة الى اخرى . الا اذا رفضت الشركة الاولى الشراء منه . وكان هذا يعني عمليا انه مضطر للبيع لاول شركة يتصل بها وبالسعر الذي تفرضه .

لمعالجة كل هذا الوضع عقد اول مؤتمر لمزارعي الدخان في نيسان ١٩٤٧ في مدينة عكا ، وقد خرج المؤتمر بقرارات هامة استهدفت المحافظة على هذه الثروة الوطنية وتخليص اصحابها من سيطرة احتكار الشركات . ومن ابرز القرارات التي اتخذها : ١ — ايجاد مراكز صحية لتجميع الدخان . ٢ — انشاء جمعيات تعاونية لبيع الدخان . ٣ — مقاطعة الدخان الاجنبي .

س : ماذا نفذ من هذه القرارات ؟

ج : يجب ان نلاحظ ان المؤتمر عقد في شهر ٤ بينما كان قرار التقسيم في شهر ١١ من العام نفسه . لذلك لم يكن هناك مجال واسع للتنفيذ العملي . ومع ذلك فقد تم انشاء

بعض المستودعات الحديثة لحفظ الدخان في منطقة الجليل ، ومنع بيع الدخان للشركات الا عن طريق الجمعيات التعاونية في كل منطقة انشئت بها ، وادى ذلك الى فرض بيعه بالسعر المناسب ، بدلا من تراكم الديون على المزارعين لصالح بنك الزراعة في عكا .

س : كيف انتقلت من نقابة سكة الحديد الى ميدان مزارعي التبغ ؟

ج : في مؤتمر ١٩٤٦ انتخبت عضوا في لجنة الفروع ، وكلفت اثناء ذلك بالقيام بجولة في شمال فلسطين شملت الياجور ، جبل الشيخ ، جبل العرب ، عكا ، ترشيحا ، سحماتا ، الزيب ، البصة ، الطيرة . وكان هدف الزيارة تفقد فروع الجمعية في هذه المناطق ، وتنظيم اوضاعها الادارية ، ومحاضرها ، وايصالاتها الرسمية ، تحسبا لاي تفتيش حكومي ، يفتش سلفا عن حجة لالغاء ترخيص الجمعية . وبالاضافة الى ذلك كانت مهمتي تشمل تقديم تقرير عن الاوضاع العامة في المناطق التي زرتها . وقد اعددت تقريرا من ٤٠ صفحة يتحدث عن (السكان — الطوائف — النزاعات — مصادر مياه الشرب — عدد المدارس — ادارة القرية : مختار ، مجلس محلي ، بلدية — نوع الزراعة والتجارة . . . الخ) . وللاسف لا توجد لدي نسخة عن هذا التقرير ، والنسخة الوحيدة منه بقيت في مقر الجمعية بحيفا .

س : ماذا كان موقف الجمعية من اضراب عام ١٩٣٦ ؟

ج : سمعت من الاخ سامي طه شخصيا ان الجمعية لم تكن موافقة على الاضراب ، وان نتائج الاضراب كانت ضد مصالح العمال ، ففي مرفأ حيفا كان ٩٠٪ من عمال المرفأ من العرب ، وحين عادوا للعمل بعد انتهاء الاضراب وجدوا جميع المراكز في يد الشركات اليهودية . وفي شركة نيشر للاسمنت كان يوجد ٣٠٠ عامل عربي استبدلوا اثناء الاضراب بعمال يهود ، وادى تعطل العمل في ميناء يافا الى ازدهار ميناء تل ابيب . وهكذا يكون الاضراب قد ادى الى اضعاف الحركة العمالية العربية ، وتقوية الهستدروت ، اذا نظرنا الى الامور من هذه الزاوية فقط .

٤ — حديث السيد عبد الله قنديل :

س : متى انتسبت الى الحركة النقابية ؟

ج : في عام ١٩٤٦ ، بعد حوالي شهرين من نسف جسر الحديد القائم بين سمخ والحمة من قبل القوات الصهيونية . وكان ذلك عندما قررت حكومة الانتداب تصليح الجسر المنسوف ، ورسى تعهد التصليح على شركة « سوليل بونيه » الصهيونية بمبلغ ربع مليون جنيه على ما اذكر . وبدأت الشركة تنفيذ المشروع ، واستخدمت عددا كبيرا من العمال ، كان ثلاثة ارباعهم من اليهود ، والربع الباقي من العرب . ونشأ خلاف بين العمال والشركة عندما عرفوا ان هناك تمييزا كبيرا في الاجور بين العامل العربي والعامل اليهودي ، وطالبوا بتعديل هذا الوضع . وفي ظل هذا الخلاف نشأت لدى بعض العمال فكرة تشكيل نقابة للدفاع عن مصالحهم . واجرت هذه المجموعة من العمال اتصالا معي ، وعرضوا علي الفكرة ، فوافقت عليها ، وكلفوني بالاتصال بالمرحوم سامي طه في الجمعية بحيفا لبحث الموضوع معه ، اجريت هذا الاتصال فوافق وارسل لنا حسني الخفش وفخر حجازي للاشراف على اجراء انتخابات وتشكيل نقابة . وقد جرت الانتخابات وتألفت لجنة محلية كنت انا امين صندوقها . وعلى اثر ذلك دخلنا في مفاوضات مع الشركة المذكورة تم على اثرها تعديل أجور العمال العرب .

س : هل اشتركت في مؤتمرات الجمعية ؟

ج : اشتركت في مؤتمر ١٩٤٧ ، وخرج عن هذا المؤتمر تقرير على غرار مؤتمر اب ١٩٤٦ . ولكن هذا التقرير طبع على الستانسل ، ولم تمكنا الظروف من طبعه على

شكل كتيب ، كما حدث مع قرارات مؤتمر ١٩٤٦ . ولا توجد لدي نسخة عن هذا التقرير وان كنت اعتقد ان بعض الزملاء لديهم نسخ منه .

٥ ــ حديث السيد حسني صالح الخفش :

س : نريد في البداية لمحة سريعة عن تطور علاقتك مع جمعية العمال العربية الفلسطينية ؟

ج : انتسابي لجمعية العمال العربية الفلسطينية كان عام ١٩٤٠ . كنت آنذاك عاملا في دائرة الاشغال العامة بمدينة نابلس ، والفنا في الدائرة « نقابة عمال الاشغال العامة » وكنت سكرتير هذه النقابة . انتخبت بعد ذلك في الهيئة الادارية للجمعية في نابلس كأمين للسر . ومن ثم تطور عملي النقابي ، فاصبحت عضوا في المجلس الاعلى للجمعية ، وعضوا في المؤتمر الاول والثاني ، وانتخبت مع الاخ ابراهيم عليان لنكون اعضاء في لجنة الفروع ، وسلم لنا ١٤ فرعا من اصل ٦٥ فرعا ليكون تحت اشرافنا ، وكانت واجباتنا في هذه اللجنة ، الاشراف على عمل الفروع ودراسة مشاكلها ، واقتراح الحلول لها . وفي عام ١٩٤٧ كنت عضو اللجنة التنفيذية في الجمعية ، وبعد مقتل سامي طه عقد مؤتمر في نابلس انتخبت فيه كأمين عام للحركة العمالية بالوكالة .

س : هناك غموض في المعلومات حول مرحلة تأسيس الجمعية ، فهل يمكن المساهمة من قبلك في القاء بعض الاضواء على هذه النقطة ؟

ج : الذي اسس في البداية هو نادي سكة الحديد وتم بعد ذلك الحصول على رخصة تأسيس « جمعية » في ٢١ اذار ١٩٣٥ بعد سنة ونصف السنة من تاريخ تقديم الطلب ، وفقا لقانون الجمعيات العثماني ، لانه لم يكن يوجد اي قانون يسمح بتنظيم النقابات ، فتسترا وراء القانون لجأ الاخوة رواد الحركة النقابية ، اي عبد الحميد حيمور وزملاؤه ، الى هذا الاسلوب ليتمكنوا من خلاله من تنظيم العمال . فالتنظيم لم يكن من الناحية القانونية تنظيما نقابيا ، ولكن تمكنوا من تجاوزه ، فتقدم ٧ او ١١ بطلب لانشاء جمعية للعمال ، وليس لانشاء نقابة ، ثم اخذوا صفة النقابة بالاسم فقط . وانا اقسم تاريخ الجمعية الى خمس مراحل :

ــ المرحلة الاولى هي مرحلة التأسيس منذ عام ١٩٢٥ وحتى عام ١٩٣٣ ، واتخذت هذه المرحلة طابع التوعية ، وتعليم الاميين منهم ، والدخول في عدة صراعات محلية بسيطة شملت عدة اضرابات .

ــ المرحلة الثانية منذ عام ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٩ . واحدد هذه المرحلة مع بداية دخول سامي طه الى الجمعية ، فقد كان صاحب قوة فكرية ونشاط خاص ، اغنى حركة النضال لعمال فلسطين . وكان له اثر كبير في تنبيه النقابيين وتخطيط النضال من اجل الطبقة العاملة الفلسطينية . ولذلك اعتبر انتساب سامي طه الى جمعية العمال بداية مرحلة جديدة ، وقد كانت فعلا مرحلة جديدة .

ــ المرحلة الثالثة تمتد منذ عام ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٥ ، وهي مرحلة انطلاق الحركة النقابية واتساع نطاقها . ويعود هذا الانطلاق لعدة اسباب سياسية واقتصادية لان الحركة النقابية لا يمكن فصلها عن النضال السياسي للشعب الفلسطيني ، فكانت الحركة العمالية تتأثر سلبا او ايجابا ، ضعفا او قوة ، بالمد الوطني والقومي . فالاضراب الشامل الذي اعلن عام ١٩٣٦ اثر كثيرا على الجمعية وعلى الحركة العمالية واضعفها . وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وجدت ظروف ساعدت في تنمية قطاع الطبقة العاملة في فلسطين ، بسبب وجود قوات بريطانية بنسبة كبيرة فيها ترافقت مع قرار لحكومة الانتداب بفتح المجال امام نشوء صناعات محلية لتغطية

النقص في هذه الصناعات في اوروبا ، ولصعوبة نقل البضائع عبر البحار . ومع اتساع نطاق الطبقة العاملة ، اتسع نطاق التنظيم النقابي . ومن العوامل الهامة في تقدير لنمو الوعي العمالي في تلك المرحلة ، اتساع النشاط الشيوعي في فلسطين ، حيث نشط الحزب الشيوعي بعد تحالف الاتحاد السوفياتي مع الحلفاء عام ١٩٤١ ، وكان هذا النشاط ثقافيا وعماليا ، وامتد حتى الى داخل جمعية العمال العربية الفلسطينية ، واذكر على سبيل المثال ان الاخ وجيه صوفان كان اول من اسس فرع جمعية العمال في نابلس .

ـ المرحلة الرابعة هي مرحلة الصراعات العديدة والهامة التي خاضتها الحركة النقابية منذ عام ١٩٤٥ ، وهي صراعات بين الصهيونية والحركة العمالية ، بين الاستعمار البريطاني والحركة العمالية ، بين الاحزاب السياسية العربية والحركة العمالية .

اولا : صراعنا مع الهستدروت اتخذ عدة اساليب اهمها مواجهة « عبرية » العمل . وبدأت عبرية العمل في خطاب لبن غوريون في مدرسة لا اذكر اسمها ، في عام ١٩٣٣ ، كتنفيذ عملي لوجود الوطن القومي اليهودي . وتعني عبرية العمل انه لا يجوز لليهودي صاحب المصنع او المؤسسة تشغيل اي عامل عربي حتى يأخذ العمل طابعا عبريا . واسس الهستدروت على اثر ذلك لجانا سموها لجان الدفاع عن العمل، فكان اعضاؤها يذهبون الى المحلات اليهودية ، ويطردون اي عامل عربي يعمل فيها ، ويفرضون غرامة على صاحب العمل اليهودي كعقاب له . وقد ردت جمعية العمال على ذلك بأساليب مماثلة . كذلك كانت قضية الاجور موضوع صراع دائم . اذ كان العمال اليهود المنتسبون الى الهستدروت يعملون باجور افضل وبساعات عمل اقل ، وكان ذلك يتم بتشجيع من حكومة الانتداب . وخاضت الجمعية صراعات عديدة لتصل الى المساواة في هذه القضايا . وبسبب تصديها للهستدروت واجهت الجمعية محاولات عديدة لضربها والتشويش عليها ، ورشوة العمال للابتعاد عنها .

ثانيا : صراعنا مع الاحزاب السياسية ، وهذه يجب ان تشرح بشيء من التفصيل ، لان عدة عوامل ساعدت عليها وابرزها :

١ ـ موضوع الاضرابات : لقد قادت الجمعية عدة اضرابات في مختلف الشركات ، مثل اضراب شركة « مور » في عكا ، اضراب شركة محاجر مجدل الصادق . وكانت هذه الاضرابات موجهة ضد اليهود وضد الانجليز وضد الشركات العربية احيانا ، وادى نجاح هذه الاضرابات الى التفاف العمال حول الجمعية ، وليس ذلك فقط ، بل ادت ايضا الى التفاف الجماهير حولها . ومن الامثلة البارزة لالتفاف الجماهير حول الجمعية ما حدث عندما جاءت لجنة التحقيق الانجلو ـ امريكية ، فقد وافق زعماء الاضراب على مقابلتها وقابلوها فعلا ، وعندما بعثت هيئة الامم المتحدة بعد ذلك لجنة تحقيق قرر الزعماء مقاطعتها ، وقرروا بدون تفكير اعلان اضراب لمدة ثلاثة ايام . اما نحن فقد راينا في هذا الموقف تناقضا واضحا ، فمن غير المنطقي مقابلة لجنة استعمارية ورفض مقابلة لجنة تحقيق من قبل الامم المتحدة . وفي هذا الجو اجتمعت لجنة النقابات في الجمعية ورأت انه ما دام الهدف من الاضراب انه يرمز لموقف الشعب ، فيمكن الاستعاضة عنه بدقائق مؤقتة . واجرت اللجنة في ذلك الوقت حسابا دقيقا للخسائر التي ستنتج عن الاضراب، باعتبار ان لدينا ٢٠٠ الف عامل وموظف يعملون في الشركات والمعسكرات ودوائر الحكومة ، فاذا كان متوسط الاجر لكل منهم جنيها واحدا في اليوم، فيكون مجموع الخسائر في ثلاثة ايام ٦٠٠ الف جنيه . ولذلك قررت لجنة النقابات الدعوة لاضراب يدوم ساعة واحدة فقط يوم حضور لجنة التحقيق ووزعت الجمعية بيانا يعلن موقفها من الاضراب ويقدم تفسيرا واضحا له . وبالفعل نفذ الاضراب حسب طلب الجمعية لمدة ساعة واحدة ، توقف اثناءها كل شيء . توقفت السيارات والقطارات

واغلقت المحلات التجارية ، ولم تستطع الاحزاب تنفيذ موقفها الداعي للاضراب ثلاثة ايام . ان هذا الحادث الذي يبرز التفاف الجماهير حول جمعية العمال اوجد تناقضا بين الجمعية وبين الاحزاب السياسية العربية .

٢ ــ اهتمام الجمعية بالفلاحين : كان الفلاحون اجمالا في فلسطين يدينون بالولاء للحاج امين الحسيني . ولكن تغيرا واضحا طرأ على هـذا الموقف بعد مؤتمر الجمعية عـام ١٩٤٦ . ففي ذلك المؤتمر اقرت الجمعية مبدأ النضال الاشتراكي ، وبحثت في واجبات العمال تجاه الفلاحين، ووضعت على ضوء ذلك خطة لانشاء جمعيات تعاونية للمزارعين في كل قرية ، وكان مؤتمر مزارعي التبغ خطوة على هذا الطريق ، ولعب بنك التسليف والتوفير الذي انشأته الجمعية ، والذي وصل رأسماله الى ٣٠ الف جنيه دورا بـارزا في انجاح مشروع الجمعيات التعاونية للمزارعين ، فاصبح يمد كل مزارع بالمال الـذي يلزمه بدلا من ان يلجأ للاستدانة من الجهات التي تتحكم بمصير انتاجه في نهاية العام ، وقد ساهم الفلاحون كثيرا في تدعيم هذه الجمعيات . وانقذت هـذه الخطة الفلاح من شبح الضرائب . فمزارع التبغ مثلا كان يزرع بضريبـة ، ويحصد بضريبة ، وينقـل المحصول الى بيته بضريبة ، وينقله للبيع في حيفا بضريبة ، واذا تباحث مع شركة ولم يناسبه السعر المدفوع لا يستطيع نقل محصوله من شركة الى شركة اخرى ، والشركات بمجموعها متضامنة في الاسعار التي تدفعها فيضطر الفلاح للبيع بالسعر الذي تحـدده الشركات . وقد تغيرت هذه الصورة عندما تولت الجمعيات التعاونية الموضوع ، ولكن هذا لم يطبق الا على محصول سنة واحدة ، وقد زرت شخصيا المناطق التي ذكرهـا الاخ ابراهيم عليان ، وشاهدت النتائج بنفسي ، لان مسؤولياتي كانت تشمل التعاون معه في الاشراف على الفروع التي ذكرها . وكنتيجة لهذه السياسة بدأ الفلاحون يلتفون حول الجمعية ، واذكر فرحـا حضرته في قرية « معليا » كان الفلاحـون فيه يهتفون للجمعية وسامي طه ، ذلك انهم قطفوا ثمار التنظيم في العمل الوطني . وقد لعب هذا الموضوع دوره ايضا في ايجاد التناقض بين الجمعية والاحزاب السياسية .

٣ ــ الجمعية والحزب : مثل موضوع الحزب على صعيد العلاقة بين الجمعية والاحزاب السياسية ، الشعرة التي قصمت ظهر البعير . ففي مؤتمر الجمعية عام ١٩٤٦ جرى نقاش حول ايجاد حزب للعمال يعبر عن رأيهم سياسيا . وكان داخل المؤتمر تيار يرفض الفكرة خوفا من وجود حزب جديد على غرار الاحزاب القائمة . ولكن التفاهم في النهاية كان كاملا بعد ان اتسع نطاق النقاش ، وفهم جميع اعضاء المؤتمر انه لا يمكن الوصول الى تحقيق المبدأ الاشتراكي الذي اقروه الا عن طريق حزب يعمل لوضع هذا المبدأ في حيز التطبيق . وحين عقد مؤتمر عام ١٩٤٧ تقرر انشاء مكتب عمالي يكون نواة للحزب. ذلك ان النقاش الذي دار في هذا المؤتمر رأى ان الجمعية لا تملك عددا كافيا من الكوادر النقابية تستطيع ان تستغني عنها لتتفرغ للعمل الحزبي ، خاصة وان هذا الحزب يجب ان يكون بقيادة النقابيين بالرغم من الاتفاق بان تكون عضويته مفتوحة امام اعضاء من خارج القطاع العمالي . فكان الاتفاق ان ترسل المناطق حين يتوفر لها عـدد كاف من النقابيين كل نقابي يستطاع الاستغناء عنه ، ليكون عضوا في المكتب العمالي الذي هو مكتب الحزب ، وان يبقى وجود هذا المكتب سريا ، الى ان يتقرر الاعلان عن وجـود الحزب . وقد ادى قرار الجمعية بالعمل لانشاء حزب عمالي الى زيادة حدة التناقض بينها وبين الاحزاب السياسية .

٤ ــ مواقف الجمعية السياسية : في عام ١٩٤٧ عقد المؤتمر الثاني للجمعية . وفي العام نفسه ايضا كانت هيئة الامم المتحدة تناقش القضية الفلسطينية. وقد اتخذ المؤتمر موقفا واضحا رفض فيه قرار التقسيم ، ولم يكتف المؤتمر بالرفض بل ارسل برقية الى الامم المتحدة تقترح حلا للمشكلة على اساس اعتبار اليهود الذين كانوا موجودين في فلسطين

قبل عام ١٩١٨ ومن توالد منهم مواطنين فلسطينيين ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويجلى عن فلسطين كل من دخل البلاد بعد ذلك دون رغبة اهلها ، وكان هذا الموقف يشمل اليهود وغير اليهود . وقد ارسل هذا الموقف باسم اعضاء المؤتمر الذين يمثلون ١٢٠ الف عامل منظم ، كل عامل منهم ينتمي الى عائلة تضم خمسة افراد على الاقل ، فيكون المجموع ٦٠٠ الف شخص ، فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان تعداد شعب فلسطين في ذلك الوقت لم يكن يتجاوز المليون نسمة ، ادركنا مدى اتساع نفوذ جمعية العمال ، ومدى ادراك الاحزاب التقليدية لضعفها امام هذه القوة النامية . وقد شنت حملة ضدنا بسبب هذا الموقف من اليهود الذين جاءوا الى فلسطين قبل عام ١٩١٨ .

هذه هي ابرز الاسباب التي ادت الى بروز تناقض بين الحركة النقابية ممثلة بجمعية العمال وبين الاحزاب السياسية التقليدية . فعلى ضوء هذا الواقع كان من حق الجمعية ان تشكل حزبا سياسيا ، وان تتكلم باسم الشعب الذي تلتف غالبيته حولها . وعلى ضوء هذا الواقع بدأت الاحزاب التقليدية تفكر بالسيطرة على الحركة العمالية او القضاء عليها . وكنتيجة لذلك دبرت عملية اغتيال سامي طه . وتفسير ذلك واضح ، اذ ان اي حركة رجعية ، تعتمد على الدجل وعلى الغوغاء وترفض فكرة التنظيم . والاحزاب السياسية التي كانت في فلسطين لم تكن احزابا وطنية ، ولم تكن احزابا منظمة على الاطلاق ، وكانت تعتمد اساسا على الولاء الشخصي ، الولاء لآل الحسيني ولآل النشاشيبي ولرؤساء البلديات وللمخاتير ... الخ . وقد انقادت الجماهير وراء هذه الاحزاب دون ان تجني من وراء ذلك اية مكاسب ، وحين بدأت جمعية العمال تحقق لهم المكاسب تركوا تلك الاحزاب والتفوا حولها . الحزبان الوحيدان الحقيقيان في تلك الفترة كانا الحزب الشيوعي ، وحزب الشعب الاشتراكي ، ولكنهما كانا حزبين ضعيفين ، ولم يقو الحزب الشيوعي نسبيا الا في الاربعينات .

س : من كان ابرز قادة حزب الشعب الاشتراكي ؟

ج : اعتقد ان هذا الحزب تشكل عام ١٩٤٤ ، وكان من اعضائه البارزين يوسف هيكل رئيس بلدية يافا ، واحمد الشقيري وفريد السعد .

س : هل حاول قادة هذا الحزب الاستفادة من جمعية العمال لصالحهم ؟

ج : لم يحصل ذلك ابدا والذين قادوا الجمعية حرصوا ان لا يفسحوا المجال امام اي حزب لاستغلالها . انما كانت للجمعية صداقات مع تيارات مختلفة من الجيل الجديد ، وخاصة بعض الشباب الذين تخرجوا من الجامعة الاميركية في بيروت ، وجاءوا ليقيموا في حيفا ونابلس وطولكرم ، مثل مالك المصري والدكتور صلاح العنبتاوي والسيد احمد الشقيري . وقد بدأ هؤلاء الشباب بمحاولات لاقامة عمل وطني بأساليب تختلف عن الاساليب السابقة ، وحين تأسس حزب الشعب الاشتراكي ، حاول قادته اقامة صداقات مع الحركة العمالية ، ولكن لم يكن هناك اي انتماء من قبل الجمعية لهذا الحزب . وحين قررت الجمعية انشاء حزب عمالي ساد تصور لدى بعض القيادات الرجعية ، ان هذا القرار مرتبط بقرار انشاء حزب الشعب الاشتراكي ، واستنتجوا ان الجمعية اصبحت خاضعة لهذا الحزب .

س : هل كانت هناك جمعيات نقابية اخرى . وكيف كانت العلاقة معها ؟

ج : كانت هناك « جمعية العمال العرب » في يافا . ومؤسسها ميشيل متري كان يعيش في الارجنتين وتعلم هناك ، وكان يقال ان اتجاهه شيوعي . وقد قامت هذه الجمعية بعد خطاب بن غوريون الذي تحدثت عنه ، والذي دعا فيه الى عبرية العمل ، بتشكيل لجان عربية في يافا مقابلة للجان الدفاع عن العمل التي شكلها الهستدروت ، داعيا الى تعريب العمل . واذكر ان شركة « سوليل بونيه » اخذت تعهدا في مدينة يافا لبناء

مدرسة في منطقة عربية ، فجاء ميشيل ببعض عمال جمعيته المنظمين وضربوا العمال اليهود ، واجبروا الحكومة على سحب التعهد من الشركة اليهودية واعطائه لشركة اخرى عربية .

س : ذكرت اربعة اسباب اساسية ولدت التناقض بين الحركة العمالية والاحزاب . ويقال ان موقف الجمعية المؤيد للمشروع الانشائي الذي اقترحه موسى العلمي كمشروع مضاد لمشاريع الحاج امين الحسيني كان من ابرز اسباب الخلاف ، وهو الذي ادى بشكل مباشر الى اغتيال سامي طه . ما هو رأيك بذلك ؟

ج : طرحت على مؤتمرنا في عام ١٩٤٧ ثلاثة مشاريع ، مشروع لجامعة الدول العربية ، ومشروع صندوق الامة الذي تتبناه الهيئة العربية العليا ، والمشروع الانشائي الذي طرحه وتبناه موسى العلمي ، والذي كانت تؤيده بعض الدول العربية ومنها العراق . وقد درست هذه المشاريع الثلاثة لجنة خاصة وعرضت تقريرها على المؤتمر ، حيث نوقش ووفق عليه . وكان التقرير يدعو الى تأييد المشاريع الثلاثة باعتبار انها كلها تخدم القضية الفلسطينية . فالجامعة العربية كانت تقول انها مستعدة لشراء الاراضي العربية من كل شخص يريد ان يبيع . ومشروع الهيئة العربية العليا كان يطالب بأن يساهم جميع العرب في تدعيم « صندوق الامة » والصندوق يقوم بشراء الاراضي . اما مشروع سامي العلمي فكان يدعو الى مساعدة الفلاح على تحسين اراضيه وزراعته ، والعمل على بناء قرى حديثة قادرة على مواجهة المستعمرة اليهودية ، لان شراء الاراضي يشجع الفلاح على البيع والهجرة . وقد رأينا ان المشاريع الثلاثة مفيدة وايدناها . ولذلك لا يمكن القول ان موافقة الجمعية على المشروع الانشائي كانت السبب في بروز التناقض ، فقد ايدنا ثلاثة مشاريع وليس مشروعا واحدا . وكذلك ايضا لا أعتقد ان هذا كان السبب وراء اغتيال سامي طه ، اذ كان من الاولى اغتيال موسى العلمي صاحب المشروع نفسه . لقد كانت هناك حساسية كبيرة بين موسى العلمي وبين الحاج امين الحسيني . وكان الحاج امين يعارض مشروع العلمي لكي يقوى مشروعه هو في الجامعة العربية وينال الموافقة . وقد كان هناك شك بأن موسى العلمي من جماعة حزب الشعب الاشتراكي ، وانه الرئيس الحقيقي للحزب . ومن المفيد هنا ان اذكر ان بعض اعضاء المؤتمر لمحوا الى ان تأييد هذا المشروع سيقود الى بروز خلاف بيننا وبين الهيئة العربية العليا .

س : هل صحيح انه بعد الموافقة على المشروع الانشائي ، من ضمن المشاريع الاخرى كما اوضحت ، انسلخت بعض النقابات عن جمعية العمال ؟

ج : هذا ليس صحيحا . بل بالعكس من ذلك انتشر التنظيم العمالي على مستوى فلسطين كلها ، وساد جو من التفاخر بالانتساب الى « العمال » والى الجمعية ، واصبحنا نرى « مطعم العمال » و « كراج العمال » في كل بلد من فلسطين ، كدليل على التأييد .

س : في لقاء مع السيد فياض ريال قال انه كان رئيسا لنقابة البقالين العرب بحيفا ، وان نقابته من النقابات التي انسحبت من الجمعية .

ج : لم يكن يوجد في الجمعية نقابة اسمها نقابة البقالين . كان هناك فقط جمعية للتموين ضمن الجمعيات التعاونية التي انشأتها الجمعية ، وهذه الجمعية كان يمولها بنك الانشاء والتسليف .

س : قلت انك تقسم تاريخ الجمعية الى خمسة مراحل . لنتحدث الان عن المرحلة الخامسة .

ج : المرحلة الخامسة هي مرحلة ضعف الحركة العمالية في فلسطين ، وخاصة بعد

اغتيال سامي طه ، وبعد الاحداث التي تلاحقت وانتهت بنكبة ١٩٤٨ .

س : ما هي الاحداث البارزة في هذه المرحلة ؟

ج : بعد مقتل سامي طه عشنا في جو ارهابي ، وكانت لدينا اخبار تقول ان اي شخص تعينه الجمعية بديلا لسامي طه سيقتل ايضا . في هذا الجو اجتمعت اللجنة التنفيذية بعد تشييع الجنازة مباشرة ، للبحث في الموضوع ، فرشح احد الاعضاء السيد يعقوب الحسيني الذي كان يعمل في جمارك حيفا كخلف لسامي طه . وكان الترشيح على اساس ان هذا مطلوب من الحاج امين الحسيني ، وقد عارض اعضاء اللجنة الطلب بشدة ، وتعاهدوا ان يحملوا الراية ، وان يسيروا بالحركة العمالية لتصبح اقوى مما كانت عليه . واتفقوا على اختيار الدكتور عمر الخليل ليتولى رئاسة الجمعية . والدكتور عمر الخليل من مواليد بيسان ، وابن عامل في سكة الحديد ، كان يعمل مفتشا في قسم الهندسة . وقد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٣٧ ، وكان مقيما في حيفا وصديقا لسامي طه . وكانت عيادته مفتوحة دائما للعمال ، وكان لذلك موضع ثقة الجميع . وكان الدكتور الخليل مؤسسا لجمعية تدعى « جمعية الفلاح » ، ولذلك كان هناك تقارب بين الجمعية وبين نشاطاته . ولكن للاسف لم يتمكن الدكتور الخليل من حضور اي جلسة من جلسات جمعية العمال .

س : قلت ان الاضرابات الناجحة التي قادتها الجمعية لعبت دورا بارزا في توسيع نفوذها في ايجاد تناقض بينها وبين الاحزاب العربية . هل يمكن التوسع قليلا في هذه القضية ؟

ج : حول اضراب عمال المعسكرات الذي تحدث عنه الاخوان اريد توضيح بعض النقاط لان موقف الجمعية من هذا الاضراب استغل ضدها ، وبرزت شائعات تقول ان الجمعية عميلة لبريطانيه ، لانها عارضت اضرابا ضد الحكومة . وقد تعززت هذه الشائعات بسبب دعاية الهستدروت ، وبسبب موقف بعض القوى التقدمية التي كانت تروج لشعار « وحدة الطبقة العاملة » . لقد كان واضحا تماما للجمعية ان هدف الهستدروت من وراء تنفيذ الاضراب ليس تحقيق مصالح العمال ، مع ان التركيز الاعلامي كان حول هذه المصالح . لقد كان الهدف متركزا حول التمثيل . من يمثل الطبقة العاملة الفلسطينية ؟ جمعية العمال ام الهستدروت ؟ وقد بين الاخوان في حديثهم تعاون الضباط البريطانيين مع الهستدروت لانجاح الاضراب . وبسبب وعي الجمعية الكامل لهذه القضية ، بسبب وعيها لاهمية التمثيل السياسي للعمال في ذلك الوقت وقفت ضد الاضراب .

وتوضيحا لاضراب ١٩٤٦ الذي اشار اليه الاخ ابراهيم عليان ، اقول ان هذا الاضراب كان شاملا ، وقد بداه العمال ، ثم شارك به الموظفون ، شمل جميع المؤسسات الخاصة والدوائر الحكومية . وقد بدأ الاضراب في يافا وانطلق من نقابة عمال البريد . وسببه المباشر ان رئيس النقابة السيد محمود عيسى تقدم بطلب لارجاع عامل كان قد فصل من عمله ، فرفض مدير الدائرة البحث بالموضوع واخبره انه لا يعترف بجمعية العمال ، فاعلنت نقابة عمال البريد في يافا الاضراب احتجاجا على ذلك ، فجاء الجيش واشرف على تسيير العمل بنفسه ، فاجتمع مجلس النقابات في يافا ، وقرر بعد استشارة المركز الرئيسي في حيفا (في موضوع الاضراب كان من الضروري استشارة المركز الرئيسي) اعلان الاضراب العام . فبدأت كل نقابة تضرب تضامنا مع نقابة عمال البريد . وكان الاسلوب المتبع في ذلك الوقت يقضي بتقديم طلب عاجل لبحث موضوع ما ، وتحديد وقت لاستلام الجواب ، فاذا كان الجواب سلبيا يعلن الاضراب . وحين شمل الاضراب كل مدينة يافا وسع الجيش نطاق تدخله واشرف على تسيير العمل في جميع المرافق العمالية . ولكن الاضراب اتسع وشمل الموظفين ايضا ، ولم يعد بامكان الجيش ان يوفر

العدد اللازم لتسيير العمل . كان للموظفين لجنة خاصة بهم ، مستقلة عن جمعية العمال ، أعلنت الاضراب بناء على طلبات خاصة بها . وقد استغلت الحكومة هذا الوضع (اذ كانت دائما تحاول الفصل بين الموظفين والعمال) فطلبت مفاوضة الموظفين ، وحين استجابت لقسم من طلباتهم اعلنوا حل الاضراب ، ولكن ذلك لم يؤثر على الوضع العام ، واستمر الشلل يعم كافة المؤسسات والدوائر ، فاضطرت الحكومة ان تتراجع وتدخل في مفاوضات مع الجمعية للبحث في مطالب العمال . ان نجاح الجمعية في الاضرابات التي كانت تدعو اليها يعود الى حرصها الشديد على ان لا تقدم على اي اضراب ، في القطاع الخاص او في دوائر الحكومة ، الا بعد أن تستنفد كل وسائل المفاوضات ، ثم توزع منشورات في كل انحاء البلاد تشرح فيها ما تقدمت به من طلبات ، ورد الجهة المعنية على ذلك ، لتهيىء الجماهير للاضراب وتقنعها بضرورته . ولذلك كان كل اضراب يعلن ، مفهوما ومؤيدا من قبل الجماهير سلفا .

واود اخيرا ان اتحدث عن اضراب عمال المحاجر في مجدل الصادق . مجدل الصادق قرية عربية من قضاء الرملة . الارض عربية . الجبال التي تضم المحاجر ملك للعرب . اما المحاجر نفسها فهي لشركة « سوليل بونيه » التابعة للهستدروت . كان يعمل في هذه المحاجر عمال عرب ويهود . وكان هناك قسم من المحاجر مخصص فقط للعمال اليهود على اساس العمل العبري . من ضمن سعي الجمعية لتحطيم فكرة عبرية العمل ، تقدمت بمطالب تتعلق بعمال المحاجر العرب ، ومن جملة هذه المطالب عدم تخصيص مناطق للعمال اليهود فقط ، وضرورة مشاركة العمال العرب في جميع اقسام العمل . وقاد مكتب العمل المفاوضات في البداية ، وحين فشلت كل تدخلاته ، تقرر اللجوء الى الاضراب ، وبالفعل اعلن الاضراب ، واختير يوم سبت لتنفيذه لسببين : الاول ان هذا اليوم هو يوم عطلة العمال اليهود ، والثاني ان جير الافران يتلف اذا بقي مدة اطول من اللازم داخلها . يوم الاحد جاء العمال اليهود ليواجهوا بالاضراب . اصروا على رفض الاضراب ، وهدد العمال العرب بأن استمرارهم بالعمل يعني قيام مذبحة بين الطرفين ، فذهب العمال اليهود واستنجدوا بالشرطة ، وجاءت الشرطة لتقول لا علاقة لاضرابكم بالعمال اليهود فدعوهم يمارسون عملهم ، وكان رد العمال العرب ان هدف الاضراب الرئيسي هو رفض عبرية العمل ، ونشب على اثر ذلك خلاف حاد ، تدخل فيه للاسف رئيس بلدية عربي ، وحاول حتى رشوة مسؤولي فرع الجمعية في نابلس باعتباره مشرفين على الاضراب . في اليوم التالي جاءت الشرطة الخيالة ، فهددهم العمال بأن اي تدخل من قبلهم سوف يعني الاشتباك مع العمال المسلحين والمنتشرين في الجبال فتراجع رجال الشرطة ، وردت الحكومة على ذلك بمحاصرة المنطقة بالدبابات ، فما كان من العمال الا ان افترشوا الارض ، وابلغوا المسؤولين ان الدبابات لن تمر الا من فوق اجسادنا . وامام هذا الاصرار تراجعت القوة العسكرية ، وبدأت مفاوضات طويلة مع الحكومة . واثناء هذه المفاوضات قدمت مغريات شديدة ، منها « شيك » مفتوح باسم سكرتير الجمعية في نابلس ، ومساومات تعلن الاستعداد للموافقة على كل طلبات العمال ، باستثناء طلب مساهمتهم بالعمل في المناطق المخصصة للعمال اليهود . وقد صمدنا امام كل ذلك ، وتوج صمودنا بالانتصار .

س : هل فاوضتم الحكومة لاقرار تشريع عمالي ؟

ج : لم يصدر في فلسطين اي تشريع عمالي . التشريع كان يفرضه العمال . وفي كثير من الدوائر والشركات توصل العمال الى عقد اتفاقية تقوم مقام القانون . وفي عام ١٩٤٦ صدر مشروع قانون للعمل . وفيما بعد وضع قانون العمل الاردني بالاستناد اليه .

س : ماذا كان وضع الجمعية في اضراب عام ١٩٣٦ ؟

ج : عاشت الجمعية في تلك الفترة حالة من الشلل ، اذ التحق عدد كبير من العمال بالثورة ، ولم تشارك الجمعية بصفة رسمية في تشكيل لجان للدعم . اما في عام ١٩٤٧ ، فقد شاركت الجمعية بشكل فعال وقيادي باللجان القومية والمحلية ولجان الدفاع المدني .

س : هل تعرض سامي طه بسبب هذه النشاطات لاي اعتقال ؟

ج : اعتقل لفترة قصيرة في عام ١٩٣٧ ، مع عدد كبير من العاملين في الحقل الوطني ، وذلك بعد اغتيال « اندروز » في لواء الخليل .

التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني

(عهد الانتداب)

بقلم

نبيل أيوب بدران

منشورات مركز الابحاث في م. ت. ف.

ص.ب ١٦٩١

بيروت

سعر النسخة ٣ ل.ل. تضاف اليها اجور البريد الجوي : ٧٥ ق.ل. في العالم العربي ، ١٥٠ ق.ل. في أوروبه ، ٣٠٠ ق.ل. في سائر الدول

مراجعـــات

Robert Misrahi, **Marx et la question juive**
(Collection «Idées»).

تشهد حركة النشر في فرنسا حاليا فيضا متزايدا من الكتب التي تحاول ان تعالج مسالة معاداة السامية من وجهة نظر خاصة جدا . ذلك انه بعد أن كانت تهمة معاداة السامية تلصق عادة بالقوى الاجتماعية ،اليمينية والفاشية (وطبعا النازية) أصبح الان لليسار حصته الكبرى من هذه الاتهامات فأصبح هناك نوعان من « معاداة السامية » : — « معاداة السامية » **من مواقع يمينية** وهذا النوع قد بات مبتذلا لكثرة ما كتب فيه وعنه ودخل الان ، بالنسبة الى الوعي (أو اللاوعي ، لا فرق) الغربي ، الى حدود البديهيات والمسلمات واصبح مجرد محاولة اعادة البحث فيها خطيئة ضد الفكر وضد الانسانية وضد الحضارة . ويكفي ان نذكر ان اخطر تهمة يمكن ان توجه الى رجال الفكر والسياسة في الغرب هي تهمة معاداة السامية حتى ندرك مدى تسلط الارهاب المعنوي والفكري على العقول والقلوب هناك . ولا عجب في ذلك فالامر لا يعدو كونه ردة فعل طبيعية ، وقد تكون مفهومة ومقبولة ، لموقف الغرب تاريخيا من العرق السامي وبشكل أخص من اليهود ، هذا الموقف الذي وصل الى منتهى عنصريته وهمجيته من خلال النازية التي هي في التحليل الاخير تجسيد عملي لجانب من جوانب الغرب الرأسمالي . كل هذا بات الان معروفا لجميع المتتبعين للمسالة اليهودية كما انه قد اثار العديد من المناقشات والمجادلات الحامية في الاوساط الغربية وخاصة في فرنسا بعد عدوان الخامس من حزيران . ولا مجال هنا للكلام عن هذا الموضوع ولكننا نكتفي فقط بالاشارة الى ان الكلام عن معاداة السامية كان يعلو ويهبط ، لا وفقا لاعتبارات فكرية او اخلاقية او انسانية ، بل خدمة لبعض المواقف السياسية المتعلقة ، من قريب او بعيد ، بدولة اسرائيل وبالصراع العربي — الاسرائيلي . ومن هنا طابعها المبتذل الواضح .

— ثم هناك « معاداة السامية » **من مواقع يسارية** . وهذه بدعة جديدة بدأت الان تحتل حيزا واسعا من « اهتمامات » حركة النشر الفرنسية اذ انه في خلال سنة واحدة صدرت عدة كتب عنها نذكر منها على سبيل المثال : « اليهود في الاتحاد السوفياتي » « معاداة السامية بدون يهود » « التطهير » « اليسار والصهيونية » واخيرا لا اخرا « ماركس والمسالة اليهودية » الذي نحن الان في صدد معالجته والذي ينخرط ضمن التوجيه الفكري والاعلامي الجديد الذي يحاول ان يعيد الى « معاداة السامية » توتها وارهابها وبعث الحياة فيها واعادة استخدامها ولكن ضد اليسار ، وضد اليسار فقط ، هذه المرة .

يقول روبير مزراحي في مقدمة الكتاب « ان معاداة السامية ، سواء أكانت موجهة ضد يهود الحالم على اساس انهم يشكلون **مجموعة دينية** ام ضد **الاسرائيليين** على اساس « تنامي » انهم يهود ، تشكل العقبة الاساسية (!) في بناء مجتمع عادل ، ايا كان هذا المجتمع » (ص ٨) . ثم يضيف فيما بعد : « ان هذا التحليل ... الذي سنقوم به الان يهدف الى فضح معاداة السامية عندما لا تكون ظاهرة وتسليط الاضواء عليها عندما تكون مخبأة وغامضة ومشوهة اي **اثبات** ان هناك ، في هذا الفكر او تلك الممارسة ، معاداة واقعية (وان لم تكن معلنة) للسامية » .

لعلنا لا نغالي اذا قلنا ان مثل هذه الافكار المسبقة التي اوردها الكاتب الصهيوني قبل قيامه بـ « تحليله » تشكل حجر الاساس في كل مقولاته وفرضياته فهو من جهة يحصر معاداة السامية في معاداة اليهود كجماعة دينية وفي معاداة الاسرائيليين بصفتهم يهودا دون ان يحاول اعطاءنا ، من اول

الكتاب الى اخره ، ولو تحديدا واحدا « لمعاداة السامية » . ومن جهة ثانية ينطلق من فرضية غريبة مؤداها ان هناك عداء للسامية غير واضح وغير معلن وان هدفه في هذا الكتاب هو بالضبط كشف هذا العداء وتوضيحه واستخراج مبادئه وأسسه ، اي بكلمة اخرى السعي الى صياغة القواعد الفكرية والعقائدية والبحث عن الجذور التاريخية لما يسميه المؤلف بالمعاداة اليسارية للسامية . أما كيف استطاع ر. مزراحي ان يصل الى غايته ، اي ان يوهمنا بانه « اكتشف » الجذور الفكرية والتاريخية للعداء اليساري للسامية ، فعن طريق التركيز على كتيب صغير كتبه ماركس في شبابه عن المسألة اليهودية وهو كتيب يتعرض فيه ماركس للقضية اليهودية بشكل عابر دون اية دراسة تحليلية اجتماعية او خلفية تاريخية دون ان يؤثر هذا النقص ، على كل حال، على صحة المقولات التي ساقها في هذا المجال . من هذا الكتيب ينطلق المؤلف ليبني نظرية متكاملة تعتمد على المنطق (الشكلي طبعا) ، وتهدف الى وضع ماركس في قفص المتهمين بالعداء اليساري للسامية (من المفيد هنا ان نذكر ان ماركس هو يهودي الاصل لندرك كيف ان المضمون الحقيقي لهذه التهمة يتعدى الفكر اليميني الرجعي العنصري ليرتبط بكل مفكر يعادي الصهيونية والدولة الاسرائيلية) . ولكن قبل ان نذهب بعيدا في تقييماتنا لا بد من عرض سريع لاهم محتويات هذا الكتاب .

هناك فكرتان اساسيتان يدور الكتاب حولهما :

١ ـ الفكرة الاولى هي اتهام اليسار (كل اليسار) بالعداء للسامية لانه « يريد من اليهودي أن يكون « انسانا » كبقية الناس ، لا فرق بينه وبينهم ... اي ان يكون شريكا غير مميز فيصبح رجل اعمال كبقية رجال الاعمال ، وموظفا كبقية الموظفين ، ومثقفا كبقية المثقفين ... » (ص ١١). هكذا اذن اصبحت ارادة المجتمع الغربي في رؤية اليهودي يندمج في كل نشاطاته ويخضع لكل متطلباته معاداة للسامية بعد ان كانت هذه الاخيرة تنحصر في رفض الاعتراف والقبول باليهود في مجتمعهم . ولو كان الامر مجرد احتفاظ اليهود بخصوصيتهم وفرديتهم وطابعهم الخاص لهان الامر ولربما كان العقل المتسامح مستعدا لتقبله . الا ان المدهش والغريب فعلا في المسألة هو ان الكاتب يعتبر الاحزاب اليسارية معادية للسامية لانها تفرض على المناضلين اليهود ان يتخلوا عن يهوديتهم ولا تسمح لهم بالانضمام الى صفوفها الا بعد ان يعلنوا حربا شعواء على الصهيونية ! وهكذا يتضح شيئا فشيئا الهدف الاساسي من هذه الدراسة : الخلط المتعمد بين اليهود واسرائيل وبين اليهود والصهيونية وكل ذلك من اجل الدفاع عن الصهيونية ، وعن الصهيونية وحدها ، باعتبارها في نظر الكاتب ، الحل الوحيد المقبول لما يسمى بالمسألة اليهودية . لا بل ان الدفاع عن الصهيونية وعن اسرائيل يصبح اهم من الدفاع عن اليهود ، خاصة وان تهمة معاداة السامية تلصق كذلك بالكثيرين من اليهود التقدميين (كاسحق دويتشر مثلا) وكذلك باليسار العربي وبشكل اخص يسار المقاومة . (يتهم مزراحي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالعداء للسامية لان « القراصنة » احتجزوا ركاب الطائرات المخطوفة من اليهود لانهم يهود وليس لانهم اسرائيليون على حد زعم الكاتب . الا انه يتجاهل، في عملية تضليلية لا مثيل لها ، ان هؤلاء اليهود كانوا يحملون الجنسية الاسرائيلية كذلك) وكلنا يتذكر الجدال الحامي الذي دار في فرنسا حول ازدواجية الولاء عند اليهود الفرنسيين . وفي هذا الصدد يحاول مزراحي تبرير هذا الواقع فيدعي بأن اليسار لم يفهم الفرق بين ازدواجية الجنسية وازدواجية الولاء ، اذ انه يتهم اليهود الموالين جدا لاسرائيل بالانتماء الى غير وطنهم « في حين أن هذا اليسار لا يفكر ابدا باتهام التونسيين او اللبنانيين مثلا بخيانة ولائهم لاوطانهم لانهم يتعاطفون مع الفلسطينيين » . لا شك ان المنطق الشكلي كما تعلمنا اياه المدرسة السفسطائية يتسم بقدرة فائقة على تجاوز الواقع وتشويهه وفرض استنتاجات لا علاقة لها بالمعطيات الاساسية والمقدمات المفترضة . الا اننا لم نكن نظن ان لهذا المنطق كذلك مثل هذه القدرة على التضليل والتشويه دون احترام حتى الشكل . فالمنطق الذي يقدمه لنا مزراحي هنا لا يحترم حتى قواعد المنطق الشكلي واصوله . انه بكلمة واحدة : لا منطق اذ اين وجه الشبه بين يهودي فرنسي يعطي كل ولائه لاسرائيل وبين عربي تونسي او لبناني يتعاطف مع الفلسطينيين؟ ان العرب في كل اقطارهم لا يعترفون بالتجزئة الحالية ويعلنون دائما تمسكهم بالوحدة ومن هنا فان ولاءهم لقوميتهم العربية يأتي قبل ولائهم للكيانات المصطنعة دون أن يطرح هذا

اية مشكلة ، اما اليهودي الفرنسي ففي وضع مختلف تماما اذ ان هناك تعارضا واضحا بين مصلحة وطنه ومصلحة اسرائيل اذ لا شيء يجمع بينهما على الاطلاق . ولجوء مزراحي الى هذا التشبيه لتبرير ازدواجية الولاء اليهودي ما هو الا من قبيل التمويه خاصة وان اوروبا لا تعترف ولا تريد ان تعترف بالقومية العربية والتيار الوحدوي في الوطن العربي .

ثم أن العداء للسامية اختراع اوروبي لم تعرفه بلاد الشرق ابدا اذ من غير المعقول ان يكون العرب معادين للسامية وهم انفسهم ساميون . اما العداء لليهودية فمسالة مختلفة لها اسبابها في بعض الشاحنات الدينية والطائفية التي كانت تظهر بين الحين والاخر . فكما كان هناك احيانا عداء بين هذه الطائفة الدينية وتلك ، كذلك كان هناك احيانا عداء بين اليهود كطائفة دينية وبين غيرهم من الطوائف . اما ان يسمى هذا العداء معاداة للسامية فتمييز خطير واعتراف يتفوق الشعب اليهودي وخصوصيته وفرادته واستخفاف ببقية الفئات الدينية والاجتماعية التي لاقت الاضطهاد نفسه والعداء نفسه . وهذا المنطق يؤدي في النهاية الى عنصرية مقيتة تتلخص في الاحتجاج فقط على الاضطهاد الموجه ضد اليهود واعتبار الاضطهاد الاخر الموجه ضد الاخرين لا قيمة له على الاطلاق . لماذا ؟ هل لان اليهودي من طينة غير طينة الاخرين ؟ كل ما نستطيع ان نقوله ان هذا ما تؤمن به الصهيونية وهذا ما تؤمن به ايضا النازية .

٢ — اما الفكرة الثانية في هذا الكتاب فتدور حول ما يسميه مزراحي عداء ماركس للسامية وذلك من خلال كتيبه « المسالة اليهودية » الذي هو عبارة عن رد سريع على نظرة باور الى هذه المسالة نفسها . يقول المؤلف : « بالنسبة الى العالم اللاهوتي المسيحي برونو باور كما بالنسبة الى عالم الاجتماع كارل ماركس ، ينبغي القضاء على اليهودي باية وسيلة كانت وباية نظرية . وكتيب « المسالة اليهودية » ليس الا دعوة الى الجريمة ودعوة الى ابادة الجنس » (ص ٦٢) . هل صحيح اذن ان ماركس كان يكره اليهود وهو اليهودي الاصل ؟ ان عودة الى كتيب ماركس نفسه والى النص الاصلي توضح لنا كيف تنعدم الامانة والموضوعية عند مزراحي وكيف يحمل الكلمات فوق ما تحمله . يقول ماركس : « ان التحرر السياسي لليهودي وللمسيحي يكمن في تحرر الدولة من اليهودية ومن المسيحية » (ص ٢١) هذه الجملة تحولت عند مزراحي الى « دعوة الى الجريمة والى ابادة الجنس » (الجنس اليهودي طبعا) . وهنا يحق لنا ان نتساءل : لماذا لم يشر مزراحي الى دعوة ماركس المزعومة الى ابادة المسيحيين كذلك ؟ هذا اذا افترضنا ان هناك مثل هذه الدعوة . لماذا لا يشفق ولا يغضب الا لليهود ؟ ان ثورة الكاتب الصهيوني ضد ماركس هي في الحقيقة ثورة ضد الموقف الثوري الذي اتخذه ماركس من القضية اليهودية وهو موقف مغاير تماما ومناقض جذريا للموقف الصهيوني . وهو لا يخفي غضبه لذلك وكأن تهمة معاداة السامية قد الصقت به لانه رفض ان يتكلم عن حل صهيوني للمسالة اليهودية (انظر ص ٣٢ — ٣٣) .

وهنا من الضروري توضيح بعض النقاط التي تعمد الكاتب تجاهلها ليسهل امامه مهمة اتهام ماركس بالعداء للسامية . فهو اولا يركز تركيزا ملفتا للانتباه على كلمة « يهودية » دون ان يحاول اطلاعنا على المضمون الحقيقي الذي يعطيه ماركس لهذه الكلمة . انها تعني في قاموس الماركسية ، بالدرجة الاولى ، دورا اقتصاديا معينا تقوم به طبقة معينة من الرأسماليين كما تعني ايضا الثقافة المسيحية السائدة والتي هي امتداد وتحقيق لليهودية . اذن فاليهودية عند ماركس ليست مجرد ديانة سامية بل هي قبل كل شيء ايديولوجية الطبقات الاوروبية المسيطرة . وهذا ما يحاول مزراحي طمسه وتشويهه .

ومزراحي كذلك يرفض اعتبار المسالة اليهودية مسالة كغيرها يمكن ان تحل من خلال عملية تحرير الانسانية من الاستغلال بل يصر على اضفاء طابع الخصوصية والفرادة عليها . فلا عجب والحالة هذه من أن نراه يتهم ماركس بالعداء للسامية لمجرد ان هذا الاخير يرفض ايجاد « حل خاص » للمسالة اليهودية . وموقف مزراحي هذا هو في الحقيقة تشجيع وتحريض على دعم مواقف وحجج المعادين للسامية الذين كانوا دائما ينطلقون من خصوصية اليهود وعدم قابليتهم للتكيف مع غيرهم ليتمكنوا من اضطهادهم . وهذا الالتقاء المريب بين أعداء اليهود وبين من يدعون الدفاع عنهم بين

لنا كيف ان الصهيونية في نهاية المطاف ، ورغم كل الادعاءات والمظاهر ، هي الحليف الاعز للمعادين للسامية ، وهي ، موضوعيا ، المستفيدة الوحيدة من وجود هذه الظاهرة . وما جهودها المتواصلة للحفاظ عليها وتأجيجها وتطويرها مع مفاهيم العصر الا من قبيل خلق حاجز في وجه العقل الاوروبي ومنعه ، عن طريق الابتزاز الفكري وعن طريق التهديد بتهمة العداء للسامية ، من رؤية حقيقة المسألة اليهودية وايهامه بان كل يهودي هو صهيوني وان أي انتقاد للصهيونية هو العداء للسامية بالذات .

الا أن مثل هذه المغالطات قد فقدت الان الكثير من تأثيرها وفاعليتها كما أن اليسار قد تحرر ، او يكاد ، كليا من هذا الارهاب الفكري وهذا ما يفسر لنا الى حد ما حرص مزراحي ، ومن ورائه منظرو الصهيونية ، على افتعال نوع جديد من العداء المبطن للسامية يوهمون الناس بأنه يوجه بشكل واع او لا واع كل مواقف اليسار المعادي للصهيونية . وقد ظن انه قد وجد هذا النوع الجديد في ما كتبه ماركس نفسه عن المسألة اليهودية بشكل عابر . وقد سبق وبينا تهافت مثل هذا المنطق بسبب ارتكازه على منطلقات خاطئة ومغالطات مقصودة .

وكان كل هذا لم يكف فاذا بالكاتب يفاجئنا بمقولة جديدة وغريبة مؤداها ان معاداة ماركس للسامية مردها الى عقدة بالذنب بسبب تربيته ونشأته وما الى ذلك من « تحليلات نفسية » لا تقوم على اي اساس علمي او موضوعي ومن غير المفيد التوقف عندها بالرغم من أن الكاتب قد كرس لها قسما كبيرا من كتابه . الا أن ما نستطيع ان نعلق عليه في هذا الصدد هو ان هذا « التحليل النفسي » ليس في الحقيقة سوى وسيلة تضليلية يحاول مزراحي بواسطتها أن « يدرس » الاسباب النفسية العميقة لسلوك ماركس المعادي للسامية وكأن هذا التصرف قد بات امرا مؤكدا وثابتا ومفروغا منه وغير قابل للنقاش !..

ان كل ما جاء في الكتاب حتى الان يمهد الطريق أمام القارىء لكي يقبل بالمقولة الصهيونية التالية:

« ان هناك تناقضا مطلقا بين الاشتراكية ومعاداة السامية . لذلك تنبغي محاربة كل ظاهرة يسارية معادية للسامية بدون هوادة » حتى يتمكن المجتمع غدا من ان يكون اشتراكيا بدون ان يكون معاديا للسامية » . ان الصراع ضد المعاداة اليسارية للسامية يجب ان يكون عنيفا جدا لان هذه الظاهرة خفية وباطنية وغير معلنة على الرغم من انها تظهر احيانا عند بعض المنظرين الماركسيين امثال دوبنشر وكيتشكو (ص ٢٤٢) يجب اذن العمل على تحرير الماركسية من كل معاداة للسامية . ذلك أن « **نهاية معاداة السامية** (وهنا في رأينا الغاية الرئيسية من هذا الكتاب) **تعني ايضا نهاية المعاداة للصهيونية** » (ص ٢٤٨) . ان كل الاتهامات والتركيبات المنطقية الشكلية التي يحتويها هذا الكتاب تجد معناها وتفسيرها في هذه الجملة الاخيرة . وعلى هذا الاساس يتجرأ مزراحي على التأكيد مرة اخرى بأن ماركس لم يكن « ماركسيا » (هكذا) في نظرته الى اليهود لانه لم يكن صهيونيا ! وهذا يعني ان الصهيونية هي الاساس وأن معاداة الصهيونية اصبحت تعني الان معاداة السامية . واذا ما اخذنا بهذا المنطق فاننا سنصل الى يوم تلصق فيه تهمة معاداة السامية حتى باليهود الاسرائيليين ، وبشكل خاص الشرقيين ، الذين قد يثورون يوما على المؤسسة الصهيونية .

ان هذا الكتاب يلخص كل الايديولوجية الصهيونية ازاء المسألة اليهودية وازاء موقف اليسار منها . انه يمثل اخر محاولات الدفاع عن النفس التي تقوم بها الصهيونية امام انفضاح أمرها لدى اليسار العالمي . وهو من هذه الزاوية يمثل اخر ما وصل اليه الفكر الصهيوني في دفاعه عن نفسه وهو ، كما نرى ، فكر بدأ يتخلى عن كل اقنعته « اليسارية » ويكشف عن هويته الحقيقية وعن موقعه المحدد في محاربة الاشتراكية وحركات التحرر وكل الفكر اليهودي التقدمي المعادي له . من هنا اهميته ومغزاه بغض النظر عن قوته الاقناعية المحدودة وتداعي بنيانه الفكري والمنطقي.

ماجد نعمه

Walter Hollstein: Kein Frieden um Israel - Zur Sozialgeschichte des Palastina - Konflikts - (Fischer)

لكتاب البروفسور فالتر هولشتاين (لا سلام حول اسرائيل : التاريخ الاجتماعي للنزاع الفلسطيني — أو العرب والتحدي الصهيوني) قصتان ، قصة تأليفه واخراجه ونشره وقصة مواده ومضمونه ، ولنبدأ بالقصة الاولى : في اواخر ١٩٦٩ عكف البروفسور فالتر هولشتاين — وهو استاذ جامعي سويسري يعمل في برلين الغربية — على وضع كتاب عن مشكلة فلسطين كنموذج لصراع اقتصادي واجتماعي بين الحركة الصهيونية وحركة الاستقلال الوطني العربية . وكان هدفه من وضع الكتاب ابراز الطابع الاستيطاني الاستغلالي في التطبيق الصهيوني وفضح الوجه الرأسمالي الامبريالي للحركة الصهيونية التي استعملت المشكلة اليهودية في اوروبا وروسيا لاقامة مجتمع عنصري شوفيني في فلسطين .

قبل الاقدام على وضع الكتاب قام المؤلف بزيارة عدد من الدول العربية من اجل جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالمشكلة ، وفي اثناء هذه الزيارات درس عن قرب الواقع الاجتماعي والسياسي لحركة المقاومة الفلسطينية ، وفي مكاتب الاعلام العربية الرسمية اطلع على مواقف الدول والحكومات العربية من النزاع العربي — الاسرائيلي وتجمع لديه كمية هائلة من المواد الاولية والمراجع الاصلية .

في اواخر عام ١٩٧٠ وبعد عودة المؤلف من زيارة للقاهرة وعمان وبيروت بدأ كتابة الكتاب وانتهى من تأليفه في اواخر عام ١٩٧١ ، ثم عرضه على دار فيشر الالمانية للنشر ، وهي اكبر دار نشر المانية ، وقامت لجنة من محرري الدار بتقييم الكتاب ورفعت توصية الى ادارة الدار تنصح بنشر الكتاب لاهميته العلمية وقيمته السياسية ولاحتوائه على استعراض تاريخي اجتماعي للنزاع العربي — الاسرائيلي لم يسبق تقديمه في اي كتاب صدر عن دار نشر اوروبية او امريكية ، وتم اتخاذ قرار بانزال الكتاب الى السوق قبل نهاية العام لما فيه من فائدة ادبية ومادية (الربح وضمان بيع كمية كبيرة) وقبل نهاية عام ١٩٧١ بأيام كان قد تم طبع ٢٠ الف نسخة من الكتاب اعدت للتوزيع لتكون في المكتبات قبل حلول اعياد الميلاد وراس السنة .

ولكن الكتاب لم ينزل الى السوق في ذلك العام فقد حدث ما منع توزيعه فجأة ، وتلقى المؤلف رسالة مسجلة من دار النشر تعلمه بان احد اصحاب الدار الدكتور برمان فيشر (وهو من عائلة يهودية المانية لها تاريخ عريق في عالم الطباعة والنشر) قد سبق ان اشترط ان لا تصدر الدار اي كتاب عن اسرائيل او النزاع العربي — الاسرائيلي او القضية الفلسطينية قبل ان يكون هو قد قرأه ووافق على اصداره . ولم تكن لجنة المحررين التي اشرفت على اصدار الكتاب قد فطنت الى هذا الشرط وراَت ارسال الكتاب للسيد فيشر بعد ان تمت طباعته واصبح جاهزا للتوزيع . وبسرعة اصدر السيد فيشر تعليماته بايقاف توزيع الكتاب واتلاف النسخ المطبوعة منه ريثما يقرأه . وبعد ان قرأه اوكل الى احد « المتخصصين في تاريخ الصهيونية والقضية الفلسطينية » مراجعته ووضع تعليقاته على محتواه وهذا المتخصص محام يهودي المانى له علاقة بدار النشر . وبعد فترة قصيرة تلقى المؤلف رسالة من لجنة المحررين تحتوي على اقتراحات الدار بشأن اعادة طباعة الكتاب في قالب ومضمون جديدين على ضوء التعليقات والاراء التي اثارها صاحب الدار والمحامي بعد مراجعة الكتاب . وكانت اهم نقاط التغيرات المطلوبة :

اولا : تغير صورة الغلاف — وكانت الصورة الاصلية تمثل فدائيا فلسطينيا يتوسط راس موشي دايان واقترح استبدالها بصورة لمجموعة من اللاجئين تسير فوق جسر اللنبي المتحطم اثناء القتال في يونيو ١٩٦٧ او صورة لبعض افراد الجيش الاسرائيلي وهم يقتحمون قرية عربية وقد استقر الرأي نهائيا على صورة اللاجئين وهم يعبرون الجسر .

ثانيا : استبدال عنوان الكتاب ، فبعد ان كان العنوان « العرب والتحدي الصهيوني » اصبح في الطبعة الجديدة « لا سلم حول اسرائيل — التاريخ الاجتماعي للنزاع الفلسطيني » .

كما اصابت اقتراحات التعديل والتبديل نحو مائة رأي او حادث مذكور في الكتاب وشملت اكثر الصفحات ولم تسلم منها اية فقرة من فقراته ، وبعض نقاط التعديل متعلق بدقة التواريخ وتسلسل

الاحداث او طريقة التعبير وصحة المراجع .
وبشأن المراجع اشارت الرسالة الى ان الكتاب يعتمد اعتمادا كبيرا على المراجع العربية ووجهات نظر الطرف العربي والفلسطيني مما يجعل الكتاب بشكله الاصلي يبدو متحيزا وغير موضوعي .

ولكن اهم ما جاء في رسالة الدار الى المؤلف هو المبرر الذى قدمته الدار لاضطرارها اعادة النظر في شكل الكتاب ومضمونه بعد تدخل صاحب الدار شخصيا في الموضوع . فقد جاء في الرسالة « ان الدار مع اعترافها بقيمة البحث وموافقتها المبدئية على اصدار كتاب ينتقد الصهيونية على اسس علمية مدروسة درسا عميقا ، الا انه يجب مراعاة عدة امور مبدئية بالنسبة لموضوع الصهيونية واسرائيل ، اذ ان اي كتاب انتقادي يتعرض مثلا للولايات المتحدة او اليابان او الارجنتين لن يؤدي الى اثارة الحساسيات ، ولكن ان يصدر كتاب عن اسرائيل هنا (اي في المانيا) وفي هذه الظروف فهو امر يختلف اختلافا كليا . فرأي بعض الشباب الاشتراكيين الذين يتفهمون موقفهم الايديولوجي في المسألة اليهودية لا يمكن تعميمه على شعب باكمله. فالعقلانية السياسية تصطدم هنا بالحدود الموضوعية واي اهمال لهذه الحدود فيه خطأ كبير ، فاسرائيل تتمتع بتأييد وعطف واسعين . ومرد ذلك الى التضامن مع ضحايا النازية والمبالغة في التعويضات عما حل باليهود . كما انه يوجد هنالك لاسامية مبطنة لدى فئات واسعة يواجهها من ناحية اخرى شعور لدى رجال الفكر بالاحجام عن انتقاد اليهود خوفا من حدوث استغلال من قبل الفئات اللاسامية لهذا الانتقاد وبناء حجج جديدة عليه ضد اليهود مما سيؤدي الى انعاش اللاسامية ثانية . وعليه فان اي كتاب انتقادي لاسرائيل يجب ان يحسب حساب تأثيره على الراي العام ، ويجب ان يتجنب مثل هذا الكتاب اسلوب المجادلة الكلامية (Polemik) والتهويل ، وان يكون موضوعيا وغير متحيز وقائما على الاحاجيج بدل العبارات العامة . كما يجب ان لا يدعو الى الاستنفار لانه في مثل هذه الحالة سيؤدي الى عكس ما يقصده ، ويجب ان يراعي مشاعر القراء اصحاب وجهات النظر المخالفة وذلك باستعمال اسلوب الاقناع الهادىء » .

واقرت الرسالة ان كتاب البروفسور هولشتاين يتمتع بالعديد من هذه الشروط ولكنه يحتاج الى بعض التعديلات حتى تكتمل فيه جميع الشروط وتقول الرسالة « اذا لم يوافق المؤلف على هذه الشروط ويرى ان يلجأ الى اصدار الكتاب كما هو في دار نشر اخرى فانه سيتحمل العديد من المصاعب التي سيكون من ضمنها ايقاع الاذى بسمعته ، فمحررو الدار يجدون انفسهم في وضع صعب وهم لا يستبعدون حدوث فضيحة صحافية ربما تؤدي بصورة غير مباشرة الى اندلاع موجة من اللاسامية تلحق بالدار خسائر فادحة ولا يمكن ان يكون هذا من اهداف المؤلف ، لهذا تقترح الدار حلا وسطا وهو اجراء المراجعة والتعديلات واضافة مقدمة ايضاحية للكتاب توضح هدفها من اصداره . وقد وافق المؤلف على هذه الشروط انقاذا للكتاب ولاعتقاده ان الكتاب حتى بعد اجراء التعديلات واضافة المقدمة سيؤدي الى الهدف الذي وضعه امامه عند تأليفه وهو اطلاع الراي العام الاوروبي على صفحة مطوية من صفحات الحركة الصهيونية وممارساتها في فلسطين . اما المقدمة التي اضافتها الدار الى الكتاب فانها ، وان كانت تحمل لهجة الاعتذار لاسرائيل ومؤيديها، الا انها لا تحتوي على اي مقاطع او معاني تقلل من قيمة الكتاب او تبطل مفعوله .

يقع الكتاب في ٢٨٠ صفحة موزعة على تسعة فصول هي : الصهيونية واللاسامية ، سياسة وضع الاهداف في الحركة الصهيونية ، الاستعمار الصهيوني في فلسطين (فصلان) ، تقسيم فلسطين ، وهكذا قامت اسرائيل (ثلاثة فصول)، المقاومة الفلسطينية . لن نستعرض هنا ما جاء في هذه الفصول لكن ما نريد ان نؤكده ان الفصول بمجموعها قد اختصرت تاريخا طويلا في صفحات قليلة دون ان تفقد هذا التاريخ اي عنصر من عناصر تكوينه . ان هذه ميزة يتحلى بها الكتاب على طول الخط مما يجعله صالحا للقارىء العادي الذي يحتاج الى كتاب بسيط ولكنه مفيد من حيث تقديمه المعلومات والحقائق الرئيسية ، وربما كان هذا هو السبب الذي دعا دار النشر الى اصدار الكتاب في طبعة جيب شعبية بثمن يتحمله المواطن صاحب الدخل المتوسط .

يعتبر كتاب البروفسور هولشتاين موضوع هذه المراجعة وثيقة سياسية تاريخية هامة استطاعت خرق حاجز الصمت الفكري الرهيب الذي طوق القضية الفلسطينية في المانيا الغربية منذ وضعت

الحكومة الالمانية مبدأ محو الجريمة النازية بحق اليهود في صلب سياستها الخارجية والاعلامية تجاه اسرائيل . كما أن الكتاب وعلى الرغم من التعديلات والمقدمة التي فرضتها عليه دار النشر لا يزال يسجل لهذه الدار فضلا ادبيا لاقدامها على نشره على الرغم من ان بعض اجزائه يتعارض مع آراء صاحب الدار . ويظهر أن لجنة المحررين التي اشرفت على اصدار الكتاب كان لها دور ايجابي في الاصرار على نشره . ولكن الكتاب يشكو من بعض نقاط الضعف التي لا علاقة لدار النشر بها ولا يمكن تحميلها سوى للمؤلف . فالكتاب عند مطالعته ككل يبدو وكأنه ملخص لكتابات العديد من المفكرين التقدميين الذين عالجوا القضية ونذكر منهم من الاجانب مكسيم رودنسون (يهودي فرنسي) ، اهارون كوهين (يهودي اسرائيلي) ايلي لوبل (يهودي اسرائيلي) اريك رولو (يهودي فرنسي) وارنولد توينبي المؤرخ البريطاني ومن العرب انور عبد الملك وصبري جريس وسامي هداوي .

والكتاب يلجأ في اكثر جمله الى الاشارة الى المراجع لدعم ما يذكره حتى انه يكاد يخلو من رأي خاص للمؤلف . وهذا الاسلوب جاء رحمة ولعنة على الكتاب ، فهو رحمة اذ انه جمع مع الكتاب قائمة فريدة من المراجع لم يحتوها كتاب اجنبي من قبله ، وهي تشكل قيمة علمية بحد ذاتها . اما اللعنة فلكون هذه المراجع جعلت الاقوال والجمل المقتبسة تطغى في اكثر من اي موضع على روح التحليل والاستنتاج .

في العديد من المواقع يقع المؤلف في تناقضات ، ان كانت تبدو عند قراءتها مع تسلسل الوقائع ثانوية الا انها في حالة تكرارها تفقد الكتاب والمؤلف الكثير من المبدئية التي يتحلى بها الكتاب ككل . وعلى سبيل المثال يقع الكاتب مرارا في خطأ تسمية قيام دولة اسرائيل « بحرب التحرير او معركة الاستقلال » في الوقت الذي يكون فيه مسترسلا في وصف عدوانية اسرائيل وامبريالية الصهيونية .

يعتبر الفصل الاخير من الكتاب وما تضمنه من تحديد لطبيعة المواجهة بين اسرائيل والمقاومة الفلسطينية (والاستنتاج بان المقاومة هي الرد التاريخي الحتمي للهجوم الصهيوني والواقع الاجتماعي في المنطقة) نقطة مفرقة في تحليله للقضية الفلسطينية منذ اوائل الاستيطان الصهيوني حتى ظهور المقاومة المسلحة . ويكتسب هذا التحليل والاستنتاج اهمية خاصة في هذه الفترة التي تتعرض فيها المقاومة الفلسطينية الى اعنف حملة صهيونية عرفها تاريخ الثورة الفلسطينية منذ عام ١٩٢٠ ، خاصة بعد موجة الارهاب الاعلامي الصهيوني والتهديد الاسرائيلي بالتصفية الجسدية الكاملة لكل مؤسسات المقاومة ومصادرها البشرية ، والذي بدأ تنفيذه فعلا بالهجمات الاسرائيلية الاخيرة على تجمعات الفلسطينيين في سوريا ولبنان بهدف تحطيم القاعدة البشرية التي تتغذى منها المقاومة عربيا وفلسطينيا . من هنا يكون وجود كتاب هولشتاين في الاسواق الاوروبية بجانب تعليقات بعض الكتاب من اصحاب الالتزام الثوري والانساني على انسانية القضية والتحامها بمستقبل جماهير المنطقة وشعوبها بمثابة حجر اساس يمكن البناء عليه سياسيا واعلاميا لاخراج القضية من اطارها الدولي الروتيني كمشكلة نزاع عربي — اسرائيلي حول حدود آمنة واعتراف بسيادات دول وضمان وحدة اراضيها ، واعادتها ثانية الى حجمها الاصلي كقضية مصير التقدم الاجتماعي والاستقرار السياسي لمنطقة الشرق الاوسط وشعوبه واعتبار حق الشعب العربي والفلسطيني في مقاومة الدولة الصهيونية المدخل الوحيد للقضية من بابها التاريخي اقتصاديا واجتماعيا .

الدكتور عدنان العمد

William L. Cleveland, The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri (Princeton University Press, Princeton, 1971).

اول ما يتبادر الى الاذهان عندما يقرن اسم ساطع الحصري بفلسطين ، عبارته الشهيرة « سئلت لماذا خسرنا فلسطين ونحن سبع دول ، فاجبتهم خسرناها **لاننا** سبع دول » . ومع ان الحصري لم يخصص كتابا من بين انتاجه الغزير ليعالج فيه القضية الفلسطينية بتفصيل ، الا ان الباحث الامريكي وليم كليفلند لا يقلل من اهمية مساهمته في القضية ، اذ يقول في ص ١٣١ من كتابه : « لسم يعالج الحصري مشكلة فلسطين باسهاب كما فعل سائر القوميين العرب . فهو لم يؤكد على ضرورة المعركة الحاسمة ، او يتوسع بالحديث عن فظائع الاسرائيليين ، فطريقته اعمق من ذلك : انه يكرر دوما حتمية الوحدة العربية ، بما في ذلك فلسطين، معتبرا دوره في تحرير الارض دور الدعائي وليس المخطط للعمل المباشر . ففي تقرير قدمه الى المشتركين بمؤتمر بلودان حول القضية ، اقترح برنامجا للتصدي لادعاءات الصهيونيين يتضمن نشر المعلومات في الغرب والشرق ، وبين ابناء الجيل القادم الذي سيواجه اعظم تحد من **الصهيونية** ». وفي ص ٧٥ يذكر كليفلند ان الحصري دعا العراق ابان الثورة الفلسطينية في الثلاثينات الى اعتناق مبدأ الانحياز ، والى الضغط على الدول الغربية من اجل نيل التنازلات منها بالنسبة لفلسطين وسورية . وفي الوقت الذي عارض فيه نوري سعيد ارسال الاسلحة الى فلسطين لئلا تستعمل هناك ضد الجنود البريطانيين ، طالب الحصري بارسالها وندد بخضوع نوري التام لبريطانيا ، مما جر عليه نقمة النظام الحاكم في العراق ،الذي وجد في تأييده لحكومة رشيد عالي الكيلاني الوطنية عذرا في سحب الجنسية العراقية منه .

ان اهمية كتاب كليفلند تكمن في تتبعه للنمو الفكري لدى ساطع الحصري ابتداء من ايام شبابه في العهد العثماني ، عندما كان احد المؤمنين بوجوب بقاء الدولة العثمانية ، الى حين اكتشافه القومية العربية بعد الحرب العالمية الاولى وتكريسه الجزء الاكبر من حياته لخدمة وترويج هذه الفكرة كمؤلف ومرب . وينقسم الكتاب الى قسمين ، اولهما يتناول حياة الحصري ، والثاني يركز على ارائه في القومية العربية . وقد عاش الحصري حياة غنية بالتجارب الفكرية والعملية ، اذ كان ابوه قاضيا من حلب يتنقل بحكم منصبه في الجهاز الحكومي بارجاء الامبراطورية العثمانية ، فولد ابنه ساطع في صنعاء عام ١٨٨٠ وتعلم في المدرسة الملكية في استنبول حيث برز في الرياضيات واللغة الفرنسية . وعبر هذه اللغة اكتشف الحصري روائع الفكر الاوروبي وتراثه العلمي . وبعد تخرجه عين مدرسا في ولاية يانيه التي تقع اليوم بين اليونان والبانيا ، فمكث في البلقان ثمانية اعوام نضج فيها فكريا والف اثناءها اربعة كتب اعتمدت للتدريس بجميع المدارس الابتدائية والثانوية بالامبراطورية . وقد جذبت اليه مواهبه التربوية اهتمام المثقفين ، فقرر ان يترك التدريس من اجل وظيفة اخرى تتيح له مجالات اوسع لنشر افكاره الاصلاحية . فعين قائمقاما لمدينة في مقدونيه وتدرج في المناصب . واخيرا ترك الوظيفة الحكومية في البلقان واستقر في استنبول حيث اصدر مجلة علمية . واصبحت له في هذه الاونة علاقة قوية مع حزب الاتحاد والترقي الذي كان يطالب باعادة الدستور ، الا ان الحصري لم ينتم الى الحزب . وكان الحصري قد اصبح في عداد كبار المربين والمفكرين في الامبراطورية العثمانية على الرغم من حداثة سنه ، اذ لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد ، عندما وقع الانقلاب الذي ازيح فيه السلطان عبد الحميد عن العرش عام ١٩٠٨ . وفي هذه المرحلة من حياته بقي متمسكا بالفكرة العثمانية ، وبمنأى عن المنادين باحياء الكيان العربي المستقل ، الا انه لم ينجرف مع التيار الذي مثلته حركة تركيا الفتاة في سعيها لتتريك الامبراطورية . ولكنه واصل في كتاباته الدعوة الى احداث تطوير على نمط اوروبي للدولة بعد ان عين مديرا لكلية المعلمين .

ويشدد كليفلند على الاتجاه العلماني للحصري ، وهو الاتجاه الذي لم يتخل عنه طول حياته ، اذ لم يؤمن بجدوى الجامعة الاسلامية ، لا في اثناء وجود الدولة العثمانية ، ولا بعد استقلال الاقطار العربية . الا ان الباحث الامريكي يشير الى الاختلاف في نظرة الحصري الى مقومات الدولة بين المرحلتين العثمانية والعربية في حياته . فهو في

المرحلة الاولى كان يؤيد انضمام اقليمي الالزاس واللورين الى فرنسا وذلك لحقها التاريخي بهما ، مع ان سكان هذين الاقليمين كانوا ينطقون الالمانية. ولكن الحصري لم يكن آنذاك يعير وحدة اللغة اهمية كبيرة في تكوين الدولة الواحدة ، باعتبار ان الامبراطورية العثمانية كانت تضم شعوبا عديدة . اما بعد نهاية الحرب الكونية ، وعندما قرر العودة الى الوطن العربي ، فقد غير وجهة نظره ، واصبح يعارض بشدة عقيدة المفكر الفرنسي ايرنست رينان في مقومات الامة .

حافظ الحصري على ولائه للدولة العثمانية اثناء الحرب ، ولم يستطع كليفلند ان يحدد موقفه تجاه دخول القوات العربية دمشق تحت الراية الهاشمية ؛ كما انه لم يتمكن من ان يعين بالضبط الدوافع التي جعلته يعود الى البلاد العربية بعد ان كان قد اقام في تركيا الجزء الاكبر من حياته حتى ذلك الحين. فالاتراك بعد انهيار امبراطوريتهم طالبوه بالبقاء في بلادهم ، كما ان زوجته التركية لم تكن متحمسة لمغادرة وطنها . ولكن الحصري عاد الى الوطن العربي،فعين مديرا عاما للتعليم ثم وزيرا للمعارف في حكومة فيصل السورية ذات العمر القصير . وعندما زحف الجنرال الفرنسي غورو على دمشق ، انتدب الحصري لمفاوضه بسبب اتقانه الفرنسية ، وقد ترك لنا سجلا لتلك المرحلة الحاسمة في كتابه « يوم ميسلون ». وبقي الحصري في معية الملك فيصل بعد ان فقد الاخير عرشه ، فطاف معه في رحلاته ، كما قضى فترة من الزمن في القاهرة يدرس الاساليب التربوية المستخدمة فيها ، فمصر كانت القطر الوحيد الذي تدرس فيه المناهج التعليمية بالعربية .

وعندما توج فيصل ملكا على العراق ، عين الحصري مديرا عاما للمعارف . وكما هي عادته ظل بمنأى عن النشاط السياسي ، مكرسا نفسه كليا لعمله التربوي . فالف الكتب واصدر الحوليات ، الا ان العراق الذي كان آنذاك يمر في طور التكوين ، وتعصف به الاهواء والاتجاهات المتباينة، علاوة على العصبيات القبلية والطائفية، لم يجعل مهمة الحصري هينة . فهو اولا كان خريج مدرسة مدنية يعمل جنبا الى جنب مع رجال أغلبيتهم من العسكريين خريجي الكلية الحربية في الاستانة . ثم انه كان سوريا بين عراقيين ، ومثقفا غربي التفكير بين اناس من انصاف المتعلمين . وكان ثابتا لا يلين في موقفه ، يقاوم موجات المعارضة التي اكتنفته من كل جانب تقريبا بعناد الرجل الذي يعرف انه على حق . الا انه اضطر الى الاستقالة من منصبه في النهاية ، ليلتحق بدار المعلمين في بغداد كاستاذ . ثم عين بعد ذلك عميدا لكلية الحقوق ، واخيرا مديرا عاما للآثار ، بغية ابعاده نهائيا عن سلك التعليم. ولكن حتى في هذا الحقل البعيد عن اختصاصه الاصلي ، ابدى الحصري كفاءة لفتت اليه انتباه عصبة الامم التي عينته عضوا في لجنتها الاستشارية المختصة بشؤون الآثار والفنون . وعندما سقطت حكومة رشيد عالي التي كان الحصري قد تعاطف معها لسياستها الوطنية الهادفة الى ازالة النفوذ البريطاني عن العراق ، سحبت منه الجنسية وطرد من البلاد . فاقام في بيروت اولا ، ثم دعته الحكومة السورية بعد استقلال البلاد للمساهمة في وضع سياسة تربوية جديدة ، الا ان اصلاحاته اثارت تذمر الكثيرين الذين لم يرق لهم اتجاهه العلماني ، فغادر دمشق الى القاهرة ، ليصبح اول عميد لمعهد الدراسات العربية العليا . ومع انه تقاعد عام ١٩٥٧ الا انه استمر في التاليف ، داعيا للوحدة العربية ومدافعا عن القومية العربية ضد المتهجمين عليها ، فانعم عليه الرئيس عبد الناصر بوسام رفيع ، كما اعادت اليه الحكومة العراقية جنسيته ، وتوفي في بغداد في كانون الاول ١٩٦٨ ، بالغا من العمر ٨٨ عاما.

المفتاح في شخصية الحصري ، كما يراه كليفلند ، هو اعتناقه للمنهج البراغماتي في التفكير منذ شبابه . فانه بعد سقوط الدولة العثمانية التي كان هو من دعاة بقائها ، لم يجد صعوبة كبيرة في تطوير عقيدته المتعلقة بتكوين الامة — الدولة من الايمان بالدولة التي يبرر تاريخها الطويل استمرار بقائها كوحدة متكاملة ، (كالامبراطورية العثمانية ، على الرغم من انها تضم شعوبا تنطق بلغات متعددة) الى المناداة بنشوء الدولة ارتكازا على الامة ذات اللسان الواحد المشترك . كان الحصري متاثرا بتعاليم الفيلسوف الالماني فيخته الذي دعا الى وحدة الامة الالمانية في خطب بليغة الهبت حماس المثقفين الالمان . الا انه — اي الحصري — فضل ان يضع دعوته في قالب اكثر هدوءا وعقلانية . فان كتبه التي صاغها في اسلوب مبسط سلس تسري فيها روح علمية رصينة ، وتنطلق من قاعدة جدلية بيداغوغية ذات تاثير

آسر، مما يفسر نجاحها الكبير ورواجها بين الناس. كان للحصري تلاميذ كثيرون تسلقوا على كتفيه ، ولكنهم بعد ذلك انكروه. الا انهم اذا كانوا قد درسوا مبادىء القومية على يديه ، فان كتبهم التي بدأ سيلها يتدفق منذ أواخر الخمسينات كانت اما من النوع التائه بين سحب الرومانسية ، او من الطراز المنطلق من قاعدة ماركسية غير مهضومة كليا . لقد عابوا عليه قلة اهتمامه بالاقتصاد ، واخذوا عليه صداقته مع الملك فيصل الاول ، ولكنته التركية التي أثقلت لسانه العربي الى يوم مماته ، متناسين انه اول من كتب عن القومية باسلوب علمي ، واول من دعا الى العلمانية في التعليم في عهود طغى عليها التفكير الغيبي ، واول من نادى بعروبة مصر التي لا تنكر ، ومن اوائل العرب (بعد ابن خلدون) الذين كتبوا في علم الاجتماع . وانه اخيرا وليس أقل اهمية ، عالم تربوي كبير، وتشهد له بذلك « القراءة الخلدونية » التي ما زالت تعتبر من افضل الكتب التي الفت لتعليم الاطفال القراءة والكتابة . صحيح انه اختلف مع كارل ماركس في تعريفه للقومية ، الا ان جميع الاحداث والتطورات التاريخية تقف الى جانب هذا المفكر العربي وتشير الى انه كان على حق في هذه النقطة على الاقل . وختاما لا بد من القول بان وليم كليفلند قام بجهد طيب في تقديم شخصية ساطع الحصري وتفسير نظرياته في كتاب لا يضم اكثر من ١٨٢ صفحة . وينبغي ايضا الاشادة بملحق الكتاب الذي يشتمل على سجل كامل لكتابات الحصري في التركية والعربية .

فـ. المنصور

Elmer Berger, **Letters and Non-Letters: The White House, Zionism and Israel.**
(The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1972).

الكتاب عبارة عن عدد من الرسائل المتبادلة بين المز بيرغر ، حين كان رئيسا للمجلس الاميركي لليهودية المعادي للصهيونية ، وبين عدد من العاملين في ادارة نيكسون الاميركية ، وذلك خلال مدة كاملة بين آب (اغسطس) ١٩٧٠ وآب (اغسطس) ١٩٧١ . ويبلغ عدد الرسائل المتبادلة ١٢ رسالة تعكس وجهة نظر المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة الاميركية ، وتبين جانب السياسة الامبريالية المراوغ في معالجتها لقضية الشرق الاوسط في هذه الآونة . والجدير بالملاحظة ان مايكل آدامز ، مواصل صحيفة الغارديان البريطانية السابق في معالجة الشرق الاوسط ، قد قدم للكتاب . واذا كان آدامز يعتقد — دون ان يذكر السبب — « ان نشر رسائل بيرغر قد لا يؤثر بصانعي سياسة الولايات المتحدة الاميركية » ، فنحن نؤكد ان هذا لن يحدث نظرا للارتباط العضوي بين الكيان الصهيوني في اسرائيل والامبريالية . ويأمل آدامز ان يؤثر نشر رسائل بيرغر في الشعب الاميركي ، القوة الوحيدة التي يمكن « ان تجبر صانعي السياسة في البيت الابيض على تغيير سياسة الادارة الاميركية وتحويلها للعمل من اجل التوصل الى سلام عادل في الشرق الاوسط » . ويضيف آدامز انه ما لم يحدث مثل هذا التحول « فان المساعدة الاميركية لاسرائيل ستستمر .. وهذا يعني تعطيل جميع الجهود التي قد تبذلها الامم الاخرى من اجل توطيد السلام » . ويلتقي آدامز مع بيرغر في الدعوة الى سلام « قائم على حقوق متساوية لكل الشعوب — بما فيها الشعب الفلسطيني — تعيش في حرية وسعادة » وليس سلاما قائما على التفرقة العنصرية او الظلم .

المسألة الرئيسية التي يثيرها بيرغر في الدرجة

الاولى هي مسألة « الشخصية اليهودية » لدولة اسرائيل . ودلت رسائل بيرغر على استيائه الشديد من المساعدة المستمرة التي تقدمها الحكومة الاميركية « للدولة العنصرية في اسرائيل » والتي عملت — ولا تزال من اجل خلق اغلبية من اليهود فوق أرض فلسطين كي تستكمل العناصر الشرعية والقانونية ، وتوفر لنفسها شروط البقاء والاستمرار . ويربط بيرغر موقف الادارة الاميركية هذا بأهداف الحركة الصهيونية العالمية الرامية الى ضرورة الحفاظ على « شخصية يهودية جوهرية لدولة اسرائيل » . من خلال هذا الفهم ينطلق بيرغر في حملته ضد الصهيونية التي حققت « اغلبية يهودية في فلسطين » على حساب شعب فلسطين . وبهذا الفهم تصطبغ رسائله الموجهة الى البيت الابيض خلال عام كامل .

بعد المبادرة الاميركية التي اعلنت في صيف عام ١٩٧٠ ، والتي عرفت منذ ذلك الحين بمبادرة روجرز وجه بيرغر رسالة الى الرئيس نيكسون في ٢٥ آب (اغسطس) تمنى فيها « أن يقرأ الرئيس رسالته شخصيا ، أو أحد من مساعديه المشرفين على أزمة الشرق الاوسط » . ويضيف بيرغر في رسالته ان المبادرة « تقدم افضل فرصة — منذ اكثر من عشرين عاما — من اجل اقامة سلام عادل ودائم في الازمة الاسرائيلية — الصهيونية — العربية » . ويذكر بيرغر الرئيس الاميركي بتقرير صحفي صادر عن احد المسؤولين في البيت الابيض ونشر في جريدة (نيويورك تايمز) في ١٧ آب (اغسطس) ١٩٧٠ وجاء فيه : « ان الولايات المتحدة لا ترى اية فرصة للتوصل الى حل لازمة الشرق الاوسط ما دامت الدول العربية تصر على اعادة (١٤٣) مليون لاجيء فلسطيني الى (اراضيهم) ، في حين ان اسرائيل تبدو غير مقتنعة باعادة هذا العدد الكبير من اللاجئين لان ذلك يهدد الشخصية اليهودية الجوهرية لدولة اسرائيل » . ويؤكد بيرغر ان هذا التصريح يتناقض مع الاتفاقيات الدولية القانونية والمعترف بها بشكل عام ، وخاصة ما يتعلق منها بالمسألة الفلسطينية . الا ان بيرغر يعود ويؤكد في رسالته الى الرئيس الاميركي ان موقف الولايات المتحدة هذا يعبر عن مخاوف الادارة الاميركية ازاء كل ما يهدد تغيير « الشخصية الاساسية اليهودية لدولة اسرائيل » .

يؤكد بيرغر ان « الصهيونية لا يمكن ان تتطور وتؤسس دولة صهيونية دون انتهاك حقوق الفلسطينيين المعادين للصهيونية ، وهذا يزيد من تشعب المشكلة الرئيسية في فلسطين وصعوبتها » . ويضيف بيرغر بوضوح أكثر ، « ان الشخصية الصهيونية لا تعتمد على التفرقة العنصرية ضد المسلمين والمسيحيين من الفلسطينيين وحسب ، بل ضد المعادين للصهيونية من اليهود ايضا » . ويتهم بيرغر الادارة الاميركية لانها ساعدت حركة الصهيونية العالمية من اجل طرد الفلسطينيين والتوصل الى اغلبية سكانية من اليهود سعيا وراء « وضع قانوني » لدولة اسرائيل . ان هذه المساعدة جعلت من اسرائيل « دولة يهودية » ، وبصورة أدق « دولة صهيونية » . ناحية أخرى تثير اهتمام بيرغر وهي ان الادارة الاميركية قد أعلنت أكثر من مرة بأن اطراف النزاع في الشرق الاوسط « هم الذين تقع على عاتقهم مسؤولية التوصل الى حل . وان الولايات المتحدة الاميركية لن تفرض حلا خاصا بها من اجل ذلك » . وجاءت هذه التصريحات من البيت الابيض التي ذكر في احدها ، كما نشر في جريدة نيويورك تايمز ان « مفتاح السلام في الشرق الاوسط بيد العديد من الاطراف : اولا ، الاطراف المعنية في المشكلة : الاسرائيليون وجيرانهم ، وعلى وجه الخصوص الجمهورية العربية المتحدة (ذلك الحين) والاردن . وهو ثانيا ، في أيدي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا العظمى وفرنسا ... الاربع الكبار » . ويضيف التصريح انه « اذا لم يقم الاتحاد السوفياتي بدور توفيقي يساعد في التوصل الى سلام فليس هناك فرصة على الاطلاق من اجل تحقيق السلام في الشرق الاوسط » . ويعلق بيرغر على الفقرة الاخيرة من التصريح بقوله انها « مقبولة ظاهريا » ، ويتساءل في رسالته الى الرئيس نيكسون المؤرخة ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ انه اذا كان الاتحاد السوفياتي مسؤولا عن السيطرة على وجهات نظر الحكومات والشعوب العربية المعنية في أزمة الشرق الاوسط ، فانك (أي الرئيس الاميركي) « لم تشر الى انه بامكان الولايات المتحدة — او انها ستفعل ذلك — القيام بمحاولة مماثلة للسيطرة على سياسات اسرائيل وتوجيه مواقفها ... بينما ، في الواقع ، ان عددا من اعضاء حكومتك صرحوا في عدة مناسبات ان الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بهذا الدور » .

ان بيرغر هنا يحاول الدخول في اللعبة السياسية الدولية ولكن ، اذا كان السلام الذي يدعو بيرغر اليه ويعمل من اجل تحقيقه هو السلام الذي ستفرضه — عاجلا او آجلا — الدول الاربع الكبار ، او الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، او الولايات المتحدة منفردة ، .. فهذا امر آخر . ان بيرغر في هذه الحالة يدخل اللعبة السياسية الدولية تحت اقواس الترحيب . ولذلك من الافضل ان يركز بيرغر عمله السياسي بين الصفوف الاميركية واليهودية في الولايات المتحدة من اجل فهم اكثر موضوعية للقضية الفلسطينية . يشير بيرغر في رسالة اخرى الى ان الادارة الاميركية ترفض ان تدرك بأن دعمها المتواصل لدولة اسرائيل « الصهيونية العنصرية » هو تعطيل دائم « لفرص السلام في المنطقة » . ويحاول بيرغر ان يثقل كاهل الحكومة الاميركية بالاحتجاج والاحراج عند قوله ان « الولايات المتحدة — من خلال الدعم الذي تقدمه الى اسرائيل — تتمتع بموقف قوي يخولها ان تتخذ اجراءات حاسمة ضد الدولة العنصرية » .. هذا اذا كانت تسعى بالفعل الى سلام عادل ودائم في المنطقة (!) .

مما لا شك فيه ان الناحية الايجابية في رسائل بيرغر تكمن في ما يمثله الحاخم بيرغر بين يهود العالم عامة ويهود الولايات المتحدة الاميركية خاصة ، وليست في رسائله المتبادلة مع البيت الابيض . وحتى يصبح للرسائل دور ايجابي يجب تعميمها على اليهود من الاميركيين ونشرها في الصحف الغربية المختلفة باعتبارها صادرة عن مؤسسة يهودية معادية للصهيونية وذات مضمون انساني . لقد جعل البيت الابيض من رسائل بيرغر تبدو وكأنها مرخة في واد . بالطبع ، تلقى بيرغر ردودا على بعض من رسائله .. وكانت تصله جميعها مع « خالص شكر واحترام العاملين في البيت الابيض » . ففي رد أرسل به نوبل م. ميلينكامب احد مساعدي الرئيس الاميركي قال مخاطبا بيرغر ان رسالته « اعطيت الى اعضاء عاملين في مكتب كيسنجر » . وطلب من بيرغر ان يكون على ثقة تامة بأن اقتراحاته « ستلقى العناية التي تستحق » . وفي رد آخر يجيب ميلينكامب على اقتراحات بيرغر ويقول « ان جميع الادارات التي تعاقبت على حكم الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٨ حرصت على سلامة اسرائيل وشرعيتها واستمرار وجودها .. وهذا واحد من العناصر الرئيسية التي يستحيل تجاهلها اذا ما اريد التوصل الى سلام في المنطقة » . ان بيرغر في جميع رسائله الى البيت الابيض لم يتطرق الى موضوع « وجود اسرائيل »، ولكن يبدو ان ميلينكامب — والبيت من ورائه — لا يرغب في ان يدرك ان بيرغر لا يناقش مسألة وجود اسرائيل ، بل « الشخصية اليهودية » لدولة اسرائيل . ان رد فعل البيت الابيض السلبي على رسائل بيرغر يجعل الحوار بين الاثنين وكأنه حوار طرشان ، ولذلك من المفضل ان يوفر بيرغر جهوده الضائعة ويسخرها لخدمة قضيته في مجالات اخرى بين القواعد الاجتماعية اليهودية والاميركية والغربية .. وهو بهذا سيحقق — لا شك — نتائج ملموسة واكثر ايجابية . الا ان بيرغر يستمر في حواره مع البيت الابيض مبديا اسفه في رسالة وجهها الى ميلينكامب بتاريخ ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٧١ لانه لم يتلق ردا على اي من رسالتيه اللتين ارسلهما الى البيت الابيض « منذ اكثر من اربعة اشهر » والمؤرختين في ١٩ آذار (مارس) و٢٠ ايار (مايو) ١٩٧١ » . ان القرياق لا يأتي من حكومة الولايات المتحدة الاميركية . ومهما طال امد الحوار بين بيرغر والادارة الاميركية ، ومهما امتد زمن الدعوات الانسانية .. فان كل ذلك صراخ في واد .. ان الادارة الاميركية لا تقدم مساعدتها الى اسرائيل نتيجة خطأ ارتكبه احد رؤساء الجمهورية السابقين ، فان لهذه المساعدة جذورها العضوية والتاريخية والطبقية .

اننا نلتقي مع مايكل آدامز الذي يصف رسائل بيرغر بأنها على جانب كبير من الاهمية بالنسبة الى اولئك المهتمين بدراسة شؤون الشرق الاوسط بشكل عام ، وخصوصا بالنسبة الى كل اميركي يرغب في معرفة الدور الذي تقوم به بلاده في العالم ويتساءل عن الدافع وراء هذا الدور . ان بيرغر — وهو لا يختلف في ذلك عن آدامز من حيث النظرة الاوروبية الليبرالية لمعالجة ازمة الشرق الاوسط — ليس له كبير امل في التوصل الى ما يصبو اليه من خلال اطار ومضمون الجهود التي يبذلها من اجل التوصل الى « سلام عادل » في الشرق الاوسط . ان اية جهود تبذل للتوصل الى سلام بين شعوب منطقة الشرق الاوسط بدون التركيز على مسألة الارتباط العضوي والتاريخي بين الامبريالية والصهيونية تدفع بنفسها الى حتفها.

مصطفى كركوتي

تهليلة الموت والشهادة ، شعر توفيق زياد
(دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢)

تطرح مجموعة توفيق زياد الجديدة : **تهليلة الموت والشهادة** ، موضوع فعالية الشعر ووظيفته الاجتماعية والسياسية بشكل حاد . فالشعر الفلسطيني المقاوم داخل الارض المحتلة هو امتداد لثلاثة تيارات فنية : الادب الشعبي الفلسطيني المقاوم ، الشعر الفلسطيني في الثلاثينات والاربعينات ، والتيارات الفنية الواقعية في المشرق العربي . من هنا نستطيع ان نفهم ظاهرة التمايز النسبي التي يتحلى بها هذا الشعر ، فهو قبل كل شيء شعر يلتزم قضية شعبه . المشاكل اليومية ، ومحاولات التذويب والتهجير ، تفرض عليه خيارا واحدا : اما الالتزام الثوري بقضية الشعب او ان لا يكون هناك شعر فلسطيني على الاطلاق داخل الارض المحتلة . من هنا نستطيع ان نفهم الروحية القتالية والجماهيرية التي لهذا الشعر . فهو لا يستطيع بحكم واقعه ان يتخلى عن الهموم اليومية والعادية . كما انه لا يستطيع ان يغرق في البحث عن الاشكال الجديدة خلف الجدران . ان البحث عن الشكل الجديد لا يمكن ان يقوم خارج دائرة المعركة التي يخوضها الشعب الفلسطيني . والشعر المقاتل بحكم وظيفته الجماعية لا يستطيع ان يسمح لنفسه بالبعد عن الناس . انه يكتب لهم وبهم .

على هذا الاساس تأتي الاهمية التاريخية لتوفيق زياد . فزياد ما زال يحاول ويقوم بالتجارب الفنية في سبيل خلق لغة شعرية بسيطة وسهلة، تستطيع ان تستوعب التراث الشعبي والثوري وتقوم باعادة كتابته من جديد . وشعره كان دائما لصيقا بالهموم اليومية ، بالناس العاديين وبالتراث الشعبي الثوري . وفي مجموعته الجديدة يتابع زياد عملية بحثه هذه . وان يكتسب هذا البحث الآن مزيدا من العمق والرؤية الشمولية للاحداث، فانه يبقى متوكئا على التراث الشعبي ، انه يحاول ان ينطلق من محاولتين ثوريتين مهمتين : المقاومة وكومونة باريس ليستخلص الدروس ، وليمجد النضال الشعبي العربي والاممي ، مستعيرا صوت الكادحين ، محافظا على صوته الخاص الذي يكتسب عمقا تاريخيا في تفاؤله الثوري العميق بالنصر .

تتألف مجموعة توفيق زياد هذه من قصيدتين طويلتين . **عمان في ايلول** . **ومئة سنة على كومونة باريس** . الرابط بين القصيدتين هو المحاولة الثورية الفاشلة . في عمان سحقت المقاومة تحت ضربات النظام الاردني وفي باريس سحقت الكومونة قبل مئة سنة تحت ضربات البرجوازية الفرنسية المتعاونة مع الالمان . الرابط المشترك هو الموت والشهادة والتفاؤل التاريخي بالنصر . لكن طريقة المعالجة والفهم التاريخي للحدث يختلفان في القصيدتين . فبينما نجد في قصيدة **عمان في ايلول** نفسا شعبيا حارا وصادقا يحاول ان يرسم صورة للاحداث واضعا اياها ضمن التفاؤل التاريخي العام ، معطيا في نهايتها وجهة نظر سياسية في المذبحة وكيفية تداركها في المستقبل ، نجد ان هذا الصوت يصبح اكثر عقلانية واكثر موضوعية في **مئة سنة على كومونة باريس** حيث البطل الرئيسي والوحيد هو الطبقة العاملة وحيث يمكن وضع الكومونة في السياق الثوري الذي أوصل إلى ثورة اوكتوبر السوفياتية .

١ — في قصيدة **عمان في ايلول** ترتفع التهاليل الثورية عبر خمسة اناشيد. القصيدة، بانشيدها الخمسة ، تتكامل مثل لوحة متعددة الالوان . كل نشيد له لونه الخاص وموسيقاه الخاصة . والقصيدة بمجموعها تعبر عن حادث واحد يمكن النظر اليه من خمسة مواقع . ولا تتكامل الصورة دون هذه المواقع مجتمعة .

النشيد الاول ، « تهليلة الذين يرفضون ان يموتوا ويرفضون ان يستسلموا » هو عبارة عن اغنية شعبية تمجد القتال . الايقاع البسيط ذو الصوت الواحد واللازمة التي تتكرر دائما ، تعطي لهذا النشيد طابعه الشعبي والملتصق بالناس العاديين .

« يا حادي العيس دب الصوت في الشطين
تكسر السيف في كتفي انا نصفين
لكنني فوق صلباني اقاتلهم
فخذ فؤادي وروحي واعطني سيفين ».

هذا الصوت الشعبي ، الذي يرى في المعركة تهليلة حقيقية ، واضعا اياها في مستوى الصوت الباحث بين اغانيه القديمة عن مستقبله الذي

تصنعه المعركة ، لا يلبث ان يتابع في نشـــيد « يوميات من عرس الدم » . فالعرش الذي يحز ورید الشعب ، يحكم بالاعدام على نفســه . وجثث الآلاف الذين يسقطون يوميا تدل على أن هذا الشعب لا يموت .

« في اليوم التاسع

أصرخ في وجه الدنيـا

هذا شعب ذو سبعة ارواح » .

ويصل توفيق زياد في « نماذج عادية من شعب غير عادي » الى قدرة مذهلة على استيعاب الروح الشعبية . فهو في خنادق المقاتلين في شـوارع عمان ومخيماتها ، يرصد مشاعرهم ويذوب صوته في افكارهم ومشاعرهم المباشرة ، لكنه في الوقت نفسه يعود بهم الى التراث الثوري الفلسطيني ، فالمناضل الذي يموت اليوم هو ابن المقاتل الذي مات في ثورة ١٩٣٦ مشنوقا كما تخبرنا القصيدة العامية :

« لا تظن دمعي خوف

دمعي على اوطاني

على كمشة زغاليل

في البيت جوعاني »

وهي أبيات يضمنها زياد بشكل رائع في قصيدته هذه حتى لنخال انها جزء لا يتجزأ من مشاعر المقاتلين الذين سقطوا في أيلول الاسود . وزياد في تصويره لهذه المعارك يظل شاعرا بصوته الخاص، فهو بعيد عن ساحات عمان . لذلك يرفع صوته مع اصوات عرب الارض المحتلة محييا المقاتلين والمقاتلات :

« اه لو اقدر ان اجعل نفسي

في كفك

رشاشا للثورة »

وهو حـين يتحدث عن المقاتلـين ، يضمهم الى الارض ، الى جدلية الانسان ــ الارض . فمسعود الشيبان يظهر وكأنه شجـرة خارجـة من رحـم الارض . انه :

« قلعة ارض فذت وانفصلت

واتخذت شكل مقاتل »

وحين يكتب عن العدو في « كلمات من خصم غـير مقطوع الرأس لكنه بروح واحـدة » فان التفاؤل بالنصر ، لا يأتي على حساب التقليل من قـوة العدو ، لكن حتميـة انتصار الشعوب علـى مستغليها تدفعه ليقول :

« يا أردن الشعب الصامد

في الزرقاء وعمان واربد

ما هو آت آت

والآتي سيبدد كل الظلمات »

توفيق زياد في قصائده الاربع هـذه يريد شيئـا واحـدا : الاندماج الكامـل بحركة الجماهـير الواقعية . والشعر هو تهليلة ، نشيد جماعي ، صوت شامل ، الشعر هو سلاح للمقاتلين ، هـو صيحة للحرب ، الشاعر هنا هو لحن موسيقي يمشي في مواكب المقاتلين . يغني احلامهم وآلامهم. يقف معهم في الخندق ويرفع صوته عاريا . لكنـه في الوقت نفسه يعود في النشيد الاخير « اسئلة لا بد منها » الى محاولة استخلاص الـدروس . والدروس عفوية لكنها في الوقـت نفسه حـارة الصوت . فعلى الزعماء ان يعرفوا « ان علـى الثورة ان تبقى يقظى » وهو يدعو الى مزيد مـن الحقد الثوري .

« هل يعرف بعض الزعماء

أن على مشنقة الثورة

ان تصنع

من حبل لا ينقطع

من ثقل الخصم المشنوق

لما يدخل في العقدة رأسه »

عمان في ايلول : تترافق في مجموعـة زياد مـع **مئة سنة على كومونة باريس** : القصيدة الاولـى تحمل سمات العفوية والرؤيا الشعبية النافذة . انها محاولة لتاريخ حدث في ضمير الجماهـير . من هنا تأتي لغتها المبسطة والسهلة وعودتها الى القصائد العامية الشعبية ، وتركيزها على مشاعر الافراد . وتوفيق زياد لا يضيع في التفاصيل ، انه يلتقطها التقاطا محولا اياها الى لوحة متكاملة . وهذه اللوحة ليست مغلقة . فالرمادي القاتـم الذي يظهر في تصوير المذبحة ، لا يلبث ان يصطبغ بالاحمر ثم يتحول الـى صوت واثق من النصر ، متعلم من الهزيمة دروس النصر . توفيق زيـاد يحاول عبر عمله هذا ، ان يتابع بحثه عن الفـن

الجماهيري ، الفن الذي يغتسل بالحياة اليومية وباللغة اليومية ، لكنه يبتعد عنها بمقدار ما يريد جعلها أكثر قابلية للحياة . ولئن يبدو بناء هذه القصيدة متناغما ، فانه يتميز بعدم سيطرة الشاعر على شعره . الشاعر والشعر هما طرفان في عمل واحد . وصيرورة هذا العمل تدمجهما بشدة وبمرارة لا واعية . هذا الاندماج لا يلبث ان يتفكك في قصيدة **مئة سنة على كومونة باريس** . النبرة هنا نبرة واعية والبناء الشعري اكثر تماسكا وان افتقد الى الحرارة التي رافقت القصيدة الاولى .

٢ — مئة سنة على كومونة باريس تحاول ان تسجل لاول ثورة بروليتارية في العالم . ووضعها الى جانب عمان في ايلول هو شيء طبيعي ، لا بل حتمي . فالثورة الفلسطينية التي تراجعت في ايلول امام دموية الامبريالية وانظمتها تذكر بالسقوط العظيم لكومونة باريس . للرجال « الذين حاولوا ان يقتحموا السماء » تقسم القصيدة الى ثمانية اناشيد . ومنذ النشيد الاول « الحب الاول » يظهر البطل . انه ليس فرديا ، انه الطبقة العاملة . البطل هو :

« أول عبد

يتجرأ

أن يمشي

منتصب الظهر » .

وفي النشيد الثاني من « باريس الى بتروغراد » تأتي دروس الكومونة . فالكومونة التي سقطت كانت الخميرة التي منها انفجرت ثورة اوكتوبر السوفياتية .

« لم تكن تعرف

انك انت المقتول بآذار

ستهب كعاصفة اعصار

ذات نهار

من اوكتوبر »

بعد هذا التقديم ، تتوالى لوحات تصوير الثورة . فنشيد « لحظات قبل الوضع » يصور خيانة البورجوازية الفرنسية ، التي فجرت اللهب الثوري . هذا اللهب سيحول الدنيا الى « حديقة ازهار بورية » . تحتضن المولود الاول من نوعه . وفي النشيد الرابع يلقي زياد الضوء على الطبقة صانعة الكومونة ، «الخارجون من احشاء النهار» و « النابتون كالقطر » .

« هبوا كالريح

كعاصفة تكتسح السبع سماوات »

وفي النشيد الخامس « بين الحلم والواقع » حيث يصور الشاعر الكومونة بأرق الكلمات ، يستعير صوته من ناظم حكمت ، ليصف الكومونة على انها :

« انضر عذراء واشهاها

اجملها اروعها واقساها »

هذه العودة الى عذرية القتال وقوته وجماله تمهد للمجزرة الدموية . حين نسمع في النشيد السادس صوت الراوي يخبرنا عن اتحاد الغالب والمغلوب تيير وبسمارك وكيف اتحد هذا الاتحاد :

« والوف العمال الشهداء

اصحاب الافرهولات الزرقاء

فرشت ابدانهم الدافئة المقتولة

نصف العاصمة الشرقي »

ويعود توفيق زياد في النشيدين الاخيرين مستعيرا صوت بني الايام الى تفاؤله المطلق بالشعب وبحركة التاريخ . فبومضة عين استطاع التاريخ العملاق ان يقطع مئة عام ، والجوع الى الحرية هو محرك التقدم :

« والجوع الى الحرية كان

والجوع الى الحرية ما زال

الاجمل والاقسى

في تاريخ الانسان

في كل زمان ومكان » .

رؤيا الشاعر في القصيدتين واحدة . انها العمل في سبيل ان يتحول الصوت الشعري الى صوت جماعي . والشاعر يندرج في حركة التاريخ ، فهو لا ينفصل عنها انه يحاول عبر ربط القضيتين القومية والاممية ان يشير الى العدو . فكما تعاون تيير وبسمارك تعاون النظام الاردني والامبريالي . وفي الحالتين سقطت المحاولة الثورية في دماء ابنائها ، لكن الحركة الثورية مستمرة ، والتاريخ اصدر حكمه القاسي ، والنصر هو فترة نضال

بين الهزيمة والثورة .

أمام هذه المجموعة الشعرية المفتوحة الافق على المستقبل ، نود ان نطرح سؤالا محددا :

كيف نفهم محاولة توفيق زياد الشعرية من خلال بحثنا عن مقومات الشعر الواقعي ؟

لا شك ان زياد يتابع في هذه المجموعة بحثه عن الارض الواقعية ، التي يستمد منها شعره . انه يحاول جاهدا الالتصاق بالجماهير . من هنا يحاول الاستفادة قدر الامكان من التراث الشعبي . هذه الاستفادة في المقابل تعاني خفوتا في المستوى التشكيلي للقصيدة . فهل صحيح ان الشعر الملتصق بحياة الجماهير ، يجب ان يبقى لصيقا بالشكل الشعري الحديث « التفعيلة الواحدة » ام انه ، واستنادا الى التراث والى الفهم المتطور لهذا التراث ، يستطيع ان يخلق اشكاله الجديدة، وينطلق الى رحاب اوسع من ان يحصرها شكل واحد . القصيدة ليست ايقاعها الموسيقي فقط لكن لهذا الايقاع دوره الخاص والفاعل . انه يتقولب في داخل الكلمة ليحيلها من مجرد تشكيل لفظي الى بركان يتفجر بالصور والانفعالات . وهنا فان لغة زياد لا تزال تبحث عن براكينها الداخلية . الاحتكاك بين الكلمة الشعرية والواقع يولد الابداع . والشاعر في وصلته الابداعية يتجاوز ماضيه محاولا ولوج مداخل النهر الجماهيري حيث يتفجر الابداع . فالفن المبدع هو لصيق الحياة ولصيق الصراعات الاجتماعية . الاصوات المتعددة داخل قصائد هذه المجموعة ، تؤكد ظاهرة ما تزال بحاجة الى درس . فالشاعر يجمع العديد من الاصوات والمواقف ليولد الحركة الايقاعية والانفعالية في قصيدته . وهو يقترب من سميح القاسم . ويبتعد عن درويش الذي يحاول في ديوانه الاخير **احبك او لا احبك** ان يخلق مساحات واسعة في قصيدته عبر عمقها الداخلي وليس عبر اصواتها المتعددة . هل يشير هذا الى ان الشاعر داخل الارض المحتلة بحاجة الى الخطابة المباشرة ، لان شعره هو شعر معركة مباشرة . بينما الشاعر المنفي خارج ارضه يستطيع ان يتحرر من هذه المتطلبات الملحة ؟ ان مجموعة توفيق زياد ، هي حنجرة متوترة ، تحاول ان تقترب الشاعر اكثر فاكثر من الجماهير . وتحاول ان ترسم لوحة متكاملة تأتلف في داخلها الشهادة والنصر والموت والحياة حتى تخرج الثورة من خضم هذه الصراعات الى انتصارها النهائي .

الياس خوري

صدر عن مركز الابحاث في م. ت. ف. كتاب

الصهيونية واسرائيل وآسيا

تاليف : ج. هـ. جانسن

ترجمة : راشد حميد

٢٤٩ صفحة
٨ ليرات لبنانية
تضاف اليها اجور البريد : ١٠٠ ق.ل. في العالم العربي ،
٢٥٠ ق.ل. في اوروبا ، ٥٠٠ ق.ل. في سائر الدول

رسائل اعلامية

الصحف الغربية واحداث أيلول ١٩٧٠

توطئة

قالت السيدة آني غسان كنفاني في مؤتمرها الصحفي ، بعد استشهاد زوجها ، ان الصحف الاجنبية قد هيأت لاغتيال زوجها ، فقد ذكرت ان « صحيفة « الديلي ميل » البريطانية نشرت صورة لرجل يجلس مع شاب ياباني ، بعد عملية مطار اللد ، وكتبت تحتها انه غسان كنفاني ، ومع ان وكالة انباء الاسوشيتدبرس وزعت نفيا ، الا ان « الديلي ميل » لم تنشره . » — عن جريدة النهار — . ان هذا القول يستوقفنا للبحث جدية فيما تقدم الجرائد والمجلات الغربية حول الوضع السياسي والاجتماعي في المنطقة . ومن البديهي القول ان قطاعات كبيرة من الرأي العام الغربي تأخذ معلوماتها من جرائد ومجلات بلدها ، لانها الوسيلة الوحيدة ، بعد الراديو والتلفزيون ، لنقل الاخبار والمعلومات . ما هو دور الجرائد الغربية في هذا المضمار وما هو مدى صحة نقاشها وطرحها عبر صفحاتها ؟ ان افتتاحيات الصحف قد تشكل لدى بعض القراء وجهة نظر خاصة في تحليل الامور السياسية ، وبالتالي تكون هذه الافتتاحيات بالنسبة لهم مقياسا للاحداث الجارية . وان تقييم هذه الاحداث عبر الاخبار التي تتناقلها وكالات الانباء ، قد تنطبع في ذهنية القارىء ويكون بذلك فهمه عن طبيعة ما يجري(١).

ويتأثر خط جريدة معينة في كثير من الاحيان بوضعها المادي ، فالجريدة تمولها اعلانات شركات عديدة. وبذلك تخضع الجريدة احيانا في خطها السياسي لتأثير العبء المادي(٢). ولكن على الجريدة مهمات يجب ان تمارسها وهي اساسا ضرورات نقل الاخبار والاحداث بموضوعية . ففي كثير من المواقف ، لم تعكس الجرائد الغربية ، بصورة واضحة ، عدة نقاط مهمة في تاريخ العرب المعاصر، ولم تسجل هذه الجرائد موقفها المستقل من الاحداث ، فكان ان تكونت لدى القارىء الغربي عدة مفاهيم خاطئة عن الوضع في هذه المنطقة من العالم . ان سلاسل من المقالات والافتتاحيات التي تمشي ضمن خط محدد ترسخ هذا المفهوم لدى القارىء . كيف كانت الجرائد الغربية تسجل حقبة مهمة مرت بها الحركة الوطنية في العالم العربي ، فترة معارك شهر أيلول من عام ١٩٧٠ ؟ سنعمد في هذه الدراسة الى الاحاطة بخلفية الاحداث قبل بدء المعارك واثناء المعارك ، واثر تلك المعارك ، كما صورته الجرائد والمجلات الغربية .

مرحلة ما قبل معارك أيلول والصورة المشوهة لحركة المقاومة :

لقد صورت الجرائد الغربية ، اجمالا ، حركة المقاومة الفلسطينية تصويرا خاطئا ، فقد عكست الكثير منها ما مضمونه ان حركة المقاومة لا هم لها الا « عمليات الاعدام » لمواطنين عرب يتعاملون مع اسرائيل ، وان ذلك كما تحلله صحيفة «ساينس كريستشن مونيتور » « يعكس القلق الحاد الذي يسيطر على الفدائيين كلما ازدادت التحركات نحو الحل السلمي اندفاعا »(٣).

وفي اليوم التالي تنشر جريدة « نيويورك تايمز » المزيد من المعلومات حول عمليات الاغتيال ، ومن الطبيعي، فان حصر مهمة حركة المقاومة بالاعدامات فقط يعكس الصورة المشوهة لدى القارىء الغربي، طالما ان الجرائد لم تشر الى منجزات حركة المقاومة على الاصعدة السياسية والاجتماعية . ثم تلجأ بعض الصحف لنشر اخبار عن وجود خلافات بين المنظمات حول مبدأ الموافقة على مشروع روجرز وهذا ما ظهر جليا في صحيفة « صنداي تايمز » حين نشرت تقريرا عن الوضع في غزة تشير فيه الى انه « تم العثور على ٤ جثث في احدى بيارات البرتقال في غزة لعناصر من

ج. ش. ت. ف. كانوا قد قتلوا في معركة مع منظمة فدائية منافسة بسبب الاختلاف على الموقف من مشروع روجرز »(٤). ثم تقف الجريدة موقفا احصائيا و« بذلك يصبح عدد الذين قتلوا في غزة في الشهر الماضي وحده ١٩ شخصا معظمهم اعدموا من قبل الفدائيين بسبب تعاونهم مع سلطات الاحتلال » .

ثم تتخطى « الصنداي تايمز » هذا الحد ، فتشير الى ان « عمليات التخريب » هذه « يقوم بها طلاب مدارس يتقاضون لقاء كل عملية ما بين ١٠ شلنات وجنيهين استرلينيين » . وبذلك تعطي صحيفة « الصنداي تايمز » حركة المقاومة صبغة الارتزاق وتنفي عنها كل مضمون اجتماعي وثوري، طالما ان الجريدة تقول في ذات البحث « ان معظم عمليات الاغتيالات تتم في المخيمات » وبهذا تكون صورة المخيم لدى القارىء الغربي عبر هذه الصحيفة صورة مخبأ لمرتزقة يقومون باغتيالات لاهل المخيم — اضافة الى قول الجريدة ان اللاجئين « يؤيدون الفدائيين بشكل سلبي نتيجة للبؤس والقهر الذي يعيشون فيه » ! وبهذا تكون الجريدة قد محت اية خلفية سياسية واجتماعية عن طبيعة العمل الفدائي ، وتكون قد حرمت سكان المخيمات من اي تطلع ثوري نحو مقاتليهم .

الجرائد الغربية وعمليات خطف الطائرات : كانت الجرائد والمجلات الغربية تعزل عمليات خطف الطائرات عن كل الدوافع الاجتماعية والسياسية، مظهرة ان هذه العمليات تقف ضد كل سلام العالم وأمنه ، وكانت ان تحولت الكثير من الجرائد بمقالاتها لبحث عمليات الخطف ومقاومتها ومنع تكرارها ، فالنيويورك تايمز تطلب من « جميع الدول الغربية وجميع شركات الطيران في العالم أن تقاطع الدول العربية وان ترفض السماح للطائرات العربية بالهبوط في اي مكان في العالم »(٥). ونجد ان بعض الجرائد كان يتخذ موقفا يشجع النظام الاردني على ضرب حركة المقاومة ، فقد اعتبرت التايمز ان البلاغات والمؤتمرات التي يصدرها ويعقدها الفدائيون « تثبت الانطباع ان هناك حكومتين في الاردن : الحكومة الرسمية وسلطة الفدائيين »(٦)، ولم تتورع صحيفة « الجارديان » ، مثلا ، عن اعطاء صورة غريبة للمقاتلين الفلسطينيين للرأي العام الغربي ، فوصفت عناصر الجبهة الشعبية بانهم « يتلقون تفكيراً ليفكروا كأنهم خارجون عن القانون »(٧). ومن الطبيعي ان يشمئز الغرب من الخارجين عن القانون واصحاب « الاعمال الاجرامية » كما كانت تذكر « انترناشونال هيرالد تريبيون » . وفي كثير من الاحيان كانت الجرائد تتخذ موقف الدفاع عن الجانب الاردني وتتهجم على حركة المقاومة من خلال عمليات خطف الطائرات فتتصور جريدة « لوموند » ان باستطاعة الملك حسين « القضاء على الفدائيين واعادة سيطرته على البلاد »(٨) وكذلك ترى « الفاينشال تايمز » ان « باستطاعة حسين ان يتصرف مع الجبهتين الشعبية والديمقراطية لانهما تصدتا لمشروع روجرز »(٩)، ومن السهل ان نرى موقف الجريدة هذا الذي يدعو الى تقسيم حركة المقاومة واعطاء المفهوم بان الشعبية والديمقراطية فقط تقفان في وجه مبادرة روجرز ولم تورد اي اعتبار للشعب الفلسطيني . واحيانا تقف الجرائد موقف تحذير للحكومات من « خطر » الفدائيين ، «فالجارديان» ذكرت « ان هذا الاسبوع يشكل نقطة انعطاف بالنسبة الى الاردن ، فاما ان يثبت حسين بن طلال او ان يدع الفوضى تسيطر »(١٠). الموقف نفسه تقفه جريدة « نيويورك تايمز » ، فهي ترى « ان الجبهة الشعبية اذا ما نجحت في اي من هاتين المحاولتين — القضاء على محادثات السلام ، او قلب نظام الحكم ، — فان الشرق الاوسط سيتحول الى جحيم » وتذكر الجريدة كلمة « جحيم » باللفظة نفسها التي كان قد ذكرها الدكتور جورج حبش في مؤتمر صحفي له . بعض الجرائد كانت تضع كل اللوم على حركة المقاومة ، « فالدايلي تلجراف » ترى « ان ج. ش. ت. ف. و ج. ش. د. ت. ف ترايدان حدوث حرب اهلية في الاردن »(١١).

ما حل المشكلة بالنسبة للجرائد ؟ في الواقع تتفاوت آراء الجرائد في وضعها الحل للمشكلة ، ولكن الشيء الذي يلفت الانتباه ، هو ان هذه الحلول قد بدأت تطرح رأسا بعد عمليات خطف الطائرات واثرها . فصحيفة « هيلسنجي ساتومات » ترى « ان اي سلام دائم في الشرق الاوسط ليس ممكنا دون التعاون مع الفدائيين الفلسطينيين »(١٢) كما رأت هذه الصحيفة ضرورة « تقييم الوضع السياسي في المنطقة في ضوء تطورات عمليات خطف الطائرات التي قام بها الفدائيون »(١٣).

أما الحل الذي تطرحه « الجاردنيان » للقضاء على « السرطان » الذي تسبب في خطف الطائرات فهو « تسوية تعطي اللاجئين أملا حقيقيا في مستقبل اكثر امنا ورغدا »(١٤). كما ترى « الواشنطن بوست » ضرورة ارضاء « الامال السياسية والشرعية لجميع الفلسطينيين — الذين يخشى — اذا لم يتحقق ذلك ان يقعوا في فخ الارهابيين»(١٥) وتطرح « النيويورك تايمز » حلا مشابها فهي «تطلب توسيع مهمة « يارينغ» باعطاء الفلسطينيين دورا مباشرا في المفاوضات من أجل التوصل الى تسوية نهائية للنزاع العربي — الاسرائيلي »(١٦) ورأت صحيفة «تايمز» ان عمليات خطف الطائرات « قد زادت من وعي الجمهور البريطاني بالنسبة للقضية الفلسطينية »(١٧).

معارك ايلول وانعكاسات الجرائد الغربية : قبل انفجار المعارك بين الجيش الاردني والفدائيين ، كانت الجرائد الغربية تعكس قلة الوعي عن الاحاطة بتحليل الموقف ، « فالدايلي تلجراف » كانت تخاف اندلاع حرب اهلية خوفا على حياة الرهائن ، من الطائرات المخطوفة ، فان « حدوث حرب اهلية في الاردن تهدد حياة الرهائن الـ ٤٠ »(١٨) ثم تستطرد الى انه « ما دام القتال ليس على نطاق واسع فليس هناك خطر اكيد على الرهائن »(١٩)اما الصورة البسيطة التي تراها « انترناشونال هيرالد تريبيون » بـ « ان مستقبل الفلسطينيين متعلق بالرهائن المحجوزة لديهم ، فان استطاعوا ان يحافظوا على سلامتهم، تزول بذلك الغيوم المتلبدة ويشرق مستقبلهم »(٢٠) هي صورة تخلو من كل فهم لجذور المسألة ، وكأن الرهائن هم مفتاح القضية ، ولم تشر الصورة الى وجود اية قوى متصارعة اخرى . أما « النيويورك تايمز » فتشير تحت عنوان « هدف الفدائيين هو وضع نظام جديد » الى ان لاجئي المخيمات هم الذين اوجدوا « حركة الفدائيين الارهابيين » ضد اسرائيل ، وهدف هذه الحركة هو قلب نظام الحكم في الاردن »(٢١). ولكن على الطرف الاخر نجد ان صحيفة « صانداي تايمز » تعكس الصورة بوضوح ، « فاحداث الاردن ليست اختبارا لسلطة حسين او لقوة الفدائيين ولكن للسياسة العربية من القمة الى القاعدة ومن اليمين الى اليسار ... والتحليل الدقيق للاحداث يشير الى ان ما يجري في الاردن لم يكن من قبيل الصدفة ، بل على العكس ، يمكن ان يكون توقيته قد جرى ليتوافق مع زيارة جولدا مائير لواشنطن ومع الدورة القادمة للجمعية العامة للامم المتحدة لتمهيد السبيل من اجل استئناف محادثات السلام العربية — الاسرائيلية »(٢٢).

«التدخل السوري» وانعكاسه في الجرائد الغربية: لقد اثبت التدخل السوري في الاردن « الرفض الكلامي لاي شكل من اشكال التسوية مع اسرائيل »(٢٣) على حد قول « الجارديان » ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد هولت بعض الجرائد كثيرا حول تدخل القوات السورية . فقد عملت على ربط هذا التدخل بضرب محاولات السلام في المنطقة ودفع المنطقة الى التحول الاشتراكي ، فقد اعتبرت « انترناشونال هيرالد تريبيون» ان وقوف سوريا والفدائيين معا «سيكون بمثابة رصاصة الرحمة لامال السلام... وسيجعل المنطقة فريسة لنوع من الاشتراكية القومية التي لا تقدم سوى القليل لشعبها وتسبب الاحتكاكات والتوترات لبقية دول العالم »(٢٤). اما موقف « نيويورك تايمز » من « التدخل السوري » ، فهو « اضعاف جهود الامم المتحدة لتحقيق السلام في الشرق الاوسط »(٢٥) وتعتبر هذا التدخل «انتهاكا لميثاق الامم المتحدة »(٢٦) وبعد « انسحاب القوات السورية » اعتبرت هذه الصحيفة ان المنطقة قد تجنبت ، بهذا الانسحاب ، خطر حرب جديدة في المنطقة . كما ردت جريدة « تايمز » عامل اطالة الحرب الاهلية الى تدخل الجيش السوري .

تحليل الاحداث : لقد اعتبرت جريدة تايمز في تعليق لها بعنوان « تدمير بلد » ، « ان اثارة الحرب قد تقع على الفدائيين ، اما اطالة الحرب فتقع على السوريين ، لكن اللوم ، بالنسبة للمجزرة يجب ان يقع بشكل رئيسي على الجيش الاردني ... ان قصف المخيمات استمر اكثر بكثير ، مما تدعو اليه حاجة عسكرية معقولة ... »(٢٧). وفي الواقع ان هذا الرأي لصحيفة « تايمز » يمثل اجمالا تصور بقية الجرائد لوحشية المعارك ، فقد كشفت ايضا صحيفة « نيويورك تايمز » جانبا يعكس هذه الوحشية ، « فقد شاهد المراسلون الاميركيون والالمان الغربيون الذين سمح لهم بالدخول الى الاحياء التي يقطنها الفلسطينيون في عمان وفي حي الاشرفية ، حفرة مفتوحة فيها ٤٠ جثة ، الامر الذي يؤكد الانباء السابقة بان السلطات الاردنية كانت تدفن الموتى في قبور

جماعية داخل عمان وخارجها »(٢٨). وهذا الخط المشترك ، دفع بعض الجرائد الى لمس التجربة الفلسطينية خلال ٢٢ سنة ماضية ، كان تصور « نيويورك تايمز ماجازين » تصورا عميقا في فهم هذه التجربة ، فاعتبرت الصحيفة ان « الحرب الاهلية في الاردن ... خطف الطائرات ، تدمير اربع طائرات من قبل اللاجئين الفلسطينيين الماويين ، كل ذلك حدث بسبب فشل العالم خلال الـ ٢٢ سنة الماضية »(٢٩). كما اقترحت «التايمز» ايجاد دولة للفلسطينيين اسمها فلسطين تضم الضفة الغربية ، ذلك لانه لم يعد لهم امل في الاردن ... » وكان موقف « كريستشن ساينس مونيتور » مشابها تماما لموقف « الجارديان » في أنه لن يكون هناك سلام دائم في الشرق الاوسط اذا لم يسمح للفلسطينيين باختيار الشكل الذي سيكون عليه هذا السلام(٣٠). الموقف نفسه اتخذته « دايلي تلجراف » في عددها ١٩٧٠/٩/٢٩ . ولكن مجلة « الايكونوميست » وقفت موقفا مغايرا لبقية الصحف والمجلات ، فقد تصورت المجلة بان « انتصار حسين الظاهري سيعطي املا كبيرا للسلام في الشرق الاوسط بين العرب واسرائيل »(٣١).

ومن الواضح ، فان هذه الفترة الحرجة كانت مجالا لكثير من الجرائد لكي تجمع معلومات من المنطقة وتضع حلولا للخروج من الازمة ، واجمالا فقد تمركزت نظرة الجرائد حول القضية الفلسطينية ، كما تمركزت الحلول حول الشعب الفلسطيني ، وبالامكان القول ان صحيفة « الاوبزرفر » قد احتوت هذا الخط فتراها تعرض معالم تصورها مشيرة الى « ان قضية خطف الطائرات الغربية قد اوضحت للعالم بان في وسطها يوجد شعب مصمم بكل عناد لاستعادة ارضه المسلوبة » ، وذكر المقال ان « هناك ٣ مخططات للعاملين من اجل السلام : ١ ــ اعادة اللاجئين العرب الى ارضهم فيعيش اليهود والمسلمون والمسيحيون معا ٢ ــ انشاء دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ٣ ــ خلق اردن موسع يضم الضفة وغزة لان ثلثي سكان الاردن من الفلسطينيين »(٣٢).

أن هذا الاستعراض لوجهة نظر الجرائد الغربية اثناء معارك ايلول ١٩٧٠ ، في الاردن ، يطرح علينا عدة اسئلة نستخلص اجاباتها من كل المواقف مجتمعة ، لهذه الجرائد . ففي فترة ما قبل المعارك ، كانت الجرائد والمجلات الغربية لا تعكس صورة حركة المقاومة الا بشكل حركة ارهابية وذلك عبر :

١ ــ نشر اخبار حول الاعدامات التي يقوم بها الفدائيون لمواطنين عرب يتعاملون مع سلطات الاحتلال . ٢ ــ تصوير المخيمات على اساس انها قواعد لعصابات مسلحة . ٣ ــ اعطاء حركة المقاومة صفة الارتزاق [انظر صنداي تايمز ٢٠ آب ١٩٧٠] ٤ ــ عزل حركة المقاومة عن كل منجزاتها الاجتماعية والسياسية وعدم الخوض في تحليل خلفية الفلسطينيين .

أما بالنسبة الى قضية خطف الطائرات فاننا نلمس النقاط التالية :

١ ــ سارعت الجرائد والمجلات الى طرح حلول لمنع خطف الطائرات ، وضرورة معاقبة الخاطفين. ٢ ــ اعطاء الخاطفين صورة الخارجين عن القانون [انظر جارديان ٨ ايلول ١٩٧٠] وانهم اصحاب « الاعمال الاجرامية » [انظر انترناشونال هيرالد تريبيون ٨ ايلول ١٩٧٠] ٣ ــ تحريض النظام الاردني على ضرب حركة المقاومة ، طالما ان هذه الحركة تريد احداث حرب اهلية [انظر دايلي تلجراف ١٢ ايلول ١٩٧٠] ٤ ــ كثيرا ما ربطت الجرائد الغربية عمليات خطف الطائرات بضرب محاولات السلام في المنطقة .

أما معارك ايلول ، فقد رأتها الجرائد على انها اختبار لليمين واليسار في العالم العربي ، وكانت الجرائد دائما تطرح مشكلة الرهائن ركاب الطائرات المخطوفة واضفاء صورة مأساوية على هؤلاء الرهائن ، كما كانت الجرائد تريد أن تعكس صورة ان الفدائيين يريدون قلب النظام في الاردن . وقد هولت الجرائد كثيرا من التدخل السوري لمساعدة المقاومة .

م. ش.

---

١ ــ انظر
Essays on the American Public Opinion and the Palestine Problem. "The Middle East Crisis and the New York Times", by H.H., Published by the Palestine Research Center, Beirut, 1969.

٢ — المصدر السابق .
٣ — كريستشن ساينس مونيتور ، ١٩٧٠/٨/١٩ .
٤ — صنداي تايمز ، ١٩٧٠/٨/٣٠ .
٥ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/٧ .
٦ — تايمز ، ١٩٧٠/٩/٨ .
٧ — جارديان ، ١٩٧٠/٩/٨ .
٨ — لوموند ، ١٩٧٠/٩/٩ .
٩ — المصدر نفسه .
١٠ — لوموند ، ١٩٧٠/٩/١٠ .
١١ — لوموند ، ١٩٧٠/٩/١٠ .
١٢ — هيلسنجي ساتومات ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
١٣ — المصدر نفسه .
١٤ — الجارديان ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
١٥ — الواشنطن بوست ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
١٦ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٦ .
١٧ — تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٦ .
١٨ — دايلي تلجراف ، ١٩٧٠/٩/١٧ .
١٩ — المصدر نفسه .
٢٠ — انترناشونال هيرالد تريبيون ، ١٩٧٠/٩/١٨ .
٢١ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٨ .
٢٢ — صنداي تايمز ، ١٩٧٠/٩/٢٠ .
٢٣ — الجارديان ١٩٧٠/٩/٢٣ .
٢٤ — انترناشونال هيرالد تريبيون ، ١٩٧٠/٩/٢٢ .
٢٥ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/٢٣ .
٢٦ — المصدر نفسه .
٢٧ — تايمز ، ١٩٧٠/٩/٢٤ .
٢٨ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/٣٠ .
٢٩ — نيويورك تايمز ماجازين ، ١٩٧٠/٩/٢٧ .
٣٠ — جارديان ، ١٩٧٠/٩/٢٧ و كريستشن ساينس مونيتور ، ١٩٧٠/٩/٢٩ .
٣١ — الايكونوميست ، ١٩٧٠/٩/٢٦ .
٣٢ — الاوبزرفر ، ١٩٧٠/١٠/٤ .

المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين

تحت شعار « تحرير فلسطين ركيزة للسلام العالمي » سيقام في بغداد في اذار القادم ، في الذكرى السنوية الخامسة لمعركة الكرامة ، اول مهرجان سينمائي دولي من نوعه لافلام وبرامج فلسطين . وسوف يدعى لهذا المهرجان وفود وشخصيات من مختلف دول العالم ومن القوى التقدمية الناصرة للعمل الفلسطيني المسلح . وتقوم المؤسسة العامة للمسرح والتلفزيون والسينما في العراق، وهي الجهة المكلفة بالتحضير لهذا المهرجان بدور اساسي في انجاح المهرجان ، كما ستضطلع الحكومة العراقية جميع المصاريف . وقد بدأ التفكير في اقامة مثل هذا المهرجان منذ سنوات ، ففي اثناء انعقاد مهرجان لايبزج الدولي في العام ١٩٦٩ التقت مجموعة من السينمائيين العرب المشتركين في المهرجان ورأت اهمية اقامة مهرجان مماثل يكرس حضور القضية الفلسطينية في الاوساط الدولية . وقد نجم عن ذلك اللقاء ان المجتمعين اصدروا بيانا في ذلك الوقت نشرته الصحف العراقية اكدوا فيه اهمية اقامة مثل هذا المهرجان وضرورة ذلك . وقد وقع ذلك البيان مندوبون عن كل من العراق ومصر ولبنان والمغرب والاردن وسوريا . وقد عرضت فكرة اقامة مهرجان سينمائي شبيه بمهرجان لايبزج على جامعة الدول العربية التي احالت الاقتراح على اتحاد اذاعات الدول العربية ليتبناه . وبالفعل ، اتفق على ان يقام المهرجان في نهاية العام ١٩٧٠ الا ان مجازر ايلول في الاردن ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر، لم تتيحا الفرصة امام تنفيذ الاقتراح . وقد عقدت فيما بعد اجتماعات عدة وتبنت حكومة العراق الدعوة الى اقامة المهرجان على ارضها واستعدادها لتحمل النفقات وبذل كل ما يلزم لانجاح المهرجان . وكان ان ووفق على ذلك وشكلت سكرتارية عامة للمهرجان من السيد محمد سعيد الصحاف سكرتيرا عاما والسيد سلام

السلطان والسيد سعد لبيب سكرتيرين مساعدين. بالاضافة الى عدد من اشهر العاملين في حقل السينما والتلفزيون في العراق مثل يوسف العاني وابراهيم جلال وعمانويل رسام وغيرهم .

هذا ، وقد صرح السيد سلطان لصحيفة « الجمهورية » العراقية في ٧٢/١٠/١٦ « بأن قاعة الخلد ستكون مكان المهرجان ، واتفق على ان يكون شعار المهرجان « تحرير فلسطين ركيزة للسلم العالمي » وقد اختير اذار بالذات لتوافقه مع الذكرى الخامسة لمعركة الكرامة ... وان موعد المؤتمر سيكون ما بين ١٩ و ٢٢ اذار ١٩٧٣ » . ويهدف المهرجان الى توضيح استراتيجية الثورة الفلسطينية والدفاع عنها ، وبذلك فسوف يسهم المهرجان في دفع القضية الفلسطينية الى مواقع تكسب فيها اصدقاء ومؤيدين جددا .

اما الجهات الداعية لهذا المهرجان فهي ١ — اتحاد اذاعات الدول العربية ٢ — جامعة الدول العربية ٣ — منظمة التحرير الفلسطينية ٤ — المؤسسة العامة للاذاعة والسينما والتلفزيون في العراق . وسيكون برنامج المهرجان كالاتي : ١ — عرض الافلام والبرامج داخل المسابقة . ٢ — عرض الافلام والبرامج خارج المسابقة . ٣ — عقد جلسة بحث تتناول دور الهيئات السينمائية والتلفزيونية في الدعوة لقضية تحرير فلسطين . ٤ — عرض خاص للافلام التي تتحدث عن قضايا النضال والتحرر العالمي ضد الاستعمار والاضطهاد . وسوف تكون الفرصة متاحة للاشتراك في المهرجان امام المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية العاملة في مجالي السينما والتلفزيون وامام الشركات والجماعات والافراد. وقد حددت المواعيد التالية لتقديم طلبات الاشتراك وتقديم الافلام : ١ — ٧٣/١/١٥ اخر موعد لقبول استمارة المهرجان للاشتراك ٢ — ٧٣/٢/١٥ اخر موعد لتقديم الافلام والبرامج التي ستشترك في المهرجان . ويتصل بالمؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون والسينما (في عنوانها : الصالحية — بغداد) للحصول على استمارة الاشتراك .

وقد شكلت سكرتارية المهرجان لجنتين مختصتين تعرض عليهما جميع الافلام والمواد التي ستشترك في المهرجان ، وللجنتين الحق في تقرير الامور التالية : ١ — صلاحية الافلام والبرامج المقدمة طبقا للشروط والاحكام التي بموجبها يقبل الفيلم او يرفض ٢ — صلاحية الفيلم للمشاركة في المسابقة ٣ — صلاحية الفيلم للعرض خارج المسابقة . ويمكن معرفة المقاييس والشروط من العنوان المذكور انفا . وقد قررت السكرتارية تخصيص جوائز للمهرجان كالاتي : ١ — شعار ذهبي ٢ — شعار فضي . بالاضافة الى مبلغ ١٥٠ دينارا عراقيا للجائزة الاولى ومائة دينار للجائزة الثانية بجانب عدد محدود من الشارات التقديرية. وقد استقر الرأي على دعوة ٢٠ شخصية معروفة بتقدميتها وتأييدها للحق الفلسطيني ومن هؤلاء جين فوندا الممثلة الامريكية المشهورة بدفاعها عن قضايا التحرير خاصة في فيتنام ، والشاعر التقدمي بابلو نيرودا ، والمناضلة التقدمية الزنجية ، انجيلا ديفيس ، وهاركن شال رئيس مهرجانات لايبزج ، ورئيس مهرجاني طشقند وقرطاجه .

سفيان الرمحي

النشاط الصهيوني في اليابان

مزقت عملية مطار اللد قناع الرياء عن وجه المؤسسة الحاكمة في اليابان وكشفت عن موقفها الحقيقي من قضايانا القومية المصيرية فبعثت بأحد كبار موظفي وزارة خارجيتها يتأبط كيسا ممتلئا بمبلغ قيل انه خمسة ملايين دولار استرضاء للاوساط الحاكمة في تل ابيب ، للتعويض عن الخسائر والضحايا التي الحقها « الارهابيون الحمر » الذين أغواهم «المخربون الفلسطينيون». كما انهالت على تل ابيب رسائل الاعتذار والاستعطاف من المسؤولين اليابانيين وأعيان المؤسسة الحاكمة ، ونددت صحف المؤسسة الحاكمة بهذه « الجريمة النكراء » ، ومضت تستعطف دولة الصهاينة بخنوع لا يوازيه سوى خنوع الدوائر الحاكمة في بون ونذالتها في اعقاب عملية ميونيخ ، ناهيك عن حقن المساعدات الهائلة والتواطؤ في شتى المجالات قبل ميونيخ . واذا كان لالمانيا الغربية ودوائرها الحاكمة ربما شيء من العذر او بعض التبرير المتمثل في عقدة الذنب التي ورثتها عن جرائم النازيين ، وكذلك واقعها الاوروبي الغربي وما ينطوي عليه هذا من تحامل ثقافي وحضاري تاريخي ضد شعوبنا ومجتمعاتنا ، فلا بد للمرء من أن يتساءل ترى ما هو عذر اليابان البلد الاسيوي الشرقي ، وهو الذي يعتمد في نحو ٨٥٪ من احتياجاته من النفط الخام والغاز الطبيعي على ما يستخرج من هذا الذهب الاسود من البلدان العربية ، كما ان البلدان العربية هي من الاسواق الرئيسية للسلع والمعدات الصناعية اليابانية ، هذا اذا طرحنا جانبا حاجة اليابان الفقيرة بالمواد الاولية الى ما تزخر به البلاد العربية من هذه المواد الاولية مثل الحديدالجزائري الخام الذي يشحن الى اليابان بكميات كبيرة على سبيل المثال ...

اذن ، هل من جواب يحل لغز هذه الهرولة اليابانية امام سلطات تل ابيب سوى قصور الانظمة الحاكمة في البلدان العربية عن طرح مصالحنا وقضايانا الحيوية بجدية امام بلدان العالم الاخرى ! أليس تفريط الانظمة العربية باعتبارات كرامتنا القومية هو خير مشجع للبلدان الاخرى على الاستهتار بحقوقنا وقضايانا العادلة ومجاراة أعدائنا واسترضائهم على حساب كرامة شعوبنا وحقوقها ! هناك بطبيعة الحال قاسم مشترك أعظم يجعل من بلدان كاليابان والمانيا الغربية التي يفترض منطق المصالح المتبادلة ان تلتزم ، على اقل تقدير ، بموقف محايد من قضايا النزاع العربي الاسرائيلي ، وأعني بهذا القاسم المشترك الاعظم الانتماء لحظيرة الاستعمار الامريكي وسلطانه الاقتصادي والسياسي ، ولعلنا لا نجافي واقع الحال اذا قلنا ان الانتماء لحظيرة الاستعمار الامريكي هذا هو ذاته الذي يربط بخيوط خفية ، نحس بها دائما ولا نراها احيانا ، بين سلطات تل ابيب ونفر من الحاكمين سعيدا في بعض انحاء الارض العربية وكذلك غير الحاكمين فيها من اصحاب المصالح والتيارات السياسية واصحاب « الوكالات » ...

وعلى أية حال ، ان روابط اسرائيل الرسمية بالمؤسسة الحاكمة في اليابان قد بدأت في ١٥ ايار عام ١٩٥٢ يوم ان اعترفت اليابان — تحت وطأة الضغط الامريكي — بدولة الصهاينة ، وبادرت اسرائيل الى ارسال بعثتها الدبلوماسية الى طوكيو لفتح مفوضية هناك في ١٩ كانون الاول من العام ذاته ، بينما تلكأت اليابان في ارسال رجال مفوضيتها الى تل ابيب لغاية ٣٠ تموز ١٩٥٥ ، ولكن بتوطد دعائم العلاقات المتبادلة رفعت درجة التمثيل الدبلوماسي بين الطرفين الى مستوى سفارة اعتبارا من ٥ تموز ١٩٦٣ ، وكان اول سفير اسرائيلي في طوكيو من مواليد الاسكندرية ومن عائلة النجار ...

ان مرتكزات التأثير الاسرائيلي في اليابان ليست هائلة القوة كما هي عليه في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية حيث توجد جاليات يهودية كبيرة تمثل درجة مرموقة في السلم الاجتماعي وتسيطر على قطاعات واسعة من الاقتصاد ووسائل الاعلام تمارس من خلالهما نفوذها في شتى القطاعات والنواحي الاخرى، ولكن اسرائيل لا تفتقر كليا الى ركائز محلية للتأثير في اليابان تشكل نواة تنطلق منها بنشاط وفعالية ... فقلة عدد افراد الجالية الاسرائيلية وهيئة السفارة الاسرائيلية في اليابان يعوض عنها وجود ما يزيد على الف تاجر يهودي معظمهم من يهود البلدان العربية ويتزعمهم تاجر من عائلة ساسون من يهود العراق ، وهم يسيطرون على تجارة الماس واللؤلؤ الذي هو من

الدعامات المهمة للاقتصاد الياباني ... ويمارس هؤلاء التجار الالف نشاطا ونفوذا عظيمين في نواح شتى وذلك بتنسيق مع السفارة الاسرائيلية التي تشرف على تأسيس الجمعيات والهيئات المحلية التي تدير من خلالها نشاطاتها الدعائية وتتغلغل بواسطتها الى الاوساط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ...

ويساعد السفارة الاسرائيلية في مهمتها نجاح اسطورة روجتها العناصر الصهيونية بين سكان جزيرة هوكايدو وفحواها ان سكان هذه الجزيرة يعودون في اصلهم الى يهود موسى الذين تاهوا في صحراء سيناء ، ولذلك فان صلتهم باسرائيل والاسرائيليين هي صلة الاحفاد بالجدود وهي صلة قائمة عرقا ودما علاوة على انها صلة دينية روحية وثقافية ، وقد تقبل سكان جزيرة هوكايدو هذه الاسطورة بحماس حتى ان عددا منهم اخذوا يتقاطرون على القدس لزيارة حائط المبكى . ويستفيد الاسرائيليون من واقع هؤلاء اليهود اليابانيين المحليين ويستغلونهم في اغراضهم الدعائية الى اقصى حد ، فاقدم الصهاينة على تأسيس كيبوتزين في هذه الجزيرة نجحا اعظم نجاح حتى ان عدد الاعضاء المنتمين لهما قد بلغ (٩٠) الف عضو حسبما تقول الصحف اليابانية ،ويتطوع للعمل في هذين الكيبوتزين بعض الصهاينة من شتى انحاء العالم ، وتنشر الصحف اليابانية تحقيقات صحفية شيقة الاسلوب عن الحياة الجماعية المتازة في هذين الكيبوتزين . وكذلك اصبحت جزيرة هوكايدو والكيبوتزان مسرحا لنشاط السفير الاسرائيلي الذي وطد علاقته بمحافظ الجزيرة ، ومصدرا لحشد المتطوعين من الشباب الياباني للعمل في المستوطنات والكيبوتزات الاسرائيلية ، وتقدم السفارة الاسرائيلية منحا دراسية وبعثات تدريبية في اسرائيل للشباب من هذين الكيبوتزين . فبعثت في شهر تموز ١٩٧١ ١٣ فتاة قضين في اسرائيل شهرا ، كما ان اتحاد الشبيبة الاسرائيلي نظم زيارات تدريبية في اسرائيل لاربعة وعشرين شابا من هؤلاء ، وعلى اثر ذلك الغيت تأشيرات السفر بين البلدين ...

وعلاوة على هذا الاستغلال الدعائي الناجح لكيبوتزي يهود هوكايدو نظمت السفارة الاسرائيلية عددا من الهيئات والجمعيات المحلية لتنفذ من خلالها الى قطاعات المجتمع الياباني كافة ومن هذه الجمعيات والهيئات : جمعية الصداقة اليابانية — الاسرائيلية ، والجمعية الثقافية اليابانية — الاسرائيلية ، والجمعية النسائية اليابانية — الاسرائيلية ، والمركز اليهودي الاجتماعي ، وميتم أساهيدي .

وبفضل هذه الجمعيات والهيئات المتعددة تسعى السفارة الاسرائيلية الى زرع تأثيرها ونفوذها في قلب المجتمع الياباني وخلق قواعد راسخة متينة لها في صلب البناء الاجتماعي والسياسي في البلاد ، وهي تتحرك في اتجاهين رئيسيين : اولهما العمل على تطوير الروابط والعلاقات الاقتصادية بين اسرائيل واليابان . وثانيهما ، القيام بعملية تضليل سياسي على اوسع نطاق داخل قطاعات المجتمع الياباني لخلق صورة عامة زاهية لسياسة اسرائيل واهدافها واوضاعها ، وتشويه صورة المجتمعات العربية وعدالة قضاياها في اذهان اليابانيين ، وتطويق اية مجهودات مضادة لاسرائيل تقوم بها الجهات العربية هناك او القوى الثورية اليابانية البصيرة بعدوانية اسرائيل وعنصريتها وضلوعها مع الاستعمار الامريكي في استراتيجيته الاستعمارية الدولية ، وذلك في اطار عملية غسل دماغ واسعة النطاق على غرار عملية غسل الدماغ الشاملة التي افلحت في انجازها في مجتمعات اوروبا الغربية والامريكتين ، وبالتالي تكييف السياسة اليابانية تجاه منطقة الشرق الاوسط وفق اهوائها ومآربها ...

فعلى صعيد تطوير العلاقات الاقتصادية وتوثيقها ما زالت اسرائيل توالي ضغوطها على الحكومة اليابانية وعلى المؤسسات الصناعية والتجارية لزيادة التبادل التجاري بين البلدين وفسح المجال في السوق اليابانية امام المزيد من المنتجات الاسرائيلية ولحفز اليابانيين على زيادة استثماراتهم في اسرائيل ، وتطوير علاقاتهم الاقتصادية كما ونوعا بانشاء فروع لصناعاتهم داخل اسرائيل نفسها مثلما فعل الكثير من الشركات الامريكية والاوروبية ... ويبدو ان هذه الضغوط تحقق استجابة حثيثة من جانب الجهات اليابانية ، فقد تضاعف حجم التجارة المتبادلة بين البلدين في مدة عام واحد فزاد من ٥٠ مليون دولار في عام ١٩٦٩ الى ١٠٠ مليون دولار في عام ١٩٧٠ ، وزادت قيمة الصادرات اليابانية الى اسرائيل في المدة

ذاتها من ٢٠ مليون دولار الى ٦٢ مليون دولار ، ويمثل هذا الرقم حسب ما ورد في حديث السفير الاسرائيلي خلال الحفل الذي اقامه في نيسان ١٩٧١ لمناسبة ذكرى « عيد الاستقلال » الرابع والعشرين مجرد ٢٪ فقط من اجمالي واردات اسرائيل . وقارن السفير الاسرائيلي في حديثه ذاك بين هذا الرقم الضئيل نسبيا وبين واردات اسرائيل الكبيرة من البلدان الصناعية الاخرى الاوروبية والامريكية وقال : « ان الواجب لا يقتضي الوقوف عند مضاعفة حجم التجارة المتبادلة بين البلدين فحسب ، فهناك مجال لزيادتها ثلاثة اضعاف او اربعة » ... وكان بذلك يرمي الطعم للمؤسسات الصناعية اليابانية ويعطيها اشارة العمل وكأنه يقول لرجال الصناعة والمسؤولين اليابانيين : لا تدعوا الامر يخلط عليكم فالتعاون مع اسرائيل اجدى لكم وانفع لسوقها اوسع من سوق البلدان العربية واضخم وان كانت اصغر منها حجما ، وهذه اكذوبة دأب الدعاة الصهاينة على ترديدها على مسامع البلدان الصناعية لا سيما في اوروبا الغربية ، كما تطرق السفير الاسرائيلي في حديثه المشار اليه الى المجالات الواسعة لزيادة حجم السياحة بين البلدين ... ويرسم هذا الحديث الاطار العام الذي تتحرك ضمنه المجهودات السياسية والدعائية الاسرائيلية ... فعلاوة على سيطرة التجار اليهود والاسرائيليين على تجارة اللؤلؤ والماس في اليابان ، وهذه الاخيرة أصبحت احتكارا اسرائيليا — يهوديا على نطاق العالم بأسره ، اقامت شركات صناعة الملابس الجاهزة الإسرائيلية فروعا لها في اليابان ، ووقعت اليابان مؤخرا اتفاقية مع اسرائيل لاستيراد كميات واغرة من الحمضيات الاسرائيلية ، وهناك خط لشركة الملاحة الاسرائيلية « تسيم » يربط ميناء ايلات بميناء يوكوهاما الياباني وتشحن بواسطته المنتوجات الاسرائيلية الى اليابان وبالعكس ... وتتوالى الضغوط الاسرائيلية والصهيونية على شركة الطيران اليابانية (جال) لتسيير رحلات لها الى مطار اللد ، ويعاون السفارة الاسرائيلية في هذه الضغوط عدد من كبار المقولين واصحاب المصالح اليهود الامريكيين ، وحتى الان لم تلب الخارجية اليابانية وشركة الطيران اليابانية طلب اسرائيل هذا ، ولكنهما تسعيان لاسترضائها بتقديم خدمات اخرى مثل دعوة الفنانين الاسرائيليين للقيام بجولات فنية في اليابان على حساب الشركة ، ومن جهة اخرى ، تطالب اسرائيل بمد شبكة خطوط طيرانها العال الى طوكيو ، ولا تزال الاتصالات جارية بهذا الخصوص، وان لم يحصل الاسرائيليون على جواب حاسم حتى الان ... ومن الشواهد على هذه الضغوط الاسرائيلية الصهيونية الضغط الذي مارسته شركة لوكهيد الامريكية لصناعة الطائرات على شركة « نيسان » اليابانية لصناعة السيارات ، اذ هددتها بأنها ستتوقف عن تسويق سياراتها والبضائع اليابانية الاخرى في مناطق الشطر الشرقي من الولايات المتحدة الامريكية اذا لم تستجب لرغبة اسرائيل بانشاء مصنع لسياراتها فيها والتي لاقت رواجا هناك ، وقد رضخت اخيرا شركة نيسان لهذه الضغوط وستنشيء في المستقبل القريب مصنعا لسياراتها تحت يافطة اخرى وباسم اخر ولن تخسر الاسواق العربية .

ومن الشواهد على هذه الضغوط كذلك رفض اليابان اقتراحا تقدمت به ليبيا بواسطة مكتب المقاطعة العربية لاسرائيل لفتح غرفة تجارية عربية في اليابان علما بأن جميع الدول التي تتعامل مع اليابان تجاريا لها غرف تجارية في طوكيو او اوساكا ، وذلك خشية ان تزيد مثل هذه الغرفة من فعالية مراقبة الصفقات الملتوية التي تعقد في الخفاء وبأساليب موارية جانبية بين اسرائيل والهيئات الاقتصادية اليابانية ... ولا يتسنى لنا ان نقدر اهمية هذه الضغوط الا اذا ادركنا ان رؤوس الاموال الامريكية ، وكثير منها يهودي ، متغلغلة في اعمق اعماق الاقتصاد الياباني ، وتملك في كثير من الحالات غالبية الاسهم في كبريات المؤسسات الصناعية اليابانية الكبرى في فروع الالكترونيات وصناعة السفن وغيرها ، وبناء على هذا تأخذ اليابان بجدية متناهية اية ضغوط من هذا النوع لا سيما وان الدول العربية لا تمارس على هذه المؤسسات ضغوطا جدية لتحسب لها الجهات اليابانية حسابا . وفي هذا الاطار هدد السفير الاسرائيلي اثناء زيارة الوفد التجاري الاسرائيلي لليابان السنة الماضية بأنه اذا لم تتعاون الشركات اليابانية مع الشركات الاسرائيلية بقدر كاف فستلجأ الشركات الامريكية والاوروبية الغربية الى اتخاذ موقف حازم تجاه هذه الشركات اليابانية .. وفي هذا السياق تروج المصادر الاسرائيلية قصصا حول تعاون الشركات اليابانية مع « المخربين » الفلسطينيين ، ففي رواية من هذه قالت المصادر

الاسرائيلية ان شركة سيارات تويوتا ظلت ترفض الضغوط عليها لفتح وكالة لمنتجاتها في اسرائيل متعللة بأن التزاماتها تجاه وكلائها في الشرق الاوسط لا تمكنها من ذلك ، ولكن عندما قام الجيش الاسرائيلي بغزو منطقة الكرامة في ربيع ١٩٦٨ وجد ان في حوزة « المخربين الفلسطينيين » العشرات من سيارات تويوتا التي من طراز الجيب ، وعندئذ ادركت اسرائيل ماهية هذه الالتزامات التي تلتزم بها شركة تويوتا تجاه وكلائها في الشرق الاوسط ... اي ان اسرائيل تقصد من ترويج هذه الاخبار التشهير بسمعة مثل هذه الشركات في السوق العالمي لضعضعة مكانتها الى ان تستجيب لضغوطها ...

ولا تقتصر السيطرة الامريكية في اليابان على تغلغل رؤوس الاموال الامريكية في قطاعات عريضة من الاقتصاد الياباني ، بل لها وزنها الملموس في التأثير على سياسة اليابان العامة حتى ان اليابان رضخت للضغوط الامريكية برفع قيمة عملتها « الين » لصالح الدولار اثناء الازمتين اللتين عصفتا به السنة الماضية وهذه السنة وأدت الى تخفيضه .. فالتعامل الحكومي بين امريكا واليابان ما زال على اساس سعر الدولار قبل تخفيضه ، وتعامل اليابان الجيش الامريكي في قواعده فيها (اوكيناوا) على اساس ٣٦٠ ين للدولار الواحد بينما قيمة الدولار في البنك هي ٣٠٨،٩ ين، واضطرت اليابان لتسديد خسائرها من هذه التغطية لعجز الدولار الامريكي الى رفع الاسعار في داخل البلاد بنسبة ٤٤٪ ...

وفي هذا الجو السياسي العام المواتي الذي عبر عنه احسن تعبير جدعون رفائيل مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية عندما زار اليابان في شهر ايار ١٩٧١ فأبدى رضاه واغتباطه بنوع الحياد الذي تمارسه اليابان تجاه النزاع في الشرق الاوسط وقال : « ان هذا الحياد تأييد لنا » ... ففي هذا الجو تعمل اسرائيل بذكاء وفعالية على ترويج منتجاتها في اليابان بخلق الظواهر الفنية والتجارية المناسبة ، فأقامت هذه السنة وبالتعاون مع شركة الخطوط الجوية الفرنسية وفندق هيلتون طوكيو ما دعتسه المهرجان الاسرائيلي لعرض المأكولات والمشروبات الاسرائيلية وتذوقها في جو من الرقصات والاغاني الاسرائيلية . وكذلك نشطت في الفترة الاخيرة حركة السياحة بين اسرائيل واليابان ، وتعمل اسرائيل على جذب المزيد من السواح اليابانيين اليها فتدعو لهذا الغرض وفودا من مكاتب السياحة في اليابان للتجول في انحاء اسرائيل، كما انها تبعث بمندوبيها السياحيين الى اليابان للاتصال برجال السياحة هناك .. وواقع الامر ان اسرائيل تبذل جهودا متفانية لتنفذ الى عقول اليابانيين وقلوبهم ومن ثم الى جيوبهم ، وهي تلجأ في هذا المضمار الى مختلف أساليب الدعاية واستغلال شتى المناسبات، وكذلك باقامة المعارض والمهرجانات وغيرها من المظاهرات الثقافية والفنية والاقتصادية ، ووضع برامج طويلة الامد للمساعدات العلمية والمنح الدراسية والتدريبية .

ونتبين مقدار ما تمتاز به جهود اسرائيل هذه من حيوية ودهاء ونشاط وبراعة باستعراض شريط الاخبار التالي عن بعض النشاطات الاسرائيلية في اليابان وكيف يوزعون الادوار على الجمعيات والهيئات التي يؤسسونها لهذا الغرض فتبدو هذه الاعمال وكأنها نابعة من داخل المجتمع الياباني ذاته ...

— اقامت السفارة الاسرائيلية في طوكيو حفلا في ذكرى مرور عشر سنوات على تأسيس « المعهد الافرو — اسيوي التعاوني » في اسرائيل ، وقد حضر هذا الحفل خمسون شابا يابانيا ممن تخرجوا من هذا المعهد بموجب منح دراسية قدمتها لهم الحكومة الاسرائيلية .

— أقامت السفارة الاسرائيلية حفلا في فندق هيلتون طوكيو ترحيبا بموشي شويتاني مدير تشجيع السياحة بوزارة السياحة الاسرائيلية يوم ٧٢/٣/٥ دعت اليه رجال السياحة اليابانيين حيث تحدث اليهم عن الامكانات السياحية المتوفرة في اسرائيل.

— وصلت الى طوكيو في تموز ١٩٧١ ملكة جمال الكون لعام ١٩٧٠ الانسة ايريس هوفر الاسرائيلية المولد .

— نشرت الصحف اليابانية صورة لطفل فلسطيني مصفد بالقيد بينما ضابط شرطة اسرائيلي يقوم بقص اصفاد هذا الطفل وفك اساره ، والطفل من ابناء القدس ويدعى ناصر شريف وعمره ١١ سنة ، وقام والده بتقبيده بالاصفاد عقابا له لمدة اربعين يوما ...

— اقامت جمعية الصداقة اليابانية — الاسرائيلية

بطوكيو حفل وداع للسفير الاسرائيلي النشيط موشي بارتور لمناسبة نقله من اليابان وعودته لاسرائيل ... وجدير بالذكر ان ابنة هذا السفير قد تزوجت من احد الفنانين اليابانيين ، وقد استغلت الاوساط الاسرائيلية هذا الحدث احسن استغلال ، فخلقت حوله ضجة اعلامية هائلة في الصحف ومحطات الاذاعة والتلفزيون اليابانية ... فهم في هذا لا يدعون فرصة تفوت دون استغلالها الى اقصى حد ...

ـ نشرت الصحف اليابانية خبرا مفاده ان البروفسور دانيد من معهد وايزمن للعلوم اخترع مقياسا لدقات القلب بحجم صغير يعمل بالبطارية وذلك لفائدة الجيش الاسرائيلي .

ـ زار اليابان في السنة الماضية الثري الصهيوني روتشيلد صاحب بنوك روتشيلد الشهيرة ، وقد ظهر مع رئيس الوزراء الياباني السابق ايزاكو ساتو في نشرة اخبار مسائية ، وقد تم خلال هذه الزيارة عقد اتفاق بين البنك الصناعي الياباني ومؤسسات روتشيلد المصرفية .

ـ صنع اربعة من الفنانين اليابانيين نماذج من الطيور المحنطة المهداة من مؤسسة فيليكس يهودا في لوس انجليس لعرضها في متحف اسرائيل للطيور في المدينة المقدسة .

ـ اقامت الجمعية النسائية اليابانية سوقا خيرية في طوكيو برعاية زوجة السفير الاسرائيلي لمناسبة « عيد الاستقلال » الاسرائيلي في ١٩ نيسان ١٩٧٢ عرضت فيه الازياء الشعبية الاسرائيلية وهي في واقع الامر الازياء الفولكلورية الفلسطينية المشهورة والتي يعرضونها في كل مكان على انها اسرائيلية كما اشتمل على رقصات اسرائيلية ويابانية ، وحضر هذه السوق بعض اميرات القصر الامبراطوري ، وخصص ريعها الى ميتم اساهيدي للاطفال اليابانيين ، واقامة هذه السوق هي عادة سنوية .

ـ نشرت الصحف اليابانية تفصيلات كثيرة عن جهود الحاخام الدكتور فيكتور سالمون استاذ علم النفس في جامعة صوفيا التبشيرية بطوكيو لتخليد ذكرى القائد الياباني كيشيرو هيجوتشي الذي انقذ حياة عشرين الف يهودي من مذابح النازيين قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث كان يعمل ملحقا عسكريا بسفارة اليابان في فرصوفيا (وارسو) ، وقام هذا الحاخام بجمع الوثائق والتفاصيل عن حياة هيجوتشي هذا من عائلته ومن ملفات المؤسسات الرسمية ... وقد احتوت كتاباته التي تقرر تدريسها في مدارس اليابان على ما قدمته اليابان لاسرائيل من خدمات ... وكذلك يعمل الحاخام فيكتور سالمون هذا على بناء مدينة جديدة تسمى هيجوتشي تكريما لعمل هذا الضابط الياباني وخدماته لاسرائيل ...

وكذلك اقام مركز الجالية اليهودية معرضا لصور اللاجئين اليهود اثناء الحرب العالمية الثانية ، وقام الحاخام بشرح الصور مدققا فيها وكأنه يبحث فيها عن قريب له ليستدر بهذا عطف اليابانيين ، وقد نجح في ذلك ايما نجاح .

ـ صدرت ترجمة كتاب **تحديات اسرائيل** لوزير المواصلات الاسرائيلي شمعون بيرس باللغة اليابانية ، كما ظهر كتاب آخر باللغة اليابانية يدعى « حكمة اليهود في خمسة الاف عام » ، ووصفته صحيفة « يوميوري » بأنه من احسن الكتب المترجمة ...

ـ ولكن اذكى البدع الدعائية الاسرائيلية هو كتاب « اليابانيون واليهود » الذي طبع اكثر من عشر مرات حتى الان وهو من الكتب المفضلة عند اليابانيين ، وبيع منه حتى الان اكثر من ١٧٠٠٠٠ نسخة . وقد فاز اخيرا بجائزة « بونماي شانجو » وما زال يعتبر من اكثر الكتب رواجا ... وكل الدلائل تشير الى ان هذا الكتاب قد طبع في مطبع السفارة الاسرائيلية في طوكيو . اذ لم يحضر مؤلفه لتسلم جائزة « بونماي شانجو » المذكورة بل حضر نيابة عنه شخصان من امريكا ..

وادعى ناشر الكتاب ان المؤلف شخص يدعى ابن اكسان ، ولكنه لا يعرفه شخصيا ولا يعرف عنه شيئا ...

وقد استشهد السفير الاسرائيلي في حديثه بمناسبة « عيد الاستقلال » الماضي بما جاء في هذا الكتاب من ان الاسرائيليين قريبو الشبه باليابانيين لغة وتاريخا وعرقا ... وقد نجح الكتاب الى ابعد حد في تحقيق غرضه، فهو يمس شغاف قلوب اليابانيين نفسيا ومعنويا اذ صيغ بلغة يابانية عالية وربط بأسلوب علمي المشاكل اليابانية والاسرائيلية .

وبعد ، ما هذه سوى شذرات من مجهودات الاسرائيليين لامتلاك زمام الموقف في بلاد الشمس ،

وهم في هذا نشيطون في تزويد محطات الاذاعة والتلفزيون ودور السينما بالافلام والبرامج عن اسرائيل ، وكذلك يستغلون كعادتهم الصحف على نطاق واسع ... وتساعدهم في مجهوداتهم هذه محطات الاذاعة والتلفزيون الموجودة في قواعد الجيش الامريكي في اليابان والتي تبث برامجها طوال ٢٤ ساعة ، وقد أفلح الامريكيون في صبغ اليابانيين بطابعهم الحضاري فغزوهم ثقافيا وفنيا كما غزوهم حربيا وماليا ... ومن خلال هذه السيطرة الامريكية على اليابان اخذت تتوطد بين اسرائيل واليابان علاقات عسكرية لا سيما في ميدان التكنولوجيا العسكرية ، فتزود اليابان اسرائيل بالمعدات والاجهزة الالكترونية المتطورة ، ولعل الحديث الذي اخذ يتردد عن امتلاك اسرائيل قنابل توجه للهدف بأشعة ليزر مماثلة لتلك التي يستخدمها الامريكيون في قصف هانوي تبين مدى حاجة اسرائيل لهذه العلاقات وهذا التعاون ، فالقنابل المذكورة يوجهها جهاز الكتروني من صنع شركة سوني اليابانية على سبيل المثال ...

ولكن ماذا عن مجهودات الجانب العربي في اليابان ... من المؤسف ان نضطر لان نقول ان صورة العمل العربي في اليابان لا تشرف احدا ، ولعلنا لا نظلم احدا حين نقول ان ممثلي الدول العربية في اليابان حيث توجد ثماني سفارات عربية يكادون لا يحركون ساكنا ازاء هذا المد الاسرائيلي الجارف ، وهم على كل حال يغطون في سبات عميق ، ولا يتورع بعضهم عن حضور حفلات مركز الجالية اليهودية الاسبوعية الراقصة حيث تسود اجواء مدبرة من الخلاعة والمجون لشراء النفوس الضعيفة بين المسؤولين اليابانيين وكذلك لا يطيب لبعضهم تناول وجبات طعامه سوى في مطعم مختص باصناف الطعام اليهودية (الكوشير) ويملكه امرأة يهودية امريكية ، وقد تكون اصناف الطعام اليهودي اقرب الى المآكل العربية من الاصناف اليابانية ، ولكن اما خطر ببال هؤلاء الممثلين الدبلوماسيين العرب انهم قد يجدون انفسهم يوما في ساعة ازدحام في هذا المطعم يجالسون السفير الاسرائيلي في طوكيو على طاولة واحدة ... اما التجار العرب في اليابان فليسوا اسعد حالا ، اذ لا يحفلون بالقيام بأي نشاط لصالح امتهم وقضاياهم ... بل ان بعضهم ينغمس في صفقات مريبة مع التجار الصهيونيين .

ولكن ، هل معنى ذلك ان ساحة اليابان مفتوحة تماما للنشاط الاسرائيلي والاميركي ولا مجال لسواهما ... واقع الحال ان القوى الثورية في اليابان تخوض صراعا عنيدا ضد الهيمنة الامريكية ، كما اخذت هذه القوى تتفهم اكثر فأكثر عدوانية اسرائيل وعنصريتها وضلوعها في مخططات الاستعمار الامريكي ، كما اخذ يتعاظم تعاطفها مع قضية العرب العادلة لا سيما مع نضال الشعب الفلسطيني ، ويقف في طليعة هذه القوى الثورية في الساحة اليابانية حزب العمال والفلاحين الفقراء الثوريين الذي يؤمن بالعنف الثوري ، وتطارد الحكومة هذا الحزب بصورة شديدة ، وايضا الحزب الشيوعي الياباني الذي يعتبر التنظيم السياسي الثاني في اليابان من حيث القوة والنشاط بعد الحزب الليبرالي الحاكم ، وهو يسيطر على معظم الهيئات والاتحادات الديمقراطية مثل اتحاد المحامين الديمقراطيين واتحاد العمال لعموم اليابان ومؤتمر السلام للتضامن الافرو اسيوي ، واتحاد الشبيبة ،واتحاد المزارعين ، ولجنة نصرة فيتنام ، واتحاد المرأة . وهنالك جماهير عريضة تتفهم قضايانا وتؤيدنا بحماس واننى أمام المد الجماهيري الياباني اقف مشدوها بهم وعاتبا على انفسنا لتقصيرنا الاعلامي وفي الاتصال بهم والتعاون معهم ... ففي المؤتمر السادس والعشرين لذكرى القاء اول قنبلة ذرية على هيروشيما قدمت طالبات الجامعة باقات من الزهر الى الوفود ، وكان نصيب مندوب الثورة الفلسطينية ثلاث باقات احداها لقائد الثورة ، وثانيها للثوار المقاتلين ، وثالثها للشعب الفلسطيني ، وعندما قدم السكرتير العام للمؤتمر مندوب الثورة للجماهير هبت الجماهير تهتف للثورة الفلسطينية مدة طويلة اضطر معها رئيس المؤتمر الى ان يطلب منهم الهدوء ليقدم المندوبين الاخرين، وعادت الجماهير تهتف للثورة الفلسطينية عندما قام مندوب الثورة باهداء العلم الفلسطيني الى السكرتير العام للمؤتمر ... هذا ، وقد تشكل اخيرا في جامعة واسيدا وهي جامعة خاصة فريق للدراسات الفلسطينية ... اذن ليست الساحة خالية للاسرائيليين والامريكان الذين يرتبطون بالمؤسسة الحاكمة في اليابان ويحاولون من خلالها تضليل جماهير الشعب التي هي رصيد طبيعي للقوى الثورية التي علينا ان نمتن روابطنا بها ونوفر لها المادة الاعلامية الضرورية لتتولى هي

اشاعة الحقائق عن قضيتنا ومكافحة اكاذيب الصهاينة والمستعمرين الامريكان واضاليلهم ... ولولا التقصير العربي العام في طرح قضايانا بجدية أمام المؤسسة اليابانية الحاكمة لاضطرت هذه بدورها الى ايلاء قضايانا وحقوقنا قسطا اكبر من الاحترام ولما رضخت للضغوط الصهيونية بالصورة التي رأيناها اثر عملية اللد ، فاعتماد اليابان الكلي على النفط والغاز العربي يجعل العرب في واقع الامر قابضين على روحها ، ولكن هل هناك بين الانظمة العربية من سيقف هذه الوقفة الصادقة ؟ نترك الجواب على ذلك للايام القادمة، وان كانت المظاهر الماثلة أمامنا لا تبشر بالخير ..

وفي ختام هذا المقال ، يعود لذاكرتي خبر قرأته في جريدة « الاهرام » القاهرية في الايام التالية لعملية مطار اللد التي استشهد فيها شابان ثوريان يابانيان واعتقل ثالث ، وجاء في الخبر المذكور ان أول ياباني استشهد من اجل القضية العربية شاب انتحر من اجل مصر عام ١٩٦٨ ، وخلاصة الخبر ان هذا الشاب قد تلقى علومه في مصر واحب البلد واهلها ، وكان وفيا في اخلاصه لها فلما تعرضت لمحنتها في حزيران ١٩٦٧ اخذ يسعى لتجنيد شبان يابانيين للقيام بحملة معه تضامنا مع مصر ، ولما لم يلق كبير تجاوب ، ممن حوله من الشبان اليابانيين سيطر عليه التشاؤم واستبد به اليأس وانتحر حنقا على عدم تفهم الشباب الياباني لموقف مصر التي يحبها وقضيتها ليجلب بانتحاره الاذهان للاهتمام بهذه القضية والتعاطف معها وهو ما فشل فيه في حياته ...

ولن أجد مثالا ابلغ من هذا الخبر الذي أوردته « الاهرام » على الفشل العربي والقصور العربي في الساحة اليابانية ، الفشل السياسي والقصور الاعلامي ، وقد ذهب هذا الشاب النبيل ضحية هذا الفشل وذلك القصور الذي لا بد ان يعوض الان بتوجيه المزيد من الضغوط الاقتصادية والسياسية على المؤسسة اليابانية الحاكمة لقطع علاقاتها الاقتصادية بالعدو الصهيوني ، ومن جهة بالانفتاح اكثر فاكثر سياسيا واعلاميا على القوى الثورية اليابانية التي تؤيد قضيتنا لتشجيعها على المضي قدما في هذا السبيل ...

مراسلنا في طوكيو

العلاقات الاقتصادية الخارجية لاسرائيل

بقلم

يحيى عرودكي

من منشورات مركز الابحاث في م. ت. ف. (بيروت ، ص.ب ١٦٩١)

٣٠٩ صفحات بأربع ليرات لبنانية

تضاف اليها أجور البريد الجوي : ٧٥ ق.ل. في العالم العربي ، ٢٠٠ ق.ل. في أوروبا ، ٤٠٠ ق.ل. في سائر الدول

اصداء ميونيخ في الساحة الفلسطينية في كنـــدا

حتى نهاية شهر ايلول الماضي كانت اصداء عملية ميونيخ ما زالت تتردد في ساحة النقاش السياسي في كندا ، وبانفجار رسالة ملغومة بالملحق الزراعي الاسرائيلي في لندن وفي أماكن أخرى ، ووصول عدد من هذه الرسائل الملغومة الـى كندا ، وكانت احداها موجهة الى القنصل الاسرائيلي العام في مونتريال ، تطور النقاش حول عملية ميونيخ الى معالجة عامة لقضية « الارهاب » ككل ... وتعبير « الارهاب ككل » هنا معاذ الله ان يعني بربرية الامريكان في الفيتنام او وحشية العدو الصهيوني في أرضنا وضد أهلنا ... فهذه الكلمة «الارهاب» لا مدلول لها في أذهان بعض الناس ، وهذا البعض يبدو ان له الكلمة العليا في مناطق واسعة هامة من عالمنا اليوم ومنها كندا ، سوى شيء واحد ألا وهو كل ما ينم عن وجود أي نفس من روح في الجسد الفلسطيني حتى وان كان مجرد اشارة رفض او رعشة غضب ، بل ان مجرد الاتيان على ذكر الشعب الفلسطيني هو عمل ارهابي في نظر هذا البعض من الناس ، وهذا التفسير وحده لمدلول كلمة « ارهاب » و« ارهابيين » في اذهان هذا البعض يتيح للمرء ان يفهم ما جرى ويجري في كندا من نقاش طرفه الاول ذو الحول والطول الفريق الصهيوني وصنائعه السائرون في الركاب من هيئة المؤسسة الحاكمة ، أما طرفه الثاني فريقان كنديان هما : قيادة الحركة النقابية في ولاية كيبك بزعامة ميشيل شارتران من جهة ، والتيار القوي في الكنيسة المتحدة البروتستانتيـة الذي يقوده الاب الدكتور فورست رئيس تحرير مجلة « يونايتد تشيرش اوبزيرفر » ومؤلف كتاب « الارض غير المقدسة » .

وقبل ان نتطرق لعرض ماهية هذا النقاش وابعاده الذي يلتزم فيه فريق ميشيل شارتران وفريق الاب فورست جانب الحق والعدل ، لا بد من استعراض سريع لمفعول عملية ميونيخ وردود فعلها في الساحة الفلسطينية في كندا للوقوف علـى مقدار ضراوة المعركة التي يخوضها هذان الفريقان .

وقد طغت أخبار عملية ميونيخ على كل شيء آخر في وسائل الاعلام في كندا طوال ثلاثة ايام فأفردت لها الصحف مساحات كبيرة من صفحاتها الاولى ، كما احتلت أخبارها صدر نشرات الاخبار في محطات الاذاعة والتلفزيون ، بل ان هذه كانت تقطع مختلف برامجها لتذيع الرسائل والصور الصوتية التـي تتلقاها مـن مراسليهـا في ميونيـخ وتل ابيب والاحاديث التي تجريها مع الدعاة الصهيونيين ومع بعض المبعوثين العرب ، واستمر الاهتمام بأخبار هذه العملية مدة أربعة ايام أخرى ولكن بصورة متناقصة ، وان كانت قـد أعطت بعدا جديدا لنقاش سياسي سيظل دائرا ما بقيت القضية الفلسطينية تنبض بالحياة . وواقع الامر انه نتج عن احتشاد جمع هائل من الصحفيين في ميونيخ ، زهاء ٢٥٠٠ صحفي، وهو اكبر حشد من الصحفيين عرفه العصر الحديث ، بالاضافة الى طابع الاثارة الذي اتسمت به العملية من بدايتها ، سيل هائل من المقالات الوصفيـة والتحليلات والتعليقـات والرسوم الكاريكاتيرية ورسائـل القراء — بين مؤيدين ومعارضين — لم يسبق له مثيل على صعيد أحداث العالم العربي سوى تلك التي رافقت احداث حزيران عام ١٩٦٧ .

ولوحظ ان التركيز في الايام الاولى كان على ابراز بشاعة الحادث وبربرية مرتكبيه « العرب » مع تحميل المانيا بعض المسؤولية « لاهمالها حراسة الرياضيين الاسرائيليين » !! ثم لقيـام الشرطة الالمانية باطلاق النيران على الفدائيين العرب . وتحدثت جميع العناويـن الرئيسية في الصحف ونشرات الاخبار عن « المجزرة » و« قتل الرهائن اليهود » و« المذبحة التي تبعث على القشعريرة »، كما حفلت بالسباب والشتائم الموجهة للفدائيـين فوصفوا « بالتعصب » و« الارهاب » و« العته » و« الغباء » و« الدموية » الخ ... وأبدى بعض المعلقين ذهوله «لموجة الجنون التي تجتاح العالم» وتساءل بدهشة عما يخبئه لنا المجهول .

وقد استغلت اجهزة الدعايـة الصهيونية حادث ميونيخ على أوسع نطاق، وكانت الخطوط الرئيسية التي انتهجتها في حملتها الاعلامية هـي تحميل الدول العربيـة مسؤوليـة الحادث لايوائهـا « الارهابيين العرب » وتمويلهم وتشجيعهم . وكذلك الثناء على موقف سلطات بون لعدم رضوخهـا لمطالب « الارهابيين » ، وان كانت قد انتقدت هذه السلطات لعدم توفيرهـا الحماية اللازمـة للرياضيين الاسرائيليين ، وهذا بطبيعة الحال هو

من قبيل التهيئة النفسية لعملية الابتزاز الصهيوني لهذه السلطات في المستقبل ، فيتقاضون منهـا كالعادة المبلغ المرقوم ...

وقد وصفت المراجع الصهيونية حادث ميونيخ بانه من الحوادث التي فجع لها الشعب اليهودي ، وانه يماثل في شدتـه حادث مطار اللـد وفقد الفواصة دكار ، واعربت عن ارتياحها لان بعض زعماء العالم وجهوا اللوم الى الحكومات العربية بسببه ، وخلصت هذه المراجع الصهيونية الى القول بأن فرص « السلام » التي أخذت تلوح في الافق اثر طرد السوفييت من مصر قد تلاشت تماما بسبب عملية ميونيخ هـذه ... واكـد الدعاة الصهاينة ان « الارهاب العربي » لم يسفر بعد عن اصابة اي شخص له وزن او دور ملحوظ في سياسة الشرق الاوسط ، وان عـددا كبيرا مـن ضحاياه كانوا من السيدات والاطفال العرب ، ولعلهم يعنون بذلـك ضحايا الغارات الجويـة الاسرائيلية على مخيمات اللاجئين الفلسطينيـين والقرويين في لبنان وسوريا ... كما اكد هؤلاء الدعاة انه يتعين على الحكومات العربية المشاركة في الجهود الرامية الـى القضاء على الارهـاب وبطبيعة الحال فان المستر روجرز وزير خارجية نيكسون قد وجه مذكرات بهذا المعنى الى عدد من الحكومات العربية لاقت تجاوبا سريعا لدى البعض منها تمثل في التضييق على حركة رجال المقاومة الفلسطينية ومنع الاموال عنها ، ومن جهة اخرى عكس الدعاة الصهاينة مطالبة الحكومة الاسرائيلية لدول اوروبا الغربيـة وامريكا باقفـال مكاتب « الارهابيين العرب » وملاحقة نشاطهم وتنسيق عملية الملاحقة هذه ، وهذا مـا انصاعت لـه حكومات المانيا الغربية وبريطانيا والولايات المتحدة وغيرها حيثجعلوا من مقر البوليس البريطاني في لندن (سكوتلانديارد) مركزا لتبادل المعلومـات بين الدول المعنية حول نشاط « الارهابيين العرب » وتنسيق عملية ملاحقتهم بين دوائر المباحث والشرطة في كل من هذه الدول .

وعلى كل حال ، في الايام والاسابيع التالية لعملية ميونيخ اتسع مجال مناقشة هذا الحادث بحيث امتد الى كافة نواحي القضية الفلسطينية ، رغم ان التيار الصهيوني وصنائعه كان يلح على ضرورة حصر النقاش في موضوع « الارهاب » ومسؤولية الدول العربية عنه ... فكادت لا تخلو صحيفة من عدة موضوعـات استعرضت تاريخ القضيـة ونشأة المقاومة والتيارات التـي تتجاذبها ... ويلاحظ ان الصحف قد انتهجت ابتداء من اليوم الاول للعملية الخط الذي سارت عليه حتى نهاية الازمة ، فالصحف الصـادرة باللغة الانكليزيـة اتخذت في غالبيتها العظمى خطا معاديا للجانب العربي ، بينما المقالات التي ظهرت في الصحف الصادرة بالفرنسية أخذت تميل تدريجيا الى جانب الحياد ، بل ان بعضها انقلب دفاعا عن القضية العربية . وفي هذا الصدد ذكرت جريدة «الودفوار» الصادرة بالفرنسية في ولاية كيبك السلطات الالمانية الغربية بالانتقادات التي وجهتها هذه الاخيرة الى غواتيمالا عندما رفضت الافراج عن ٢٤ مسجونـا سياسيا لقاء الافراج عن السفير الالماني فـون سبريتي الذي كان قد احتجزه الثوار الغواتيماليون رهينة ، وكيف ان ذلك أدى الى مقتل السفير ... وقالت : « أما كان حريا بالمانيا ان تحذو خطا مختلفا عن خط اسرائيل ؟ » . كما انتقد رئيس تحرير هذه الصحيفة حكومة بون بشدة وطالبها بكشف الظروف التي أحاطت بالحادث ، وتساءل : « هل يعتبر ما نجحت فيه اسرائيل ضروريا بالنسبة لجميع حكومات العالم ؟ » . والكاتب يشير بقوله هذا الى تصرف اسرائيل المغامر في حادث طائـرة السابينا في مطار اللد عندمـا استغلت حرمة الصليب الاحمر الدولي في خديعة الفدائيين آنذاك. وقد اكتسبت عملية ميونيخ اهميـة خاصة لكندا عموما ومدينة مونتريال بوجه خاص لانه قد تقرر ان تقام في هذه المدينة الدورة القادمـة للالعاب الاولمبية في عام ١٩٧٦ . فمونتريال التي ما زالت اكبر مدينة في كندا اخذت تخسر تدريجيا من مكانتها لصالح تورنتو في ولاية اونتاريو بعد ان ظهرت أول بوادر الحركة الانفصالية في ولاية كيبك ، مما حدا ببعض الشركات الكندية الانكليزية الكبـرى الى الانتقال الـى تورنتو . ولذلك فان عمـدة مونتريال يعلق آماله على اولمبياد ١٩٧٦ لاعطاء المدينة دفعة قوية الى الامام شبيهة بتلك التـي حدثت عند اقامة معرض مونتريال الدولي عـام ١٩٦٧ ، فالمشروع حيوي بالنسبة لمدينة مونتريال واقليم كيبك عموما ، وهـذا يلقي ضوءا علـى الملابسات التي اكتنفت اصوات الاستنكار للعملية التي صدرت عن بعض الكنديين الفرنسيين .

عالمية القضية الفلسطينية :

وقبل ميونيخ كان هنالك معارضون لاقامة الالعاب

القطيعة النهائية بين اتجاهين « يميني » و«يساري» في الحركة النقابية في كيبك .

ثانيا : الصهيونيون يسعون لتطويق الاب ماكلويد :

واصلت الدعاية الصهيونية حملتها ضد الدكتور فورست رئيس تحرير مجلة « بونايتد تشيرش اوبزيرفر » ومؤلف كتاب « الارض غير المقدسة » الذي اثار ضجة كبيرة في كندا لفضحه اكاذيب الصهاينة واضاليلهم وعرضه النزيه لمأساة اللاجئين الفلسطينيين . ورغم ضراوة الحملات الصهيونية التي يتعرض لها الدكتور فورست ما زال صامدا بثبات بل ويزداد اصرارا بازدياد قوة التيار الذي يقوده داخل الكنيسة المتحدة التي تعتبر أكبر كنيسة بروتستنتية في كندا ، وكذلك نتيجة ارتفاع شأن المجلة التي يرئس تحريرها اذ تحولت من صحيفة مهملة غير مقروءة الى صحيفة عصرية واسعة الانتشار . وقد حصل الدكتور فورست في شهر آب الماضي على ثقة المؤتمر العام للكنيسة المتحدة عندما تحدث عن موضوع الشرق الاوسط ، وذلك بأن وقف له جميع الاعضاء وهم يصفقون الامر الذي طمأنه على حد قوله « على تأييد الكنيسة ، وأضعف من مركز معارضيه في صحيفته وفي مختلف مستويات الكنيسة المتحدة ».

وقد انتخب المؤتمر العام للكنيسة المتحدة المشار اليه الاب بروس ماكلويد رئيسا جديدا للكنيسة المتحدة ، ومنذ ان انتخب الرئيس الجديد سعى الصهيونيون الى تطويقه لعلهم ينالون من الدكتور فورست ويضعون حدا لنشاطه ، ولكن الاب ماكلويد لم يستجب لضغوطهم حتى الان واعلن تأييده للدكتور فورست مائة في المائة ، وان كان ذلك لا يعني انه يؤيد كل ما تنشره المجلة ... الا ان الصهيونيين افلحوا في انتزاع تنازل أولي من الاب ماكلويد اذ أدلى عقب حادث ميونيخ بتصريحات أدان فيها بشدة مرتكبي العملية ، كما صرح بعد ذلك بأنه سيبدأ على الفور محاولات لرأب الصدع الذي أصاب العلاقات بين الكنيسة المتحدة وبعض الزعماء اليهود . وذكر انه دعا الحاخام غونتر بلوت للتحدث في اجتماع الكنيسة المتحدة في تورنتو يوم ٢٢ تشرين الاول الماضي ، وقال : « ينبغي ان تمتد ايدينا الى اخوتنا اليهود في مناسبة السنة اليهودية الجديدة لندين معهم استراتيجية الارهاب التي تهددهم » .

وعلى أية حال اشتهر الرئيس الجديد بأفكاره التجديدية في أكثر من مجال ، ويعتبر اختياره انعكاسا للتيار التجديدي السائد في اجتماع اللجنة البرلمانية للكنيسة المتحدة والذي اسفر عن اقرار مجموعة من القرارات القوية تضمنت ادانة لحكومات كندا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا وروديسيا والبرتغال وفرنسا واسرائيل ، وكذلك الموافقة على تقرير أعدته لجنة فرعية تحث الاعضاء على الاستعداد لاستقلال كيبك . وبالنسبة لاسرائيل وافقت الكنيسة على طلب مقابلة ترودو رئيس الوزراء ، حينذاك ، لمناقشة بعض قضايا الشرق الاوسط « مثل انتقاد العرب للادارة الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ؛ وهو الانتقاد الذي عضدته لجنة حقوق الانسان في الامم المتحدة » ، وكذلك مناقشة موضوع « القرض الذي يبلغ مائة مليون دولار والذي قدمته هيئة تنمية الصادرات الكندية لاسرائيل » .

ورغم ان ماكلويد يحاول التزام خط معتدل ، فان الصهيونيين أبدوا على الدوام تشككهم في شخصه، وكانت جريدة الكنديان جويش نيوز الصهيونية قد أدرجته في ١٩٧١/٧/٢٣ ضمن قائمة تضم « أهم سبعة أعداء لاسرائيل في كندا » وهم اعضاء « اللجنة الكندية لتفهم الاوضاع في الشرق الاوسط » .

اما الصهيونيون ، فهم كالعادة ماضون قدما في كرنفال دعاويهم الكاذبة واضاليلهم ، ولعل أطرف هذه الاضاليل ما نشرته جريدة « غلوب أند ميل » الكندية في عددها الصادر في ١٩٧٢/٩/١٨ من ان الصهيوني سيمون ويزنتال المختص بالكشف عن الزعماء الصهيونيين المختفين والذي كشف عن شخصية ادولف ايخمان قد بدأ البحث عن « الحقائق التاريخية » حول كريستوفر كولومبوس. وقد اعرب عن اعتقاده بأن كولومبوس كان يهودي الديانة وانه قام برحلة الى امريكا الشمالية بحثا عن القبائل اليهودية العشر المختفية . وان الذي مول رحلته نفر من اثرياء اليهود الاسبان ... ترى هل هذه هي مجرد بداية للمطالبة بامتلاك القارة الامريكية بأكملها شمالها وجنوبها واعتبارها هي الاخرى أرض ميعاد لشعب الله المختار ؟

مراسلنا في كندا

شـــهريات

(١) المقـــاومة الفلســـطينية

مثلت احداث الفترة الماضية التي احاطت بحركة المقاومة (١١ ت١ — ١٠ ت٢) امتدادا للاحداث التي سبقتها دون اي تطور نوعي جديد . فمـــن جهة اولى استمرت عمليات العنف في الخـــارج ، من خطف الطائرات الى الرسائل الملغومة . ومن جهة ثانية استمر بروز بعض المشكلات التي تعكس حالة من التوتر الداخلي تستدعي لمعالجتها بحثـــا عن اسبابها العميقة ، دون الاكتفاء بالوقوف عند مظاهرها . ومن جهة ثالثة تابعت اسرائيل نشاطها الارهابي واعطته مضامين جديدة . وقد عبرت هذه الاحداث عن نفسها من خلال المظاهر التالية :

١ — **اوضاع المقاومة الداخلية** : برزت في اوساط حركة المقاومة منذ معركة ايلول ١٩٧٠ ومعركـــة جرش تموز ١٩٧١ ، اكثر من ازمة داخلية ، عبرت عن نفسها احيانا باعلان حل تنظيم واندماجـــه في تنظيم اخر (الهيئة العاملة لتحرير فلسطـــين) ، او باعلان انشقاق تنظيم عن تنظيم اخر (الجبهة الثورية) . وفي احيان اخرى عبرت هذه الازمة عن نفسها بالتقاء مجموعة من العناصر ومن تنظيمات مختلفة على نقد كل ما هـــو قائم والدعوة الـــى « مقاومة جديدة » . وقد عاشت حـــركة فتـــح الظاهرة نفسها من خلال حالة واسعة من الجدل بين صفوفها ، ثم من خلال توترات برزت الى العلن ، وخاصة في لبنان ، وحين كانت تنشر انباء صحفية حول هذه التوترات كانت قيادة فتح تسارع الـــى نفيها رسميا ، اما في الشهر الماضي ، فقد انفجرت ازمة داخلية استمرت اكثر من اسبوع ، وصدرت بشأنها بيانات رسمية من اكثر من جهة .

ففي الرابع عشر من تشرين الاول اصدرت حركة فتح بيانا رسميا جـــاء فيه انه « علـــى اثر قرار اتخذته اللجنة المركزية لحركة فتـــح بفصل ابـــو يوسف الكايد بسبب مخـــالفات مسلكية ، قـــام المذكور صباح اليوم بتحـــريض بعض العناصر في احدى الوحدات العسكرية ، فكلفت القيادة وحدة عسكرية بالسيطرة على الموقف لانهاء هذا التصرف الذي يهدد الانضباطية » . وافادت المعلومـــات الصحفية ، ان ابو يوسف الكايد كان في الاصـــل عضوا في « الهيئة العاملة لتحرير فلسطين » ، ثم انضم الى فتح وتولى مسؤوليات عسكرية مختلفة فيها ، منها مسؤوليـــة قاعدة الصرفند جنوبـــي صيدا ، ثم مسؤولا عسكريا عن قوات فتـــح في منطقة البقاع ، حيث جرت احداث التمـــرد . اما حملة تطويقه والقضاء على تمرده فقد قادهـــا ابو الزعيم ، مسؤول فتح العسكري في لبنان .

وخلافا للتوترات السابقـــة التي كان اطرافهـــا يلتزمون بالصمت ، ثم تتولى الحركة رسميا نفي الانباء الصحفية عنها ، فقد اتسم هذا التوتـــر باقدام ابو يوسف الكايد على الادلاء بتصريحـــات عن اسباب الخلاف ، تضمنت تحليلات وادانـــات ملفتة للنظر .

لم تتقدم قيادة فتح على الادلاء بأي رد على هـــذه الانتقادات ، وبالتالي لا يمكن الجزم ، اعتمـــادا على وجهة نظر واحدة ، اذا كانت هذه هي فعلا موضوعات الخلاف ام لا . ولكن ، اصرار ابـــو يوسف الكايد عليها ، واصراره على تأكيدها علنا ، يظهر اعتقاده على الاقل بانها حجج تمثل موقفـــا سياسيا مقابلا لموقف القيـــادة ، يمكن ان يلقى تجاوبا من العناصر المتمردة معه او من الوسط الفلسطيني بشكل عام . ولكن قيادة فتح اصدرت يوم ١٩ ت ١ بيانا اخر قالت فيه : بعد التحقيـــق تبين ان ما حدث لم يكن انشقاقا او تمردا . بل كان خلافا بين ابو يوسف الكايد وبعض الاخـــوة المسؤولين العسكريين . وقد اصدرت القيـــادة العامة القرارات المناسبة... وسيغادر من شملهم القرار الى الخارج .

وقد تبين فيما بعد ان السفير الجزائري محمـــد

يزيد لعب دورا مهما في انهاء الخلاف الذي استمر اسبوعا واسفر عن ٩ قتلى وعدد من الجرحى ، وذلك حين طلبت منه قيادة فتح التدخل كوسيط ، وكانت موافقته مشروطة بأن لا تكون قيادة فتح تعتبر ما جرى تمردا او انشقاقا . لان ذلك يصبح من الشؤون الداخلية التي لا يجوز حلها عن طريق الوساطة . وبعد ان تم الاتفاق بين السفير يزيد وقيادة فتح على اسس الوساطة ، توجه السفير بسيارته الى موقع الكايد يرافقه ثلاثة من قادة فتح هم ابو اللطف وابو جهاد وحمدان . وفي اللقاء معه تم الاتفاق على ان يسافر للجزائر ، وان يعتبر قتلى الحادث من شهداء الثورة وان يتم تشييعهم على هذا الاساس . وعلى اثر هذا اللقاء خرج الكايد من موقعه ورافق السفير بسيارته الى مدينة صيدا ، ثم سافر الى الجزائر يوم ٢٤ ت١ . وقد عقد السفير الجزائري مؤتمرا صحفيا يوم ٢٠ ت١ أوضح فيه الدور الذي قام به مركزا على ان تدخله كان تلبية لطلب من قيادة فتح ، وان قادة فتح حلوا المشاكل فيما بينهم وبكل سيادة . وأكد انه ليست لديه اية نية للحديث في مشاكل المقاومة الداخلية ، وانه لو كان ما حدث تمردا فان تدخله يصبح غير معقول . وكانت قد نشرت قبل ذلك (١٨ ت١) انباء صحفية عن قرار باجراء تغييرات في بعض المراكز القيادية في فتح على الشكل التالي: ــ نقل حمدان مسؤول اقليم لبنان ليكون مسؤولا عن اقليم مصر . ــ نقل هايل عبد الحميد مسؤول اقليم مصر ليكون مسؤولا عن اقليم لبنان . ــ نقل ابو الزعيم المسؤول العسكري عن لبنان ، الى مكان لم يحدد، وتعيين ابو موسى قائد ميليشيا فتح في لبنان ، مسؤولا عسكريا . ــ تعيين ابو ماهر بدلا من ابو موسى في قيادة ميليشيا لبنان .

وقد ربطت الانباء الصحفية بين الحادث وبين هذه التغييرات ، ولكن ما هو معروف في اوساط المقاومة ، ان هذه التغييرات كانت مقررة داخل فتح منذ التوترات السابقة ، وارجيء تنفيذها الى حين هدوء تلك التوترات ، ثم نفذ جزء منها فقط اثناء حادث الكايد .

ان هذا الحادث كما قلنا ليس حادثا مجتزءا يمكن النظر اليه بعيدا عن الاجواء العامة التي تعيشها حركة المقاومة بفصائلها كافة ، وعن سلسلة التراجعات التي اضطرت اليها . ففي مراحل التراجع يتسع نطاق النقد والتذمر امام الاحساس بالازمة المحيطة بالعمل الثوري . وبقدر ما تكون القيادة السياسية قادرة على تقديم بديل نضالي لقواعدها وجماهيرها ، بمقدار ما تكون قادرة على مواجهة هذه الازمات وتخطيها وتحويلها الى ظاهرة صحية . اما اذا عالجتها كتمردات جزئية، وسعت الى قمعها بالقوة دون ان تطرح البديل النضالي الذي يشكل جوابا على الازمة الثورية ، فان المعالجة حينذاك تتحول الى نوع من الكبت ، ولا يولد الكبت عادة في الحركات الثورية الا المزيد من الانفجارات . وما يجب ان نلاحظه هنا بدقة ان التمردات الجزئية في اوقات الازمات قد لا تستطيع التعبير عن نفسها بوضوح ، وقد تعبر عن نفسها بشكل خاطىء ، وعلى اساس ذلك ترتاح بعض القيادات الى استغلال غموضها او اخطائها لصدها والقضاء عليها ، ولكن الاكتفاء بذلك يعني معالجة جزئية لحدث يعبر عن وجود ازمة عامة ، دون الالتفات لجذور الازمة نفسها ومحاولة حلها. وعلى اساس ذلك فان كل قيادة فلسطينية تواجه ازمات من هذا النوع مطالبة بان تحدد بنفسها ومن اجل مستقبل مسيرتها ، نوع التوترات التي تواجهها والاسباب التي تولد هذه التوترات ، والبحث عن حل لها يتناول المواقف السياسية والمواقع النضالية التي تلبي متطلبات المرحلة الراهنة ، لان ذلك يشكل مدخلا لمعالجة التوترات برمتها ، وتحويل الجهود المبذولة فيها ، الى جهود تصب في المجرى النضالي العام .

٢ ــ **الارهاب الاسرائيلي** : تابعت اسرائيل تنفيذ مخططها الارهابي الذي اعلنت انها ستلجأ اليه بعد حادث ميونيخ ، والذي تميز حتى الان بالمواصفات التالية : ١ ــ التزام اسرائيل رسميا ، وعلى صعيد الدولة ، بسياسة الارهاب. ٢ ــ توجيه الارهاب ضد حركة المقاومة ، وضد الشعب الفلسطيني ككل . ٣ ــ محاولة جر دول العالم للاسهام معها في هذه العملية . ٤ ــ ضرب القوة العسكرية العربية ، والمواقع المدنية العربية ، على اساس سياسة الانتقام ، ولدفع الحكومات نحو منع العمل الفدائي من اجل تفادي استمرار الضربات الاسرائيلية . ٥ ــ الكف عن سياسة التمهيد الاعلامي المسبق قبل توجيه الضربات ، والقيام بالاعتداءات بصورة مفاجئة ، وحسب اهداف مختارة سلفا .

وعلى اساس هذه النقاط قامت اسرائيل مؤخرا بسلسلة من الاعتداءات المفاجئة على سوريا ولبنان ، (راجع القضية الفلسطينية عربيا) كما نفذت عملية اغتيال في روما ، اضافة الى استمرارها في ارسال الرسائل الملغومة الى شخصيات من المقاومة .

ففي ١٦ ت ١ تم اغتيال المناضل وائل زعيتر في روما ، ونعته حركة فتح في بيان رسمي جاء فيه ان « الشهيد البطل من اوائل الذين استطاعوا وبجهود لا حدود لها ، ان يوصل صوت فلسطين الى الرأي العام الاوروبي ، وتمكن عبر ذلك ان يبني جسورا من العلاقات الودية المتينة بين الثورة الفلسطينية والاحزاب التقدمية في ايطاليا » . وقد حاول اهل الشهيد احضار جثمانه الى نابلس ليدفن في مسقط رأسه ، ولكن الحاكم العسكري للضفة الغربية رفض الموافقة على ذلك ، خوفا من ان تؤدي عملية التشييع الى تفجير الوضع في المدينة . ثم وافقت الحكومة الايطالية على طلب ليبيا نقل الجثمان اليها ، حيث جرى نقله من هناك الى دمشق . وفي دمشق تم تشييع جثمان الشهيد يوم ٢٨ ت١ في جناز شعبي ضخم ، وقال ممثل فتح في كلمة تأبينية « سننتقم من الصهيونية التي اغتالته في ايطاليا واوروبا وكل الانحاء » .

اما على صعيد الرسائل الملغومة فقد اكتشفت سلطات القاهرة رسالة موجهة الى السيد فاروق القدومي (٢٤ ت١) ، ثم اكتشفت ثلاث رسائل اخرى انفجرت احدها بين يدي ضابط مصري بينما كان يحاول ابطال مفعولها (٢٦ ت١) . وفي الفترة نفسها انفجرت رسالة ملغومة بين يدي ابو خليل مسؤول منظمة التحرير في الجزائر ، (٢٥ ت١)، وفي اليوم نفسه انفجرت رسالة اخرى بين يدي مصطفى عوض زيد احد موظفي مكتب منظمة التحرير في ليبيا ، واصيب في الحادث شخصان ليبيان كانا الى جانبه . اما في لبنان فقد استطاع حارس احدى الابنية كشف رسالة ملغومة موجهة الى شاب فلسطيني يسكن في بنايته ، قبل ان يجري تسليمها اليه (٢٨ ت١) .

٣ ــ عمليات العنف في الخارج : استمرت ظاهرة الرسائل الملغومة المرسلة الى شخصيات سياسية اسرائيلية في الخارج ، ولكن اغلب هذه الرسائل تم اكتشافها . ففي ٢٥ ت١ اعلن في تل ابيب العثور على ٣ رسائل ملغومة موجهة الى الرئيس الاميركي نيكسون والى اثنين من وزرائه هما وليم روجرز وزير الخارجية ، وملفين ليرد وزير الدفاع والملفت للنظر ان هذه الرسائل كانت مرسلة من داخل اسرائيل ، وتم العثور عليها في بريد قريب كريات شمونه . وبعد يومين اعلنت السلطات الاسرائيلية انها اعتقلت سائحا اميركيا بتهمة اجتياز الحدود من لبنان الى اسرائيل ، ووجهت له تهمة توجيه الرسائل ، ولكن السائح الاميركي اعترف باجتياز الحدود وانكر علاقته بالرسائل . وفي لندن انفجرت رسالة ملغومة بين يدي « فيليان برينز » المدير الاداري لشركة هينيغ ، وهي من اكبر شركات الماس في بريطانيا . وقال بعض رجال المباحث انه يبدو ان الرسائل الملغومة جزء من خطة لمنظمة ايلول الاسود لعزل شركات تتعامل مع اسرائيل . وقد كانت هذه الرسالة صادرة من الهند ، وعلى اثرها تمكنت السلطات الهندية من اكتشاف اكثر من ٥٠ رسالة ملغومة في صناديق بريد مدينة نيودلهي . وبالمثل تم اكتشاف ٥ رسائل في مدينة جنيف (١٠ ت٢) .

● ولكن ابرز عمليات الخارج خلال الشهر الماضي نفذتها منظمة جديدة اطلقت على نفسها اسم «منظمة الشبيبة القومية العربية لتحرير فلسطين»، وذلك حين قام فدائيان من هذه المنظمة باختطاف طائرة لوفتهانزا . ركب الفدائيان الطائرة من بيروت وقاما بالسيطرة عليها وهي فوق قبرص ، وامراها بالتوجه نحو ميونيخ صباح يوم التاسع والعشرين من ت١ . حلقت الطائرة فوق مطار ميونيخ بعد ان احتشد فيه نحو ٥٠٠ رجل بوليس . وفي الاتصالات اللاسلكية التي جرت طالب الخاطفان باطلاق سراح الفدائيين الثلاثة الذين نجوا من حادث ميونيخ بعد المجزرة التي نظمت في المطار وهم : ابراهيم بدران ، سامر عبد الله ، وعبد القادر الفناوي . وجرت اثناء ذلك مفاوضات مع الخاطفين لبحث كيفية نقل الخاطفين الى المطارات المقترحة داخل المانيا او خارجها ولكن الخاطفين رفضا الاقتراحات التي عرضت كافة ، وقررا التوجه نحو مدينة زغرب بيوغسلافيا . حيث اعلنت المانيا استعدادها للافراج عن المعتقلين وارسالهم الى هناك . وبالرغم من هذه الموافقة ، وتفاديا لاي خديعة اصر الخاطفان على بقاء الطائرة في الجو الى ان يصل المعتقلون الثلاثة فعلا ، واستمرت عملية الانتظار خمس ساعات كاملة هبطت الطائرة بعدها والوقود على وشك ان ينفد

منها . ودخل المعتقلون الثلاثة الى الطائرة الالمانية ، حيث اقلعت من جديد ومعها ايضا قنصل المانيا الغربية في زغرب الذي صعد الى الطائرة ليفاوضهم ، وحطت بعد ذلك في ليبيا . وبذلك انتهت مغامرة استمرت ست عشرة ساعة ، وتميزت بالتصميم وضبط الاعصاب ، وتوجت بنجاح كامل بالافراج عن الاسرى الثلاثة .

٤ ــ **ملاحظات عامة** : اضافة للامس الاحداث الاساسية التي تحدثنا عنها ، لوحظ ان حركة المقاومة تابعت انجاز بعض العمليات الفدائية داخل اسرائيل نفسها . ففي ١٣ ت١ انفجرت عبوة ناسفة داخل احد المصارف في مدينة نتانيا قرب تل ابيب . وفي ٣١ ت١ وقع انفجار اخر في الطبقة الثالثة من اعلى مبنى في مدينة تل ابيب ، وادى الى اصابة ثلاثة اشخاص بجراح . وفي كلا الحادثين قامت اسرائيل باعتقال عدد كبير من المواطنين العرب للتحقيق معهم .

ولوحظ من جهة اخرى ان وفدا اعلاميا فلسطينيا هو الاول من نوعه ، توجه الى موسكو يوم ٢٧ ت١ . وتاتي هذه الزيارة كدليل على تنوع مستوى العلاقات بين المقاومة والاتحاد السوفياتي ، وذلك بعد الزيارة الاخيرة التي قام بها وفد فلسطيني برئاسة ياسر عرفات ، وتردد يومها أن الاتفاق قد تم على رفع مستوى العلاقات بين الطرفين .

وعلى صعيد العلاقات الفلسطينية العربية اعلن يوم ١٠ ت٢ انه قد تقرر عقد « المؤتمر الشعبي العربي لدعم الثورة الفلسطينية » في بيروت يوم ٢٧ ت٢ . وقالت امانة اللجنة التحضيرية في بيان لها : ان المؤتمر يهدف الى تكوين جبهة شعبية عربية مشاركة في الثورة ، ويشترك في اعماله ممثلون عن مختلف القوى الوطنية والتقدمية العربية ، ويتضمن جدول الاعمال : ١ ــ اقرار برنامج العمل السياسي للجبهة . ٢ ــ اقرار اللائحة الداخلية . وكما ان حركة المقاومة تعيش بانتظار هذا المؤتمر وما سيسفر عنه من نتائج ، فانها تعيش ايضا حالة انتظار وبحث متواصل للمجلس الوطني الفلسطيني العاشر الذي سيعقد في القاهرة في كانون الاول ١٩٧١ ، والذي سيكون موضوعه الرئيسي قضية الوحدة الوطنية وما تم انجازه منها على ضوء البرنامج السياسي والتنظيمي الذي اوصى به المؤتمر الشعبي الذي عقد في نيسان الماضي ، حيث ستقدم لجنة المتابعة تقريرها في هذا الشأن .

وفي الوقت الذي يجري فيه التحضير لهذين المؤتمرين ، انفجرت في لبنان يوم ١١ ت٢ ازمة سياسية عنيفة بعد اقدام رجال الامن الداخلي على اطلاق النار على عمال مصانع الغندور المضربين، واسفر الحادث عن استشهاد عامل وعاملة وسقوط ٢٦ جريحا . ويعمل في مصانع الغندور عدد كبير من العمال والعاملات الفلسطينيين ، الذين استدعي قسم منهم للتحقيق ، مما ادى الى تدخل بعض القوى من المقاومة لمعرفة اوضاعهم ومصيرهم . وهنا اثار الاستفزاز الشديد بيان صدر عن الاتحاد العام لعمال فلسطين ــ فرع لبنان ــ استنكر فيه المجزرة ولكنه اضاف قائلا : « أبلغ الاتحاد العاملات الفلسطينيات ولجنة الاضراب انه يحذرهن من الاتصال بفصائل المقاومة او اللجوء اليها . وطلب اليهن ابلاغ الاتحاد اسم اي عنصر من اي فصيل فدائي يتدخل لاتخاذ الاجراء اللازم في حقه » .

وقد فسر هذا الموقف في الاوساط العمالية اللبنانية، على انه تخل من قبل اتحاد عمال فلسطين عن مساندة الاتحادات اللبنانية في نضالها ، وهو في الوقت نفسه اضعاف لموقف العمال والعاملات الفلسطينيين المشاركين في الاضراب ، والذين يعانون من الاجحاف نفسه الذي يعاني منه بقية العمال . وكان حريا بالاتحاد ان يعتبر نفسه شريكا في المسالة ، ان لم يكن من اجل التساند النقابي، فمن اجل العمال والعاملات الفلسطينيين الذين يحتاجون للدعم والمساندة من قبل القوى السياسية والنقابية الفلسطينية ، خاصة وان الاجراءات القانونية التي تطبق على العمال اللبنانيين لا تسري على العمال الفلسطينيين ، فهم بذلك يعانون من مشكلة مزدوجة ، الحرمان من المكتسبات القانونية القديمة اولا ، والحرمان من المكتسبات الجديدة التي يطالب بها العمال ثانيا .

ب٠ ح٠

(٣) القضية الفلسطينية عربيا

١ ــ انتخابات الرئاسة الاميركية :

كان موضوع انتخابات الرئاسة الاميركية من ابرز الاحداث العالمية التي شغلت وسائل الاعلام العربية خلال الاشهر الماضية . ولقد طرحت الانتخابات موضوع العلاقات العربية ــ الاميركية ودور الولايات المتحدة في منطقتنا .

ولقد جرى تناول هذا الموضوع من زاويتين : الاولى : تقرر ان هناك فرصة ، بعد الانتخابات الاميركية ، لتحسين موقف الولايات المتحدة من العرب ، وبالتالي زحزحة الانحياز الاميركي « من مواقعه الى مواقف اقرب الى العدالة والى المبادىء التي يكثر ترددها على لسان نيكسون » (لسان الحال ٧٢/١١/١١) . الثانية : تقرر ان الموقف الاميركي لن يتغير الا بمقدار ما نصمم على اتخاذ موقف عربي موحد من المصالح الاميركية .

ولقد ناقشت معظم الصحف العربية هذه القضية، ولكن الصحافة في مصر اولتها الكثير من الاهتمام . وكانت الصحف المصرية مجمعة على ان سياسة الولايات المتحدة لن تتغير ازاءنا الا اذا حدد العرب موقفا ازاء مصالحها . ومن المناسب ان نستعرض بعض وجهات النظر المنشورة في الصحف المصرية حول الموقف من الولايات المتحدة الاميركية . ولقد ناقش الاستاذ احمد بهاء الدين قضية الموقف من الولايات المتحدة (الاهرام ٧٢/١٠/٨) . ولما كان قد دعا الى المقاطعة الاقتصادية من قبل ، فانه اضاف هذه المرة : « المقاطعة الاقتصادية والحرمان اذا شئنا ان نجعلها اسلحة حقيقية ، ومؤثرة على الولايات المتحدة الاميركية ... ليست اسلحة تكتيكية ولكنها سلاح استراتيجي » . وبين الاستاذ احمد بهاء الدين سر قوة الامة العربية ، فذكر العناصر التالية : ● اهم مخزون عالمي للبترول . ● سوق تجارية واسعة . ● مال سائل ضخم يكاد يخل بالتوازن النقدي للعالم . وذكر الاستاذ احمد بهاء الدين ان ارباح شركات النفط الاميركية تبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار كل عام ، وان السوق العربية تستورد ما قيمته ٨٠٠ مليون دولار كل عام من السلع الاميركية . ولدى العرب فوق هذا من ١٢ الى ١٥ الف مليون دولار من النقد السائل . وسيصل المبلغ سنة ١٩٧٥ الى ٢٠ الف مليون دولار . ويرى الاستاذ احمد بهاء الدين ان نعمد الى حرمان الولايات من هذه الاموال والاستفادة منها ايجابيا . واقتراحات الاستاذ احمد بهاء الدين هذه مكملة لاقتراحات سابقة نشرها على صفحات الاهرام سابقا .

ونشرت الاهرام في اليوم التالي ٧٢/١٠/٩ مقالا بعنوان « ماذا بعد انتخابات الرئاسة » . ويذكر المقال ان هنالك ثلاثة سيناريوهات : « الاول : يستند ... الى امل متجدد باستمرار ، يتصور قبل كل انتخابات ان الرئيس الجديد للولايات المتحدة لا شك منصف للعرب ضد اسرائيل ، او انه قادر بحكم تخلصه من ضغط الظروف الانتخابية على التحرك بسهولة وعلى الرؤية الموضوعية للنزاع وللمصالح القومية الاميركية (الحقيقية) في الشرق الاوسط » . « الثاني : يستند الى اسس اخرى اخلاقية وتقليدية قوامها ان السياسة الاميركية في الشرق الاوسط سياسة دائمة اساسها الاول هو العلاقة الدائمة بين الولايات المتحدة واسرائيل » . الثالث : يستند الى السؤال التالي : « ماذا نفعل من الان ، وحتى نهاية الانتخابات او بعدها لنحقق الهدف ؟ »

ويجيب على هذا السؤال بقوله :

● التأثير في اوضاع المنطقة : تغيير « الواقع الجديد » الذي فرضته اسرائيل في حزيران .

● اثبات توافر القدرة الثورية العربية على التخطيط للاستخدام الامثل للموارد العربية في الاجل المتوسط ، والتخطيط لسياسات يتم تنفيذها في الاجل القصير للاضرار بالمصالح الاميركية ومصالح النظم العربية الحاكمة التي تصر على الامتناع عن التهديد بالممكن والمتاح ، وهو الاصرار الذي اسهم في تدعيم «الواقع الجديد» في المنطقة.

● تشجيع كل عمل ــ مشروع وغير مشروع ــ يكون هدفه النهائي اضعاف قوى الضغط الصهيونية والاسرائيلية على النظام السياسي الاميركي .. » وتقوم هذه الموضوعات والموضوعات التي سبقتها على اساس « ان حجم التغيير الذي يمكن ان يطرأ على السياسة الاميركية تجاهنا ، هو انعكاس دقيق لحجم استعدادنا لاتخاذ موقف عملي موحد ــ ولو عند الحد الادنى ــ من المصالح

الامريكية في المنطقة .. » (الجمهورية ٧٢/١١/٨).
وقبل ان نتعرض لمناقشة هذه الموضوعات لا بد لنا من ايراد وجهة نظر اخرى مناقضة . وجهة النظر هذه عنوانها «لا بد من التصدي للانحياز الاميركي» (لسان الحال ٧٢/١١/١١) . ولكنها في الواقع ليست تصديا . ان وجهة النظر هذه تنطلق من ان تصحيح العلاقات يبدو ممكنا الآن « ... فان الباب يبدو مفتوحا امام اربع سنوات كاملة يمكن فيها السعي الى زحزحة هذا الانحياز من مواقعه الى مواقف اقرب الى العدالة ... »

ولكن هذا كله مربوط بأمرين : الاول : « ... يتوقف علينا نحن ... » علينا نحن العرب ان نعرف كيف نحدد مطالبنا بوضوح وان نعرف كيف ندافع عن حقوقنا « الدفاع المقنع للاميركيين وليس الدفاع العاطفي الصالح للدعاية الداخلية ... » الثاني : ان نختار « ... قيادة سياسية لقضية فلسطين يوكل اليها امر المفاوضة ، وما يتبعها من اخذ وعطاء ، شرط الا تكون عرضة للتخوين في أول مناسبة » . ولا يفوت صاحب المقال من ان يؤكد: « ان العرب مدعوون الى دفع « شيء » ثمنا لاخطائهم السابقة ولخسائرهم الحربية ... » فاذا رفضوا واصروا « .. فان الخسارة في نهاية المطاف ، ستكون اكبر من اي « تنازل » يمكن ان يتحمله العرب بارادتهم ورضاهم » . ولهذا « ... فعلى الذين ليس عندهم غير الفكر السلبي ان يتنازلوا ويسمحوا لافكارهم وعقولهم ان تتحرك بالسرعة المطلوبة ... »

هناك خطان اذن . احدهما يريد اقناع الولايات المتحدة واخر يريد الضغط عليها باستخدام مختلف الوسائل . ولكن هل يجدي الضغط ؟ هذه قضية بحاجة الى الدراسة الواعية ، لان الاجابة العشوائية تقود الى نتائج عشوائية . ولا يجوز الارتجال في قضية كهذه . ولهذا فلا بد من ان نسأل انفسنا قبل الاجابة ماذا نريد نحن من الولايات المتحدة ؟ هل نريدها ان تكون وسيطا ؟ هل نريدها ان تضغط على دولة الاحتلال لتنفيذ قرار مجلس الامن ام نريد غير هذا ؟ ان الولايات المتحدة لا تستطيع ان تكون وسيطا لانها طرف . وهي طرف لانها تريد استمرار سيطرتها على المنطقة وثرواتها . وليس صحيحا ان تأييد الولايات المتحدة لدولة الاحتلال ناتج عن تأثير اصوات اليهود او اموالهم او نفوذهم فحسب . ان للولايات المتحدة مصالحها الكبرى التي تدفعها الى مثل هذه المواقف . والتنافس على كسب ود دولة الاحتلال ليس تنافسا انتخابيا وان بدا كذلك ... انه تنافس على اعلان الالتزام بمصالح الاحتكارات الاميركية في بلادنا . لقد بدأت الولايات المتحدة مرحلة جديدة من سياستها الامبريالية ، وخلال هذه المرحلة اخذ تأييدها لمشروع الاستعمار الصهيوني في فلسطين يزداد حدة واندفاعا . كانت مطامع الاحتكارات في هذا الوقت قد اكتشفت بترول المملكة العربية السعودية واخذت تنظر بجشع الى بترول العراق والكويت . واذا كانت بريطانيا قد فكرت في القرن التاسع عشر بقيام دولة صهيونية من اجل حماية قناة السويس والطريق الى الهند ومنع قيام وحدة عربية ، فان الولايات المتحدة الاميركية فكرت في مصالحها الخيالية في المنطقة عندما بدأت دعمها العملي والمنظم لقيام دولة الاحتلال الصهيوني ، ثم لدولة الاحتلال بعد قيامها . ومنذ ذلك الحين وهذا الدعم يتعاظم . لان اهمية مصالح الولايات المتحدة كانت تتعاظم ايضا . ولهذا ليس بدعا ان نرى الحزبين ، الجمهوري والديمقراطي ، يتنافسان على تقديم العون لدولة الاحتلال الصهيوني ،وليس غريبا ان يؤكد زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ — ردا على نقد الديمقراطيين — من : « ... ان المساعدات التي قدمها نيكسون لاسرائيل تفوق عشر مرات المساعدات التي قدمتها اية حكومة امريكية سابقة ... » . (الاخبار ، السباق المحموم ٧٢/١٠/٣) .

فاذا كانت الولايات المتحدة الامريكية طرفا فهل يمكن ان تضغط على دولة الاحتلال الصهيوني من اجل الانسحاب ؟ ان الولايات المتحدة الاميركية لن تضغط على دولة الاحتلال الصهيوني ، لان القضية قضيتها اولا . هل من مصلحة الولايات المتحدة ان تنسحب دولة الاحتلال ؟ هل من مصلحتها ان يتفوق العرب ؟ اجابت الولايات المتحدة على هذا كله بصراحة قاسية وقالت : لا . فما الذي تريده الولايات المتحدة اذن ؟ هل تريد حربا دائمة؟ بالطبع لا ولكنها تريد استمرار هيمنتها وضمان مصالحها . وهذا ، من وجهة نظرها ، لا يتم الا من خلال التوسع الصهيوني والتفوق الصهيوني في المنطقة . وعليه فان هدف الولايات المتحدة الان هو تكريس الانتصار الصهيوني في حزيران وتكريس الهزيمة العربية . ولكنها في الوقت ذاته تبحث

من حل ضمن هذا الاطار . حل يكرس انتصار دولة الاحتلال الصهيوني ، ويفتح امامها مجالات اوسع للسيطرة، وفي الوقت ذاته يحد من اسباب التوتر، او يطوتها .

ولهذا فالولايات المتحدة تسعى من اجل فرض مجموعة من الحقائق : الاولى : استمرار الهدنة، او وقف اطلاق النار ، حتى لا يقود اطلاق النار الى تفجيرات غير مسيطر عليها في المنطقة ، وحتى يعتاد الاعداء التعايش . الثانية : خلق مجموعة من الاوضاع الباعثة على الاستسلام (انقلابات ، نزاعات داخلية ، هزائم ، حكومات عميلة الخ). الثالثة : العمل على فرض حلول جزئية (فتح قناة السويس ، مثلا) . وكان هذا واضحا خلال السنوات الخمس الماضية . وما زال يبدو واضحا في السياسة الاميركية . وعليه فان الولايات المتحدة لن تضغط من اجل انسحاب كامل ، ولن تعمل على تنفيذ قرار مجلس الامن . وكل ما ستفعله سيكون لمصلحة تكريس انتصارها الصهيوني . ولسوف يزيدها الخروج من فياتنام شراسة ، لان هزيمة الشرق الاقصى سيجعلها اكثر حرصا على التمسك بالشرق الاوسط ، ولان خسارتها هنا هي خسارتها الكبرى والاخيرة . فالولايات المتحدة الاميركية اذن لا تبحث عن « سلام » في المنطقة بل تبحث عن استسلام . والاقناع لا يجدي في هذا المجال ، لان الامبريالية لا يقنعها الا الدفاع عن مصالحها بوسائلها ، والا هزيمتها في ميادين القتال .

فاذا كان الاقناع غير مجد فهل يجدي الضغط الاقتصادي مثلا ، وكل اشكال الضغط الاخرى ؟ انها تجدي اذا كانت جزء من معركتنا مع الولايات المتحدة الاميركية ، فنحن نقاطع الولايات المتحدة ، نضرب مصالحها ، نخلق لها المشاكل ، لا لنضغط عليها ، فتضغط بدورها على دولة الاحتلال، بل لاننا نحاربها في كل مكان . وموقفنا هذا لن يغير موقف الولايات المتحدة بسرعة ، وفي المدى القصير ، كما يتوهم كثيرون . ذلك ان الولايات المتحدة ستجابه المقاطعة ووسائل الضغط الاخرى بحملة مضادة ، شرسة ودموية . ويعود ذلك الى اسباب عدة اهمها : ١ — أن الولايات المتحدة الاميركية باعتبارها قوة امبريالية ، لا تتسامح مع اي تهديد لمصالحها ، وهي باعتبارها قوة امبريالية لا تتقن الا لغة القوة . ٢ — ان الولايات المتحدة ، وباعتبارها قوة امبريالية ذات مصالح خيالية ، ترى في اي تنازل تقبل به بداية مسلسل تنازلات تمس جوهر مصالحها ، ولذلك فانها تقاتل قبل اي تنازل ، ولا تخضع الا بعد حرب طويلة تخبرها . ٣ — وفيما يتعلق بدولة الاحتلال الصهيوني ، فان الولايات المتحدة الاميركية ، لا تملك ان تقدم تنازلات ذات بال ، لان هذا يهز استراتيجيتها العالمية . وعليه فان الموقف من الولايات المتحدة يجب ان يتحدد كما يلي : أ — الولايات المتحدة طرف اساسي في الصراع ، وهي عدو اساسي ، لا يمكن تحييده او اقناعه بالعدول عن موقفه . ب — مجابهة الولايات المتحدة في كل المجالات والمقاطعة الاقتصادية والسياسية والعمل على ضرب مصالحها بعض مظاهر هذه المجابهة اللازمة. ج — ان هذه المجابهة لا تستهدف الضغط على الولايات المتحدة لاقناعها بلعب دور الوسيط ، لانها لن تكون وسيطا ، انها تستهدف : — الحاق الضرر بمصالح الولايات المتحدة . — خلق رأي عام متزايد داخل الولايات المتحدة يتحسس خطأ تبني سياسة معادية للعرب ، ومؤيدة للاحتلال الصهيوني بلا تحفظ . والولايات المتحدة الاميركية لن تكون وسيطا الا اذا قبلنا بالمشاريع الاميركية — الصهيونية .

والان يعود نكسون الى الرئاسة ظافرا . وتبدأ الدوائر الاميركية الحاكمة نشاطها لتحقيق ما تريد. ولقد جاء هذا واضحا في اكثر من تصريح . فقد اعلن روجرز « عن مبادرة اميركية جديدة بين مصر واسرائيل في وقت قريب ... » هدف هذه المبادرة « ... حمل مصر واسرائيل على اجراء مفاوضات مباشرة ... » ولم يتوان روجرز من ان يؤكد ان واشنطن ستكون « نشطة جدا في هذا المجال » . (النهار ٧٢/١١/٦) . اما نيكسون فقد اعلن في اول تصريح له ، بعد انتخابه ، ان المنطقة : « ... ظلت خلال العامين الماضيين في حالة (هدنة) ، او في حالة تستطيعون تسميتها ما شئتم .. » ولكن وعلى الرغم من ذلك «... فان الموقف يمكن ان ينفجر في اية لحظة ..» فالرئيس الجديد اذن مصمم على التصرف في الشرق الاوسط ، بعد ان جمد مشاكله مع الصين، وبدأ صفحة جديدة من العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، وتطمح شوطسا بعيدا في طريق الانسحاب من الورطة الفيتنامية . ولكن ما يريده في الشرق الاوسط واضح ايضا . انه يريد ان

يضمن استمرار وقف اطلاق النار ، وذلك يحتاج الى تصفية المقاومة اولا ، ثم بدء مسلسل الحلول الجزئية ، بفتح قناة السويس وجر العرب الى قبول مبدأ المفاوضات المباشرة . ولا غرو بعد ذلك اذا وجدنا من يقنعنا بأن على العرب ان يدفعوا ثمن الاخطاء والهزائم ، وان يكونوا ايجابيين . ولا غرو بعد ذلك ايضا اذا رأينا « ... الحلقة تضيق اليوم اكثر فأكثر امام المقاومة » (صدى لبنان ، ٧٢/١١/٤) . ذلك ان الانظمة العربية تبحث عن حل ، ضمن اطار الظروف الراهنة ، والحل لا بد ان يكون على حساب المقاومة والقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، لان الحلول الدولية تكون دائما على حساب الضعفاء والمهزومين .

وهذا يستلزم ان يناضل الشعب الفلسطيني والجماهير العربية من اجل اغلاق الابواب امام كل التسويات الاستسلامية . وهذه هي الطريقة الوحيدة للحيلولة دون التصفية : تصفية المقاومة والقضية والشعب .

٢ ــ سورية والغارات الاسرائيلية :

قررت دولة الاحتلال الصهيوني ، منذ عملية ميونيخ ، أن تبدأ سياسة جديدة فيما يتعلق بموقفها من الثورة الفلسطينية والبلاد العربية . وتقوم هذه السياسة على ركيزتين : الاولى : مطاردة رجال الثورة أينما كانوا ، وهذا يعني اتباع سياسة الهجوم المستمر . ومن هذا المنطلق قامت قوات الاحتلال بعدد من الغارات على القواعد والمخيمات في سورية ولبنان. الثاني : ضرب الدول العربية التي تعمل الثورة على اراضيها ، من أجل دفعها الى اتخاذ موقف معاد من الثورة الفلسطينية . وقامت دولة الاحتلال من هذا المنطلق بهجماتها ضد لبنان وضد سورية . ولهذه الغاية كان احتلال المرقوب في منتصف ايلول الماضي ، ولهذه الغاية ايضا كان قصف المزيريب مثلا ، ومعسكر تلكلخ واماكن أخرى من سوريه .

ان هذه السياسة ترمي الى غايتين : الاولى : في الميدان الفلسطيني وغايتها ارباك الثورة الفلسطينية واشغالها واستنزاف قواها وايقاع أكبر الخسائر الممكنة ، ماديا وبشريا ، في صفوفها . الثانية . تهديد حرية البلاد العربية وسيادتها واستقلالها وايقاع خسائر فادحة بها لاجبارها على محاربة الثورة الفلسطينية .

ولا يني الرسميون في دولة الاحتلال يتحدثون عن المثل الذي ضربه حسين ، والذي لا بد من ان يضرب مثله القادة العرب ليتلافوا انتقام دولة الاحتلال .

ولقد حاولت قوات الاحتلال ان تطبق هذه السياسة على لبنان . ولكنها ، بعد ان حققت بعض اهدافها في لبنان ، حولت اتجاهها الى سورية . فلماذا حدث ذلك ؟

حدث ذلك نتيجة ما يلي : ١ ــ لان لبنان الرسمي أفهم الدوائر الامبريالية العاطفة عليه أن « مشكلة المقاومة » مشكلة تتجاوز لبنان . وان وضع لبنان الداخلي والاوضاع العربية المحيطة لا تسمح بحسم الموضوع حاليا . ٢ ــ لان مركز ثقل المقاومة في سوريه ، ولان بقاءها في سوريه يضمن لها البقاء في لبنان . فاذا ما تم تحول في الموقف السوري الرسمي من المقاومة اصبح حسم موضوع المقاومة في لبنان ميسورا . ولذلك فان رسميي دولة الاحتلال يصرحون علنا في هذه الايام بأن على سوريه أن تفعل ما فعله النظام الاردني ، والا فان عليها أن تتحمل العواقب . ولهذا حدثت موجات الغارات الهمجية . وما زال التهديد بأعمال عدوانية جديدة قائما .

ولقد قررت سوريه أن ترد . وكان أن ردت فعلا . وهي تبادر الى الرد الذي تراه مناسبا ، خلال كل اشتباك أو بعده . والجبهة السورية الان هي الجبهة المتوترة الوحيدة ، بعد أن هدأت المدافع ، وبعد أن اضيئت مستعمرات الاغوار في ظل حماية الجيش الاردني ، وبعد أن هدأت الجبهة اللبنانية لاسباب كثيرة . ولقد انتقدت دمشق صمت الجبهات العربية عبر مقال افتتاحي لجريدة الثورة شبه الرسمية . قالت الصحيفة : « لقد تحول وقف اطلاق النار الى سلاح يضاف الى أسلحة العدو المتعددة ، وسمح استمراره للحد الادنى من التماسك العربي أن يتخلخل ، كما سمح للكثيرين من المتخاذلين بأن يضعوا انفسهم على قدم المساواة مع الذين يعدون فعلا للمعركة ويحشدون لها أقصى حدود امكاناتهم ». وزادت على ذلك ان وقف اطلاق النار « فرصة للامبريالية لتستمر في خداعها ومناوراتها ، ولتعمل بمختلف الاساليب لتطويق ارادة العرب القتالية وتفجير تناقضاتهم الداخلية ». وأضافت الصحيفة ان سوريه أكدت : « أنها

مستعدة لكل تضحيـــة في سبيل طريق الحـرية والتحرير » (النهار ٧٢/١١/١٢) .

وهذا الطريق هو الطريق الطويل الشاق . ان ضغط قوات الاحتلال سيتركـز على المقاومـة وسوريه ، وسوف يزداد عنفا وشراسة . وهنالك معلومات تؤكد ان دولـة الاحتلال مصممة على احتلال جنوب سوريه . وهذا ما أكده آلون في كتاباته ، معتبرا ان دولة الاحتلال اخطأت في عدم احتلال جنوب سوريه خلال حرب حزيران . كما ان هناك معلومات اخرى تفيد ان دولة الاحتلال قد تلجأ الى ضربة قاصمة توجه للجيش السوري وذلك من أجل اضعافـه ، وانتقاء خطره الـى سنوات اخرى . وان هناك من يراهن اليوم على ان سورية « قد تدفع » الى اتخاذ تدابير من شأنها الحد من نشاط المقاومة وشل حركتها . . . (صدى لبنان ٧٢/١١/٤) .

ناجي علوش

(٣) القضية الفلسـطينية دوليا

عمدت اسرائيل، بعد سيل من التهديدات باستعمال جميع الاساليب في حربها ضد المقاومة ، الى نقل « عمليات الابادة والارهاب » التي اتبعتها ضـد قواعد الفدائيين والسكان ، الى خارج المنطقة . فقام عملاؤها باغتيال المناضل وائل زعيتر في مدينة روما عشية ١٠/١٦ باطلاق النار عليه حين عودته ليلا الى منزله . وجاء اختيار وائل ضحية اولى في حملة الارهاب الاوروبية الجديدة ، ليثبت اهتمام وانزعاج العدو الاسرائيلي بالعمل التعبوي الذي قام به والذي ساهم في تكتيل القـوى اليسارية والديمقراطية الاساسية في ايطاليـا في دعمهـا للمقاومة الفلسطينية . وقد اثارت هذه الجريمة سخط الاوساط اليسارية وخاصة الحزب الشيوعي ونقابات العمال التي قامـت بتحركات اعـلامية واسعة ضد الارهاب الصهيوني ومن اجل تقصي الحقائق . ورغم بعض التفصيلات حـول احـد المجرمين ، لم تعرف حتى الان اية نتائج ملموسة عن التحقيق .

ولم تقتصر التحركات الصهيونيـة الجديدة علـى اوروبا ، فامتدت عبر الرسائل الملغومة لتشمل عدة دول عربية .

من جهة اخرى قامت مجموعة من فدائيي « منظمة الشبيبة القومية العربية » في ١٠/٢٩ بتحويـل طائرة تابعة للخطوط الجوية الالمانية لوفتهانزا عن خط سيرها العادي الى مطار زغرب في يوغوسلافيا حيث حطت بعد ساعات من الاخـذ والرد مـع السلطات الالمانية الغربية ، انصاعـت بعدهـا الاخيرة الى مطلب الفدائيين باطلاق سراح الاسرى الثلاثة المعتقلين في المانيا بعد عملية ميونيخ . وقد ادى هذا التنازل الالماني الى تأزيـم العلاقـات الاسرائيلية الالمانية مقابل انفراج في العلاقات مع العرب . كما ادى الى حملة واسعة ضد الحكومة من قبل اقطاب الحزب الديمقراطي المسيحي وحليفه المسيحي الاجتماعي في بافاريا (حزب شتراوس) ، حيث طالب الاخير الحكومة الفيدرالية بدعوة ليبيا لتسليم الفدائيين .

لكن حرص حكومة برانت على انهاء الازمة مـع الدول العربية لعب دورا مهما في ردود الفعـل الرسمية . فاعلن فالتر شيل ، وزير الخارجية ، رفضه لتعبير « الاستسلام » الذي استعملته تـل ابيب في وصف التصرف الالماني ، واكد ان المانيـا ليست طرفا في نزاع الشرق الاوسـط . واكتفت وزارة الخارجية بطلـب توضيح من ليبيا حـول سياستها في المستقبـل مطالبة اياها بمحاكمـة الخاطفين نظرا لعدم وجود اتفاقية تبادل جنائية بين البلدين .

واستمرت في هذه الاثناء الحملة الاسرائيلية التي ساهمت فيها بحماس الصحافة اليمينية في المانيـا وخاصة صحافة شتيرنفر . فركزت «بلت تسايتونغ» على أن العمليه اهانة واذلال للحكومة الفيدرالية،

بينما طالبت « دي فلت » بقطع العلاقات مع ليبيا . واستدعت اسرائيل من جانبها « سفيرها » في بون بحجة التشاور . وواجه فيلي برانت الحملة بعملية توازن ظهر فيها واضحا حرص المانيا على المحافظة على علاقاتها الاقتصادية مع الدول العربية وعلى علاقة سياسية مميزة مع اسرائيل. فبعد ان اعتبر ، في مقابلة مع مجلة نيوزويك الامريكية (١١/٦) ان « ردود الفعل الاسرائيلية مبالغ فيها » مذكرا بان « الاسرائيليين انفسهم بادلوا المساجين مقابل ركاب طائرة عام ١٩٦٨ » وبان عطفه على المنطلقات الاسرائيلية لن يمنعه من ان يعارض بعض مطالبها اذا اقتضى الامر ، عمل على تهدئة الجانب الاسرائيلي فارسل رسالة شفوية الى غولدا مئير عن طريق سفيره في القدس فون بوتكامر اعلن فيها تأسفه للتطور السيء للعلاقات وحرصه على ابقائها على مستوى حسن. واعتبرت اسرائيل هذه الرسالة انهاء للازمة يسمح بعودة « السفير » الاسرائيلي الى بون .

وقد اظهرت هذه الاحداث مرة اخرى الدور المتعاظم الذي تحاول دول اوروبا الغربية القيام به في « الصراع العربي الاسرائيلي » ، مما يدفع بعض الاطراف المعنية الى التسابق في كسب ودها . وما كان انضمام بريطانيا وايرلندا والدانمرك الى الدول الست الاصلية (والذي توج باتفاق مؤتمر قمة الدول التسع في باريس في ١٩/١١) ، الا ليزيد من اهمية « المجموعة الاقتصادية الاوروبية » . ولكن جميع الدلائل تشير الى حذر دول السوق المشتركة الشديد تجاه اية خطوة في اطار سياسة شرق اوسطية جديدة . هذا الحذر عبر عنه وزير خارجية فرنسا امام الجمعية العمومية الفرنسية في ١٠/١٦ بقوله « ان احداثا عدة ــ وخاصة عملية ميونيخ ونتائجها ــ تفرض في الظروف الحالية عناية خاصة في اتخاذ اية مبادرة اوروبية » مضيفا بان « شروط سلام مقبول من اسرائيل ومصر ليست سهلة التحديد الان » .

وكان محمد حسنين هيكل قد اشار قبل ذلك الى فشل جولة الزيات الاوروبية في توفير مصادر سلاح جديد مكان المصدر السوفياتي . كما اكد ابا ايبان في نيويورك ان لقاءاته في اروقة الامم المتحدة اوضحت له عدم رغبة دول اوروبا الغربية في اتخاذ اية مبادرة في الازمة .

لكن هذا الحذر ــ الذي قد يفسر بغياب اوروبا الغربية عمليا من الساحة وحرصها على عدم اساءة العلاقات مع العرب واسرائيل معا ــ لم يمنع بعض دولها من اتخاذ مبادرات ذات دلائل . فاكد بيير هارميل وزير خارجية بلجيكا اثناء زيارة عبدالحليم خدام وزير الخارجية السورية ، تعلق بلجيكا بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي ينص اساسا ــ حسب رأيه ــ على مبدأ رفض ضم الاراضي بالقوة وعلى ضرورة توفير الامن والسلام لدول المنطقة كافة (ويبدو ان الدبلوماسية البلجيكية نشيطة بشكل خاص في هذا المضمار) . واعلن سفير المانيا الجديد في القاهرة في ١١/٤ حرص بون على تنفيذ القرار نفسه ببنوده كافة . كما اثارت اللقاءات الطويلة في باريس بين المسؤولين الفرنسيين (بمن فيهم بومبيدو) وعبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا ، التساؤلات حول مدى تطرق الطرفين الى قضايا اخرى الى جانب العلاقات الاقتصادية . وابرزت « المجموعة الاوروبية » اهتمامها « بقضية الشرق الاوسط » باقرار مساعدة قدرها ١٦٥ مليون فرنك فرنسي تقدم خلال خمس سنوات عن طريق الاونروا « لاعانة اللاجئين الفلسطينيين » .

وفي الامم المتحدة ، نشرت اللجنة الخاصة للاستقصاء حول التصرفات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ــ والتي تضم ممثلي سيلان ويوغوسلافيا والصومال ــ تقريرها ، الذي ابرزت فيه محاولات اسرائيل الدائبة لتغيير معالم الاراضي المحتلة باقامة مستعمرات عديدة وبحمل السكان الاصليين على مغادرة اراضيهم . كما اكدت على ان حقوق الانسان قد خرقتها اسرائيل التي تعمل ما في وسعها لطمس الشخصية الفلسطينية . وطالبت اللجنة بان يقوم الصليب الاحمر الدولي بالاشراف على حماية السكان . وقد واجه المندوب الاسرائيلي هذا التقرير بهجوم عنيف .

ومن جهة اخرى ، افتتحت اللجنة القانونية للجمعية العمومية يوم ١١/٩ نقاشها حول موضوع « الارهاب » . وقد استهل رئيس اللجنة ، البلجيكي اريك سوي ، الاجتماعات بمطالبة الدول الاعضاء بالتوقيع على المعاهدات القائمة بخصوص خطف الطائرات وحماية الدبلوماسيين ، معلنا عن اجتماع الوفود التي التقى بها حول موضوع مكافحة الارهاب ، علما بان تحديد الكلمة سيكون

مقبة كبيرة . واقترح على ضوء ذلك تأجيل النقاش في الموضوع الى الدورة القادمة على ان تقدم كل دولة اقتراحاتها في هذا الصدد قبل ايلول ١٩٧٣.

على صعيد العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، قام وفد اعلامي فلسطيني لاول مرة بزيارة الاتحاد السوفياتي ابتداء من ١٠/٢٧ . وكانت مختلف الاجهزة الاعلامية السوفياتية قد اكدت خلال الفترة الماضية على تطور التأييد السوفياتي لحركة المقاومة . فعلقت وكالة نوفوستي في ١٠/٤ على الاعتداءات الاسرائيلية معتبرة اياها « حملة صليبية ضد كل الحركة الفلسطينية » ومضيفة بان « السوفيات يرحبون مع كل الاصدقاء المخلصين للشعب العربي الفلسطيني بكل تدبير من شانه توطيد قوى حركة المقاومة الفلسطينية » التي تعتبر « في الصفوف الاولى للنضال ضد العدوان الامبريالي في الشرق الاوسط » . وفي ١٠/١٥ ، ظهرت لاول مرة بين الشعارات المعلنة بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين لثورة اكتوبر نداءات للتضامن مع المقاومة الفلسطينية .

ومن الجانب المصري استمرت المحاولات الرامية الى تحسين العلاقات وتبلورت في زيارة رئيس الوزراء عزيز صدقي لموسكو في ١٠/١٦ . ورغم قصر الزيارة التي لم تدم اكثر من يوم واحد ، اجمع الطرفان على انها كانت ايجابية وان المحادثات سارت في جو «من الصراحة والتفاهم». واكد البيان المشترك المواقف المعروفة للطرف السوفياتي الذي تعهد « بعمل ما في وسعه لتحقيق الاجلاء الكامل عن الاراضي المحتلة والمحافظة على الحقوق المشروعة لشعب فلسطين » ، كما اعلن « حق الدول العربية في تحرير اراضيها بجميع السبل حسب ما تنص عليه معاهدة الامم المتحدة». وفي اجتماع لمجلس الشعب المصري دافع عزيز صدقي عن سياسته الجديدة مؤكدا « استمرار الاتحاد السوفياتي في تقديم الدعم في حدود امكاناته » وعزمه على اتخاذ مبادرات جديدة لم يفصح عنها .

ويبدو ان الامال المعلقة على تغيير في الموقف الامريكي بعد الانتخابات قد خيبت ، رغم تصريحات روجرز عشيتها والبيت الابيض على اثرها ، والتي أكدت الاهتمام الخاص الذي سيوليه نيكسون في « العهد المجدد له » لمشكلة الشرق الاوسط . وربما كان هذا هو السبب الرئيسي وراء العودة من جديد للحوار مع الاتحاد السوفياتي .

د. ت.

(٤) المناطق المحتلة

من بين القضايا الرئيسية التي ظهرت في الاونة الاخيرة في المناطق المحتلة قضية ضم العمال العرب الى الهستدروت ، ومصادرة اراض عربية من اجل خلق وقائع جديدة لتكريس الاحتلال ، ودخول قطاع غزة مرحلة جديدة غدا فيها الطرفان الاساسيان في القطاع ، رجال المقاومة الفلسطينية وقوات الاحتلال يقفان وجها لوجه بعد سقوط الزعامة التقليدية المتذبذبة الممثلة في شخص رئيس بلدية غزة رشاد الشوا .

مصادرة الاراضي : امتدادا لاعمال السلب والنهب في المناطق المحتلة بواسطة سلطات الاحتلال بغرض اقامة معالم جديدة محل معالم قديمة ، والمتمثلة في مشارف رفح وأراضي قرية عقربه ومجموعة الاراضي التي برزت فوقها مستوطنات اسرائيلية ، قامت سلطات الاحتلال في الاونة الاخيرة بالاستيلاء على منطقة تقع بين اريحا وبيت ساحور تصل مساحتها الى ٧٠ كم ، متذرعة بالحجة المألوفة الواهية « متطلبات الامن » . وتعود ملكية هذه الاراضي الى الفلاحين من اهالي بلدتي بيت ساحور وبيت لحم وكذلك الى عرب التعامرة والعبيدية الذين يسكنون داخل الاراضي المستولى عليها .

ويبدو ان السبب الحقيقي الكامن وراء خطوة الاستيلاء لا يعود الى متطلبات « توسيع منطقة

النار والتدريبات في المنطقة » بقدر ما يعود الى التفكير بتنفيذ مشروع اقامة مدينة يهودية هناك ، فمن المعروف ان هذا المشروع ينسجم مع ما يعرف بخطة الون وخريطة ديان اللتين تدعوان الى اقامة مدينة في المنطقة تحمل اسم «كريات بريحو». وازاء الخطر المحدق بالفلاحين العرب اصحاب هذه المنطقة شكلت بلديتا بيت لحم وبيت ساجور وفدا لتقديم احتجاج الى السلطات الاسرائيلية ضد عملية الاستيلاء ، وبالفعل توجه الوفد الى الحاكم العسكري في ٧٢/١٠/٢٣ وقدم باسم الاهالي احتجاجا ، ووعد الحاكم العسكري بنقل ذلك الى السلطات المسؤولة ! بيد ان هذه السلطات كانت منهمكة في الوقت نفسه بدراسة عملية مصادرة منطقة اخرى تصل مساحتها الى ثلاثة الاف دونم في ضواحي قرية عنتا في الشمال الشرقي لمدينة القدس ، دون ان تتذرع هذه المرة بالحجة المألوفة ، بل اعترفت ان عملية المصادرة جاءت « لاقامة منطقة صناعية للقدس ، وكذلك لنقل المسلخ الذي يسبب الازعاج للمستوطنين من التلة الفرنسية الى منطقة بعيدة عن محل سكناهم » (دافار ٧٢/١٠/١١) .

العمال العرب والضم : غدت قضية العمال العرب من بين القضايا الرئيسية التي تواجه سلطات الاحتلال ، واصبحت شبيهة الى حد كبير بقضية مصير المناطق المحتلة التي يحتدم النقاش حولها بشكل قوي لاختلاف مشارب واهواء التيارات السياسية الفاعلة في اسرائيل (انظر اسرائيليات)، فمن المعروف ان مصير المناطق المحتلة تتنازعه منذ الاحتلال وحتى الان وجهات نظر متعددة ومتفاوتة، تتفق كلها على الضم بيد انها تختلف في مقدار الضم ، فهنالك من يرى ضرورة ضم جميع المناطق المحتلة بدون استثناء وهنالك من يكتفي بضم بعض المناطق مثل القدس وهضبة الجولان وغور الاردن وشرم الشيخ ، وقد تمثل التضارب في وجهات النظر حول كمية الضم وحجمه « بخرائط السلام » التابعة للكتل والاحزاب والشخصيات الاسرائيلية الفاعلة . ومع مرور الزمن غدت قضية العمال العرب شبيهة بقضية مصير المناطق المحتلة بنظر الاحزاب الاسرائيلية ، اذ بدأ الحديث والنقاش فيما بينها يحتدم حول ضرورة ضم العمال العرب الى الهستدروت بغض النظر عن صفتهم كمواطنين من المناطق المحتلة ، وبدأت تبرز « خرائط » متفاوتة في حجم الضم وكيفية تطبيقه !

وقبل التطرق الى وجهات النظر المتباينة حول النقاش المحتدم لضم العمال العرب الى الهستدروت لا بد من الاشارة الى ان هنالك عاملين كانا ولا يزالان يتحكمان في تصرف السلطات الاسرائيلية وسلوكها (١) شهوة التوسع (٢) شهوة الحفاظ على نقاء او صفاء المجتمع اليهودي في « دولة اليهود » ، بيد ان هاتين الشهوتين تتخللهما رغبات صعبة ومتناقضة ، فشهوة التوسع ترافقها رغبة في ان تكون المناطق خالية من السكان الاصليين ، وبما ان ذلك ليس امرا متوفرا ، فان الرغبة تتمثل في ترحيل هؤلاء السكان ، الا ان ذلك يعتبر صعبا بسبب الظروف الموضوعية ، كما ان شهوة الحفاظ على نقاء المجتمع الاسرائيلي وصفائه تتنازعها رغبة اخرى ، تتمثل في تسخير السكان ضحايا الشهوة الاولى ، للعمل في المجالات الاقتصادية ، وبين هاتين الشهوتين تبرز المواقف المتباينة للتكتلات السياسية في اسرائيل تجاه مصير المناطق المحتلة ومصير الانسان المحتل . ولعل ظاهرة العمال الزراعيين العرب الذين يعملون في المستوطنات الاسرائيلية خير دليل على التناقض بين الشهوتين، بين شهوة النقاء والرغبة في التسخير ، فقد حدث صراع بين السلطات الاسرائيلية من جهة وبين مستوطنات النقب من جهة اخرى في الاونة الاخيرة حول ظاهرة العمال العرب الذين يخدمون وينامون داخل المستوطنات في ظروف صعبة شبيهة الى حد كبير بظروف الملونين في جنوب افريقيا واوضاعهم فالسلطات الاسرائيلية رأت في هذه الظاهرة خطرا «قوميا واجتماعيا» كما جاء على لسان وزير العمل، منطلقة من شهوة الحفاظ على نقاء مجتمع المستوطنين وطهارته ولذا اتخذت قرارا بعدم السماح للعمال العرب بالنوم داخل هذه المستوطنات بينما تحركت رغبة التسخير لدى المستوطنين واخذوا يناضلون ضد قرار الحكومة ويدعون الى ايجاد حل مناسب للحيلولة دون الاخطار التي تواجه مزارعهم نتيجة القرار الذي اتخذته الحكومة ، يحفظ مزارعهم وينعشها وفي الوقت نفسه يحمي طهارة مستوطناتهم من « التلوث » وذلك بخلق معسكرات عمل تساوي العمال العرب خلال الليل « فلو اقاموا مركزا كبيرا في منطقة لخيش ، مسيجا وبداخله خيام ، كالمخيمات العسكرية ، لياوي الاجراء من قطاع غزة ، فان ذلك سيكون افضل .. » (معاريف ٧٢/١٠/٢٧) بيد ان هذا الاقتراح الذي جاء على

لسان احد المستوطنين لم تأخذ به الحكومة ، وانما اخذت تفكر بدل ذلك بتشغيل قطار بين غزة وتل ابيب لجلب العمال العرب كل صباح الى المستوطنات والمدن الاسرائيلية الواقعة بين المدينتين واعادتهم الى بيوتهم مساء كل يوم . وبالفعل بدأ القطار بالعمل لينقل الآف العمال العرب الى المصانع والمزارع الاسرائيلية الى جانب نحو ١٢٠ سيارة تنقل نحو ١٥٠٠ عامل ، بالاضافة الى سيارات التاكسي التي بامكانها نقل مثل هذا العدد ، وكذلك الى جانب باصات شركة « ايجد » التي بوسعها نقل ٣٠٠٠ عامل ذهابا وايابا ، هذا فضلا عن سيارات المقاولين الاسرائيليين التي تنتظر كل صباح مئات العمال العرب بالقرب من الخط الاخضر . ومن الجدير بالذكر ان مجال سير قطار العمال سيمتد بعد مدة حتى مدينة العريش .

ما هو مصير العمال العرب ؟ هل سينالهم هوس الضم اسوة بما يحدث للمناطق المحتلة ؟ لقد غدا مصير الانسان العربي المحتل بالرغم من التناقض بين شهوتي التوسع و « الطهارة اليهودية » ، شبيها الى حد كبير بمصير المناطق المحتلة ، فقد كشف رئيس الهستدروت يتسحاق بن اهارون عن هذا الاتجاه في محاضرة القاها مؤخرا ذكر فيها ان الهستدروت تدرس امكانية ضم عرب المناطق المحتلة اليها ، واضاف انه ستبنى في المرحلة الاولى نواد تابعة للهستدروت في الضفة الغربية وقطاع غزة ،وعارض هذا الاتجاه بشدة وزير العمل يوسف الموغي ، ونتج عن النقاشات المحتدمة داخل الهستدروت ظهور ثلاثة اتجاهات حول ضم العمال العرب اليها . ١ ـ دعاة الضم الكامل ، ويقف على رأسهم اهارون هرئيل عضو اللجنة المركزية للهستدروت ورئيس قسم التنظيم التابع لها ، الذي يعتقد « بضرورة ضم عرب المناطق بما في ذلك العمال الذين يعملون داخل المناطق كاعضاء ذوي حقوق كاملة في الهستدروت » ٢ ـ دعاة الضم بواسطة خلق اتحادات مرتبطة بالهستدروت، ويمثل هذا الاتجاه يوسف خميس من حزب مبام الذي يعتقد بضرورة اقامة اتحادات مهنية مرتبطة بالهستدروت . ٣ ـ دعاة الضم الجزئي : ويقف على رأسهم يعقوب كوهين الذي يعتقد بضرورة البدء بتنظيم العمال العرب الذين يعملون في اسرائيل بصناديق التأمين الهستدروتية ، وفي المرحلة الثانية يدعو الى اقامة اتحادات مهنية ونواد هستدروتية في المناطق المحتلة .

يعتبر الاتجاه الاول الذي يمثله اهارون هرئيل (رافي) اخطر الاتجاهات ، ويبدو انه يحظى بتأييد وزير الدفاع موشيه ديان ، اذ انه يتطابق مع سياسة الدمج الاقتصادي التي ينادي بها الاخير وقد لخص اهارون هرئيل موقفه في مذكرة مفصلة ، معتمدا اسلوب المراحل لضم العرب في المناطق المحتلة الى الهستدروت بشكل رسمي (١) تعتمد المرحلة الاولى على « الاستمرار بتنظيم الدروز وعرب القدس الشرقية » . ومن المعروف انه قد انضم الى الهستدروت منذ حرب حزيران نحو ٨٠٠ من سكان الهضبة ، بينما انضم اليها قرابة ٨٠٠٠ من سكان القدس العربية (٢) اقامة نواد تابعة للهستدروت في المناطق المحتلة مع القيام بحملة اعلامية دون قبول اعضاء في الهستدروت ، ولم تظهر خلافات في الراي تجاه هاتين المرحلتين، الا ان الخلافات والاجتهادات حول المرحلتين التاليتين (٣) تعتمد المرحلة الثالثة على ضم ٤٠ الف عربي يعملون بشكل منظم داخل اسرائيل . (٤) وتعتمد المرحلة الاخيرة على فتح باب عضوية الهستدروت امام جميع العاملين من بين صفوف عرب المناطق المحتلة ، واذا ما تمت هذه المراحل الاربع فان عملية ضم الارض والانسان لخدمة مجتمع المهاجرين والمستوطنين تكون قد دخلت حيز التنفيذ .

القطاع يدخل مرحلة جديدة : دخل قطاع غزة مرحلة جديدة عبرت عن نفسها بعودة المجلس البلدي لمدينة غزة الى حاكم اسرائيل وبسياسة « الضم الزاحف » التي اخذت تتبعها اسرائيل تجاه القطاع من خلال اقدامها على تصفية قضية اللاجئين وتوطينهم في اماكنهم ، وفي المقابل بانتعاش المقاومة الفلسطينية في القطاع بعد حملة التصفية الرهيبة التي اقدمت عليها سلطات الاحتلال في اواخر شهر تموز من العام الماضي . وبذلك اصبح الطرفان الاسرائيلي (قوات الاحتلال) والثورة الفلسطينية ممثلة في رجال المقاومة يقفان وجها لوجه في القطاع بعد ان اقيل ابرز وجوه الزعامة التقليدية رشاد الشوا من رئاسة البلدية ، وبذلك تكون السلطات الاسرائيلية قد فشلت في خلق زعامة تقليدية في القطاع اسوة بالزعامة التقليدية في الضفة الغربية.

تصفية قضية اللاجئين في القطاع : على ضوء نجاح المخطط الذي وضعته سلطات الاحتلال لمخيم رفح والذي اصبح بعد ضمه لمدينة رفح يعتبر من

وجهة النظر الاسرائيلية « كمكان دائم يشكل مع مدينة رفح بلدية واحدة » اخذت تعمل لتعميم التجربة على جميع مخيمات القطاع والضفة الغربية بقصد تصفية اللاجئين متذرعة بحجة تطوير وانعاش المخيمات . ومن الجدير بالذكر ان عدد السكان في بعض المخيمات وخاصة في قطاع غزة يفوق في حالات كثيرة عدد السكان في المدن التي تضم اليها . مثل مخيم رفح الذي يبلغ تعداد سكانه ٤٠ الفا بينما يبلغ عدد سكان المدينة ١٠ آلاف فقط ، او مخيم جباليا الذي يصل تعداد سكانه الى ٣٤ الف نسمة ، سيضم ١٢ الف من سكانه الى المجلس القروي لبلدة بيت لاهيا التي يبلغ عدد سكانها نحو ستة آلاف نسمة ، بينما سيضم بقية سكان المخيم ٢٢ الفا الى قرية جباليا . كان مخيم الشاطىء لوقوعه بالقرب من مدينة غزة المخيم الذي اصطدمت به التجربة الاسرائيلية بعنف ، وادت مع مجموعة عوامل اخرى الى استقالة رئيس بلدية غزة احتجاجا على خطوات التصفية . يبلغ عدد سكان هذا المخيم ٢٦ الف نسمة ، وتعتزم سلطات الاحتلال نقل قسم من سكانه خلال العام القادم الى مبان جديدة تتسع لالف عائلة تقع على تلة الشيخ رضوان شرقي المخيم . عند منتصف شهر اوكتوبر اعلن حاكم منطقة قطاع غزة ضم المخيم الى مدينة غزة ، وارسلت دعوات الى ٢٥٠ شخصا من سكان المخيم لحضور اجتماع يعقد في مدرسة فلسطين في غزة دون ان يحاط المدعوون علما بماهية الاجتماع ، وقد فوجىء الكثيرون منهم عندما علموا بأن قائد قضاء غزة المقدم ي. هيني قد دعا لهذا الاجتماع بغرض انتخاب لجنة محلية « للمشاركة في تطوير المخيم » وقد بدأ قسم من المجتمعين يحتج على فكرة اجراء انتخابات بيد ان المقدم هيني اصر على موقفه ودعاهم لترشيح اسماء من بينهم ، وتحت وطأة الضغط تم ترشيح ٢٠ شخصا ، ونودي على كل شخص مرشح الى المنصة لكي يقف امام المجتمعين بغرض التعرف عليه ! وانتهت مهزلة الانتخابات التي وصفتها وسائل الاعلام الاسرائيلية بـ « المسابقة الديمقراطية » داخل المخيمات ، بفوز سبعة اشخاص في اللجنة المحلية لادارة المخيم .

اقالة الشوا : وسط هذا الجو اصدر قائد منطقة القطاع يتسحاق فونداك في ٧٢/١٠/١٤ تعليمات لبلدية غزة بضم مخيم الشاطىء اليها وتقديم الخدمات للمخيم اسوة بالمخيمات الاخرى التي الحقت بالمجالس المحلية والمجالس البلدية في قطاع غزة والضفة الغربية . وقد طلب الشوا من قائد المنطقة تأجيل سريان مفعول التعليمات حتى يتسنى لاعضاء البلدية ووجهاء مخيم الشاطىء دراسة الموضوع ووافق قائد المنطقة على ذلك . ومن الجدير بالذكر هنا ان سلطات الاحتلال قد تذرعت عند فرضها ضم مخيم الشاطىء لبلدية غزة بانها تستكمل بذلك اجراء كان الحاكم المصري للقطاع قد اصدره في عام ١٩٦٦ وان اندلاع حرب حزيران قد حال دون تنفيذ الاجراء ، اما بالنسبة لبقية المخيمات سواء في القطاع ام الضفة فانها تتمسك بذرائع اخرى مثل تحسين اوضاع المخيمات ... وجاء رد المجلس البلدي لمدينة غزة بالرفض الكامل لمخطط ضم مخيم الشاطىء الى المدينة ، وقد تشكل الرد من الملاحظات الاربع التالية: « (١) ان المنطقة التي اضيفت الى منطقة اختصاص البلدية بمقتضى القرار رقم ٢٦ بتاريخ ٦٦/١٢/١٥ هي معسكر اللاجئين المعروف باسم معسكر الشاطىء. (٢) اننا نرى ان اضافة تلك المنطقة في حينه لبلدية غزة كانت تستهدف بعدا جغرافيا فقط دون ان يكون لها اي ابعاد او مفاهيم اخرى او مفهوم آخر . (٣) ان تقديم الخدمات في هذا المعسكر كما في كل معسكر آخر للاجئين هو من صميم مهام واختصاص وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الدولية التي انشأتها الجمعية العمومية للامم المتحدة للقيام بهذا الغرض . (٤) اننا نرى ان اي تغيير في وضع المعسكر او في علاقة وكالة غوث اللاجئين به من شأنه ان يحدث ابعادا سياسية واجتماعية كبيرة تتعلق بصميم القضية الفلسطينية وبالقانون الدولي العام وبحقوق اللاجئين الفلسطينيين وبقرارات الامم المتحدة في شأنهم ، واستنادا الى كل هذه الحقائق مجتمعة فان المجلس البلدي لمدينة غزة يرى انه لا يستطيع مطلقا وباي حال ان يتخذ اي اجراء من شأنه المساس بحقوق اللاجئين الفلسطينيين او تحديد مصيرهم او العبث بعلاقاتهم بوكالة الغوث الدولية ، كذلك فان المجلس البلدي لمدينة غزة اذ يؤمن بضرورة تحسين الاوضاع والاحوال المعيشية لجميع الاخوة والاهل الفلسطينيين المقيمين في معسكرات اللاجئين طالما ظلت قضية فلسطين معلقة دوليا وسياسيا فانه يؤمن ايضا بأن هذه المهمة يجب ان تظل منوطة بوكالة الغوث الدولية حسب قرارات الجمعية العمومية لهيئة

الامم السارية المفعول في هذا الشأن والواجبات الاتباع » .

وجاء رد قائد المنطقة سريعا ففي ٧٢/١٠/٢٣ اصدر امرا باقالة الشوا من رئاسة البلدية والحقه بأمر اخر عين بموجبه اوري-تشانشيك وهو ضابط اركان للشؤون الداخلية في الحكم العسكري رئيسا لبلدية غزة بالوكالة ، وقد منحت له صلاحيات رئيس البلدية ، وبذلك ضم مخيم الشاطىء الى المدينة ، واقيل الشوا بعد ان بقي ١٣ شهرا في رئاسة البلدية . ومن الجدير بالذكر ان اقالة او استقالة رئيس بلدية غزة كانت مرتبة لاسباب عدة من بينها :

١ — ان الشوا كان قد قدم استقالته الى الحاكم العسكري في شهر سبتمبر الماضي على اثر تعرضه لمحاولة قتل من قبل رجال المقاومة في القطاع بعد تماديه في العمل لربط القطاع بسياسة الملك حسين ، بيد ان سلطات الاحتلال لم تقبل الاستقالة بسبب توقيتها خشية ان تفسر خطوته بانها انتصار للفدائيين . ٢ — هنالك عناصر في بلدية غزة كانت تعارض مواقف الشوا السياسية وتبدي تحفظاتها تجاهها ، وهددت اكثر من مرة بتقديم استقالتها اذا ما استمر الشوا في مواقفه السياسية المتذبذبة والمتناقضة . ٣ — خيبة امل سلطات الاحتلال من زعامة الشوا ، اذ انها كانت تعتقد عند تعيينها له على اثر حملة التشريد والتهجير والهدم في العام الماضي بانه خير من ترتكز عليه لتنفيذ سياستها ومخططاتها تجاه القطاع اسوة بالركائز المنصوبة في الضفة الغربية . ولكن الشوا قد اظهر خلال فترة ترؤسه للبلدية ميولا تجاه النظام الاردني بتأييده مشروع الملك حسين كما وحافظ على استقلالية نسبية حيال المواقف السياسية على خلاف الزعامة التقليدية في الضفة الغربية ، الامر الذي خيب امل سلطات الاحتلال وجعلها تتخذ موقفا سلبيا منه الى ان اقالته بحجة معارضته لضم مخيم الشاطىء للبلدية . ومن الجدير بالذكر ان جميع اعضاء البلدية قد اصبحوا بحكم المستقيلين من مناصبهم .

وقد نقل الصحفي الاسرائيلي عاموس حداد صورة عن تفكير اهالي مخيم الشاطىء تجاه الاجراءات الاسرائيلية على لسان سليمان ابو حصيرة : « منذ اليوم الذي دخلت فيه اسرائيل الى القطاع لم نشاهد اي تحسن في اوضاعنا .. انتم الاسرائيليين تعملون فقط ما هو جيد بالنسبة لكم . قبل عام توجهتم الى الشوا ونصبتموه رئيسا للبلدية لانه جيد بالنسبة لكم ، وكنتم تعتقدون انه سيخدم المصالح الاسرائيلية . وقد اتضح لكم اليوم ان الامر لا يسير وفق ما تريدون فاقلتموه من منصبه . انه الان في نظرنا بطل ، قبل ذلك كان مكروها في غزه ..! » وفيما يتعلق بقضية توطين اللاجئين في اماكنهم اضاف الشاب الذي كان يخاطب الصحفي الاسرائيلي امام جمع من شباب المخيم : « اذا كان الحكم العسكري يريد لنا ان نعيش كما يعيش الناس في اسرائيل فعليه ان يدعنا نعود الى منازلنا التي سلبتمونا اياها عام ١٩٤٧ . اننا نريد العودة الى اراضينا وبيوتنا التي سكناها قبل ٢٥ عاما . اننا لا نريد خدمات للمخيم ولا نريد طرقا ممهدة ان ما نريده فقط هو العودة الى بيتنا » (هآرتس ٧٢/١٠/٢٧). في غضون ذلك كانت المقاومة الفلسطينية تنشط في توجيه الضربات المتتالية ، من نسف لقضبان سكة الحديد التي يسير عليها القطار الذي تتوخى منه السلطات الاسرائيلية ازالة معالم الحدود (لانه لا يوجد هنالك افضل من طمس معالم الحدود مثل القطارات كما جاء على لسان الصحافة الاسرائيلية) وغرس الالغام ضد السيارات العسكرية والقاء القنابل اليدوية واطلاق نيران الاسلحة ضد الدوريات الاسرائيلية ، الامر الذي دفع سلطات الاحتلال الى اعادة نظام منع التجول بشكل اوسع على جميع جبهات القطاع البرية والبحرية .

ع . م .

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١٠/٣ — ١٩٧٢/١١/١٢

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو: البشرية قتيل	خسائر العدو: البشرية جريح	خسائر العدو: المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	ج.ش.ت.ف.(١)	٨/٣٠	—	خان يونس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد		غير محدد	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٢	ج.ش.ت.ف.	١٠/ ٥	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٣	ج.ش.ت.ف.	١٠/ ٥	١٠٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٤	ج.ش.ت.ف.	١٠/ ٦	—	رمات غـان	هجوم	اطلاق رصاص	١(٢)		—	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٥	ج.ش.ت.ف.	١٠/ ٧	١١٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير معهد المواد التحليلية	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٦	ج.ش.ت.ف.	١٠/١٠	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	٤	—	تدمير سيارة	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٧	ج.ش.ت.ف.	١٠/١٢	٢٢٠٠	رمات غـان	هجوم	القاء قنبلتين	١٥اصابة		تدمير صالة سينما روكسي	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٨	ج.ش.ت.ف.	١٠/١٣	١٠٠٠	ناتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	٧اصابات		تحطيم الطابق الاول في بنك هبوعليم	—	—	—	هـ. عدد١٧ ص٥	١٠/٢٨
٩	ق.ع.ق.ث.	١٠/١٣	١٨٣٠	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد		غير محدد	—	—	—	وفا ص ١	١٠/١٤
١٠	ق.ع.ق.ث.	١٠/١٥	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير وحدتين للتوتر العالي لشركة الكهرباء	—	—	—	وفا ص ٢	١٠/١٦
١١	ق.ع.ق.ث.	١٠/١٩	٢٢٣٠	غرب الخليل	هجوم	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	غير محدد		اشتعال النار في سيارة عسكرية محملة بالجنود	—	—	—	وفا ص ٥	١١/ ٢
١٢	ج.ش.ق.ع.	١٠/٢٤	٦١٥	تل ابو الغيتار/الجولان	هجوم	قنابل وقذائف صاروخية	٣	١	غير محدد	—	—	—	الى الامام عدد٣٨١	١٠/٢٧
١٣	ق.ع.ق.ث.	١٠/٢٤	١١١٥	بقعاتا/الجولان	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير جسر	—	—	—	وفا ص ١	١٠/٢٦
١٤	ق.ع.ق.ث.	١٠/٢٨	١٧٠٠	تل شيحه/الجولان	تفجير	الغـام	١	—	تدمير بلدوزر	—	—	—	وفا ص ١	١٠/٣٠
١٥	ق.ع.ق.ث.	١٠/٢٩	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير مطعم	—	—	—	وفا ص ١	١٠/٢٩
١٦	م.ش.ق.ع.	١٠/٢٩		استيلاء على طائرة المانية		قنابل	—	—	—	—	—	—		

١٧	ق.ع.ق.ث.	١٠/٢٩	—	بئر السبع	حرق	غير محدد	غير محدد	حرق مستودع لشركة كهرباء العدو	—	—	—	وفا ص ٢	١٠/٣٠
١٨	ق.ع.ق.ث.	١٠/٣٠	١٩١٥	خربة تانوما/بيت لحم	كمين	اسلحة رشاشة	غير محدد	غير محدد	—	—	—	وفا ص ٣—٤	١١/ ١
١٩	ق.ع.ق.ث.	١٠/٣٠	٢٠٣٠	كريات آسا/حينا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير جزء من بناية	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ١
٢٠	ق.ع.ق.ث.	١٠/٣١	١١٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير جزء من الطابق الثالث في مبنى برج شالوم	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ١
٢١	ق.ع.ق.ث.	١١/ ١	—	مخيم الشاطىء/غزة	اشتباك	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد	غير محدد	١	—	—	وفا ص ٢	١١/ ١
٢٢	ق.ع.ق.ث.	١١/ ٢	٢٠٤٥	بتعاتا/الجولان	اشتباك	اسلحة مختلفة	غير محدد	غير محدد	١	—	—	وفا ص ٢	١١/ ٢
٢٣	ق.ع.ق.ث.	١١/ ٢	١٨٣٠	مخيم الشاطىء/غزة	كمين	عبوات ناسفة	غير محدد	اعطاب آلية	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ٣
٢٤	ق.ع.ق.ث.	١١/ ٢	١٩١٥	القــدس	تفجير	عبوات ناسفة		تدمير جزء من مبنى البريد واحتراق الارشيف	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ٣
٢٥	ق.ع.ق.ث.	١١/ ٥	—	مخيم الشاطىء/غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد	غير محدد	—	—	—	وفا ملحق	١١/ ٧
٢٦	ق.ع.ق.ث.	١١/ ٥	—	جبين وحتيل/الجولان	هجوم	صواريخ — مدفعية هاون	غير محدد	اصابة عدد من الآليات	—	—	—	وفا	١١/ ٩
٢٧	ق.ع.ق.ث.	١١/ ٧	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تدمير جزء من خط سكة الحديد	—	—	—	وفا	١١/ ٩
٢٨	ق.ع.ق.ث.	١١/ ٩	٦٠٠	كفر الما/الجولان	هجوم	قذائف صاروخية	٤اصابات	—	—	—	—	وفا	١١/١٢
٢٩	ق.ع.ق.ث.	١١/١١	—	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد	اعطاب سيارة	—	—	—	وفا	١١/١٢
٣٠	ق.ع.ق.ث.	١١/١١	—	يافــا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير عدة متاجر	—	—	—	وفا	١١/١٣
٣١	ق.ع.ق.ث.	١١/١٢	١٩٠٠	بين اللطرون ورام الله	كمين	اسلحة مختلفة	غير محدد	اعطاب سيارة	—	—	—	وفا	١١/١٣

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١٠/٣ — ١٩٧٢/١١/١٢

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة استشهد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	— ق.ث.ف.	٥ /١٠	—	غزة	القاء عبوة	عبوة ناسفة	—	—	اصابة سيارة باضرار	—	—	—	ن. عدد ٥٨ ص ٤	٦ /١٠
٢	— ق.ث.ف.	١٠/١٠	—	الخليل	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تصدع احد المنازل قرب مقبرة الخليل	—	—	—	ن. عدد ٦٢ ص ٥	١٠/١١
٣	— ق.ث.ف.	١٠/١٠	٦٣٠	بقعاتا/الجولان	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٦٢ ص ٥	١٠/١١
٤	— ق.ث.ف.	١٠/١٣	—	ناتانيا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اضرار في مبنى بنك العمال	—	—	—	ن. عدد ٦٥ ص ٥	١٠/١٤
٥	— ق.ث.ف.	١٠/١٣	١٨٣٠	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٦٥ ص ٥	١٠/١٤
٦	— ق.ث.ف.	١٠/١٤	١٨٠٠	جباليا	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	—	—	—	—	ن. عدد ٦٦ ص ٤	١٠/١٦
٧	— ق.ث.ف.	١٠/١٦	—	خان يونس	اطلاق رصاص	اسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٦٧ ص ٦	١٠/١٧
٨	— ق.ث.ف.	١٠/١٨	—	كريات اونو	حريق	غير محدد	—	—	حرق سيارة	—	—	—	ن. عدد ٧٠ ص ٥	١٠/٢٠
٩	— ق.ث.ف.	١٠/١٩	٩٣٠	رفح	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	غير محدد	—	—	—	ن. عدد ٧٠ ص ٥	١٠/٢٠
١٠	— ق.ث.ف.	١٠/٢٢	—	العريش	تفجير	قذيفة هاون	—	—	تصدع مبنى	—	—	—	ن. عدد ٧٢ ص ٧	١٠/٢٣
١١	— ق.ث.ف.	١٠/٢٤		بقعاتا/الجولان	تفجير	غير محدد	—	—	تدمير «جسر صغير»	—	—	—	ن. عدد ٧٣ ص ٩	١٠/٢٤
١٢	— ق.ث.ف.	١٠/٢٤	٧٠٠	ناحال جولان	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	غير محدد	—	—	—	ن. عدد ٧٤ ص ٦	١٠/٢٥
١٣	— ق.ث.ف.	١٠/٢٨	٢٤٠٠	العنولة	تفجير	عبوة ناسفة وعبوة حارقة	غير محدد		حريق وتدمير مطعم تابور في العنولة	—	—	—	ن. عدد ٧٨ ص ٦	١٠/٣٠
١٤	— ق.ث.ف.	١٠/٣٠	١٩٣٠	بتوعا/بيت لحم	اطلاق رصاص	اسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٧٩ ص ١٠	١٠/٣١
١٥	— ق.ث.ف.	١٠/٣١	—	تل ابيب	تفجير	عبوة ناسفة	—	٢	انفجار في مبنى « برج شالوم »	—	—	—	ن. عدد ٨٠ ص ٨ ١	١١/
١٦	— ق.ث.ف.	١٠/٣١	—	بين نابلس وطولكرم	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٨٠ ص ٨ ١	١١/
١٧	— ق.ث.ف.	١٠/٣١	٢٤٠٠	مخيم الشاطىء/غزة	اشتباك	اسلحة رشاشة	—	٣	—	١	—	—	ن. عدد ٨٠ ص ١٢ ١	١١/
١٨	— ق.ث.ف.	١ /١١	٢٠٤٥	بقعاتا/الجولان	اشتباك	اسلحة رشاشة	—	—	—	١	—	—	ن. عدد ٨١ ص ٩ ٢	١١/
١٩	— ق.ث.ف.	٢ /١١	١٨٣٠	مخيم الشاطىء/غزة	القاء عبوة	عبوة ناسفة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٨٢ ص ٥ ٣	١١/

٢٠ — ق.ث.ف.	٧ /١١ ١٥٣٠	غزة	القاء عبوة	عبوة ناسفة	—	٢	—	— —	ن. عدد ٨٤ ص ١ ٨ /١١
٢١ — ق.ث.ف.	٨ /١١ —	غزة	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير خط سكة الحديد	— —	ن. عدد ٨٤ ص ٤ ٨ /١١
٢٢ — ق.ث.ف.	٨ /١١ —	بتعاتا/الجولان	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	تدمير جرار زراعي	— —	ن. عدد ٨٥ ص ٦ ٩ /١١
٢٣ — ق.ث.ف.	١١/١١ —	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	—	٢	تدمير سيارة مدنية	— —	ن. عدد ٨٨ ص ٢ ١١/١٣
٢٤ — ق.ث.ف.	١١/١٢ ١٩٠٠	بيت لقيا/رام الله	اطلاق رصاص	اسلحة رشاشة	—	—	اطلاق رصاص على شاحنة	— —	ن. عدد ٨٨ ص ٦ ١١/١٣

١ — وردت هذه العملية حديثا فرأينا ادخالها في مطلع هذا الجدول . كما تجدر الاشارة الى ان العملية رقم ٢٢ في جدول عمليات شهر آب ، ايلول ١٩٧٢ في العدد الرابع عشر من المجلة قد أعلنت الجبهة الشعبية مسؤوليتها عنها كما أعلنت مسؤوليتها عن العمليات ١ — ١٢ — ٢٤ — ٢٥ في جدول ايلول ، تشرين الاول ١٩٧٢ في العدد الخامس عشر من المجلة .

٢ — قام احد مقاتلي الجبهة الشعبية بمهاجمة منزل ضابط المخابرات يأروح داڤيد واطلاق الرصاص عليه .

تعريف بالمصطلحات والنشرات الوارد ذكرها

١ — ق.ع.ق.ث. : القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية

٢ — وفا : نشرة يومية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية .

٣ — هـ. : الهدف ، صحيفة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

٤ — الى الامام : صحيفة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية — القيادة العامة .

٥ — ج.ش.ق.ع. : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة .

٦ — ج.ش.ت.ف. : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

٧ — ق.ث.ف. : قوات الثورة الفلسطينية .

٨ — ن. : نشرة رصد اذاعة اسرائيل اليومية ، التي تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

٩ — م.ش.ق.ع. : منظمة الشبيبة القومية العربية لتحرير فلسطين .

غازي خورشيد

اسرائيليـــات

عن الخلافات في حزب العمل حول مستقبل المناطق المحتلة

● ليست جديدة هذه المناقشات الدائرة الآن بين كبار المسؤولين الاسرائيليين حول مستقبل الاراضي العربية المحتلة في اعقاب حرب ٦٧ . ولا يتمتع بالصحة الكافية ذلك الانطباع الشائع القائل ان هذه الخلافات او المناقشات الدائرة هي نوع من استعداد القوى والاحزاب والاجنحة السياسية لخوض معركة الانتخابات للكنيست . ولا يعني ذلك أيضا غياب العلاقة بين الانتخابات والتنافس على وراثة مقعد رئاسة الوزارة المقبلة وبين المناطق العربية المحتلة ، فكما كانت هذه المناطق « ورقة لعب » في يد السياسة الاسرائيلية في صراعها مع العرب ، فان طريقة الاحتفاظ بها ، في المستقبل الابعد والاقل بعدا ، هي أيضا ورقة لعب في الصراعات والمنافسات الاسرائيليـــة الداخلية . ولعل التعمق في مبادىء الاختلاف بين وجهـــات النظر الموزعة علـــى أصحاب النظرة « البعيدة المدى » واصحاب النظرة « القصيرة المدى » من رجال الحكم الاسرائيلي في موقفهم مـــن مستقبل الاراضي العربية المحتلة ـــ يعفينا من المبالغة او الاهتمام المترف في تعليق أهمية جدية على نتائج هذه المناقشات او الخلافات . فان هذا الاختلاف يدور اولا بين رجال الحكم انفسهم وداخل حزب العمل الحاكم وليس بين معارضة وسلطة . وهذا الخلاف ، ثانيا ، يطمح الى العثور على افضل طريقة لضمان الاحتفاظ باكبر قدر من التوسع دون أن يكلف اسرائيل شيئا . وبمعنى أوضح : ان الاسرائيليين يتعاملون مع المناطق العربية المحتلة وكأنها قضية اسرائيلية داخلية .

ولقد كان هذا الموضوع موضع مناقشات واجتهادات تصل الى حد الخلاف منذ انتهاء معارك حزيران حتى الان ، ولعل كلمة « انسحاب » كانت قابلة للطرح الاسرائيلي قبل سنتين ، ولكن القاموس السياسي الاسرائيلي الان قد حظر استعمال هذه الكلمة المحرمة ، مما يساعدنا على ادراك ان المسألة ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، لا تدور حول الانسحاب او عدمه . فلماذا يأخذ هـــذا الموضوع مثل هذا الصدى الان ؟ ان الذي تغير هو طريقة طرح المسألة القديمة ، لان اسرائيل تتأهب لخوض معركة الانتخـــابات ، ولان رئيسة الوزراء غولده مئير قد أقسمت بكل ما تملك من قدرة على القسم أنها لن تعود الى مقعد رئاسة الوزارة بعد الانتخابات القادمة بسبب تقدمها في السن (٧٦) ، ولان كلا من الفارسين القويين موشه ديان ويغال آلون يربيان أنفسهما علـــى وراثة المقعد . وفي هذا الجو .. جو التنافس على السلطة يأخذ الخلاف القديم بين وجهات النظر حول مستقبل المناطق المحتلة مثل هذا الاهتمام الجديد لانه قضية اسرائيل الاولى .

فما هي نقـــاط الخلاف بين كبـــار المسؤولـــين الاسرائيليين ؟.. ما هي امكاناتهـــم في الفـــوز بمقعد الوراثة ؟.

انهم جميعا يريدون اكبر قدر من الاراضي العربية المحتلة ، ولكنهم في الوقت ذاته لا يريدون ، بهذا الثمن ، أن تتعرض « الطهارة اليهودية » لاسرائيل الى أي تهديد بسبب احتواء المناطق المحتلة على مليون عربي قد تتحول اسرائيل ، بسببهم ، الى دولة ثنائية القومية . وقبل اسابيع أبدت غولده مئير رأيها في الموضوع (معريب ١٠/٢٧) بتأكيدها انها لا تريد دولة ثنائية القومية وأوضحت أنها ، بسبب ذلك ، لا تنوي ضم كل الضفة الغربية الى اسرائيل ، وانها تريد أكثرية يهودية في اسرائيل الموسعة . وبمعنى آخر ـــ كما قالت معريب ـــ فانها تريد خارطة تشبه ، الى حد ما ، الخارطة التي رسمها يغال آلون في مشروعه الشهير ، مع مزيد من الارض . وبذلك تكون غولده مئير قد قالت

كلمتها في المناقشة التي يديرها : موشه ديان ، بنحاس سبير ، يغال آلون ، ابا ايبن ، ويسرائيل غليلي . وتقول « معريب » في مقالها المذكور ان المناقشة الدائرة الان لا تدور حول المناطق المحتلة فحسب ، أي حول ما يجري فيها ، ولكنه يمتد الى مسألة حدود اسرائيل وخارطة المستقبل .

يتمثل موقف ديان وأنصاره في أنه لا ينبغي على اسرائيل أن تبادر الى أي حل ، لان الظروف المحيطة بها وغياب عناصر الضغط عليها لا يستدعي تغيير ما هو قائم . من هنا ، فان ديان يطالب باستمرار بالامر الواقع حتى تتمكن اسرائيل مع الزمن من خلق وقائع جاهزة تساعدها على ضم المناطق المحتلة نهائيا . اي ان ديان يدعو الى الاستمرار في عملية « الضم التدريجي » دون الاهتمام بالاخطاء الناشئة عن ذلك. ان ترك الامور تتطور مع انتظار ما يسفر عنه المستقبل هو الراي الذي يتمسك به ديان . وقد صرح ديان في مقابلة تلفزيونية نشرت في الصحف الاسرائيلية في ١٠/٢٩ بأن « سكان الضفة الغربية يعتبرون انفسهم مواطنين أردنيين وعاصمتهم عمان . وان على اسرائيل ان تنفذ الامور التي تعتبرها ضرورية لها وهي بقاء قوات الجيش الاسرائيلي معسكرة على مشارف نهر الاردن ، وان تكون في الضفة الغربية حكومة واحدة هي حكومة اسرائيل . وان يكون بامكان اسرائيل تنفيذ حقها في الاستيطان في كل مكان في الضفة الغربية أو قطاع غزة او في جزء من سيناء » .

ويعتبر المعلقون الاسرائيليون رأي غولده مئير الذي يرفض خلق اقلية عربية كبيرة في اسرائيل بمثابة رفض لافكار موشه ديان . ويقول متنياهو بيلد في مقاله بصحيفة « معريب » (١١/٣) ان رفض غولده مئير العلني هذا « أجبر موشه ديان على الاختيار : اما السير في الظلم واما الخروج من الحلبة . وأعتقد أن أحدا لم يفاجأ من قرار ديان العودة الى تعديل موقفه » . ويذكر الكاتب ان رأي ديان القائل ان قدر العرب في المناطق هو أن يكونوا غرباء في بلادهم الخاضعة للحكم الاسرائيلي ليس رأيا جديدا لديان ، فقد عبر عنه في كتابه « خارطة جديدة ، علاقات جديدة ». ويضيف الكاتب : « ولكن ما جرى في الاسابيع الاخيرة مفاجيء من ناحية واحدة فقط . فلاننا نقترب من الانتخابات شعر وزير الدفاع بأنه ينبغي وضع الامور في مكانها وان يكون ثاقبا في رؤيا مستقبلنا السياسي . ولكنه عندما خرج لتوضيح وجهة نظره بأن « سكان المناطق يجب ان يحافظوا على ميلهم لعمان دون ان يكون لعمان الحق في المحافظة على ميلها اليهم ، وان علينا ان نحتفظ بالمناطق ونستوطن فيها دون ان نمنح سكانها حقوقا سياسية ، كان ديان يعتقد ان القلوب مهيأة بما فيه الكفاية لاستيعاب هذه النظرية وان الشعب ، بغالبيته ، سيهب لمساندتها . هذا الخطأ في تقديرات وزير الدفاع هو العامل الحاسم في كل القضية » . ويرى الكاتب ان غلطة ديان الاساسية هي في طرحه حلا يتيح امكانية الضم مع تهدئة الجمهور الاسرائيلي من الخطر الديموغرافي . « ولكن هذه المحاولة جوبهت بمعارضة قوية » .

ولكن رفض غولده مئير لمعادلة ديان لا يتضمن حل المعادلة التي يفرضها واقع الاحتلال الاسرائيلي لاراض عربية شاسعة يعيش فيها عدد كبير من السكان . فكيف يتم الانسجام بين الاجماع الاسرائيلي على الاحتفاظ بالاراضي المحتلة وبين الاجماع الاسرائيلي على عدم تحويل اسرائيل الى بلاد ثنائية القومية . من الواضح ان حل ديان الرامي الى أن تكون الضفة الغربية اسرائيلية والسكان العرب فيها غير اسرائيليين هو نوع من الفصاحة اللغوية. ومن هنا تساءل متنياهو بيلد : « كيف نضمن قيام دولة يهودية قومية لا توجد فيها الا اقلية عربية ضئيلة تتمتع بالحقوق الكاملة ؟ هل تقصد رئيسة الحكومة حلا على طريقة مشروع آلون الذي يقضي بضم ٥٠٠ الف عربي في الضفة والقطاع بالاضافة الى المواطنين الحاليين في اسرائيل ، فيشكلون أقلية كبيرة جدا تبلغ ٨٠٠ الف عربي ؟ وماذا سيحدث اذا تصرفت هذه الاقلية مثل تصرف سكان القدس الشرقية الذين رفضوا الجنسية الاسرائيلية ؟ هل نستطيع ان نقول مثليا قال تاجر عشور البن الذي أحضر العشور طعاما للدجاج : اذا اراد الدجاج ان ياكل اكل ، واذا لم يرد لا ياكل » !.

ويعتبر بنحاس سبير — وهو المرشح القوي لخلافة غولده مئير مع انه يرفض ذلك — من كبار المسؤولين الاسرائيليين الذين يفضلون « الطهارة اليهودية » لاسرائيل والتخلص من اكبر قدر من العرب حتى لو ادى ذلك الى « بعض التنازل » عن بعض المناطق العربية المحتلة . وبنحاس سابير

رجل أرقام ، وهو يعيش في شبه كابوس من تناسل العرب ، وقد أعد له احصائي الحكومة البروفيسور روبرت بيكي احصائية تفيد بأنه اذا استمرت الهجرة الى اسرائيل بوتيرتها الحالية وبقي التزايد السكاني للعرب على حجمه الحالي — فقد يصل عدد السكان في اسرائيل والمناطق المحتلة — بعد ٢٥ سنة الى تسعة ملايين منهم أربعة ملايين عربي . وتقول صحيفة « معريب » (١٠/٢٧) ان مخاوف أخرى تراود بنحاس سبير في الميدان الاجتماعي او ما يسمى « العمل العربي » . وتراوده ايضا مخاوف اقتصادية « اذا اصبح سكان الضفة الغربية مواطنين اسرائيليين ، فان من واجب اسرائيل ان ترفع مستواهم ، بقدر الامكان ، اسوة باليهود . وان مجرد هذه الفكرة تخلق كابوسا لبنحاس سبير ، اذ كيف سيتبرع اليهود في العالم من اجل رفع مستوى معيشة مليون عربي » !!.. وعبرت غولده مئير عن مخاوفها من الكابوس العربي عندما فسرت في ندوة صحفية (معريب ١٠/٢٧) رفضها لثنائية القومية « لانها ستنهض كل صباح خائفة من ولادة طفل عربي » .

ولقد اضطر موشه ديان الى تسجيل تراجع لفظي امام هذه المخاوف التي تصيب الجسد الاسرائيلي بالقشعريرة . نقلت معريب عن ديان قوله انه لا يميل الى استيعاب مليون عربي في نطاق حدود اسرائيل الموسعة ، واذا اضطر للوقوف أمام الاختيار بين « تنازل » عن « مناطق » وبين تحويل مليون عربي الى مواطنين اسرائيليين ذوي حقوق فانه سيخرج من المناطق المحتلة . ولكن ديان لا يعتقد ان القضية مطروحة على هذا النحو . القضية — كما يراها — هي على النحو التالي : « الملك حسين لا يريد مشروع آلون ، ودولة مستقلة في الضفة فكرة نامية لانه ليس في الضفة اية معطيات لكيان مستقل . احتمالات السلام القريب مع حسين غير واردة لمدة عشر او خمس عشرة سنة . ومن هنا ، فثمة ضرورة « لتسوية طويلة » على اساس الامر الواقع . ولا ينبغي ان نتناقش حول المسألة السكانية ، بل يجب ان نعمل على ضوء الواقع . والواقع هو ان المواطنين الاردنيين في الضفة لا يريدون ان يصيروا اسرائيليين . واذا كانت المسألة بهذا الشكل ، فان القضية ليست: ما هي حدود اسرائيل في المستقبل، بل كيف نواجه مشكلة وجود مليون عربي في الضفة » . وتقول « معريب » : « ان ديان لا يخفي عن أحد انه لا يريد الان تسوية سلمية مع الاردن . لانه يعتقد ان السلام مع الاردن يستدعي دفع الكثير مقابل الحصول على القليل . ولذلك من الافضل ان يبقى الوضع على ما هو عليه .. ان ننتظر ونرى » . وتقول الصحيفة ان بنحاس سبير يقف في مواجهة خط ديان من اجل التوصل الى تسوية سلمية مع الاردن مع المحافظة على التفرد اليهودي لاسرائيل ، فان سبير من شأنه ان يقبل ما هو أقل من مشروع آلون ، بشرط ان تحصل اسرائيل على « حدود آمنة » .

ويعبر المحرر في صحيفة « معريب » يوسف حريف عن اعتقاده بأن انتصار احد الخطين .. خط ديان او خط سبير سيكون ذا اهمية بالغة بالنسبة لقيادة حزب العمل . « وهذه هي العلاقة بين «المناطق» وبين رئاسة الحكومة . فليس النقاش حول المناطق الا لافتة . اذ ليس له اية دلالة عملية من ناحية السلام مع الاردن . انه ذو دلالة عملية من ناحية السلام الداخلي في حزب العمل بعد غياب غولده مئير » . ويقول الكاتب ان كتلة تل ابيب للحزب — وهي اكبر كتلة — تريد ان توقف ديان عند حده ، لان قبول نظرية ديان السياسية معناها قبول زعامته . وتريد هذه الكتلة صاحبة التأثير الكبير على تشكيل القيادة ان يفوز بنحاس سبير بالوراثة ، ولكنها تسعى الى ان تجري المسألة بنعومة ، اي : ان ترأس غولده مئير قائمة الحزب المكنيست وتشكل الحكومة القادمة . وبعد ذلك تسلم الحكومة لبنحاس سبير . ومن المؤكد ان اغلبية الحزب ستتكتل حول سبير . ولقد اعترف ديان بأنه لا يعتقد ان الحزب سيرشحه لرئاسة الحكومة . ولكن سبير قد اعلن انه لن يقبل المنصب ، وسيضغط على غولده مئير للبقاء .

عن زيارة ديان في الولايات المتحدة

● قد يكون من السابق لاوانه تقييم نتائج زيارة وزير الدفاع الاسرائيلي موشه ديان في الولايات المتحدة الامريكية ، فعند كتابة هذه الكلمات كان ديان يستعد لمقابلة المسؤولين الامريكيين وسط تقديرات امريكية بأن هذه الزيارة « تمكن من تفحص افكار جديدة بشأن التسوية الجزئية وأعادة فتح قناة السويس » كما ورد على لسان مراسل الاذاعة الاسرائيلية في واشنطن .

ولكن زيارة ديان تتسم بميزتين : اولها ان هذه الزيارة هي فاتحة سلسلة من الزيارات التي

سيقوم بها كبار المسؤولين الاسرائيليين ، وربما غير الاسرائيليين من منطقة الشرق الاوسط الى اميركا في عهد نيكسون الثاني . وثانيها — ان الزيارة تجري في جو شائعات صحفية امريكية حول مبادرة جديدة تدرسها الولايات المتحدة لاجراء تسوية لازمة الشرق الاوسط .

ولقد رأى المسؤولون الاسرائيليون ان من الضرورة نشر مجموعة من التطمينات للرأي العام الاسرائيلي ترمي الى نفي ما قد ينبعث من احساس تلقائي بأن نيكسون الثاني قد يختلف عن نيكسون الاول . لان مثل هذا الاحساس يفتح مدى لتوقعات سياسية قد تبالغ في المخاوف وقد تبالغ في الاطمئنان . ومن هنا ، بادر كبار المسؤولين الاسرائيليين الى التشكيك بنية الولايات المتحدة في عهد نيكسون الثاني للضغط على اسرائيل اولا ، والى التأكيد على ان اسرائيل قادرة على مقاومة هذا الضغط في حال وقوعه . لقد وجدت النقطة الاولى تعبيرا عنها في حديث ادلى به وزير الخارجية ابا ايبن (١١/١٠) بقوله : « ان الولايات المتحدة لم تقترح علينا تغيير موقفنا من قضية الشرق الاوسط » واضاف « ان الناطقين الامريكيين قد أكدوا على ان اسرائيل قامت بواجبها » . ووجدت النقطة الثانية تعبيرا عنها في تصريح للسفير الاسرائيلي في واشنطن يتسحاق رابين في اليوم ذاته ، بقوله : انه لا يعتقد ان الولايات المتحدة ستعمل اي شيء جدي لا تقبله اسرائيل . واضاف انه اذا ما اظهرت الولايات المتحدة دلائل محاولة للتأثير على اسرائيل لابداء « مزيد من الليونة » فان اسرائيل تملك القدرة على التمسك بموقفها اكثر من قدرتها على ذلك قبل سنتين او ثلاث سنوات .

واشتركت رئيسة الحكومة الاسرائيلية بهذا المعنى في حديث اذاعي مهم في ١١/١٠ بقولها انه من الضروري الفصل بين « نشاط الولايات المتحدة في محاولة للوصول الى تسوية ، اذا لم يكن من اجل سلام شامل ، فعلى الاقل من اجل تسوية تحول دون تجدد اطلاق النار » وبين الضغط الامريكي على اسرائيل . واضافت غولده مئير : « ان رئيس الولايات المتحدة ليس وجها جديدا علينا . وعندما اجتمع بجماعة من اليهود قبل الانتخابات سأله احدهم عما اذا كان مستعدا للضغط على اسرائيل لفرض حل ، في حال اعادة انتخابه ، فأجاب : أنتم تعرفون اسرائيل ، ولو انني اريد ان اضغط فهل هذا ممكن ؟ » وبناء على ذلك ، تعتقد غولده مئير انه من غير الممكن فرض امر على اسرائيل يعرف انه يتناقض مع مصلحتها الحيوية .

ان تكون الولايات المتحدة قادرة او عاجزة عن الضغط على اسرائيل — هو مجرد احتمال اسرائيلي بالقوة يسعى تأكيده والتظاهر به الى تغطية الموقف الامريكي من جهة ، والى اشاعة الامان في وعي الرأي العام الاسرائيلي من جهة اخرى . فان غولده مئير ذاتها قد اوضحت في المقابلة الاذاعية ذاتها ان المصالح الامريكية هي التي توجه السياسة الامريكية . ومن هنا ، فان السؤال الوحيد المعقول هو : هل طرأ على المصالح الامريكية بعد اعادة انتخاب نيكسون ما يستدعي تغيير الموقف الامريكي من الصراع في الشرق الاوسط . ولقد سئلت رئيسة الحكومة الاسرائيلية عما اذا كان وجه رئيس الولايات المتحدة في فترة الرئاسة الاولى هو الوجه نفسه في فترة الرئاسة الثانية ؟ فأجابت : « هذا سؤال له ما يبرره . واضح انه رئيس الولايات المتحدة وعلينا دائما ان نذكر ذلك . وواضح ان للولايات المتحدة مصالح ، ولا يمكن ان نطلب من الدولة الكبرى الصديقة ان تتخلى عن مصالحها الحيوية من اجلنا . فالعالم غير مركب على هذه الصورة . ولكن من خلال مقابلاتي معه رأيت انه فعلا يدرك مشاكلنا ويتفهمها ويتعاطف معنا . وفي احدى المرات سررت جدا — استطرادا للحديث عن المصالح — عندما قال لي : عليك ان تعرفي ان ما أفعله الان — وكان قد قرر اشياء مهمة جدا — ليس نابعا من علاقتي باسرائيل ، بل انها مصلحة امريكية اولا ان تكون اسرائيل قوية » .

اذن ، ما هو مصدر بعض علامات القلق التي تظهر من بعض تصريحات المسؤولين الاسرائيليين بمجرد حديثهم عن « احتمال الضغط » والقدرة على مقاومة الضغط ؟ لقد سجلت صحيفة « هارتس » تاريخ الاطمئنان الاسرائيلي من اللحظة التي اقتنع بها الاسرائيليون بأن واشنطن توقفت عن ذكر « مشروع روجرز » . وكتبت الصحيفة (٢٠/١٠) : « لقد كان الرأي المتفق عليه في القدس منذ بداية عام ١٩٧٢ انه بعد الانتخابات الامريكية ليس الحكم الجمهوري الذي يريد رئيسه ان يعاد

انتخابه — معنيا بابراز خلاف مع اسرائيل . وقد كف الامريكيون عن ذكر « مشروع روجرز » . وربما تكون فترة الهدوء السياسي قد بدأت قبل ذلك بعد محادثات رئيسة الحكومة مع نيكسون في البيت الابيض قبل حوالي العام . وعلى اية حال، فان الهدوء العملي في القدس بدأ فقط بعد انتهاء محادثات القمة في موسكو » .

على الرغم من هذا الهدوء ، فان الصحيفة تسجل علامات طفيفة من « اللاهدوء » . من هذه العلامات ما قاله جوزيف سيسكو ، قبل فترة ، دفاعا عن مشروع روجرز في حديث مع التلفزيون الاسرائيلي. وآراء بعض الديبلوماسيين الامريكيين بشأن المشروع اياه . وعدم حدوث تغير على الراي الامريكي القائل ان اسرائيل بالغت في حملتها على مشروع روجرز .

لكن ذلك كله ليس كافيا لان يصرح موشه ديان بأن « هنالك مصاعب متوقعة من الامريكيين » . اين مصدر القلق اذن ؟ يقول المعلق السياسي دان مرغليت في مقال نشره في « هآرتس » (١٠/٢٠): « اذا اخذنا بعين الاعتبار ان موشه ديان يريد الاكثار من الاحاديث والاتصالات مع مصر ، فينبغي علينا ان نفترض انه يرى « المصاعب » مع واشنطن ناشئة من الجانب الشرقي بالذات : من المحاولة الامريكية المستمرة لحث اسرائيل على عقد اتفاق مسبق مع الملك حسين » . واضاف الكاتب في مكان اخر من مقاله : « تفترض الاوساط السياسية في القدس ان واشنطن لن تزيد ضغوطها على اسرائيل في المنطقة المصرية على الرغم من انها النقطة التي تعنى اسرائيل بالتوصل الى تسوية معها تسبق التسويات مع سائر البلدان العربية . ويبدو ان الولايات المتحدة مستعدة للانتظار زمنا طويلا بشأن التسوية مع مصر الى ان تنضج الظروف الكفيلة باقناع السادات باجراء مفاوضات مع اسرائيل » .

ينتج عن ذلك ان مصدر القلق الاسرائيلي من امكانية الضغط الامريكي صادر عن سعي الملك حسين الى تسوية مع اسرائيل . ويقول كاتب المقال في « هآرتس » : « ان الصعوبة كامنة في حسين ، فانه سيعود الى واشنطن بعد زيارة ديان بفترة . ويمكن الافتراض ان الامريكيين سيستغلون هذه الزيارة للاطلاع عن كثب على تطورات آراء موشه ديان . هل يقترح الضم ؟ أم أن ثمة اساسا لراي اخر يقول ان ديان لم يغلق الباب ، نهائيا ، امام المفاوضات ، ولكنه يعبر عن رأيين : الاول — ان الطريق الى الاتفاق الشامل مع العرب لا يزال بعيدا ، ولذلك لا بديل للوضع الراهن . والثاني — ان حديثه عن وجود ميل لدى سكان الضفة الغربية الى الاردن ، دون وجود ميل لدى حكومة حسين الى نابلس والخليل — لا يعبر الا عن تعميق الوضع والمجرى القائمين . ومن هنا فسيكون للامريكيين ما يناقشون به آراء ديان وخاصة تشككه في جدوى التفاهم مع الملك حسين . لان الامريكيين معنيون بتسوية اسرائيلية — اردنية . وسيعبرون عن ذلك بوضوح اكبر بعد انتخابات الرئاسة . ومن هنا، يرى المسؤولون السياسيون في القدس ان مستقبل الاتصالات الاسرائيلية — الاردنية سيكون نقطة خلاف كبير بين اسرائيل والولايات المتحدة اكثر من مستقبل الاتصالات مع الدول العربية الاخرى . ويمكن القول ان هذه النقطة هي نقطة الخلاف الجوهرية .

والجدير بالذكر ، في هذا السياق ، ان غولده مئير ، في حديثها الاذاعي (١١/١٠) قد اشادت « بشجاعة » الملك حسين واعلنت انها تصدق رغبته في عقد سلام مع اسرائيل ، « انني واثقة من صحة اقوال الملك . انه يريد سلاما » . ولكنها لم تعلن استجابتها لرغبة الملك ، الامر الذي يخلق انطباعا بأن الحكومة الاسرائيلية لا تتحمس، الان ، لعقد اتفاق منفرد مع الاردن .

ويعتقد كاتب اخر في « هآرتس » أ. شفيتسر في مقاله عن « قوة الامر الواقع » (١٠/٢٠) « انه في عام ١٩٧٣ وما بعده ، لن يكون الشرق الاوسط منطقة لنشاط سياسي كبير من الدول الكبرى . ومن هنا ، فاذا حدث تزحزح في النزاع العربي — الاسرائيلي فستكون دوافعه من داخل المنطقة ذاتها . وكما تبدو الامور الان ، فان مثل هذا التحرك من داخل المنطقة غير متوقع ». لماذا ؟ « لان الوضع مريح لاسرائيل في المدى القصير . ورجال الدولة لا يتطلعون ، عادة ، الى تغيير وضع مريح . اما العرب ، فانهم يبدون وكأنهم لا يملكون قوة جعل الوضع غير مريح لاسرائيل — او تقديم تسوية لاسرائيل تدفع السياسيين الاسرائيليين الى المخاطرة براحة الظروف الحالية. ويحتاج المرء الى خيال جامح ليصدق ان القاهرة

تستطيع اغراء اسرائيل بظروف افضل مما تملكه الان . وكذلك الامر بالنسبة الى الاردن . فالملك جاء ليعقد صفقات مع اسرائيل بايد فارغة ، بينما الفلسطينيون لا يملكون ايدي » .

والخلاصة ! ان اسرائيل « لن تخرج من الضفة الغربية لاعتبارات المدى البعيد فقط — فالاعتبارات الفورية تؤكد افضلية الوضع القائم . واذا لم يلزم الاردنيون والفلسطينيون اسرائيل على اخلاء الضفة الغربية ، او قسم منها ، فلن يكون انسحاب » .

ويعترض الكاتب على طريقة قيام الاسرائيلي بتخويف نفسه بفزاعة اسمها « نيكسون الثاني » ويؤكد ان نيكسون سيمضي في سياسته الموالية لاسرائيل . ويستخلص من كل ذلك انه لا مفر من المحافظة على الامر الواقع . « حتى اذا اراد بعض الحكام اجراء تعديل على الامر الواقع ، فمن المشكوك به ان يحظوا بتأييد الجمهور . ليست في اسرائيل اكثرية ولا اقلية تتطلع الى اجراء مثل هذا التعديل . وليس على الجانب الثاني قوة سياسية قادرة على تشجيع مخاطرة اسرائيلية بالتغيير . قد يكون المتهمون هم العرب وقد يكونون الاسرائيليين . ولكن من ناحية النتائج ليس للامر اهمية عملية » !

م . د .

صدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

تهويد فلسطين

اعداد وتحرير الدكتور ابراهيم ابو لغد

ترجمة الدكتور اسعد رزوق

اثنا عشر مقالا تحليليا حول قضية فلسطين بقلم اثني عشر استاذا جامعيا مختصا في جوانب القضية ، مع تصدير للمؤرخ العالمي ارنولد توينبي .

تتدرج موضوعات الكتاب في اربعة عناوين ، اوضح القسم الاول الرؤيا في الفكر الصهيوني وشرح الاطماع ومقاصد الحركة الصهيونية ، كما بين وسائلها لتحقيق هذه المآرب ، موضحا في القسم ذاته العلاقة العضوية بين الصهيونية والامبريالية الغربية . اما القسمان الثاني والثالث فهما اهم اجزاء الكتاب ، ركز الثاني حول حركيات استلاب الارض عبر تعبيره عن الوضع الاجتماعي في فلسطين المحتلة ومساوىء نظام الملكية ، الامر الذي ادى لتمركز ملكية الارض في ايدي التجار والغائبين ، كما بين بتحليل ديموغرافي تطور مراحل تحويل فلسطين من شعب واحد يضم فئة يهودية قليلة ، مندمجة كليا فيه ، الى مواطنين من مهاجرين غربيين ، واحلال مجتمع مكان آخر ولغة محل ثانية ، وتحويل السكان الاصليين الى مهاجرين وشرح ما جرى ويجري من عداء للعرب واستعمال للعنف والارهاب لاجبارهم على ترك ارضهم . ويعرض القسم الثالث للمقاومة العربية تحت الانتداب البريطاني وتحليل السياسة البريطانية ازاء الانتفاضات العربية ولجان التحقيق ، مع تركيز خاص عن ثورة ١٩٣٦ يعتبر من افضل ما كتب عنها وعن آثارها . ويتطرق القسم الرابع والاخير تتمة لجوانب الموضوع للصراع العربي الاسرائيلي ويركز بصورة خاصة على القدس وتطورات وضعها السياسي المتغير .

٤١٣ صفحة ٨ ل.ل.

تضاف اجور البريد : ١٠٠ ق.ل. في البلاد العربية ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبه ، ٥٠٠ ق.ل. في سائر دول العالم

تقرير خاص حول مؤتمر التنمية الاردني

أ. م.

بين ١١ و١٣ تشرين الثاني الماضي انعقد مؤتمر التنمية الاردني في عمان تحت عنوان « شركاء في التنمية » بحضور ممثلين عن ٢٦ دولة عربية واجنبية و٤٢ منظمة وهيئة دولية واقليمية وخاصة. وحسب التعبير الرسمي فان الهدف من المؤتمر هو القيام بـ « دراسة عملية للتأكد من جدوى المشاريع وترابطها وتماسكها وقابليتها للتنفيذ ، والتعرف الى ميادين التمويل الخارجي ومصادره في ضوء الجدوى الاقتصادية للمشاريع واولويتها في الخطة » . وكانت الحكومة الاردنية قداعلنت عن انتهاء وضع الخطة ، التي استغرق اعدادها نحو العام في ٥ أيلول الماضي ، عندما عرضت على الملك حسين في ندوة عقدت في الجمعية العلمية الملكية واستغرقت ٩ ساعات ، استمع خلالها الى عرض مفصل عن جوانب الخطة ، وقد تحدث الامير حسن (الذي اشرف على اعدادها) ، ورئيس الوزراء ، عن أهداف الخطة ومشاريع الحكومة ، وشارك رئيس الجامعة الاردنية ، ورئيس المجلس القومي للتخطيط وعدد من المسؤولين في النقاش ، وكذلك تحدث ممثلون عن القطاع الخاص عن استعدادهم للمشاركة في تنفيذ الخطة ، كما تحدث امين عام اتحاد نقابات العمال (شاهر المجالي) عن دور العمال في الخطة . ثم عاد الامير حسن فعرض الخطة في ندوة خاصة على الدبلوماسيين الاجانب والعرب ودعاهم الى المشاركة في تنفيذ مشاريع الخطة (١٢ أيلول) . وتكرر عرض اهداف الخطة امام ممثلين عن المنظمات المتخصصة في الامم المتحدة وجمعيات اخرى (١٩ أيلول ١٩٧٢) .

وقد استكملت « تظاهرة » النظام الاقتصادية بعقد مؤتمر التنمية ، الذي وجهت فيه الدعوات الى عدد من الوزراء والمسؤولين الغربيين مثل وزير خارجية الولايات المتحدة ، والوزير البريطاني للتنمية فيما وراء البحار ووزيري الخارجية والمال الفرنسيين والوزير الالماني الغربي للتعاون الاقتصادي والامين العام للسوق المشتركة . بيد ان هؤلاء جميعهم لم يحضروا واوفدوا بدلا عنهم ممثلين عن حكوماتهم . وقد وجهت الدعوة الى عدد كبير من الدول الاوروبية الغربية والى اليابان واوستراليا وكندا والاتحاد السوفياتي .

وعلى الصعيد العربي فقد وجهت الدعوات الى عدد من الدول العربية والهيئات الاقتصادية مثل الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية وصندوق الانماء في ابو ظبي والى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية وغيرها من المنظمات والهيئات. وبصورة عامة فان ما يمكن لمسه بسهولة هو غياب الدول العربية عن المؤتمر ، باستثناء السعودية ودول امارات الخليج ، التي شاركت حكوماتها ومؤسساتها التمويلية . وكانت المشاركة الاساسية من الولايات المتحدة والمانيا الغربية وبريطانيا واليابان والسوق الاوروبية المشتركة ، ومن المؤسسات المتخصصة في الامم المتحدة وعدد كبير من المؤسسات والجمعيات الامريكية الدينية وغيرها ، ومن المؤسسات الخاصة شارك بنك الاعمار الغربي ، شركة ميتسوبيشي اليابانية ، بنك كريدي ليونيه (لبنان) ، فيلبس ، مجموعة الفا ، مؤسسة فورد فاونديشن ، منظمة كير العالمية .. الخ

من الواضح ان هذه « التظاهرة » الاقتصادية ، التي انتظمت في عمان ، كانت بهدف انجاح خطة التنمية الثلاثية التي يراهن بها النظام على معالجة الوضع الاقتصادي المتدهور وخاصة بعيد أيلول ١٩٧٠ . ولعل ابلغ تعبير عن هذا الوضع هو ما ننقله من مقدمة خطة التنمية نفسها : « منذ

عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧١ كان متوسط نمو الانتاج القومي الاجمالي للاردن ٣،٨ ٪ فقط مقابل ١١ ٪ سنويا بين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٦ ، اذ بلغت معدلات نمو القطاعات الاقتصادية على النحو التالي : الزراعة ١ ٪ ، الصناعة والتعدين والكهرباء والماء ٤،٦ ٪ ، قطاع الانشاءات ٥،٤ ٪ ، قطاع الخدمات ٥ ٪ ، ٢ ٪ — انخفاض فرص العمل في الضفة الشرقية ، وتوقف المشاريع الكبرى مترافقا مع نزوح ٤٠٠ الف مواطن الى الضفة الشرقية ، ٣ — هجرة العمال والعقول خارج الاردن ، ٤ — خسارات في الدخول الاخرى ، فقد انخفض الدخل من السياحة من ١١،٣ مليون دينار عام ١٩٦٦ الى ٣،١ مليون دينار عام ١٩٧١ ، كما انخفضت تحويلات المواطنين العاملين في الخارج من ١٣ مليون دينار عام ١٩٦٦ الى نحو ٥ ملايين دينار عام ١٩٧١ . ٥ — زيادة اعتماد الموازنة العامة على المعونات المالية الخارجية ، فقد ارتفعت نسبتها الى الايرادات العامة (ما عدا القروض والمساعدات الاقتصادية والفنية) من ٢٥،٤ ٪ عام ١٩٦٦ الى ٥٠،٤ ٪ عام ١٩٧١ . ٦ — تكرار العجز في ميزان المدفوعات ، الذي بلغ اكبر عجز له في عام ١٩٧١ وبلغ ١٥،٣ مليون دينار ، وكان عام ١٩٦٩ ١١ مليون دينار وعام ١٩٧٠ ٥،٣ مليون دينار .

ازاء هذا الوضع الاقتصادي المتردي تستهدف الخطة، كما أعلن عنها، تحقيق أعلى مستوى ممكن من العمل والتشغيل ، وتحقيق أعلى معدل نمو ممكن في الانتاج القومي وتوزيع الخدمات العامة بين مختلف مناطق الاردن وفئات المواطنين وتخفيض العجز في الميزان التجاري وتدعيم ميزان المدفوعات وزيادة اعتماد الموازنة العامة للدولة على الموارد المالية المحلية بدلا من المساعدات الخارجية . وتقدر الخطة انها ستخلق ٧٠،٠٠٠ فرصة عمل . وأن ترفع الدخل المحلي الاجمالي من ٢١٧ مليون دينار في العام الحالي الى نحو ٢٧٣ مليون دينار عام ١٩٧٥ . وتهدف الى رفع معدل الدخل الفردي من ١٠٦ دنانير في العام الحالي الى ١٢٣ دينارا عام ١٩٧٥ . وتأمل الخطة ان ترفع واردات الدولة المحلية من نحو ٣٩ مليون دينار (١٩٧٢) الى نحو ٥٤ مليونا عام ١٩٧٥ . وتتوقع ان ترتفع قيمة الواردات الاردنية تدريجيا خلال السنوات الثلاث بحيث تصل الى ١٠٧ ملايين دينار عام ١٩٧٥ . وتقول ان الجزء الاكبر من الزيادة في الواردات سيتمثل في استيراد الالات والمعدات اللازمة للمشاريع الجديدة . كما تتوقع ان ترتفع قيمة الصادرات من نحو ١٥ مليون دينار في العام الحالي الى نحو ٢٣ مليون دينار عام ١٩٧٥ . وحسبما هو مقدر في الخطة فان القطاع العام يساهم بنحو ١٠٠ مليون دينار في تمويل مشاريعها، وذلك عن طريق الوفر الحكومي الحالي، والاقتراض الداخلي والخارجي والمساعدات الاقتصادية والفنية الاجنبية (١٠،٤ مليون دينار وفر حكومي سنوي ، ٤٧،٧ مليون اقتراض داخلي ، ١٦،٥ مليون مساعدات خارجية عينية ونقدية ، ٥٣ مليونا قروض) . اما مساهمة القطاع الخاص فمقدرة بنحو ٨٠ مليون دينار ، وهناك مساعدات خارجية للقطاع الخاص تقدرت بـ ٨ ملايين دينار . ولتوفير مصادر التمويل هذه ، تدعو الخطة الى تحسين أساليب جمع الضرائب من المواطنين ، وفرض ضرائب على الشركات وأرباح رؤوس الاموال . كما تدعو الى بذل الجهد للحصول على الايرادات الخارجية التي تقدر بمعدل ٤٠ مليون دينار مساعدات مالية سنوية لدعم الموازنة و٥٣ مليون دينار سنويا كقروض خارجية ونحو ١٦ مليون دينار سنويا كمساعدات اقتصادية فنية .

ولكن السؤال المطروح بحدة هو هل تستطيع خطة التنمية هذه أن تضع حدا للتدهور العام ، لا بل تطوير الانتاجية ، وقبل ذلك هل يستطيع النظام توفير مثل هذه الموازنة ؟ ان التجارب الانمائية السابقة لا تدعو الى التفاؤل . فبرنامج التنمية الزراعية الذي حددت مدته بخمس سنوات (٥٣/١٩٥٤ — ١٩٥٨/٥٧) ، قد اعتمد في رهانه على القروض البريطانية وقدرت اكلافه ٤٣،٨ مليون دولار ، الا ان البرنامج الذي رفضت بريطانيا تمويله عدل حتى بلغت اكلافه ١٣،٧ مليون دينار، غير ان المبالغ البريطانية التي قدمت لم تتجاوز ٤،٨ مليون دينار انفق منها اقل من مليون على قطاع الزراعة فيما تحول الباقي الى ميزانية الدولة .

اما برنامج التنمية للسنوات الخمس (١٩٦٢ — ١٩٦٧) ، فقد عدل عنه بعد عام وأعد بدلا منه برنامج السنوات السبع (١٩٦٢ — ١٩٧٠) ، الذي احدث تعديلات على المشروع السابق لكن البرنامج فشل فشلا ذريعا ، وانتقده الاقتصاديون الاردنيون كثيرا ، ورغم حديث الملك حسين في

مؤتمر التنمية عن الازدهار المتحقق قبل عام ١٩٦٧، فان المسؤولين عن التخطيط التنموي اعترفوا بوجود صعوبات واجهت الحكومة حالت دون تنفيذ خطة السنوات السبع وعن تخلي الحكومة نهائيا عن اكمالها . (حديث د. أحمد مراد الى جريدة الدستور ١٩٧٢/١٠/٧) ، كما اعترفت الخطة الثلاثية نفسها « بتلكؤ القطاع الخاص في الاستثمار او اقامة الصناعات او توسيع القائم منها » .

ليس من السهل هنا معالجة المدى الذي يمكن ان تصيبه الخطة من النجاح ، فالمشكلة الاساسية ، وهي المتعلقة بالتمويل ، لا يمكن التكهن بها قبل ان يمر بعض الوقت لمعرفة الجهات المستعدة للتمويل وحجم اسهاماتها ، واذا وضعت التجارب السابقة في الاعتبار فان مشكلة التمويل تظل عقبة اساسية . وبشكل عام فان تقدير بعض الخبراء الاجانب في المؤتمر عن بقاء عجز قدره ٨٠ مليون دينار بدون تغطية هو تقدير يؤخذ بالحسبان (النهار الاقتصادي ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٢) . كما ان هناك عقبات اخرى مثل مدى تلبية الخطة للحاجات الراهنة والمستقبلية للاقتصاد المتدهور ، ووجود أداة فعالة قادرة على تنفيذ البرنامج ، وقبل ذلك ان تكون الخطة قد وضعت تقديرات سليمة للاحتياجات القائمة وامكانية تغطية نفقاتها ومدى ترابط الخطط الجزئية وتفاعلها ، وهي أمور يمكن القول دون مبالغة ان الخطط السابقة لم تعطها حقها من المعالجة .

ملاحظات على سياسة النظام ازاء الخطة :

١ ــ في الكلمة التي القاها الملك حسين عند افتتاح المؤتمر يمكن ملاحظة الامور التالية :

ــ قال ان المشاريع الانتاجية المباشرة في الخطة تركت عن قصد للقطاع الخاص ، « وانا ادعم هذا الاتجاه » . واضاف ان القطاع الخاص اثبت قدرته على التطلع الى الامام واستعداده للمجازفة والتعاون مع الجميع . وكلام الملك هذا مناقض لكل دروس الخطط التنموية السابقة ، حيث خيب القطاع الخاص الامال المعلقة عليه وهو الامر الذي تعترف به الخطة نفسها .

ــ واعلن الملك ان رأس المال الاجنبي يتمتع بالامتيازات نفسها التي يتمتع بها رأس المال المحلي . والواقع ان رأس المال الاجنبي يتمتع بامتيازات اكبر من تلك التي يتمتع بها رأس المال المحلي . (فقد صدر قانون جديد لتشجيع الاستثمارات الاجنبية في البلاد ومنحت تسهيلات واغراءات واعفاءات جمركية بشكل لم يسبق له مثيل . فهو يعفي المشاريع المقامة برؤوس أموال اجنبية من رسوم الاستيراد والرسوم الجمركية ، كما يعفي ارباحها الصافية من ضريبتي الدخل والخدمات الاجتماعية لمدة ست سنوات على الاقل، ومن ضريبة الابنية لخمس سنوات ، وبالاضافة الى اعفاءات اخرى فان القانون يجيز اعادة تحويل رأس المال الاجنبي الى خارج الاردن على ثلاثة اقساط سنوية متساوية بعد سنتين من مباشرة المشروع ، وفي حالات خاصة يجيز القانون تحويل رؤوس الاموال دون التقيد بالمدة او بالاقساط . وينص هذا القانون على تحويل الارباح والفوائد ورأس المال الاجنبي الى خارج الاردن بالعملة الاجنبية التي استورد بها او بأية عملة اجنبية اخرى قابلة للتحويل) . («الجريدة» اللبنانية ٣٠ تموز) . وقد كان القانون المذكور صدى لاتجاهات الخطة الثلاثية وتلبية لمتطلباتها .

ــ دعا الملك الى وضع قانون جديد للعمال ، « يوجه اتجاه وسلوك العمال » ، وتعكس هذه الدعوة رغبة النظام في تطويق الطبقة العاملة واغرائها « بسياسة الخبز » بهدف رفع الانتاجية وطمس حدة التناقضات الاجتماعية .

ــ اشار الى ان هدف النظام هو تحسين وضع المواطن في كلا الضفتين ، وتوفير كل المرافق والتسهيلات التي من شأنها تحسين احواله المعيشية . وقال « ان شقاء شعبنا ، اللاجئين والنازحين من فلسطين هو محط اهتمامنا الكبير ». وحول الملك مشكلة الشعب الفلسطيني الى قضية انسانية محضة ، فقد ربطها بكلام منسوب الى مكنمارا « مدير البنك الدولي » عن جماهير الفقراء في العالم وحاجتهم للعمل . واضاف الملك « انهم ــ اي الفلسطينيون ــ يسعون وراء قناعة بسيطة في العمل ، نحو شيء افضل ، نحو انهاء الشقاء والبدء في الامل » . ويمكننا ادراك مغزى حديث الملك ، عندما ننتبه الى مشاريع الاسكان ضمن الخطة الثلاثية ، التي تهدف الى توطين النازحين في الاغوار ، التي تهدف الى تصفية اوضاعهم وفك ارتباطهم بالقضية الفلسطينية ، ناهيك عن استثمار جهودهم في المشاريع الزراعية الراسمالية بأجور وظروف معيشية غير مؤاتية .

— تحدث الملك حسين عن احداث ايلول ، وما اصاب الاقتصاد من اضرار وخسائر جسيمة ، وجاء حديثه ليعرج على عودة « سيادة القانون والنظام » وعلى « الدرس » الذي تعلمه من ضرب المقاومة حيث قال : « لقد كان الدرس العملي الاول الذي استنتجناه خلال السنين الخمس الماضية ان **الامن والاستقرار** شرطان ضروريان للتخطيط والتنمية » . وهي دعوة مباشرة « للمعنيين بأمن المنطقة » ان يسارعوا في زيادة دعم النظام . كما عاد فأكد على هذه النقطة من خلال اشادته بالقوات المسلحة « **وبدورها في اعادة القانون والهدوء الى البلاد** » . ويجيب الملك عن تساؤل لا بد انه شغل خبراء التنمية حول تضخم النفقات العسكرية فيقول ، واذا كان هناك امرؤ يشك في معقولية نفقاتنا العسكرية فيتحتم عليه ان يتذكر ان ارضنا ما زالت محتلة ، وان محاولاتنا لتحقيق السلام ما زالت بعيدة عن التبلور « **.. كما ما زالت قوى الظلام والفوضى وعدم المسؤولية تعبث في منطقتنا** » (!؟) . لذلك « فان النفقات العسكرية تصبح لا مناص منها ولها ما يبررها » .

٢ — اما الامير حسن فقد اشارت كلمته الى ان قرار النظام بعقد المؤتمر كان « لبنة الاساس لانفتاحنا على العالم » ، وان الخطة الثلاثية تمثل نقطة تحول في طريق التنمية والتقدم .. كما انها **ستسهم في تأمين الاستقرار في المنطقة** . وقال ان المؤتمر سيكون جزءا من عملية مستمرة **لاقامة حوار مع الاسرة الدولية** .

ملاحظات حول وقائع المؤتمر ونتائجه المباشرة :

١ — حرص الملك على احاطة الوفود البارزة في المؤتمر باهتمامه الشخصي ، فمثلا نقل ممثلو السوق الاوروبية المشتركة بطائرته الهيلوكوبتر الخاصة وطار بهم فوق انحاء الاردن . ٢ — توزع اعضاء الوفود في المؤتمر في اليوم الثاني لانعقاده على لجنتين اساسيتين ، واحدة لمناقشة الجانب الاقتصادي والثانية لمناقشة الجانب الاجتماعي . وتحدث امام اللجنتين ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية وتايوان والبحرين والبرتغال بالاضافة الى ممثلي الوكالات المتخصصة للامم المتحدة . وابدوا استعدادهم لتقديم المساعدات للاردن والمساهمة في تنفيذ مشروعات الخطة . وقد قدمت اللجنتان الاساسيتان تقريرا عن مناقشاتهما في الجلسة الختامية للمؤتمر ، دعا فيه الحكومات والهيئات المختصة الى دعم الخطة . ٣ — قال وزير الاقتصاد الاردني عمر النابلسي ان مؤتمرا سيعقد في عمان في اوائل العام القادم (١٩٧٣) لتعريف المستثمرين الاجانب وتزويدهم بالمعلومات اللازمة . ومن جهة ثانية بدأت بعد المؤتمر مباحثات ثنائية بين الحكومة الاردنية والوفود المعنية بتمويل الخطة .

بشكل عام ، فان ما يمكن تسجيله على المؤتمر هو التالي : ● ان خطة التنمية والمؤتمر المخصص لها ، قد اعدا في ظروف وقف اطلاق النار على حدود المجابهة مع اسرائيل ، وفي ظروف خروج الاردن عن هذه المجابهة . لذلك عكست الخطة « الطابع السلمي » المهيمن على توجهات النظام ، حيث تأخذ السياحة مكانا مهما ، فتطور المناطق التي كانت حتى عامين مناطق عسكرية ومواقع للمقاومة الى مرافق سياحية . كما ان تطوير الزراعة في الاغوار ، ومشاريع التوطين والاسكان للنازحين في الاغوار يحمل ذات الطابع ، (راجع تقريرا عن خطة التنمية الثلاثية : شؤون فلسطينية عدد تشرين الاول ١٩٧٢) . ● ان توجه النظام الاردني لتمويل الخطة في هذه الظروف ، يلقي عطف الامبريالية والدول الغربية ورعايتها ، والتي تجد ان مصالحها الاقتصادية في المنطقة عموما ، (وخاصة البترول) ومصالحها السياسية باستقرار المنطقة ، تتطلب توفير حد ادنى من الاستقرار الاقتصادي والسياسي للنظام ، واعادة تركيب الاقتصاد المحلي على اسس اكثر ثباتا . ● ان الخطة تعكس واقع ازدياد اهمية المراتب البرجوازية في اجهزة الدولة ، وازدياد تمويل النظام على التكنوقراط والبيروقراطية في انجاح الخطة ، لما تحتاجه من متابعة في التنفيذ ، ولكون أجهزة الحكومة هي الاجهزة الوحيدة القادرة على متابعة تنفيذ الخطة بانتظام . وعلى الرغم من مراهنة النظام على القطاع الخاص ليلعب دوره في تنفيذ مشاريع الخطة ، فانه من المستبعد ان تذهب مساهمة القطاع الخاص الى الحد المقدر له (نحو ٨٠ مليون دينار) . ● ان مشاريع خطة التنمية الثلاثية ، تعبير اقتصادي ملموس عن اتجاه سياسي لدى النظام على ان حدود مجابهته مع اسرائيل تقف عند حدود قيام جهد سياسي من الولايات المتحدة او غيرها ، وانها لا تفترض ، ولا تحبذ قيام اية مجابهة مسلحة مهما كانت حدودها « كعودة المقاومة مثلا » .

رأي آخر حول مؤتمر الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تختتم شؤون فلسطينية بهذا الرأي سلسلة وجهات النظر التي أبديت حول الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين ، وتؤكد مرة اخرى ان جميع وجهات النظر هذه انما تعبر عن رأي كاتبيها . هذا ونعتذر لحذف بعض مقاطع هذا الراي لضيق المساحة .

تشكلت اللجنة التحضيرية بقرار من الجهة المسؤولة في منظمة التحرير ، ورغم ان قرار التشكيل راعى بعض النواحي ، الا ان ذلك لم يكن على حساب القضايا الفنية ، مما جعل اللجنة التحضيرية لجنة كتاب وصحفيين ، وعودة سريعة الى تلك القائمة تؤكد لنا صحة ذلك .

وعندما انبت اللجنة التحضيرية اجتماعاتها كان طابعها المميز ، ان اجتماعاتها اقتصرت بمعظمها على بعض الاعضاء ، لان سواهم من الاعضاء لم يحضر اي اجتماع على الاطلاق ، ومنهم من حضر اجتماعا واحدا ، ومنهم من كان يحضر لمدة دقائق من بعض الاجتماعات . ولم يكن بالامر مقاطعة اللجنة من قبل « كتابنا وصحفيينا الكبار !.. » كما ذكر واحد من الزملاء ، لان الذي كان يتغيب منهم عن جلسات اللجنة التحضيرية كان يعتذر لانشغاله بأمور أخرى او بمرض ، او لاي سبب آخر ما عدا « المقاطعة » ، التي لم نسمع بها الا بعد ان أعلنت نتائج الانتخابات !.. بل على العكس كان اول اجتماع للجنة التحضيرية نموذجا لمدى تفاهم المجتمعين ، حيث انجلت الامور عن ان الدعاية المسبقة كانت للتضليل ، واذكر ان احد الزملاء طرح في تلك الجلسة موضوع الامانة العامة السابقة والتي كان يرئسها المرحوم خيري حماد ، وبمنتهى العفوية والبساطة أجمع الحاضرون على ان فكرة تجاهل الامانة العامة السابقة امر غير وارد ، وطريقة طمس الواقع مرفوضة ، لان هناك اتحادا وهناك امانة عامة ، الا أن الجمود الذي يعيشه اتحاد كتاب فلسطين (بغض النظر عن السبب ...) ، أمر يتنافى والمسيرة الثورية الفلسطينية ، وتطورها ، لذلك كان لا بد من تحريك هذا الاتحاد ، ولن يكون ذلك بالترقيع ، اذ لا بد من اعادة تقييم جميع الامور ، واشراك اكبر قسم ممكن من قاعدة حملة الاقلام . وكان اول عمل للجنة التحضيرية ان طلبت ، وبحضور رئيس دائرة الاعلام والتوجيه القومي ، اضافة اعضاء الامانة العامة السابقة الى اللجنة التحضيرية . وهذا ما تم فعلا . والامور كانت تسير على خير ما يرام ، ولم يبد لنا خلال اجتماعات اللجنة التحضيرية ، ما يفسر نية احد المبيتة « بابتلاع » المؤتمر .

نعود للجنة التحضيرية ، فنقول ، أنها كانت جادة للوصول الى مؤتمر للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، أقرب ما يكون الى الكمال ، فيحقق الانسجام بين أعضائه ، ليساهم عمليا في تأكيد الوحدة الوطنية الفلسطينية ، ويعطيها دفعا الى الامام ، من ناحية ، وليكون ، من ناحية ثانية ، مناسبة عالمية يعطي من خلالها صورة اكثر وضوحا عن ثورة شعبنا وحقه، للهيئات والاشخاص البارزين ، ولم يكن ذنب اللجنة التحضيرية ، ان تكون هدفا للانتقادات اللاذعة ، ومن جانب الذين يعتبرون انفسهم اعضاء طبيعيين وازليين في كل لجنة او هيئة تشكل . ومن ناحية ثانية ، لم يكن ذنب اللجنة التحضيرية ان تعمل وعلى مبدأ انقاذ ما يمكن انقاذه ، في ظروف تغيب بعض اعضائها .

وصلنا الى المؤتمر ، ولم يكن كما اردنا له ان يكون ، ولكن ورغم ذلك ، فانه كان مؤتمرا له حسناته التالية :

اولا : جمع اكبر قسم من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الموزعين بين اكثر من قطر عربي وعالمي ، في تظاهرة لا تخلو من الايجابيات ، خاصة ضمن تلك الظروف من حيث الزمان والمكان .

ثانيا : بفضل انعقاده ، التقى عدد كبير من مثقفينا ، وتبادلوا الاراء التي لا تخلو من فائدة .

ثالثا : قام عدد كبير من اعضاء المؤتمر بزيارات عديدة لقواعد اخوانهم المقاتلين ، وتعايشوا معهم أوقاتا أوحت بكتابة اكثر من موضوع ، اغترفت مادته من ارض الواقع . **رابعا** : الى جانب تكريم المؤتمر لشهداء الثورة الفلسطينية ، كرم الذين أعطوا الثورة قسطا كبيرا من دمائهم واستمروا احياء بعد ذلك ، امثال الاخ بسام ابو شريف ، والدكتور انيس صايغ ... ورغم اننا لا ننفي بعض النقائص التي عانى منها المؤتمر الا ان فارقا كبيرا ، بين كلمة الحق التي نحترمها ، وكلمة الحق التي أريد لها باطل .

والان لنناقش الامر بموضوعية ما أمكن ، لا دفاعا عن الاخطاء ، بل اجلاء لها ، ليمكن تحاشيها في مناسبات مقبلة .

كتب زميل مقالا انتقاديا ، جاء فيه : « ان الامانة العامة التي انبثقت عنه — يقصد المؤتمر — اصبحت معزولة منذ تشكيلها [ولا اقول انتخابها والكل يعرف لماذا] فوقعت في المطب الذي كانت تأخذه على الامانة السابقة ، رغم حرمان تلك الاخيرة من كثير من حقوقها على المنظمة » .

طبعا ليست الامانة العامة الجديدة معزولة ، والدليل القاطع على ذلك ، انها تكاد تفرغ قريبا من عملية تشكيل فروع الاتحاد في الاقطار العربية. ثانيا ، سوف تتعرض الامانة العامة التي سيكون عضوا فيها للانتقاد التهجمي من قبل زميل غير راض عن المؤتمر ونتائجه ، وهكذا ... واستطرد هذا الزميل ، ليقول « كشف المؤتمر — ولعل هذه احدى ايجابياته — اخلاقية بعض العاملين في الثورة من المثقفين البورجوازيين الذين يمارسون عكس ما يزعمون لانفسهم من مواقف ثورية . اذ اتضح منذ اليوم الاول للمؤتمر ان كل هذا التجمع ليس الا « ديكورا » لاسباغ الشرعية على عدد من الافراد كقادة للكتاب والصحفيين الفلسطينيين » .

وهنا أكتفي بالقول ان استعراض اسماء الامانة العامة الجديدة ، يكفي ليؤكد للزميل وللاخرين ، ان معظم هذه الاسماء ، يحملها أدباء وصحفيون معروفون ومناضلون فعليون ، ولهم تاريخ نضالي قريب .

والان ، لا بد من الاهتمام بالناحية الايجابية ، ولا بد لنا من اشعال شمعة واحدة على الاقل ، والا فاي امانة عامة لاي اتحاد لا يمكنها ان تفعل شيئا ، ان هي لم تلق الدعم الكامل ومن الجميع ، لتتجاوز المنعنات وضيق الافق ، والتعصب التنظيمي ، ولنجعل نظرتنا اكثر شمولا ، لنعرف اين نقف كشعب ، واين اصبحنا كقضية ، ولنجعل محور أعمالنا واقوالنا ، قضيتنا لانها للجميع ، واما مسائل الافراد واحاسيسهم وانفعالاتهم ، وعقدهم احيانا ، وتطلعاتهم الشخصية احيانا أخرى ، فكلها أمور يجب ان نترفع عليها ، لنقابل العالم كشعب موحد الصفوف والاهداف .

والامانة العامة الجديدة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين مسؤولة ونحن معها عن : ١ — اعادة تنظيم فروع الاتحاد ، بشكل يجعل منها فروعا عاملة منتجة ، لا مجرد فروع تنتظر الانتخابات العامة للاتحاد ، وقبل ذلك وبعده لا عمل لها ، حيث يكتفي المسؤولون في كل فرع ان يلقوا بالمسؤولية على الامانة العامة للاتحاد . ٢ — عن طريق الفروع ايضا ، لا بد من تمتين العلاقة مع اتحادات الكتاب والصحفيين المحليين في الاقطار العربية ، وكذلك مع جميع المنظمات الشعبية الاخرى . ٣ — تمتين العلاقة مع جميع الاتحادات والنقابات العربية والعالمية ، لامكانية اسهام اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين اسهاما يتناسب وحجمه في العمل لقضيتنا الاساسية . ٤ — اعداد دراسة ميدانية ، ان امكن ، عن الادباء العرب في الارض المحتلة ، لامكانية دعمهم ماديا وادبيا ، بما هو اجدى من التباكي على احوالهم . ٥ اعداد دراسة ايضا ميدانية ، عن أحوال الكتاب والصحفيين الفلسطينيين المتواجدين في الاقطار العربية ، وعن كتب تهم قضاياهم ، الخاصة منها والمهنية ، لامكانية دعمهم والاخذ بيدهم ، وحل مشاكلهم . ٦ — اصدار نشرة غير دورية في البداية باسم الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، وذلك ليساهم الاتحاد بوضع حد لاعلام الثورة الذي كثيرا ما تشده الاساليب الاعلامية البالية في المنطقة الى جانبها ، وبذلك يكون عطاء الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الى جانب كونه موحدا ، اكثر جدوى وفائدة . ٧ — واخيرا على الامانة العامة للاتحاد أن تحدد النقاط الاساسية التي لا يحق لاي كاتب فلسطيني الخروج عليها ، وتحت اي حجة ، مثل دعم الثورة الفلسطينية ، والوحدة الوطنية الفلسطينية ... الخ .

أنيس الخطيب

الخطوط الجوية الكويتية

شبكة خطوط عالمية تغطي مختلف بقاع العالم العربي وأوروبا والشرق الأوسط بطائرات بوينج ٧٠٧ النفاثة

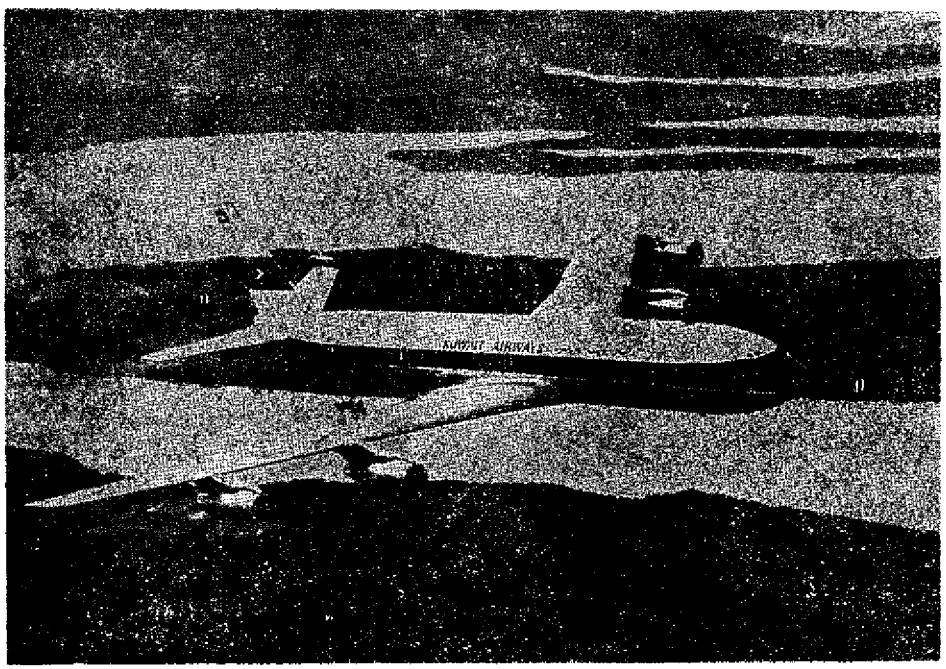

مكاتب رئيسية في كل من :

الكويت ـ البحرين ـ الدوحة ـ دبي ـ الظهران ـ عدن ـ عمان ـ دمشق ـ بيروت ـ القاهرة
طهران ـ عبدان ـ اثينا ـ جنيف ـ فرانكفورت ـ باريس ـ روما ـ لندن ـ نيويورك ـ هيوستون
شيكاغو ـ ديترويت ـ تورونتو .

قيل في قديم الزمان

إذا ضاعت الأمانات... خبّي مخزنك عبّك

واليوم يُقال اجعل مخزنك صُندوق

سيكور

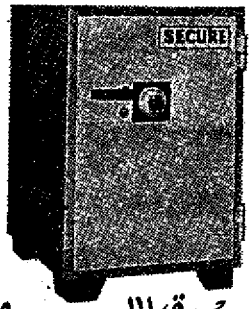

الذي لايسرق!!! ولايحرق!!!

نجار كونتيننتال

فرع طرابلس : ممدوح النملة واولاده شارع ويغان والصنائع .

غسان كنفاني

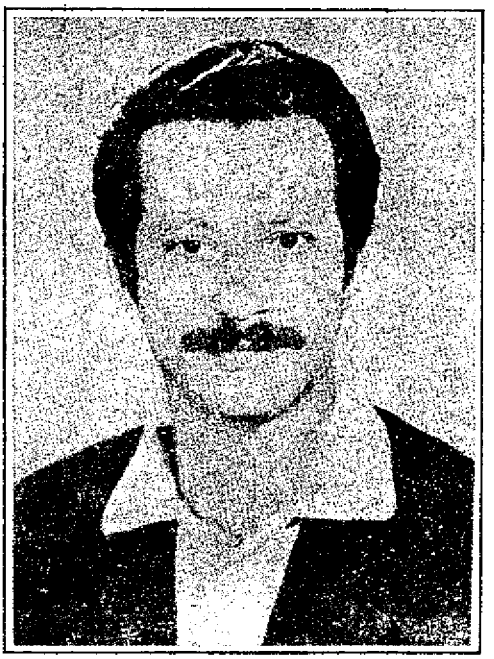

المجلّد الأول

رجال في الشمس
ما تبقى لكم
عائد إلى حيفا
أم سعد
العاشق
الأعمى والأطرش
برقوق نيسان

الآثار الكاملة للكاتب المناضل
الشهيد تصدر في مجلّدات

المجلد الأول
يصدر قريباً